تشارلز ديكنز

متجر التحف القديم

الرواية الكاملة

فريق متميزون
E-BOOK

ترجمة: ريهام سمير سعد


تشارلز ديكنز
متجر التحف القديم
رواية
الجزء الأول
فريق
متميزون
E-BOOK
ترجمة :ريهام سمير سعد
AFAQ BOOKS

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

متجر التحف القديم

تشارلز ديكنز

ترجمة: ريهام سمير سعد

الجزء الأول

عن الرواية..

نشرت هذه الرواية لأول مرة بين عامي ١٨٤٠ و١٨٤١، ويقال أن الإثارة التي سببتها تلك الرواية بعد نشرها كانت مماثلة لما سببته سلسلة هاري بوتر في العصر الحديث.
رواية متجر التحف القديم هي من روائع الأدب الانجليزي، وهي رواية تترجم ترجمة كاملة لأول مرة وتصدر في مجلدين، وهي الرواية التي قرأتها فيكتوريا ملكة بريطانيا وقالت عنها إنها "مثيرة جدًا للاهتمام ومكتوبة بذكاء" وكيف لا تقول هذا وهي رواية كتبها تشارلز ديكنز الذي يعد أعظم الروائيين الإنجليز في العصر الفيكتوري بإجماع النقاد وأحد أعظم كتاب اللغة الإنجليزية على مر العصور بإجماع النقاد والقراء معا...
وبسبب شعبية روايات ديكنز لم تتوقف طبعاتها أبدًا في كل لغات العالم حتى اليوم. ترى ما الذي يجب على جد، متحمس للحياة، فعله حتى يؤمن لحفيدته، المراهقة الجميلة، مستقبلًا مشرقًا مختلفًا تمامًا عن حياة والديها الراحلين؟ خاصة أنه وحفيدته لا يملكان من الدنيا إلا المتجر القديم؟ سوف يتعجب القارئ من المغامرات التي سيتم خوضها في هذه الرواية الفذة الشيقة..

تقديم...

تشارلز جون هوفام ديكنز Charles John Huffan Dickens المعروف عالميًا باسمه الأدبي تشارلز ديكنز، هو الروائي والناقد الإجتماعي والكاتب الإنجليزي، الذي عرف ب "أديب الفقراء". ولد تشارلز ديكنز في السابع من فبراير عام 1812 م في لاندبورت بورتسي، وهي مدينة ساحلية تقع جنوبي إنجلترا. وكان هو الطفل الثاني من بين ثمانية أطفال، عمل والده جون ديكنز كاتبًا بحريًا، وعملت والدته إليزابيث ديكنز معلمة.. تطلع والداه إلى أن يكونا أغنياء، وعلى الرغم من جهودهما الحثيثة، ظلت عائلتهما فقيرة. في عام 1816 م، انتقلت الأسرة إلى شمال شرقي إنجلترا إلى تشاثام، كينت، حيث كان لتشارلز وأشقائه حرية التجول في الريف ورؤية قلعة روشيستر. في عام 1822 م، انتقلت العائلة إلى بلدة كامدن، وهي أحد الأحياء الفقيرة في لندن. وحينها تدهور الوضع المالي أكثر من ذي قبل، واضطر والده إلى السلف والدين، وحين لم يستطع السداد، تم الزج به في السجن. حينها كان تشارلز يبلغ من العمر اثني عشر عامًا فحسب. ونتيجة لسجن والده، اضطر تشارلز ديكنز إلى ترك المدرسة والعمل في مصنع للصبغة السوداء - مادة لتنظيف المواقد - على ضفاف نهر التايمز. كان يتحصل منه على ستة شلنات أسبوعيًا، وكان ذلك العمل الشاق هو طريقته الوحيدة للمساعدة في إعالة عائلته. ودع تشارلز براءة طفولته، وانتابه الشعور بأنه تم التخلي عنه، وأن الكبار الذين كان من الواجب عليهم أن يعتنوا به قد خانوه.. ظلّ ناقمًا، هائمًا، يهوى السير بمفرده، يعاني من تجارب طفولته الشقية، وعلى الرغم من الصراعات التي كان يعانيها في طفولته، كان ينتهز أوقات فراغه من عمله الشاق، ويداوم على القراءة والاطلاع على الكتب، حتى تلقت عائلته إرثًا استخدمته في سداد الديون، ومن ثمَّ إلتحق بالمدرسة مرة أخرى، لكنه تركها ثانية في عام 1827 م؛ للعمل مرة أخرى، للمساهمة في دخل الأسرة. عمل ساعيًا ثم وجد عملًا مستقلًا في محاكم لندن القانونية، وبعدها شرع في كتابة تقارير لاثنتين من الصحف الكبرى، أتاح له هذا العمل الصحفي أن يتمرن على حرفة الأدب، وأن يتأمل مستطلعًا أحوال الناس على مختلف مستوياتهم الإجتماعية والأخلاقية، وحياتهم البائسة التي كانت خارجة عن القانون في أغلب الأحوال، ومن هنا وُسِّعت آفاقه وأُرهِّف حسه الأدبي والإنساني. في في عام 1833 م بدأ بتقديم مسرحيات هزلية وقصص قصيرة للعديد من المجلات والصحف تحت الاسم المستعار "بوز".

في سن الرابعة والعشرين في عام 1836 م أصدر أول رواياته بعنوان "مذكرات بيكويك". وقد لاقت نجاحًا عظيمًا، وجعلته من أكثر الأدباء الإنجليز شعبية وشهرة، ومن أشهر أعماله:

أوليفر تويست
ترنيمة عيد الميلاد
دافيد كوبلرفيلد
أوقات عصيبة
الآمال كبرى
قصة مدينتين.

تزوج تشارلز ديكنز من كاثرين هوغارث، وأنجبت له عشرة أطفال. ومن الجدير بالذكر أن نجاحه هو ما لفت انتباهها، كانت كاثرين مؤلفة بارعة ورفيقة سفر رائعة، لكنهما انفصلا في خمسينيات

القرن التاسع عشر، وفي نفس الوقت حلت بديكنز خسارتان مدمرتان، هما: موت ابنته ووالده. في عام 1857 م إلتقى بممثلة شابة تدعى إيلين تيرنان "نيل" في الثامنة عشرة من عمرها، وقد كان آنذاك في الخامسة والأربعين من عمره، وتورط في علاقة عاطفية معها.
نظرًا لظروف طفولته القاسية، والتجارب المؤلمة التي مر بها، وما تركته من انطباعات عميقة في وجدانه، تمحورت كتاباته وقصصه ورواياته حول المآسي والمعاناة التي يتعرض لها الأطفال بسبب الظروف الإجتماعية السائدة في إنجلترا في عصره "العصر الفيكتوري"، عادةً ما كان يجعل أبطال رواياته أطفالًا يعانون كثيرًا في حيوات مريرة بائسة من العذاب والضياع، واصفًا الأحياء الفقيرة بكل تفاصيلها وبكل الصراعات التي كانت تدور فيها، تجلت عظمة ديكنز في أنه كرس معظم حياته في كتابة المقالات وتأليف القصص والروايات وإلقاء المحاضرات، ودعوته المستمرة في كافة أعماله إلى ضرورة الإصلاح الإجتماعي، ورعاية الفقراء، ورغم ذلك لم تكن نظرته للمجتمع سوداوية؛ ولم يرَ أبدًا أنه عصي على الصلح، فقد آمن بأن مهما بلغ سوء المجتمع فهو قابل للإصلاح، ومن أجل ذلك سخرَّ قلمه البليغ وكرسَّ حياته وإنتاجه الأدبي من أجل التغيير، والدعوة إلى الإصلاح من النفس وتخليص المجتمع البشري من سيئاته وشروره وظلمه. في عام 1865 م تعرض ديكنز لحادث قطار ولم يتعاف منه كليًا، وعلى الرغم من ذلك، استمر في كتاباته ورحلاته، حتى وافته المنية بسبب إصابته بسكتة دماغية في التاسع من يونيو عام 1870 م وتوفي عن عمر ناهز الثامنة والخمسين سنة.. دفن في ركن الشعراء من دير ويستمينستر، وشيعه الآلاف إلى مثواه الأخير.. تُوفي ديكنز وترك للإنسانية إرثًا من أعمال أدبية عظيمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



المقدمة

وكالنَّار الحياة فمن رمادٍ
أواخرها وأوَّلها دخانُ
إلام وفيم تنقلنا رِكابٌ
وتأمُلُ أن يكون لنا أوانُ

"أبو العلاء المعري"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تغير المائتي سنة التي مرت منذ كتابة الرواية أشياء كثيرة في ذهن البشرية أو سلوكها. تجد الرواية بتتابعاتها وأحداثها وشخصياتها، متجسدة بيننا، نرى ما تبلغنا به سطورها كل يوم، ولا نلاحظها وسط تدافع المارة، حيث كل يدفع الآخر، يلوذ بذاته، يسير على عجل وسط التيارات المتناوبة، نهمًا للمال، وفي اتجاهات متعاكسة، دون توقف، دون أن يظهر عليه أي كلل، منكبًا على إتمام شؤونه الخاصة، دون أن نشخص بأعيننا إليها ونوليها اهتمامًا، وإن انشق أحد وإلتفت، فلن يستطيع بمفرده؛ العالم من حوله يدحض تعزيزاته، والظلم يحوم حوله، حتى يصرعه ويبقيه خائرًا وضعيفًا.

من منكم بمستطاعه أن يقف أمام وابل من مساوئ تفشت في نفوس البشر، من دون أن يتكالبوا عليه ليكتبوا فناءه قبل ميلاده، ويجبروه على الإنسحاب أو الانعزال وليطرحوه مهزومًا مدحورًا ملتاعًا!

مَن منا إذا لم يكن قد تأثر بفساد ما حوله، وكان سليم الطوية، عفيف النفس، حسن الخلق، محافظًا على السلوكيات القويمة، يستطيع أن يعيش ويتأقلم وسط هذا الأسى المفرط، يستنفد قواه في تحصين نفسه من تكالب المتطفلين والزائفين والخسيسين والغوغاء، ويلقى في غاية الإحباط ويعاني من سكرات موجعة وصرخات مفزعة ملتاعة، لا ينبس عنها ببنت كلمة.

تشارلز ديكنز.. قال عنه أعظم النقاد والروائيين إنه كاتب لكل عصر، وها نحن بعد قرنين خلفهما الزمان، نجد في روايتنا "متجر التحف القديم " تشابهًا كبيرًا، قادرًا على أن يخلق علاقة مستمرة بين روايته والقراء أجمعين، يحكي الرواية ويسردها كأنه يحكي قصة أحد الأقرباء، مَن تراهم كل يوم، وتكتشف أسرار حياتهم، وقد شابهت إلى حد كبير حياته، مستمدًا من رحلاته وتجولاته أسسًا بنى عليها أحداثها. كتب في روايتنا توريات ضد الحكام والمسؤولين عن إفقار الشعوب ثقافيًّا وماليًّا، بيَّن الفجوة المستعرة بين الطبقات، نقل فيها جزءًا كبيرًا يتناص مع حياته، وصف الأحياء الفقيرة، تقرأ كأنك تراها، وصفها بكل المآسي التي تدور فيها، وإن كانت لمحات لا تزيد عن سطر أو سطرين، لكنها تخبئ في كمائنها الكثير.

إننا بصدد قراءة رواية لا تقتصر على منظور واحد فقط؛ بل تمثل فيها جماليات الأدب وبلاغة تعبيراته وإجادة وصفه، رواية إجتماعية، نقلت لنا أحداثًا.. صورت الظلم ونقيضه العدل، صوَّرت الطيبة ونقاء القلب ونقيضهما الجحود والجشع، صوَّرت الحزن بعبارات تُبكي القارئ في كل مرة تقع عيناه عليها، صوَّرت الفرح والسرور ومشاعر الحب والعاطفة بكلمات ترقرق دموع السعادة وابتسامات تهلل أسارير الوجه.

يقول ديكنز وسط طيات صفحات روايتنا: "إن المؤرخ يأخذ بيد القارئ النهم، يحلّق به في سماء المعرفة، يحيطه علمًا بمعارف وأخبار، يشقان طريقهما صوب أماكن شيقة". لم يكن ديكنز في روايتنا في محل الأديب البارع من يمتعنا بدقة وصفه، وبلاغة حديثه، وأسلوبه التهكمي الساخر الناقم على الظلم فحسب، بل كان مؤرخًا، نقل إلينا صورة توضيحية لكل ما آلت إليه الأمور في العصر الفيكتوري، ذكر أسماء المدن والبلدان والكنائس، أجاد التشبيه والسرد والوصف كأنك تنظر من نافذة على أحداث تقع أمام عينيك مباشرة، ذكر معلومات تاريخية خصت عصره، ذكر معالم المدن والريف والطرقات والبيوت والأكواخ، ووصفها وصفًا تفصيليًّا، ألقى الضوء على أنماط معيشتهم، وحفلات الشاي، وطرق ملبسهم، واستنشاقهم لدقيق التبغ، وظنونهم أنه فيه البرء من المرض، ذكر مسرح أستلي وعروضه البديعة، نقل صورة توضيحية للحانات ولعب القمار، نقل إبداعه وكثرة خبرته وثراءه المعرفي والثقافي بإشارات توضيحية كثيرة واقتباسات مثمرة، أكثرها كان لشكسبير، وصف معمار الكنائس بلافتات دينية شعائرية، ملقيًا الضوء على رجال الدين، موضحًا أن الدعاء بصدقه وليس ببهاء أماكن إلقائه.

نقل لنا صورة مجتمعية تفشى فيها الظلم والقهر والاستبداد، من خلال طفلة صغيرة وجدها، وسرد ما شاهداه في الحياة الدنيا، وما تفعله في القلوب النقية. وعلى الرغم من أن الرواية مأساوية، وستصل خلالها إلى سطور لا تستطيع حين قراءتها أن تكفكف دمعك، مهّد لنا فيها طريقًا لاح فيه قبسٌ من فرج.

وأخيرًا: "فليكن عندك قلب لا يقسو، ومزاج لا يمل، ولمسة لا تجرح"، "فلا يوجد شخص غير مفيد في هذا العالم ما دام يستطيع أن يخفف عبء الحياة عن كاهل شخص آخر".

أتركلم في رحاب روايتنا.. شكرًا لكم.

المترجمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الأول

على الرغم من كوني عجوزًا، اعتدت أن أجعل من الليل على وجه العموم وقت خروجي لأتمشى وأتنزه، لكنني في الأيام الصيفية، وبسبب الحالة الإقتصادية التي تمر بها البلاد، نادرًا ما أخرج بعد حلول الظلام، أغادر المنزل مبكرًا؛ أتجول بين الحقول والطرقات طوال اليوم، أو أهرب حتى لأيام أو لأسابيع، وأتوجه بجزيل الشكر للسماء؛ أحب نورها، أستشعر بهجة ضوئها الذي تسدله على شتى بقاع الأرض، تنساب به عليّ وعلى الخليقة أجمعين.
لقد داومت على فعل هذه العادة دون كلل؛ أجدها ملائمة لي ولوهني على حد سواء؛ تتيح لي فرصة عظيمة للتدبر في أحوال البشر، والتبصّر في مهن أولئك الذين تغص بهم الشوارع. لا تتلاءم بهرجة الطرقات ونمطها السريع مع مساعي الخمول لشخص مثلي، غالبًا ما تكون اللمحات الخافتة التي تعكسها مصابيح الشوارع أو المحلات على وجوه المارة، مشبعة لرغبتي تمامًا أكثر من تسليط ضوء النهار الساطع عليها. إذا كان لا بد من الإدلاء بالحقيقة كاملة، فأنا أجد أن الليل أكثر لطفًا في هذا الصدد مقارنة بالنهار؛ الذي يطيح غالبًا بالقلاع الهوائية لحظة اكتمالها، وينتزع الأحلام قرب تمامها، دون أي مراسم أو ندم. لا عجب من تحمل ساكني الأزقة بسهولة وسلاسة سماع قرقعة الخطوات ذهابًا وإيابًا، ووقع الأقدام المتواصل على الحجارة المصقولة، وهذا الأرق غير المتناهي! تدبر أمر رجل مريض في مكان كساحة "سان مارتن"، يستمع إلى وقع أقدام: في خضم انصياعه لألمه وسأمه، رغمًا عنه - كما لو أن لديه مهمة عليه أن ينجزها - يمايز بين خطوة الطفل وخطوة الرجل، بين حذاء مهترئ لشحاذ وحذاء ذي رقبة لمتأنق، بين خطوة المتسكع وخطوة المنشغل، بين وقع كعب المنبوذ الثقيلة ووقع كعب الساعي إلى المرح الرشيقة، تدبر الهمهمات والضوضاء الحاضرة دائمًا في حسه، وتيار الرياح غير المتوقف، المتدفق دون هوادة دائمًا أبدًا في شتى أحلامه المضطربة، كما لو أنه قد حكم عليه بالاستلقاء، في ساحة كنيسة صاخبة، ميت لكنه واعٍ، فاقد لأي أمل في الراحة أبد القرون التالية.
تمر الحشود العابرة جيئة وذهابًا على الجسور - التي ليس لها أي رسوم في نهايتها -، حيث يقف العديد منهم في الأمسيات رقيقة النسمات، ينظر بعضهم نحو الأسفل تجاه المياه، شاردي الذهن، تصحبهم أفكار مبهمة، تموج كلما ماجت المياه بين الجداول الخضراء، تتسع رويدًا رويدًا حتى تستقر في البحر الشاسع في النهاية.. يتوقف بعضهم؛ ليستريحوا من ثقل أعبائهم، يتفكرون ناظرين إلى المتراس، يدخنون، يحاولون الاستكانة بعيدًا عن حياتهم.. وآخرون يستلقون نائمين أسفل أشعة الشمس على مشمع ساخن، في زورق بطيء نمطي راكد، كان من المفترض أن تتوافر على متنه سعادة، لا منازع لها.. وغيرهم من فئة مختلفة تمامًا عنهم، يحملون أعباء في نفوسهم أثقل منهم، يتذكرون أنهم سمعوا أو قرأوا في وقت سابق، أن الغرق لم يكن موتًا قاسيًا، وأنه من بين شتى طرق الانتحار لطالما كان الأسهل والأفضل.
وكمتجر "كوفنت جاردن". أيضًا، عند شروق شمس أيام الصيف والربيع، حين يتطاير في الأفق عطر الورد الحلو ويتعبق به، فيزيح تيارات الفجور الكريهة لليلة الماضية، ويخرج طائر "السّمنة" أخيرًا من قفصه المعلق طوال الليل بالخارج على النافذة الموجودة في علية المتجر؛ ليمرح بنصف جنون! طائر مسكين! إن الشيء الوحيد الذي يحظى بجيرته أسرى الطيور الصغيرة

الأخرى، التي انكمش بعضها على نفسها من أيادي المشترين المخمورين الساخنة، ممن استلقوا خائرين بالفعل في الممرات، وتبلل بعضها بفعل اللمسات الدانية، مستكينة تنتظر وقت انتعاشها بالمياه؛ إرضاءً للزوار الرصينة، ما جعل الكتبة القدامى المارين إلى جوارهم، وهم في طريقهم إلى العمل، يتساءلون عن مكنون صدورهم تجاه ما يطالعونه في البلد.
لكن هدفي الحالي هو ألا أشعر بغربتي أثناء تنزهي. إن القصة التي أسترجعها مرات ومرات بين الفينة والأخرى وأوشك على سردها، مستوحاة من إحدى تلك النزهات، لذلك طوعتها للسرد مستهلًّا بتلك المقدمة ومستندًا إليها.
******
في إحدى الليالي، كنت أتسكع في طريقي المعتاد، يشغل تفكيري أمور لا حصر لها، فقد ألقي القبض عليّ من أجل استجواب، لم تصلني أوراقه مطلقًا، لكنها على ما يبدو قد أرسلت لي بالفعل، عندما انتشلني صوت ناعم مبتهج. إلتفتُ من فوري، ورأيت فتاة جميلة، قامتها بارتفاع مرفقي، تتوسل إليّ؛ كي أدلها على شارع معين يقع على مسافة بعيدة، تقريبًا في الربع الأخير من المدينة.
قلت لها: "إنها مسافة بعيدة من هنا يا طفلتي".
ردت في خجل: "أعلم ذلك يا سيدي، أخشى أن تكون بعيدة جدًّا كما قلت؛ لقد جئت من هناك ليلًا".
قلت في اندهاش: "بمفردك؟".
- نعم! لم يكن لدي أي مانع حينها، لكنني الآن خائفة قليلًا؛ أخشى أن أكون قد ضللت الطريق.
- وما الذي دفعك لتسأليني؟ لنفترض أني أرشدتك بشكل خاطئ؟
قالت الصغيرة: "لأنني متأكدة تمام من التأكد أنك لن تفعل؛ أنت رجل عجوز وقور الهيئة، تسير على مهل شديد".
لا أستطيع أن أصف مدى انبهاري بطريقتها من أجل استئناف الحديث، وبالحيوية التي أضفتها عليه، خاصة أن الدموع ترقرقت في عينيها البريئتين الصافيتين، وقد ارتجف جسدها، بينما تنظر إلى وجهي. قلت: "تعالي! سآخذك إلى هناك".
وضعت يدها في يدي، وأمسكت بها في ثقة تامة، كما لو كانتةتعرفني منذ كانت في المهد، مشينا معًا بخطوات ثقيلة؛ لقد ضبطت تلك المخلوقة الصغيرة سرعة سيرها وفقا لسرعتي، بدا كما لو كانت هي التي تقتادني وترعاني أكثر من كونها هي التي في حمايتي. لاحظت أنها بين الحين والآخر تختلس نظرات فضولية إلى وجهي؛ كأنها تتأكد من أنني لم أكن أخدعها، أما تلك النظرات الخاطفة - والتي كانت نظرات متحمسة قوية جدًّا - فبدت أنها تزيد من ثقتها مع كل تكرار.
من ناحيتي، كان فضولي واهتمامي مساويين لفضول واهتمام الأطفال على أقل تقدير، أما الطفلة فحتما كانت فضولية، رغم أنني ظننت أن سبب ذلك يرجع إلى احتمالات ما كان من الممكن أن أفعله.. أضفت بنيتها الرقيقة الصغيرة على مظهرها نضارة مميزة، على الرغم من أنها كانت ستبدو أكثر نحافة مما كانت عليه، إن ارتدت ملابس أنيقة، لا تنم عن أي علامة من علامات الفقر والإهمال.
قلت: "من الذي أرسلك بمفردك حتى مسافة بعيدة هكذا؟".
- إنه شخص لطيف للغاية معي يا سيدي.

- وماذا كنت تفعلين؟
قالت الطفلة في حزم: "هذا ما لا يجب عليَّ أن أخبرك به".
حملت صيغة إلقاء ذلك الرد شيئا من السلوك المبهم، جعلني أنظر من فوري إلى ذلك المخلوق الصغير في دهشة غير إرادية، متسائلًا عن أي نوع من المهمات قد أسندت إليها، لتكون مهيئة للإجابة عن سؤالي على هذا النحو. تراءى لي أن عينيها اللماحتين قد قرأتا أفكاري؛ حينما وقعت عيناها على عيني، أضافت قائلة أنه ليس هناك أي ضرر مما كانت تقوم به، لكنه سر عظيم، سرٌّ لم تعرفه هي نفسها.
قالت هذا في مظهر صادق، لا يشوبه أي خداع أو مراوغة، قالته في صراحة لا يشوبها أي شك، حملت سمت الحقيقة.
سارت كما كانت من قبل، وبينما كنا ماضيين في طريقنا، ونتحدث في مرح، صارت معي أكثر ألفة، لكنها لم تقل المزيد عن بيتها، أشارت إلى أننا نسير في طريق جديد فقط، متسائلة إذا كان ذلك الطريق قصيرًا أم لا.
على الرغم من وئامنا معًا، دارت في ذهني مئات التفسيرات المختلفة للغز الكامن وراءها، لكنني رفضتها جميعًا. شعرت حقًا بالخجل؛ لاستغلال براءة الطفلة وشعورها بالامتنان؛ لإرضاء فضولي. أحب أولئك الصغار، وأعتقد أنه ليس بالشيء الهين إطلاقًا، أن يحبنا أولئك المبعوثون حديثًا من عند الرب. شعرت بالسعادة في البداية جراء ثقتها، ومن ثم حسمت الأمر باستحقاقي لتلك السعادة، ونسبت الفضل للطبيعة التي أسكنتها إلى نفسي.
مع ذلك، لم يكن هناك أي مانع يحول بيني وبين رؤية ذلك الشخص، الذي أرسلها دون اكتراث في تهور، عبر تلك المسافة البعيدة ليلًا وبمفردها، لكن احتمالًا غير مستبعد - من الممكن أن يصير أمرًا واقعًا - أخذ يتردد في ذهني، من المحتمل أن تجد الصغيرة نفسها فجأة على مقربة من بيتها، فتودعني، وتحرمني من اقتناص تلك الفرصة، لذلك تجنبت الطرق المعتادة، وأخذت أكثر الطرق إلتواءً وتعقيدًا، لدرجة أنها لم تدرك في أي مكان كنا، حتى وصلنا إلى شارع بيتها نفسه. صفقت بيديها في سرور بالغ، ركضت أمامي لمسافة قصيرة، ثم توقفت رفيقتي الصغيرة عند الباب ثابتة في مكانها، إلى أن وصلت وانضممت إليها، ثم طرقت عليه. كانت درفة الباب الزجاجية غير مغلقة بأي مصراع، وهو الأمر الذي لم ألحظه في البداية، على أي حال، كان المكان في الداخل مظلمًا وساكنًا، كنت قلقًا - مثلما كانت الطفلة أيضًا - حيال عدم تلقينا أي إستجابة لنداءاتنا. عندما طرقَت الباب مرتين أو ثلاث مرات، تردد ضجيج، كما لو أن شخصًا ما يتحرك في الداخل، ومع مضي فترة طويلة، لاح عبر الزجاج ضوء خافت، بدا حامله يقترب ببطء شديد، يشق طريقه بين عدد كبير من أشياء مبعثرة، لكن الضوء مكنني من تمييز القادم وتمييز طبيعة المكان الذي أتى منه.
كان رجلًا عجوزًا ذا شعر رمادي طويل، هكذا بدا وجهه وهيئته بينما كان آتيًا يحمل الضوء فوق رأسه، ولم يتغير شكلهما مع اقترابه، لقد رأيته بوضوح تام. على الرغم من أن الشخص يتغير كثيرًا مع مرور العمر، أعتقد أني استطعت التعرف عليه من هيئته النحيفة والهزيلة، التي لاحظتها على الطفلة من قبل. كانت أعينهما الزرقاء اللامعة متشابهة بكل تأكيد، لكن وجهه كان ذابلًا من الهموم، مليئًا بالتجاعيد، وهو الحد الذي انمحى عنده أي تشابه بينهما تمامًا.

كان المكان الذي أتى عبره واحدًا من تلك الأماكن المكتنزة بالأشياء القديمة المثيرة للفضول، الموجودة في الزوايا الموحشة لهذه المدينة، وينتفعون بها في إخفاء كنوزهم العتيقة، بعيدًا عن أعين العامة المليئة بالغيرة وعدم الثقة. امتلأ المكان بدروع جنود معدنية مصفحة، تقف مثل الأشباح في كل حدب وصوب، ومنحوتات رائعة جلبت من أديرة الرهبان، وأسلحة صدئة مختلفة الأشكال، ومنحوتات من الصين، وخشب، وحديد، وعاج، وبساط مزخرف، وأثاث غريب، غالبًا تم تصميمه في الأحلام. وناسبت هيئة العجوز الهزيلة المنهكة طبيعة المكان؛ ربما جَوَّب طرقات عدة بين الكنائس القديمة والمقابر والمنازل المهجورة بنفسه؛ ليجمع تلك الغنائم جميعها بيديه. لم يكن من بين تلك المجموعة بأكملها شيءٌ - مقارنة به - أكثر قدمًا أو اهتراءً منه.
بينما كان يدير المفتاح داخل القفل، تفحصني في دهشة لم تقل حينما انتقل بناظريه مني إلى رفيقتي. فُتِح الباب، ونادته الطفلة بـ "جدي"، وأخبرته بقصة رفقتنا القصيرة.
قال العجوز وهو يربت على رأس الطفلة: "لماذا يا عزيزتي! بوركت! كيف ضللت الطريق؟ ماذا لو كنت فقدتك يا نيلي!".
قالت الطفلة في ثقة شديدة: "كنت لأجد طريق عودتي إليك يا جدي، لا تخف أبدًا".
قبَّلها العجوز، ثم إلتفتَ نحوي؛ يلح بإصرار على دخولي معه، ففعلت. قُفِل الباب وأُغلِق بإحكام. تقدمني حاملًا الضوء، قادني عبر المكان الذي رأيته مسبقًا من الخارج، إلى غرفة جلوس صغيرة بالخلف، كان لها باب آخر يؤدي إلى حجرة تشبه الخزانة، رأيت بداخلها سريرًا صغيرًا، من الممكن أن تنام عليه جنية فراشات؛ بدا ضئيلًا جدًّا ومرتبًا للغاية. أخذت الطفلة شمعة وتوغلت إلى داخل تلك الحجرة الصغيرة، تاركةً جدها وإياي معًا.
قال العجوز وهو يضع كرسيًا بالقرب من النيران: "من المؤكد أنك متعب يا سيدي.. كيف أشكرك؟".
أجبته: "أن تكون أكثر حرصًا على حفيدتك فيما بعد يا صديقي العزيز".
قال العجوز في لهجة حادة: "أكثر حرصًا! أكثر حرصًا على نيلي! لماذا؟ وهل يوجد من أحبَّ طفلًا من قبل مثلما أحب نيلي؟".
قال هذا في دهشة جلية، جعلتني في ارتباك تام حيال ردي عليه، بل أكثر من ذلك؛ فقد اقترنت دهشته بشيء من وهن، وبدا عليه شرود الخاطر، فضلًا عن علامات التفكير المضطرب العميق التي ارتسمت على وجهه، وأقنعتني من فوري أنه لم يكن مطلقًا مثلما افترضت في بادئ الأمر، وكم كانت افتراضاتي ساذجة وخرقاء!
شرعت في الحديث وقلت: "لا أعتقد أنك تقوم برعاي..".
قاطعني العجوز وصاح: "أنا لا أقوم بالرعاية! أنا لا أقوم برعايتها! أوه.. أي قدر ضئيل سطحي تعرفه عن حقيقة الأمر! يا صغيرتي نيلي، يا صغيرتي نيلي!".
لا أهتم كثيرًا بالطريقة التي اعتمدها في حديثه، لكنه شيءٌ مستحيلٌ على المرء، أن يعبر عن مكنون وجدانه في أربع كلمات فقط، أما تاجر التحف المثيرة للفضول فقد استطاع أن يفعل. انتظرته كي يتحدث مرة أخرى، لكنه أراح ذقنه على يده، هازًّا رأسه مرتين أو ثلاث مرات؛ شاخص العينين تجاه النيران.
بينما كنا جالسين على ذلك النحو، فُتح باب الخزانة، عادت الطفلة، وقد أسدل شعرها البني اللامع على رقبتها، تدفقت الدماء إلى وجهها، جراء عجالتها للانضمام إلينا. شغلت نفسها من

فورها في تحضير العشاء، بينما كانت منهمكة في فعل ذلك، لاحظت أن العجوز قد اغتنم الفرصة ليتفحصني عن كثب أكثر مما فعل. كنت مندهشًا تمامًا لقيام الطفلة بجميع تلك الأعمال بمفردها، دون أن يظهر أي أحد على الإطلاق، لكني فهمت أنه لا يوجد أشخاص آخرون في المنزل غيرنا. انتهزت لحظة تغيبت فيها الفتاة عن جوارنا؛ للتلميح إلى هذه النقطة، حيث أجابني العجوز بأنه كان هناك عدد قليل من الأشخاص جديرين بالثقة وحريصين مثلها.
نظرت إليه وقد اشتطت غضبًا من أنانية أفعاله التي استنتجتها وقلت: "يحزنني هذا دائمًا.. يحزنني دائمًا إقحام الأطفال في شؤون الحياة، إنهم بالكاد أطفال صغار.. دائمًا ما يقيدهم هذا ويزعزع ثقتهم ويمحو براءتهم.. وهما صفتان من أفضل الصفات التي تمنحها لهم السماء.. نطالبهم بمعايشة أحزاننا ومشاركتنا إياها قبل أن يتمكنوا حتى من استشعار متعنا".
قال العجوز ناظرًا نحوي في ثبات: "لن يقيدها هذا مطلقًا.. دائمًا ما تكون الينابيع عميقة، إلى جانب أن الأطفال المولودين من رحم الفقر لا يدركون إلا القليل من الملذات. حتى مسرات الطفولة الرخيصة يجب شراؤها ودفع ثمنها".
قلت: "لكن.. اعذرني لقولي ذلك؛ أنت بالتأكيد لست فقيرًا إلى تلك الدرجة".
رد العجوز: "إنها ليست طفلتي، لكن والدتها كانت، وكانت فقيرة. وأنا لا أدخر شيئًا.. لا أدخر ولو فلسًا واحدًا.. على الرغم من أنني أعيش كما ترى..". أراح يده على ذراعي ومال نحو الأمام تجاهي هامسًا: "ستكون ثرية في أحد الأيام، وسيدة نبيلة. ألا تشعر باشمئزاز مني؛ لأني أستغلها في مساعدتي، لكنها - كما ترى - تقوم بتلك الواجبات في مرح، إلى جانب أن قلبها سينفطر إذا علمت أني كلفت غيرها بإتمام أعمال من أجلي، في حين أن يديها الصغيرتين قادرتان على فعل تلك الأعمال". ثم صاح في غرابة مفاجئة مستنكرًا: "أنا لا أقوم برعايتها! لماذا؟ يعلم خالقنا أن تلك الطفلة هي مغزى حياتي وفكرتها، لكنه رغمًا عن ذلك لم ينعم عليَّ بخيره أبدًا.. لم يفعل مطلقًا".
بمثل هذا التحول، عدنا إلى موضوع حديثنا مرة أخرى، طلب العجوز مني الإقتراب من الطاولة، لكنه ابتعد، ولم ينطق بكلمة أخرى.
كنا قد عدنا بالكاد لاستكمال وجبتنا، حينما ارتفع صوت طرق على الباب الذي دخلت منه، تهللت نيل ضاحكةً ضحكة صادقة، وابتهجت فور سماعها تلك الطرقات، كانت ضحكة طفولية عارمة بالفرح، قالت: "إنه بلا شك "كيت" العزيز، قد أتى أخيرًا".
قال العجوز وهو يلاطفها ماسحًا على شعرها: "نيل الساذجة! عادةً تضحك هكذا لـ "كيت العزيز"".
ضحكت الطفلة مرة ثانية ضحكة من قلبها مبهجة أكثر من ذي قبل، لم أستطع مقاومة ابتسامتي بسبب تلك العواطف الصافية. حمل العجوز شمعة، وذهب لفتح الباب. عندما عاد، كان كيت في إثرها.
كان كيت صبيًّا غريب الأطوار، أشعث كثيف الشعر، يمشي متثاقلًا، ذا فم واسع غير مألوف، وخدين حمراوين، وأنف طرفه مرتفع، ومن المؤكد أن وجهه اعتلاه أكثر التعابير الهزلية التي رأيتها طوال حياتي. توقّف عند الباب؛ حال رؤيته لشخص غريب، بارمًا على يده قبعة قديمة مستديرة تمامًا دون أي بقايا لحافتها، وقف عند مدخل الباب، متكئًا على ساق واحدة، يبدل باستمرار بينها وبين ساقه الأخرى، ينظر إليَّ عبر الردهة شزرًا، كانت نظرته هي أكثر النظرات التي رمقت بها

طوال حياتي شزرًا. شعرت بالامتنان تجاه ذلك الصبي منذ تلك اللحظة؛ لأنني شعرت أن مرح الحياة الطفولية قد تمثل فيه.
قال العجوز: "كانت مسافة بعيدة.. أليس كذلك يا كيت؟".
أجابه كيت: "ها! حسنًا! كانت مسافة يسيرة يا سيدي".
- من المؤكد أنك عدت جائعًا! أليس كذلك؟
كانت الإجابة: "ها! حسنًا! في الواقع أعتبر نفسي كذلك يا سيدي".
كان للطفل أسلوب مميز في وقفته الجانبية تلك، بينما كان يتحدث، يدفع رأسه إلى الأمام أعلى كتفيه، ويلازمه بكل تأكيد ذلك التعبير المرتسم على وجهه أثناء حديثه. أظن أنه قادرٌ على تسلية أي أحد في أي مكان، كان تمتع الطفل بالغرابة، والشعور بالارتياح؛ لاكتشاف أن ذلك المكان، الذي بدا غير ملائم للطفلة أبدًا، به شيء ما ارتبطت به ويبهجها، كانا لا يقاومان أبدًا من فرط جمالهما. كانت لفتة طيبة؛ حينما أدركت أن كيت نفسه كان ممتنًا للإحساس الذي أضفاه، لكنه بعد جهود كثيرة للحفاظ على جاذبيته انفجر بقهقهة عالية، وفمه مفتوح على آخره وعيناه مغلقتان، ضاحكًا بشدة.
انتكس العجوز مرة أخرى وغاص في شرود ذهنه، ولم يلحظ ما كان، لكنني انتبهت، ورأيت أنه حينما فرغت الطفلة من ضحكها، كانت عيناها المشرقتان قد بهتتا، وترقرق فيهما الدمع؛ تقلب النظر فيما حولها بامتنان يملأ قلبها؛ فهي تستقبل رفيقها الأخرق المفضل متذكرة الإضطراب الذي عاشته ليلًا. أما عن كيت نفسه - كانت ضحكته طوال الوقت أشبه كثيرًا بتلك الضحكات التي تتحول إلى شهقات ودموع -، أخذ الخبز وشريحة اللحم وكوبًا من الجعة إلى ركن، وشرع في إلتهام وجبته في شراهة كبيرة.
إلتفتَ العجوز نحوي وهو يتنهد كما لو أنني قد كنت أتحدث إليه تلك اللحظة وقال: "آه! أنت لا تدرك حقًّا ماذا تقول، عندما تخبرني بأنني لا أقوم برعايتها".
قلت: "يجب ألا تعلق أهمية قصوى على ملاحظة تستند إلى الانطباعات الأولى يا صديقي".
استدار العجوز مفكرًا: "لا! لا! تعالي إلى هنا يا نيل".
قامت الفتاة الصغيرة عن كرسيها، مضت نحوه مسرعة، ثم طوقت بذراعيها عنقه.
قال: "هل أحبك يا نيل؟ قولي.. هل أحبك يا نيل أم لا؟". تمثلت إجابة الطفلة فقط في عناقه، مسندة رأسها إلى صدره.
قال الجد وهو ينظر إليَّ، ضامًا إياها نحوه: "لماذا تبكين؟ هل لأنك تعلمين أنني أُحبكِ.. وأنه لا يجب عليَّ مطلقًا أن أطرح شكوكًا في سؤالي؟ حسنًا حسنًا! دعينا نقول إنني أحبك كثيرًا يا عزيزتي".
ردت الطفلة في جدية شديدة: "في الواقع.. أنت تحبني بكل تأكيد، ويعرف كيت أيضا أنك تحبني".
كيت! الذي كاد أن يبتلع ثلثي سكينته مع كل قضمة في فتور بهلوانٍ محترف، أثناء إلتهامه للخبز واللحم، توقف قليلًا عن استئناف ما يفعله ليجيب على ما حُكِّم فيه، صاح: "لا وجود لأحمق يمكن له أن يقول إنه لا يحبكِ"، وإذ به يتناول شطيرة ضخمة في قضمة واحدة، فيُعجِّز نفسه عن استئناف حديثه.

قال العجوز متلمسًا خد الطفلة: "إنها فقيرة الآن، لكنني أكررها عليك مرة أخرى، مع مرور الوقت ستكون من الأثرياء، أعلم أنه وقتٌ طويل، لكنه سيأتي في النهاية.. سيكون وقتًا طويلًا حقًّا، لكنه سيأتي حتمًا. قد أتى لكثير من الرجال لم يفعلوا شيئًا سوى الهدر والإفراط.. أتساءل متى سيأتي لي!".
قالت الطفلة: "أنا سعيدة كما أنا يا جدي".
عقب العجوز: "صه، صه! أنتِ لا تعرفين.. كيف يجب ألَّا تكوني كذلك!". ثم تمتم مرة أخرى كازًّا على أسنانه: "يجب أن يأتي ذلك الوقت، أنا متأكدٌ تمامًا أنه يجب أن يأتي، عسى أن يكون كل تأخير يحوي خيرًا". تنهد وانغمس مرة أخرى في حالته السابقة شارد الذهن، بينما لا تزال الطفلة جالسة بين ركبتيه، بدا غير مدرك لكل ما حوله على الإطلاق. ساعتها، كانت تفصلنا عن حلول منتصف الليل بضع دقائق، وقد توجب عليَّ أن أرح، ما جعله يعود إلى نفسه متداركًا الأمر.
قال: "لحظة من فضلك يا سيدي! الآن يا كيت لقد اقتربنا من حلول منتصف الليل يا ولدي، وأنت لا تزال هنا! هيا اذهب إلى بيتك، اذهب إلى بيتك في التو، وكن حريصًا على أن تلتزم بالوقت المحدد في الصباح؛ إن لديك عملًا لتقوم به.. تصبح على خير! تمني له ليلة طيبة يا نيل، ودعيه ليذهب!".
قالت الطفلة، وعيناها لامعتان من فيض الفرح واللطف: "ليلة سعيدة يا كيت!".
رد الصبي: "ليلة سعيدة يا آنسة نيل!".
تدخّل العجوز في الحديث على عجالة: "واشكر هذا السيد المحترم؛ لولا رعايته لنيل، لكنتُ فقدت الليلة فتاتي الصغيرة".
قال كيت: "لا، لا يا سيدي، هذا لن يحدث أبدًا، لن يحدث مطلقًا".
صاح العجوز: "ماذا تقصد؟".
قال كيت: "كنت لأجدها يا سيدي، كنت لأجدها من فوري.. أراهن الجميع على أنني كنت سأجدها، وإن كانت في أي مكان على وجه الأرض، كنت لأفعل بكل تأكيد، وفي سرعة بالغة كأي شخص يا سيدي.. ها ها ها ها!".
ها هو مرة أخرى، يفتح فمه ويغلق عينيه، يضحك بصوت يشبه صوت آلة الكتابة الاختزالية. عاد كيت تدريجيًّا نحو الباب، ومن ثمَّ خرج.
أصبحت الغرفة متسعة الآن، لم يكن الصبي بطيئًا عندما رحل، أما الطفلة فكانت منهمكة في تنظيف الطاولة، حتى قال العجوز: "يبدو أنني لم أشكرك حتى الآن على ما فعلته هذه الليلة يا سيدي، لكنني أشكرك حقًّا بصدق وتواضع من كل قلبي، وكذلك هي تشكرك، ومن المؤكد أن شكرها لك يزيد عن شكري لك.. وأريد أن أعتذر عن سيرك كل تلك المسافة الطويلة، وأعتقد أنني لست غافلًا عن مدى صلاحك ونقاء قلبك، وعن مدى إهمالها.. لستُ غافلًا حقًّا".
قلتُ: "أنا متأكد من ذلك؛ لقد رأيت بنفسي، لكن..". ثم أردفتُ قائلًا: "لكن هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالًا؟".
قال العجوز: "نعم يا سيدي.. ما هو؟".
قلتُ: "تلك الطفلة الحساسة صاحبة هذا القدر من الذكاء والجمال.. لا أحد يهتم بها ويرعاها سواك؟ أليس لها أي رفيق آخر أو
ناصح؟".

أجاب وهو ينظر إليَّ في اضطراب: "لا.. لا هي لا تريد أحدًا آخر".
قلتُ: "ألستَ خائفًا من أن تكون غير مدرك كفايةً للمهمة التي أنت بصددها؟ أعلم تمامًا أن مقصدك حسن، لكن هل أنت متأكد من معرفتك بالكيفية التي تجعلك جديرًا بمثل تلك الثقة؟ أنا رجل عجوز مثلك، وإن جل ما يدفعني هو قلق رجل عجوز نحو ما هو شبابي واعد. ألا تظن أن ما رأيته الليلة بينك وبين تلك المخلوقة الصغيرة مفعمٌ بالاهتمام والرعاية، وليس عبارة عن ألم غير متناهٍ أبدًا؟".
قال العجوز بعد صمتٍ دام للحظات: "اسمعني يا سيدي! أعلم أنه ليس لديَّ أي حق إن شعرت بالإساءة حيال ما قلت. غالبًا هو صحيح من نواحٍ عدة، كثيرًا ما أكون أنا الطفل وهي الشخص الناضج.. مثلما رأيت بالفعل. لكنها في اليقظة والنوم، في النهار والليل، هي الوحيدة التي تحظى برعايتي كلها، إن كنت على علمٍ بقدر رعايتي الكبير لها، كنت لتنظر إليَّ نظرةً مختلفة، كنت لتفعل في الواقع. آه! إنها حياة مرهقة وشاقة لرجل عجوز مثلي.. حياة مرهقة.. مرهقة جدًّا، لكن ينتظرني مكسب عظيم في نهايتها، وهذا ما أؤمن به".
عندما رأيته في هذه الحالة من الاندفاع ونفاد الصبر، إلتفتُ لألتقط معطفي، الذي تركته خارج الغرفة عند دخولي؛ قاصدًا ألا أتحدث بالمزيد. لكني فُوجئت حين رؤيتي للطفلة واقفة في صبر تام، تعلِّق معطفًا على ذراعها، وتمسك بيدها قبعة وعصا.
قلتُ: "هذه الأغراض ليست لي يا عزيزتي".
قالت الطفلة: "نعم.. إنها لجدي".
- لكنه لن يخرج الليلة! أليس كذلك؟
قالت الطفلة متبسمة: "أوه! بلى.. سوف يخرج".
- وماذا عنك أيتها الجميلة؟
- عني أنا! أنتظر هنا بالطبع.. دائمًا ما أفعل ذلك.
نظرت في استنكار شديد ودهشة عارمة إلى العجوز، لكنه كان مشغولًا بهندمة ملابسه، أو تظاهر بأنه كان كذلك. عاودت النظر إلى تلك الطفلة البريئة المطيعة.. بمفردها! ستكون بمفردها في ذلك المكان الموحش، طوال الليل المظلم الكئيب.
لم تُبْدِ الطفلة أي تعبير جراء استنكاري الشديد من هول تلك المفاجأة، لكنها على العكس تمامًا ساعدت العجوز في ارتداء معطفه بكل رحابة صدر، وحينما صار متأهبًا للمغادرة، أخذت شمعة لتنير لنا الطريق. عندما وجدت أننا لم نتبعها كما توقعت، نظرت فقط إلى الوراء بابتسامة، ومن ثمَّ انتظرتنا. بدا على وجه العجوز في وضوح تام إدراكه لسبب ترددي، لكنه ظل صامتًا، أومأ إليَّ برأسه فقط للخروج أمامه من الغرفة. لم يكن لديَّ أي حيلة سوى الامتثال لإيماءته.
حينما وصلنا إلى الباب، وضعت الطفلة الشمعة عن يدها، إلتفتت لتودعنا وتتمنى لنا ليلة طيبة، ومن ثم رفعت وجهها لتقبلني. جرت مسرعة إلى العجوز، الذي من فوره طوقها بذراعيه، ودعا أن يباركها
الخالق.
قال في صوت منخفض: "نومًا هنيئًا يا نيل.. ستحرس الملائكة سريرك! لا تنسي صلواتك يا جميلتي".
قالت الطفلة في حماس: "لن أنساها بكل تأكيد.. إنها تجعلني أشعر بالسعادة!".

قال العجوز: "هذا جيد، أعلم أنها تسعدك، يجب عليها حتمًا أن تسعدك.. فليباركك الخالق مائة مرة! سأعود إلى المنزل في الصباح الباكر".
ردت عليه الطفلة: "حسنًا.. لا تقرع الجرس مرتين؛ إنه يوقظني، حتى وإن كنتُ في منتصف أحلامي".
مع انتهاء تلك المحادثة، فرغا من احتضان بعضهما. فتحت الطفلة الباب - كان مغلقًا حينها بقفل، سمعت الصبي يضعه قبل أن يغادر المنزل -، ومن ثم كان وداع أخير، ودعتنا الطفلة خلاله بكلمات صافية مليئة بالعاطفة، أكاد أكون تذكرتها آلاف المرات، وأبقيت على ذكرها حتى غادرنا.
توقف العجوز للحظة في روية، بينما كانت تغلق الباب برفق من الداخل؛ ليطمئن على إتمام ذلك، ثم مشى في هوادة بخطوات بطيئة. توقف عند زاوية الطريق، ينظر إليَّ، وقال بملامح يشوبها القلق: إن طريقينا مختلفان، وإنه تتحتم عليه المغادرة والانفصال عن رفقتي. كنت بصدد الحديث إليه، لكنه على عكس المتوقع من رجل في هيئته، كان قد استجمع قواه، وسار بعيدًا في خفة متناهية. استطعت أن أراه ينظر إلى الوراء مرتين أو ثلاث مرات؛ ليتبين ما إن كنت لا أزال أنظر إليه أم لا، أو ربما ليطمئن نفسه مؤكدًا لها أنني لا أتبعه عن بعد. فضَّل الليل الحالك مواراته عن الأنظار، حتى اختفى بالكلية عن ناظري.
بقيت واقفًا حيثما تركني، لا أبدي أي رغبة في المغادرة، دون أن أدرك أي سبب لوقوفي وعزمي على عدم الرحيل. نظرت في أسى شديد نحو الشارع الذي خلفته ورائي مؤخرًا، وبعد مضي فترة من الوقت، مضيت إلى ذلك الطريق. مررت بالمنزل مرارًا وتكرارًا، ثم توقفت عند الباب، واسترقت السمع من خلاله، كانت الرؤية منعدمة، أما عن الصوت فكان المنزل في صمت قبرٍ.
رغم ذلك، لم أستطع إرغام نفسي على الإبتعاد، بقيت في مكاني، أفكر في كمِّ الأضرار المحتملة التي قد تحدث لتلك الطفلة - من سرقات وحرائق إن لم يكن القتل -، ويخالجني شعور أن الشر سيحضر بمجرد أن أولي ظهري بعيدًا عن ذلك المكان.
كان الشارع مقفرًا وكئيبًا؛ تواجد فيه القليل من المارة فقط، - برغم أن ذلك كان أمرًا جيدًا بالنسبة لي -. مر عبره بعض مشردي المسارح، بين الحين والآخر كنت أتصدى لصخب شاربي الخمر المترنحين أمام المنزل، لكن تلك المضايقات لم تكن مستمرة وسرعان ما توقفت. دقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. مشيت بخطوات ثابتة ذهابًا وإيابًا، قاطعًا عهدًا على نفسي أن كل مرة ستكون المرة الأخيرة، ثم أنقض العهد بيني وبين نفسي حين أستشعر نداءات جديدة، ومن ثم أُعيد الكرَّة مرة أخرى.
كلما تفكرت فيما قاله العجوز، وفي نظراته وطريقة مشيته، كلما قل إدراكي لما أراه وأسمعه. كان لديَّ شك قوي حيال غيابه تلك الليلة، وأن غيابه ليس من أجل غرض حسن. لقد أتيت لمعرفة الحقيقة التي أهدتها إليَّ براءة تلك الطفلة، وقدومي إلى العجوز في ذلك الوقت تحديدًا، ورؤية دهشته الصريحة من وجودي، وحفاظه على غموضه الغريب، وتكتمه دون إبداء أي تفسير. أعادت جميع تلك الخواطر إلى مخيلتي تعبيراته الغريبة المرتسمة على وجهه المنهك، لكن هذه المرة كانت تعبيراته أكثر وضوحًا من ذي قبل؛ أتذكر شرود ذهنه، إلى جانب نظراته المضطربة التي لم تهدأ أبدًا. قد يكون حبه للطفلة متعارضًا مع شرور شخصيته السيئة، لكن ذلك الحب وتلك المودة في حد ذاتهما تناقض مبهم، وإن لم يكن الأمر على هذا النحو! كيف له أن يتركها بمفردها هكذا؟ بغض النظر عن ظني السيئ فيه، لم أشكك أبدًا في أن حبه إيَّاها كان حقيقيًّا. لا

أستطيع أن أعترف بصحة تلك الفكرة؛ أتذكر جيدًا ما مرَّ بيننا، وأتذكر نبرة صوته مناديًا إيَّاها باسمها.
أتساءل حينما أجابت الطفلة على سؤالي وقالت: "أنتظر هنا بالطبع.. دائمًا ما أفعل ذلك!". تُرى ما الذي يجعله يخرج من المنزل الليلة وكل ليلة! استدعيتُ جميع الحكايات الموحشة، التي سمعت عنها من قبل، عن الأعمال السرية، التي تقترف في المدن الكبرى، والهروب من جراء الكشف عنها على مر سنوات طويلة، كانت قصصًا تنضح بالهمجية، لكنني لم أتمكن من إيجاد قصة، تشابه ذلك الغموض، لكن بحثي اقترب من كشف الستر عنه، واكتشاف حل لغزه.
تمكَّنت تلك الأفكار مني، بل أخذ أكثر منها يعتمل داخل عقلي حول تلك النقطة نفسها، واصلتُ السير في الشارع ساعتين متواصلتين، إلى أن شرع المطر يهطل بغزارة، غمرني الإرهاق على الرغم من أنني لم أفقد حماسي الذي كنت عليه في بادئ الأمر، استقللت أقرب حافلة، وعدت إلى المنزل.
كانت النيران مشتعلة في المدفأة، تضفي سرورًا، وكان المصباح مُشتعلًا، يضفي نورًا، استقبلتني ساعتي بترحيبها القديم المألوف، كان كل شيء هادئًا ودافئًا ومبهجًا، على نقيض حَسِن مقارنة بما تركته خلفي من كآبة وظلام.
لكنني طوال الليل، سواء أكنت مستيقظًا أم نائمًا، بقيت مثقلًا، واستعمرت الأفكار نفسها رأسي، واستحوذت الصور ذاتها على ذهني. تمثَّلت قبالتي الغرف المظلمة القديمة المليئة بالكآبة، ودروع الجنود المعدنية الضخمة في صمتها الشبحي، ووجوهها المصنوعة من الخشب والحجارة، المنبعجة في ابتسام، والغبار والصدأ والديدان الناخرة، ووسط كل هذا الخشب المتصدع والمسكن القبيح العفن، تتواجد طفلة جميلة بمفردها، في نومها الساكن، تبتسم خلال أحلامها المنيرة المشرقة.





الفصل الثاني

بعد صراع مع النفس دام أسبوعًا تقريبًا، كان ما انتابني من شعور طواله هو ما أعادني مرة أخرى إلى زيارة ذلك المكان، الذي تركته تحت تأثير الظروف القهرية، التي ذكرتها مفصلة بالفعل، خضعت لشعوري بالكلية، حسمت أمري هذه المرة سأذهب بنفسي نهارًا، وعزمت على أن يكون رحيلي في الصباح الباكر.

وصلت، ومشيت أمام المنزل، سرت في الشارع مرات عدة؛ بسبب التردد الطبيعي الذي يلازم أي رجل مقدم على زيارة غير متوقعة، أو على وجه الدقة زيارة غير مقبولة على الإطلاق. على أي حال، كان باب المتجر مغلقًا، وتبيّن أن من بداخل المتجر لم يدركوا وجودي، كررت الصعود نحو الباب ثم الهبوط إلى الشارع، لكنني سرعان ما تغلبت على ذلك التردد، ووجدت نفسي على حين غرة داخل مخزن تاجر التحف القديمة والنوادر المثيرة للفضول.

تواجد العجوز مع شخص آخر في الركن الخلفي، كان الحديث الذي يدور بينهما مسموعًا، كانا يتحدثان بأعلى طبقة من صوتيهما، لكنهما فور دخولي كفًّا عن الحديث فجأة، وتقدم العجوز على عجل نحوي، قال في صوت مرتجف إنه سعيدٌ بقدومي.

قال لي مشيرًا نحو الشاب الذي كان بصحبته: "لقد قاطعتنا في لحظة حرجة، إن هذا الشاب سيقتلني في غضون أيام، كان ليفعل منذ زمن بعيد، لو تملكته الجرأة".

قال الآخر: "باه! إن أمرنا سيان.. فإذا كان بمستطاعك، كنت لتنهي حياتي من توك". رمقني بناظريه، ثم قال محدقًا إليه في عبوس: "نعلم كلنا ذلك!".

صاح العجوز ملتفتًا في توانٍ: "أظن أنه يمكنني فعل ذلك، لو كان بمقدور الصلوات أو الإيمان أو الكلمات تخليصي منك، يتوجب عليها حقًا أن تودي بك إلى الهلاك.. حينها سأتخلص منك نهائيًا، أكاد أجزم أنك إذا مت، فسوف أشعر بارتياح".

رد الآخر: "أعلم هذا! لقد قلته قبل أن تتلفظ به.. أليس كذلك؟ لكن الصلوات والإيمان والكلمات لن تودي بي، وسأظل حيًّا مفعمًا بالحياة، بكل ما تحمله الكلمة من معان".

صاح العجوز: "هو حيٌّ.. ووالدته هي من توفيت". رفع يديه، ينظر إلى الأعلى في تضرع وكآبة: "اهبطي يا عدالة السماء!".

وقف الآخر متكئًا بقدم على كرسي، ينظر إليه في سخرية لاذعة. كان شابًا يافعًا، قارب الحادية والعشرين من عمره أو نحو ذلك، كان حسن الهيئة، وسيمًا دون شك، على الرغم من أن تعبير وجهه كان بعيدًا كل البعد عن ذلك، فضلًا عن سلوكه وملبسه، ومظهره المتغطر الذي
شاع فيه التبجح، ويثير اشمئزازًا في النفس.

قال الشاب: "عدالة أو لا عدالة.. أنا هنا وسأظل هنا إلى أن يحين الوقت الذي أراه مناسبًا بالنسبة لي للمغادرة، إلا إذا طلبت المساعدة؛ لتجبرني على الرحيل، وهذا ما لن تجرؤ على فعله، كما أعلم.. دعني أقولها لك مرة أخرى.. أريد أن أرى أختي".

قال العجوز بشدة متأففًا: "أختك!".

قال الآخر: "آه! بالتأكيد أختي؛ لا يمكنك تغيير حتمية العلاقات؛ لأنه إذا كان بإمكانك، لكنت غيرتها منذ قديم الزمن. أريد أن أرى أختي، التي تحبسها هنا، وتسمم عقلها بأسرارك الخبيثة،

تتظاهر بحبك لها، وتثابر على خداعها؛ كي تظل تخدمك حتى مماتها؛ من أجل إضافة شلنات قليلة أسبوعيًا إلى أكوام المال التي لا تستطيع حصرها.. أريد أن أراها، وأقول لك إني سأفعل".
صاح العجوز ملتفتًا نحوي: "انظر إلى الشاب الفاضل سليم الطوية الذي يتكلم عن العقول المسمومة! انظر إلى صاحب الشخصية الكريمة الذي يزدري قيمة الشلنات! إن الفاجر الخبيث يا سيدي هو من يكون مذنبًا في جميع الاتهامات، ليست فقط تلك الموجهة ضده ممن ساء حظهم و كانوا من دمه، بل من المجتمع بأكمله، الذي لا يعرف شيئًا عنه سوى سوء أفعاله".
أضاف قائلًا في صوت منخفض وهو يقترب مني: "وكاذب أيضًا يعرف حق المعرفة كيف أن أخته عزيزة، ومقربة مني، ومع ذلك يسعى إلى جرحي، هنا وفي وجود غريب وعلى مرأى ومسمع منه".
قال الشاب معقبًا على حديث العجوز: "لا أكترث لأمر الغرباء؛ لا يعنون لي شيئًا، وآمل ألا أعني لهم شيئًا كذلك. إن أفضل ما يمكنهم فعله هو إبقاء أنوفهم في شؤونهم الخاصة، وأن يدعوني وشأني.. ينتظرني صديق بالخارج، ويبدو أنني سأضطر إلى البقاء هنا لبعض الوقت، لذلك سأستدعيه؛ كي يدخل.. آه! إذا سمحت بالطبع!".
فور انتهائه من حديثه، اتجه نحو الباب، أشار مرات عدة نحو شخص غير مرئي لنا في الشارع، تبين من نفاد صبر الشاب وإيماءاته بإشارات مُلِحَّة، أن مجرد إقناعه وحثه على القدوم، يتطلب جهدًا عظيمًا.
مشى الهويني على الجانب الآخر من الطريق، يردد حجة واهية عن مروره أمام المكان صدفة، نمَّت عن شخصية ذات ذكاء ماكر، لكنه في نهاية المطاف عبر الطريق متجهًا نحو المتجر بعد الكثير من التقطيب وهزات الرأس الرافض لدعوة الحضور.
عرفه الشاب قائلًا: "إنه ديك سويفيلر". ثم دفعه نحو الداخل وأكمل: "حسنًا! اجلس يا سويفيلر".
قال السيد سويفيلر في صوت خفيض: "لكن.. هل السيد موافق؟".
نظر إليه السيد سويفيلر بابتسامة استرضائية؛ يحاول ملاطفته، ثم أبدى ملاحظة أن الأسبوع الماضي كان أسبوعًا نسماته عليلة، وكان جيدًا للبط، أما هذا الأسبوع فنسماته محملة بالأتربة، وأردف أنه أثناء وقوفه بجانب العمود في زاوية الطريق، لمح خنزيرًا مع قشة في فمه، مصدرها متجر التبغ، مستنبطًا من ظهوره على تلك الشاكلة، أن أسبوعًا آخر سيكون جيدًا للبط على وشك الإقتراب، وأن المطر سيهطل بكل تأكيد. علاوة على ذلك، اقتنص فرصةً؛ للاعتذار عن أي رثاثة، قد تكون ملحوظة على ملابسه؛ فقد كان مفترشًا الأرض في الليلة الماضية، ومع ذكره لعبارة: "كانت الشمس ساطعةً جدًّا ومسلطة على عينيه"، كان من المفهوم أنه يوضح لمستمعيه من خلال أكثر الطرق الممكنة كياسة، أنه كان سكرانًا بإفراط.
قال السيد سويفيلر متنهدًا: "لكن ما.. ما احتمالية اشتعال نيران الروح وتفتيت الألفة، وعدم إسقاط جناح الصداقة لريشة منه أبدًا! ما احتمالية اتساع رحابة الروح بالنبيذ الوردي، وأن اللحظة الحالية هي اللحظة الأقل سعادة في كينونتنا!".
قال صديقه في همس يشبه الحديث المنفرد: "لا تحتاج إلى التصرف كرئيس هنا".
صاح السيد سويفيلر بينما يحك أنفه: "فريد! إن الحكيم تكفيه كلمة واحدة.. ربما نكون صالحين وسعداء دون ثروات يا فريد. فلا تتلفظْ بكلمة أخرى؛ إني أعرف مقصد تلميحاتي. ذكية هي الكلمة.. فقط همسة صغيرة واحدة يا فريد: هل السيد ودود؟".

أجاب صديقه: "عذرًا!".
قال السيد سويفيلر: "هذا صحيحٌ للمرة الثانية، صحيح جدًّا.. إن الحذر كلمة، واتخاذه فعل".. مع انتهاء تعقيبه، غمز كما لو كان يتكتم على بعض الأسرار الدفينة، طوى ذراعيه على بعضهما، مال بظهره إلى الوراء على كرسيه، ومن ثم نظر إلى السقف في تدبر عميق.
ربما لم يكن بالأمر غير العقلاني، إن شككنا فيما مرَّ به بالفعل؛ لم يكن السيد سويفيلر قد استعاد ولو حتَّى جزءًا بسيطًا من وعيه، من السكر ومن تأثير لفحات أشعة الشمس على رأسه، التي أشار إليها خلال حديثه من قبل. لكن حديثه على صعيد آخر، إن لم يكن قد تسبب في إيقاظ شكوكنا، فسوف يكون شَعره الأشعث، وعيناه الباهتتان، ووجه الشاحب شهودًا أقوياء ضده. لم تكن ملابسه مهندمة أو منمقة - كما أشار - بل كانت رثة فوضوية، تؤكد بشدة على فكرة نومه بها. تألفت من معطف بني، عليه الكثير من الأزرار النحاسية الضخمة في المقدمة، وزرار واحد في الخلف، ووشاح مزركش، وصدرية منقوشة، وبنطلون أبيض متسخ، وقبعة مرتخية، يرتديها على الجانب الخاطئ بالمقلوب؛ ليخفي رقعة في حافتها. كان صدر معطفه مزخرفًا به جيب خارجي، يظهر منه طرف شديد النظافة لمنديل كبير ذوقه منفِّر، كان قد شمَّر سوار قميصه القذر بقدر ما استطاع، وطواه للخلف على معصميه بشكل ظاهر، لم يكن مرتديًا أي قفازات، لكنه كان ممسكًا بخيزرانة صفراء، يوجد في أعلاها عظام يد قابضة على كرة سوداء، وشيءٌ شبيه بالخاتم في إصبعها الصغير. بعد ذكر جل تلك الصفات - التي يمكن إضافتها إلى رائحة التبغ النفَّاذة التي تفوح منه، والتشحم اللزج السائد على مظهره - أسند السيد سويفيلر ظهره على كرسيه، وسلط عينيه على السقف في ثبات، كان بين الحين والآخر يعلق في صوت جهوري، يفرض على مَن حوله أنفاس الحانة الكئيبة، ثم في خضم ملاحظته، يعود إلى صمته مرة أخرى.
جلس العجوز على كرسي، وطوى ذراعيه، أحيانًا ينظر إلى حفيده، وأحيانًا أخرى ينظر إلى رفيقه الغريب، بدا كما لو كان عاجزًا، وليس بيده أي حيلة، سوى تركهما يفعلان ما يحلو لهما. ارتكن الشاب اليافع إلى الطاولة، على مسافة غير بعيدة من صديقه، بدا في حالة لا مبالاة واضحة تجاه ما حدث بأكمله، ساعتها كنت أشعر بحنق بالغ؛ أقاوم رغم مناشدات العجوز واحتكامه إليَّ بالكلمات والإيماءات على حد سواء، المبادرة بأي تدخل، لذا تظاهرت بأفضل ادعاء متاح، وتصنعت أني أفحص التحف المعروضة للبيع، وإيلاء القليل من الإنتباه إلى الشخص الجالس أمامي.
لم يستمر الصمت لفترة طويلة، بالنسبة إلى السيد سويفيلر، فقد أزاح ناظريه أخيرًا عن السقف، وعاد إلى حديثه المبتذل مرة أخرى. بعد أن أتحفنا بالعديد من التأكيدات الشجية حول وجود قلبه في المرتفعات، وأن هذا ما أراده، على غرار جواده العربي الذي كان بمثابة تمهيدًا لتحقيق مآثر كبيرة من الولاء والبسالة.
قال السيد سويفيلر - كأن فكرة طارئة خطرت على باله فجأةً - متحدثًا في همسه المسموع مرة أخرى: "يا فريد! هل السيد ودود؟".
رد صديقه في حذر: "هل هذا مهم؟".
قال ديك: "لا! لكن هل هو؟".
- نعم، بالطبع هو كذلك.. لكن ما الذي يهمني إن كان كذلك أم لا؟

بدا أن المحادثة بناء على ذلك الرد بدأت تأخذ منعطفًا أكثر عمومية، وأن السيد سويفيلر يفرض نفسه في وضوح ليأسر انتباهنا.
استطرد في حديثه آتيًا على ذكر المياه الفوارة، وأنه على الرغم من كونها جيدة في المجمل، تُعرِّض المعدة للإصابة بالبرد، ما لم تكن مُحسَّنة بالزنجبيل أو مضافًا إليها قدر صغير من نبيذ البراندي، وبذكر ذلك الأخير، أعتبره المفضل في جميع الحالات؛ فجعله في المقام الأول لنفقاته دائمًا. لم يبادر أحد بمجادلته حول ما كان يطرحه فيما يتعلق بمواضع الأشياء ومقاماتها كأولوية أولى، تابع حديثه ملقيًا بملاحظات حول قيمة الشَّعر البشري كعربون قيم لشراء التبغ، وأن السادة الشباب من "وستمنستر" و "إيتون" بعد تناولهم كميات هائلة من التفاح؛ لإخفاء أي رائحة للسجائر، قد يشمها أصدقاؤهم، غالبًا ما يتم اكتشافهم جراء العواقب الملحوظة التي حلَّت على رؤوسهم. ثم ذيَّل ملاحظاته مستخلصًا، أنه إذا وجه المجتمع الملكي انتباهه نحو تلك الأوضاع العامة، وسعى لاستنباط سبلٍ من الموارد العلمية؛ تهدف إلى منع تلك الظواهر غير المرغوبة، حينها سيُنظر إليه فعليًّا على أنه ذو فضل على البشرية. بدا أن تلك الآراء لا جدال عليها وأنها على قدر المساواة مع تلك التي كان قد أعلنها بالفعل سابقًا، لكنه واصل الحديث آتيًا على ذكر نبيذ جامايكا روم، أبلغنا بأنه على الرغم من ثرائه بنكهة غنية، وكونه مسكرًا مقبولًا، لديه عيب؛ وهو بقاء مذاقه المستمر حتى اليوم التالي، ولأنه لا وجود لأحد يتمتَّع بالجرأة الكافية كي يجادله حول تلك النقطة أيضًا، بعد سرده لتلك الملاحظة زادت ثقته في نفسه، وأصبح أكثر تواصلًا واندماجًا.
قال السيد سويفيلر: "إنها نزغات شيطانية.. إننا بصد أكثر الأمور تعقيدًا يا سادة.. عندما تقطع العلاقات وتتضارب. إن كان لزامًا على جناح الصداقة ألا يسقط ريشة، فيجب ألا يُقص جناح العلاقات الأخرى أبدًا، بل ينبغي تركها ممتدة وساكنةً دائمًا. لماذا يجب على الحفيد والجد استنزاف نفسيهما في ذلك العنف المتبادل، بينما يجب على الجميع العيش في وئام وهناء.. لماذا لا نتصافح الأيدي وننسى ما
كان؟".
قال صديقه: "انتبه إلى كلامك!".
قال السيد سويفيلر: "لا تقاطع سير الحديث يا سيدي.. والآن يا سادة، إلى أي ركيزة تستند قضيتنا من حيث الظروف المواتية؟ نجد أمامنا الجد الظريف - أقولها بالطبع وأنا ممتثل لأقصى درجات الاحترام والحفيد الشاب المتعجرف.
قال الجد الظريف للحفيد الشاب المتعجرف: "لقد ربيتك وعلمتك يا فريد، ووضعتك على الطريق الذي تجد فيه سبيلًا لحياتك، ومن جانبك انشققت عنا، مثلما يفعل الخساسة، لذلك لن تحظى بفرصة أخرى، أو حتى ترى خيال نصفها. حضَّر الحفيد الشاب المتعجرف ردًا على ذلك وقال: "أنت غني، لم تنفق عليَّ نفقات استثنائية، بل احتفظت بأكوام من المال من أجل أختي الصغيرة، التي تعيش معك بطريقة سرية وخفية، تشوبها الريبة، دون أدنى صورة من صور المتعة.. لماذا لا تستطيع تنحية أمر تافه لا يُذكر من أجل تواصل العلاقات الناضجة؟". ودائمًا ما يأتي رد الجد الظريف حاسمًا حيال ذلك؛ فهو لا يكتفي برفض السداد فقط، على الرغم من أن ذلك عادةً ما يكون مقبولًا ومرحَّبًا به من رجل في نفس عمره، بل يأتي الرد محتدًّا، ولا يتوانى الجد عن استدعاء أشخاص، والمزايدة في ردود الفعل، كلما إلتقيا. لكن السؤال الواضح الذي يطرح

نفسه، أليس من المؤسف أن تستمر هذه الحالة، أليس من الأفضل أن يُسلِّمه الجد قدرًا مقبولًا عادلًا من ذلك المعدن، ويجعل الأمر برمته على ما يرام ومريحًا؟".

حينما فرغ السيد سويفيلر من خطابه الذي ألقاه في حماس متقد، وقد أحسن استخدام يديه في تشكيل حركات منمقة محسوبة، دفع آخر خيزرانته إلى فمه، كأنه يمنع نفسه من إضافة أي كلمة أخرى، تضعف من تأثير حديثه.

قال العجوز ملتفتًا إلى حفيده: "لماذا تطاردني وتضطهدني؟! كان الخالق في عوني! لماذا تُحضر رفاقك الماجنين إلى هنا؟ كم مرة عليَّ أن أخبرك أن حياتي قائمة على الحرص وإنكار الذات، وأنني فقير فعلًا؟".

ردَّ الآخر ناظرًا إليه في فتور: "وكم مرة عليَّ أن أخبرك أني على بينة بالواقع؟".

قال العجوز: "لقد اخترت طريقك الخاص، اتبعه، واترك نيل وشأنها، اتركنا نكدح ونعمل".

ردَّ الآخر: "سوف تكون نيل سيدة فيما هو قريب، وسوف تُربيها على معتقداتك التي تؤمن بها، وبالتالي ستنسى شقيقها، إلا إذا أتي بنفسه أحيانًا ليراها".

قال العجوز وقد برقت عيناه: "كن حريصًا! فهي لن تنساك، عندما تطرأ على ذاكرتها القوية.. كن حريصًا ألا يأتي يوم تجوب فيه الشوارع حافي القدمين، وتركب هي عربتها الخاصة".

رد الآخر بحسم: "أتقصد عندما يكون لديها أموالك؟ عن أي رجل فقير كنت تتحدث إذنْ؟".

قال العجوز وقد أخفض صوته، حتى بدا كشخص يتحدث إلى نفسه بصوت عال: "ولا أزال! يا لنا من بائسين! ما بال هذه الحياة! لتحف حياة طفلة صغيرة بريئة بجميع تلك الشرور والأخطار وكل تلك العقبات.. ما بال هذه الحياة! لا يسير فيها أي أمر على ما يرام! ألهمنا الأمل والصبر! ألهمنا الأمل والصبر!".

تمتم العجوز بتلك الكلمات بصوت هامس منخفض جدًّا، لم تلتقطه آذان الشباب. بدا السيد سويفيلر وقد أكثر من التدبر أثناء حديثهما؛ حتى يضمِّنه تلميحات، يثير مغزاها بعض الصراعات العقلية، التي نتجت بالفعل عن التأثير الفعال لخطابه، لكز صديقه بخيزرانته، هامسًا إليه بأن قدرته على الإقناع أسفرت عن "جدال"، وأنه يتوقع إضافة عمولة على أرباحه. اكتشف السيد سويفيلر زلته بعد فترة من الوقت، فبدأ يتملص في جلسته مدعيًا شعوره بالنوم، وعدم قدرته على التواصل، وجاء أكثر من مرة على ذكر رغبته الفورية في المغادرة، وعندما هم بفتح الباب، كانت الطفلة نفسها أمامه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثالث

تعقَّب الطفلة كهلٌ، وُصِم بملامح حادة وهيئة منفّرة بشكل ملحوظ، كان قصير القامة كالقزم تمامًا، رغم أن وجهه ورأسه كانا ضخمين بما يتناسب مع عملاق. بدت عيناه السوداوان خبيثتين وماكرتين، اكتسب فمه وذقنه مظهرًا حادًا وغليظًا؛ بسبب لحيته القصيرة،الخشنة، أما عن مظهره العام، فلم يَبدُ عليه نظافة أو هندام إطلاقًا. لكن أكثر شيء مغاير خالط تعابير وجهه البشعة كان ابتسامة مروعة، بدت كنتيجة لعادة سلوكية، ليس لها أي صلة بشعوره بالرضى أو بالابتهاج، كشفت تلك الإبتسامة عن أنياب مُفلَّجة غلبت عليها الصفرة، أضفت عليه مظهر كلب يلهث. تألفت ثيابه من قبعة كبيرة عالية، وبدلة داكنة مهترئة، وحذاء واسع جدًّا، ووشاح متسخ أبيض مكرمش ومزحزح عن مكانه، يكشف عن جزء كبير من رقبته النحيلة كان شعره أسود قصيرًا خالطه الشيب، مستقيمًا عند منبته، أشعثَ حول أذنه. كانت يداه خشنتين، بها حبوب جافة مقززة، وأظافره طويلة وملتوية صفراء.
مرت لحظات رتيبة قبل أن يقطع أحدنا الصمت الذي دب في أركان المكان خلالها اتسع الوقت لملاحظة تلك التفاصيل، على الرغم من كونها واضحة بما يكفي، ولا تستدعي تدقيقًا. تقدمت الطفلة في خجل صوب شقيقها، وضعت يدها في يده، ممسكة بها، حدَّق القزم - إذا جاز لنا تسميته بذلك المسمى - إلى جميع الحاضرين بنظرات ثاقبة حادة، في حين أن صاحب متجر التحف بدا مرتبكًا ومحرجًا؛ بسبب زيارة ذلك الأخرق غير المتوقعة.
قال القزم، مادًّا يده إلى ما فوق عينيه نحو الشاب، ليتفقده: "آه! ينبغي أن يكون هذا حفيدك، أيها الجار!".
أجاب العجوز: "قل فضلًا عن ذلك أنه ينبغي ألا يكون.. لكنه حفيدي بكل أسف".
قال القزم، مشيرًا إلى ديك سويفيلر: "ومن هذا؟".
أجاب العجوز: "صديقه.. نرحب بوجوده كترحيبنا بوجود الآخر تمامًا".
إلتفتَ القزم إليَّ وأشار إليَّ مباشرة مستفسرا: "ومن هذا؟".
- إنه رجل نبيل؛ أعاد نيل إلى المنزل في إحدى الليالي، عندما ضلَّت طريقها إلى المنزل.
إلتفتَ قصير القامة إلى الطفلة؛ كي يوبخها على فعلها أو ليعبر عن استنكاره الشديد، لكنه وجدها تتحدث إلى الشاب فتراجع عن فعله؛ وأمال رأسه؛ ليسترق السمع.
قال الرفيق الشاب في صوت جهوري: "حسنًا! هل يحثكِ على كراهيتي؟ أجيبيني! ألا يفعل ذلك؟".
صاحت الطفلة: "لا لا! حتمًا لا! كيف تقول ذلك".
قال شقيقها متهكمًا: "إذَنْ حثكِ على حبي بدلًا من ذلك؟".
ردت الطفلة: "لا! في الواقع لم يفعل هذا أو ذاك.. لا يتحدث معي عنك مطلقًا".
قال الشاب ممررًا نظرة حادة إلى جده: "سأحرص على فعله ذلك، سأحرص على فعله ذلك بجسارة يا نيل.. أوه! أنا أصدقك تماما!".
قالت الطفلة: "لكنني أحبك كثيرًا بالفعل يا فريد".
- بلا شك!

كررت الطفلة بمزيد من العاطفة: "أحبك فعلًا، وسأحبك إلى الأبد.. لكنك إذا كففت عن مضايقته وإزعاجه، وجعله غير سعيد سوف أحبك أكثر".
قال الشاب: "أظن ذلك!".
انحنى ليقبلها بمشاعر باردة، ومن ثم دفعها بعيدًا عنه قائلًا: "إذن! ابتعدي عني الآن؛ لقد رددتي درسكِ بإحكام، لستِ بحاجة إلى هذا الكم من التذمر. نحن أصدقاء جيدون إن كان هذا ما يهم في الأمر كله".
إلتزم الصمت، ظل يتبعها بعينيه إلى أن وصلت غرفتها، وأغلقت الباب، ومن ثم إلتفتَ إلى القزم فجأة: "وأنت يا سيد..!".
رد القزم: "أتقصدني؟ اسمي كويليب. اسم ليس بطويل، حتمًا ستتذكره.. دانيال كويليب"
تابع الآخر: "حسنًا يا سيد كويليب.. يبدو أن لك بعض التأثير على جدي".
قال السيد كويليب مشددًا على ما ذكره: "امم! بعض".
- وتعرف عنه القليل من الأسرار وأسباب غموضه.
رد السيد كويليب في فتور متساوٍ: "أممم! القليل".
- إذنْ دعني أخبره من خلالك لآخر مرة وإلى الأبد، أنني سآتي إلى هذا المكان وسأغادره وقتما أشاء؛ ما دام مبقيًا على وجود نيل معه، وأن خلاصه الوحيد كي لا يراني مرة أخرى، هو أن يتخلى عن وجود نيل. ما الذي اقترفته؛ كي أكون مصدرًا للقلق وإثارة غضبه بهذا الشكل! كي يتجنبني ويفزع عِند مجيئي، كما لو كنت أحضر معي الطاعون؟ أعلم أنه سيخبرك أنه لا يحبني بالفطرة، وأن لا جرم في مسعاه، وأنه يجب عليَّ ألَّا أتقرب إلى نيل وألا أهتم بها، ليس من أجله، بل من أجل مصلحتها أولًا.. حسنًا! دعه يقول ذلك.. نعم! أنا شخص يهتم بأهوائه الخاصة، ووفقًا لهذا سآتي وأذهب من هنا؛ وسأذكرها بوجودي إلى جانبها، ما دمت أريد ذلك. هذه هي مسألتي، وهذا هو مسعاي. جئت إلى هنا اليوم لأحقق ذلك، وسأكرر فعلي، وأعود إلى هنا خمسين مرة أخرى، لتحقيق نفس المسعى، وسأظل مثابرًا على إنجاحه. قلت إنني لن أتوقف عن فعلي، حتى أحصل على ما أريد.. لقد انتهيت من حديثي، والآن انتهت زيارتي.. هيا يا ديك!
صاح السيد سويفيلر بينما كان رفيقه متجهًا نحو الباب: "انتظر! أيها السيد".
قال السيد كويليب لمن ناداه: "خادمك المطيع يا سيدي".
قال السيد سويفيلر: "أريد أن أدلي بتصريح أخير، إن أذنت لي بالطبع.. قبل أن أترك مشاهد احتفالية صاخبة، وقاعات ضوء مبهر.. وآتي إلى هنا اليوم، كان لديَّ انطباع أن ذلك الرجل ودود..".
قال دانيال كويليب إثر توقف المخاطب فجأةً عن الحديث: "أكمل يا سيدي!".
-... لكن ما حدث هنا أوحى إليَّ بأمر، وأيقظ مشاعري يا سيدي، إن المشاعر مثل الصديق المشترك، الذي لا يقع في حسبانه أمور مثل التنمر والإغواء وافتعال المكائد وإثارة الغضب للتقريب بين النفوس، أو لتعزيز التوافق الإجتماعي بين الأطراف المتنازعة، لذلك سآخذ على عاتقي أن أقترح نهجًا، سيكون المسار الذي سيتم اعتماده وفقًا للظروف المواتية.. هل تسمح لي أن أُصرح بنصفها أيها السيد؟
خطى السيد سويفيلر بالفعل نحو القزم، دون أن ينتظر إجابة على الإذن الذي طلبه، استند على كتفه ومن ثم انحنى؛ ليصل إلى أذنه، وقال بصوت كان مسموعًا بوضوح للحاضرين: "ستكون

كلمة السر التي تجمعني بالعجوز هي.. الشوكة".
سأل كويليب مستفسرًا: "ستكون ماذا!".
أجاب السيد سويفيلر: "ستكون الشوكة يا سيدي، الشوكة)[1] (!"، ثم ربت فجأةً وبقوة على جيبه: "هل أنت مستيقظ يا سيدي؟".
أجاب القزم بإيماءة، ردها عليه السيد سويفيلر، مبتعدًا قليلًا عنه،
ثم ردها مرة أخرى المثل بالمثل، مبتعدًا قليلًا عنه. ظل على فعله هذا، إلى أن وصل إلى الباب، ثم إلتفتَ وسعل سعالًا عاليًا؛ لجذب انتباه القزم؛ للحصول على مساحة تعبير أكبر في عرضه الغبي، لافتًا إلى ثقة مقربة نشأت بينهما، مؤكدًا على السرية التي لا يجوز انتهاك حرمتها. بعد أن أنهى تمثيله الجاد لتلك المسرحية الإيمائية، التي بدت ضرورية لنقل فكرته، اتَّخَذَ سبيل رفيقه للخروج، ثُمَّ اختفى بالكلية عن الأنظار.
تمتم القزم ناظرًا إلى ما فوق كتفيه بامتعاض: "همف! هذا قدر مبالغٌ فيه من العلاقات الوطيدة.. أشكر الخالق الذي لم يبتلني بواحدة تلك العلاقات!". إلتفتَ إلى العجوز مستطردًا: "وأحسب أنك في غنى عنها أيضًا وبكل تأكيد، ولكنك في حال آخر لا يجب أن تكون فيه ضعيفًا كالحشائش أو مستثارًا كالأخرق فاقد الإدراك".
رد عليه العجوز في وهن، كمن ليس في يده حيلة: "ماذا كنت تريد مني أن فعل؟ أعتقد أنه من السهل أن تتحدث وتسخر، طالما كان الأمر لا يخصك، لكنك إن كنت حقًّا في مكاني، ماذا كنت ستفعل؟".
قال القزم: "ماذا كنت سأفعل إن كنت حقًّا في مكانك؟".
- شيئًا فضًّا عنيفًا.. دون شك.
كان قصير القامة ممتنًا للغاية؛ بسبب ما قاله العجوز، بدا بكل وضوح إلى حد كبير أنه اعتبرها مجاملة ما، فرك يديه القذرتين ببعضهما، تبسم كشيطان وقال: "أنت على حق تماما يا سيدي.. اسأل زوجتي، السيدة كويليب، السيدة كويليب الجميلة والخجولة، والمطيعة، السيدة كويليب العطوفة. لكن هذا يذكرني.. بأنني تركتها بمفردها، وأنها ستكون مضطربة تمامًا، ولن تشعر بالسلام ولو لدقيقة، حتى أعود إليها مرة أخرى. أعرف أنها دائمًا ما تكون في تلك الحالة، طالما كنت بعيدًا، لكنها لا تفصح مطلقًا عن ذلك.. إنها لا تجرؤ على هذا الفعل، إلا إذا عن أذنت لها أن تتحدث بعفوية، وطمأنتها بأنني فعلًا لن أغضب منها.. أوه! السيدة كويليب المدرَّبة جيدًا".
بدا ذلك المخلوق في جسده الضئيل ورأسه الوحشي بشعًا تمامًا ومثيرًا للذعر، بينما كان يفرك يديه ببعضهما في حركات دائرية، مرارًا وتكرارًا، - فبالرغم من أنه قد كان مألوفًا بالفعل، إلا أنه قد اكتسب خصلة حمقاء يكمن فيها الشر - على الأخص عندما أخفض حاجبه الأشعث، وأمال ذقنه في الهواء؛ يسترق النظر إلى الأعلى بنظرات بدت كما لو أنه اختلسها من عفريت، ومن ثمَّ اختص بها نفسه.
قال: "ها هو!". ثم اقترب من العجوز بينما يضع يده على صدره، مكملًا حديثه: "ها هو! لقد أحضرته بنفسي؛ خوفًا من الحوادث، إنه من الذهب، أظنه كان أثقل وأكبر من أن تحمله نيل في حقيبتها، لكنها بحاجة إلى أن تعتاد على حمل مثل هذه الأوزان يا جاري العزيز؛ لأنها ستحمل الكثير عندما تكون ميتا".

قال العجوز بنبرة فيها الكثير من التأوه: "ربما أرسلتها السماء إليَّ.. كم آمل ذلك!".
ردد القزم مقتربًا من أذن العجوز: "آمل ذلك أيضًا! لكن أيها الجار العزيز! كنت أود حقًّا أن أعرف أي استثمار جيد هذا الذي يتطلب كل تلك الإمدادات، وأنت رجل غامض، يحتفظ بسره لنفسه في تكتم".
قال الآخر بنظرة واهنة: "سري! نعم! أنت على حق.. أحتفظ أحتفظ به لنفسي.. في تكتم.. في تكتم شديد".
لم يقل كلمة أخرى، أخذ المال فقط، ثم إلتفتَ وخطا خطوات غير ثابتة وبطيئة، واضعًا يده على رأسه كرجل مغتم وواهن العزيمة. تبعه القزم بنظراته عن كثب، أثناء دخوله إلى غرفة الجلوس الصغيرة، حيث وضعها في خزنة حديدية، فوق المدخنة، وأحكم إغلاقها. بعد أن شرد في تأملاته لفترة وجيزة، تأهب ليغادر، وأدلى بملاحظة أنه إذا لم يعجل بأمر رحيله، سيجد السيدة كويليب عند عودته صريعة إحدى النوبات.
أضاف قائلًا: "حسنًا أيها الجار، سأتجه إلى المنزل، تاركًا خالص حبي ومودتي لنيلي، آملًا ألَّا تضل طريقها مرة ثانية، رغم أن فعلها ذلك قد أوصلني إلى مراتب شرف لم أكن أتوقعها". بمجرد أن أنهى فعله، انحنى، وهو ينظر إليَّ نظرة نهمة للمعرفة، وينظر حوله في فطنة، بدا كما لو كان يتفحص كل شيء داخل نطاق رؤيته، حتى إن كان صغيرًا أو عديم الأهمية، وبعدها مضى في طريقه.
حاولت المغادرة عدة مرات، لكن العجوز كان يعارضني في كل مرة؛ ويستحثني على البقاء. بدأ مجددًا في الثناء على كوننا بمفردنا، معربًا في أغلب حديثه عن جزيل شكره وامتنانه؛ للفرصة السابق ذكرها التي جمعتنا معًا، لذلك خضعت عن طيب خاطر لما ألَّح عليَّ به، فجلست، ومن ثمَّ تظاهرت بتفحصي لبعض المنمنات المثيرة للفضول، والميداليات القديمة التي قد وضعها أمامي. في حقيقة الأمر، لم تكن هناك حاجة إلى الإلحاح عليَّ، لحثي على البقاء؛ إذ كان فضولي نهمًا خلال زيارتي الأولى، فمِن المؤكد أن فضولي لم يقل الآن.
انضمَّت إلينا نيل بعد فترة ليست بالطويلة، جلست إلى جانب العجوز، وقد جلبت معها إبر تطريز، وضعتها على الطاولة. كان من المبهج النظر إلى الزهور النضرة في أرجاء الغرفة، والتماس الينوعة والانتعاش، والنظر إلى عصفور يظلل قفصهُ غصنٌ صغير أخضر، يحدث حفيفًا ناعمًا بدا كما لو كان يدور حول الطفلة في نسمات منعشة، تتخلل ذلك البيت الموحش القديم. لكن المشهد بأكمله لم يَبْدُ مستساغًا، بدا غريبًا؛ حيث تنتقل من رؤية جمال الفتاة ورقتها، إلى رؤية راعيها العجوز، أحدب الظهر ذي الوجه المهموم والمظهر المغتم. أتساءل كيف سيتثنى لهذا الكائن الصغير العيش بمفرده، عندما يصبح العجوز أكثر وهنًا وضعفًا، ما الذي سيحل بها، إذا كان تحل عليه الآن أقصى درجات الوهن والضعف.. بافتراض أنه قد مات، إلى أين سيؤول يصبح مصيرها حينذاك؟
أجاب العجوز بالأحرى على أفكاري المتخبطة داخل رأسي في صوت عالٍ، وهو يضع يده على كتفها.
حيث قال: "سأكون هنا دائمًا إلى جانبك يا عزيزتي نيل، أدعمك بقوة.. ولتحقيق هذا، يجب أن يتوفر لك ثروة جيدة في هذا المتجر، لا أريد شيئًا منها لنفسي؛ جميعها لكِ. أُسلِّم بحتمية وقوع

مثل هذا الشقاء على عاتق الأبرياء. لكنني غير قادر على الاستيعاب أو الإحاطة بالمغزى، لكنه أمر مفروغ منه، فقط كوني متأهبة، ستأتي الثروة في النهاية!".
نَظرتْ إلى وجهه في بشاشة، لكنها لم تقدم أي رد.
قال: "عندما أفكر في السنوات الكثيرة.. الكثيرة حقًّا على الرغم من عمرك الصغير التي عشت فيها معي، وتحملتِ وجودي الرتيب، وعدم وجود رفاق يماثلونكِ عمرًا، أو توفر ملذات طفولية، فضلًا عن الوحدة التي نشأت في كنفها، حتى أصبحتِ ما أنتِ عليه الآن، بعيدة كل البعد عن أي شيء آخر، سوى رجل عجوز.. أخشى أحيانًا أن أكون عن قد تعاملت معكِ بقسوة فظة يا نيل...".
صاحت الطفلة فجأة: "يا جدي!".
قال: "لا لا لم يكن ما تصورتِ هو مقصدي، أو كان هذا غرضي.. كنت أترقب دائمًا الوقت الذي يمكنكِ فيه الإختلاط بما هو أكثر جمالًا ولطفًا، وأن تنتقلي إلى مرحلة أفضل. لا أزال أتطلع إلى الأمام يا نيل، لا أزال أتطلع إلى المستقبل، ولكن.. ماذا لو حان وقت كنتُ فيه مجبرًا على تركك، وفي الوقت ذاته يجب أن أهيئك لتناضلي في خضم صراعات ذلك العالم؟ حتى تلك الطيور المسكينة هناك يجب أن تكون مؤهلة لتواجه هذا العالم، وتعلم أنها أُقصيت من الرحمات.. اسمعي! إنه كيت، لقد أتى بالخارج، اذهبي إليه يا نيل".
قامت الطفلة، وجرت مسرعة، لكنها توقفت، وعادت إلى العجوز وطوقت بذراعيها رقبته، واحتضنته، ثم جرت مرة أخرى.. لكنها هرولت هذه المرة؛ لتخفي انهمار دموعها.
قال العجوز في همس سريع: "حسنًا.. سأقول لك كلمة أود منك أن تسمعها جيدًا يا سيدي.. لقد داهمني الإضطراب وشعرت بعدم ارتياح إزاء ما قلته لي في تلك الليلة، لم يكن في وسعي شيء سوى إخبارك أنني أفعل دائمًا ما هو أفضل بالنسبة لها - لكن الأوان قد فات ولم أعد قادرًا على التراجع، رغم أنني فاقد لتلك القدرة من الأساس- آملًا أن يلحق بها الفوز؛ لأن كل شيء فعلًا من أجلها فقط، هي المغزى والأساس. لقد تحملت الفقر المضني كثيرًا، وأريد أن أُجنبها مرارة معاناة تحمله. أود أن أُجنبها البؤس الذي ألقى بوالدتها إلى حتفها وأرقدها في القبر وهي صغيرة في العمر، في وقت مبكر. سأتركها، ولكن.. لن أتركها وفي حوذتها موارد من السهل تبديدها وإنفاقها، بل بموارد تُمكنها من الوصول إلى ما تريد مهما كان. هل أخطأت في حكمك عليَّ يا سيدي؟ إنها لن تحصل على مبلغ زهيد أبدًا، سيكون من نصيبها ثروة هائلة.. صه! لقد عادت إلى هنا مرة أخرى لا أستطيع أن أصرح بما هو أكثر من ذلك، الآن أو في أي وقت لاحق".
أصابني هذا الكم الهائل من الحزن الذي أُلقيَ به على مسامعي، ورعشة تلك اليد التي ارتكنت على ذراعي، وعينيه المضطربتين الشاخصتين في تمعن، وسلوكه المرتبك، وذلك الاحتدام الذي غمر حديثه، بحماس متقد ودهشة عارمة قادني جل ما سمعت ورأيت، وعلى وجه الخصوص ما قاله بنفسه إلى افتراض كونه رجلًا ثريًّا بالفعل. لا أستطيع الجزم بأنني قد فهمت مكنونات شخصيته، باستثناء افتراض كونه واحدًا من هؤلاء البائسين المحبطين، المحاطين بالقلق طوال حياتهم، بعد أن حققوا هدفهم الوحيد من حياتهم، ونجحوا في جمع ثروات عظيمة، ثمَّ باتوا جزعين، يخشون الخسارة والخراب، فيظلون سجناء عذاب الفزع من الفقر. اتفق الكثير مما قاله تمامًا مع الفكرة التي خطرت لي، رغم أنه أبلغني أقصى درجات الحيرة ولم أستطع فهمه حينذاك، واستنتجت في النهاية أنه بلا شك كان واحدًا من هؤلاء المشاركين في السباق البغيض.

لقد كان هذا الرأي ناتجًا عن ملاحظة سريعة، أو على وجه الدقة لم تكن هناك فرصة مواتية خلال ذلك الوقت للمزيد من التدقيق؛ فأتت الطفلة مباشرة، وسرعان ما انشغلت؛ كي تصبح على أهبة الاستعداد؛ من أجل أن تعلم كيت دروسًا في الكتابة، بدا أنها تواظب على هذا الموعد مرتين أسبوعيًّا، منهما مرة صادفت ذاك المساء، بدا أن بين كيت ومعلمته لطفًا ووئامًا إلى حد كبير.
لكنك كي تدرك كم استغرق كيت من وقت طويل قبل أن يستعيد رباط جأشه، ويكون على راحته، في حضور رجل غير معروف بالنسبة له، تجمعهما صالة استقبال واحدة، يجب أن تكون ملمًّا ببعض التفاصيل، يجب أن تعلم كيف طوى كميه وثنى مرفقيه، عندما جلس، واضعاً وجهه بالقرب من دفتره، محدقًا في السطور في غرابة تامة.. كيف تمرغ في بقع الحبر، ملطخًا نفسه من أخمص قدميه إلى منبت شعره، منذ اللحظة الأولى التي أمسك فيها بقلم في يده.. كيف كان يلطخ بالحبر الحرف الذي إذا تصادف وأجاد في كتابته فور انتهائه منه عندما كان يشرع في كتابة حرف جديد. كيف كانت نيل تنفجر مع كل خطأ جديد في مرح بصوتٍ عالٍ، ويبادلها المسكين نفسه ضحكات من قلبه لا تقل نقاءً عن ضحكاتها.. كيف حافظت على رغبتها الودودة في تعليمه رغم مرور الوقت، وثابر هو على ما لديه من شغف وحرص على التعلُّم.. كي تدرك تلك التفاصيل وتربط فيما بينها، حتمًا ستستغرق وقتًا أطول من المتاح. يكفي أن أقول إن الدرس قد انتهى، وإن الأمسية قد انقضت، وإن الليل قد زحف ظلامه، وإن العجوز بات أكثر إرهاقًا ونفادًا للصبر، لقد ترك المنزل في تمام الساعة عينها، وقد تُركت الطفلة بمفردها داخل جدران المنزل القائمة مرة أخرى.
الآن وقد طويت تلك الذكرى لزمن طويل في قرارة نفسي، وعرضت هذه الشخصيات على القارئ، سأحرص على سلاسة السرد واتساقه، بإبعاد نفسي عن مساره، وأترك من لهم أدوار بارزة وضرورية؛ للتحدث وتمثيل أنفسهم بأنفسهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الرابع

عاش السيد والسيدة كويليب في "تاور هيل"، حيث تُركت السيدة كويليب في كوخها الريفي في تاور هيل، تتكبد معاناة غياب سيدها، عندما تخلى عنها؛ ليدير عملًا، رأينا بالفعل كيف كان يديره.

لا يمكن الجزم بتجارة معينة أو بعمل محدد يمتهنه السيد كويليب، على الرغم من قيامه بمساعٍ مختلفة ومهن متعددة. اعتاد جمع كافة أجور سكنى المهاجرين في الشوارع والأزقة القذرة بجانب المجرى المائي، كما داوم على اقتناص الأموال من الزوارق التجارية لحساب البحَّارة وضباط الصف في البحرية، إلى جانب حصته التي يأخذها من الربان لمشاركته في مشاريع السفن الشراعية، اعتاد تدخين سجائره المهربة في المكتب الجمركي على مرأى ومسمع من الجميع، كما داوم على ضرب مواعيد؛ لتبادل القبعات اللامعة والسترات يوميًا. إلى جانب نهر مقاطعة "سوري"، كانت هناك ساحة صغيرة، موبوءة بالفئران تُدعى "ميناء كويليب"، قام فيها بيت خشبي صغير يغمره التراب بالكامل، كما لو أنه سقط من بين الغيمات، وقرَّ في الأرض، احتوى على بعض الشظايا من مخلفات المراسي الصدئة، وبعض أكوام الخشب المتهالك، وكومتين أو ثلاث كومات من صفائح نحاسية قديمة، كلها تكومت وتهالكت وسُحِقت ونُخِرت. كان دانيل كويليب هو مفكك السفن في ميناء كويليب، لو أن الحكم ينبني على هذه المظاهر، لتحتم أن يكون كويلب مفككًا قاصرًا للسفن، لكنه في الواقع كان يفكك سفنه إلى قطع متناهية الصغر. لا وجود لأي مظهر من مظاهر الحياة في ذلك المكان المقفر أو أي دليل على وجود أي نشاط بشري، سوى صبي - يجوز أن يُقال عنه أنه برمائي - يرتدي بدلة قماشية، يتلخص عمله في الإنتقال بين الجلوس على رأس كومة راميًا الحجارة في الوحل في أوقات المد، وبين الوقوف بينما يضع يديه في جيبيه؛ محدقًا في النهر دون تكبد أي عناء، مستمعًا إلى صخب أمواجه المتلاطمة.

اشتمل سكن القزم في تاون هيل - بغض النظر عن توفُّر سبل الراحة اللازمة له ولزوجته السيدة كويليب - على حجرة نوم صغيرة لوالدة تلك السيدة، التي كانت تقيم مع الزوجين، وتشن حربًا أبدية ضد دانيال، لكنها تخشى التصدي له؛ لم يكن خوفها منه بسيطًا. في الواقع، كان ذلك المخلوق القبيح يختلق أساليب ما لإثارة خوف الكثيرين ممن يتواصلون معه أو ممن هم على إتصال به بشكل يومي، فصاروا يخشون التعرض لنوبات غضبه - لدرجة أن قبحه أو ضراوته أو طبيعته الماكرة، لم تشكل أهمية كبرى في هذا الخصوص مقارنةً بنوبات غضبه. لكن هيمنته الكبرى لم تقع على أحد سوى السيدة كويليب نفسها.. كانت امرأة شابة قليلة الكلام ذات عينين زرقاوين اجحمت نفسها بالزواج من القزم خلال إحدى تلك المرات التي يتملكها فيها جنون الشغف الغريب، دون أي معنى واضح أو أي سبب مُبرر، لكن كل يوم في حياتها بعد ذلك أصبح بمثابة تكفيرٍ فعليٍّ عن حماقتها.

يُقال عادة أن السيدة كويليب وحدها في كوخها، تتكبد آلامًا نفسية وجسمانية بسبب قلبها المفتور. لكنها لم تكن وحدها بمعنى أن لا بشر معها؛ كانت إلى جانبها والدتها العجوز، التي ذُكرت مؤخرًا، بالإضافة إلى ما يقارب نصف دستة من السيدات، قاطنات الحي نفسه، جمعتهن صدف غريبة - والقليل من التفاهم فيما بينهن -، تتقابلن فقط في أوقات الشاي وتتوافدن واحدة

تلو الأخرى. كان ذلك الوقت مواتيًا لتتبادلن فيه النمائم والقليل من الآراء؛ عادة تكون الغرفة منعشة وظليلة ومكانًا يُشجع على الكسل والتراخي، فضلًا عن وجود بعض النباتات على نافذة مفتوحة، تحجب عنهن الغبار، وتضفي تناغمًا مبهجًا بين طاولة الشاي في الداخل وبين البرج القديم في الخارج، فلا عجب من شعور النساء برغبتهن في التريث والتحدث، خاصةً إن أخذن في اعتبارهن توافر ملذات إضافية، مثل الزبد الطازج والخبز الساخن والروبيان والبقلة.
الآن وإن اجتمعت النساء في رحاب هذه الظروف، فمن البديهي أن يتحول حديثهن حتمًا إلى تساؤلات حول ميل طبيعة الجنس البشري نحو قهر الجنس الأضعف والواجب الذي يجب أن يؤديه الجنس الأضعف؛ لمقاومة هذا الاستبداد من أجل اقتناص حقوقه؛ واسترداد كرامته. كان الحديث عن تلك الأمور شأنًا طبيعيًا، وذلك لأربعة أسباب، أولًا: كون السيدة كويليب امرأة شابة، معروفٌ بشكل علني تسلط زوجها الكامل عليها ما يبرر حماسها المفرط تجاه العصيان.
ثانيًا: كون والدة السيدة كويليب متمردة حادة الطباع بدورها، تنزع إلى مناهضة الهيمنة الذكورية.
ثالثًا: لرغبة شتى الزائرات كل واحدة على حدة في إظهار مدى تفوقها في هذا الصدد على عموم بني جنسها.
رابعًا: لأن تجمعهن مع مرور الوقت قد روَّض خوفهن المروع، حيث حرمن سابقًا من مناقشة تلك المواضيع، لكن صداقة حميمية أصبحت تجمعهن الآن، وأصبح ذلك هو الموضوع المعتاد فيما بينهن، لذلك لم يكن لديهن عمل أفضل من مهاجمة عدوهن المشترك.
انطلاقًا من الدوافع التي غرستها تلك الاعتبارات جميعها، شرعت سيدة بدينة خلال إحدى تجمعاتهن في التطرق إلى ذلك الحديث عبر استفسار، في جوهره قلق وتعاطف شديد، فبادرت بقولها كيف كان السيد كويليب؟، حينها أجابت والدة السيدة كويليب في حدة: "أوه! لقد كان جيدًا بما يكفي.. لم يكن هناك الكثير بشأنه.. لكن ما أكثر الحشائش الضارة في أرضٍ بور".
تنهدت السيدات جميعهن على الفور في نفس واحد، وهززن رؤوسهن في جدية، ومن ثمَّ نظرن إلى السيدة كويليب باعتبارها الضحية.
قالت مَن تحدثت سابقًا: "آه! كم أود أن تسدي إليها بعضًا من نصائحك يا سيدة جينيوين..".
-كانت السيدة جينيوين هي من ترعى السيدة كويليب -"... لا أحد يعرف أفضل منك يا سيدتي.. ما الذي ندين به نحن السيدات إلى أنفسنا!" أجابت السيدة جينيوين: "في الواقع يا سيدتي! حينما كان زوجي - والدها العزيز - حيًّا، إن جادلني ورفض أمرًا ما بشكل قاطع، كنت لأقوم بـ..."
لم تتم العجوز الحسنة إكمال جملتها، وإذ بها قد قطعت رأس روبيان في وحشية مبالغ فيها، وهو ما يعتبر فعلًا بديلًا أبلغ من الكلمات.
في ضوء ما فعلته السيدة جينيوين، فهم الطرف الآخر بوضوح ما أشارت إليه، وهو ما استقبل على الفور في استحسان كبير: "لقد خاطبتِ مشاعري يا سيدتي.. وهذا حقًّا ما كنت سأفعله بنفسي".
قالت السيدة جينيوين: "لستِ مضطرة إلى القيام بذلك.. من حسن الحظ أنه ليس لديك أي فرصة مواتية للقيام بذلك، مثلما كان لديَّ".
انضمت إلى الحديث السيدة البدينة مرة أخرى قائلةً: "لا حاجة لأي امرأة القيام بذلك، إن كانت صادقةً حقًّا مع نفسها".

قالت السيدة جينيوين في صوت لم يَخْلُ من نبرة التحذير: "هل تعترضين في استياء، حين أتلفظ بها!".
كم كانت مسكينة السيدة كويليب! قلَّبت النظر فيمن حولها في حالة من العجز، تنظر تارة إلى وجه كسته ملامح المواساة، ثم إلى آخر كسته ملامح الشفقة، تهز رأسها في ارتياب، تحاول التبسم خجلة، وقد احمر وجهها. كانت تلك هي الشرارة التي أشعلت الحديث وحولته إلى صخب عام، بدأ تدريجيًّا من زفير حاد من أنوفهن إلى ضجيج عارم بفعل صياحهن، تحدَّثن فيه جميعهن في وقت واحد، وقد اتفقن على رأي مماثل، قائلات إنها إمرأة شابة يافعة ليس لها الحق في الإدلاء بآرائها ضد خبرات من هن على دراية أكثر منها، وكم كان من الخطأ عدم الأخذ بنصيحة سيدات ليس في قلوبهن أي شيء سوى الخير، وأن ذلك كان بمثابة التعبير عن عدم الإمتنان - بكل ما تحمله الكلمة من معنى -؛ كي تتصرف بهذا السلوك، وأنها إذا لم تُكنَّ احترامًا لذاتها، يجب عليها أن تُكِّنَّ الكثير من الاحترام للنساء الأخريات، اللاتي قَبِلْنَ بتسوية المذلات الناجمة عن خنوعها، وبالمثل إذا لم تُكنَّ احترامًا للنساء الأخريات، فإن النساء مع الوقت لن يكنن لها أي إحترام أيضًا، وستكون آسفة جدًّا، وعندما يحين ذلك الوقت سوف يذكرنها بكل ما قلن. بعد أن فرغن من لومها بكل تلك العبارات، انقضَّت السيدات في ضراوة أكبر على شرب الشاي وأكل الخبز والزبد الطازج والروبيان والبقلة، قائلات: إن غضبهن كان جامحًا؛ لرؤيتها ثابتة ومستمرة على الحال نفسه، وإنه لمن الصعب أن يسيطرن على أنفسهن إذا أكلن كسرة خبز واحدة فقط.
قالت السيدة كويليب بكل بساطة: من السهل جدًّا أن تتحدثن، لكنني أعلم أنه إذا مت غدًا، سيتزوج السيد كويليب أي سيدة يريدها منكن.. أو بالأحرى يمكنه فعل ذلك الآن.. أنا أعلم ذلك جيدًا".
أتبعت السيدات جملتها بشهقة من السخط جراء فكرتها ورددن "الزواج من أي سيدة يريدها منا!". ثم أردن جميعهن رؤيته يجرؤ فقط على هذا التفكير من دون أن يقدم حتى على الفعل، وأن يطلب الزواج من أي منهن، أو مجرد أن يخطو بالقرب من أي منهن لهذا الغرض. كمثل أي سيدة - أرملة - كانت متأكدة تمامًا من أنه يجب عليها أن تطعنه؛ إن فكَّر أو تجرأ على التلميح لها.
قالت السيدة كويليب وهي تومئ برأسها: "حسنًا! لا يزال الأمر كما قلت للتو؛ من السهل جدًّا أن تتحدثن، لذا دعوني أكرر عليكنَّ حديثي الآن، أنا أعلم.. أو على وجه الدقة أنا متأكدة.. أن السيد كويليب إذا أحب، فلديه طريقة ما تمكنه من جعل أي امرأة هنا، مهما بلغ جمالها، لا ترفضه.. أكرر لكُنَّ، إذا كنتُ ميتةً، وكانت تلك السيدة حرة، ووقع عليها اختياره وأحبها، أراهنكن أنها ستأتي له خانعة!".
اجتمعن جميعًا على السخط مما أردفت به السيدة كويليب وصرخن بعلو أصواتهن: "أعلم أنكِ تقصدينني، دعيه يجسر على المحاولة.."، لكنهن لأسباب خفية لا يعلمها غيرهن، بَدَون غاضبات من الأرملة، حيث تهامست كل سيدة بالقرب من أذن من تجاورها قائلة إنه كان من السهل ملاحظة أن الأرملة تراءى لها بكل تأكيد أنها هي المقصودة بحديث السيدة كويليب، وكم هي جبانة!
قالت السيدة كويليب: "تعلم أمي أن ما قلته صحيح تمامًا؛ لأنها كثيرًا ما قالت نفس الأمر قبل أن أتزوج.. ألم تقولي لي ذلك يا أمي؟"

وضع ذلك الاستجواب السيدة الفاضلة في موقف حرج إلى حد كبير؛ فقد كانت بكل تأكيد طرفًا فعالًا - إن لم تكن الطرف الأساسي - في جعل ابنتها "زوجة السيد كويليب"، وهذا من شأنه ألا يدعم مصداقية العائلة حيال قبول فكرة أنها تزوجت من رجل لا يمكن لأي إمرأة غيرها القبول به. ومن ناحية أخرى، إن بالغت في ذكر الصفات الحسنة لزوج ابنتها، سوف يقوِّض ذلك أسباب تمردها، التي لطالما كرست جهودها الجهيدة لدعمها. بعد قيامها بحصر تلك الاعتبارات المعارضة، خضعت السيدة جينيوين إلى سلطان التلميح، لكنها رفضت حق التصريح بذلك.. وقد قُدِّم إليها معروفًا في الوقت المناسب، حين عادت السيدة البدينة إلى النقطة الرئيسة التي حادت عنها المناقشة تمامًا.

"أوه! لقد صدقت السيدة جينيوين قولًا، إنه شيء عقلاني ومناسب في الواقع"، هللت السيدة العجوز: "في حالة إن كانت المرأة صادقةً حقًّا مع نفسها! لكن بيستي بعيدة كل البعد عن ذلك، ويا له من خزي مثير للشفقة!".

قالت السيدة جورج: "قبل أن أسمح لرجل أن يعاملني بالطريقة التي يعاملكِ بها السيد كويليب، وقبل أن أقف مذعورة تتملكني الرهبة كما تفعلين أمامه.. كنت سأقتل نفسي في الغالب، وقبل قيامي بذلك سأكون قد كتبت رسالةً أبين فيها فعله!".

لاقت تلك الملاحظة موافقة وثناء الجميع، وبعدها أضافت سيدة أخري - من مينوريس - قائلةً: "إن السيد كويليب رجل لطيف، ولا ينتابني أي شك في ذلك الأمر برمته؛ لقد قالت السيدة كويليب ذلك مثلما قالت السيدة جينيوين أيضًا، وأعتقد أنهما فقط من لديهما الحق في قول ذلك، وليس أي أحد آخر. لكن السيد كويليب لا يزال الشخص.. الذي لا يمكن أن يدعي المرء أنه شخص وسيم، أو أن يصفه بأنه شاب يافع أيضًا، وذلك نحتسبه عذرًا هينًا - إذا كانت الأعذار شافعة -، في حين أن زوجته إمرأة ذات مظهر حسن وشابة يافعة، وهذا مما لا يحتمل في النهاية".

حملت تلك الجملة الأخيرة بين طياتها أمارات الرثاء، أعقبتها همهمات متتابعة من السامعات المنصتات جميعهن، ومن ثمَّ استطردت لافتةً أنظارهن إلى ما تطرقت إليه السيدة في حديثها؛ وصرحت بأنه إذا كان ذلك الزوج غير عقلاني ومتعجرفًا ومحتدًّا مع زوجة مثلها، حتمًا سـ..

أقحمت الأم نفسها في الحديث بلا روية: "إذا كان..". وضعت فنجان الشاي، ونَفَضت عن حجرها الفتات؛ استعدادًا للإدلاء بقولٍ مهيب: "إذا كان ذلك الزوج! إنه أسوأ طاغية عاش على وجه الأرض، إنها لا تستطيع أن تُصرِّح بالحقيقة إلى نفسها؛ إنه بمجرد كلمة واحدة أو حتى نظرة يرزحها مرتعدة رعبًا، ويخيفها حد الموت وهي لا تمتلك الشجاعة، التي تمكنها من أن ترد عليه الكلمة بأخرى، لا.. ليس لديها البتة.. تفتقر إليها تمامًا.. لا ترد حتَّى بكلمة واحدة".

على الرغم من أن تلك الحقيقة البشعة كانت واضحةً مسبقًا لكل شاربات الشاي؛ فقد تمت مناقشتها بإسهاب طوال الاثني عشر شهرًا الماضية في كل تجمع لشرب الشاي في الحي، لم يتم التطرق إلى الموضوع بتلك الشفافية والوضوح قبل ذلك ولو لمرة واحدة، بدأن كلهن في الخوض في الحديث، مجادلات، في شدة وبطلاقة. نبهّت السيدة جورج أن الناس جميعهم سيتحدثون، أن الناس قالوا لها ذلك مرارًا وتكرارًا من قبل، حتى السيدة سيمونز الجالسة أمامهن قد قالت لها الأمر نفسه ما يقرب من عشرين مرة حتى وقتهن ذاك، وأنها كانت تقول دائما: "لا! ما لم أرَ هذا بعيني وأسمعه بأذني، ما كانت هنريتا سيمونز لتصدق أبدًا".. أيدت السيدة سيمونز هذه

الشهادة، وأضافت أدلة قوية على شهادتها. وإذ بالسيدة التي من مينوريس تسرد نهجها الناجح الذي ألزمت به زوجها في معاملتها، وأن زوجها من بعد تطبيقها لهذا النهج لمدة شهر واحد بعد الزواج، تحول من وحش كاسر إلى شخص مطيع مثالي. سردت سيدة أخرى نضالها الشخصي، وانتصارها النهائي، عن طريق نهج اتبعته، كان من الضروري لإنجاحه، إحضار والدتها وخالتيها لتسكنَّ معها؛ لتنتحبن ليلَ نهار لمدة ستة أسابيع متواصلة. أما الثالثة، فقد كانت في ارتباك عام، لا نفع من ورائه لأي مستمعة أخرى، كانت قد ركزت على سيدة صغيرة غير متزوجة، تصادف وجودها فيما بينهن وأخبرتها أنها تقدر تلك المناسبة الجليلة لما أضفت عليها من راحة بال وسعادة؛ لأنها من بعد رؤية ضعف السيدة كويليب، وجهت أفكارها كلها، ناحية ترويض الرجال، وإخضاع نفوسهم المتمردة. صارت الضوضاء في أوجها، ارتفعت نبرات أصوات نصف الحاضرات إلى صيحات عالية؛ حاجبات أصوات النصف الآخر، بينما تغير لون السيدة جينيوين فجأة، تُحرك سبابتها لهن، كما لو كانت تحثهن على الصمت الفوري. لكن الحال ظل على ما هو عليه حتى لاحظن وجود دانيال كويليب نفسه - سبب ومناسبة ضوضائهن وصياحهن - في الغرفة، يقف ناظرًا ومستمعًا إليهن، في إهتمام بالغ.

قال دانيال: "هيا يا سيدات! هيا هيا.. أكملن.. ادعيهن يا سيدة كويليب واطلبي منهن أن ينتظرن حتى العشاء، ويتناولن معنا بعض الكركند والمقبلات الأخرى الشهية".

قالت زوجته في تلعثم: "أنا.. أنا.. أنا لم أدعهن لتناول الشاي، إنها.. إنها مجرد صدفة".

قال القزم وهو يفرك يديه بعنف لدرجة أنه بدا كشخص منخرط في إزالة طبقة من أوساخ عالقة على فلين بندقية: "عظيمٌ جدًّا يا سيدة كويليب.. ما الأمر يا سيداتي! لن ترحلن، لستن مغادرات بالتأكيد!".

بدا الغضب على وجوه خصومه، وبينما يبحثن من فورهن عن أغطية رؤوسهن وشالاتهن، تركن إتخاذ منهاج الشجاعة اللفظية للسيدة جينيوين، التي وجدت نفسها في مقام البطل الهمام، فقامت بدفاع خفي؛ للحفاظ على سلامة الموقف.

قالت العجوز: "نعم! لماذا لا تنتظرن حقًّا حتى العشاء، إذا لم يكن لدى ابنتي أي مانع؟".

عقَّب دانيال: "نعم! ولم لا؟".

قالت السيدة جينيوين: "لا ضرر ولا ضرار من العشاء.. كما آمل!".

رد دانيال: "بالتأكيد لا ضرر ولا ضرار.. ما سبب افتراض ذلك من الأساس؟ لا يوجد ما هو غير صحي في الطعام، إنها مجرد سلطة من الكرنكد أو القريدس، العسيرة على الهضم".

قالت السيدة جينيوين: "بالطبع لا تود أن تتعرض زوجتك لشيء من هذا القبيل، أو أي شيء آخر قد يُشعرها بعدم الارتياح.. أليس كذلك؟".

أجاب القزم مبتسمًا: "ليس كذلك بقدر العالم، أو حتى بقدر حماوات العالم في الوقت ذاته.. يا لها من نعمة!".

قالت العجوز بضحكة متهكمة؛ تذكره بحقيقة الوضع: "أتقصد ابنتي.. زوجتك السيدة كويليب".

قال القزم مشددًا على كلامه: "نعم بالتأكيد، بكل تأكيد".

قالت العجوز مرتجفةً، يجتاحها الغضب، ويعتريها الخوف من زوج ابنتها المتهور: "حسنًا! آمل أن يكونِ لديها الحق في فعل ما ترغب فيه يا سيد كويليب".

رد قائلًا: "تأملين أن يكون لديها الحق! أوه! ألا تعرفين أنَّ لديها الحق بالفعل.. يا سيدة جينيوين؟".
- أعلم أن ذلك أمر واجب يا سيد كويليب.. وأعلم أيضًا أنها إذا اتبعت نهجي في التفكير؛ ستملك حقها كاملًا.
إلتفتَ القزم لمخاطبة زوجته وقال: "لماذا لا تتبعين نهج والدتكِ في التفكير؟ لماذا لا تقلدين والدتكِ دائمًا يا عزيزتي؟ إنها جوهرة لا مثيل لها.. ردد والدكِ ذلك حتمًا كل يوم في حياته.. متأكد تمامًا من أنه كان يفعل ذلك".
قالت السيدة جينيوين: "لقد كان والدها شخصًا مباركًا يا سيد كويليب، يساوي بمفرده أكثر من عشرين ألف رجل، أو لتقل أكثر من مليون عشرين ألف رجل".
أردف القزم قائلًا: "كنت أود حقًّا معرفته.. أجرؤ على قول إنه كان شخصًا مباركًا حقًّا، لكنني أكاد أجزم أنه مبارك أكثر الآن. وأن سعادته قد أُطلق سراحها. أعتقد أنه عانى طويلًا.. أليس كذلك؟".
شهقت العجوز كي تتلفظ بشيء ما، لكنها حبست أنفاسها، ولم تقل شيئًا، استأنف كويليب حديثه، ولاح الخبث يملأ عينيه، بينما تتقاطر السخرية اللاذعة من لسانه.
- تبدين في حالة يُرثى لها يا سيدة جينيوين، تبدين مريضة.. أعلم أنكِ تستنفدين طاقتك أكثر من اللازم. ربما تستنفدينها في الثرثرة، إنها نقطة ضعفك التي ترضخين لها دائمًا وأبدًا.. هيا! اذهبي إلى الفراش... اذهبي إلى الفراش.
"سأذهب عندما أرغب.. ولست براغبة الآن".
قال القزم متهكمًا: "لا! أرجوكِ.. من فضلكِ اذهبي الآن".
نظرت إليه العجوز في غضب عارم، لكنها تقدمت أمامه، واعترضت طريقه؛ كي لا يغلق الباب خلفها، لكنه لكزها وأخرجها بعنف، وتخلّص من حضورها أمام كافة الحاضرات اللاتي تكدسن بدورهن في الوقت ذاته على السلم للمغادرة، تاركيه مع زوجته وحديهما، وقد جلست ترتجف في ركن، شاخصة العينين، تنظر إلى الأرض، جلس ضئيل البنية أمامها، طوى ذراعيه، وحدق فيها لوقت طويل دون أن يتفوه بكلمة واحدة.
قال أخيرًا: "يا سيدة كويليب!".
ردت في خنوع تام: "نعم يا سيد كويليب".
بدلًا من أن يتابع ويمضي في قول ما كان في ذهنه، طوى كويليب ذراعيه مرة أخرى، نظر إليها في صرامة أكثر من السابق، بينما كانت هي تتفادى عينيه، وتبقي ناظريها على الأرض.
- يا سيدة كويليب
- نعم يا سيد كويليب.
- إذا حدث واستمعت لتلك العجوز الشمطاء مرة أخرى، سأعضكِ.
أرفق مع تهديده اللاذع زمجرة مخيفة، منحته مظهرًا قويًّا، أمرها بإزاحة طاولة الشاي، وإحضار الخمر.
وضعت قنينة خمر كبيرة أمامه، كانت في الأصل مختلسة من خزانة إحدى السفن، جلس السيد كويليب على كرسي ذي مسندين، أسند رأسه الكبير إلى ظهر الكرسي، ورفع ساقيه على الطاولة.
قال: "الآن يا سيدة كويليب، أشعر حقًّا بانتشاء التدخين، ربما سأظل أدخن وأشعل التبغ في حماس متقد طوال الليل. يمكنكِ أن تجلسي حيثما كنتِ؛ ربما أحتاجك".

لم ترد عليه زوجته بأي رد سوى: "بالتأكيد، يا سيد كويليب". أخذ السيد الضئيل سيجاره الأول، وخَلط كأسه الأولى. غربت الشمس، لمعت النجوم، وتحول البرج من لونه الأصلي إلى الرمادي، ومن الرمادي إلى الأسود، زحف الظلام على الحجرة كلها، حتى أمست معتمة تمامًا، لا يومض فيها إلا لون أحمر من شعلة نهاية السيجار، مرّ الوقت ولا يزال السيد كويليب منكبًا على التدخين، ويتجرع الخمر في نفس الوقت، يحملق في فتور خارج النافذة شاغر الفم؛ بابتسامة تشبه إبتسامة الكلب، دائمًا ما كانت تعتلي وجهه، إلا في تلك اللحظة التي تحركت فيها السيدة كويليب بحركة غير إرادية؛ جراء التعب والأرق وقلة الراحة، فقد ابتسم فرحًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الخامس

سواء كان السيد كويليب قد غفا في ليلته مع إغماضات عينيه القليلة، أم ظل الليل بأكمله جالسًا مفتوح العينين، كان من المؤكد أنه أبقى سجائره مشتعلة، الواحدة تلو الأخرى، يشعل التالية من رماد تلك التي انتهى من تدخينها، دون أن تظهر له أدنى حاجة لاستعمال شعلة الشمعة. لم تشكل دقات الساعة فارقًا؛ مرت الساعات، ساعة عقب ساعة، دون أن يتسلل إليه أي شعور بالنعاس، ودون أن تظهر عليه أي رغبة طبيعية لأخذ قسط من الراحة، بل ازداد في إظهار يقظته أكثر فأكثر، كلما انسدل ظلام الليل، عن طريق إصراره على افتعال صوت حشرجة عالٍ من حلقه، وهز كتفيه، بدا كشخص يضحك بحرارة، لكنه في الوقت ذاته يضحك في خبث وخلسة.
على ذات وتيرة ذلك اليوم الطويل، كانت السيدة كويليب المسكينة ترتجف من برودة نسمات هواء الصباح، تقاوم شعورًا بالإعياء، ورغبةً في النوم، تنبهت إلى أنها قضت الليل بطوله جالسة في صبر على كرسيها، ترفع عينيها إلى سيدها على فترات متقطعة، في صمت تام؛ ترجوه أن يرأف بها، وأن يشفق على حالها، تسعل في لطف، بين الحين والآخر؛ لتذكره أنها لا تزال راضخة، وأن مدة التكفير عن ذنبها أضحت طويلة. لكن زوجها القزم ظل يدخن سجائره ويشرب خمره، دون أن يلتفت إليها، وقد ثبت الحال على ما هو عليه، ولم يتغير فيه شيء، حتى بعد أن مضى وقت على شروق الشمس، وارتفع صخب إنتشار الناس في الشوارع، بينما يواصل إصراره على ألا يتفضَّل عليها بإصدار إيماءة لها أو توجيه كلمة لها، غير مكترث بالالتفات إلى تمييز وجودها، ربما ظل هكذا، إلى أن وقع على أذنه صوت قرع عالٍ على الجهة الأخرى من الباب بلا هوادة.
قال ناظرًا حوله في دهاء: "يا لنفسي الكريمة! إنه النهار، افتحي الباب يا عزيزتي السيدة كويليب!".
سحبت زوجته المطيعة مزلاج الباب، فدخلت السيدة والدتها.
اقتحمت السيدة جينيوين الغرفة مندفعة دون تفكير، تحسب أن زوج ابنتها لا يزال نائمًا في سريره، وقد جاءت لتزيح عن صدرها مشاعرها الدفينة، معربة عن رأيها في صرامة تجاه سلوكه العام وشخصيته. لكنها حينما رأته يرتدي الملابس نفسها، ووجدت الغرفة كما تركتها تمامًا في الليلة الماضية، توقفت لبرهة، وشعرت ببعض الحرج.
لا يخفى شيء عن عيني الصقر اللتين امتاز بهما الضئيل القبيح؛ أدرك تمامًا ما جال في خاطر العجوز، فإلتفتَ إليها مبقيًا على قبحه - لكن في درجة أعلى - تعتلي وجهه أمارات الرضى الكامل، ملقيًا عليها تحية الصباح في مكر، تتملكه نشوة النصر.
قالت السيدة العجوز: "لماذا يا بيستي أنتِ؟! هل كنتِ.. أعرف من ذلك أنكِ كنتِ.. أنكِ كنتِ...
قال كويليب في استطراد مستنتجًا خاتمة الجملة: "مستيقظة طوال الليل؟ نعم كانت بالفعل!".
صاحت السيدة جينيوين: "طوال الليل؟".
قال كويليب بابتسامة، كان العبوس جزءًا منها: "نعم.. طوال الليل! هل سيدتي العجوز صماء؟ من يقول إن الرجل وزوجته ليسا رفيقَي أوقات الوئام؟ ها ها ها! إن الوقت يطير حقًّا".
صاحت السيدة جينيوين: "يا لها من همجية بهيمية!".

قال كويليب مسيئًا الفهم عن عمد: "تعالي. تعالي.. لا يجب أن تنعتيها بأسماء بذيئة، إنها امرأة متزوجة الآن، كما تعرفين. على الرغم من أنها قد قضت الوقت لاهية، وأبعدتني عن سريري، يجب ألا تخشي مطلقًا من أن أفقد حس دعابتي معها أو ألا أكون عطوفًا بها.. باركك الخالق يا سيدتي العجوز، وبارك لك في صحتك!". قالت العجوز في نفاد صبر أكيد بسبب كبتها لرغبتها المتقدة في توجيه لكمة عنيفة لزوج ابنتها: "سأكون شاكرة جدًّا.. حقًّا سأكون شاكرة جدًّا لك!".
قال القزم: "بكل امتنان"، ثم صاح: "يا سيدة كويليب!".
قالت الخجولة المتألمة: "نعم يا سيد كويليب".
- ساعدي والدتكِ في تحضير الإفطار يا سيدة كويليب. سأذهب إلى رصيف الميناء هذا الصباح، كلما ذهبت باكرًا، كلما كان أفضل، لذلك أسرعي.
جلست السيدة جينيوين على كرسي بالقرب من الباب، طوت ذراعيها؛ لتوحي بتصميمها الحازم على عدم القيام بأي شيء، كأنه تمرد غير صريح، لكن بعد همسات قليلة، همست بها ابنتها إليها، وتلميح لطيف من زوج ابنتها، مفاده أنها إذا كانت تشعر بالإغماء، فلديه وفرة من المياه المثلجة في الشقة المجاورة، تلقت تلك الإشارات باستيعاب، فقامت من فورها لتحضير ما أوصى به في اجتهاد كئيب.
بينما انهمكتا في فعلهما، انتقل السيد كوبليب إلى الغرفة المجاورة؛ أعاد هندمة ياقة معطفه، ومسح وجهه بمنشفة رطبة متسخة شكلها مقزز، جعلت وجهه أكثر قبحًا من ذي قبل، على الرغم من انشغاله، كان متيقظًا، لم يتخلَّ عن حذره واتخاذ حيطته، كانت ملامح وجهه حادة ماكرة، مثلما اعتادت أن تكون دائمًا، خلال ذلك الوقت القصير، توقف ليستمع إلى أي محادثة قد تدور في الغرفة المجاورة، وربما تتضمن اسمه.
قال بعد بذل جهد في التنصت: "آه! ألم تكن المنشفة على أذني طوال ذلك الوقت، أعتقد أنها لم تكن. يا لي من شرير ذي حدس خبيث! هل أنا السيدة جينيوين لأفعل ذلك؟ أوه!".
استدعت سعادة ما توصل إليه للتو ابتسامته القديمة الشبيهة بابتسامة الكلب في كامل تألقها، عندما فرغ من تبسمه، هز نفسه في سلوك يشبه سلوك الكلاب، ثم عاد مرة أخرى لينضم إلى السيدتين.
سار السيد كويليب إلى موضع المرآة، ووقف ليهندم هيئة وشاحه، بينما كانت السيدة جينيوين تقف وراءه، تقاوم رغبتها في تسديد قبضتها إلى زوج ابنتها الطاغي. كانت لفتة لحظية، رمقته حينها بنظرة تحمل معاني التهديد، لكن عينيها إلتقتا بعينيه في المرآة، ولمحها في أوج فعلها، نقلت النظرة نفسها انعكاسًا لملامح وجهه المخيفة المشوهة، ولسانه المتدلى خارج فمه، لكن نظرة القزم في اللحظة التالية تحوَّلت تمامًا، إلى نظرة هادئة يغمرها اللطف، وتحدث في نبرة تنم عن مودة
عظيمة.
- كيف حالكِ الآن، يا عزيزتي العجوز الودودة؟ كم كان حادثًا سخيفًا لم يتعدَّ اللحظات! بدا خلاله كشيطان صغير، مألوف حاد الطباع، وبدت السيدة العجوز خائفة جدًّا، تهاب أن تنطق بكلمة واحدة، لكنها سرعان ما استجمعت شتات نفسها وانشغلت بانهماك في استكمال تحضيرها لمائدة الإفطار في أدب غير معتاد. من جانبه، قلل من حدة الطبع الذي تصرَّف به من فوره، دون أي تفسير، وأخذ يلتهم البيض بقشره التهامًا، افترس قريدسة ضخمة آتيًا عليها تمامًا، أكلا رأسها

وذيلها، مضغ تبغًا وبقلة، كل ذلك في آن واحد، وفي نهم عارم، شرب الشاي بينما كان لا يزال يغلي دون أن يطرف له رمش، قضم معلقته وشوكته حتى انحنيا، لم يقتصر الأمر على ذلك، بل قام بتصرفات عديدة مرعبة غير مستأنسة، جعل السيدتين ترتعدان من الخوف، لدرجة أن شكوكًا ساورتهما حول ما إذا كان مخلوقًا بشريًا من الأساس. في النهاية، بعد أن عايشتا تلك السلوكيات المرعبة، بل عايشتا سلوكيات أكثر وعلى القدر نفسه من الغرابة، تركهما السيد كويليب، بعد أن عاد إلى حالته الطبعة المهذبة؛ وذهب إلى ضفة النهر، وأخذ قاربًا إلى رصيف الميناء، وقد دوّن عليه اسمه.
كان المد قد ارتفع، حينما عبر دانيال كويليب إلى الجهة الأخرى من الشاطئ. لاح له أسطول من الصنادل قادمًا في توان، تنصدر بعض الصنادل مقدمته، وتتراقص بعضها في نهايته، وتتقدم بعضها جانبيًّا، وتُبحر جميعها في الإتجاه الخاطئ، مضللة، عالقة في أماكنها، تصطدم بمركب كبير تارةً، وتنحدر أسفل مقدمة البواخر تارة أخرى، تتخبط في كل ركن وزاوية محتملة، منبعجة من كل إتجاه كقشرة الجوز، بينما كان مجدافا كل واحدة على حدة يتخبط في الماء في صراع، بدت جميعها كما لو كانت أسماكًا تتقافز في عناء خارج مياهها. عند المرفأ، رست مراكب انشغلت جميع أيادي من كانوا على متنها في همة ونشاط؛ تلف الحبال، تنشر الأشرعة؛ كي تجف، تحمل وتفرغ الشحنات، ومراكب أخرى، افتقرت إلى وجود أي حياة مرئية عليها، فيما عدا صبيين أو ثلاثة صبية على متنها، وربما كان هناك صوت نباح كلب يركض على ظهرها، يندفع من بين جانبيها، ينظر نابحًا نباحًا عاليًا لما يراه. تتقدم سفن بخارية في بطء عبر غابات من السواري، تشق المياه في رطمات متدافعة، تسببها مجاديفها الثقيلة، كما لو كانت تريد شق سبيلًا للتنفس، متقدمة في جسارة كوحش البحر بين أسماك "المنوة" في نهر "التمز". على الناحية الأخرى، كان هناك صف طويل من ناقلات الفحم، يتخلله عدد من زوارق، تتحرك في انسيابية بطيئة في الميناء بواسطة أشرعة تتلألأ أسفل أشعة الشمس، ويرتفع الهزيز من بين المئات من سواريها. كانت المياه وكل ما عليها في حركة نشطة، مثل مشهد حي، ترقص فيه الأشياء وتنساب، وتطفو على سطحها، بينما لاح البرج الرمادي القديم وما حوله من أطلال بنايات على الشاطئ، ومنارة الكنيسة البازغة بينهما، هادئة في سكينة، منتصبة تستهجن فعل جارها المضطرب.
أما دانيال كويليب، فلم يتأثر بضوء النهار الساطع؛ جاء حاملًا مظلته، التي حجبت عنه الضوء، لكنها لم تحجب عنه العراقيل الناجمة عن حملها، فقد أطاحت به من على رصيف الميناء في عنف، وعبر ممرًا ضيقًا، غمره الطين والماء بغزارة لكن بنسبة متساوية من كليهما على حد سواء، توغل فيهما مشاركًا البرمائيين طبيعتهم. وصل دانيال كويليب إلى وجهته، كان أول ما فرض نفسه على ناظريه، باطن قدمين متسختين عالقتين في الهواء، أوضح مقاسهما أنهما قدما صبي، يتمتع بروح غريبة الأطوار، ذي فطرة بهلوانية؛ يقف على رأسه، متأملًا شكل النهر، من المنظور غير المألوف الذي ابتدعه لنفسه. عند سماعه لصوت سيده، انتفض من فوره، عادت رأسه إلى موضعها الطبيعي، لكن السيد كويليب دائمًا ما يرجح التحدث بالأفعال حين تغيب الكلمات - فسدد له "لكمة" مبرحة.
قال الصبي وهو يحاول تفادي قبضته بمرفقيه بدلًا من أن يتلقى اللكمة: "اتركني.. دعني وشأني.. ستنال رد فعل لن تستحسنه جراء فعلك هذا، سيحدث ما أقوله لك تمامًا".

زمجر كويليب من بين أنيابه: "أيها الكلب.. سأضربك بقضيب حديدي، وأشرِّح جسدك بمسمار صدئ، سأنزع لك عينيك، إن تحدثت معي هكذا.. سأفعل ذلك كله وعن عمد".
بعد كل تلك التهديدات، شدد على قبضة يده مرة أخرى، وغطس في براعة ما بين مرفقي الصبي، وأمسك برأسه، وعلى الرغم من أن الصبي كان يتفادى مسكته، تمكن من تسديد ثلاث أو أربع ضربات قاسية له. أعاد كويليب ما كان قد طرحه من تهديدات مرة أخرى، ومن ثم رحل عنه أخيرًا.
قال الصبي منكسًا رأسه، وهو يتراجع إلى الوراء، رافعًا مرفقيه لحمايته في حالة إن حدث ما هو أسوأ مما كان: "كل تهديداتك واهية؛ لا تستطيع أن تفعل بي شيئًا ثانيةً، الآن...".
قال كويليب: "قف مكانك أيها الكلب، وسأكرر نفس فعلي مرات ومرات؛ فدائمًا أفعل ما أريد.. خذ هذا المفتاح.. هيا!".
قال الصبي وهو يقترب منه في بطء شديد: "لماذا لا تعارك من هو
في مثل حجمك؟".
قال كويليب: "وأين الذي يماثلني حجمًا، أيها الكلب؟ خذ المفتاح وإلا دققت رأسك به...". في الواقع لقد وخزه بالفعل بمقبض، بينما كان يقول جملته:".. هيا افتح بيت الحوسبة الآن".
امتثل الصبي في سذاجة، مغمغمًا في البداية، ثم كف عن ذلك فيما بعد؛ عندما نظر حوله، ولاحظ تتبع السيد كويليب له بنظرة ثابتة. بالوصول إلى هنا، علينا أن نقول إن هناك علاقة إعجاب متبادل غريبة تجمع بين الصبي والقزم. لا نعلم كيف نشأت تلك العلاقة أو كيف تستمر، كيف وطدها تسديد الضربات وإلقاء التهديدات من طرف، والمواجهة وتحديات القول من الطرف الآخر، لكن ما كان بينًا أنها لم تكن من أجل أي غرض أو مهمة. لم يكن كويليب بالتأكيد يقبل بأن يخاطبه أحد على هذا النحو سوى الصبي، ولم يكن الصبي بالتأكيد يمتثل لتحكمات أحد هكذا سوى كويليب، مع الأخذ بعين الإعتبار أن الصبي لديه القدرة والفرصة السانحة دائمًا كي يهرب في أي وقت يريده.
قال كويليب بينما يتقدم إلى داخل بيت الحوسبة الخشبي: "الآن.. ستراقب رصيف الميناء، قف على رأسك ثانية، وسوف أقطع إحدى قدميك".
لم يتفوه الصبي بأي رد، وحينما سكت كويليب، وقف الصبي مباشرةً على رأسه أمام الباب، ثم سار على يديه إلى الخلف، ثم إلى الجانب الآخر، تمادى في عرضه، يؤدي حركاته البهلوانية مرارًا وتكرارًا. كان لدى بيت الحوسبة أربعة جوانب بكل تأكيد، لكنه دائمًا ما كان يتجنب ذلك الجانب الذي تطل عليه النافذة؛ يتخذ في حسبانه احتمالية نظر السيد كويليب منه إلى الخارج. كان هذا حكيمًا من جانبه في الحقيقة، لكن القزم كان على علم بمكره، حيث رقد على مقربة من إطار النافذة، متسلحًا بقطعة خشبية كبيرة خشنة، تبرز منها العديد من المسامير المكسورة، التي من المرجح أنها قد جرحته في السابق.
كان بيت الحوسبة أشبه بصندوق صغير قذر، لا يوجد فيه سوى مكتب متهالك ومقعدين، وقبعة، وتقويم قديم لسنوات عدة مضت، ومحبرة فارغة من الحبر، وأنبوبة قلم، وساعة بعداد أسبوعي، لم تضبط ربما على مدار الثمانين سنة الأخيرة على الأقل، تحول عقرب الدقائق إلى خِلَّة أسنان، سحب دانيال كويليب قبعته إلى ما فوق حاجبيه، تسلق إلى المكتب - حيث كانت عليته مسطحة -، مدد قامته القصيرة؛ لينام في سكينة صاحب العمل، دون أي ارتياب أو شكوك،

يعوض نفسه عن حرمانه من النوم في ليلته السابقة بغفوة طويلة وعميقة. بدا الأمر في البداية على هذه الصورة، لكن الغفوة لم تكن طويلة على الإطلاق؛ لم يهنأ حتى بالنوم لربع الساعة؛ فتح الصبي الباب، وتوجه نحو رأسه، دافعًا بربطة حبال ممزقة إليه، كان كويليب سريع الاستيقاظ، فنهض من فوره.
قال الصبي: "هناك إحداهن، وتريد رؤيتك".
- من؟
- لا أعرف!
قال كويليب بينما إلتقط لوحًا خشبيًا، ألقاه نحو الصبي في براعة: "اسألها!". لكن الصبي تفاداه واختفى في لمح البصر قبل أن يصل اللوح إلى الموضع الذي كان فيه، فصاح القزم: "اسألها يا كلب!".
من دون أن يأخذ حيطته مرةً أخرى مما غامر لتفاديه، أرسل الصبي في هدوء من كانت سببًا في مقاطعة سيده عن استكمال غفوته، فأطلت بعينيها عند مدخل الباب.
صاح كويليب: "ماذا! نيلي!"
قالت الطفلة: "نعم"، كانت مترددةً، لا تعلم إذا كان عليها أن تتقدم إلى الداخل أم تتراجع إلى الوراء؛ بعد أن تأملت في دهشة القزم بعد أن نظر إليها، ورأت وضعه ووشاحه الأصفر على رأسه، مغطيًا شعره الأشعث بأكمله، فقد كان منظره منفرًا، لكنها استطردت مجيبة: "نعم! إنه أنا يا سيدي".
قال كوبليب، دون أن ينزل من على سطح المكتب: "تقدمي.. تقدمي! لكنني أريدكِ أن تنظري إلى الفناء الخارجي، وأخبريني ما إذا كان الصبي واقفًا على رأسه".
ردت نيل: "لا يا سيدي! إنه واقف على قدميه".
قال كويليب: "هل أنت متأكدة أنه كذلك فعلًا؟ حسنًا! على أي حال، ادخلي، وأغلقي الباب، وقولي لي ما الرسالة التي بُعثتي من أجلها يا نيلي؟".
سلمته الطفلة جوابًا، أخذه السيد كويليب دون أن يتحرك من موضعه، مال قليلًا على جانبه فقط، أسند ذقنه على يده، شرع في فض السر الذي يحتويه الخطاب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السادس

وقفت نيل الصغيرة في هدوء، شاخصة العينين نحو وجه السيد كويليب، بينما كان يقرأ الخطاب، كشفت نظراتها عن شعورها بالخوف؛ لعدم ثقتها في ذاك الرجل قصير القامة، لكنها في الوقت ذاته، كانت أكثر ميلًا إلى الضحك من مظهره الأخرق وسلوكه المريب. على الرغم من ذلك، ساور الطفلة قلق بيِّن حيال رده المنتظر على الخطاب؛ فإن سلطته النافذة وحدها القادرة على رفض الطلب وجعل الأمر برمته محزنًا، وذلك ما سيكون مغايرًا لآمالها تمامًا، ومتعارضًا مع مرادها، وقد احتاج إخفاؤها لحقيقة مشاعرها جهودًا فاقت قدراتها.
ساعتها صار السيد كويليب نفسه في حيرة غير بسيطة، بل كان في حيرة بالغة، بدت عليه تمامًا؛ بسبب ما كان يحتوي عليه الخطاب. قبل أن ينتهي حتى من قراءة سطرين أو ثلاثة أسطر، ازدادت عيناه اتساعًا وعبوسًا بشكل مرعب للغاية، وعندما استكمل قراءة سطرين أو ثلاثة أسطر أخرى، أخذ يحك رأسه في وحشية غريبة، وحينما وصل إلى خاتمة الخطاب، أصدر صفيرًا طويلًا قابضًا للصدر، دل على فاجعة مفزعة.
طوى الخطاب ووضعه بجانبه، قضم أظافر أصابعه العشر جميعها في شراهة، ثم انتشله مرة أخرى في حدة؛ وعاود قراءته ثانيةً في تركيز شديد. بدت قراءته الثانية غير مرضية تمامًا كقراءته الأولى بالضبط؛ أوقعته في ارتباك شديد استفاق منه بينما هو مستمر في قضم أظافره، يحملق بنظرة طويلة إلى الطفلة التي نظرت إليه من فورها، انتظارًا لرد سيادته.
صاح طويلًا بصرخة مفاجئة جعلت الطفلة تنتفض كما لو أن بندقية أُطلقت بجانب أذنها: "هاااا! يا نيلي!".
- نعم يا سيدي!
- هل تعلمين ما يتضمنه الخطاب يا نيل؟
- لا يا سيدي.
- هل أنتِ متأكدة؟ متأكدة تمامًا؟ متأكدة تمام التأكد؟ متأكدة بصدق قلبكِ وبراءته؟
- متأكدة تمام التأكد يا سيدي!
قال القزم: "هل تعلمين أنكِ إذا عرفتِ فحواه كنتِ ستتمنين الموت من فوركِ؟".
ردت الطفلة: "في الواقع لا أعرف".
تمتم كويليب بينما يرمقها بنظرة جادة: "حسنًا! أُصدقكِ.. هووف! انتهى الأمر بالفعل؟ هل انتهى بالفعل في غضون الأربع وعشرين ساعة الماضية! أي ذنب اقترفه ذلك الشيطان؟ هذا هو لُب اللغز الغامض!".
انتهى به ذلك التفكير إلى حك رأسه وقضم أظافره مرة أخرى. بينما كان يُحاول رسم بسمة مبهجة لتهيئة ملامحه للتراخي - على الرغم من أنه إذا رُسمت تلك البسمة على وجه رجل آخر، لبدت بسمة تجتر آلام الناظرين - نظرت الطفلة إلى الأعلى نحوه، فوجئت به لا يزال ينظر إليها، في رضى وارتياح غير مألوف.
- تبدين جميلة اليوم يا نيلي جميلة حقًّا.. هل تشعرين بالتعب يا نيلي؟
- لا يا سيدي أنا فقط في عجالة من أمري؛ لأنه حتمًا سيكون قلقًا عليَّ عند عودتي.

قال كويليب: "لا داعيَ للعجلة يا صغيرتي نيل، لا داعي للعجلة على الإطلاق.. ما رأيكِ في أن تكوني رقم اثنين يا نيلي؟".
- أكون ماذا يا سيدي؟
قال القزم: "تكونين زوجتي رقم اثنين يا نيلي، تكونين السيدة كويليب الثانية".
ارتعدت الطفلة في مكانها، رغم أنها بدت غير مستوعبة لما يلمح إليه السيد كويليب الذي سارع إلى جعل ما يرمي إليه حديثه أكثر وضوحًا.
قال كويليب: "أن تكوني السيدة كويليب الثانية، حينما تموت السيدة كويليب الأولى يا جميلتي نيل".
غمز بعينيه، مشيرًا نحوها بسبباته المقوسة: "أن تكوني زوجتي، يا زوجتي الجميلة يا صاحبة الخدود الكرز، والشفاه الحمر، لنفترض أن السيدة كويليب ستعيش قرابة الخمس سنوات، أو لنجعلها أربع سنوات، حينها سيكون عُمركِ مناسبًا لي تمامًا. ها ها ها! كوني فتاة مطيعة يا نيلي كوني فتاة مطيعة، وانظري كيف سيكون عليه الأمر في يوم ما في تلك الأيام، إذا لم تصبحي السيدة كويليب التي تقطن تاور هيل.
انكمشت الطفلة على نفسها في خوف شديد، وانتفضت في رعب عارم، كانت مشاعرها بعيدة كل البعد عن أن تكون محفزة أو متجاوبة مع طموحاته التي بدت مبهجةً بالنسبة له. أما السيد كويليب فتظاهر بعدم انتباهه لردة فعلها، وما برح يقهقه ضاحكًا، لم يكن هناك سبب محدد يبرر ضحكته، هل هي السعادة التي تضفيها عليه إثارة مخاوف الآخرين، أم هل كان تفكيره في وفاة السيدة كويليب الأولى، وتخيل تلك التي ستحصل على لقب ومكانة السيدة كويليب الثانية، أم كان ضحكًا تلقائيًّا بسبب مزاجه الجيد واستحسانه لحسه الفكاهي في ذلك الوقت.
قال القزم: "يجب أن تأتي معي إلى تاور هيل، وتقابلين السيدة كويليب بنفسك مباشرةً.. إنها مولعة بكِ حقًّا يا نيل، لكنها لا تضاهيني مثيلًا، يجب أن تأتي معي إلى المنزل".
قالت الطفلة: "يجب عليَّ أن أرحل في الواقع؛ لقد أوصاني أن أعود مباشرة فور حصولي على الرد".
رد القزم: "لكنكِ لم تحصلي عليه بعد يا نيلي، ولن تحصلي عليه، ولا يمكنك الحصول عليه، إلا إذا عدتُ إلى المنزل، لذلك إن أردتِ إتمام مهمتك التي أُرسلتي بشأنها، فيجب أن تأتي معي إلى المنزل. هيا! أحضري لي قبعتي يا عزيزتي وسنرحل مباشرةً". بمجرد أن أتم السيد كويليب جملته انهمك في تكبد مشقة إنزال نفسه تدريجيًّا عن سطح المكتب، حتى لمست ساقاه القصيرتان الأرض، ثبت عليهما واقفًا، ومن ثم قاداه إلى خارج بيت الحوسبة نحو رصيف الميناء، فكان أول شيء فرض نفسه على ناظريه، هو الصبي الذي كان يقف على رأسه مع شاب صغير له البنية نفسها، يتمرغان في الوحل معًا، يلتفان حول بعضهما، يكبلان أيدي بعضهما في حماس متقد.
صاحت نيل قابضةً على يديها: "إنه كيت كيت المسكين! لقد أتى معي، أوه! من فضلك أوقفهما يا سيد كويليب!".
قال كويليب: "سأوقفهما حالًا". غاص السيد كويليب في بيت الحوسبة، عاد ممسكًا بعصا ضخمة وهو يقول: "سأوقفهما حالًا... هيا تعاركا في مكان آخر، وإلا سأنقض عليكما معًا.. أو سآخذكما، كليكما معًا، كليكما معًا!".

بينما كان القزم يملي تهديداته أخذ يلوّح في ضراوة بعصاه، يحوم حول المتعاركين، يطأ بقدميه عليهما ويقفز فوق واحد منهما، ثم يقفز فوق الآخر، في حالة من سعار مجنون، وفي سلوك متهور، ينهمر عليهما بالضربات مستهدفًا رأسيهما في وحشية ضارية لا مثيل لها - كأن فعله عاديٌّ -.

قال كويليب مقتربًا منهما لتسديد ضربة لتفريقهما: "سأنقض عليكما وأساويكما بالأرض.. سأنهال عليكما بالضرب المبرح حتى تتحولان إلى اللون النحاسي، سأكسر عظام وجيهكما، حتى لا تظهر لكما ملامح، ولا تستطيعا التفريق بين وجيهكما.. سأفعل ذلك إن لم تكفا في التو واللحظة".

قال الصبي وهو يراوغ العصا متفاديًا الضربات، ويترقب فرصة للانقضاض عليه: "ألق عصاك وتعال إلينا، وسوف يطالك سوءٌ لن تستحسنه.. ألق عصاك فقط".

قال كويليب ناظرًا بأعين براقة: "اقترب قليلًا، وسألقي عصاي على جمجمتك يا كلب، اقترب قليلًا.. اقترب قليلًا بعد".

رفض الصبي بالطبع دعوة سيده، لكنه انتظر حتى بدا على سيده فقدان القليل من هيمنته، وإذا به يندفع نحوه، محاولًا خطف وانتزاع سلاحه من قبضته كان كويليب قويًا كالأسد، بقي قابضًا على عصاه في سهولة، جاعلًا الصبي يبذل قصارى جهده في سحبها منه، لكنه تركها له فجأة، فاندفع الصبي من فوره مرتميًا إلى الوراء، وسقط على رأسه سقوطًا عنيفًا موجعًا. النجاح الذي حققته المناورة، كان بمثابة دغدغة للسيد كويليب إلى أبعد وصف، جعلته يضحك، ويدبدب على الأرض في مرح لا يقاوم.

قال الصبي، وهو يحرك رأسه ويحكه بيده في الوقت نفسه: "حسنًا لا يهم! لن تراني مرة أخرى أضرب أي شخص، يقول إنك قزم أكثر قبحًا من كل الأقزام التي يمكن رؤيتها في أي مكان مقابل بنس واحد، هذا كل شيء".

قال كويليب: "هل تقصد أن تقول إنني لست كذلك أيها الكلب؟".

رد الصبي: "لا أقصد!".

قال كويليب: "إذَنْ لماذا كنت تتشاجر معه على الرصيف أيها الوغد؟".

أجاب الصبي مشيرًا إلى كيت: "لأنه قال ذلك، ليس لأنك لست كذلك".

جعجع كيت: "إذَنْ لماذا قال إن الآنسة نيلي قبيحة، وإنها وسيدي مجبران على طاعة وفعل ما يحلو لسيده؟ لماذا؟ لماذا قال ذلك؟".

قال كويليب في رقة حانية، رغم الخبث المتكشف على عينيه وفمه: "لقد قال ما قال؛ لأنه أحمق.. وأنت قلت ما قلت؛ لأنك حكيم وذكي للغاية.. أو ربما ماهر جدًّا، ما لم تكن حريصًا جدًّا على نفسك أيضًا يا كيت.. إليك بستة بنسات يا كيت؛ قل دائمًا الحقيقة، في أي وقت وكل وقت.. أغلق بيت الحوسبة أيها الكلب، وأحضرْ لي المفتاح".

قام الفتى الآخر الذي وجه له الأمر بما طلب منه تحديدًا، وكجزاء حسن لتلبيته أمر سيده، رطمه كويليب بالمفتاح على أنفه، رطمة جلبت الدمع إلى عينيه.

غادر السيد كويليب مع كيت والطفلة معتليين سطح المركب، فارقهما الصبي، وأخذ يتراقص واقفًا على رأسه، بالقرب من حافة رصيف الميناء، طوال مدة عبورهم للنهر، كأنه يأخذ بالثأر لنفسه ويغيظ سيده.

لم يكن هناك سوى السيدة كويليب في المنزل، تهيئ نفسها للقيلولة، على الرغم من شعور أخذ يخالجها في قرارة نفسها بشأن عودة سيدها. في ذلك الحين سمعت صوت خطواته، فانتفضت من فورها. بالكاد امتلكت من الوقت ما استطاعت من خلاله أن تنهض؛ لتبدو منشغلة في أعمال الحياكة، دخل عليها برفقة الطفلة، تاركًا كيت في الطابق السفلي.

قال زوج السيدة كويليب: "إنها نيلي ترينت يا عزيزتي.. أحضري إليَّ كأسًا من النبيذ، وأحضري إليها البسكويت؛ لقد قطعت مسافة طويلة، سوف تجلس معكِ يا روحي، بينما أكتب خطابًا".

نظرت السيدة كويليب إلى وجه زوجها في حيرة واندهاش، تحاول معرفة سبب ملاطفته لها على غير المألوف، ثمَّ امتثلت لما حثها عليه بإشارة مستترة، وتبعته إلى الغرفة المجاورة.

همس كويليب: "انتبهي لما أقوله لكِ.. اذهبي إليها واعرفي كل ما يمكنك استخلاصه منها، حول جدها، أو ماذا يعملان، أو كيف يعيشان، أو ما الذي يوصيها به. إن لديَّ أسبابي لمعرفة هذا كله، وأستطيع معرفته في يسر. لكن أنتن يا سيدات تتحدثن إلى بعضكن بارتياح مفرط وبعفوية شديدة وتسترسلن في الحديث أكثر مما تفعلن معنا، وأنتِ لديكِ طريقة سلسة لينة لجذب أطراف الحديث والانتصار عليها ومعرفة كوامنها... هل تسمعينني؟".

- نعم يا كويليب.

- حسنًا! اذهبي الآن.. ما الأمر؟

قالت زوجته متلعثمة: "عزيزي كويليب.. إنني أحب تلك الطفلة. فقط.. إن استطعت أن تفعل ما أمليته عليّ، من دون أن تجعلني أخدعها سـ..".

أخذ القزم يدمدم بأَيْمانٍ مرعبة، ملتفتًا حوله، باحثًا عن شيء يتسلح به لينزل به عقابًا جسيمًا على زوجته العاصية. سارعت المرأة الشابة من توها؛ تتوسل إليه في خضوع وخنوع وتذلل ألا يغضب، وتعده بالقيام بما أملاه عليها.

همس كويليب ضاغطًا محكمًا قبضته على ذراعها: "هل تسمعينني، أحيطي نفسكِ علمًا بأسرارها جميعها أعلم أنك تستطيعين القيام بذلك، سوف أستمع إلى حديثكما، وأتذكره. إن لم تكوني حاسمة بما يكفي، سأجعل الباب يصدر صريرًا، ولا أعلم أي مصيبة ستحل بكِ، إن اضطررتُ إلى جعله يصدر صريرًا كثيرًا.. هيا اذهبي!".

غادرت السيدة كويليب ممتثلة لأوامره، وتوارى زوجها الودود خلف الباب المفتوح وواربه، ووضع أذنه بالقرب منه؛ ليتحرى السمع في انتباه، تظهر على وجهه أمارات المكر.

بدأت السيدة كويليب المسكينة تفكر في الطريقة التي يمكن أن تستهل بها الحديث، وفي التساؤلات التي ستطرحها عليها، كان كل هذا يعتمل داخل رأسها، حتى سمعت صريرًا قويًّا صادرًا عن الباب ينبهها إلى أن صوت حديثها ليس مسموعًا، ويحذرها من العواقب التي ستصيبها إذا تصرفت بناءً على ميولها الشخصية.

- يا لها من مرات كثيرة ترددين فيها على زيارة السيد كويليب مؤخرًا؟

قالت نيل في براءة: "لقد نبهت جدي إلى ذلك مئات المرات".

- وماذا قال لك حينذاك؟

- يتنهد فقط، ينكس رأسه، ويبدو حزينًا بائسًا، لدرجة أنكِ لو أمكنكِ رؤيته، أكاد أجزم أنك ستبكين على الفور، أعلم أنكِ لا تستطيعين تقديم يد العون إليه مثلي.. كيف يصدر الباب هذا الصرير المزعج!

قالت السيدة كويليب وهي ترمق الباب بنظرة مضطربة: "دائمًا ما يصدر صريرًا كذلك.. لكن جدكِ.. هل إعتاد أن يكون بائسًا فعلًا إلى هذا الحد؟".
قالت الطفلة في اندفاع: "أوه! لا لم يكن! لقد كان مختلفًا تمام الاختلاف! لقد كنا سعداء، وكان مرحًا واجتماعيًا! لا يمكنك معرفة أي حزن ألم به، ووقع علينا منذ ذلك الحين".
قالت السيدة كويليب - التي كانت تتحدث من تلقاء نفسها وبدافع مشاعرها الحقيقية فعلا -: "أنا حقًّا آسفة جدًّا جدًّا حيال ما أسمعه يا عزيزتي!".
قبّلت الطفلة خدها وقالت: "أشكركِ جدًّا! لطالما كنتِ عطوفة معي، يسعدني دائمًا التحدث إليكِ، لا أستطيع التحدث مع أي أحد آخر عنه سوى مع عزيزي كيت. لا تزال السعادة تنتابني أحيانًا، أعلم أنه يجب عليَّ أن أكون أسعد مما أشعر به، لكنك لا تستطيعين تصور كيف يحزنني، أن أرى حاله وقد تبدل إلى ذلك الحال".
قالت السيدة كويليب: "سوف يتبدل حاله مرة أخرى يا نيلي، أو ربما سوف يعود إلى حاله الذي كان عليه من قبل".
قالت الطفلة وقد ترقرق في عينيها الدمع: "أوه! لو أن الخالق لم يدع ذلك يحدث! لكنها فترة طويلة قد مضت الآن، منذ أن.. أعتقد أنني رأيت هذا الباب يتحرك للتو!".
قالت السيدة كويليب في نبرة واهنة: "إنها الرياح! منذ أن...".
قالت الطفلة: "منذ أن صار مشغول الفكر ومكتئبًا، ونسي طرقنا القديمة لقضاء الأمسيات الطويلة.. أتعلمين! لقد اعتدت أن أجلس بالقرب من المدفأة، أقرأ له، وهو يجلس إلى جواري، يستمع إليَّ في إنصات، وعندما أتوقف عن القراءة، يبدأ في الحديث معي، يخبرني عن أمي، كيف كانت تبدو، كيف كانت تتحدث مثلما أتحدث تمامًا عندما كانت طفلة. إعتاد أن يُجلسني على ركبتيه، ينبهني إلى أنها ليست راقدة في قبرها، بل هي في الأعلى منعمة في بلد خلابة وراء السماء، حيث لا يموت أي شيء، أو يتقدم بها العمر.. حينها كنا سعداء فعلًا!".
قالت السيدة المسكينة: "نيلي! نيلي! لا يمكنني تحمل رؤية فتاة صغيرة مثلك تصارع ذلك الكم من الحزن.. حبًّا في الخالق كُفِّي عن البكاء".
قالت نيل: "نادرًا ما أبكي، لقد كتمت البكاء لفترة طويلة للغاية، أشعر أنني لست على ما يرام، لقد ترقرق الدمع من عيني؛ لا أستطيع منعه أكثر من ذلك. لا أمانع إن أظهرت حزني أمامكِ؛ فأنا متأكدة تمامًا أنكِ لن تخبري أي أحد آخر".
أدارت السيدة كويليب رأسها بعيدًا، ولم تحر جوابًا.
أكملت الطفلة: "كنا بعد ذلك نسير عبر الحقول، بين الأشجار، وحينما نعود إلى البيت ليلًا متعبين، نردد كم كان مكانًا جميلًا! لطالما أحببنا هذا الشعور. إن كان البيت مظلمًا أو حتى رتيبًا، اعتدنا أن نذكر مكانته في قلبينا، وما الذي يعنيه لنا، نستحسنه؛ متذكرين نزهتنا الأخيرة، متطلعين إلى نزهتنا التالية. لكننا الآن لا نحظى على الإطلاق بأي من تلك النزهات أما عن البيت، فلا يزال مظلمًا ورتيبًا، لكنه صار مقفرًا وأكثر قتامة، مما كان عليه في الواقع!".
توقفت عن الحديث؛ ظنًّا منها أن الباب قد تحرك أكثر من مرة، لكن السيدة كويليب لم تقل شيئًا.
قالت الطفلة في جدية: "أتظنين أن جدي أصبح أقل رفقًا بي وعطفًا عليَّ من ذي قبل! لكني أعتقد أنه يحبني أكثر مع مرور الأيام، أعتقد أنه أكثر لطفًا وحنانًا من أي يوم سابق. لا تعرفين كم هو

مولع بي!”.
قالت السيدة كويليب: “أعلم أنه يحبك كثيرًا يا عزيزتي”.
صاحت نيل: “إنه يحبني فعلًا، يحبني كثيرًا.. يحبني كما أحبه تمامًا، لكنني لم أخبركِ بعد سبب ذلك التغيير الكلي، عليك ألا تخبري أي أحد بأي كلمة مما سأقول قط. إنه لا ينام أبدًا ولا يرتاح، سوى في تلك المرات القصيرة التي يجلس فيها على كرسيه، فيما عدا ذلك يكون بالخارج، بعيدًا عن البيت كل ليلة، وطوال الليل”.
- نيلي!
قالت الطفلة، حيث وضعت إصبعها على شفاه السيدة، ونظرت فيما حولها: “هووش! أتعلمين! عندما يأتي في الصباح الباكر، قبل شروق الشمس مباشرةً، أدعه يدخل. لكنه في الليلة الماضية جاء متأخرًا جدًّا، كادت الشمس تكون قد أشرقت. كان وجهه شاحبًا كوجه جثة ميتة، كانت عيناه تتلونان بلون الدماء، كان يمشي أمامي وساقاه ترتعدان. حينما عدت إلى سريري، سمعته يئن أنينًا موجعًا، نهضت من فوري، وركضت إليه مسرعة سمعته يقول قبل أن يدرك وجودي، أنه لا يستطيع تحمل حياته أكثر من ذلك، وأن حياته إذا لم تكن من أجل الطفلة، كان ليتمنى أن يموت! ماذا أفعل؟ لا أعلم ماذا عليَّ أن أفعل!”.
انهمرت دموع الطفلة وانفتحت مجاريها، لم تتحمل ثقل الحزن والاضطراب أكثر من ذلك؛ أظهرت ثقة، كانت أول مرة تُظهرها على الإطلاق، شعرت بعاطفة غامرة من السيدة كويليب جراء حكيها لقصتها المأساوية القصيرة، أخفت وجهها بين أضلع صديقتها عاجزة الحيلة، سالت دموعها في انهيار.
عاد السيد كويليب في غضون دقائق قليلة، أبدى دهشة عارمة، حيال ما رآه، وحيال الحالة التي وجدها عليها، بدت ردة فعله غير مصطنعة ذات تأثير مقنع، بدا طبيعيًّا هادئًا كان تصرفه مألوفًا بالنسبة له؛ لطالما تمرس عليه على مدار فترة طويلة.
قال القزم، وهو ينظر بطرف عينيه إلى زوجته في دهاء شنيع؛ يلمح لها كي تواصل اتباعها لخطاه: “أعتقد أنها متعبة يا سيدة كويليب.. قلت لك أنها قطعت مسافة طويلة سائرةً من منزلها إلى رصيف الميناء، فضلًا عن أن المسكينة شعرت بالخوف الشديد؛ بسبب رؤيتها اثنين من الأوغاد الصغار يتعاركان، إلى جانب أنها تعرضت لرهبة شديدة من ماء النهر.. إن ما حدث حقًّا كثير للغاية كي تقدر طفلة مثلها على تحمله.. أوه مسكينة يا نيل!”.
اندفع السيد كويليب نحو فعل تلقائي غير مقصود، أراد من خلاله أن يهون على زائرته الصغيرة ما تمر به حيث مسح على رأسها. إن مثل هذا الفعل إذا ما أقدم عليه أي شخص آخر، قد لا يتبعه رد فعل ملحوظ، لكن الطفلة انكمشت على نفسها من فورها، حينما شعرت لمسته، وابتعدت عن مجال يده كرد فعل لا إرادي استجابة لرغبة فطرية تدفعها بعيدًا عنه، وقفت منتفضة وأعلنت من تلقاء نفسها أنها في عجالة من أمرها وأنه يجب عليها الرحيل.
قال القزم: “لا! سيكون من الأفضل أن تنتظري وتتناولي العشاء معي ومع السيدة كويليب”.
قالت نيل بعد أن كفكفت دموعها: “لقد أمضيت فترة طويلة جدًّا بالخارج يا سيدي، ويجب عليَّ الرحيل”.
قال السيد كويليب: “حسنًا يا نيل! إن وجب عليكِ الرحيل فعلًا، أريد أن أعلمكِ بشيءٍ أخير، بلغيه أنني سألقاه ربما غدًا أو بعد غد؛ إن لم أستطع القيام بما أراد هذا الصباح. وداعًا يا نيلي..

إنها قادمة إليك أيها السيد الصغير، اعتنِ بها هل تسمعني؟".
كان كيت قد ظهر فور استدعائه، ولم يُبْدِ أي رد تجاه توصية كويليب التي لم يكن لها داعٍ من الأساس، اكتفى بالتحديق فيه طويلًا؛ ظنًا منه أنه المتسبب في ذرف نيلي لذلك الكم الهائل من الدموع، وقد حملت نظرته نذر تهديد؛ وشعر برغبة عارمة في الانتقام منه؛ لمجرد أن الشكوك ساورته لكنه استدار واتبع خليلته، عندما ودعت السيدة كويليب وغادرت.
قال القزم ملتفتًا إلى السيدة كويليب فور رحيلهما، وتركهما بمفرديها: "كنتِ تسألينها في تحفظ؟ أليس كذلك؟".
ردت زوجته في نبرة حالمة: "ماذا كان يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك؟".
سخر كويليب مرددًا: "ماذا كان يمكنكِ فعله أكثر من ذلك؟ ألم تستطيعي أن تفعلي ما هو أقل من ذلك؟ ألم تستطيعي فعل ما كان يجب عليكِ فعله، من دون أن تُظهري الجانب المفضل لديكِ من كونكِ مخادعة، أيتها الوقحة؟".
قالت زوجته: "لقد كنت آسفة حقًا على الطفلة الصغيرة! لقد فعلت ما فيه الكفاية، أنا متأكدة من ذلك؛ وجعلتها تخبرني بسرها، ظنًا منها أننا بمفردنا، وأنت كنت بالجوار، أسأل الخالق أن يسامحني على فعلي الشنيع هذا!".
قال كويليب: "لقد جعلتيها! أوه! لقد فعلتي الكثير حقًا.. ماذا أخبرتك بشأن صرير الباب؟ من حسن حظك فقط أنها قالت دون أي إدراك منها أو منكِ ما أردت سماعه، لكني لو لم أكن قد حصلت على مفتاح لغزي، لكنت جعلتك تتكبدين معاناة ومرارة الفشل".
بدت السيدة كويليب راضية وموافقة تمامًا على ما قال، ولم تتفوه بأي رد، فاستطرد زوجها في حديثه مدليًا ببعض الإطراء لها.
- لكني من الممكن أن أشكر حسن حظكِ.. حظكِ نفسه الذي جعلكِ السيدة كويليب.. حظكِ الذي يجب عليكِ أن تشكريه أيضًا لأنه هو ما دلني عليكِ. حسنًا! دعينا ننهي حديثنا الآن عند هذه النقطة، ولا نذكره في أي وقت آخر. أريدكِ ألا تحضّري طعامًا دسمًا أو جيدًا من أجل العشاء، فلن أكون في البيت هذه الليلة.
مع هذا القول، إلتقط السيد كويليب قبعته، ومن ثم غادر، ولبثت السيدة كويليب بائسة؛ تفكر وتستجمع كل تصرفاتها الفائتة، تحبس نفسها في غرفتها، منكفئة على وجهها خانقة أنفاسها بغطاء السرير، تجتر آلام ما اقترفته، في حزن مرير حزن أكبر مما قد يصيب قلوب من هم أقل رقة على آثام أكثر شرًا بكثير. غالبًا يكون الضمير مرنًا غير متيقظ إلى هذا الحد، ويتأقلم وفق الظروف، يتكيف مع ما تؤول إليه الدنيا المتنوعة. يتخلص بعض الأشخاص من مبادئهم، تدريجيًا، مبدأ وراء مبدأ، مثلما يتخلصون من ملابسهم الثقيلة عندما يتحسسون الدفء، إلى أن يحين الوقت الذي يتخلون فيه عنها تمامًا، والبعض الآخر يتخلص منها بالكلية مرة واحدة وهم في كامل سعادتهم، يستشعرون السرور؛ كأنهم قد حققوا أكبر الإنجازات رفعةً ورواجًا.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞



فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السابع

قال السيد سويفيلر: "يا فريد! أتتذكر لحن "الاهتمام الفاتر"، الذي حظى بشعبية هائلة! روّح على الشعلة الغارقة بجناح الصداقة، ومرِّر النبيذ الوردي".
تقع مساكن السيد ريتشارد سويفيلر في حي "دوري لين"، وتماشيًا مع ما ذُكر، يجب إضافة أن مساكنه كانت تعلو متجرًا لبيع التبغ، مكنه من الانتشاء بعطاس منعش وقتما أراد، بمجرد أن يطأ بقدميه نحو الخارج، ما وفر له تكاليف شراء التبغ والاحتفاظ بعلبته. استغل السيد سويفيلر جل تلك المقوِّمات المذكورة، لتعزية ودعم صديقه، ربما لا يكون من غير المهم أو غير اللائق؛ ملاحظة أن حتى تلك اللمحات الموجزة عن جوانب شخصيته قد مثلت ازدواجية عقل السيد سويفيلر، ودمجه للطابعين الرمزي والشِّعري معًا؛ في الواقع كان النبيذ الوردي مقدمًا في كأس واحدة يحوي الماء المثلج والنبيذ، يُعاد ملؤه من قارورة وزجاجة على الطاولة، وبناءً على طلب لا يُكرر، يُمرر الكأس بالتناوب من واحد إلى الآخر، بسبب عجز في الكؤوس؛ وهو الأمر الراجع إلى عزوبية السيد سويفيلر، التي يصرح بها دائمًا دون أدنى خجل. لطالما ردد بائع التبغ في أوقات فراغه أن نافذته ما هي إلا "مساكن" رجل نبيل أعزب، وعلى غرار هذا التخييل اللطيف كانت غرفته الفردية مذكورة دائمًا في صيغة الجمع. فالسيد سويفلر منذ ذلك الوقت استمر في تكرار نفس المدلول، ولم يذكرها ولو مرة إلا وقد قال غُرَفه أو مساكنه أو حجراته، موحيًا إلى مستمعيه بفكرة الفضاء الفسيح، تاركًا لمخيلاتهم التجول بكل سرور عبر أجنحة شاسعة لقاعات مهيبة.
وخلال رحلة الخيال المحض تلك كيَّف السيد سويفيلر قطعة أثاث مضللة، كان مظهرها متناقضًا مع أصلها؛ في الواقع كانت هيكل سرير، لكنها في الظاهر بدت خزانة كتب، نالت المقام الأكبر والوضع الأبرز في غرفته، بدت كأنها تتحدى الشكوك والتساؤلات. مع مرور الوقت، ومن دون أدنى شك، صدَّق السيد سويفيلر الوهم؛ ما أُوحي إليه براحة سرية، مُسلِّمًا بأنها خزانة كتب، وليست أي شيء آخر، غاضًا الطرف عن كونها سرير، متغاضيًا عن ذلك، مستنكرًا في حزم وجود البطانيات، طاردًا الأفكار الواردة إلى ذهنه عن أهمية الوسائد. لم يحدث قط أن شاع صدى كلمة واقعية أو أن ذكر تلميحًا عابرًا عن الخدمات الليلية لتلك القطعة من الأثاث، أو أن صرَّح بإشارة لأملاكه الخاصة في أي حديث بينه وبين خلانه المقربين. كان إيمانه الضمني في التضليل هو أول أداة تعريف بعقيدته. لكي تكون صديقًا للسيد سويفيلر، يجب أن ترفض جميع البراهين العرضية، وجميع الأسباب والملاحظات والخبرات وتجدد باستمرار التصديق الأعمى في شأن خزانة الكتب. لطالما كانت نقطة ضعفه التي تعلّق بها.
قال السيد سويفيلر، بينما وجد أن مناشدته السابقة لم تُجدِ نفعًا: "مرر النبيذ".
دفع شاب عائلة ترينت الكأس في غير صبر تجاهه، غارقًا مرة أخرى في تقلباته المزاجية، التي كانت بسبب ما مرَّ به مؤخرًا، وأثار غيظه.
قال صديقه محركًا مزيج النبيذ: "حسنًا يا فريد! سأقول لك رأيًا يليق بما تمر به.. إليك به، من الممكن أن الـ...".
قاطعه الآخر: "هووووش! إن آراءك وثرثرتك تشعرانني بالتشوش الشديد حقًّا؛ بإمكانك أن تكون مرحًا تحت أي ظرف من الظروف، مهما كان الظرف سيئًا".

قال ديك: "لماذا يا سيد ترينت! أتعلم أن هناك قولًا مأثورًا يتعلق بأمر المرح والحكمة! هناك من الناس من يكون مرحًا لكنه ليس حكيمًا، ومن يكون حكيمًا - كما تصور له نفسه - لكنه لا يستطيع أن يكون مرحًا. أعتقد أنني من النوع الأول. إن كان ذلك القول صائبًا، ومن الممكن الاستناد إليه، فأفترض أن انطباق نصف المضمون عليك، خير من ألا ينطبق عليك أي شيء منه. على أي حال، أفضّل أن أكون مرحًا على أن أكون حكيمًا، على عكسك تمامًا، فأنت لست هذا أو حتى ذاك".
دمدم صديقه في حدة: "باااه!".
قال السيد سويفيلر: "إنني ممتن جدًّا من كل قلبي.. لكنني أعتقد أن مثل تلك التعبيرات لا تُقال لشخص نبيل، وبالأخص في شقته الخاصة.. لكن لا يهم، لن أمانع في ذلك.. اعتبر نفسك كأنك في منزلك". أضاف إلى قوله الحاسم ذلك التعقيب؛ ما أفاد أن صديقه بدا في حالته المزاجية تلك كأنه "غريب الأطوار". أنهى ريتشارد سويفيلر كأس النبيذ الوردي ثم ملأه لنفسه بالمزيج ثانيةً، بعد أن تذوقه واستحسن مذاقه، قدَّم نخبًا لصحبة وهمية.
قال ديك: "السادة الكرام، اسمحوا لي أن أقدم لكم خالص الأمنيات بالنجاح لعائلة سويفيلر العريقة، وبالحظ الحسن للسيد ريتشارد على وجه الخصوص"، ثم شدد على قوله: "السيد ريتشارد أيها السادة الكرام من أفنى ماله كله على أصدقائه وتلقى الـ "باااه!" على آلامه. اسمعوا وَعُوا!".
جلس الآخر على مقعده، بعد أن طاف في الغرفة مرتين أو ثلاث مرات: "ديك! هل لك أن تتحدث لدقيقتين فقط في جدية، إن دللتك على طريقة تمكنك من كسب ثروة هائلة جراء مشكلة مفتعلة هينة؟".
قال ديك: "عرضت عليَّ الكثير سابقًا، ولم يكن هناك أي عائد من أي منها.. الجيوب الخاوية فقط..".
قال رفيقه: "ستغير فكرتك بشأن هذه الطريقة، قبل حتى إتمامها أو مُضِيّ وقت طويل على تنفيذها.. "، قرَّب مقعده من الطاولة: "هل رأيت أختي نيل؟".
رد ديك: "ماذا عنها؟".
- إن وجهها جميلٌ، أليس كذلك؟
رد ديك: "لماذا بالضبط! لكنني أستطيع أن أقول إنه ليس هناك أي تشابه بينك وبين أسرتك".
كرر صديقه بنفاد صبر: "إن وجهها جميل، أليس كذلك؟".
قال ديك: "نعم! إن وجهها جميل، جميلٌ جدًّا.. لكن ما الذي يعنيه ذلك؟".
عاد الحديث إلى صديقه: "سأخبرك.. إن من البديهي أن أظل أنا والعجوز في خلاف مستمر حتى نهاية حياتنا، ولا أتوقع منه غير ذلك، لقد رأيت ذلك بنفسك.. حسب ما أفترض، أليس كذلك؟".
قال ديك: "هذا شيء يراه الخفاش في وضح النهار والشمس ساطعة".
- وسيكون على نفس القدر من البداهة، أن المال الذي أعلمني العجوز "المتعفّن" وجوب مشاركته مع أختي بعد مماته، سيكون كله من نصيبها، أليس كذلك؟
رد ديك: "يجب أن أقول إنه قد كان كذلك، لكن الطريقة التي طرحت بها عليه الأمر كله، أظن أنها تركت تأثيرًا عميقًا في نفسه. أو على وجه الدقة قد حلَّت المشكلة تمامًا. لقد كان حديثي

محفِّزًا حماسيًا يا فريد.. أتتذكر قولي:"...إن ذلك العجوز ودود...". يا له من حديث قوي ومؤثر حسب ما أظن! بدا طبيعيًّا ودودًا. ألم يؤثِّر فيك على النحو نفسه؟".
رد الآخر: "إنه لم يؤثِّر فيه من الأساس، حتى يؤثِّر فيَّ، لذلك يجب أن نوفر علينا مناقشة أمر ما تفوهت به ساعتها.. الآن انتبه إلى أن نيلي قد قاربت على الرابعة عشرة من عمرها".
أشار ريتشارد بيديه بعلامة تنصيص: "إنها فتاة جميلة في مثل هذا العمر.. لكنها "صغيرة"".
قال ترينت متذمرًا من قلة انتباهه لمضمون حديثيهما: "دعني أُكمل الحديث، اصمت فقط لمدة دقيقة؛ كي أصل إلى النقطة المهمة التي أود الإشارة إليها".
قال ديك: "حسنًا!".
- إن الفتاة تحتكم إلى عواطفها دائمًا، وهي لم تكبر على ذلك الحال، ربما سيكون من السهل إقناعها والتأثير عليها في هذا السن. إذا أصبح لي عليها سُلطة، سوف أؤثّر عليها ببعض الترغيب والترهيب؛ كي تمتثل لإرادتي. دعني أقولها لك مباشرة دون التطرق إلى المزيد من التفاصيل؛ "فإن مزايا المخطط سوف تستغرق أسبوعًا لتُحصى" قُل لي ما الذي قد يمنعك من الزواج منها؟
كان السيد ريتشارد سويفيلر ينظر إلى ما فوق حافة كأسه، عندما أوضح رفيقه وجهة نظره في حماس وجدية، عندما انتبه للكلمات التي وردت إلى مسامعه بدت على وجهه أشد علامات الذعر، ولم ينطق سوى بكلمة واحدة:
- ماذا؟
كرر الآخر في ثبات وثقة؛ يعلم تأثيرهما الفعَّال على رفيقه من خلال خبرة طويلة به: "أقول لك: ما الذي يمنعك؟ ما الذي يمنعك من الزواج منها؟".
صاح ديك: "الزواج منها، وهي تقترب من "الرابعة عشرة" من عمرها؟".
قال الأخ في غضب: "لم أقصد أنك ستتزوجها الآن.. لنفترض أن ذلك الأمر سوف يتم خلال سنتين أو ثلاث سنوات، أو أربع سنوات.. هل يبدو لك أن عمر العجوز سيكون أطول من ذلك؟".
هز ديك رأسه قائلًا: "لا! لا يبدو كذلك.. لكن هؤلاء العجائز.. لا يمكنك أن تثق بهم يا فريد. هناك عمة لي تسكن في "دور ستاشير" كانت بالأحرى تحتضر، عندما كان عمري ثماني سنوات، وتخيل أنها لم تَلْقَ حتفها حتى الآن. إنهم مزعجون، مجردون من المبادئ، حاقدون، كلماتهم لاذعة.. إلا إذا أصابتهم سكتة دماغية. يا فريد، يجب ألا تعتمد عليهم، إنهم حتى بعد ذلك كله يمكن لهم أن يخدعوك باستمرار".
قال ترينت بنفس الثبات والثقة، مثبتًا ناظريه على صديقه: "بالنظر إلى الجانب السيئ في الأمر، لنفترض أنه قد ظل حيًّا".
قال ديك: "تحريًا للدقة، فهذا هو أساس المشكلة".
استأنف صديقه: "إني أقول لنفترض أنه ظل حيًّا، لكنني تمكنت من إقناعها، أو كي أقولها بكلمة أكثر دقة أجبرتها، أجبرت نيل على زواج سري بك. ما رأيك كيف ستكون نتائج الأمر؟".
قال ريتشارد سويفيلر بعد بعض التفكير: "عائلة ودخل سنوي من اللاشيء كي تحافظ على الاستمرارية".
قال الآخر في جدية بالغة: "سأخبرك!". سواء بدت جديته في القول حقيقية أو متوقعة، فقد أثَّرت في رفيقه التأثير نفسه: "إنه يعيش من أجلها، يكرس جميع طاقته وأفكاره لها فقط، لدرجة

أنه يفضِّل ألا يحرمها من الإرث، حتى إن لم تُبدِ له فروض الطاعة، أكثر من قبوله لرعايتي مرة أخرى، وإن قدمت له فروض الولاء واعتنقت الفضائل. أعلم أنه لن يفعل. بإمكانك أو حتى بإمكان أي رجلٍ آخر أن يلاحظ ذلك بأم عينيه، ويدرك ما الذي يفضله".
قال ديك متأملًا: "يبدو الأمر كذلك بكل تأكيد".
رد صديقه: "إنه يبدو كذلك؛ لأنه في حقيقة الأمر كذلك فعلًا.. إن أردت أن تكسب وده كي يسامحك بتقديم دافع له، فليكن هناك نزاع لا يقبل المساومة، مشاجرة مميتة بيني وبينك أولًا.. أقصد أن نجعل من ذلك انطلاقة لحدوث الأمر برمته.. نعم بالطبع.. وبناءً عليه سوف يتم الأمر بسرعة كافية. أما نيل، فيمكنني أن أقول لك: إن الدق الكثير على الحجر يفتته، تعلم أنه من الممكن أن تثق بي بقدر ما تلاقي اهتمامًا مني. لذلك سواءً ظل حيًّا أو قضى نحبه، حينها ما الذي سيشكل فارقًا عند ذلك؟ ستكون أنت الوريث الوحيد لثروة ذلك العجوز الغني، ومن ثمَّ سوف يتسنى لنا إنفاقها معًا، علاوة على تلك الصفقة ستحظى بزوجة جميلة يافعة".
قال ديك: "أحسب أنه غني دون أدنى شك..".
- شك! هل سمعت ما قاله من دون قصد ذاك اليوم، عندما كنا هناك؟ شك! ما الذي ينتابك الشك حياله أيضًا يا ديك؟
سيكون من المضجر حتمًا متابعة الحديث إن استمر بذات وتيرة أساليبه الملتوية تلك، كما سيكون من المضجر تبيان ما آل إليه فكر ريتشارد سويفيلر بالتدريج على نحو تفصيلي. يكفي أن نعرف أن الغرور والولع والفقر وشغفه تجاه إسراف المال قد حثه بالفعل على التفكير في أمر العرض الذي قُدم له في محاباة كاملة، لكن لا مبالاته الظاهرية المعتادة قد سادت، ورجحت كفتها، على الرغم من توفر كل القناعات لديه؛ كي يَقدِم على فعله. لكن الدوافع لم تقتصر على هذا الحد فحسب، بل من الواجب إضافة ذكر الهيمنة الكلية، التي يمارسها صديقه عليه على مدار فترة زمنية طويلة كذلك.. كانت هيمنة مارسها مستغلًا نواقص صديقه بشكل واسع في البداية، ومن ثم يمكن القول بأن الهيمنة سادت في كل تسعة مواقف من أصل عشرة، بسبب حسه الماكر، رغم أنه في حقيقة الأمر قد كان طائشًا ومتهورًا أرعن التفكير. أما على الصعيد الآخر، فكانت الدوافع الأخرى أعمق من أي شيء طرأ على ريتشارد سويفيلر من قبل، كي يستوعبها أو حتى يفهمها، فقد تركها إلى أن يحين وقتها، دون محاولة استدعاء أي تفسير واضح. ختموا مفاوضاتهما في رضى وسرور؛ صرَّح السيد سويفيلر بعبارات صريحة، تفيد بأنه ليس لديه أي اعتراض مُقلق، تجاه الزواج من أي شخص سوف يجلب له المال ويوفر له سبل العيش، حتى وإن أُجبر على الزواج به، وخلال إدلائه بتصريحاته تلك، استوقفه طرق على الباب، فصار من الضروري والحتمي أن يصيح بصوت عال: "ادخل".
فُتح الباب، لم يدخل منه سوى ذراع مغطاة بالصابون، وسحابة من دخان التبغ. أتى دخان التبغ من المتجر في الطابق السفلي، أما الذراع فكانت لجسد خادمة، تعمل في تنظيف السلالم، كانت قد سحبتها لتوها من الدلو؛ لتقدم خطابًا، معلنةً بصوت رنان عن لقب المُرسَل إليه بطريقة بديهية بناء على الفئة المنحدرة منها، قائلةً إنه من أجل: "السيد سنيفلينغ".
بدا ديك أبلهَ، ذا وجه شاحب، عندما نظر إلى الخطاب؛ وبدا أكثر من ذلك عندما شرع في معرفة المرسل؛ مستدلًّا على أن الخطاب هو أحد المضايقات التي تنال منه لكونه حبيبًا سابقًا لامرأة، لطالما مر عليه ذلك الأمر هونًا طوال فترة حديثهما، لكنه في تلك اللحظة كان قد نسيها تمامًا.

سأل ترينت: "من هي؟".
قال ديك: "صوفي واكلز".
رد عليه مستنكرًا: "أوه! حقًا! من هي؟".
قال السيد سويفيلر: "إنها من بنيت عليها خيالي كله يا سيدي إنها كذلك بالفعل". أخذ رشفة طويلة من نبيذه الوردي، حدق مليًا في صديقه في جدية وقال: "إنها رائعة، إنها مخلوق سماوي.. أنت تعرفها".
قال صديقه دون اكتراث: "تذكرتها.. لكن ماذا بشأنها؟".
قال ديك: "ماذا بشأنها!! أتعلم أنه قد كان بين الآنسة صوفيا واكلز وبين الشخص المتواضع الذي يشارف على سرد حكايتهما معًا، مشاعر دافئة وعطاء حنون، مشاعر من نوع يفيض بالإلهام والوئام. أتعرف الإلهة ديانا يا سيدي - إلهة الصيد - ليس هناك من يماثلها في طباعها أكثر من صوفيا واكلز.. أكاد أجزم بصدق ذلك".
سأل صديقه: هل يجب عليَّ أن أصدق أي كلمة تفوهت بها؟ إنك لا تقصد قول أن هناك مشاعر حب متبادلة بينكما! أليس كذلك؟".
قال ديك: "مشاعر حب! نعم هناك مشاعر حب، لكنني لم أقطع لها وعدًا بشيء.. حتى لا يترتب على هذا الوعد أي أمر غير مرغوب فيه حين تنقطع العلاقات الودية فيما بيننا، وهذا هو المريح في الأمر برمته، لم ألزم نفسي مطلقًا بأي وعود كتابية يا فريد".
- إذن ماذا في الخطاب؟ صلوات؟
- إنه تذكير يا فريد، تذكير بحفل صغير مدعو إليه عشرون شخصًا، أي مائتا إصبع قدم، سيحل فيه كل سيد وسيدة مع خليله المناسب له. عليَّ أن أذهب؛ إذا كان في فعلي هذا بداية النهاية.. نهاية علاقتي بها... حتمًا سأفعل ذلك، لا تخف. أود أن أعرف فقط إن تركت هذا الخطاب بنفسها أم لا! لأنها إن فعلت حقًا، دون أن تهتم بالحواجز التي وضعتها، فسوف يؤثر عليَّ ذلك يا فريد.
من أجل العثور على إجابة لذلك التساؤل، استدعى السيد سويفيلر الخادمة التي أكدت على أن السيدة صوفيا واكلز قد سلمتها هذا الخطاب بيدها، فقد جاءت في صحبة السيدة واكلز الصغيرة؛ للحفاظ على المظهر العام ومبادئ الاحتشام بلا شك، وبمجرد علمها أن السيد سويفيلر موجود في منزله أصابها الخجل، بعد أن كانت قد طلبت الصعود إلى الطابق العلوي، وتمنت الموت بدلًا من أن تمر بذلك الحرج. استمع السيد سويفيلر لكل ما قيل في إعجاب بالغ، لا يتفق مع الصفقة التي وافق عليها لتوه، لكن صديقه أبدى احترامًا نحو سلوكه في هذا الصدد؛ ربما لأنه يعلم أن له تأثيرًا كافيًا للسيطرة على ريتشارد سويفيلر مهما كان الوضع، وتحت أي ظرف، وربما رأى أن ذلك ضروري؛ من أجل تحقيق مقاصده الخاصة.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞


الفصل الثامن

بعد أن أتم السيد سويفيلر صفقته، ذكرته نفسه أن وقت العشاء قد اقترب، وأن صحته هزيلة؛ لتقشفه في الطعام والشراب لفترة طويلة، ما حفزه على بعث رسالة إلى أقرب مطعم يطلب تزويده الفوري بطعام من لحم البقر المسلوق والخضار يكفي شخصين. لكن المطعم لم يتجاوب معه بصدد هذا الطلب "نظرًا لخبرته السابقة بتعاملات عملائه"، فأرسل من فوره ردًّا في منتهى الجفاء على رسالته، مفاده أنه إذا كان السيد سويفيلر بحاجة إلى تناول اللحم البقري، فسوف يكون مضطرًّا إلى القدوم بنفسه إلى هناك، وعليه أن يأخذ في اعتباره أن الخضار يُقدم قبل اللحم، ومن الأفضل له إذا أتى أن يحضر معه أي مبلغ من المال ولو صغير لتسديد مديونته التي مضى عليها وقت طويل.

لم يزعجه هذا الرد على الإطلاق، بل استغل فطنته وذكاءه وشهوته للطعام، وأرسل الرسالة عينها إلى مطعم آخر أبعد، مضيفًا مع حامل الرسالة أن السيد فضَّل إرساله بعيدًا، وإلى هذا المطعم تحديدا، ليس بسبب شهرة وشعبية اللحم البقري العظيمة لديه فحسب، بل من أجل قساوة اللحم البقري الشديدة، ذلك اللحم الذي لا يُمضغ ويُباع بالتجزئة في مطعم "أبدرونت"، فهو ليس غير مناسب على الإطلاق ليتناوله الرجال النبلاء فحسب بل ليس مناسبًا أبدًا لأي استهلاك بشري من الأساس. تجلى الأثر الجيد من سياسته التي اتبعها، في الوصول السريع لهرم صغير من الأواني البيوترية، منظمة في شكل مثير للعجب والإعجاب من الأطباق والأغطية، حيث شكلت شرائح اللحم البقري المسلوق القاعدة وسطح الوعاء، أما بالنسبة لما احتوته الوجبة، فقد وفرت مكوناتها كل شيء كان لازمًا أو ضروريًا، من أجل تناول وجبة شهية انكب عليها السيد سويفيلر وصديقه؛ يلتهمانها في متعة ونهم.

قال ديك، غارسًا شوكته في قطعة بطاطس جمرية كبيرة: "قد تكون اللحظة الحالية، هي أكثر اللحظات سوءًا في حياتنا! تعجبني فكرة إعادة إرسالها وعليها القشرة في الأواني بعد انتهائنا من تناول العشاء.. هناك سحر كامن في سحب البطاطس من الخبز المغموس في النبيذ يماثل سحر قربان الأفخارستيا ([2]) "إن جاز لي التعبير بذلك القول"؛ ومن الواضح أن الأغنياء وذوي النفوذ غرباء عنه. آه!: "إن المرء هنا بالأسفل لا يريد سوى القليل، ولا يريد ديمومة ذاك القليل!"([3]). تُرى ما مدى صحة هذا القول؟".

قال رفيقه: "آمل ألا يريد مالك المطعم سوى القليل، وربما بذلك لا يريد ديمومة ذاك القليل، رغم أني أحسب أنك لا تملك أي آلية أو نية للدفع مقابل ذلك!".

قال ديك وهو يغمز بعينه يجب أن أتخطى الحاضر، وأخاطب روح النادل العاجزة. لقد انتهى الطعام يا فريد، وهنا تأتي النهاية".

وبعد إلقاء نظرة على الواقع شعر النادل بحقيقة الأمر الكارثية؛ فور عودة جميع الأطباق والأواني فارغة دون أي شيء آخر، فضلًا عن إبلاغ السيد سويفيلر له في لا مبالاة متناهية، أنه سوف يتواصل معهم، حينما يتخطى الحاضر، ساعتها بدت على النادل أمارات اضطراب الروح، وغمغم ببعض الملاحظات عن "الدفع عند الاستلام". و"انعدام الثقة". وغيرها من العبارات التي تقع على المسامع وقعًا غير حميد لكنه في نهاية المطاف أرضى نفسه بالاستفسار عن الساعة التي من

المحتمل أن يتواصل معهم السيد النبيل عندها؛ لأن مسؤولية طلبات اللحم البقري والخضار تقع على عاتقه، ويخشى ألا يكون متواجدًا في ذلك الوقت. أجابه السيد سويفيلر بعد حسابات عقلية دقيقة أجراها مع النفس، أنه يجب عليه أن ينظر في جدوله من دقيقتين إلى ست أو سبع دقائق، لذلك لم يملك النادل أي خيار سوى الرحيل، لا يحمل سوى تلك التعزية الفاترة، ومن ثم أخذ ريتشارد سويفيلر دفتر ملاحظاته فعلًا ليسجل تلك المسألة.
قال ترينت مستهزئًا: "هل هذه تَذكِرة، في حال إذا نسيت فعلًا التواصل معهم؟".
قال ريتشارد مندهشًا، رغم أنه استمر في تدوين حساباته: "لا! بالطبع لا يا فريد.. إنني أدوّن في هذا الدفتر أسماء الشوارع التي يمكنني الذهاب إليها حينما تكون المتاجر مفتوحة؛ فقد حظر عشاء اليوم فدانًا كاملًا، لقد أخذت حذاءً من شارع "جريت كوين" الأسبوع الماضي، فأضفت هذا الشارع إلى قائمة "ممنوع المرور" أيضًا. وبناءً عليه، لم يتبقَّ سوى طريق واحد في الوقت الحالي يؤدي إلى الساحل، في حين أنه إذا أردت التوقف هناك يجب عليَّ أن أكون متواريًا عن الأنظار. إن الطرق تُقصى سريعًا وفي الاتجاهات جميعها، في غضون هذا الشهر، وإذا لم تُرسل لي عمتي حوالة، سوف يتوجب عليَّ الابتعاد لثلاثة أو لأربعة أميال خارج المدينة؛ لتفادي الطرق".
قال ترينت: "ألا تخشى عدم حصولك على الحوالة أبدًا؟".
رد السيد سويفيلر: "لماذا؟ لا! لا آمل حدوث ذلك.. على الرغم من أن متوسط عدد الخطابات اللازمة لاسترضائها هو ستة خطابات، والآن قد وصلت إلى الخطاب الثامن دون إحراز أي جدوى على الإطلاق. سوف أكتب إليها خطابًا آخر في صباح الغد. وسوف أتعمد استخدام الحيلة في كتابته عبر تلطيخه بالحبر وذر قطرات من الماء من مذرَّة الفلفل؛ كي أبدو تائبًا نادمًا: "إنني في حالة ذهنية يُرثى لها، أعي بصعوبة ما أكتبه". - نقطة حبر -: "إذا كنتِ تستطيعين رؤيتي، ورؤية كم من دموع أذرفها؛ ندمًا على سوء سلوكي الماضي". - قطرات ماء من مذرَّة الفلفل -: "إن يدي ترتعش؛ لمجرد التفكير". - نقطة حبر ثانية -: "إن لم تستجيبي لي هذه المرة، سأنهي كل شيء".
بحلول هذا الوقت كان السيد سويفيلر قد انتهى من التدوين، أغمد قلمه، وأغلق مدونته في كثير من الجدية والصرامة الرزينة. انتبه صديقه إلى أن الوقت قد حان لرحيله؛ كي يهتم بأمور أخرى، أما عن ريتشارد سويفيلر، فقد تُرك بمفرده، بصحبة النبيذ الوردي، وتأملاته الخاصة عن السيدة صوفي واكلز.
خاطب ديك نفسه هازًّا رأسه، تعلو نظراته أمارات الحكمة: "إنها حقًّا مفاجأة مدهشة!". ثم أكمل بنفس وتيرته المعتادة، متغنيًا بشطرات نثرية بدت وليدة اللحظة: "يصاب القلب بمخاوف الاكتئاب، حتى يحين الوقت الذي تظهر فيه السيدة واكلز بغتةً، فينقشع الضباب، إن جمالها حقًّا خلاب.. إنها مثل زهرة حمراء، أزهرت في يونيو - لا يمكن إغفال ذلك - إنها كلحن يُعزف في تناغم. إنها حقًّا مفاجأة مدهشة! لا حاجة لي بها، تطرح علامات استفهام، لم تكن أخت فريد الصغيرة في الحسبان.. أعلم أنه يجب عليَّ أن أكون هادئًا، لكن يُستحسن ألا أماطل في الأمر، وألا أكون متسرعًا.. إن قررت أن أكون هادئًا، يجب أن يؤخذ القرار عاجلًا. إنها فرصة لإنهاء علاقتي بها، إنه شيء آخر منفصل. إنهاء فرصة لإذ.. لا، ليس هناك أي فرصة فقط سأنحي العلاقة جانبًا".
كان هذا الارتجال هو الاختيار، الذي سعى إليه ريتشارد؛ لإخفاء حقيقة الأمر عن نفسه؛ كي لا يكون دليلًا ضد ولعه بسحر الآنسة واكلز، لكنه في لحظات عرضية، يقارن بين الثروة القادمة

وبينها، ليجد نفسه ينحي الأمر بعيدًا عن سيطرته؛ معززًا مخططه البارز، الذي أصبح طرفًا فيه.
بناء على تلك الأسباب جميعها، قرر افتعال مشاجرة مع الآنسة واكلز دون تأجيل، وفكر في حجة حاسمة، مفادها غيرة غير مبررة. بعد أن كرَّس عقله لإيجاد أطروحات حول تلك النقطة المهمة، نقَّل كأسه ما بين يديه من اليمنى إلى اليسرى، ثم أعاده مرة أخرى - في انسيابية، مفكرًا في الكيفية التي تمكنه من إتمام فكرته على نحو راشد وفي حذر تام، ومن ثمَّ انتقل إلى مرحاضه؛ لإضفاء هندام بسيط على مظهره، موجِّهًا خطواته في ثبات نحو وجهته المبجلة، وقد بدت على هيئته أمارات السكينة.
كانت وجهته إلى تشيلسي، حيث تقيم الآنسة واكلز مع والدتها الأرملة وشقيقتيها، وفي الوقت نفسه تدير معهن مدرسة نهارية صغيرة للشابات المستوفيات للشروط، كانت المدرسة تُعرف في الحي من خلال لوحتها البيضاوية الموضوعة على نوافذ طابقها الأول الأمامية، كتب عليها في أناقة "مدرسة التعليم العالي للفتيات"، معلنة عن مواعيد السماح بالدخول في الفترة من الساعة التاسعة والنصف صباحًا إلى العاشرة صباحًا، إلى جانبها تقف فتاة بمفردها على أطراف أصابع قدميها، تُحاول الوصول إلى قارع الباب بواسطة كتاب الهجاء. كان هناك العديد من المواد الدراسية في تلك المؤسسة. حيث تُدرّس الآنسة ميليسا واكلز قواعد اللغة الإنجليزية وكتابة المقال والجغرافيا إلى جانب الألعاب الرياضية، أما الكتابة وعلم الحساب والرقص والموسيقى وفنون الذوق العام فتُدرسها الآنسة صوفي واكلز، وبالانتقال إلى تدريس فنون الحياكة وتطريز المنسوجات بالغرز المعدودة ([4]) والتحديد في الرسم فتتكفل بها الآنسة جين واكلز، أما كل ما يتعلَّق بالعقاب البدني والحرمان من الطعام ومختلف أنواع الضرب ودروب التعذيب والرعب فلم يقم به إلا السيدة واكلز نفسها. كانت الآنسة ميليسا واكلز هي الكبرى من بين شقيقاتها، والآنسة صوفي هي من تتوسطهن عمرًا، والآنسة جين هي الأصغر سنًا. مر على الآنسة ميليسا خمسة وثلاثون صيفًا أو ما يقرب من ذلك، وصولًا إلى ذلك الخريف. أما عن الآنسة صوفي فقد كانت ربلة يافعة، عمرها عشرون عامًا. أما الآنسة جين، فكانت تبلغ بالكاد ستة عشر عامًا. على الرغم من أن للسيدة واكلز مظهرًا رائعًا، إلا أنها كانت امرأة عجوزًا تسر الضغينة في نفسها بدرجة كبيرة.
تخفَّى ريتشارد سويفيلر، حينما وصل إلى وجهته "مدرسة التعليم العالي للفتيات" وراء مخططاته الدميمة التي لا تليق بطبيعة صوفيا المسالمة ونزاهتها، في ذلك الوقت كانت ترتدي اللون الأبيض، مهندمة الملبس دون زينة عدا زهرة وردية استقبلته فور وصوله، في رقي غير مبتذل، لا تسوده البهرجة في الوقت ذاته، كانت الغرفة مزينة بأصص الزهور المعلقة في مهب الريح العاصف على الجانب الخارجي من النافذة. في يومهم ذاك سُمح لهن وللطالبات بأن يكون الزي مناسبًا للأجواء الاحتفالية، داومت الآنسة جين واكلز طوال الوقت على إبقاء رأسها ذي الشَّعر المجعد المميز، في إطار إعلان أصفر عن حفلتهن، أما السيدة المبجلة ذات الطبع المهيب وابنتها الكبرى، فكانتا في حالة صدمة فور رؤيتهما للسيد سويفيلر؛ بسبب مجيئه غير المتوقع، لكنهما لم تبديا أي انطباع آخر.
الحقيقة هي أن.. - ليس هناك حَجْرٌ على الأذواق، لكن الذوق الغريب يبقى بينًا، دون الحاجة إلى ادعاء خبيث متعمد.. - الحقيقة هي أن السيدة واكلز وابنتها الكبرى لم تكنَّا أي لطف للسيد سويفيلر في أي وقت كان، اعتادتا في أغلب الوقت على تسميته فيما بينهما بـ "الشاذ الصغير"، أو

على وجه الدقة وقتما ذكر اسمه بجوارهما، تنهدتا على نحو مشؤوم، متهامزتين. كان سلوك السيد سويفيلر حول إحترام الآنسة صوفي غامضًا مبهمًا، لكن لا وجود لأي أخطاء في الاستدلال حول نواياه الثابتة في الزواج منها، لدرجة أن الشابة نفسها مع مرور الوقت، ظنت أن ذلك الأمر مرغوب جدًّا، وأنها ملزمة بالعمل على إتمام ذلك بطريقة أو بأخرى. من ثمَّ وافقت أخيرًا على التلاعب بريتشارد سويفيلر، عن طريق استغلال رغبة أحد المزارعين بالزواج منها، واستعداده التام لتقديم عرضه لها، بعد تحفيز بسيط، لذلك في واقع الأمر.. خُصصت تلك المناسبة من أجل هذا الغرض. لكن خوفها الأعظم حيال الأمر برمته لم يتعلق بإمكانية إتمام تلك الحيلة، بل تمثَّل في دفع السيد سويفيلر للحضور، مما جعلها تعمد إلى ترك ملاحظة له؛ ليقرأها. قالت السيدة واكلز لابنتها الكبرى: "إن كان لديه أي رغبة أو نية لتكوني له زوجًا، عليه أن يعلنها إما الآن وإما لن يجسر على ذلك أبدًا"... قالت الآنسة صوفي في تدبر: "إذا كان حقًّا يكترث لحالي، فعليه أن يخبرني بذلك الليلة".
لكن تلك الأفكار والأقوال والأفعال جميعها كانت غير معلنة للسيد سويفيلر، ولن تؤثر فيه على أي حال من الأحوال في النهاية؛ كان جل ما يشغل تفكيره حينها هو كيفية افتعال حادث الغيرة على أكمل وجه، متمنيًا أن تكون صوفي أقل جمالًا في هذه المناسبة عن هيئتها المعتادة، أو أن تكون شقيقتها هي نقطة البداية؛ لإتمام مخططه على نحو جيد. في تلك الأثناء جاء المدعوون، وحضر بينهم المزارع، كان اسمه "تشيجز"، لم يأتِ السيد تشيجز بمفرده، جاء بصحبة شقيقته، الآنسة تشيجز، التي ذهبت من فورها إلى الآنسة صوفي، وقامت بالترحيب بها بكلتا يديها، وتقبيلها على وجنتيها، هامسةً في أذنها بصوت مسموع أنها تخشى أن يكون قدومهما مبكرًا.
أجابت الآنسة صوفي: "مبكرًا! لا بالطبع".
ردت عليها الآنسة تشيجر بنفس الهمسات المسموعة: "أوه! يا عزيزتي، لقد كنت معذبة وقلقة للغاية، إنها رأفة حقًّا أننا لم نكن هنا الساعة الرابعة عصرًا. لقد كان "هذا الشاب" نافد الصبر يريد القدوم عاجلًا! لن تصدقيني إن قلت لك إنه كان مرتديًا ملابسه قبل وقت الغداء، ينظر إلى الساعة، ويزيد في إلحاحه من أجل القدوم منذ ذلك الحين. إنه خطؤك، أيها الأرعن".
- أصاب الخجل الآنسة صوفي، وكذلك أصاب السيد تشيجز أيضًا - كان يصيبه الخجل أسرع من السيدات - لذلك ذهبت والدة الآنسة صوفي وشقيقتاها من فورهن؛ لمنع الحرج عنه والاحمرار خجلًا، وإحاطته بالاهتمام، تاركات السيد سويفيلر يعتني بنفسه. وبذلك حدث ما أراده تمامًا من دون تدخل منه ومنذ البداية هذا هو السبب الذي سيرتكز عليه لافتعال الغضب، مَثَّلَ له الموقف فرصة مواتية كي يجد سببًا بحث عنه طويلًا، ولم يكن يتوقع أن يجده بذلك اليسر، لذلك تظاهر ريتشارد سويفيلر بكونه غاضبًا، وفي جدية بالغة أخذ يتساءل من الشيطان تشيجز هذا، حتى يتصرف بتلك الوقاحة!
على الرغم مما حدث، شارك السيد سويفيلر الآنسة صوفي الربع الأول من الرقصة الرباعية - كانت الرقصات الريفية قليلة جدًّا أو بالكاد ممنوعة -، لذلك اكتسب السيد سويفيلر ببراعته أفضلية على منافسه، الذي جلس يائسًا في ركن؛ يشغله التفكير في مظهر الآنسة المتألق، وهي تتمايل معه راقصةً. كان ما حدث مجرد بداية، حسم السيد سويفيلر من خلالها مسألة أن يوضح للرجل أي نوع من الرجال عبثت معه تلك العائلة، فانطلق يرقص في خفة ورشاقة، محركًا يديه -

ربما كان ذلك تأثير ما شربه سابقًا -، أخذ يلف ويدور في انسيابية، لدرجة أنه تسبب في جعل رجل طويل كان يرقص مع شريكة قصيرة، يقف مندهشًا في صمت تام يغمره التعجب والإعجاب برقصه، وهكذا كان حال السيدة واكلز نفسها؛ ناسية في تلك اللحظة فتياتها الثلاث اللاتي غمرتهن السعادة أيضًا، ولم تستطعن إزاحة من رؤوسهن فكرة أنه يا له من فخر سوف يغمرهن، إذا انضم هذا الراقص البارع إلى العائلة!
خلال تلك الأزمة الحرجة، أثبتت الآنسة تشيجز أنها حليف قوي، وداعم مفيد لم تكتفِ برسم الابتسامات الساخرة؛ من أجل ازدراء تحركات السيد سويفيلر، بل انتهزت الفرص جميعها، كي تهمس في أذن الآنسة صوفي بعبارات وتعبيرات عزاء، معربة عن تعاطفها القوي، وقلقها الشديد من ذلك المخلوق السخيف، معلنةً خوفها حد الموت، من أن يقوم "هذا الشاب" ويشاركه الرقص، فيهزمه هزيمة شنعاء؛ فقد كان في أوج غضبه، متوسلةً إلى الآنسة صوفي أن تنظر إلى عينيه؛ لترى كم كانتا تقدحان شررًا، وفي الوقت نفسه لامعتين بعذوبة الحب وقوة الشغف، ولتتحرى صدق مشاعره وفرطها، تلك المشاعر التي لم يظهر تأثيرها على عينيه فقط، بل تجلت على أنفه الذي صار متوهجًا قرمزيًّا مرتجفًا.
قالت الآنسة صوفي لديك سويفيلر، بعد أن رقصت مع السيد تشيجز لمرتين متتاليتين في خضم عرض بارع؛ لتدعم أفضليته: "يجب أن ترقص مع الآنسة تشيجز، إنها فتاة لطيفة.. وشقيقها مبهج للغاية".
دمدم سويفيلر: "مبهج للغاية! حقًّا! هل تظنين أنه كذلك فعلًا؟ حسنًا.. أظن ذلك أيضًا؛ بسبب الطريقة التي ينظر بها إليكِ".
هنا اقحمت الآنسة جين نفسها في الحوار - بناءً على تعليمات مسبقة - واقتربت من شقيقتها بشعرها المجعد؛ هامسةً لها؛ لكي تلاحظ كم كان السيد تشيجز غيورًا جدًّا.
قال ريتشارد سويفيلر: "غيورًا! لا على نحو أدق قولي وقحًا!".
قالت الآنسة جين محركة رأسها في استنكار: "لِمَ وقحًا يا سيد سويفيلر! كن حذرًا فقط حتى لا يسمعك وأنت تقول ذلك، يا سيدي؛ حتى لا تأسف على ذلك حقًّا".
قالت الآنسة صوفي: "أوه! جين.. لا يصح م...".
قاطعتها شقيقتها: "هراء! كيف لا يشعر السيد تشيجز بالغيرة، وهو يحب؟ أنا أحب أن يفعل ذلك بكل تأكيد! إن السيد تشيجز لديه سبب جيد، كي تعتريه الغيرة، كما تعتري أي شخص آخر، أو ربما سيكون لديه الحق الكامل قريبًا، إن لم يكن لديه الآن بالفعل. أنتِ أفضل من يعرف ذلك الأمر يا صوفي!".
على الرغم من أنها كانت مؤامرة منسقة بين الآنسة صوفي وشقيقتها؛ لدفع السيد سويفيلر للإعلان عن نواياه في الوقت المناسب، إلا أنها باءت بالفشل؛ كانت الآنسة جين واحدة من هؤلاء الفتيات المشاكسات، صاحبات الطبع الحاد، وقد كيَّفت ذلك، وبالغت في حديثها مبالغة لم يكن لها داع وفق الدور المخصص لها القيام به، وقد ابتعد السيد سويفيلر في امتعاض، معتزلًا فتاته، تاركًا إياها للسيد تشيجز، ناظرًا إليه في تحدٍّ، ليردها عليه السيد النبيل بنظرات ساخطة.
قال السيد تشيجز وقد تبعه إلى الزاوية: "هل كنت تتحدث إليَّ أيها السيد؟ لا لا! حافظ على ابتسامتك لي يا سيد؛ كي لا نكون موضعًا للشك. إذنْ هل كنت تتحدث إليَّ أيها السيد؟".

وجه السيد سويفيلر عينيه إلى السيد تشيجز، مبتسما إبتسامةً عابرة مصطنعة، بينما ينظر إلى أخمص قدميه ثم إلى كاحله، ثم إلى قصبة ساقه، ثم إلى ركبته، وظل يرتفع بناظريه تدريجيًا، على غرار طريقة نظره إلى ساقه اليمنى، إلى أن وصل إلى صدريته، وحينها أخذ ينتقل من زر إلى آخر، ويرتفع بموضع نظره إلى أن وصل إلى ذقنه، ثم نظر مباشرةً إلى منتصف أنفه، وإذ به ينتقل فجأةً للنظر إلى داخل عينيه، ويقول من فوره:
- لا أيها السيد، لم أفعل.
نظر إليه السيد تشيجز محدقًا: "امم! أناشد طيبة قلبك أن تبتسم مرة أخرى يا سيد.. فكر ثانيةً، ربما تريد التحدث معي أيها السيد؟".
- لا أيها السيد، لم أفعل ذلك أيضًا.
قال السيد تشيجز في شراسة: "ربما لأنه ليس لديك ما تقوله لي الآن".
مع إنتهاء تفوهه بتلك الكلمات أزاح السيد سويفيلر ناظريه عن وجه السيد تشيجز، ونظر إلى منتصف أنفه، ثم إلى صدريته، نزولًا حتى ساقه اليمنى، إلى أن وصل إلى أخمص قدمه، مدققًا متفحصًا في عناية، ثم كرر ما فعله في ترتيب معاكس نحو ساقه الأخرى، لكنه مع الوصول إلى صدريته كما كان سابقًا، مكملًا حتى الوصول إلى عينيه، قال: "أما عن هذا.. فنعم أيها السيد، ليس لديَّ ما أقوله".
قال السيد تشيجز: "أوه! أنا سعيد جدًا لسماعي ذلك في الواقع... حسنًا! أحسب أنك تعرف أين سأكون بكل تأكيد، في حالة إن أردت أن تقول لي أي شيء؟".
- يمكنني في سهولة بالغة أن أستعلم عما أريده، إن أردت فعلًا الاستعلام عنه.
- لا يوجد شيء آخر تريد قوله حسب ما أظن. أليس كذلك أيها السيد؟
"بلى هو كذلك!"... بالوصول إلى هنا، كان السيدان قد انتهيا من محادثتهما الرهيبة متبادلين نظرات عابسة منفِّرة. سارع السيد تشيجز إلى مد يده للآنسة صوفي، أما السيد سويفيلر، فمكث في زاويته في حالة مزاجية سيئة.
بدا له من زاويته في وضوح أن السيدة والآنسة واكلز كانتا جالستين، تتابعان النظر إلى الرقص. أما الآنسة تشيجز، فكانت ترمق ريتشارد سويفيلر بوابل من النظرات المريرة الحادة، بينما كان شقيقها منشغلًا في الرقص مع شريكته. نظر إلى أعين السيدة والآنسة واكلز على سبيل الاستدلال، في حين جاءت طالبتان وجلستا على نحو قلق على أسكفة النافذة، فور رؤيتهما، تبسمت السيدة واكلز، ومن ثمَّ تبسمت الآنسة واكلز أيضًا، ولم تستطيعا سوى مبادلتهما الإبتسام؛ للتخفيف من وطأة الموقف، في اعتراف رقيق منهما بخطئهما؛ وتضرعتا من أجل أن ترفق السيدة بهما، لكنها سرعان ما أومأت لهما عابسةً؛ كي تنزلا من فورهما، قائلةً إنهما إذا تجرأتا على اقتراف ذلك الذنب مرة أخرى، أو إرتكاب أي خطأ آخر، سيتم إرسالهما إلى منزليهما تحت الحراسة المشددة. أثَّر هذا التهديد في إحدى الفتاتين فانكمشت في نفسها، وارتجفت في وهن، حتى دمعت وبكت ثم هرولتا مبتعدتين في الحال جراء ما تعرضتا إليه من إهانة أثارت الرعب في نفوس الطالبات الأخريات.
اقتربت الآنسة تشيجز مرة أخرى، وقالت: "إن لديَّ أخبارًا عرفتها من أجلك وأود إعلامك بها.. لقد نوّه "هذا الشاب" إلى الآنسة صوفي عما يسره بداخله.. بحسب رأيي الخاص، لقد كان جادًّا يُدرك مقاصده، بدا ذلك واضحًا".
تساءلت السيدة واكلز قائلة: "عن أي شيء نوّه يا عزيزتي؟".

أجابت الآنسة تشيجز: "عن أشياء كثيرة، لا تستطيعين تصوّر كم من الوقت ظلا يتحدثان طواله!".
اعتبر السيد سويفيلر أنه من المستحسن ألا يسترق السمع أكثر من ذلك، منتهزًا فرصة توقف الرقص، واقتراب السيد تشيجز من السيدة بغرض جذب انتباهها، فصار متعجرفًا، تغمره الغطرسة الكاملة، مشى نحو الباب دون اكتراث مارًّا بالآنسة جين، التي كانت في كامل بهائها وسط شَعرها المجعد، تغازل رجلًا عجوزًا واهنًا، كان يجلس في الردهة - ربما اعتادت فعل ذلك ما دام لم يكن هناك ما هو أفضل لتفعله - وانتقل إلى حيثما كانت تجلس الآنسة صوفي، على مقربة من الباب ترتجف في ارتباك من اهتمامات السيد تشيجز المنصبة عليها، ساعتها تباطأ ريتشارد سويفيلر، ومن ثمَّ توقف، عندما وصل إلى جانبها ليتبادلا بعض كلمات الفراق.
تمتم ديك، ناظرًا إليها في قسوة: "يقف قاربي على البحر ثابتًا، ينتظر على الشاطئ راسيًا، قبل أن أتخطى هذا الباب، سأقول لكِ الوداع يا أعز الأحباب".
انتُزِع قلب الآنسة صوفي من مكانه بسبب عواقب حيلتها التي تتلقاها، لكنها رغمًا عن ذلك تظاهرت بعدم الاكتراث، وقالت: "هل سترحل؟".
ردد ديك في مرارة: "هل سأرحل؟ اممم! نعم سأرحل.. لماذا تسألين؟".
قالت الآنسة صوفي: "لا شيء، توقعت أن الوقت لا يزال مبكرًا. لكنك على وجه العموم تملك حرية الاختيار بالطبع".
قال ديك: "تمنيت على وجه العموم أن أملك حبيبتي أيضًا.. كنتِ لي سبب متعتي يا آنسة واكلز. آمنت بأن ما يجمعنا صادقًا، وأحببت ذلك الإيمان، لكنك الآن أمسيتِ سبب خديعتي".
زمَّت الآنسة صوفي شفتيها، وتظاهرت أنها منتبهة إلى السيد تشيجز، الذي كان يتجرع عصير الليمون بعيدًا.
قال ديك، متغافلًا عن هدفه الأساسي الذي جاء من أجله: "لقد أتيت إلى هنا، وكان صدري رحبًا، وقلبي متسعًا، ومشاعري إن تحدثت عنها سأكون مسهبًا.. وسأرحل من هنا وقلبي ضائق، بمشاعر يمكن الإحساس بها فقط، ولا يمكن قول كلمة عنها، كم كانت الليلة قاسية! لم أكن أتخيل أن الحقيقة ستكون إلى هذا الحد مفجعة!".
قالت الآنسة صوفي منكسرة العينين: "لست متأكدة تمامًا مما تعنيه يا سيد سويفيلر.. لكنني حقًا آسفة إذا...".
قال ديك: "آسفة يا سيدتي! آسفة حيال هوسك بالسيد تشيجز! على كل حال، أتمنى لكِ قضاء أمسية سعيدة، لكني أريد أن أضيف ملاحظة طفيفة، إن هناك شابة جميلة تترعرع في اللحظة الحالية من أجلي، ليست جذابة وذات شخصية رائعة فحسب، بل تملك ثروة هائلة، ومن عرض عليَّ طلب الزواج منها والانضمام إلى عائلتها هو أقرب الأقربين لها، وبسبب تبجيل أفراد أسرتها لي، أبرمت العهد. هناك حالة من الرضى تجتاحني، أشعر بسعادة غامرة حيال سماعي أن فتاة صغيرة محببة تكبر؛ وتغدو آنسة يافعة من أجلي، وستبقى لي. أحسب أنه كان لزامًا عليَّ إخباركِ.. حسنًا! أريد الآن أن أتقدم بخالص اعتذاري وأسفي على اهتمامكِ بي لفترة طويلة سابقة.. تصبحين على خير".
وصل السيد سويفيلر بالقرب من مسكنه، حاملًا شمعة أخمدها، متحدثا إلى نفسه: "هناك شيءٌ جيد حيال ذلك الأمر برمته، وهو أن قلبي وروحي وكلي من رقبتي حتى كعبي مهمة بالنسبةِ لفريد؛

كي يصبح قادرًا على إتمام مخططه الخادع لنيلي الصغيرة، في حقيقة الأمر أنا ممتن جدًّا؛ لأنه سيدرك أنني جدير بذلك. أحسب أنه سيدرك ذلك بدءًا من الغد، لكني في الوقت الحالي أحسب أن الوقت متأخر، وعليَّ أن أحظى بغفوة في هذا الدفء المعتدل".

أسدل الليل الدافئ ستائره. وسرعان ما تسلل النعاس إلى عينَي السيد سويفيلر في بضع دقائق، ونام، يحلم أنه قد تزوج من نيلي ترينت، وملك الثروة، وأن خطوته الأولى بعد امتلاكه للسلطة والنفوذ كانت تبوير مزرعة السيد تشيجز، وتحويلها إلى حقل قرميد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل التاسع

كانت ثقة الطفلة في السيدة كويليب متأصلة فيها، لكنها بطريقة واهنة كشفت عن مآسيها وأفكارها، ووضحت لها ماهية الغمامة التي اقتحمت منزلها، وألقت بظلالها الداكنة عليه وأخمدت موقده. كان من العسير عليها أن تحكي لأي شخص لم يكن على دراية كاملة بنوع الحياة التي تخوضها - أو من دون تزيد - كان شعورًا كافيًا ليغمرها بالكآبة والوحدة، ويجعلها تسكن في خوف دائم من اقتراف أي فعل؛ قد يسبب ألمًا للرجل العجوز، الذي تعلَّقت به دون حدود، على الرغم من تقييده لها الذي طغى على قلبها وأثقله، جاعلًا إياها مترددة تخشى مجرد التلميح إليه بالسبب الرئيس لاضطرابها وحزنها. لكن لم تكن الأيام المضجرة الرتيبة التي عاشتها دون أدنى تنوعٍ أو تغيير، أو قضاؤها لحياة لا تشعر فيها بالفرح لغياب أي رفقة مرحة تشبهها أو تماثلها عمرًا، أو الأمسيات الكئيبة المليئة بالغم والليالي الطويلة التي قضتها وحيدة أو فقدان كل المتع - حتى البسيط منها - التي تُدخل السرور على قلوب الصغار، أو عدم إحاطتها بأي شيء ينتمي إلى الطفولة، هي ما أبكت نيل، وتسببت في أن تفيض من عينيها الدموع، كان السبب ضعفها وروحها المهشمة.

أبصرت رجلًا عجوزا يعيش تحت وطأة حزن خفي دائم، أبصرته مترنحًا غير مستقر، أبصرته مرتعدًا في خوف مروعٍ، وذهنه في شرود وضلال، أبصرته متمتمًا بكلمات غير مسموعة وتظهر عليه أمارات الجنون اليائس، تشاهد وتسمع وتعايش حدوث ذلك باستمرار يومًا بعد يوم، تعي وتشعر أن لا أحد في سائر العالم، يمكنه أن يساعدهما، أو أن يقدم لهما المشورة، تشعر أنهما لا يعنيان شيئًا لأحد.. يكفي كل ما ذُكر كي يتسبب في اكتئاب واضطراب يقلقل الأحاسيس ثقيل الوطأة على صدر شخص كبير، فُرض عليه وسط هذا كله أن يدعي السعادة، فما بال ثِقل هذا على استيعاب طفلة صغيرة محيطة بتلك الحالة ومعايشة لها دون انقطاع، مطوقة بشتى ما يمكن أن يتسبب في جعل تلك الأفكار مطروحة باستمرار. إضافة إلى ذلك، لم يلحظ العجوز أبدًا أن نيل قد تغيرت، ويحسب أنها لا تزال كما هي على نفس الحال. إن حدث في مرة عابرة، واستطاع انتشال عقله بعيدًا، من استحواذ أشباحه السوداوية، ومن أسر تفكيره الكئيب الدائم، تجده يبتسم مع رفيقته الصغيرة نفس الابتسامات القديمة، متفوهًا بكلماته الرزينة ذاتها، يضحك في مرح، مُحبًّا وراعيًا لها، كأن طبيعته السالفة قد عادت إليه مرة أخرى، كما لو أنه لم يتخلَّ عنها طيلة حياته. يعيش لحظته تلك ويتعايش معها بكل جوارحه، يقرأ لها كتابًا أحبته بداية من الصفحة التي قدمتها له، حالمًا بقصته المخبأة في أوراقه مشتاقًا إليها، يتمتم إلى نفسه أن الطفلة على الأقل سعيدة.

ذات مرة.. غنَّت الطفلة متنقلة بين الغرف القاتمة، هائمةً في روح تتألق بين كنوزها المتربة، تُضفي عليها مقارنة حيويتها اليافعة بها قِدمًا على قِدم؛ فتزيدها قساوة وظلمة على عكس حضورها البهي. لكن الغرف الآن خيَّم عليها البرد والظلمة الموحشة، حينما تغادر غرفتها الصغيرة خلال ساعات النهار المضجِرة، وتجلس في أي غرفة منها، تمكث فيها دون حراك في سكون، ثابتة على ذات الحال. لم يكن لدى قلبها صوت قادر على حديث يشق صداه الصمت الدائم.

في إحدى هذه الغرف، كانت توجد نافذة مطلة على الشارع، لطالما جلست عندها الطفلة لفترات طويلة بمفردها، يؤرقها التفكير على مدار ليل طويل لأمسيات عديدة. فلا أحد أكثر اضطرابًا ممن ينتظرون في صمت، يشخصون بأنظارهم إلى الشارع في تلك الأوقات؛ فيحتشد حزن الحداد في تكدس داخل رؤوسهم.

تقر في مكانها عند الغسق تراقب كل رائح وغادٍ، ومَن يطلون من نوافذهم أيضًا، تتوالى عليها الأفكار، تتساءل إذا كان هناك من يماثلها في تلك اللحظة، يجلس مثلها وحيدًا في غرفته، لكنها لا تجد أي إجابة سوى نظرات متبادلة بينها وبين العابرين، سواءً شعروا في قرارة نفوسهم بما يعتمل في دخيلة نفسها جراء جلوسها وحيدةً أو لم يشعروا، يلتفتون عنها، مديرين رؤوسهم مولين ظهورهم يكملون سيرهم في طرقهم مرة أخرى. ارتفع ركام غمام من مداخن معقوفة وملتوية على سطح أحد المنازل قبالتها، خُيِّل إليها أنها وجوه قبيحة منفِّرة، تنظر لها مقطبة عابسة، تحاول أن تقتحم عليها غرفتها، لكنها تتنفس الصعداء، وتشعر بارتياح يتسلل إلى نفسها عندما يسدل الليل ستاره، ويصير ظلامه حالكًا، فيطردهم إلى الخارج، لكنها سرعان ما تعود آسفةً خائفةً؛ فور مرور أحدهم بمصباح في الشارع، عندما يضيئه تستشعر عتمة روحها مرة أخرى. تلتفت من فورها إلى داخل غرفتها؛ تتأكد أن كل شيء مستقر في مكانه، لم يتحرك، فتهدأ نسبيًّا، وتعاود النظر إلى الشارع ثانيةً، حيث تقع عيناها على رجل يحمل نعشًا على ظهره، ويتبعه اثنان أو ثلاثة في صمت مطبق تجاه البيت الذي يرقد فيه جسد مَن مات، فترتعد ويتمكّن منها التفكير، يتبين لها أنه رجل عجوز ذو وجه وهيئة مختلفة، فتتملك منها مخاوف جديدة، وتحوم حولها التكهنات. ماذا لو مات فعلًا.. لو تمكن منه مرض مفاجئ، لو لم يعد إلى المنزل مطلقًا مرة ثانية، حيًّا.. ماذا لو عاد إلى المنزل، ومن ثمَّ قبَّلها وباركها كالمعتاد، وانتظر حتى تستكين في فراشها، ويغلبها النوم، أو ربما انتظر حتى يطمئن أنها تحلم في سرور، ثم قتل نفسه، وزحفت دماؤه على الأرض زحفًا، فتصل إلى باب حجرة نومها! كان من المخيف أن تراودها أفكار كتلك، فإذا أفاقت من إمعان التفكير، وانتشلت نفسها من تلك السكرات الموجعة، لجأت إلى شخوص النظر عبر الشارع مرة أخرى، حينها تلاحظ أن الأقدام التي تطأ الشارع أصبح عددها أقل، وأمسى الشارع أكثر حلكة، يسكنه الصمت أكثر من ذي قبل. أُغلقت المتاجر في سرعة، وأُطفئت الأضواء، ولم يتبقّ سوى أضواء لامعة تتخلل النوافذ العليا، وأوى الجيران إلى أسرتهم. مع مرور الوقت، يتضاءل أثر ما ذُكر، ربما يتلاشى أو يختفي، أو يُستبدل بشمعة ضوؤها خافت، ظلَّت تحترق طوال الليل. لكنَّ متجرًا واحدًا على مبعدة يسيرة، بات مفتوحًا، يلقي على الرصيف وهجًا ورديًّا، بدا مشرقًا ومؤنسًا. وبمرور وقت قصير، يُغلق ذلك المتجر أيضًا، فيتلاشى الضوء، ويلوح كل شيء كئيبًا موحشًا في صمت، عدا صوت وقع أقدام على الرصيف من حين إلى آخر من السابلة، أو من جار ظلَّ بالخارج على غير العادة، وعاد متأخرًا، يقرع على بابه في ضجة؛ ليوقظ النائمين في مسكنه.

عندما تنقشع ظلمة الليل - رغم أن ذلك نادر الحدوث - تغلق الطفلة النافذة، تنظر في خلسة وفي ريبة من أمرها إلى أسفل السلم؛ لتتأكد من عدم وجود أحد الوجوه القبيحة بالأسفل؛ نتيجة ما تراه دائمًا في أحلامها، فيتجسد أمامها على مرأى منها، وينبعث منه ضوء مريب، فتتساءل ما إذا كان وجوده حقيقيًّا، وما قدر الرعب الذي سوف تشهده. لكن مخاوفها سرعان ما تتبدد؛ أمام ضوء مصباحها المنير، ورؤيتها للجانب المألوف من حجرتها. تتلو صلواتها في تضرع، تذرف الكثير من الدمع من أجل العجوز، ترجو أن يستعيد راحة البال وأن تعود السعادة التي كانت

تغمرهما سابقًا، ثم تضع رأسها على وسادتها؛ وتُرغم نفسها على النوم لتعاود الاستيقاظ مرة أخرى قبل أن يطلع ضوء النهار، يتراءى لها أنها سمعت صوت طرقات على الباب، فتجيب على الاستدعاءات الوهمية، التي أيقظتها من سباتها.
في إحدى الليالي، وتحديدًا في الليلة الثالثة من بعد زيارة نيلي للسيد كويليب، أخبرها العجوز أنه متوعك ومريضٌ ذاك اليوم، قائلًا: إنه يجب عليه ألا يغادر المنزل. ساعتها لمعت عينا الطفلة فور معرفتها بجلوسه معها، لكن إشراقة عينيها سرعان ما تلاشت مرة أخرى؛ حينما لاحظت ملامح الحزن والبؤس واضحةً على وجهه.
تمتم: "لقد قال خلال يومين.. يومين كاملين. هذا واضح! لكن أيامًا عدة قد مرَّت، ولم يأتِ الرد. ماذا أخبركِ يا نيل بالضبط؟".
- ما أخبرتك به بالضبط يا جدي العزيز.
قال العجوز في وهن: نعم نعم! لكني أريدك أن تخبريني مرة أخرى يا نيل. تخونني ذاكرتي. ماذا قال لكِ بالتحديد؟ قال لكِ أنه سيراني في الغد أم في اليوم الذي يليه؟ هل أوضح ذلك في قوله؟ أو أضاف ملاحظة أخرى".
قالت الطفلة: "لم يقل أي شيء إضافي! هل يجب عليَّ أن أذهب إليه ثانية غدًا يا جدي العزيز؟ على أي حال، سأذهب إليه في الصباح الباكر وأعود قبل موعد الإفطار".
هز العجوز رأسه رافضًا، تنهد في حزن، وجذبها نحوه.
- لن يكون هناك أي فائدة يا عزيزتي، لن يكون هناك أي فائدة مرجوة. إذا تخلَّى عني يا نيل، في هذه اللحظة... إذا تخلَّى عني الآن وأنا في أمس الحاجة إلى مساعدته، كي أسترد الوقت والمال الذي أضعته هباءً، كي أُعوض كل معاناة عصفت بذهني وخضعت لها، وجعلت مني ما ترينه.. إنني مدمر بالكلية، بل أسوأ، وأكثر سوءًا من الأسوأ.. لقد دُمرت وانتهيت، من أجل ماذا قد غامرت بكل شيء! ماذا لو أصبحنا شحاذين!
قالت الطفلة في جرأة: "ماذا لو أصبحنا؟ حسنٌ دعنا نكون شحاذين، وسوف نكون سعداء".
قال العجوز: "شحاذون.. وسعداء يا لكِ من طفلة مسكينة".
صاحت الطفلة في قوة تدفقت على نحو مفاجئ إلى وجهها المتورد، لكن بصوت مرتعش وبإيماءات متعاطفة: "يا جدي العزيز! أنا لست طفلة حسب ما أعتقد، حتى وإن كنت طفلة، فلتستمع إليَّ.. سأشحذ، سأعمل في الطرقات وفي الحقول، سأكسب قوت حياتنا، بدلًا من الحياة التي نعيشها الآن...".
قال العجوز: "نيلي!".
كررت الطفلة ما قالته في جدية أكثر من ذي قبل: "نعم! بدلًا من الحياة التي نعيشها الآن.. إذا كنت حقًّا تعيسًا، أطلعني على سبب تعاستك، دعني أشاركك، إذا شردت وضللت الطريق، وأصبحت ضعيفًا واهنًا، دعني أكون ممرضتك وسأحاول جاهدة العمل على راحتك. إذا أضحيت فقيرًا، فلنكن فقراء معًا، دعني أكون إلى جوارك فقط، نتشارك الأمور معًا، دعني أكون إلى جانبك، لا تدعني أرى تغييرًا طرأ عليك دون أن أعرف سببه، وإلا سينفطر قلبي، وسأموت حقًّا. يا جدي العزيز! دعنا نغادر هذا المكان الموحش غدًا، ونسلك دربنا من باب إلى آخر".
غطى العجوز وجهه براحة يديه، وأخفاه وراء وسادة الأريكة التي استلقى عليها.

قالت الطفلة، ممرةً يدها حول رقبته: "دعنا نشحذ، لا ينتابني الخوف، سيكون لدينا ما يكفينا، أنا متأكدةً أنه سيكون لدينا ما يكفي. دعنا نسير في طرقات المدينة، ننام في الحقول، أسفل الأشجار، دعنا لا نفكر في أمر الأموال ثانيةً، أو أي شيء يمكن أن يجعلك حزينًا، دعنا نستريح في الليل، ونستمتع بنسمات الصباح وشمسه، بينما تداعب وجوهنا نهارًا، ونشكر معًا من أنعم علينا بذلك! دع أقدامنا لا تطأ غرفًا كئيبة، يجتاحها الظلام في منازل موحشة بعد الآن، دعنا نمضي في دربنا، وإذا داهمك التعب، فسوف نتوقف من فورنا؛ ونستريح في أفضل مكان يمكننا إيجاده، سأتكفَّل بكلا الأمرين معًا".

خارت قوى الطفلة، ووهن صوتها وسط تنهدات، لتستند على العجوز وتحتضنه، وتبكي، لكنها في الواقع لم تكن الوحيدة التي تبكي.

لم يكن هناك كلمات أخرى تسمعها آذانهما، لم يكن هناك مشهد آخر، تلتقطه أعينهما. رغم ذلك ظلت عينان أخريان تتلصصان وأذنان أخريان تسترقان السمع في خلسة مشينة، طوال كل ما مرَّ وقد أنصتتا لكل ما قيل بأكمله، والأدهى من ذلك أن العينين والأذنين كانت للسيد دانيال كويليب الذي تملص إلى الداخل خفية، حينما انتقلت الطفلة إلى جوار الرجل العجوز، وظل ثابتًا ممتنعًا عن الحراك دون أدنى شك، منتظرًا في دهاء خالص؛ يتنصَّت عليهما لا يريد قطع حديثهما، واقفًا تعلو وجهه ابتسامته المعتادة الباعثة على الغثيان. على كل حال، يُحسب أن الوقوف دون حراك أمر مضجر بالنسبة إلى المرء خاصة إن أنهكه السير، فما بالك بالقزم، وهو كذلك من أولئك الذين لا يمكثون في البيت طويلًا، لذلك سرعان ما ألقى بناظريه على مقعد، وألقى بنفسه من فوره عليه في سرعة غير معتادة جالسًا على ظهره، واضعًا قدميه مكان الجلوس، ما مكنه من النظر والاستماع في راحة شديدة، هيّأها لنفسه، وفي ذات الأثناء اجتاحته السخرية والنشوة والاستمتاع من أثر قيامه بفعل شيء عظيم، من وجهة نظر روحه الشيطانية الملازمة له. هنا، وضع ساقًا فوق الأخرى دون اكتراث، أراح ذقنه على راحة يده، أمال رأسه جانبًا بالقدر القليل، تحولت قسمات وجهه القبيحة إلى تقطيبة نمت عن رضاه على حين غرة، إلتفتَ العجوز نحو ذلك الاتجاه، في وقت مناسب، شاخص البصر، فاغر العينين؛ وقد أدرك وجوده، تملكته دهشة عارمة غير معهودة.

صرخت الطفلة بصيحات مكتومة؛ للوهلة الأولى من دهشة رؤيتها له، ثم تجمدت أوصالهما ولم ينطقا بكلمة واحدة، سواء هي أو الرجل العجوز، تلتهمهما الشكوك؛ متسائلين عما إذا كان ما يبصرانه حقيقيًّا أم لا! وأخذا ينظران إليه في قلق على الرغم من ذلك، لم يرتبك دانيال كويليب أمام هذا الاستقبال على الإطلاق، بل ظل محافظًا على سلوكه ذاته، أومأ فقط مرتين أو ثلاث مرات معربًا عن تسامحه العظيم، أمام ما اقترفاه. بعد لحظات طويلة، نطق العجوز اسمه في ذهول، واستفسر عن كيفية مجيئه.

قال كويليب، مشيرًا إلى جانب كتفه بإبهامه: "لقد جئت من الباب... أحسب أنني لست ضئيلًا بالقدر الكافي، الذي يمكنني من المجيء عبر ثقب المفتاح. كم تمنيت أن أكون في الواقع.. على كل حال، أريد أن أحادثك على انفراد، وعلى وجه الدقة، لا أحد سيكون معنا حاضرًا يا جاري.. إلى اللقاء يا نيلي الصغيرة".

نظر العجوز إلى نيلي، هازًّا رأسه، يرفض رحيلها، مقبِّلًا خدها.

قال القزم لاعقًا شفتيه: "آه يا لها من قُبلة لطيفة.. على خد متورد ناعم.. يا لها من قبلة تبعث الرضى!".

لم تنتظر نيل لوهلة أخرى، ورحلت من فورها؛ بسبب تعبيره الذي أدلى به. تعقبها كويليب بنظرات يغمرها الإعجاب، حتى أغلقت الباب فإذ به يستطرد في قوله دون حياء، على مسمع ومرأى من العجوز، ويتمادى في كيل المديح لسحرها الخلاب.

قال كويليب، مريحًا،ساقه، محركًا عينيه في شراهة: "إنها صغيرة نضرة كبرعم صغير، بسيطة ومتواضعة حسناء، ممشوقة، دافئة، ذات بشرة وردية.. أوه، نيل الصغيرة!".

رد العجوز عليه بابتسامة مجبر عليها، مكافحًا نفاد صبره. لكن تعبيراته لم تكن بالأمر العادي الذي يتخطاه كويليب دون أن ينتهز فرصة استغلاله، مستشعرًا السرور لقيامه بتعذيب شخص آخر.

قال كويليب، متحدثًا في هدوء، متظاهرًا بالسكينة: "إنها حقًّا.. إنها حقًّا صغيرة، لكنها ملفوفة القوام، متناسقة الجسد، مخضبة اللون، بشرتها شفافة تكشف عن عروق زرقاء، قدماها صغيرتان، على نحو فاتن.. فليباركني الخالق عل.. هل تشعر باضطراب ما يا جاري؟ لماذا ذاك؟ ماذا دهاك؟ أقسم لك..". ترجّل القزم عن ظهر كرسيه؛ ليجلس عليه، في حركة خفيفة هادئة بلا صوت على الرغم من سرعته:"... أقسم لك أنني لست على دراية تامة بأمزجة العجائز، لا أعرف إن كانت تسوء بسرعة، أم تكون هادئة معظم الوقت. لقد ظننت أن حديثي لطيف في محله، لطيف فعلًا. أنا متأكد تمام التأكد أنه لطيف. فلماذا يبدو مزاجك كأنه على النقيض تمامًا.. لماذا يا جاري العزيز؟".

قال العجوز في أنين موجع: "أجزم لك أنه كذلك بالفعل". ثم استطرد، ممسكًا رأسه بكلتا يديه: "إن الأمر مثل حمى مستعرة داخل رأسي، بين الحين والآخر يعتريني خوف التصريح به".

لم يتفوه القزم بكلمة واحدة، ظل جالسًا يتأمل رفيقه، وهو يسير في خطى واهنة في أركان الغرفة ذهابًا ومجيئًا، إلى أن عاد إلى مقعده مرة أخرى، منكسًا رأسه على صدره لبعض الوقت، ثم رفع رأسه فجأة، وقال:

- مرة واحدة فقط! مرة واحدة نهائية.. هل جلبت لي أي أموال؟

أجاب كويليب: "لا!".

قال العجوز، قابضًا على يديه في إحكام، ناظرًا إلى الأعلى: "لقد ضعت أنا والطفلة فى هذا الحالة!".

نقر كويليب على الطاولة مرتين أو ثلاث مرات كي يلفت انتباهه، محدقًا إليه في صرامة، وقال: "يا جاري! دعني أكون متساهلًا معك، ولنلعب لعبة أكثر عدلًا من تلك اللعبة السالفة، حينما كان بحوزتك كل الورق، ولم أرَ سوى ظهره، ولم يستحوذ على انتباهي أي شيء آخر. إذنْ بِتَّ تعرف الآن أنني لا أخفي سرًّا".

نظر العجوز إليه مرتجفًا.

قال كويليب: "هل تفاجأت! حسنًا.. ربما ما تمر به الآن أمرٌ طبيعيٌّ. أكرر قولي عليك بِتَّ تعرف الآن أنني لا أخفي سرًّا، لا أخفي أي سر على الإطلاق. فلقد علمت بدءًا من تلك اللحظة، أن كل هذا المال، وجميع تلك القروض والسلفيات، واللوازم التي حصلت عليها مني، كانت تذهب إلى.. هل يجدر بي أن أقول هذه الكلمة؟".

رد العجوز: "آه! قلها، إن أردت".
عاود كويليب الحديث: "حسنًا! إلى طاولة اللعب.. إلى أماكن تردداتك الليلية. إذَنْ كان ذلك هو مخططك الثمين لكسب ثروتك، إذَنْ هذا هو سرك الدفين لمصدر ثروتك، حيث بددت أموالي، وكنت أنا الأحمق الذي تستغله، كنت منجم الذهب الذي لا ينضب من الذهب وكأنني إلدورادو ([5]) بالنسبة لك.. أليس كذلك؟".
صاح العجوز، ملتفتًا إليه بعينين لامعتين بدمعها: "نعم! إن الأمر كذلك، وسيظل على هذا النحو، سأحاول مرات ومرات حتى ألفظ أنفاسي الأخيرة".
قال كويليب، ناظرًا إليه في ازدراء: "أحسب أنني كنت أعمى طوال تلك الفترة عن مقامر بل على وجه الدقة مقامر فاشل!".
صاح العجوز في صرامة: "لست بمقامر، فلتشهد السماء أنني لم ألعب أبدًا من أجل تحقيق مكاسب خاصة، أو حبًّا في اللعب، في كل مرة كنت أمسك الزهر، كنت أهمس بيني وبين نفسي، باسم اليتيمة، داعيًا أن تبارك السماء المضاربة.. لكنها لم تفعل أبدًا. من كان يكسب؟ من كان يلعب؟ من كنت ألاعب؟ إنهم رجال تمثَّلت حياتهم في النهب والتبذير والفسق، يسرفون أموالهم في كل ما هو سقيم، ناشرين الرذيلة والشر. ربما جنيت منهم مكاسب فعلًا، لكنها كانت تُمنح لطفلة صغيرة بريئة بلا خطية، كانت مكاسبي لجعل حياتها سعيدة وحلوة. ما الذي كانوا سيفعلونه بتلك الأموال؟ المزيد من الفساد وإفشاء العوز والبؤس. من لا يتطلع إلى فعل ما فعلت؟ أخبرني! من لا يتطلع إلى فعل ما فعلت وهو يعيش نفس أحوالي؟".
سأل كويليب، وقد كُبح جماح سخريته اللاذعة ووحشيته؛ أمام حزن العجوز: "متى بدأت أول مرة ذلك العمل الماجن؟".
قال ممرِّرًا يده على جبينه: "متى بدأت أول مرة! متى كانت.. بدايتي؟ حينما كان لزامًا عليَّ أن أبدأ حينما استشعرت كم هو قليل ما أدخره! وكم أمضيت من وقت طويل في ادخاره، وكم من سنوات قليلة بقت في عمري، وكم هي صغيرة، حتى تترك تحت شفقة العالم القاسي، التي لن تكون كافية، لإبعادها عن مرارة الفقر، بدأت حينما فكرت في هذا كله".
قال كويليب: "بعد أن أتيت إليَّ؛ طالبًا مني إرسال حفيدك الغالي عبر البحر؟".
أجاب العجوز: "تقريبًا بعد وقت قصير من حدوث ذلك... راودني الأمر كثيرًا، ومكثت أفكر فيه طويلًا، وأراه في نومي لأشهر عدة، ومن ثمَّ بدأت. لم أجد فيها أي سعادة لم أكن أتوقع أن أجد من الأساس. كان كل ما أفاضت عليَّ به الكثير من الأيام المضطربة والليالي المؤرقة، خسرت صحتي وخسرت سلامة عقلي وراحة بالي، ولم أكسب سوى الضعف والوهن!".
"خسرت جميع ما ادخرت من مال وبعدها أتيت إليَّ. كنت أظن أنك تجني ثروتك - كما قلت إنك بالفعل تجنيها - بينما كنت تقود نفسك إلى التسول.. أليس كذلك؟ يا لنفسي الكريمة! حسنًا! اسمعني جيدًا.. إذا أردت تخطي ذلك، فعليك أن تسلمني كل ورقة مالية تحتكم عليها، ومعها قسيمة بيع لـ.. لمخزنك وجميع ممتلكاتك". قال كويليب ذلك، ثم هم واقفًا، كأنه يعلن فرض سيطرته على المكان، مؤكدًا لنفسه أن لا شيء سوف يتم نقله، ثم عاد متسائلًا: "لكنك حقًّا لم تكسب أي مال على الإطلاق؟".
قال العجوز في أنين ملتاع: "مطلقًا! لم أتمكن حتى من كسب ما خسرته!".

قال القزم في سخرية: "أعتقد أن الرجل إذا لعب لفترة طويلة بما يكفي، يجب أن تكون ثقته في الفوز في النهاية معززة، أو بحسب أسوأ التقديرات يجب ألا يمضي خاسرًا".
صاح العجوز، منتفضًا فجأة من شدة يأسه، تاركًا لنفسه العنان، متخذًا أكثر سلوكياته عنفًا: "نعم! لقد مضى، لقد مضى كذلك.. طالما كنت أشعر بحدوث ذلك منذ البداية طالما عرفت، طالما رأيت... لكنني لم أشعر أبدًا بنصف ما أشعر به الآن.. لقد حلمت يا كويليب بفوزي بنفس قدر المبلغ الكبير على مدار ثلاث ليال، لم أكن أستطيع أن أحلم بشيء من هذا القبيل من قبل، على الرغم من أنني قد حاولت كثيرًا. لا تتخلَّ عني، لديَّ الآن الفرصة السانحة. ليس لديَّ أي مورد سواك، امنحني بعض المساعدة، دعني أجرب آخر أمل لدي".
هز القزم كتفيه، وحرَّك رأسه في شيءٍ من الاستهجان.
قال العجوز، وهو يسحب بعض قصاصات الورق من جيبه بيده المرتعشة، متشبثًا بذراع القزم: "انظر يا كويليب، انظر يا صاحب القلب الطيب، انظر فقط إلى هذا، انظر إلى تلك الأوراق، انظر إلى ناتج تلك الحسابات الطويلة، الذي توصلت إليها بعد الكثير من المعاناة والألم والخبرات المؤلمة. حتمًا سوف أكسب.. أريد فقط مساعدة وحيدة أخيرة، أريد بضعة جنيهات فقط، أربعين جنيهًا لهذه المرة يا عزيزي كويليب".
قال القزم "لقد أعطيتك آخر مرة سبعين جنيهًا، وأضعتها في ليلة واحدة".
أجاب العجوز: "أعرف أن هذا ما حدث بالفعل.. لكنه كان أسوأ حظ على الإطلاق، ولم يكن الوقت قد حان وقتها". ثم أكمل صائحًا، مرتجفًا، حيث رفرفت الأوراق الممسك بها في يده، كأنها كانت في مهب الريح: "يا كويليب انظر! تأمل! خذ بعين الاعتبار الطفلة اليتيمة المسكينة! إذا كنت بمفردي في هذه الدنيا، كنت استقبلت حتى الموت في سرور.. وكنت استبقت توقع الخسارة، التي تأتي دائمًا على نحو غير عادل، بينما هم في كامل فخرهم وسعادتهم بقوتهم، متجاهلين المحتاجين والبائسين، وكل من يلجأ إليهم بعد أن غمرهم اليأس، غامرت من أجلها، فعلت ما كنت أفعل من أجل خاطرها. ساعدني من أجلها، أتوسل إليك، ليس من أجلي، بل من أجلها!".
نظر كويليب إلى ساعته في رباطة جأش عظيمة، وقال: "أنا آسف حقًّا، لديَّ موعد في المدينة، كنت لأصبح مسرورًا؛ لو أنني قضيت نصف ساعة معك، بينما تستعيد انضباط نفسك، كنت لأصبح مسرورًا جدًّا".
لهث العجوز، بينما يتعلق في رداء الآخر: "لا يا كويليب، يا سيد كويليب العزيز الطيب! لقد تحدثنا معًا أكثر من مرة، عن قصة والدتها المسكينة. ربما على هذا الأساس نما لديَّ الخوف من أن تعيش في فقر. لا تكن قاسيًا معي، خذ هذا في حسبانك. أنت الرابح الأكبر، لا تبخل عليَّ بالمال، إنه أملي الوحيد الأخير".
قال كويليب في أدب على غير العادة: "لا أستطيع فعل ما تطلبه حقًّا! على كل الأحوال سأقول لك شيئًا - هناك عقبات يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار؛ فهي تتسبب في ظهور الجفاوة فيما بيننا في بعض الأحيان -، لقد خُدعت بدعوى معيشتك بمفردك مع نيلي كثيرًا في السابق..".
صاح العجوز: "لقد فعلت كل هذا استرضاءً للحظ؛ لتظفر بحال أفضل".
قال كويليب: "نعم.. نعم! أتفهم ذلك، لكنني كنت على وشك أن أقول: إنني خُدعت مسبقًا كثيرًا بطريقتك البائسة هذه، على الرغم من سمعتك التي اكتسبتها بين أولئك الذين عرفوك بأنك غني،

وصدقت تأكيداتك المتكررة حول ردك للسلفات التي اقترضتها مني، بثلاثة أضعاف وأربعة أضعاف فوائدها.. حتى الآن، تعِد مؤكدًا بسدادك، وكنت سأقرضك، لكنني الآن مطلع على حياتك السرية، لقد قيل لي كل شيء".

قال العجوز في يأس: "مَن هو؟ قل لي من الذي أخبرك رغم حذري؟ تعال هنا! أخبرني.. دعني أعرف اسمه.. اسم هذا الشخص".

تفكر القزم الماكر بينه وبين نفسه بأن تخليه عن الطفلة سيؤدي إلى الكشف عن حيلته التي خطط لها، حيث لا مكسب جراء ذلك، فقرر أنه من الجيد التغافل، بات صامتًا عن الحديث لثوانٍ، ثم قال: "مَن تعتقد في رأيك؟".

قال العجوز: "إنه كيت! حتمًا إنه كيت، كان هو الجاسوس، وقد رشوته وتحايلت عليه، أليس كذلك؟".

قال القزم في لهجة مفعمة بالثناء العظيم: "كيف فكرت فيه؟ إنه هو فعلًا.. لقد كان كيت.. أوه! عزيزي كيت!".

فرغ كويليب من قوله ثم أومأ برأسه بطريقة ودية، مشيرًا إلى مغادرته، لكنه حينما ابتعد لمسافة قصيرة بعد اجتيازه للباب، ابتسم في بهجة غير عادية.

تمتم كويليب: "أوه! عزيزي كيت! كيت الذي قال عني إنني قزم أكثر قبحًا ممن يمكن رؤيتهم في أي مكان مقابل بنس واحد، أليس كذلك ها ها ها! كيت المسكين!".

وهكذا.. مضى في طريقه، على الحال نفسه، مبتسمًا فاغرًا فاه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل العاشر

لم يكن دخول دانيال كويليب أو حتى خروجه من منزل العجوز غير مرئي. ففي ظلال أحد الممرات المتفرعة من الشارع الرئيس أمام الطريق، كان يتسكع أحدهم، اعتاد أن يقف في مكانه عندما يحل الشفق، في ثبات وصبر غير منقوص، يميل على الحائط ميل شخص بقي منتظرًا لفترة طويلة، لكنه كان ينتظر دون كلل، يكاد لا يغير موضعه قرابة الساعة.
لفت ذلك المتسكع الصبور انتباه العديد من المارة، ومع ذلك لم يلتفت مطلقًا إلى أي منهم. كان نظره مُتمركزًا على شيء واحد باستمرار دون انقطاع، كان ذلك الشيء هو النافذة، حيثما اعتادت نيل الجلوس. إن أشاح بناظريه عنها للحظة، فذلك من أجل إلقاء نظرة خاطفة فقط على ساعة أي متجر مجاور، ثم يعاود من فوره تسخير ناظريه من أجل التطلع نحو ذلك الركن القديم مرة أخرى، في جدية وانتباه أكبر.
كان من البيِّن أن ذلك المنتظر لا يظهر أي ضجر أو سأم؛ جراء انتظاره - مهما طال -. لكن أمارات القلق والذهول، كانت تظهر عليه، مع مرور الوقت، يقلب النظر باستمرار ما بين النافذة والساعة، لكنه في كل مرة يعاود فيها النظر إلى النافذة، يكون أقل حماسًا فاقدًا الأمل. ويبقى الحال على ما هو عليه، حتى تختفي الساعة وراء مصراعي باب المتجر، ويدق جرس الكنيسة معلنًا أنها الحادية عشرة ليلًا، ثم الحادية عشرة والربع، فتتزعزع قناعته داخل نفسه، وينتابه شعور بأن لا فائدة من الإنتظار أكثر من ذلك.
كانت قناعته المزعزعة غير مرحب بها على الإطلاق، لم يكن على استعداد للعدول عن فعله، وقد تبين ذلك من رغبته في عدم مغادرة المكان، فيتحرك في خطوات ثقيلة متباطئة، ناظرًا إلى ما فوق كتفيه، يلتفت نحو النافذة نفسها، يسارع بالالتفات دون توانٍ؛ إذا أحس بأي تغيير أو بضوضاء ليس لها وجود سوى في مخيلته، أو إذا ما لمح ضوء سطع على حين غرة، يظل على حاله نفسه، فاقدًا للأمل في ليلته، مرغمًا نفسه فجأة على الركض بعيدا؛ بأقصى سرعة لديه؛ كي لا يتجدد أمله مرة أخرى، ويغويه، فيعاود النظر إلى الخلف.
لم يتمهل في ركضه، لم يخفف سرعته، ولم يقف كي يلتقط أنفاسه، مضى ذلك الشخص الغامض راكضًا، بين العديد من الأزقة الضيقة والممرات، إلى أن وصل بعد مضي الوقت الطويل إلى ساحة مرصوفة، حينها قلل من سرعة ركضه، مكتفيًا بالمشي، حتى وصل إلى بيت صغير، يسطع من نافذته ضوء لامع، رفع مزلاج الباب، ومن ثمَّ دخل.
صاحت سيدة في صوت حاد: "من هناك؟ أوه! حمدًا للخالق! إنك كيت، أليس كذلك؟".
- نعم يا أمي إنه أنا بالفعل.
- لماذا تبدو منهكًا إلى هذا الحد يا عزيزي؟
قال كيت: "لم يخرج العجوز هذه الليلة، فلم تخرج إلى النافذة مطلقًا". مع انتهائه من قوله، جلس بالقرب من نيران المدفأة ساخطًا، شارد الذهن، حزينًا.
بدت الغرفة التي جلس فيها كيت بسيطة وعائلية، تتخللها نسمات عليلة طيبة، تبعث هدوءًا في النفس، رغم ذلك كانت صغيرة، مفتقرة إلى النظام إلى حد كبير. كانت الساعة الهولندية لديهم تشير إلى وقت متأخر، سهرت فيه السيدة المسكينة تعمل في كدح على طاولة الكي، كان إلى

جوارها بالقرب من المدفأة رضيع ينام في مهده، وولد قوي يبلغ من العمر عامين أو ثلاثة أعوام، في كامل نشاطه وصحوه، يعتمر قبعة على رأسه، يرتدي منامة ضيقة على جسده، ماكثًا باستقامة داخل سلة ملابس، محدقًا إلى ما فوق حافة السلة، بأعين دائرية في كامل اتساعها، دلَّت على أن عقله قد قرر تمامًا، دون رجعة، عدم النوم أبدًا في تلك الليلة، فرفض مسبقًا أخذ قسطه من الراحة - المعتادة لأي طفل -، فأُخرج من سريره، ليجدد البهجة مع أصدقائه وذوي رحمه. كان للعائلة مظهر مريب؛ فتماثلت ملامح كيت ووالدته والطفلين بشدة.
كان من المفترض أن مزاج كيت عكر - كما هو حال الغالبية العظمى منا في أغلب الأحيان -، لكنه نظر إلى الرضيع النائم، ثم حرك ناظريه نحو أخيه الآخر الماكث في سلة الملابس، ثم إلى والدتهم، التي كانت تعمل منذ الصباح الباكر، دون إبداء أي شكوى، ظنًّا منه أنه سيكون في حال أفضل، وسوف تسود السكينة نفسه. هز المهد بقدمه، غيَّر ملامح وجهه مباشرةً؛ لمداعبة المتمرد الماكث في سلة الملابس، عازمًا على أن يبدأ حديثًا مستساغا، ويجعل من نفسه متحدثًا محبوبًا.
قال كيت، مخرجًا سكينته، ليقطع خبزًا ولحمًا، حضر له منذ ساعات: "يا أمي! أي المخلوقات أنت! لا كائن يضاهيك مثيلًا، أنا متأكد تمام التأكد".
قالت السيدة نابلز: "آمل أن تكون هناك مواظبة على المعاملة الحسنة، على أي حال يقول كاهن الكنيسة: حتما سوف يحدث الأحسن".
رد عليها كيت في ازدراء: "أهو على دراية بنا، ويعلم حالنا! انتظري.. ماذا لو يصبح أرملَ مثلكِ، حيث يعمل كثيرًا، ويكون ما يتحصل عليه قليلًا، ويحافظ على اعتدال نفسه، ثم آتي إليه، وأسأله في ذلك الوقت، وأثق بكونه على حق لمدة نصف ثانية".
قالت السيدة نابلز، متهربة من الحديث حول تلك النقطة: "حسنًا! ستجد مشروبك إلى جانب سياج المدفأة يا كيت".
أجاب الابن، آخذًا القنينة: "أنا أراه يا أمي! أنا أحبكِ حقًا، فليباركك الخالق، ويبارك صحة الكاهن، إن وددتِ ذلك.. بالمناسبة، أنا لا أحمل له أي ضغينة أو حقد، لست أنا من يفعل ذلك!".
سألت السيدة نابلز: "هل أخبرتني لتوك أن سيدك لم يخرج هذه الليلة؟".
قال كيت: "نعم! إنه الحظ الأسوأ على الإطلاق".
قالت الأم: "بل حسب ما أعتقد.. يُستحسن أن تقول: إنه الحظ الأفضل؛ لأن نيل لم تبقَّ بمفردها".
قال كيت: "آه! لقد غفلت عن ذلك الأمر، لقد قلت الحظ الأسوأ؛ لأني مكثت منتظرًا؛ أراقب ظهورها منذ الساعة الثامنة، وانتهى الأمر دون جدوى؛ ولم أرها".
صاحت الأم، متوقفة عن عملها، متلفتة حولها: "أتساءل ما الذي سوف تقوله، إذا أدركت أنك كل ليلة، حينما تجلس هي - أوه عزيزتي المسكينة - بمفردها على النافذة، تكون أنت أمام المنزل؛ تراقبها؛ خوفًا من حدوث أي مكروه، قد يصيبها، وأنك لا تبرح مكانك، ولا تعود إلى بيتك، ولا تأوي إلى سريرك، وإن كنت متعبًا، إلى أن يحين الوقت الذي تتأكد فيه من أنها آمنة تمامًا".
رد كيت، وقد توردت وجنتاه، وتبسَّم وجهه ذو الملامح الخرقاء: "لا يهم ما الذي ستقوله! إنها لن تعلم شيئًا بخصوص هذا الأمر، وبالتالي لن تقول شيئًا أبدًا من الأساس".

استمرَّت السيدة نابلز في الكي قرابة الدقيقة أو الدقيقتين، ثم ذهبت إلى المدفأة، حتى تأخذ مكواة أخرى، ناظرة في خلسة إلى ابنها كيت، بينما كانت تحرك المكواة على الطاولة وتنظفها بخرقة دون أن تنطق بأي كلمة، حتى عادت إلى طاولة الكي مرة أخرى، ممسكة بالمكواة على مسافة قريبة من خدها؛ تستشعر درجة سخونتها، حينها إلتفتت إلى جوارها، قائلة:
- لكني أعلم ما الذي سيقوله الناس يا كيت..
قاطعها كيت، في حدس مثالي وإدراك جيد لما كانت ستقوله: "لا يهم!".
- لكنهم في كل الأحوال سيتحدثون. سيقول بعضهم إنك وقعت في حبها.. أعرف أنهم سيقولون ذلك.
على هذا النحو، لم يحر كيت جوابًا سوى أن قال لأمه في عنف: "كفي! "، دافعًا بيديه ورجليه في حركات متعددة غريبة هنا وهناك، تصحب حركاته ملامح تنم عن عدم الرضى، لم يَبدُ أن ما فعله كيت قد هدأ من روعه؛ فقضم قضمة من الخبز واللحم ملء فمه، وتجرع مشروبه من القنينة، مفتعلًا سلوكيات تبعده تمامًا عن صلب هذا الموضوع.
قالت الأم، بعد مرور بعض الوقت، عائدة إلى الموضوع نفسه: "كنت أمزح معك، لكن لزم التأكيد، دعنا نتحدث في جدية يا كيت، إنها جيدة، ورصينة، وتفضِّلك، ولم تدع أحدًا يتقرب منها سواك، لكنني آمل حقًّا أن يأتي اليوم الذي تدرك فيه حقيقة مشاعرك، تعتريني الثقة بأنها سوف تكون ممتنة وسعيدة للغاية حقًّا، وستشعر بالحب الغامر.. يا له من أمر قاسٍ فظ أن تُحتجز طفلة صغيرة هكذا، أتساءل إذا كان العجوز لا يريد إبعادها عنك!".
قال كيت: "أحسب أنه لا يظن فعله فظًّا.. يباركِكِ الخالق! إنه لم يقصد أن يكون كذلك.. ولن يفعل ذلك.. أظن يا أمي أنه.. لن يفعل ذلك مقابل ذهب وفضة العالم بأسره.. هذا أمر مستحيل، لا! لا! لن يفعل.. أنا أعرف أنه أفضل من ذلك كثيرًا".
قالت السيدة نابلز: "إذن ما مبرر ما يفعله! ولماذا يبقيها بعيدة عنك
إلى هذا الحد؟".
قال الابن: "هذا ما لا أعرفه، إذا لم يحاول إبقاءها على مقربة مني، فلن أجدها أبدًا بالخارج.. يتعمد أن يبعدني عنها ليلًا، ويبعثني نهارًا، في وقت أبكر مما أعتاد، وهذا ما يثير فضولي حقًّا، أريد أن أعرف ماذا يحدث.. أصغي! ما هذا؟".
- أعتقد أن شخصا ما بالخارج.
وقف كيت يتحرى السمع قائلًا: "إنه شخص قادم نحونا، يأتي مسرعًا جدًّا يا أمي!".
وقف الصبي لوهلة فاقدًا القدرة تمامًا على التحرك، يرتجف من المخاوف المستحوذة عليه. اقترب وقع الأقدام، ومن ثم فتح الباب بيد متعجلة لتظهر الطفلة نفسها شاحبةً منقطعة الأنفاس ترتدي ملابس خفيفة بطريقة فوضوية، تهرع إلى داخل الغرفة من فورها.
صاحت الأم وابنها معًا: "آنسة نيلي! ماذا حدث؟".
أجابت: "يجب ألا أبقى هنا للحظة، لكني أريد أن أقول: إن جدي متعب حقًّا.. لقد وجدته فاقد الوعي على الأرض...".
قال كيت، ملتقطًا قبعته: "سأذهب من فوري لأحضر طبيبًا، سأكون هناك في الحال، سأكون...".
صاحت نيل: "لا لا! لدينا طبيب هناك، أنت لست بحاجة إلى أن تذهـ.. أنت.. أنت.. يجب ألا تقترب منا أبدًا مرة ثانية!".

صرخ كيت بأعلى طبقة من صوته: "ماذا!".
قالت الطفلة: "ألَّا نقترب منا على الإطلاق.. ولا تسألني لماذا؛
لأنني لا أعرف! أتوسل إليك لا تسألني، وأتوسل إليك ألا تغدو حزينًا، وأتوسل إليك ألا تغضب مني! حقيقة ليس في يديَّ أي حيلة!".
نظر كيت إليها بأعين جاحظة مندهشة، يفتح فمه ويغلقه مرات ومرات، لكن دون أن ينطق بكلمة واحدة.
قالت الطفلة: "لقد كان محتدًّا، ثائرًا، يتمتم بشكاوٍ عدة تدور حولك، لا أعلم ما الذي اقترفته حقًّا، أتمنى ألا يكون شيء على هذا القدر من السوء".
صاح كيت: "أنا!".
قالت الطفلة، وعيناها مغرورقتان بالدموع: "لقد كان يصرخ قائلًا: إنك السبب في بؤسه كله.. ويردد اسمك باستمرار، لذلك أوصونا بألا تقترب منه، وإلَّا سوف يموت. يجب ألا تعاود المجيء إلينا مطلقًا. لقد جئت لأخبرك. اعتقدت أنه سيكون من الأفضل أن أحضر بنفسي، فضلًا عن أي شخص غريب، أوه! كيت، ماذا فعلت؟ أنت! أنت يا كيت! لقد وثقت فيك تمام الثقة، كنت صديقي الوحيد تقريبا!".
نظر كيت المسكين إلى حبيبته بعينين تزدادان جحوظًا، وسط الكثير من النظرات الحافلة بالقسوة، دون حراك، وفي صمت تام.
قالت الطفلة، ناظرة نحو السيدة، وهي تضع مالًا على الطاولة: "لقد جلبت له مقابل عمله لمدة أسبوع.. و.. و... وأعلم أنه بالقدر القليل جدًّا؛ لطالما كان طيبًا ولطيفًا معي. آمل أن يكون آسفًا، وأن يتبدَّل حاله إلى أحسن حال، وألا يجرحه ما حدث. يحزنني كثيرًا أن نفترق، وأن أبتعد عنه هكذا، لكنني حقًّا لست أملك أي خيارات أخرى.. قد انتهى الأمر.. تصبحان على خير!".
مع انهمار الدموع على وجنتيها، وارتجاف جسدها الرقيق من هول المشهد الذي تركته، وعنف الصدمة التي تلقتها، وصعوبة التلفظ برسالتها الشفهية التي ألقتها عليهما للتو، إلى جانب الآلاف من الآلام والمشاعر المفعمة بالعاطفة التي يموج بها صدرها، سارعت الطفلة إلى
الباب، واختفت أسرع مما أتت.
لم يساور الأم المسكينة أي شك تجاه ابنها، لكن كل ما يحوم حول أمانته وصدقه خطر على بالها؛ خاصةً أنه لم يتلفّظ بأي كلمة للدفاع عن نفسه. عصفت بذهنها رؤى السرقة والاحتيال، بسالته وغيابه الليلي الدائم عن المنزل بطريقة غريبة، اقترافه أفعالًا غير قانونية، مر هذا كله برأسها، وشملها الفزع، لكنها لم تجرؤ على سؤاله.
ألقت بنفسها على الكرسي، تهز يديها في قوة، قابضةً عليهما، تنتحب في مرارة. أما كيت، فلم يبادر بأي رد فعل ليهدّئ من روع والدته، فظلت في حيرة مشوشة تمامًا.
استيقظ الرضيع في مهده باكيًا، تعثر الطفل الذي كان في سلة الملابس، وسقط على ظهره، ارتفع صوت نحيب الأم عاليًا، لكن كيت لم يكن مدركًا لكل هذه الجلبة التي تدور من حوله، بُهت مما سمع، انكمش في مكانه شاردًا متأثرًا بما علم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الحادي عشر

لم يعد الهدوء هو السائد، ولم تستمر العزلة قائمة، أسفل ظلال السقف الذي يحمي الطفلة. في صباح اليوم التالي، كان العجوز طريح الفراش في سبات، يصارع حمى مستعرة صاحبها هذيان، استمر لعدة أسابيع، مغشيًا عليه جراء اعتلال جسده، راقدًا لا يبرح الفراش، في خطر شديد يهدد حياته. أصبح الجميع يهتمون بهما الآن بالقدر الكافي، يرأفون لحالهما، لكنها كانت رأفة من غرباء، يملأ الجشع خباياها، يتاجرون بها، احتشدوا حول العجوز في جمع مروِّع، آكلين، شاربين، هانئين، في بيت يسكنه المرض والموت، كأنهما أرباب المنزل المعتادون.
على الرغم من الازدحام الشديد والنمط السريع اللذين تموج بهما أجواء المنزل، استشعرت الطفلة الوحدة أكثر من أي وقت مضى، أمست روحها وحيدةً، تتضرع وحيدةً في صلواتها من أجل مفترش السرير، أمست وحيدة حتى في حزنها الصادق، وتعاطفها غير المشهود. لا تبرح مكانها نهارًا بعد نهار، وليلةً بعد ليلة؛ تقيم إلى جانب وسادة فاقد الوعي المتألم؛ مترقبةً ما يريد، مستمعة إلى تكراره الدائم لاسمها، وترديده لمخاوفه المتعلقة بأمر رعايتها المستمرة، طوال فترة شروده wالمحموم.
لم يعد البيت ملكهما، حتى الغرفة التي يملؤها المرض، بدت كأنها محجوزة؛ كملكية غير مؤكدة لصالح السيد كويليب، لم تمض على مرض العجوز أيام كثيرة؛ حتى كان السيد كويليب قد حصل بالفعل على تصريح رسمي، يفيد حيازته لكل شيء، بناء على بعض الصلاحيات القانونية في هذا الصدد، التي استوعبها القليلون، ولم يبادر أحد بالسؤال عنها. استطاع الإقدام على تلك الخطوة المهمة بمساعدة رجل قانون، أحضره من أجل هذا الغرض، وبعدها شرع القزم في عملية انتقاله إلى المنزل على الفور، بصحبة معاونه، توكيدًا لملكيته أمام جميع القادمين، وقد نصب لنفسه مكانًا مريحًا داخل البيت، وفق نمط ذوقه الخاص.
وتبعا لما آل إليه الأمر، عسكر السيد كويليب في الردهة، ونظم إيقافًا فعليًّا لأي أعمال عبر إغلاقه النافذ للمتجر كرد فعل أوَّلي. تجول بين مقتنيات المتجر متفحصًا أثاثه، ثم اتخذ من أكثر الكراسي راحة وفخامة مجلسًا مخصصًا له، تمركز فيه في تعالٍ، بينما ترك آخر كان رديئًا وأكثر ضيقًا وأقل راحة قبالة كرسيه لصديقه، ظلا قابعين في الغرفة دون حراك. بالإضافة إلى ذلك قام بعزل غرفة العجوز عزلًا تامًّا عن باقي المنزل، وقد اعتبره السيد كويليب إجراءً حكيمًا متبصِّرًا؛ كإجراء وقائي ضد العدوى من الحمى، بل داوم على التدخين بشراهة؛ باعتباره شكلًا آخر من أشكال التعقيم الصحي، وأصرَّ على أن يدخن صاحبه مثله.
علاوة على ذلك، أرسل رسالة إلى رصيف الميناء؛ يستدعي الفتى ذا الميول البهلوانية، الذي وصل على عجل، فأمره من توه أن يجلس على مقعد في مدخل الباب مباشرة، ويُدخن غليونًا قدَّمه له القزم من أجل الغرض نفسه، مهددًا إياه، أن عليه ألا يجرؤ أبدًا على إخراج الغليون من بين شفتيه، ولو لوهلة واحدة مهما كان زعمه أو حجته، بعد إتمام السيد كويليب لكل تلك الترتيبات، استكان في مجلسه، ناظرًا حوله في رضى تام ضاحكًا معقبًا على ذلك بقوله إن هذا ما يطلق عليه راحة فعلًا.

كاد رجل القانون، صاحب الاسم الشجي "براس"، أن يصف إحساسه بالراحة أيضًا، لولا وجود عيبين، أولهما: أنه لم يستطع جاهدًا بأي حال من الأحوال، الجلوس في اعتدال على مقعده، فقد كان قاسيًا، ومنحرفًا بزاوية، وزلقًا، ومائلًا، أما ثانيهما: أن دخان التبغ دائمًا ما كان يسبب له تهيجًا داخليًّا شديدًا وانزعاجًا دائمًا. لكنه إلى حد بعيد كان مخلوقًا مطيعًا للسيد كويليب؛ ولديه آلاف الأسباب التي تجعله يتضرع مستميلًا كويلب إليه ومتطلعًا إلى استرضائه ونيل استحسانه، لذلك حاول جاهدًا التبسُّم، معربًا عن رضوخه بأكثر الملامح التي تمكن
من رسمها كياسةً.
لم يتمتع هذا المدعى براس بسمعة طيبة كمحامٍ، كان قد نشأ في مدينة "بيفيس ماركس" في لندن، كان طويلًا وهزيلًا، يشبه أنفه الكيس الدهني في وجهه، له جبهة عريضة بارزة، وعينان غائرتان، وشعر أحمر غامق. كان يرتدي معطفًا طويلًا أسود، يصل إلى عقبيه تقريبًا، وسروالًا قصيرًا أسود أيضًا، وحذاءً ذا رقبة عالية، وزوجًا من جوارب قطنية رمادية ضاربة إلى الزرقة، رغم أنه كان يقف خاضعًا أمام رفيقه، كان له صوت أجش، يعدل عن إظهار أي من ابتساماته المبتذلة؛ راجيًا ألَّا يتعرض إلَّا لأقل عقبات أفعال رفيقه البغيضة وطأة، متمنيًا أن يبقى صديقه على حاله من التجهم أفضل كثيرًا من أن يثور غيظه.
نظر كويليب إلى مستشاره القانوني، منتشيًا في سعادة بالغة، يفرك يديه في مرح؛ فلاحظ عليه أنه يغمز بعينيه كثيرًا في ألم مبرح؛ منضررًا من دخان غليونه، وأن جسده كان ينتفض أحيانًا؛ إذا استنشق هذا الدخان كاملًا، وأنه يداوم على التهوية بيده لإبعاده.
قال كويليب، ملتفتًا إلى الفتى: "دخن أيها الكلب! واملأ غليونك بالتبغ مرة أخرى، ودخنه سريعًا، إلى آخر نفحة فيه، وإلا سأضع شمع الأختام على النار، ومن ثمَّ أفرك الجزء الأحمر الملتهب منه على لسانك".
من حسن الحظ أن الفتى كان متينًا قويًّا، لو أهداه أحد جيرًا حيًّا كان ليدخنه. لذلك أومأ إلى سيده فقط بإشارات وجيزة، تنم عن تحدٍّ قوي، ثم فعل ما أُمر به.
قال كوبليب: "أليس جيدًا يا براس؟ أليس لطيفًا.. أليس عطرًا فواحًا.. ألست تشعر كأنك تركي؟".
تحدث السيد براس إلى نفسه، مصرحًا إليها، أنه إذا كان كذلك بالفعل، فسوف يكون شعور التركي عاديًّا، بل لن يحسد على ما يمر به، لكنه اكتفى بقوله: إن شعوره أشبه بشعور سلطان دون شك.
قال كويليب: "إنها الطريقة المثلى لتجنب الإصابة بالحمى، بل بالأحرى إنها الطريقة المثلى لتجنب أي كارثة في الحياة! لن تنقطع عن التدخين أبدًا، في كل وقت نتواجد فيه هنا.. انفخ الدخان أيها الكلب، وإلا جعلتك تبتلع الغليون!".
سأل صديقه القانوني، بينما كان يوجه للفتى ذاك التحذير اللطيف: "هل سننتظر هنا طويلًا يا سيد كوبليب؟".
أجابه كويليب: "بالطبع سننتظر؛ حتى يموت العجوز الراقد بالجوار".
ضحك السيد براس: "هي هي هي! أوه! عظيم جدًّا!".
صاح كوبليب: "انفخ الدخان! لا تتوقف أبدًا! يمكنك أن تتحدث وتدخن في الوقت نفسه.. لا تضيع الوقت".

ضحك براس ضحكات يتملك الوهن منها، بينما يعيد تعبئة غليونه البغيض: "هي هي هي! حسنا حسنا! لكن ماذا لو استعاد عافيته، واسترد قواه؟".
رد القزم: "حسنًا! حينما يحدث ذلك، سنكف، ولن نفعل ما نفعله الآن".
قال براس: "كم هذا لطف منك يا سيدي! أتعلم يا سيدي! كاد بعض الناس أن يبيعوا البضائع أو أن ينقلوها بالكلية.. أوه! يا سيدي! كانوا ليفعلوا ذلك، في نفس اللحظة، التي يمكنهم القانون من ذلك.. أتعلم يا سيدي! كاد بعض الناس أن يأخذوا كل ما هو صلب، أو حتى أن يقتلعوا الرخام والجرانيت.. أتعلم يا سيدي! كاد بعض الناس أن ي...".
قاطعه القزم: "كاد بعض الناس أن يجنوا على أنفسهم، إذا ظلوا يستمعون إلى هذرمتك الببغائية هذه".
ضحك براس: "هي هي هي! إن لديك حسًا مرحًا فكاهيًا يا سيدي!".
قاطعهما الخفير المدخن القابع في مدخل الباب متمتمًا، دون أن يخرج الغليون من بين شفتيه: "ها هي الحسناء آتية".
قال كوبليب: "ماذا قلت أيها الكلب؟".
رد الصبي: "قلت: الحسناء.. هل أنت أصم؟".
قال كوبليب، وهو يسحب نفسًا طويلًا، متنهدًا، كما لو كان يشرب حساءً لذيذ المذاق: "أوووه! سوف نسوي هذا الأمر فيما بيننا، فهناك الكثير من الأمور التي سوف يشهدها هذا المتجر.. آها! نيلي! كيف حاله الآن يا بطتي الماسية؟".
أجابت الطفلة منتحبةً: "إن حالته سيئة للغاية".
صاح كويليب: "كم أنتِ جميلة حقًا يا صغيرتي نيل!".
قال براس: "جميلة فعلًا.. بل إن جمالها ساحر في الواقع يا سيدي".
قال القزم، بطبقة صوت قصد منها أن تكون رقيقة: "هلّا أتت الجميلة؛ وجلست على ركبة عزيزها كويليب، أم ستدخل إلى غرفتها الصغيرة وتذهب إلى سريرها كي تنام؟ ما الذي سنفعله جميلتي نيلي؟ "
تمتم براس في ثقة جابت الأفق: "يا لها من طريقة لطيفة ورائعة تلك التي تمتاز بها في معاملتك للأطفال! بالنسبة لي يكون مجرد الاستماع إليك بمثابة متعة بالغة".
لفظت نيل كلماتها في تعلثم: "لن أنتظر هنا لوقت طويل من الأساس.. أريد فقط أشياء من خارج الغرفة، ثم لـ.. لن.. لن.. آتي إلى هنا مرة أخرى، بعد الآن".
قال القزم، بينما ينظر إلى داخل الغرفة، حيث دخلت نيل: "اممم! غرفة صغيرة لطيفة.. أليست كذلك! تبدو تمامًا مثل كوخ ريفي! هل أنتِ متأكدة تمام التأكد أنك لن تمكثي فيها يا نيلي؟ وأنك لن تعودي إليها مرة أخرى يا صغيرتي؟".
ردت نيل من فورها تسارع في الرحيل آخذة بعضًا من ملابسها: "أبدًا.. لن آتي ثانية.. لن يحدث ذلك مطلقًا!".
قال كويليب، متتبعًا إياها بناظريه: "كم هي رقيقة المشاعر! رقيقة جدًّا ومرهفة الإحساس.. أشفق كثيرًا على حالها.. إنني أرى أن حجم سرير تلك الغرفة الصغيرة يناسب مقاسي تمامًا. أعتقد أنني سأتخذها غرفة لي".

رحَّب السيد براس بفكرته تمامًا، أو بالأحرى كان ليرحب أو حتى ليشجع أي فكرة، صادرة من ذلك الشخص، مشى القزم إلى داخل الغرفة ليتفقدها. وبمجرد أن أصبح بداخلها، ارتمى على السرير من فوره، مستلقيًا على ظهره، وغليونه في فمه، أمسى يهز ساقيه في عنف، ويدخن غليونه في شراهة. استحسن السيد براس المشهد الذي رأى، معقبًا أن السرير الذي اختاره السيد كويليب ناعم ومريح للنوم عليه، بل يجوز استخدامه صباحًا ومساءً، فيكون في النهار أريكة مريحة، يدخن عليها كما يشاء، ويكون في الليل سريرًا للنوم، لكنَّ الآخر حقق المشورتين في آن واحد، حيث نام عليه مدخنًا غليونه، في الوقت نفسه. كان رجل القانون - رغم ما أوصى به - يكتم في قرارة نفسه شعورًا بالدوار والارتباك؛ كرد فعل طبيعي اتخذه جهازه العصبي بسبب تدخينه التبغ، لذلك اغتنم فرصة استلقاء الآخر، وتسلل بعيدًا؛ حيث الهواء الطلق، ومع مرور الوقت استعاد توازنه وتعافى بما يكفي، ليكون مهيئًا للعودة مرة أخرى باتزان مقبول. لكن القزم الخبيث سرعان ما قاده إلى التدخين مرة أخرى، فانتكس من فوره، وترنح إلى أن ارتمى على أريكة، وأغشاه النوم في موضعه حتى صباح اليوم التالي.
كانت هذه هي الإجراءات الأولية التي قام بها السيد كويليب؛ للاستقرار في ملكيته الجديدة. انشغل كويليب لعدة أيام في عمله، فلم يستطع تدبير أي حيل؛ كان وقته منحصرًا فيما بين كتابة قائمة جرد لشتى الأشياء الموجودة في المتجر بمساعدة السيد براس، وبين الذهاب إلى الخارج لمتابعة أشغاله الأخرى التي - لحسن الحظ - أبقته في كل مرة مشغولًا لعدة ساعات. تيقظت أهواء جشعه، ونمت حيطته، فلم يتغيب عن المنزل لليلة واحدة. ومع مرور الوقت، ازدادت رغبته الجامحة في إنهاء مرض العجوز، سواء كان ذلك بطريقة سيئة أو جيدة، لدرجة أنه سرعان ما بدأ التنفيس عن رغبته في تمتمات معلنة أو حتى صرخات، نافد الصبر.
تملصت نيل كثيرًا من محادثات القزم معها على استحياء، كانت تتهرب حتى من صوته، ومن ابتسامات المحامي لها، التي لم تقل فظاعة عن وجه القزم حينما يلوي قسماته لإضحاكها. عاشت في حالة متواصلة من الذعر والفزع؛ تخشى لقاء أي منهما على الدرج أو في الممرات، إذا انتقلت من غرفة جدها؛ لذلك قلما كانت تغادرها ولو حتى للحظة إلى أن يحل الليل ويطبق الصمت على الأجواء، فيشجعها لتجازف وتخرج؛ حتى تتمكن من استنشاق هواء نقي في الغرف الفارغة.
في ليلة ما، كانت تجلس في حزن يؤرقها؛ فقد ازداد اعتلال جدها ذاك اليوم، لكنها هرعت إلى نافذتها المعتادة؛ فور أن سمعت اسمها ينطق من أحدٍ ما في الخارج. نظرت إلى الأسفل، تبينت أنه كيت، الذي حاول جاهدًا أن ينتشلها من تأثير انعكاسات أفكارها الحزينة.
قال الصبي هامسًا: "آنسة نيل! " ,
اعترى الشك الطفلة؛ لا تعرف إذا كان من المصرح لها أن تجيب على الجاني المشتبه فيه أم لا، لكنها تفكرت في أنه لا يزال الصديق القديم المفضل لها، لذلك أجابت الطفلة: "ماذا تريد؟".
رد الصبي: "أردت أن أقول لك كلمة واحدة طوال الفترة السابقة، لكن الماكثين هنا بالأسفل، دفعوني بعيدًا، ولم يسمحوا لي برؤيتكِ. لا تصدقي.. أتمنى ألا تصدقي حقا أنني أستحق الإقصاء عنك، كما هو حالي الآن، إنك لا تصدقين، أليس كذلك؟".
ردت الطفلة: "بلى! أنا أصدق.. فلِمَ يصيب جدي كل هذا القدر من الغضب منك؟".

أجاب كيت: "لا أعرف! لكنني متأكد تمامًا من أنني لا أستحق منه ذلك مطلقًا أو منك، بإمكاني القسم على قولي هذا، وأن قلبي صادق وأمين. لا أستحق أن يتم طردي، وإجباري على الرجوع من الباب؛ وقد أتيت لأطمئن على سيدي مرات، و..!".
قالت الطفلة: "لم يخبروني بذلك قط! لم أكن أعرف فعلًا.. لو كنت عرفت، كنت منعتهم من فوري".
قال كيت: "شكرًا يا آنسة! إنه من المربح لي سماعك تقولين ذلك. لقد قلتِ: إن هذا ليس من فعلك بتاتًا.. لم أكن لأصدق أنكِ فعلتِ هذا من الأساس".
قالت الطفلة في حماس: "بالطبع! كنت على صواب!".
قال الطفل، مقتربًا من أسفل النافذة، متحدثًا بنبرة خافتة: "آنسة نيل! يوجد سادة آخرون جدد هنا بالأسفل، أحسب أن وجودهم يشكل لك اضطرابًا".
ردت الطفلة: "كما قلت بالضبط!".
أشار الصبي إلى غرفة العليل، وقال: "أحسب أن الأمر سيكون مشابهًا بالنسبة إليه أيضًا، عندما تتحسن حالته".
أضافت الطفلة، ولم تستطع كبح انهمار دموعها: ".. إذا تحسنت حالته".
قال كيت: "حتمًا ستتحسن.. ستتحسن بالتأكيد، أنا واثق جدًّا أنها ستتحسن، يجب ألا تنخفض معنوياتك يا آنسة نيل، رجاءً لا تفعلي ذلك!".
على الرغم من أن تلك الكلمات التشجيعية وعبارات المواساة والتعزية قليلة ووقعها قاس، فقد أثّرت في الطفلة، في نفس لحظة قولها، وجعلت عينيها تفيضان بالدموع أكثر.
قال الصبي، والقلق مهيمن على نبرة صوته: "من المؤكد أنه سيتحسن قريبًا، لكنك إذا لم تكفي عن جعل معنوياتك منخفضة، وإمراض نفسك بنفسك، ستتدهور حالته من بعد شفائه، إذا رآكِ على حالكِ هذا.. أريد منكِ فقط أن تقولي كلمة جيدة في حقي.. كلمة طيبة فور تحسنه يا آنسة نيل!".
قالت الطفلة: "لقد أخبروني ألا أنطق باسمك أمامه لفترة طويلة.. لفترة طويلة جدًّا.. حقيقة! أنا لا أجرؤ، وإذا تجرأت وفعلت ما أمليتَهُ عليَّ، أي كلمة طيبة سأقولها يا كيت؟ إننا الآن فقراء معدومون، بالكاد لدينا خبز نأكله".
قال الصبي: "لست أقصد من وراء ذلك أن أعود لعمل ما.. أردت كلمة طيبة، لاستعادة استحسانه لي وثقته في. ليس من أجل طعام أو أجر، لقد انتظرت طويلًا؛ أملًا في رؤياكِ فقط. لا تظنين حتمًا أنني أتيت إلى هنا في هذا الوقت العصيب، لكي أتحدث عن مثل تلك الأشياء!".
نظرت الطفلة إليه في عطف وامتنان، تنتظر صامتةً تظن أنه ربما سيتحدث مرة ثانية.
قال كيت مترددًا: "لا! لم آتِ كي أتحدث عن مثل تلك الأشياء. أعلم أنني طوال حياتي لم يكن ينتابني هذا القدر من العواطف، لكنني أريده حقًّا أن يصدق أنني كنت خادمًا أمينًا مخلصًا له، بذلت قصاري جهدي، ولم أعن ضررًا له أبدًا.. حينها ربما لن يـ..".
تلعثم كيت وتوقف حديثه، لدرجة أن الطفلة حثته على استكمال حديثه على عجل؛ لأن الوقت قد تأخر جدًّا، ويجب عليها إغلاق النافذة.
صاح كيت في جرأة مفاجئة: "ربما لن يظن أن ما سأقوله بعد تبجحًا مني.. لكنني أعلم أن منزلكما أُخذ منكما. لكن بيتي أنا وأمي متاح لكما، أعلم أنه بيت بسيط وفقير، لكن البقاء فيه أفضل لكما

كمأوى، بعيدًا عن شتى الموجودين هنا مؤخرًا.. لماذا لا تشرفوننا بحضوركما، إلى أن يسترد عافيته، ويتحرَّى في شؤونه وأحواله خلال المتسع الذي يريده من الوقت!".
لم تنطق الطفلة بأي كلمة، لكن كيت فور انتهائه من طرح اقتراحه، تنفس الصعداء، وشعر أن عقدة لسانه قد حلت، فشرع في التحدث بطلاقة وببلاغة قصوى.
قال الصبي: "أعلم أنك تخشين أن تجدي البيت ضيقًا وغير مريح - معكِ حق في هذا الأمر - لكنني أضمن لك أنه نظيف جدًّا. ربما تعتقدين أيضًا أنه سيكون صاخبًا، لكن ساحته أكثر الساحات هدوءًا في جميع أرجاء المدينة. أريد منكِ ألا تخافي من إزعاج الأطفال بتاتًا؛ فالرضيع لا يكاد يبكي، والآخر جميل جدًّا، إلى جانب أنني سأتولى أمورهما. لن يزعجاك مطلقًا، أنا واثق تمام الثقة. حاولي فقط يا آنسة نيلي.. حاولي فعلًا. ستجدين الغرفة الصغيرة العلوية مبهجة ومريحة جدًّا. أتعلمين! يمكنك رؤية جزء من ساعة الكنيسة من خلال المدخنة، وحينها ستكونين على علم بالوقت في أي ساعة تريدينها.. تقول أمي: إن هذا مجرد شيء بسيط بالنسبة لك، وهو كذلك فعلًا، إنها تنتظركما معًا، ولقد جئت إليكِ حاملًا رسالتي أملًا في موافقتك. لا نريد مالًا، أعزَّكِ الخالق! لم يخطر المال على تفكيرنا من الأساس! هل ستحاولين معه يا آنسة نيل؟ أخبريني فقط أنك ستحاولين فعلًا، وستطلبين من سيدي القديم الإتيان إلينا، لكني أريد أولًا أن تسأليه عمَّ اقترفتُ؟ هل تعدينني بذلك يا آنسة نيل؟".
قبل أن تشرع الطفلة في الرد على توسله الجاد، فُتح الباب المطل على الشارع، وأدلى السيد براس برأسه إلى الخارج، صائحا في صوت جهوري: "من هناك؟ "، فبرح كيت مكانه من فوره متسللًا، وأغلقت نيل النافذة برفق، وعادت أدراجها إلى الغرفة.
بعد أن كرر السيد براس سؤاله مرات عدة، ظهر السيد كويليب، وعلى رأسه قلنسوة النوم؛ ليتحرى النظر إلى خارج الباب نفسه، نظر بحرص تام إلى الأعلى والأسفل، وإلى الشارع، وإلى نوافذ المنزل، ومن جانب إلى آخر. لم يكن هناك أحد في مجال رؤيته، لذلك عاد إلى داخل المنزل ثانية مع صديقه القانوني، من ثمَّ سمعته الطفلة على الدرج متذمرًا، يعلن أن ما حدث بالتأكيد من فعل عصبة، تحيك مؤامرة ضده، وأنه يعيش في خطر محدق؛ وأنه على هذا الحال سوف يكون عرضة للسرقة والنهب في أي وقت من قبل مجموعات مختلفة من المتآمرين الذين تجولوا في المنزل، لذلك حسم قراره بأنه سيتخذ خطوات فورية دون أي تأجيل لتسوية ملكيته، ومن ثم يعود إلى سطحه السالم الآمن. بعد أن أفرغ ما في نفسه من دمدمات، وزاد عليها بإلقاء التهديدات على النحو ذاته، عاد إلى حيثما كان إلى سرير الطفلة الصغير مرة أخرى منكمشًا على نفسه، ومن ثم تسللت الطفلة إلى أعلى الدرج.
كان من البديهي أن تترك محادثتها القصيرة غير المنتهية التي أجرتها مع كيت انطباعًا قويًّا في نفسها، وأن تؤثر فيها تمامًا، لدرجة أنها راودتها في أحلامها في تلك الليلة وظلت تسترجع ذكراها لوقت طويل جدًّا. ظلت الطفلة محاطة بالدائنين الذين لا تعرف قلوبهم الرحمة، وكل من هو منتفع جشع يتكالبون على غرفة المريض، يلتقون بها، وهي في أوج اضطرابها وحزنها، لم تتلق وهي في ذروة آلامها وفجيعتها ولو القليل من التعاطف والشفقة حتى من النساء، لذا لم يكن غريبًا أن يتأثر قلب الطفلة الحنون سريعًا بأحد الأرواح التي يسكنها العطف والكرم، مهما كان المكان الذي يسكن فيه..

الحمد لله أن مساكن هذه الأرواح ليست مصنوعة بالأيادي (6)، وأنها قد تكون أكثر استحقاقًا - وإن كثرت فيها الرِّقاع - من تلك التي أسدل عليها الكتان الأرجواني الناعم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثاني عشر

بعد مضيٍّ فترة طويلة، ولَّت أزمة الاعتلال الجسدي؛ وبدأ العجوز يتعافى، عاد له وعيه على نحو بطيء وبدرجة قليلة، لكن قواه كانت قد خارت تمامًا، وضعفت وظائف عقله. كان عليلًا، هادئًا، جالسًا في سكينة تامة، هائمًا في ملكوت آخر، لم يكن بالشكل البائس المتصوَّر، كان مستمتعًا، حتى بشعاع الشمس المنعكس على الجدار والسقف، لم يتذمر مطلقًا حول كون الأيام طويلة، وكون الليالي شاقة مضجرة، كان فاقد الإدراك بالوقت، وفاقد القدرة على الإحساس، سواءً إحساسه بالملل أو بعناية أحد به. جلس لساعات متوالية، يمسك بيد نيل الصغيرة، يلعب بأصابعها، وأحيانًا يمسح على شعرها، ويقبِّل جبينها، إذا لمح دموعها تترقرق في عينيها، يندهش من فوره، متسائلًا إذا كان هو المتسبب، ثم ينسى ما سأل عنه في وهلة، حتى وإن لم يشح بنظره عنها بعيدًا.
كانا ينامان متجاورين، تسند الطفلة العجوز بالوسائد، ثم تستلقي إلى جانبه، متشابكي الأيدي كالمعتاد. أرهقت ضوضاء الشارع عقله في بادئ الأمر، لكنه مع الوقت تأقلم معها، لم يعد مندهشًا، أو فضوليًا، غير سعيد أو غاضبًا. يسأل إذا تواردت إلى ذهنه ذكرى قريبة أو بعيدة، فيقول: "أوه! صحيح.. هذا جيد.. لِمَ لا يكون جيدًّا؟ "، وأحيانًا كان يلتفت برأسه بالكامل، شاخص العينين، ينظر إلى غريب بعينه في وسط حشد هائل، حتى يختفي تمامًا عن مجال رؤيته، فيطرحون عليه سؤال باستمرار، يستفسرون به عن سبب: فعله، لكنه لم يجب عليهم مطلقًا بأي كلمة في أي مرة.
في يوم ما، بينما كان على حاله المعتاد، يجلس على مقعده، وتجلس الفتاة إلى جواره، استأذن رجل كان يقف خارج الباب يريد أن يدخل. قال العجوز دون أي إحساس: "نعم!.. إنني كويليب"،، لقد كان سيد المنزل، ومن البديهي أن يسمح له بالدخول، وهذا حقًّا ما فعل.
جلس القزم أمامه، وقال: "إنني سعيدٌ حقًّا لرؤياك وقد تحسن حالك عن المرة السابقة يا جاري.. أتشعر أنك استعدت عافيتك، وأصبحت أقوى الآن؟".
قال العجوز متأففًا: "نعم.. نعم".
قال القزم رافعًا نبرة صوته فقد أمست حواس العجوز أكثر علة: "لا أريد استعجالك يا جاري.. كما تعرف، لكنك كلما أسرعت في ترتيب إجراءاتك المستقبلية، كلما كان أفضل".
قال العجوز: "نعم بالطبع! سيكون أفضل لجميع الأطراف".
تابع القزم قوله، بعد توقف دام لثوانٍ: "كما ترى.. بمجرد أن يتم نقل جميع أثاث البيت وأغراضه، سيكون غير مريح على الإطلاق، أو في الواقع غير صالح للسكن".
قال العجوز: "ما تقوله كله صحيح.. لكن المسكينة نيل، ماذا ستفعل؟".
زَعَق القزم، وأومأ برأسه: "هذه ملاحظة جيدة.. هل تفكر في أمرها يا جاري؟".
أجاب العجوز: "بالطبع.. لأننا لن نظل هنا".
قال القزم: "حسنًا! أحسب أنني بعت الأشياء جميعها. أعلم أن بيعها تم بثمن بخس، أقل من سعرها الحقيقي، لكن.. على كل حال، كان الأمر جيدًّا.. جيدًا جدًّا. أعتقد أن اليوم يوافق يوم الثلاثاء. ترى متى يجب أن يتم نقلها؟ امم! أعتقد أننا لسنا في عجالة من أمرنا.. دعنا نقول

بعد ظهر اليوم؟".
رد العجوز: "بل قُل صباح يوم الجمعة".
قال القزم: "عظيم! فليكن الأمر كذلك، كن منتبهًا فقط أنه لا يمكنك تجاوز ذلك اليوم بأي حال من الأحوال أو تحت أي ظرف أو مسمى.
قال العجوز: "حسنًا.. سأتذكر هذا بكل تأكيد".
بدا السيد كويليب في حيرة تامة؛ من الطريقة الغريبة التي تحدث بها العجوز؛ كانت الطريقة التي تحدث بها خالية تمامًا من الروح أو إبداء أي تعبير، ظل القزم على حاله حتى أومأ له العجوز برأسه، وكرر: "حسنًا! صباح يوم الجمعة، سأتذكر هذا بكل تأكيد!".، حينها لم يملك كويليب أي عذر، للإسهاب في حديثه أكثر من ذلك، فحمل نفسه على المغادرة، قائلًا الكثير من المديح لصديقه، حول تحسن حاله، تعتلي وجهه تعبيرات كثيرة تنم عن حسن النوايا. ذهب كويليب على عجل إلى أسفل الدرج، كي يبلغ صديقه براس بما حدث كله.
طوال ذاك اليوم وما تبعه من أيام ظل العجوز على الحال نفسه. لكنه تجول في جميع أرجاء البيت، صعودًا وهبوطًا، يذهب إلى داخل الغرف، ومن ثمَّ يخرج منها، كأنه يكن في قرارة نفسه الهائمة أن ذلك هو الوداع الأخير لها، لكنه برغم ذلك لم يشر مطلقًا بأي تلميح مباشر، أو بأي طريقة أخرى، إلى لقائه الصباحي، أو إلى الضرورة الملحة؛ لإيجاد ملجأ آخر، على غرار تصرفاته المبهمة، حينما كان يرى الطفلة مكتئبة منعزلة في حاجة ماسة إلى المساعدة، كان يجذبها إلى حضنه، ويحثها على أن تكون متفائلة ومبتهجة، قائلًا: إنهما لن يفترقا أبدًا. بدا العجوز غير مدرك لوضعهما الحقيقي، مشوش الفكر والبال، غير قادر على التفكير في وضوح، كان ولا يزال المخلوق الواهن، الذي يعاني اعتلالًا جسديًا، وضعفًا في وظائف عقله.
نذهب إلى أن ما يحدث له ناتج حالة من الخرف، أو الطفولة، التي تصيب العجائز. حينما تمتلك السخرية الجوفاء السيادة، ويشابه النوم الموت. أين تلاشت ضحكات حياة الطفولة ونورها في أعين البشر الباهتة.. الابتهاج الذي لا تعتريه المخاوف، الراحة التي لا تعرف معنى الإحباط، الأمل الذي لا يندثر على الإطلاق، والسعادة التي قطفت فور تفتحها؟ أين اندثرت أمارات النوم الهادئ أمام ملامح الموت القبيح القاسية، أين اندثرت أمارات النوم التي تحكي عن راحة شهدتها ساعات اليقظة المنقضية، حالمة بساعات صحو آتية، يغمرها الأمل اللطيف والحب القوي؟ ضع الموت إلى جانب النوم معًا، جنبًا إلى جنب، وقل من سيراهما متشابهين. أرسِل الطفلة والعجوز معًا إلى عالم آخر، واخجل من التفاخر الذي ذمَّ سعادتنا القديمة وأعطاها صورة قبيحة مشوهة.
حلَّ يوم الخميس، لم تكن حالة العجوز قد شهدت أي تغيير، لكن حاله مع حلول المساء، حينما كان جالسًا هو والطفلة معًا في صمت تام، قد تبدَّل كليًّا.
في ساحة قائمة قبالة نافذته، شمخت شجرة خضراء نضرة - بالحد الملائم لهذا المكان المقفر - تتخلل أوراقها نسمات الهواء، وتنعكس ظلالها على الجدار الأبيض، جلس العجوز يراقب الظلال، وهي تهتز في بقعة الضوء، غربت الشمس، وأسدل الليل أستاره، وارتفع القمر بطيئًا إلى كبد السماء، وما زال العجوز لم يبرح مكانه.
بالنسبة إلى من لم يعد يهنأ بالنوم، ويضطجع على السرير، لفترات طويلة، متقلبًا مضطربًا، أصبح مجرد النظر إلى تلك الأوراق الخضراء القليلة، وهذا الضوء الباهت، حتى وإن تواجد بين المداخن وأعلى المنازل، من مسرات نفسه. انتشله بعيدًا نحو مكان هادئ بعيد، داخل نفسه، يسوده

السلام والراحة. ظنت الطفلة أكثر من مرة أن حاله تدهور أكثر، وأصبح عاجزًا عن الكلام. لكنه بكى، بكى دموعًا أزاحت ألم قلبها، كاد أن يسقط على ركبتيه راجيًا منها أن تغفر له.
قالت نيل من فورها لتمنع فعله: "أغفر لك! ماذا؟ ما بالك يا جدي؟ ما الذي يتوجب عليَّ غفرانه لك؟".
رد العجوز: "أن تغفري كل ما مضى يا نيل، أن تغفري لي الماضي كله.. أن تغفري كل ما حدث في هذا الكابوس المزعج".
قالت الطفلة: "من فضلك يا جدي لا تقل هذا.. من فضلك! دعنا نتحدث عن أي موضوع آخر".
عاد العجوز للحديث: "نعم، نعم، سنفعل بالتأكيد! يجب أن يكون حديثنا عن ذاك الموضوع، الذي تحدثنا عنه منذ فترة طويلة.. منذ أشهر عديدة.. نعم، أشهر بناءً على ما أظن.. أم أسابيع.. أم أيام؟ أي مدة يا نيل؟".
قالت الطفلة: "لا أفهم ماذا تقصد!".
- لقد خطر على بالي اليوم، بل استعدت ذكرى كل شيء، منذ أن كنا جالسين هنا، فليباركك الخالق من أجل ذلك يا نيل!
- من أجل ماذا يا جدي؟
- من أجل ما قلتيه عن المضيِّ كشحاذين يا نيل.. صه! دعينا نتحدث بصوت خافت، إذا ما سمعوا بالأسفل عن مرادنا، سيصيحون عاليًا، ويدَّعون خرفي وجنوني، وسوف يأخذونكِ مني. لن ننتظر يومًا واحدًا. سنهرب من هنا، ونذهب بعيدًا.. بعيدًا جدًّا عن هنا.
قالت الطفلة في جدية: "نعم، دعنا نذهب فعلًا، نرحل من هذا المكان، ولا نعود إليه مرة أخرى، أو حتى نفكر في العودة ثانية. دعنا نرحل، بدلًا من البقاء هنا، وإن كنا سنجوب أنحاء العالم كافة حافيين".
رد العجوز: "ستفعل بكل تأكيد، سنجوب الأودية والحقول سيرًا على الأقدام، سنمشي وإلى جانبنا الجداول، سنثق في قدرة أنفسنا وفي رعاية خالقنا لنا. سيكون من الأفضل لنا أن نفترش الأرض ليلًا، مستلقيين، بينما تظلل علينا سماء شاسعة، كالتي تنظرين إليها.. وترين فيها الأضواء، سننعم بالراحة في رحاب الأرض بدلًا من هذه الغرف المغلقة، المكتنزة بالحرص المشدد، والأحلام المنهكة، سوف نصبح أنا وأنت يا نيل سعداء، مبتهجين، نتناسى جل ما حدث هنا، كما لو أنه لم يحدث أبدًا".
صاحت الطفلة: "سنكون سعداء حقًّا.. لا يمكننا أن نتواجد هنا بعد الآن".
انضم إليها العجوز قائلًا: "لا يمكننا أبدًا بعد الآن.. أبدًا.. وهذه كلمة شرف بيننا، دعينا تهرب من هنا غدًا في الصباح الباكر، نتسلل خفية؛ حين لا يمكن لأحد أن يسمعنا أو أن يرانا، وبحيث لا نترك لهم سبيلًا أو أي أثر، يمكن لهم من خلاله أن يتبعانا. مسكينة يا نيل! إن خديك شاحبان، وعينيك ذابلتان من البكاء والسهر على رعايتي.. إنني أعرف أن هذا كله بسببي ومن أجلي، لكنك ستغدين سعيدة مرة أخرى، ومرحة أيضًا، حينما نبتعد من هنا. قريبًا يحين الصباح الباكر، وسندير وجوهنا بعيدًا عن هذا المشهد المحزن، ونحلق بعيدًا أحرارًا وسعداء، كما الطيور".
وضع العجوز يديه على رأسها، وقال بضع كلمات في نبرة حزينة ومكسورة، مفادها أنهما من وقتهما الحالي فصاعدًا، سيتشاركان كل شيء، سيجوبان الطرقات معًا، إلى أن يفرقهما الموت

ويقبض روح
أحدهما أو الآخر.
ارتفع وقع دقات قلب الطفلة، وغمرها الأمل والثقة. لم تكن تفكر في الجوع أو البرودة أو العطش أو المعاناة، التي من الممكن أن تواجههما. لقد رأت فيما ذُكر خلاصها، وسبيل العودة إلى الملذات البسيطة، التي استمتعت بها سابقًا، وراحة من العزلة القائمة، التي عاشت فيها، ومنفذًا تهرب من خلاله من الأشخاص عديمي القلوب والرحمة، الذين أحاطوا بها مؤخرًا، واستعادة لصحة العجوز وسلامه النفسي، وملاذًا لحياة سعيدة هادئة. رأت الشمس في مخيلتها ساطعة، ورأت جداول الأنهار والمروج في يوم صيفي مشرق، حيث لم يعد هناك أي ظلام يداهمها، أو يحجب صورتها البراقة.
نام العجوز مرتاحًا في سريره، وبعد مرور بضع ساعات، ظلت خلالها منشغلة في التحضير لرحلتهما، حزمت ملابسهما، لكنها لم تكن كثيرة، كانت قليلة وقديمة، أو ربما كانت رثة كحالهما، ولم تنسَ إحضار عصاه؛ التي يتوكأ عليها؛ لضعف خطواته. لم يكن ما أتمته هو ما حثتها نفسها عليه فقط، حيث توجب عليها أن تنتقل إلى غرفتها القديمة؛ كي تلقي نظرة أخيرة عليها.
كم كان الوداع مختلفًا عن كل ما تصورته، مختلفًا تمامًا عن تخيلاتها التي عاشت فيها، ورسمتها داخل عقلها لفترة طويلة. كيف شهدت اليوم الذي تودع فيه - في غلبة وشعور بالانتصار - الغرفة التي احتضنتها، خطرت على بالها ذكرى الساعات القاسية التي مرت على قلبها النازف حزنًا، وجعلتها تشعر بالأسى، وكم كانت وحيدة حزينة طوال تلك الساعات! جلست إلى نافذتها التي اعتادت الجلوس عليها، حيث كانت تقضي لياليَ شاقة طويلة - كتيبة موحشة بعيدة كل البعد عن ليلتها التي تعيشها الآن - نفضت عن بالها ذكرياتها الموجعة الكئيبة في لحظة، واسترجعت في شفافية، كل ذكرياتها السعيدة والحالمة المتعلقة بهذا المكان.
لقد شهدت اليوم الذي تودع فيه غرفتها الصغيرة، التي ركعت على أرضها كثيرًا، متضرعة خلال ليال طويلة؛ داعية من أجل مرور الوقت، من أجل أن يبزغ الفجر.. غرفتها الصغيرة، التي هنأت على سريرها، بالنوم المريح، وراودتها فيها أحلام سعيدة! كان من الصعب عليها حتمًا أن تلقي بنظرة سريعة على غرفتها، ومن ثمَّ تضطر إلى مغادرتها دون أن تفيض مدامعها وتبكي في امتنان. ودَّت لو تأخذ أشياء أخرى عزيزة على روحها، لكنها لم تكن بالشيء المهم في رحلتهما، فبات أخذها مستحيلًا.
حضر إلى ذهنها من بين تلك الأشياء عصفورها المسكين الذي لا يزال معلقًا حيثما كان. لقد بكت بمرارة على فراق ذلك المخلوق الرقيق.. إلى أن خطرت على بالها فكرة نيِّرة.. لم تكن تعرف كيف أو لماذا، فكرت في مثل تلك الفكرة، لقد تذكرت كيت، وفكرت في أنه يمكنه الاحتفاظ بذلك الطائر من أجلها، لذلك قررت تركه في مكانه، آملةً أن يجده كيت، ويعتني به فور حصوله عليه، وكتعبير عن امتنانها له أيضًا. أحست نيل تجاه فكرتها براحة ملأت صدرها، فتوجهت لتستريح وقلبها عامرٌ بالبهجة.
شهد نومها العديد من الرؤى، حول تجولها في الأماكن المشمسة التي يتلألأ إشراقها، لكن بعض الأحلام الغامضة غير المترابطة تداخلت فيما بينها، فاستيقظت من فورها، لتجد أن الليل لم يمر

بعد، وأن النجوم لا تزال ساطعةً، تتلألأ في السماء. ظلت على حالها حتى انقشع الظلام وبهتت أضواء النجوم وتخلل بريق ضوء النهار، فنهضت، ولبست؛ استعدادًا لرحلتها.
كان العجوز لا يزال نائمًا، لم يكن لديها أي استعداد لتوقظه، فتركته يغفو قليلًا، حتى تشرق الشمس. لكنه حين استيقظ، كان مضطربًا قلقًا، لم يرد أن يضيع دقيقة واحدة، دون مغادرة المنزل، فتحضَّر من فوره، وسرعان ما أصبحا مستعدين للرحيل في القريب العاجل.
أخذته الطفلة ممسكةً بيديه راحلين، ينزلان بخفة وحذر درجات السلم، يرتجفان عند سماعهما لصرير درجة سلم، يتوقفان، يسترقان السمع. نسيَ العجوز محفظته التي تحتوي على شيء مهم يجب أن يأخذه معه في رحلته، لكن العودة بضع خطوات لجلبها، بدا تأخيرًا لا نهاية له.
وصلا في النهاية إلى ممر الطابق الأرضي، حيث علت أصوات شخير السيد كويليب وصديقه رجل القانون، بدت الأصوات رنانة مؤذية لآذانهما أكثر من أصوات زئير الأسود. كانت مفصَّلات الباب صدئة، فبات من المستحيل أن يخرجا دون إصدار ضجيج. لكن الأسوأ من بين كل ما عايشاه من قلق أنه حين وصولهما إلى الباب وجداه مغلقًا، والأكثر سوءًا أنهما وجدا أن المفتاح كان قد اختفى تمامًا. تذكرت الطفلة، أن إحدى الممرضات قد أخبرتها في إحدى المرات أن السيد كويليب يغلق البابين عادة في الليل، ويترك المفتاح على الطاولة في غرفة نومه.
لم يكن بالشيء الهين الخالي من الارتياب والذعر أن تخلع نيل حذاءها، وتتسلل عبر غرفة مخزن متجر التحف القديم - حيث كان براس أقبح شيء من بين البضائع المخزَّنة نائمًا على مرتبة - ومن ثم تدخل إلى غرفتها الخاصة الصغيرة.
هناك، توقفت نيل للحظات تراقب منظر السيد كويليب مذعورةً جدًا؛ كان متدليًا من طرف السرير كأنه واقف على رأسه، في وضع شاق على أي أحد أن يفعله، مريح له، اعتاد على فعله، كان يلهث ويهدر، وفمه مفتوح على آخره، ومقلتا عينيه البيضاوين - أو بالأحرى الصفراوين القبيحتين - واضحتان تمام الوضوح. لم يكن هناك أي وقت لتضيعه، لتهتم بحاله وتتساءل عن أي مرض أصابه، لذلك إلتقطت المفتاح سريعًا، وألقت نظرة أخيرة على غرفتها، ومرت ثانية بجانب السيد براس الممدد، وانضمت إلى رفقة العجوز في أمان، فتحا الباب دون إصدار أي ضجيج، منتقلين إلى الشارع، واقفين في ثبات.
قالت الطفلة: "أي الطرق سوف نسلك يا جدي؟".
نظر العجوز إليها أولًا؛ مترددًا، تائه الذهن، ثم نظر على جانبيه يمينًا ويسارًا، ثم عاود النظر إليها مرة أخرى، أومأ برأسه، في حيرة دون رد على استفسارها. حينها كان واضحًا تمامًا أنها ستكون دليله ومرشده. شعرت الطفلة بذلك الأمر دون شك أو سوء تخمين، فأمسكت بيده لتقوده إلى مسارهما في لطف.
لقد كان يوم رحيلهما هو غرة شهر يونيو، عندما السماء زرقاءَ لا تشوبها الغيوم، مشعة بالنور الساطع. كانت الشوارع خالية تقريبًا من المارة، وكانت المتاجر والبيوت مغلقة، حينها شابهت النسمات الصباحية العليلة أنفاس الملائكة، على مدينة نائمة.
عبرت الطفلة برفقة الرجل العجوز الطرقات في صمت تتخلله السعادة، مبتهجين، مفعمين بطاقة الأمل والسرور. أصبحا أخيرًا بمفردهما معًا مرة أخرى، بدا كل شيء من حولهما مشرقًا، تنبض فيه الحياة، يتلمسان التباين بين الرتابة التي خلفوها وراءهم، وأبراج الكنيسة وقبتها، والظلام والعبوس، وبين ما يعايشانه الآن، حيث يشهدان إشراقة الشمس، وتلألؤ كل زاوية وركن

بالضوء، والسماء التي يخفت ضوؤها؛ من فرط ابتعادها، تحتوي بنورها كل ما هو موجود أسفلها.
سار المغامران إلى خارج المدينة، بينما كانت نائمة، شقا طريقهما، لا يعرفان وجهتهما، متسائلين إلى أين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثالث عشر

كان السيدان دانيال كويليب من تاور هيل، وسامبسون براس من بيفس ماركس في لندن - وهو أحد محامي جلالة الملكة في محاكم المجلس الملكي، ومحام بالاستئناف في وستمنستر، ومحام بمحكمة العدل العليا - نائمين، غافلين، فاقدي الوعي، لا يشتبهان في وقوع أي بلية، لكن طرقات على الباب تردد صداها، وبدأت تعلو في تكرار، زادت من طرقة مفردة متوانية، إلى مجموعة من الطرقات المتتالية، تتابعت من دون أي فاصل زمني يفرِّق بين الطرقة والأخرى، تسببت في دفع السيد كويليب إلى صراع، خاضه وضعه الأفقي، فجحظت عيناه، حملق في السقف، تلاشت جميع رغباته في النعاس، استيقظ مفزوعًا ومشدوهًا من تلك الضوضاء التي يسمعها، بدا لوهلة غير قادر على إدراك أي شيء، ليس لديه أي فكرة حيال ما يحدث حوله.

من أجل أن يتلاءم الظرف مع حالة السيد كويليب الكسولة، كان لا بد أن يتوقف الطرق، إلا أنه استمرَّ، بل ازداد قوة، وأصبحت الطرقات أكثر إلحاحًا، كأنها عازمة على ألا يعود السيد كويليب إلى نومه مرة أخرى، كما لو كانت تحتج ضد سُباته، لكن السيد كويليب بمجرد أن فتح عينيه، بدأ تدريجيًّا - أو مؤخرًا - في استيعاب وجود أحد ما عند الباب، فاستجمع شتات نفسه، مدركًا أن الوقت يوافق صباح يوم الجمعة، وأنه قد أمر السيدة كويليب سابقًا أن تكون في انتظاره في ساعة مبكرة.

أما عن السيد براس، فاستيقظ أيضًا في التوقيت نفسه، بعد أن انبعجت ملامحه ورسمت الكثير من التعوجات المريبة، ولوى وجهه، واعتصر عينيه، في تعبير أشبه بالتعبير الناتج عن أكل فاكهة "عنب الثعلب" في وقت مبكر جدًّا عن موسمها، نهض السيد كويليب من فوره يرتدي ملابسه اليومية المعتادة في عجالة من أمره، لدرجة أنه ارتدى حذاءه قبل جوربه، ودفع ساقيه إلى داخل أكمام معطفه، محدثًا الكثير من الجلبة والفوضى الشائعة عند كل من يرتدون ملابسهم في المرحاض، في مثل تلك العجالة، محاولين إنجاز ما يفعلون، خاضعين لوطأة سريان انفعالات الاستيقاظ المفاجئ.

حينما أدرك المحامي ما يدور حوله، كان القزم يتلمَّس الأرض أسفل الطاولة، مغمغمًا بلعنات فظة على نفسه وعلى البشرية جمعاء، مطيحًا بكل جماد أمامه، مما دفع السيد براس للتساؤل: "ما الأمر؟".

قال القزم، ناظرًا إليه شزرًا: "المفتاح.. مفتاح الباب.. هذا هو الأمر! هل تعرف أي شيء عن موضعه؟".

رد السيد براس: "كيف لي أن أعرف عنه أي شيء من الأساس يا سيدي؟".

كرر كويليب في أسلوب تهكمي: "كيف لك أن تعرف؟ محام لطيف أنت؟ ألست كذلك؟ ااخ! شخص غبي!".

لم يكن بالأمر المَعني أن يتم توضيح الالتباس للقزم في حالته المزاجية تلك، وأن يقال له إن فقدان المفتاح من قبل أي شخص آخر ليست مسؤولية "محاميه السيد براس"، وأن الأمر ليس له علاقة بمعارفه القانونية في أي درجة من درجاتها بتاتًا، لكن السيد براس أشار في تواضع إلى احتمالية نسيانه ليلًا - دون شك - في ثقب الباب الرئيس. على الرغم من أن السيد كويليب كانت

لديه قناعة عمياء بعكس ذلك، متذكرًا في يقين أنه قد أخرجه بمنتهى الحرص، وعلى الرغم من ذلك كان من المقبول أن يعترف باحتمالية الأمر، وبالتالي ذهب مُتبرِّمًا إلى الباب، حيث وجده بكل تأكيد.
الآن! بمجرد أن وضع السيد كويليب يده على القفل، سقط في حالة من الذهول العارمة؛ فقد وجد القفل مفتوحًا، توالت الطرقات مرة أخرى على الباب، لكنها طرقات بلغت من العنف أشده، حجب ضوء النهار الساطع، النافذ من ثقب المفتاح، حيث حاولت عين بشرية النظر من خلاله. اشتاط غضب القزم، وبلغ ذروته، وقد حسم أمر اندفاعه المفاجئ تجاه أي شخص يقف أمامه، مصممًا على أن يشفي غليل غضبه، ويُحَمِّل السيدة كويليب تبعات الأمر نظير افتعال تلك الضجة المزعجة.
على غرار ما يحدث دائمًا، سحب القزم القفل في صمت وبخفة تامة، ثم فتح الباب في سحبة واحدة، ليجد شخصًا أمامه، يهمّ برفع مقراع الباب، فاندفع نحوه أولًا، منقضًّا بيديه ورجليه في الهواء معًا، مزمجرًا في أقصى درجات الخبث، وتعمد الإيذاء.
برغم ما حدث من تهور واندفاع عارم من السيد كويليب، لم يُبْدِ الشخص الآخر أي مقاومة، أو حتى ناشده الرحمة، حيث انتشل بعيدًا عن كتف زوجته، إلى ما بين يدي رجل أعزل، استقبله بتسديد ضربتين موجعتين إلى رأسه، وأخريين - بالقوة نفسها - إلى صدره، ثم وجه إليه مهاجمه وابلًا من اللطمات المتتابعة، كافيةً لإثبات أنه يقف أمام شخص ذي أيد ماهرة وبارعة في القتال.
هكذا، وجد دانيال كويليب الدم ينبجس من كل مكان في جسده، وقد أصبح مشعَّث الهيئة، مكوَّمًا في وسط الشارع، بينما يتراقص السيد ريتشارد سويفيلر من حوله، يدور ويحور، يسأله: "هل تريد المزيد؟".
قال السيد سويفيلر بينما يتقدم خطوة ويرجع الأخرى متخذًا وضع التهديد: "هناك المزيد إن أردت المزيد، تشكيلة متنوعة وشاملة في متناول يديك - أوامر الشعب مطاعة مع السرعة والنفاذ - هل تريد تلقي المزيد.. هيا! لا تقل لا، إن كنت تفضِّل الأمر ويعجبك".
قال كويليب، وهو ينفض كتفيه: "لقد ظننت أنك شخص آخر.. لماذا لم تقل من أنت؟".
قال ديك: "لماذا لم تقل أنت: مَن أنت؟ بدلًا من الخروج مندفعًا من البيت كما المعتوه؟".
قال القزم، وهو ينهض، لاهثًا متأوهًا: "لقد كنت أنت من طرق الباب! أليس كذلك؟".
رد ديك: "نعم أنا! لكن تلك السيدة..". أشار إلى السيدة كويليب، التي كانت تقف مرتجفة على مسافة قصيرة:"..هي من كانت تطرق الباب في بادئ الأمر، حينما أتيت، كانت تطرق الباب برفق، لذلك نحيتها، وتوليت أنا أمر الطرق".
نظر القزم إلى زوجته في غضب متأففًا، ودمدم: "هووف! أحسب أنها غلطتكِ.. أما أنت يا سيدي، ألا تعرف أن البيت يسكنه مريض، فلا تطرق الباب بتلك الطريقة كأنك تريد هدمه؟".
أجاب ديك: "اللعنة! أتعلم أنه بسبب علمي، طرقته هكذا ظنًّا مني أن البيت أصبح يسكنه ميت!".
قال كوبليب: "أحسب أنك أتيت من أجل غرض ما، فماذا تريد؟".
قال السيد سويفيلر: "أريد أن أعرف كيف حال السيد العجوز، وأتأكد من حالته من نيل نفسها، وأحظى معها بحديث قصير. أنا صديق العائلة، يا سيد.. أو لنقل - كي أكون أكثر موضوعية - إنني على الأقل صديق أحد أفراد العائلة، أظن أنه الشيء نفسه".

قال القزم: "إذنْ يُفضَّل أن تدخل.. هيا يا سيدي! تفضل بالدخول.. تفضلي بالدخول يا سيدة كويليب، سأدخل من بعدك يا سيدتي".
أصاب التردد السيدة كويليب، لكن السيد كويليب أصرَّ على ما قاله. لم يكن فعله بدافع التأدب بأي شكل من الأشكال، وكانت السيدة كويليب على معرفة جيدة بذلك، كانت تعلم أن زوجها يريد منها أن تتقدمه؛ كي تتاح له فرصة مواتية كي يلاحقها ببعض اللكزات والقرصات التي تترك أصابعه بسببها آثارًا لا نهائية من اللونين الأسود والأزرق دائمًا. لم يكن السيد سويفيلر قد ابتعد عنهما، كان يتقدمهما ببضع خطوات فقط، لذلك تملَّكته الدهشة فور سماعه صرخة مكتُومة، ليلتفت سريعًا، ويرى السيدة كويليب تتبعه مع انتفاضة مفاجئة قد أصابتها، على الرغم من ذلك، لم يُبدِ أي تعقيب على ما رآه، وسرعان ما مضى قدمًا متناسيًا ما شاهده.
قال القزم، بينما يدخل إلى المتجر: "أصعدي الدرج الآن يا سيدة كويليب، إذا تفضلتِ، واذهبي إلى غرفة نيل، وأخبريها أننا نريدها".
قال ديك، الذي لم يكن على علم بسلطة السيد كويليب المستجدة: "يبدو لي أنك تفرض وجودك على المنزل!".
رد عليه القزم: "أفرض وجودي! إنه منزلي أيها الشاب الكريم".
تفكَّر ديك، محاولًا استيعاب مقصد كلامه، لكنه انخرط في تفكيره تمامًا، حول سبب وجود السيد براس أيضًا، بينما كانت تنزل السيدة كويليب الدرج مهرولة، معلنة أن الغرف جميعها خاوية.
قال القزم: "خاوية، أيتها المعتوهة!".
أجابته زوجته المرتجفة: "أخبرتك واقع الأمر يا كويليب، لقد فتشت في كل غرفة بنفسي، ولم أجد أي روح تسكن في أي منها".
قال السيد براس وهو في أوج تركيزه ضاربًا كفًّا على كف: "من هنا يتكشَّف لنا غموض أمر المفتاح!".
نظر كويليب إليه عابسًا، ثم انتقل بالنظرة نفسها إلى زوجته، ثم انتهى بها ناظرًا إلى ريتشارد سويفيلر، لكنه لم يتلقَّ أي توضيح يفسر الموقف من أي منهم، فسارع من فوره نحو الدرج صاعدًا، ثم نزل ثانيةً، مؤكدًا على ما سبق إقراره.
قال محملقًا تجاه سويفيلر: "إنه أمر غريب، غريب حقًّا ألا يتواصل معي وأنا صديقه المقرب الودود! آه! سيكتب إليَّ! سيراسلني دون شك.. أو ربما سوف يطلب من نيل أن تراسلني.. نعم نعم، هذا ما سيفعله! إن نيل مولعة بي.. أوه! جميلتي نيل!".
ثبت السيد سويفيلر على حاله، ينظر إليه، فاغرًا فمه، بينما لا يزال يتلقى حملقات كويليب فيه، كويليب الذي إلتفتَ بعد ذلك إلى السيد براس، منوهًا في حرص، أن هذا الأمر لن يتعارض مع سير عملية نقل بضائع المتجر.
ثم أضاف: "في الواقع! نحن على علم بيِّن أنهما راحلان اليوم، لكننا لا ندري أنهما كانا رحلان مبكرًا؛ فلقد رحلا بمنتهى الهدوء. على كل حال لديهما أسبابهما، من المؤكد أن لديهما أسبابهما".
سأل ديك متعجبًا: "أين ذهبا بحق الجحيم؟".
هزَّ كويليب رأسه نافيًّا معرفته، وتدلَّت شفته السفلى، رغم أن تعبيره العام تضمن ظاهريًا معرفته الجيدة بالإجابة على ذلك السؤال، لكنه تحفظ على القول.

قال ديك، منخرطًا في إلتباس أحاط به من كل حدب وصوب: "ثم! ثم ما الذي تعنيه بقولك نقل البضائع؟".
رد عليه كويليب: "لقد اشتريتها كلها يا سيدي! هاا!! ثم ماذا أيضًا؟".
قال ديك في حيرة هائلة: "هل كوَّن ذاك الثعلب الماكر الخبيث ثروته من فعله هذا، ثم ذهب ليعيش في مكان هادئ لطيف وينعم بسكن مريح يطل على البحر الفسيح؟".
أضاف القزم لما قاله، بينما يفرك يديه بشده: "وليبقى في مكان مربح هادئ، حيث لا يتناوب حفيده المقرب أو صديقه المخلص على زيارته كثيرًا.. ها؟ أليس هذا ما تقصده؟ أنا لا أضيف جديدًا.. ولا أعني من قولي أي شيء".
بدا ريتشارد سويفيلر مذعورًا تمامًا بسبب التغيير غير المتوقع لكافة الظروف، التي بدورها تهدد بالإطاحة الكاملة بالمخطط، الذي كان طرفًا رئيسًا فيه؛ فقد تُقتطف تطلعاته من بُرعمها، لقد تلقى خبر مرض العجوز من فريديك ترينت في وقت متأخر من عشية أمسه، وأتى في الصباح باكرًا؛ لتعزية نيل ومواساتها، منفذًا أول خطوة من خطوات مخططه الفاتن الطويل؛ المُعد من أجل أن يغمر قلب نيل في سحره. وهنا! وسط انغماسه في التفكير في جميع أنواع وسائل التقرب الفاتنة والتلميحات الساحرة وتأملاته حول انتقام هادئ من صوفي واكلز، تختفي نيل والعجوز معًا، إلى جانب الأموال، لقد اختفيا كما لو كانا على علم مسبَّق بمخططه، وقررا هزيمته من البداية، أو على نحو أدق قبل اتخاذه أي خطوة فعلية.
في حقيقة الأمر، أخفى كويليب انزعاجًا شديدًا في قرارة نفسه، كما كان يشعر بالضيق أيضًا من هول صدمة هروبهما. لم يكن تزامن اختفاء بعض الملابس الضرورية مع اختفاء الهاربين بالأمر غير الملحوظ بالنسبة إلى عينيه الثاقبتين. كان على دراية بضعف عقل العجوز، لذا كان متعجبًا من كيفية تخطيطه وتدبيره لسلسلة من الإجراءات، التي حظت بكل سهولة ويسر بموافقة الطفلة، مستنكرًا استعداده الكامل لتنفيذها. من غير الممكن افتراض أن السيد كويليب قد يعذبه قلق صادق حيالهما - ففي ذلك ظلم فادح تجاه شخصية السيد كويليب - إلا أنه قد نشأ بداخله شعور بعدم الارتياح، بسبب خوفه من أن يكون العجوز قد احتفظ ببعض المال سرًّا، لأنه عن طريق ذلك سيكون قد تملص من قبضته، وهو الأمر الذي جعله عرضةً للكثير من التوبيخ الذاتي، وجعله يشعر بأن العار يحيط به.
نتيجةً لحالته المزاجية تلك والإطار الذي احتُجز ذهنه بداخله، كان في وقوف ريتشارد سويفيلر منزعجًا، خائب الأمل - للأمر نفسه وإن كانت الأسباب مختلفة - بعض العزاء له. كان من الظاهر أن كويليب ظن أن سويفيلر قد جاء نيابة عن صديقه؛ لإرغام العجوز أو لإثارة الذعر في نفسه؛ من أجل التخلي عن جزء صغير من ثروته، التي افترضا أن لديه وفرة منها. لذلك كان من دواعي الارتياح لديه جعل فؤاده يتميز من الغيظ، عبر ملء ذهنه بصور الغنى الفاحش الذي يعيش فيه العجوز، مسهبًا في مكره، مُبعِدًا نفسه عن إلحاحه.
قال ديك، وقد شردت نظراته: "حسنًا! أظن أنه لا مبرر لوجودي هنا".
قال القزم: "لا أعلم حقيقةً".
قال ديك: "أعتقد أنك ستذكر مجيئي؟".
أومأ السيد كويليب برأسه وقال: إنه بالتأكيد سيفعل فور رؤية أي منهما.

أضاف السيد سويفيلر: "وقل.. قل يا سيدي، إنني حلّقت إلى هنا على جناح المودة، أريد أن أشعل جناح الصداقة، تلك الصداقة التي لم تطرح سوى العنف ودمار القلب، وأن أزرع بذور الوصال الاجتماعي.. إذن هل ستتكرم وتبلغهم ما قلت يا سيدي؟".

قال كويليب: "بالتأكيد!".

قال ديك، مقدمًا له بطاقة صغيرة مهترئة: "هل تعطفت بما يكفي؛ وقدَّمت لهما هذه البطاقة مصحوبة بقولك: إن هذا هو عنواني، وإنني أتواجد في المنزل صباح كل يوم. طرقتان منفصلتان على الباب، وستستجيب الخادمة من فورها في أي وقت. إعتاد أصدقائي المقربون أن يعطسوا، عِندما يُفتح الباب؛ كي يعلماها أنهم أصدقائي، وأنه ليس لديهم أي دافع للسؤال إذا ما كنت في البيت أم لا! أستمحيك عذرًا.. هل سمحت لي أن أتفقد البطاقة مرة أخرى؟".

رد كوبليب: "أوه! بالطبع، كما شئت".

قال ديك، مستبدلًا البطاقة بأخرى: "إنه خطأ بسيط غير معتاد.. لقد سلمتك تذكرة مرور مميزة لمجموعة بهيجة مختارة تُدعى "أبوللو المجيدة" وأتشرَّف بكوني رئيسهم الدائم. هذه هي البطاقة الصحيحة يا سيدي.. صباحك خير".

تمنى كويليب له أيضًا صباحًا طيبًا، رفع الرئيس الدائم لمجموعة "أبوللو المجيدة" قبعته؛ تكريمًا للسيدة كويليب، ووضعها بلا مبالاة مائلة على جانب رأسه مرة أخرى، واختفي في تأنق بالغ.

بحلول ذلك الوقت، وصلت بعض الشاحنات لنقل بضائع المتجر، محملة برجال أقوياء يرتدون قبعات تمكنهم من الحفاظ على رؤوسهم موزونة، حين يقومون بحمل الخزائن وأشياء أخرى فوقها، مفتولي العضلات، يبرزونها في تفاخر، فتضاعف من قوتهم أضعافًا. استحثهم السيد كويليب على العمل بحيوية نشطة؛ تجنبًا للتأخير. شرع يحث الجميع ويدفعهم إلى العمل دفعًا، كأن روحًا شيطانية استحوذت عليه، ألزم السيدة كويليب بإتمام جميع أنواع المهام الشاقة متعذرة التنفيذ، يرغمها على حمل الأوزان الثقيلة نزولًا وصعودًا، مشددًا على ألَّا يظهر عليها أي أثر للإجهاد، وأخذ يركل فتى رصيف الميناء، كلما تمكن من الاقتراب منه، ويلكز كتفي السيد براس بأحماله، مسددًا إليه العديد من اللطمات والضربات العنيفة، بينما كان واقفًا على عتبة الباب؛ ليجيب على جميع استفسارات الجيران الفضوليين، فهذه هي مهمته التي أوكلها إلى نفسه. شاع حماسه في الأجواء، وبين جميع العاملين، لدرجة أنه في غضون ساعات قليلة، أخلي المنزل من كل مقتنياته، عدا رقعات من الحصير وأوان وأوعية فارغة وشظايا متناثرة من القش.

كان القزم جالسًا في الردهة كقائد إفريقي على أحد رقعات الحصير، يتلذذ بطعامه من الخبز والجبن، ويشرب الجعة في بهجة، بينما لاحظ وجود صبي عند الباب الخارجي، يحدِّق ناظرًا إلى الداخل.

تبيَّن فور رؤيته أنه كيت، على الرغم من أنه لم يَبدُ منه سوى جزء صغير من أنفه، فاستدعاه مناديًا إياه باسمه، حيث دخل كيت، وقال له ما يريد.

قال القزم: "تعال إلى هنا أيها السيد! حسنًا.. أتعرف أن سيدك العجوز وسيدتك الشابة قد رحلا؟".

قال كيت، ناظرًا إلى ما حوله: "إلى أين؟".

رد كويليب في حدة: "أتقصد أنك لا تعرف إلى أين؟ لا تعرف أين ذهبا؟ ها؟".

قال كيت: "لا أعرف حقًّا".

رد كويليب حاسمًا: "تعال! دعنا نتوقف عند هذه النقطة، ونتبين مقصدك.. هل تقصد أن تقول إنك لا تعرف أنهما رحلا متسللين سرًّا مع إشراق أول شعاع من ضوء الصباح؟".
قال الصبي وقد ظهر عليه هول المفاجأة: "نعم!".
صاح كويليب: "ألم تكن تعرف ذلك أيضًا؟ أتحسب أنني لا أعلم أنك كنت تتسكع خارج المنزل تلك الليلة، مثل اللصوص.. ها؟ ألم تكن تدلُّهم على فعلهم؟".
رد الصبي: "نعم!".
قال كويليب: "ألم تفعل؟ حسنًا! قل لي ماذا أخبرتهم؟ ما الذي تحدثتما بشأنه؟".
علم كيت أنه لزام عليه إبقاء الأمر سرًّا الآن، حتى وإن لم يكن يستند إلى سبب محدد لفعل ذلك، تكتَّم ولم يقل أي شيء، يخص غرضه الذي جاء من أجله سابقًا، متحفظًّا على العرض الذي قدمه.
قال القزم بكثير من الانتباه: "أوه! أحسب أنهما سيأتيان إليك".
صاح كيت في حماس: "أتحسب أنهما سيأتيان إلى فعلًا؟".
رد القزم: "اهمم! أحسب ذلك. الآن! حينما يفعلان ذلك، ستخبرني بكل تأكيد.. أتسمع ذلك؟ أريد فقط أن أُحيطهما بعطف جليل، ولن أستطيع إحاطتهما بالعطف الجليل الذي أكنه لهما، إذا لم أكن على علم بمكانهما.. أتفهم ما أقول؟".
كان كيت قد أعدَّ بعض الإجابات غير المستحسنة لسائله الغاضب، لكن فتى رصيف الميناء صاح عاليًا، بينما كان يتسلل ما بين الغرف؛ متفقدًا ما إذا كانوا قد نسوا شيئًا عن طريق الخطأ، قائلًا: "لقد وجدت طائرًا! ما الذي يتوجب عليَّ فعله بشأنه؟".
قال كوبليب: "دق عنقه".
قال كيت، متقدمًا بضع الخطوات: "أوه! لا لا.. لا تفعل ذلك، أعطني إياه".
صاح الفتى الآخر: "أوه! نعم.. تعال تعال! أتحداك أنك لن تأخذ سوى القفص وحده، بعد أن أكون قد دققت عنق الطائر؛ لقد قال لي أن أفعل ذلك، وسأفعل ذلك، ولن تأخذ سوى القفص وحده".
زمجر كويليب: "أعطني إياه، أحضره إلى هنا في الحال أيها الكلب.. تعاركا من أجله يا كلاب، وإلا دققت عنقه بنفسي!".
دون المزيد من المفاوضات، انقضَّ الصبيان أحدهما على الآخر، استجمع كل منهما قواه؛ ليتعارك مع الآخر، بينما يجلس كويليب ممسكًا بقفص الطائر بيد واحدة، وينبش بسكينه الأرض باليد الأخرى في حالة من النشوة، يحثهما بصيحات وتوبيخات ساخرة على الاقتتال بعنف أكبر.
كان عراكًا متكافئًا إلى حد كبير، يتناوبان الضربات، يدور أحدهما حول الآخر، يسددان لكمات قوية، بعيدة كل البعد عن أن تكون مزاح صبية، ظلَّا هكذا، حتى سدد كيت لكمة عنيفة إلى صدر خصمه، وحلَّ نفسه من بين ذراعيه، وانزلق مفلتًا منه، ناهضًا من فوره في قفزة سريعة، من ثم خطف القفص من يد كويليب، حائزًا على جائزته.
أسرع بخطواته نحو بيته دون أن يتوقف ولو للحظة واحدة، بمجرد أن وصل، تسبب في حالة من الذعر انتابت الجميع، وبكى الطفل الأكبر بكاءً مخيفًا.
صاحت السيدة نابلز: "الرحمة يا رب! ماذا حدث لك يا كيت؟ ماذا فعلت؟".

أجاب ابنها، وهو يمسح وجهه بمنشفة وراء الباب: "لا شيء يا أمي.. لم يصبني مكروه، لا تخافي من أجلي. لقد تعاركت من أجل عصفور، وانتصرت، ونلته، هذا كل شيء. أخفضْ صوتك يا جايكوب، كفَّ عن البكاء، لم أر في حياتي كلها طفلًا مشاغبًا مثلك!".
قالت والدته؛ لتستفهم: "لقد تعاركتَ من أجل عصفور!".
رد كيت: "آه! لقد تعاركتُ من أجل عصفور.. لكنه عصفور الأنسة نيلي يا أمي. كانا سيدقان عنقه! لكنني أوقفتهما عند حدهما.. ها ها ها! لن يدقا عنقه أبدًا، ما دمت هنا.. لن يفعلا ذلك أبدًا يا أمي! لن يفعلا ذلك على الإطلاق. ها ها ها!".
ظل كيت يضحك ضحكات متتابعة مفعمة بالحرارة، بينما كان يمسح وجهه المليء بالكدمات، سحب المنشفة فجأة، ناظرًا إلى جايكوب الصغير، ما جعله يضحك، فضحكت أمه لضحكهما، ثم أخذ الرضيع يتبسَّم راكلًا برجليه دافعًا يديه في الهواء في فرح كبير، عمَّ الضحك والسرور، لم يكن بسبب كونهم فرحين بانتصار كيت فقط، بل بسبب أنهم كانوا مترابطون يحبون بعضهم، عندما فرغوا من ضحكهم، عرض كيت العصفور على كلا الطفلين، كأنه شيء نفيس نادر - على الرغم من كونه عصفور السَّمنة المألوف - نظر الحائط؛ باحثًا عن مسمار، وضع كرسيًّا على طاولة صانعًا منه سقالة، وقف عليها، وأخذ يدير القفص ويلفه تعتريه السعادة الغامرة.
قال الصبي: "حسنًا! دعوني أرى الآن! أعتقد أنني سأعلقه في اللفاف؛ لأنه أكثر إضاءةً وبهجةً، ويمكن للعصفور رؤية السماء، إن نظر فقط إلى الأعلى، إن زقزقته غنَّاء.. يمكنني التأكيد على قولي هذا!".
لذلك قام بتغيير موضع السقالة التي ابتكرها، واعتلاها مرة أخرى - حاملًا في يده مذكي النار كأنه مطرقة - حيث دق المسمار، ثم علَّق القفص على مرأى من جميع عائلته؛ ليسعدهم كافة. بعد أن أنهى ضبط وتعديل وضع القفص مرات ومرات، نزل وسار إلى الخلف، ناظرًا إليه، يتخلله إعجاب عارم، نمَّ عن مثالية ما توصَّل إليه.
قال الصبي: "الآن يا أمي! قبل أن أحظى ببعض الراحة، سأخرج لأتبين إذا كان بإمكاني الإمساك بأي حصان، لأبتاع كمية من بذور الطيور، وشيئًا لطيفًا من أجلكِ من العمل الذي سأتمه".





الفصل الرابع عشر

كان من السهل على كيت أن يقنع نفسه، بأن مروره أمام البيت القديم سيكون صدفة، بينما يكون ماضيًا في طريقه، فطريقه هو أي طريق يمكن أن يذهب فيه. حينما وصل إلى هناك، ومرَّ أمام البيت، تملَّكته رغبة النظر إليه مرة أخرى، كانت تلح عليه كأنها ضرورة حتمية، رغم أنها كانت رغبة غير مقبولة، بعيدة كل البعد عن فعل اختار أن يفعله بحريته كاملها، بل أرغمته نفسه على هذا الفعل. لم يكن غير شائع بين الناس الذين حظوا برعاية وتعليم أفضل بكثير مما حظى به كريستوفر نابلز، أن يقوموا بواجبات دفعتهم إليها رغباتهم الذاتية، في إطار من آداب إجتماعية ملتبسة، وأن يلقوا استحسانًا بسبب إنكار الذات، الذي يرضون أنفسهم به.
لم يكن كيت هذه المرة في حاجة إلى أن يقتات على حذره، فقد تقدم دون أن يعتريه خوف الاحتجاز، أو خشية أن يعود إلى العراك ثانية مع فتى دانيال كويليب. بدا المكان مهجورًا، منكوبًا تحت طبقات من التراب، موحشًا، كما لو كان على هذا الوضع منذ شهور عدة. أغلق الباب بقفل صدئ، تطايرت أطراف الستائر الباهتة خارج نوافذ الطابق العلوي نصف المفتوحة، لم يظهر سوى سواد ظلام البيت من ثقوب معوجة في المصاريع المغلقة أدناه. وقف شاخصًا إلى النافذة التي اعتاد النظر إليها في كثير من الأحيان؛ لكن جزءًا من زجاجها كان قد تهشم بسبب ما كانوا عليه من عجالة ذاك الصباح، بدت تلك الغرفة موحشة ومقفرة أكثر من غيرها. جلست مجموعة من الأطفال المشردين على أعتاب الباب، يشغلونها كلها تمامًا، أخذ بعضهم يطرقون مقراع الباب في استمتاع، يسمعون في سرور الأصوات المجوفة، التي ذاع صداها في أجواء البيت الشاغر، بينما تجمهر البعض الآخر؛ يتناوبون على النظر عبر ثقب المفتاح، مدَّعين في جدية خالطها المزاح وجود (شبح) في الداخل، لم يقتصر الأمر على هذا المشهد فحسب، بل شاع الغموض مستحوذًا على أذهان القاطنين حول البيت؛ بسبب هيئته المظلمة الموحشة، التي لم يمضِ عليها سوى ساعة واحدة، انتصب البيت وسط هذا الكم من الصخب، ووسط تلك المشاهد، بمفرده، تهيمن عليه صورة من الخراب والكآبة والعزلة الباردة، وظل كيت واقفًا أمامه، يتذكر النيران التي كانت تشعل في الأمسيات الشتوية، فتشيع البهجة والدفء، وصوت الضحكات المجلجلة، التي رنَّ صداها مدويًا في الغرف، يستنكر ما آل إليه الوضع، فقد تغيَّر كل شيء إلى حزن رتيب. إذا تحول التعقيب نحو ما هو خاص وموضوعي، يجب ذكر أن كيت المسكين لم يكن بأي معنى من المعاني فياض المشاعر من قبل، ربما لم يسمع تلك الصفة قط طوال حياته. على الرغم من أنه لم يكن لبقًا أو مهذبًا، كان صبيًّا طيب القلب ورفيقًا مخلصًا، لذلك، بدلًا من أن يعود مرة أخرى إلى بيته ويتجرع آلامه هناك ويشاكس أخويه الصغيرين، أو يسيء معاملة والدته، (على النحو الذي معه إذا كان أحد المقربين غير سعيد، فسينقل الشعور نفسه حتمًا لمن حوله)، آلت أفكاره جميعها نحو تنفيذ أي حيلة وإن كانت مبتذلة تكون نتيجتها جعلهم أكثر راحة.
فليباركنا الرب! كم من سادة أجلاء كثر يمتطون أحصنتهم ذهابًا وإيابًا، وكم من عدد قليل منهم يريدون أحدًا كي يُمسك أعنة أحصنتهم! يمكن لسمسار جيد يعمل في المدينة، أو حتى مفتش برلماني أن يخبرنا بالإجمالي وبالكسور، بالاستناد إلى الحشود المتجولة، مقدار الأموال التي جُنيت من الإمساك بالأحصنة فقط على مدار عام كامل، سيكون بالقدر الكثير حتمًا دون أدنى شك. إذا

شرع سيد واحد من بين عشرين سيدًا في الترجل، دون مساعدة من السائس - رغم أنهم في واقع الأمر لن يفعلوا - غالبًا ما كانت الأمور لتؤول إلى وضع يرثى له، يثبط نتائج أكثر التقديرات إحكامًا في العالم.
الآن! شرع كيت في المضي قدمًا، أحيانًا يندفع في خطوات سريعة، وأحيانًا أخرى يتمهل في خطوات بطيئة، يتوقف في مكانه إذا تباطأ راكب وخفف من سرعة حصانه ناظرًا إليه، أو يهرول في سرعته القصوى نحو الشارع، إذا لمح نظرات موجهة نحوه من ممتطي الخيول، السائرين على الجانب المظلم من الطريق، موحيين بوقوفهم أمام أي باب في أي لحظة. لكنهم جميعًا رحلوا، واحدًا تلو الآخر، ولم يجن كيت بنسًا واحدًا، فحدثَّ الصبي نفسه: " أتساءل حقًّا، لو أن أحدًا من هؤلاء السادة علِم أن لا شيء في خزانة المنزل، ساعتها كان سيتوقف من فوره عن عمد، يريد مني إيصاله للمكان الذي يطلبه، وكنت حينها لأكسب أي شيء، أم لم يكن ليفعل؟ ".
مضى كيت متعبًا من كثرة المشي عبر الطرقات والشوارع، لم يزد بقولٍ واحد عن خيبات آماله المتكررة، فجلس على أحد الأرصفة؛ ليستريح قليلًا، بينما كان على حاله نفسه، مرَّت أمامه عربة صغيرة ذات أربع عجلات تصدر قعقعة صاخبة، يجرها مهر صغير عنيد المظهر ذو فرو خشن، ويوجهها رجل عجوز سمين هادئ الملامح. كان يجلس إلى جانب ذلك السيد العجوز سيدة ممتلئة قليلًا ذات ملامح هادئة مثله تمامًا، أما المُهر فقد كان طوال الطريق يسير وفقًا لما يريد، يزيد من سرعته أو يقلل منها حسب ما تمليه عليه رغبته. إذا احتج السيد العجوز على فعله، من خلال هز الزمام، ردها عليه المهر هازًّا رأسه أيضًا، كان من الواضح أن أقصى ما يوافق المهر على إتمامه هو أن يسير في الطريق الذي يريد العجوز اجتيازه فقط وفقًا لأسلوبه الخاص في السير، وقد تبيَّن وجود تفاهم كامل فيما بينهما، متمثلًا في إدراك العجوز أن المُهر إذا لم يسر وفقًا لرغبته متبعًا أسلوبه، سوف يتعنت ولن يسير على الإطلاق.
حينما مروا أمام المكان الذي جلس فيه كيت، نظر كيت إليهم في حزن دفين، لكن السيد العجوز بادله النظرات. قام كيت من فوره ووضع يده على قبعته تحية لهم، منضمًا إليهم في لطف، بينما كان العجوز يصرخ في مهره يريد استيقافه – وذاك كان بالأمر الذي نادرًا ما يعترض على فعله من ضمن شتى فروضه - قال كيت: " أستمحيك عذرًا يا سيدي! لقد توقفت أمامي، أريد معرفة ما إذا كنت تقصد سائسًا لحصانك أم لا! ".
رد عليه السيد العجوز: " سأترجل عند وصولي إلى الشارع القادم، إذا أردت أن تأتي في أثرنا، سيكون لك ما طلبت ".
شكره كيت بحرارة، وأطاع أمره في سعادة بالغة. انطلق المهر بقفزة حادة؛ من أجل أن يتفقد مصباحًا على جانب الطريق، ومن ثمَّ انحرف على نحو مفاجئ تجاه عمود إنارة على الجانب الآخر من الطريق، بدا عليه الرضى بعد أن تبين له أنهما مصنوعان من المادة نفسها تقريبًا ولهما النمط نفسه، وبعدها توقف منتشيًا.
قال السيد العجوز بكل جدية: " هل ستسير بنا يا سيدي، أم سنظل هنا منتظرين إلى أن يفوت الوقت ولا نتمكن من اللحاق بموعدنا؟ ".
مكث المهر ثابتًا.
قالت السيدة: " أوه! إنك حقًّا مشاغب يا ويشكر! عار عليك! أنا في أشد الخجل فعلًا من سلوكك ".

بدا على المُهر أنه قد تأثر بقولها الذي خاطب مشاعره؛ فخَبَّ المُهر مباشرةً، وهرول بيمينيه ويسريه جميعًا في سلوك مبهم، ولم يتوقف مطلقًا حتى أوصلهم إلى مقصدهم أمام باب معلَّق عليه صفيحة نحاسية، تحمل كلمات (ويزردن - كاتب العدل). ترجَّل السيد العجوز، وساعد من فوره السيدة على النزول، ثم أخذ من أسفل مقعده باقة زهر صغيرة تشبه في حجمها وشكلها الوعاء النحاسي الذي يوضع به الجمر لتدفئة الفراش، لكنه من دون مقبضه الطويل. هنا، حملته السيدة، ودخلت إلى المنزل في هدوء وجلال فخم، وتبعها على مقربة منها السيد العجوز - صاحب الرجل الحنفاء، فمشى على ظهر قدميه من ناحية الخنصر.
كان من السهل تبيَّن من صوتيهما، أنهما قصدا الردهة الأمامية، التي شابهت نوعًا ما من المكاتب. كان اليوم دافئًا، والشارع بالخارج هادئًا، وكانت نوافذ المكتب مفتوحة على مصراعيها، فيمكن سماع أصواتهم دون أي استراق للسمع من خلال الستائر الفينيسية المسدلة إلى الداخل.
تبادرت إلى مسامعهم فور دخولهم أصوات سلام الأبدي ووقع الأقدام وتقديم باقة الزهر. تميَّز من بين الأصوات المسموعة، صوت السيد ويزردن كاتب العدل حيث يمكن تفريقه عنها، يهتف بصوت جهوري عدة مرات: " أوه! رائع... أوه! عطر فواح فعلًا "، وكذلك كان من الممكن تمييز صوت تنفسه، وهو يستنشق رائحة الزهر في منتهى الاستمتاع واللذة.
قالت السيدة: " لقد أحضرت لك هذا تكريمًا لهذه المناسبة يا سيدي ".
رد عليها السيد ويزردن، كاتب العدل: " آه! لهذه المناسبة! إنه لشرف لي يا سيدتي.. إنه لشرف عظيم لي.. لقد أتاني الكثير من السادة يتدربون لديَّ يا سيدتي، الكثير فعلًا. أصبح معظمهم الآن سادة أغنياء، يتمتعون بثرواتهم، لكنهم متغافلون تمامًا عن رفقائهم القدامى وأصدقائهم يا سيدتي، لكني إحقاقًا للحق، يجب أن أقول: إن هناك آخرين اعتادوا على التواصل معي في مثل هذا اليوم؛ قائلين: " إن أفضل أوقات حياتهم قد قضوها في ذلك المكتب.. قضوها على هذا المقعد.. ومع ذلك، لم يكن هناك أحد وسط هذا الجمع يا سيدتي، ارتبطتُ به، وتنبأت بمستقبله الباهر، مثلما فعلتُ مع ابنك الوحيد ".
قالت السيدة: " أوه يا عزيزي! إنك حقًّا لا تعرف مقدار السعادة التي نشعر بها حينما تخبرنا بذلك! ".
قال السيد ويزردن: " إنني أخبرك يا سيدتي، ما أظنه حقًّا مثل أي رجل صادق، كرجل يتفق مع شاعر يتأمل عظمة ما خلق الرب، ويستشعر معه كل آيات الجمال يا سيدتي. فما بين شموخ جبال الألب العالية، وصغر طائر الطنان، لا شيء يضاهي براعة عمله، وهذا ما يظنه
أي رجل نزيه حقًّا.. أو سيدة ".
تردد على المسامع صوت خافت، يقول: " إن أي شيء يقوله السيد ويزردن في حقي ينبغي أن أقوله أضعافًا تمجيدًا له، وأنا في كامل اعتزازي وشكري... أنا متأكد ".
قال كاتب العدل: " إنه ظرف سعيد.. إنه لظرف سعيد حقًّا، أن يتوافق مع هذا الحدث، بلوغه الثامنة والعشرين من عمره، أريد حقًّا أن أعرف كيف يمكن أن أعبر له عن تقديري. أنا أثق تمامًا، يا سيد جارلاند، يا سيدي العزيز، أننا يجب أن نتبادل التهنئة على هذه المناسبة
الميمونة ".
رد السيد العجوز عليه أنه يجب عليهما فعلًا الاحتفال بالأمر معًا. ثم تبيَّن من صوتيهما أنهما يتصافحان بالأيدي من أجل اتفاقهما، حينما فرغا من ذلك، قال السيد العجوز: إنه على الرغم من

وجوب عدم التصريح بذلك، إلا أنه يريد الإعراب عن أنه ليس هناك ابن عظيم قد يمثل راحة لوالديه أكثر مما يمثل ابنه هابيل جارلاند له:

" بعدما تزوجت والدته يا سيدي، في وقت متأخر من العمر، انتظرنا معًا سنوات عديدة طوالًا، إلى أن أصبحنا في وضع جيد بما فيه الكفاية.. كبرنا معًا، ولم نعد صغارًا، وبعد هذا العمر كله، رُزقنا أخيرًا بطفل واحد كان لنا مطيعًا وحنونًا.. كان لكل منا على حد سواء مصدر السعادة ومنبعها، يا سيدي ".

قال كاتب العدل، بصوت يغمره التعاطف: " بالطبع هو كذلك، دون أدنى شك.. إن التفكر في أمر كهذا يجعلني آسفًا جدًّا على مصيري؛ بسبب كوني عازبًا حتى الآن. لكني أود أن أعترف لك يا سيدي أنه ذات، مرة كان هناك سيدة شابة جميلة كانت ابنة المسؤول الأول للتوريدات في المستودع. كانت بمثابة موطن ضعفي حقًّا.. دعنا من ذلك الأمر.. يا تشوكستر، أحضر أوراق السيد هابيل ".

قالت السيدة: " كما تلاحظ يا سيد ويزردن أن هابيل لم ينشأ مثل الشباب الآخرين. كان متكيفًا مع مجتمعنا طوال الوقت، وكان إلى جوارنا. إن هابيل لم يتغيب عنا أبدًا، ولو ليوم واحد، أليس كذلك يا عزيزي؟ ".

رد عليها السيد العجوز: " بالتأكيد يا عزيزتي لم يتغيب، باستثناء تلك المرة التي ذهب فيها إلى مارغريت يوم السبت مع السيد تومكينلي الذي عمل مدرِّسًا في تلك المدرسة التي كان يذهب إليها، وعاد إلينا يوم الاثنين في حالة يُرثى لها هزيلًا ومريضًا.. أتتذكرين ذلك يا عزيزتي! لقد كان أمرًا رهيبًا ".

قالت السيدة: " لكنك تعرف أنه لم يعتد على فعل مثل تلك الأمور، ولم يكن بمقدوره تحملها، وتعرف أيضًا أن هذه هي الحقيقة، إلى جانب أنه لم يشعر قط بالراحة طوال وجوده بعيدًا عنا، ولم يكن لديه أحد يتحدث إليه، أو حتى يستمتع معه ".

قال الصوت الخافت نفسه، الذي تحدث من قبل: " لقد كان الأمر كذلك فعلًا، وأنتما تعلمان ذلك! لقد كنت في الخارج - يا أمي - بائسًا تمامًا، لم أفكر سوى في البحر الذي يفصل بيني وبينكم.. أوه، لن أنسى أبدًا شعوري عندما فكرت أول مرة في أن البحر يفصل بيننا! ".

عقَّب كاتب العدل: " إنه الأمر طبيعي جدًّا في ظل هذه الظروف، إن مشاعر السيد هابيل تتأثر بطبيعته، وطبيعتك يا سيدتي، وطبيعة السيد الوالد أيضًا، وبالطبيعة البشرية على حد سواء. إنني أستشعر الحالة نفسها الآن وفقًا لتصرفاته الهادئة وأفعاله غير المزعجة.. أوشك على التوقيع باسمي في آخر الأوراق، واضعًا إصبعي على هذه الختامة الزرقاء على شاكلة الرسام (فانديك)، وسيكون السيد تشوكستر شاهدًا.. أستمحيك عذرًا سيدتي؛ إنني حقًّا مضطر أن أعقِّب في صوت عالي النبرة، فلا تفزعي، إنه مجرد شكل من الأشكال التي يوجبها علينا القانون.. بمجرد وصولي لهذا، سأكون قد أتممت فعلي. سيتوجب على السيد هابيل فقط أن يوقع باسمه على الجانب المقابل، ويكرر الكلمات المعينة نفسها، ومن ثمَّ ينتهي العمل تمامًا، ها ها ها! أتلاحظون مدى سهولة إتمام تلك الأمور! ".

أعقب ذلك لحظة من الصمت، انتقل فيها السيد هابيل إلى إتمام فعله بالشكل المنوط به، ومن ثمَّ توالت أصوات مصافحة الأيدي، وتجدد صوت وقع الأقدام مرة أخرى، وبعد مرور فترة وجيزة، تعالت أصوات قعقعة كؤوس الخمر، وأصوات ثرثرتهم المختلطة. بعد مضيٍّ ما يقارب

الربع ساعة، ظهر السيد تشوكستر، عند الباب، يضع قلمًا خلف أذنه، أحمر الوجه من أثر الخمر، ينادي على كيت في عطف، بلقب يقصد من ورائه المرح قائلًا: " أيها المتملق الصغير "؛ ليعلمه أن الزوار متأهبون للخروج.
فور خروجهم، كان السيد ويزردن - الذي اتضح أنه كان قصيرًا، سمينًا، منتعشًا، مفعمًا بالحيوية، متسمًا بالفخامة - يتقدم في تأدب شديد، مع السيدة نحو الخارج، ويتبعهما الوالد والابن متأبطي الأذرع. اتَّسم ذوق السيد هابيل بقدم الطراز، لدرجة أن مظهره جعله يبدو في عمر يماثل عمر والده تقريبًا، تبين أن تشابهًا عجيبًا في ملامح الوجه والهيئة وأناقة الملبس قد جمعت بينه وبين والده، وبغض النظر عن أنه استعاض عن امتلاء جسده وبهجته بتحفظ خجول، لكنه كان مماثلًا لوالده تمامًا من شتى النواحي الأخرى، لدرجة أن رجله الحنفاء كانت تشبه رجل والده أيضًا، لذلك يمكن الجزم بأنهما قد كانا شبه متطابقين تمامًا.
بعد أن اطمأنَّ إلى أن السيدة تجلس على مقعدها، بعد أن عدلت من وضع معطفها، مستريحة في مساحتها الصغيرة المخصصة لها في العربة التي لا يمكن استبدالها بمكان آخر، صعد السيد هابيل على الصندوق الخلفي الصغير في العربة، كان من الجلي أنه تمت تهيئته له خصيصا، ومن ثمَّ تبسم لكافة الحاضرين في تتابع، بدءًا من والدته، وانتهاءً بالمهر. كان من الشاق إرغام المهر على أن يرفع رأسه لإبقاء لجامه مشدودًا، لكن الأمر على كل الأحوال كان فعَّالًا، فتمكن السيد العجوز في النهاية من أن يجلس على مقعده، متوليًا الإمساك بلجام المهر، بعد أن استراح في موضعه، وضع يده في جيبه؛ كي يخرج ستة بنسات من أجل كيت.
بعد البحث والتفتيش، تبيَّن أنه لم يكن معه ستة بنسات، ولم يكن مع السيدة أيضًا، حتى السيد هابيل، أو كاتب العدل، أو السيد تشوكستر، فكر أنه إذا أعطى كيت شلنًا، سيكون مبلغًا كبيرًا مقابل الخدمة التي قدمها، وساعتها لم يكن هناك حولهم أي متجر للحصول على فكة، لذلك في نهاية الأمر، لم يجد أي حل آخر فأعطى الصبي الشلن كاملًا.
قال مازحًا: " خذ هذا الشلن، لكنني سأعود إلى هنا مرة أخرى، يوم الاثنين المقبل في الوقت نفسه، لذلك كن في الجوار يا فتاي الصغير؛ لتكمل العمل مقابل ما أخذته ".
قال كيت: " سأكون متواجدًا هنا بكل تأكيد.. شكرًا جزيلًا لك! ".
لقد بدا أثناء قوله جادًّا جدًا، رغم أنه قد تعالت ضحكات كل الحاضرين على ما قال، خاصةً السيد تشوكستر، الذي أطلق ضحكاته عاليًا، مستمتعًا في سرور بشكل يثير الدهشة. استشعر المهر في حس استباقي أن المظهر العام يشير إلى أنهم ذاهبون إلى المنزل، أو أنه لن يذهب إلى أي مكان آخر - وذلك بالنسبة له يعني النتيجة نفسها - فهرول مسرعًا في لمح البصر، لدرجة أن كيت لم يكن لديه الوقت الكافي ليوضح جديته الشديدة فيما قال، لذلك لم يكن أمامه سوى أن يمضي في طريقه أيضًا. بعد أن أنفق كنزه الذي كسبه في شراء احتياجات المنزل، دون أن ينسى شراء البذور لعصفوره البديع. هرول مباشرة بقدر ما أوتي من سرعة عائدًا إلى منزله، مبتهجًا بما جناه، سعيدًا بنجاحه، لدرجة أنه بات يطمح إلى أن يجد نيل والعجوز قد وصلا قبله إلى هناك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الخامس عشر

صباح يوم رحيلهما، بينما كانا يتخبطان في شوارع صامتة في المدينة، ساورت الطفلة مشاعر مختلطة، ارتعدت روحها بسببها؛ فقد تسلل إليها شعور بالأمل، لكن الخوف يسكنه في الحين ذاته، رأت هيئة مشوشة على مسافة بعيدة؛ صورت لها نفسها أنها شبيهة بهيئة كيت، أو ربما هو كيت المخلص نفسه. على الرغم من أنها كانت على وشك مد يدها في حرارة نتيجة سرور بالغ أصابها؛ تريد أن تحييه وتشكره عما قاله لها في لقائهما الأخير، وأنه حقًّا من دواعي الارتياح العثور عليه ومقابلته في ظل ما يحدث، لكنها اكتشفت فور اقترابهما من أحدهما الآخر، أنه ليس بالشخص المقصود، كان شخصًا غريبًا، إذا لم تكن هي من فزعت حقًّا، بسبب تأثير ما اكتشفته للتو، فقد كان رفيق سفرها هو من أصيب بالاضطراب والفزع تمامًا، شعرت حينها أن توديع أي شخص الآن، وخاصة من كان لها مخلصًا للغاية وصادقًا، سيكون أكثر مما يمكن لقدرتها أن تتحمله. فقد كان كافيًا، أن تترك كل الأشياء السخيفة خلفها، وأن تترك من لم يستشعر حبها وحزنها، وأن تترك صديقها الوحيد مبتعدةً عنه على مشارف ذلك الترحال، وهو ما يعتصر قلبها في الواقع.

لماذا نتحمل انفصال الأرواح عن بعضها، أفضل من تحمل انفصال أجزاء الجسد الواحد عن بعضه، بينما نجلد ذاتنا في الواقع حين الفراق؟ لماذا لا يكون لدينا عصب ينزف حين الفراق، فيدلي بحقيقة ما نشعر؟ لماذا في عشية الرحلات الطويلة، أو بعد غياب دام لسنوات عديدة، يتبادل الأصدقاء، مصافحات يد باردة، برغم الحنين الذي يكنونه لبعضهم؟ لماذا ينفصلون مع النظرة نفسها، والتشديد المعتاد على قبضة اليد، يخططون للقاء أخير في يومهم المقبل، بينما يعرف كل واحد منهم على حد سواء، أنها مجرد خدعة مبتذلة، يتماكرون بها على أنفسهم؛ من أجل انتشال أنفسهم من الشعور بالألم، من أجل تجنيبهم التفوه بتلك الكلمة الواحدة، مدركين أن ذلك اللقاء، لن يحدث مطلقًا؟ هل يجب أن يكون تحمُّل الاحتمالات أكثر مشقة من تحمُّل اليقين؟ فلا نتجنب أبدًا أصدقاءنا المحتضرين، عالمين بحتمية رحيل الواحد منهم، نتركهم بعد أن نغمرهم بكل اللطف والعطف، مدركين أن الوداع سوف يزيد من مرارة ما بقي من الحياة.

مع أول إشراق لأضواء الصباح، بدت المدينة في حالة من النشوة؛ فاندثرت المعالم الموحشة، والانطباعات المزعزعة لسكينة النفس، التي كانت عليها طوال الليل، تبدو الآن متبسّمة، تتراقص على نوافذ بيوتها أشعة الشمس اللامعة، متلألئة على الستائر أمام أعين النائمين، تلقي بنورها على أحلامهم، فتنقشع ظلال الليل. تستشعر الطيور في أقفاصها المظلمة المغلقة دفء ضوء النهار، فتنفض ريشها من نوم غير مريح داخل أقفاصها الضيقة، تعود فئران الليل ذات الأعين اللامعة، إلى جحورها الدفينة، متسللة تختبئ معًا في مأواها، تجلس قطط المنازل ملساء الشَّعر في سكينة متغافلة عن طرائدها مطروفة العينين، تنظر إلى شعاع الشمس المتخلل من ثقب المفتاح وثقوب الباب المتصدع، تتوق في شغف إلى اللحظة التي ستختلس فيها انطلاقها إلى الخارج، نحو دفء أشعة الشمس المباشرة، حيث تقف الحيوانات دون حراك في أوكارها، هامدة خلف الأسوار، تحدق بأعين ذات لمعة خافتة، إلى أفرع الأشجار المهتزة، في الأيكة القديمة، فترحف نحوهم أشعة الشمس من النوافذ الصغيرة، تنطلق داعسة في تهور المساحة المحددة لأقدامها

المكبَّلة، ثم تتوقف وتحدق من جديد. يمدد الرجال حبيسي السجون، أطرافهم المتشنجة من البرد، يلعنون أكوام الحجارة التي تحدهم من كل جانب، حاجبة عنهم ضوء السماء، ودفء النهار. تتفتح الأزهار، التي باتت طوال الليل تضم أوراقها على بعضها، كأنها تفتح أعينها لتنظر إلى الضوء وتستمتع برؤيته. انبثق النهار، واتسعت طاقة نوره في كل حدب وصوب، وتخللت إلى أرواح الخلق.
مضى المرتحلان معًا، متشابكي الأيدي، يتآزران، يتبادلان الابتسامات، والنظرات المبتهجة فيما بينهما، يسعيان نحو طريقهما في صمت، سعيدين ومشرقين كما اعتادا أن يكونا، لكن شيئًا مهيبًا كان قد اجتاح الشوارع المهجورة، فبدت الشوارع كأجساد دون أي أرواح تسكنها، فرَّت منها روحها وتعبيراتها المعتادة، تاركة لها ثوب الموت يسكنها، فتشابهت جميعها. كان كل شيء تظهر عليه أمارات الساعات المبكرة من الصباح، باستثناء قلة قليلة من الناس، شاحبي الوجوه، بالقدر الذي جعلهم غير متآلفين مع المشهد الصباحي، بدوا عاجزين، كمصابيح مشتعلة، هنا وهناك، لا يُلمح ضوؤها أو يسطع في ضوء الشمس الوهَّاج بكامل لمعانه.
قبل أن ينطلقا بعيدًا، ويتوغلا عبر تشعبات المساكن، التي تفصل بينهما وبين أطراف المدينة، كان نور الصباح قد أشرق، وشاع الصخب، ودبت الحياة حيثما كانا. حلَّ صوت صرير العربات والحافلات محل الصمت المطبق، مبددًا سحر هدوء الصباح، ظلت تتعاقب العربات الواحدة من وراء الأخرى في تتابع دون انقطاع، إلى أن ازدحمت الشوارع. ما كان مثيرًا للعجب حقًّا في البداية رؤية نوافذ المتاجر مفتوحة في ذلك الوقت المبكر، لكن ما تبيَّن لاحقًا هو أن رؤيتها مغلقة هو الأمر نادر الحدوث. تصاعد الدخان ببطء من المداخن. رفعت أطر النوافذ سامحة بتخلل النسمات، فُتحت الأبواب على مصاريعها. ظهرت الخادمات كسولات - بما تحمله الكلمة من معنى- على الرغم من أن مقشاتهن كوَّنت سحبًا بنية من الغبار، طافت أمام الأعين الناعسة للمارة، استمعا على نحو بائس إلى أصوات بائعي اللبن ذات الصدى الذائع بين أسواق البلدة، مارين في الأزقة بعرباتهم المظللة، صارا يتساءلان عما سيصادفان رؤيته، في الساعة التالية من رحلتهما.
اجتازا معًا ذاك الحي، وأصبحا عندئذ في مكان تنتشر فيه المتاجر، ويكثر فيه الازدحام؛ حيث يتردد عليه وفود من الناس، وتكثر فيه الأعمال التجارية. بهت العجوز من فوره، وبات يحدق في ما حوله في ريبة، ويتملكه الارتباك؛ فودَّ فعلًا تجنب مثل هذه الأماكن. ضغط بإصبعه على شفتيه، ومن فوره توجه بالطفلة نحو أزقة ضيقة وطرق ملتوية، لم تبد عليه أي إمارة من أمارات الراحة مطلقًا، حتى أصبحا على مسافة بعيدة، تاركين المكان ومن فيه وراءهما، بعد أن إلتفتَ العجوز إلى الخلف كثيرًا، قال مغمغمًا: إن الخراب وقتل النفس جاثمان في كل شارع وزقاق، إذا أحسا بوجودهما فقط، لانقضا عليهما في الحال، وبهذا لن يتمكنا من الهروب سريعًا.
مرة أخرى، وبعد أن اجتازا ذاك الحي الآخر، أصبحا الآن في حي أكثر صخبًا، قسِّمت فيه المنازل إلى حجرات كثيرة، ورُقِّعت فيه النوافذ بالأوراق والخرقات، لتنم في وضوح عن فقر من يسكنون فيها، حيث لا تبيع المتاجر سوى البضائع التي يقدر على شرائها الفقراء، ويكون فيها البائع والمشتري سيان، يتشابهان في عوزهما. لم تَبْدُ شوارعه فقيرة؛ بل كانت أقرب إلى ركام هش لحطام سفينة مكوَّم في مساحة ضيقة. على الرغم من ذلك كله، كان يتوافد إليه محصلو

الضرائب والدائنون، مثلما يتوافدون على أي مكان آخر. على أي حال، يُعتبر الخاضعون لصراع الفقر القدري أقل دونية من غيرهم، مِمَن استسلموا وكفّوا عن المحاولة منذ أمد طويل.
لقد كان مسارًا طويلًا، طويلًا حقًّا، على التابعين الذين سكن التواضع نفوسهم، مِمَّن أرادوا التخييم في معسكر الثروات، ولم يسعهم سوى نصب خيامهم حوله، على بعد عدة أميال، لكنهم على كل حال حافظوا على طباعهم كما هي.
تقف حائرًا أمام المنازل الرطبة التي توغل فيها العفن، والمنازل التي تُبنى، أو التي بُنيت بالفعل، أو غير مكتملة البناء، أو حتى النزل المستأجرة؛ لا تعرف أي منها يجب أن تشفق عليها أكثر، لا تعرف ما إذا كان هؤلاء هم من سمحوا، أم أن أولئك هم من أتوا ليستبيحوا، ترى الأطفال في كل شارع يتمرغون في الوحل، لا يهنأون بملبس أو بمأكل وفير.. تسمع النساء المكثرات من التوبيخ، يدبدبن بأقدامهن المتسخة داخل خفافهن على الرصيف، متوعدات بتهديدات صاخبة بملء أفواههن.. تبصر الرجال بائسين في هيئة رثة، يهرعون إلى عملهم، فهو السبب الرئيس الذي يجلب لهم (لقمة العيش اليومية) أو أكثر من ذلك قليلًا.. تجد السيدات يغسلن الملابس، ويعصرنها، تجد الإسكافيين، والخياطين، وصانعي الشموع، يزاولون حرفهم في الصالات والمطابخ والغرف الخلفية، وعلية المنازل، أو تجدهم أحيانًا مجتمعين كلهم تحت سقف واحد.. ترى حقول القرميد تطوق الحدائق بعِصِي البراميل الخشبية القديمة، أو بأخشاب نُهبت من ركام البيوت، يُشعل فيها النيران، ويطبع عليها اللون الأسود الفاحم دائمًا.. تلمح أكوامًا من القش وأعشاب القراص والحشائش وصدف المحار، مبعثرة في حالة من الفوضى.. تجد أن الكنائس التعليمية الصغيرة مليئة بزخارف ورسومات تجتر مآسي الأرض، بينما تجد الكنائس التي تُعبِّدُ طريقك إلى الجنة جديدة وكثيرة بنيت بأموال طائلة.
وكما تجري مثل هذه الأمور، أصبحت الشوارع أكثر ضيقًا، تكاد تكون حركة السير فيها متوقفة، وأضحت المساحات الشاغرة تتضاءل ومن ثم تتضاءل أكثر فأكثر، حتى لم يعد يبقى منها سوى رقعة صغيرة في حديقة، تقع بمحاذاة الطريق، تحدها العديد من الأكواخ الصيفية، باهتة الطلاء، مبنية بأخشاب قديمة، أو ببقايا ألواح القوارب الخشبية، اكتست حواف أرضياتها باللون الأخضر، بسبب ما نما حولها من سيقان الملفوف، قبعت بين تشققاتها قواقع لزجة، وعيش الغراب. تأتي بعدها الأكواخ الريفية، مشيدة اثنين إلى جوار اثنين، في مقدماتها ساحات خضراء، في أحواض تتخذ زوايا، تحدها أسوار متيبسة، يفصل بينها ممرات ضيقة، لا تطؤها الأقدام أبدًا، فبقى حصاها خشنًا، ثم تأتي بعدها حانة في طلاء زاهٍ، باللونين الأخضر والأبيض، تحيط بها حدائق الشاي وساحة لعب القناني الخشبية الخضراء، وبالقرب منها توجد حظيرة خيل حيث تتوقف العربات، ثم تظهر الحقول، وبعدها بعض المنازل، منزلًا أمام الآخر، تحدها مساحات واسعة من المروج، بالإضافة إلى وجود بعض النزل، حيث سكن العتال وزوجته. يأتي بامتداد كل ما سبق الشارع الرئيس، ومن بعده يتواصل وجود الحقول مرة أخرى، حيث الأشجار وأكوام التبن، إلى أن نصل إلى تل، على قمته، ربما يقف المسافر؛ لينظر إلى الوراء، حيث تلوح على مرمى بصره قبة كاتدرائية القديس بولس عبر سحب الدخان، شامخة في الأفق، وصليبها يعلو السحب -إذا كان اليوم صافيًا - لامعًا بفعل انعكاسات وميض أشعة الشمس، ثم تجتذب الضوضاء انتباهه، فيوجه ناظريه نحو مصدرها، حتى يرنو بهما إلى أبعد نقطة بالأسفل حيث طوب وقذائف الهاون للبؤر

الاستيطانية للجيش الغازي، التي يقع مركزها بالكاد أسفل قدميه، ليشعر في النهاية أنه كاشفٌ للندن كلها.
على مقربة من ذلك الموقع، جلس العجوز ومرشدته الصغيرة في حقل مبهج؛ كي يستريحا قليلًا - كيف لها أن تكون مرشدته، وهي لا تعرف المكان الذي تحل به من الأساس! - كانت الطفلة متأهبةً بكافة الاحتياطات، معها سلة، احتوت على الخبز و شرائح اللحم، جلسا يتناولان الإفطار معًا، يتناولان طعامهما الزهيد.
جلسا حيث عذوبة الطقس، وإشراقة اليوم، وتغريد الطيور، جلسا على العشب النضر المليح، أسفل ظلال أوراق الشجر الخضراء، تحيط بهما الزهور البرية، وألف من الأصوات العذبة والروائح العطرة التي تطوف في الهواء.. جلسا حيث يتمثَّل سرور القلب والاستمتاع لمعظمنا، بل لكل من عاشوا حياتهم وسط صخب المدن المزدحمة، أو حتى من كانوا يعانون الوحدة.. جلسا في أوج استمتاعهما، يتنفسان بملء صدورهم، في سعادة جلية. رددت الطفلة صلواتها، في هذا الصباح أكثر من مرة، على الرغم من عدم دقتها، كانت تكررها بجدية بالغة، فاقت أي مرة سبق وأن قامت بترديدها فيها طوال حياتها، كلما شعرت برغبة في إلقاء صلواتها، ترددت الكلمات على شفتيها مرة أخرى. لم يكن العجوز متذكرًا أبدًا أي كلمات من المفترض عليه أن ينطق بها، لذلك اكتفى بقول: " آمين "،. وبعدها كان يخلع قبعته، لقد كانا في ذلك الحين سعداء حقًّا.
كانت لديهما نسخة قديمة من (رحلة المرتحل) موضوعة على أحد الأرفف في المنزل، اعتادت نيل تصفحها خلال أمسياتها، ساورتها التساؤلات حول ما إذا كانت كل كلمة واردة في تلك النسخة صحيحة أم لا، اعتراها فضول لمعرفة أين تقع تلك البلدان البعيدة، التي تحمل أسماء غريبة. لذلك حينما نظرت خلفها، حيث المكان الذي غادروه، خطر على بالها فورًا جزء معين.
قالت: " يا جدي العزيز! في الواقع إن هذا المكان يبدو من بعيد أكثر جمالًا وحُسنًا مما هو عليه، إذا كان ما ورد في الكتاب حقًّا، فإنني أشعر كما لو كنا شخصين ينتميان إلى ذاك المكان، وقد ألقينا على عشبه متاعبنا وخوفنا دون أن يكتب علينا أن نلتقيها مرة أخرى ".
رد العجوز، ملوحًا بيديه نحو المدينة: " لا.. لن أعود إلى هناك مرة أخرى.. لن يحدث هذا أبدًا. صرت أنا وأنتِ الآن في أفق الحرية، لا يوجد شيء سوف يخدعنا أو يحرضنا على العودة إلى هناك ثانيةً ".
قالت الطفلة: " هل أنت متعب؟ هل أنت متأكد، من أنك لا تشعر بالتعب بسبب رحلتنا الطويلة؟ ".
كان رده: " لن أشعر بالتعب مطلقًا مرة أخرى بعد الآن، لطالما حدث ذلك، لكننا رحلنا.. دعينا نحافظ على حماسنا يا نيل، ونبتعد عن هنا أكثر فأكثر.. إننا لا نزال قريبين جدًّا، يجب ألَّا نتوقف أكثر من ذلك في استراحتنا.. هيا بنا! ".
كانت في الحقل بركة من الماء الصافي، ذهبت إليها الطفلة؛ غسلت يديها ووجهها، ووضعت قدميها لتستشعرا برودة الماء قبل أن ينطلقا مرة أخرى. أرادت أن يفعل العجوز مثلما فعلت تمامًا، فأجلسته على العشب، وصبَّت عليه الماء، ومن ثمَّ جففت موضع الماء بملابسها البسيطة.
قال الجد: " إنني لا أستطيع فعل أي شيء، لا أستطيع أن أخدم حتى نفسي يا عزيزتي.. لا أعرف ماذا حدث لي، لقد كان باستطاعتي، لكن الزمن جار عِليَّ.. لا ترحلي عني يا نيل، قولي لي: إنكِ لن

تتركيني وتغادرين. لقد أحببتكِ دائمًا، لقد أحببتك فعلًا. إذا فقدتك أيضًا، سيكون الموت مصيري حتمًا! ".
أسند رأسه على كتفها، وشرع يَئِن خائفًا. جاء الوقت وانقلبت الأحوال، منذ أيام قليلة، لم تستطع الطفلة كبح جماح مدامعها، وانتحبت معه. أما الآن، فهي تحاول تهدئته بكلمات لطيفة ورقيقة، تبتسم مازحةً من تفكيره الذي يخيل له أنهما قد يفترقان، تخفف عنه وتطمئنه في بهجة. سرعان ما هدأ ونام، بينما كان يغني لنفسه، في صوت غير مسموع، كما الطفل الصغير.
استيقظ بعد حين منتعشًا، همَّا كي يستكملا رحلتهما. كان الطريق ممتعًا، فقد كان يخترق المراعي الجميلة وحقول الذرة، واعتلته سماء زرقاء صافية، حيث كان الكروان يصدح بأغنيته السعيدة. تدفقت نسمات الهواء محملة بالعطر، طار النحل بين نفحات أريج الأزهار، محا طنينه آثار النعاس التي بدت عليهما.
أصبحا الآن في الخلاء، قل عدد المنازل، واتسعت المسافة التي تفصل بينها، كادت تصل أحيانًا إلى أميال. صادفا في طريقهما بعضا من الأكواخ البسيطة، أحياناً كان يُسند إلى أبوابها المفتوحة كراسٍ وألواح خشبية؛ كي تحيد الأطفال المتدافعون دون حذر بعيدًا عن الطريق، وأحيانًا أخرى، كانت أبوابها مغلقة تمامًا؛ فقد يذهب أفراد الأسرة بأكملها للعمل في الحقول. لطالما كان هذا المشهد هو المتعارف عليه في مدخل أي قرية، وبالمضي قدمًا لمسافة قصيرة، دائمًا ما يوجد دكان حدادة أو دكان لتصنيع العجلات وإصلاحها، ثم تأتي مزرعة غنية، حيث ترقد الأبقار على أرضها، وتنظر الخيول من وراء السياج، تخبب متبخترةً بعيدًا؛ تعبيرًا عن فوزها بحريتها، بينما تمر الخيول الأخرى المشدودة عليها سرجها، أمامها على الطريق. كانت الخنازير المتبلدة هناك أيضًا، تسير في الأرض لترعى، تأكل من خشاشها، تنخر في رتابة، بينما تجوس هنا وهناك؛ تبحث عن طعامها. وفي الأعلى كان الحمام اللحيم يحلق حول برجه، أو يمشي مختالًا على الطَّنْف فوق أبواب الدور. وعند البِركة كان هناك البط والإوز، يدور في خفة ورشاقة حول حوافها، أو يعوم بعفوية على سطحها. بعد أن انتهت ساحة المزرعة كان هناك نزل صغير، تتبعه حانة متواضعة، يرتجف من بها فور ذكر اسم المحامي والكاهن وتاجر القرية، لما تبثه أسماؤهم من رهبة في نفوسهم. ثم تظهر الكنيسة للرائي في شكل مهيب - لكنه متواضع - من بين الأشجار، ومن بعد ذلك يوجد القليل من الأكواخ الريفية، ومن بعدها يأتي مكان الحجز، لم يكن من غير المألوف أن توجد بئر على الجانب الآخر، فقد كانت هناك بئر قديمة عميقة، يغطيها التراب. ثم تمتد الحقول المسيجة في الاتجاهات جميعها، ليحدها الطريق المفتوح مرة أخرى.
مشى المسافران طوال يومهما الأول. وحينما رغبا في النوم، ناما ليلتهما في كوخ صغير، حيث تُتاح فيه أسرة للمسافرين. في صباح يومهما التالي، ارتحلا مرة أخرى على أقدامهما، على الرغم من تعثرهما في البداية؛ لكونهما متعبين، نشَّطا من أنفسهما على وجه السرعة؛ فسارا في همة على طول الطريق.
على الرغم من كثرة توقفاتهما للاستراحة، إلا أنها كانت تستغرق فترة قصيرة في كل مرة، فكانا يتناولان وجبات طعام خفيفة فقط، تبقت لديهما منذ الصباح. قاربت الساعة على مشارف الخامسة عصرًا، حينما مرا إلى جانب أكواخ أخرى، كانت لتجمعات عُمَّالية، نظرت الطفلة في أسى شديد تجاه كل منها، مترددةً، تخشى طلب الإذن بالراحة لبعض الوقت وشراء الحليب.

لم يكن من السهل أبدًا معرفة ما إذا كانت تخجل من طلبها، أم كانت تخشى الطرد! هناك، حيث تعالت صرخات طفل يبكي، وصوت سيدة صاخب. هناك، حيث بدا الناس جميعهم فقراء، بعد حين من التفكير، توقفت الطفلة أمام طاولة كانت تجلس عليها أسرة مجتمعة.. اختارت الطفلة تلك الطاولة بعينها؛ غالبًا لأن عجوزًا كان يجلس على مقعد - مدعومٍ بوسادة - إلى جانب مشعل النيران؛ ظنًّا منها أنه يشبه مقعد جدها، وسوف يرأف من فوره بحالهما ويشعر بما يعانيان.
كان إلى جانب العجوز صاحب الكوخ وزوجته، وثلاثة أطفال أقوياء البنية، لون بشرتهم بنيّ كلون التوت، قابلوا جميعًا مطلب الطفلة بترحيب كبير. همَّ الطفل الأكبر من فوره كي يجلب بعض الحليب، أما الأوسط فقد سحب مقعدين أمام الباب مباشرة، أما الأصغر فقد تخفَّى في ثوب والدته، ونظر إلى الغريبين من أسفل يده التي لفحتها الشمس.
قال العجوز بنبرة هادئة: " حفظكما الرب في رحلتكما! هل أنتما مسافران إلى مكان بعيد يا سيدي؟ ".
أجابت الطفلة؛ بعد أن حثها جدها لتجيب بدلًا منه: " نعم يا سيدي.. مكان بعيد جدًّا ".
قال العجوز ثانية: " بعيد عن لندن؟ ".
أجابت الطفلة بالإيجاب.
آه! لقد كان في لندن عدة مرات سابقة؛ اعتاد الذهاب إليها بالعربات. مر تقريبًا اثنان وثلاثون عامًا منذ أن كان هناك آخر مرة، سمع أن تغيرات هائلة طرأت عليها طوال هذه الفترة، مثلما تغير هو: تمامًا، إن مرور اثنين وثلاثين عامًا يعتبر فترة طويلة حقًّا، وبلوغ الرابعة والثمانين يعتبر عمرًا لا يستهان به، على الرغم من قرب بلوغه المائة عام، ومعاصرته لصعوبات كثيرة، لم يكن هناك شيء يضاهي طيبة قلبه، أبدًا.. على الإطلاق.
قال العجوز، وهو يطرق بعصاه على أرضية من القرميد، محاولًا فعل ذلك بحماس: " اجلس هنا يا سيدي.. خذ بعضًا مما في هذا الصندوق، إنني لا آخذ لي مقدارًا كبيرًا؛ فإنه يوقظني أحيانًا يا عزيزي، أما أنت فلن يؤثر فيك؛ فعمرك بالنسبة إلى عمري، يجعل منك مجرد صبي. كان من المقدَّر أن يكون لي ابن في مثل عمرك، إذا كان قد بقي على قيد الحياة، لكنهم أدرجوه على لائحة الجنود.. ثم عاد إلى المنزل بعد حين مبتور الساق. داوم كثيرًا على قول: إنه سيُدفن بالقرب من الساعة الشمسية التي اعتاد تسلقها حينما كان طفلًا، وهذا ما حدث، وقد أصبحت كلماته واقعًا، يا لفقيدي الغالي! يمكنك أن ترى المكان بعينيك، لقد كسوناه بالعشب منذ ذاك الحين ".
هز رأسه في أسى، نظر إلى ابنته بعينين يترقرق فيهما الدمع، قائلًا: "إنها ليست في حاجة إلى أن يعتريها الارتياب حيال الخوض في الحديث عن هذا أكثر من ذلك. إنه حقًّا لا يريد أن يزعج أي أحد بما قاله، وإنه إذا حدث وشعر أنه أزعج أحدهم بالفعل، سوف يعتذر له من فوره.
وصل الحليب إليهما، تناولت سلتها الصغيرة، وأخرجت منها أفضل ما تبقى من فتات الطعام، وقدمته لجدها، وحظيا معا بوجبة، نزلت مريئًا على قلبيهما. غلب على أثاث الغرفة الطابع العائلي بكل تأكيد.. كان هناك عدد قليل من الكراسي المتينة، وطاولة، وخزانة مزوية، على أرفقها مخزون صغير من الأواني الفخارية، وصينية شاي مبهرجة مرسوم عليها سيدة حسناء ترتدي اللون الأحمر الصارخ ممسكة بمظلة زرقاء في وضع السير، إلى جانب بعض العبارات المقدسة المعروفة، في أطر معلقة على الحائط والمدخنة، وخزانة ملابس قديمة متناهية الصغر، وساعة بعداد أسبوعي، مع عدد قليل من القدور اللامعة وغلاية، هذا ما اشتملت عليه الغرفة أول عن

آخر. لكن كل شيء كان نظيفًا وأنيقًا، دارت الطفلة بعينيها تتفقد تفاصيل المكان، وقد أضفى فعلها على نفسها شعورًا بالسكينة والراحة، وطوَّق روحها بارتياح لم تشعر به منذ أمد طويل.
سألت الزوج: " كم تبعد أقرب قرية أو مدينة عن هنا؟ ".
رد عليها قائلًا: " قرابة الخمسة أميال يا عزيزتي.. لكنك لن تسافري الليلة بالتأكيد! ".
قال العجوز من فوره: " بلى.. بلى.. أليس كذلك يا نيل؟ ". ثم حث الطفلة على أن تومئ مثله بالإيجاب أيضًا، مستطردًا: " إنها مسافة بعيدة، مسافة بعيدة حقًّا يا حبيبتي، علاوة على أننا لن نصل، حتى إذا داهمنا منتصف الليل ".
قال الرجل: " إن هناك مخزنًا زراعيًا جيدًا، يقع على مقربة من هنا، وأعتقد أن هناك بناية لإيواء المسافرين أيضا في (بلو آند هارير). لكنك.. معذرة! تبدو متعبًا للغاية، وأحسب أنك إذا لم تكن حريصًا على استمرار رحـ...
قال العجوز في أسى: " بلى.. بلى.. إننا حريصان حقًّا، إنها مسافة بعيدة جدًّا، أليس كذلك يا عزيزتي نيل؟ ".
قالت الطفلة خاضعة إلى رغبته الاضطرارية: " معك حق يا جدي.. يجب أن نستكمل رحلتنا في الواقع.. نشكركم جميعًا شكرًا جزيلًا، إننا لا نستطيع التوقف لوقت أكثر من ذلك، هيا بنا يا جدي؛ أنا مستعدة ".
لكن سيدة الكوخ لمحت من مشية المرتحلة الصغيرة، أن إحدى قدميها الصغيرتين قد أُصيبت بالتهاب شديد وتقرحات، ولأنها امرأة ذات قلب عطوف، وأمٌّ قبل كل شيء، لم تسمح لها بالرحيل مطلقًا دون أن تطهر لها جروح قدمها، وتطبِّق عليها بعض طرق العلاج البسيطة، وقد فعلت ذلك بحذر تام، بيد يغمرها الحنان - رغم ملمسها الخشن في الواقع جراء طبيعة عملها - شعرت الطفلة بامتنان شديد، وقد امتلأ قلبها بحنين، جعلها عاجزة عن التعبير عنه بكلمات، لم تقل سوى: " فليباركك الرب! "، ثم سارت في طريقها، ولم تنظر إلى الوراء مطلقًا، كان قلبها مزعزعًا، لا يدري ماذا يقول، حتى غادرت الكوخ، ولم تعد على مسافة قريبة منه. حينها أدارت رأسها، ورأت جميع أفراد العائلة، حتى جدهم العجوز، متراصين متجاورين، ناظرين إليهما، بينما يبتعدان، يلوحون بأيديهم في حرارة، ويودعونهما بإماءات مبهجة.. على الأقل كان أحد الجانبين يودِّع الآخر دون دموع.
تقدما في طريقهما إلى الأمام في تؤدة، تعتريهما الآلام أكثر من أي وقت مضى؛ سارا ميلًا آخر، أو ما يقرب من ذلك، لكنهما سمعا صوت عجلات خلفهما، فنظرا من فورهما إلى مصدر الصوت، ولمحا عربة فارغة تقترب بسرعة نحوهما. وصل راكب العربة إليهما، ومن ثم أوقف حصانه، وبات ينظر إلى نيل في اهتمام.
قال: " ألستما من توقفتما في البيت الريفي؟ ".
أجابت الطفلة: " بلى يا سيدي! ".
قال الرجل: " آه! لقد طلبوا مني أن أذهب في أثركما، إنني سأمضي في طريقكما نفسه.. هيا أعطني يدك يا سيدي؛ لتصعد إلى العربة ".
مَثَّلَ لهما ما حدث راحة كبيرة؛ فقد كانا منهكين للغاية، لدرجة أنه كان من شبه مستحيل بالنسبة لهما أن يصلا إلى هناك، كانت العربة المهتزة بالنسبة لهما بمثابة مصدر راحة مترفة، فجعلت من

رحلتهما أكثر الأشياء متعة في العالم. بالكاد استلقت نيل على كومة صغيرة من التين في إحدى الزوايا، فغاصت من فورها في نوم عميق لأول مرة طوال ذاك اليوم الشاق.

استيقظت نيل؛ فور توقف العربة، مستنبطةً أنهم قد وصلوا إلى نهاية الطريق. ترجَّل راكب العربة، وساعدها في النزول، مشيرًا إلى بعض الأشجار التي تقع على مسافة قريبة منهما، قائلًا: إن المدينة هناك، وإنه من الأفضل لهما أن يسلكا الطريق الذي يقودهما إليها عبر ساحة الكنيسة.. وهكذا سارا يستكملان رحلتهما موجهين أقدامهما نحو ما أشار إليه في خطوات ثقيلة متعبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السادس عشر

كانت الشمس تغرب، حينما وصلا إلى بوابة بداية الممر، حيث كان المطر ينهمر على العادل والظالم على حد سواء، تهيمن الشمس بلونها الدافئ على الأفق وعلى مقابر الموتى، توحي بأمل جديد سيأتي من بعدها، عبر إشراقة الغد، لاحت الكنيسة قديمة ورمادية، يُعرِّش اللَّبلاب جدرانها وحول الرواق. يستكين المتواضعون الزاهدون من الرجال فوق الأضرحة الواصلة إلى التلال، وتلتف حولها أول أكاليل زهور قدمت للراقدين، كانت أكاليل من زهور ليست عرضة للذبول، ومن أكثر الأنواع ديمومة، أكثر من تلك المخبأة في الأعماق أسفل الحجارة والرخام، منذ سنوات عديدة، ولا يكشف عنها في النهاية سوى لمنفذي الوصايا أو لوارثي الوصايا في حدادهم.
كان حصان القسيس يمشي متعثرًا بين الأضرحة في رتابة وعلى غير هدى، ينتف العشب، ائتلف الجمع في عزاء أرثوذكسي لأحد أبناء الأبرشية؛ كي ينفذوا وصايا الكتاب المقدس، إلى جانبهم حمار هزيل كان من المفترض أن يقوم بالمهام نفسها، لكنه لم يكن مؤهلًا أو حتى مستعدًّا، يرخي أذنيه نحو زكيبته الفارغة، ناظرًا بأعين جائعة إلى جاره الكهنوتي.
أنهى العجوز والطفلة سيرهما في الطريق المفروش بالحصى، انتقلا للمشي بين المقابر، حيث كانت الأرض مستوية ملساء، لا تؤلم أقدامهما المتعبة. بمجرد وصولهما إلى جانب الكنيسة سمعا أصواتًا على مقربة جدًّا منهما، سرعان ما وصلا إلى مصدرها وأبصرا من كانا يتحدثان.
لقد كانا رجلين، جالسين بكل بساطة على العشب، منشغلين بما يفعلان، لدرجة أنهما في البداية لم يلتفتا إلى قدوم الغريبين، ولو لوهلة واحدة. لم يكن من الصعب التكهن بأنهما اثنان من المتنقلين الذين ينظمون العروض - كانا مؤديين للعروض الثانوية لـ "بانش". - لأن من كان يرقد خلفهما، على بلاط الضريح، ويضع ساقًا فوق الأخرى، كان شبيهًا بالبطل نفسه، له أنف وذقن معقوفان، ووجهه مبتسم بابتهاج كالعادة، ربما لم تتطور شخصيته المضطربة بشكل لافت بعد؛ فقد حافظ على ابتسامته المعتادة الرصينة، رغم أن جسده تدلى في وضع غير مريح بالمرة، بدا ملبسه غير مهندم أبدًا، فضفاضًا لا شكل له، بينما تتوازن قبعته الباهتة ذات الطرف المدبب بشكل غير متكافئ نحو ساقيه النحيلتين للغاية، مترنحة؛ تهدد في كل لحظة بإسقاطه رأسًا على عقب.
تواجد باقي ممثلي العرض الدرامي على امتداد أقدام مَن افترشا الأرض، وقد تناثروا من صندوق مسطح طويل في بعثرة فوضوية. كانت زوجة البطل هناك، والطفل الوحيد، والمهر، والطبيب، والسيد الأجنبي الذي ليس على دراية أبدًا باللغة؛ لا يعرف كيفية التعبير عن أفكاره، بخلاف نطقه المميز لكلمة " شلابالا " ثلاث مرات والجار الراديكالي المتعصب الذي لا يعترف بأي شكل من الأشكال أن جرس القصدير هو نوع من الآلات الموسيقية، والجلَّاد، والشيطان، وجميعهم كافة. جاء مالكاها إلى تلك البقعة خصيصًا لإجراء بعض التجهيزات والإصلاحات اللازمة للترتيبات المسرحية، كان أحدهما منخرطًا في ربط حبل مشنقة صغير، بينما كان الآخر منكبًا على إصلاح شَعر مستعار أسود جديد، باستخدام مطرقة وبعض المسامير، يدق بها على رأس الجار المتعصب، الذي تعرض إلى الكثير من الطرقات على رأسه الأصلع.

رفعا أعينهما، فور رؤيتهما العجوز والطفلة، فتوقفا عما كانا يفعلانه، وظلا ينظران إليهما في فضول. كان أحدهما - العارض الفعلي من دون شك - ذا وجه باش، وعينين لامعتين، وأنف أحمر، كأنه قد تقمص دور بطولته في العرض. بينما كان الآخر - من يأخذ المال - ذا نظرة حذرة حريصة، ربما لا تنفصل عن دوره في العرض أيضًا.

كان الرجل ذا الوجه الباش هو أول من قدَّم التحية للغريبين بإيماءة مرحة، عبر تتبعه لعينَي العجوز، لاحظ من حماسته أن تلك ربما هي المرة الأولى التي يرى فيها بانش، بعيدا عن خشبة المسرح. (كان من الملحوظ أن بانش قد بدا مشيرًا بطرف قبعته إلى أكثر الاقتباسات المنقوشة على الضريح زهوًا، ضاحكًا بينه وبين نفسه من أعماق قلبه ".

قال العجوز وقد جلس إلى جانبه ناظرًا إلى الشخصيات الأخرى في سرور شديد: " لماذا أتيت إلى هنا بالتحديد؛ كي تفعل ما أنت فاعله؟ ".

قال الرجل القصير: " لماذا في رأيك! إننا سنحل هذه الليلة في البيت العام ([7])، وبالتأكيد لا نريد أن ندعهم يشاهدون شخصياتنا تحت الإصلاح والتجهيز ".

صاح العجوز، لافتًا انتباه نيل بإيماءة؛ كي تستمع إلى ما سيُقال: " لا! لكن لأي سبب، ها! لِمَ لا؟ ".

رد الرجل القصير قائلًا: " لأنهم إذا رأونا على هذا الحال؛ سيتبدد خيالهم، وتتلاشي الصورة التي في أذهانهم، وليس من المستبعد أن يفقدوا شغفهم بالكلية.. أليس كذلك؟ هل كنت لتهتم بنصف بنس حتى إذا رأيت رئيس مجلس اللوردات، دون شعره المستعار.. قل لي هل كنت لتفعل؟ بالتأكيد لا ".

قال العجوز، مغامرًا، يتلمَّس إحدى الدمى في شغف عارم، ساحبًا يده من فوره، وهو يضحك بشدة: " جيد جدًّا! إنك على وشك عرضها الليلة؟ أليس كذلك؟ ".

رد الآخر قائلًا: " هذا هو مقصدنا يا زعيم.. إذا لم أكن مخطئًا، فإن تومي كودلين يحصي في اللحظة التي أتيت فيه نحونا ما فقدناه.. ابتَهِجْ يا تومي؛ بالتأكيد لن يكون بالقدر الكثير ".

تبع الرجل القصير هذه الكلمات الأخيرة بغمزة، عبَّر من خلالها عن تقديره التخميني للحالة المالية للمسافرين.

رد السيد كودلين، الذي امتاز بتقلباته المزاجية، بينما انتزع بلاطة من الضريح، وقذفها داخل الصندوق، قائلًا: " إنني لا أكترث مطلقًا، حتى لو لم نكن قد فقدنا ربع بنس، لكن لك مطلق الحرية.. إذا وقفت فقط أمام الستار، ورأيت وجوه الجمهور، مثلما أفعل، لكنت تفهمت الطبيعة البشرية أفضل من ذلك ".

قال رفيقه: " آه! لقد أفسد ذلك روحك يا تومي، السبب في ذهابك إلى هذا المدى، عندما لعبت دور الشبح، في عمل درامي عادي في الأسواق الشعبية، هذا ما جعلك تؤمن بالأمور جميعها.. عدا الأشباح ذات نفسها. لكنك الآن أصبحت عديم ثقة عالميًّا، لم أر في حياتي شخصًا قد تغير كليًا هكذا ".

قال السيد كودلين، في طبع فلسفي تهكمي: " لا بأس! إنني أكثر دراية الآن، وربما أكون حقًّا أسفًا على هذا ".

بعد التقليب في الصندوق، بغير اكتراث، وبشكل مهين لمحتوياته، انتشل السيد كودلين منه شيئًا واحدًا، ورفعه إلى مجال نظر صديقه؛ ليتفحصه:
" انظر هنا! ها هي ملابس جودي تنفصل عن بعضها إلى قطع غير متصلة مرة أخرى. أحسب أنك لم تحضر إبرة وخيطًا؟ ".
هز الرجل القصير رأسه في أسى، وأخذ يمسح عليه، بينما كان يتفكَّر في غضب المؤدي الأساسي. وحينما رأتهما نيل في حيرة من أمرهما، قالت على استحياء:
" إن معي إبرة في سلتي يا سيدي، ومعي خيط أيضًا.. هل سمحت لي أن أحاول إصلاحها من أجلك؟ أعتقد أنه بإمكاني فعل ذلك أفضل مما هو بإمكانك ".
لم يُبْدِ أي أحد اعتراضًا، حتى السيد كودلين، لم يكن لديه أي دافع يحثه على مناقشة ما تم اقتراحه. جثت نيل على ركبتيها، بجانب الصندوق، وانشغلت من فورها في تنفيذ مهمتها، حتى تبيَّن أن ما انجزته كان معجزة.
بينما كانت مستغرقة في عملها، كان الرجل ذو الوجه الباش ينظر إليها، في شغف، لم يتبادر إليه مطلقًا، حينما كان ينظر إلى رفيقها العاجز، أنهت الطفلة عملها، شكرها في حرارة، واستفسر عن المكان الذي كانا يسافران إليه.
قالت الطفلة، وهي تنظر إلى جدها: " إل..لا.. لن نسافر إلى أي مكان هذه الليلة ".
عقَّب الرجل: " حسن؟! إذا كنتِ تريدين مكانًا للاستراحة فيه، يجب عليَّ أن أنصحكِ، ويمكنكِ أن تأخذي بنصيحتي، ربما تمكثين في المكان نفسه، الذي نمكث فيه. هذا هو كل شيء.. على كل حال، إنه البيت الأبيض الطويل، المنخفض عن سطح الأرض، هناك.. آه! بالمناسبة، إنه رخيص جدًّا ".
على الرغم من الإنهاك الذي كان يعاني منه العجوز، إلا أنه كان على استعداد كامل كي ينتظر مع صحبته الجديدة طوال الليل، حتى إذا بقيا في ساحة الكنيسة. قابل العجوز اقتراحهما بموافقة سريعة وجاهزة، وهو في كامل سروره، ومن بعدها انفضوا جميعًا من مجلسهم، ورحلوا معًا، ظل العجوز بالقرب من صندوق الدمى؛ حيث كان في أشد ولعه بها، أما الرجل صاحب الوجه الباش فكان يحمل على كتفه ذلك الصندوق، بحزام ربط إليه من أجل هذا الغرض، أما نيلي فقد سارت ممسكة بيد جدها، وكان السيد كودلين يمشي مترنحًا خلفهم في تؤدة، يتأمل بنظراته برج الكنيسة والأشجار المجاورة، كعادته المألوفة حين وجوده في المدينة، وينظر مباشرةً إلى غرف الرسم ونوافذ الحضانة؛ يبحث عن موقع ملائم ليقدم عرضه.
امتلك البيت العام رجل سمين عجوز وزوجته، لم يبديا أي اعتراض تجاه استقبال زائرين جدد، مشيدين بجمال نيل، التي تركت انطباعًا حسنًا فور قدومها. لم يكن هناك أي صحبة أخرى في المطبخ، سوى ممثلي العرض، لذلك شعرت الطفلة بالامتنان الكامل؛ نظير استدلالها أخيرًا على مأوى جيد كهذا. غمرت مالكة البيت حالة من الذهول العارم؛ حين علمت أنهما سارا تلك المسافة كلها من لندن، وظهر عليها فضول غير قليل؛ تريد أن تعرف وجهتهما البعيدة. حاولت الطفلة جاهدة تفادي الإجابة عن استفساراتها، بقدر ما استطاعت، وحينما لاحظت السيدة امتعاض نيل، وأن استفساراتها تسبب لها آلامًا، كان من اليسير عليها أن تكف من فورها.
قالت، بينما تأخذها إلى الداخل: " إن هذين الرجلين قد طلبا العشاء وسيكون جاهزًا خلال ساعة واحدة، وأفضل خيار لك، هو أن تأكلي العشاء معهما. في هذه الأثناء، يفضل لكِ أن تتذوقي شيئًا،

يجعلك في حال أفضل، فأنا متأكدة تمام التأكد أنك استنفذتِ قواك كلها خلال ذلك اليوم الطويل المضني، وأنك في حاجة ماسَّة إلى الطعام.. الآن! كفي عن الاعتناء بجدكِ والقلق عليه؛ لأنه في الوقت الذي ستكونين فيه تشربين هذا، سيكون لديه البعض مما تشربين منه أيضًا ".
لكن لا شيء يمكنه أن يستحث الطفلة على أن تتركه بمفرده، أو أن تلمس أي شيء لا يكون هو فيه شريكها الأول والأكبر، لذلك لم تجد السيدة مفرًّا من أن تقدم له العون أولًا. بينما كانا يستعيدان حيويتهما، سارع أفراد البيت كلهم نحو حظيرة الخيل الخالية؛ حيث سيقام العرض، فقد أنيرت أضواء الشموع التي كانت ملصقة بطوق عُلِّق بحبل يتدلى من السقف، إعلانًا عن بدء العرض في التو واللحظة.
الآن! شرع السيد توماس كودلين - الناقم على البشرية - في النفخ في البوق، حتى تقطعت أنفاسه، ومن ثم اتخذ موضعه خلف ستارة من الجوخ منقوشة، حيث يتخفَّى محرك الدمى، واضعًا يديه في جيوبه؛ استعدادًا للرد على جميع أسئلة وملاحظات (بانش)، مفتعلًا خدعة محزنة، معتمدًا على كونه صديقه المقرَّب، ويثق به ثقة غير مشروطة إلى أقصى الحدود، يعلم بأنه يستمتع بنهاره وليله بسبب وجوده المميز العظيم في مكانه، مثلما يكون هو دائمًا طوال الوقت، وتحت أي ظرف من الظروف، الشخص الذكي المستمتع نفسه، الذي ينظر إليه المتفرجون. فعل السيد كودلين هذا كله باتخاذه مظهر الرجل الذي أقلم عقله على الأسوأ، ما كاد ينتهي، حتى جالت عيناه بطيئًا، بين الحضور؛ يستشعر تأثير ما قدمه على الجمهور، وخاصة انطباع مالك البيت وزوجته؛ لما له من تأثير فعَّال ومهم على تحضيرات العشاء.
بناءً على ما استشعره، لم يكن لديه أي سبب؛ يجعله يشعر بأي اضطراب، أو يساوره أي قلق، فقد حاز عرضه استحسان عظيم من الجميع، معبرين عن ذلك بصدى عارم من الإطراءات، وبكثير من عروض المساهمات التطوعية التي انهالت بوفرة في تسامح، تُثبت من فورها سيادة البهجة على الجو العام، لكن من بين تلك الضحكات، لم تكن هناك ضحكات عالية ومتكررة أكثر من ضحكات العجوز، أما ضحكات نيل، فلم تكن مسموعة؛ فيا لها من طفلة مسكينة، بمجرد أن أراحت رأسها على كتف العجوز، غلبها النوم، وسقطت في سُبات عظيم، لدرجة أن جهود جدها التي بذلها لإيقاظها كي تشاركه بهجته، لم تُجدِ أي نفع.
كان العشاء جيدًا جدًّا، لكنها كانت مرهقة للغاية، لم تستطع حتى أن تمد يدها وتأكل، لكنها ظلت إلى جانب العجوز، ولم تتركه حتى أخلدته إلى النوم في فراشه، وقبلته. أما العجوز، فقد كان جالسًا لحسن حظه، تغمره السعادة، غير مدرك لجهودها الشاقة التي تبذلها؛ من أجل العناية به، أو لقلقها حياله، ظلت الإبتسامة مرسومة على وجهه؛ منبهرًا بكل ما كان يقوله صديقه الجديد، ولم يبرح مكانه، حتى ذهبوا إلى غرفهم، يلازمهم التثاؤب، في ذلك الحين فقط، رضخ لاتِّباع الطفلة إلى أعلى الدرج.
لم يكن أعلاه سوى دور علوي، كان مقسمًا إلى حجرتين، حيث ذهبا ليستريحا، وقد كانا في قمة السعادة بمسكنهما، لم يتمنيا ما هو أكثر أو أفضل من ذلك. لم يكن من السهل على العجوز أن يرقد في سريره، حيث توسَّل إلى نيل كي تأتي وتجلس بجانبه، مثلما كانت تفعل في ليالٍ كثيرة سابقة، لذلك سارعت إليه نيل، فور سماعها له، وبقت إلى جانبه حتى نام.
كانت توجد نافذة صغيرة في غرفة نيل، تشبه بالكاد ثقبًا في الحائط، عندما تركت جدها، ذهبت إليها وفتحتها، وهامت في الصمت الذي يحوم حولها. أضفى عليها مشهد الكنيسة القديمة،

والأضرحة التي تحيط بها، وقد انعكست عليها ضياء القمر، وظلال الأشجار، وحفيف أوراقها، شعورًا جعلها تنغمس في التفكير العميق أكثر من أي وقت مضى. وإذ بها تُغلق النافذة مرة أخرى، وتجلس على سريرها منكمشة، تفكر في حياتهما السابقة.

كان لا يزال معها القليل من المال، القليل جدًّا، باتت تعرف أنه بمجرد انتهاء هذا المال، عليهما أن يشحذا. ضمن هذا المال، قطعة ذهبية واحدة، مدخرة؛ ربما تصادفهما حالة طوارئ، حينها سوف تعني تلك القطعة أكثر من قيمتها مائة مرة، لذلك كان من الأفضل إخفاء تلك العملة وعدم إبرازها، ما لم تكن حالتهما حرجة وميؤوسًا منها تمامًا؛ لأنه نظرًا لطبيعة حالهما الآن لم يعد لديهما أي مورد آخر.

اتخذت قرارها، وحاكت القطعة الذهبية بنفسها في فستانها، وآوت إلى الفراش بقلب ساكن، وغاصت في نوم عميق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السابع عشر

حلَّت إشراقة شمس يوم منير آخر، سقطت أشعتها المتلألئة من النافذة الضيقة، تداعب عيني الطفلة العطوفتين، فتوقظها من نومها. فتحت الطفلة عينيها على مشهد غرفة غريبة الشكل، تكتظ بحاجيات غير مألوفة لها، ساورها العجب، تتساءل كيف نُقلت من غرفتها المألوفة، التي غشاها النوم فيها في ليلتها الماضية، وإلى أين نُقلت. لكنها بعد نظرة أخرى فيما حولها، بعثت إشاراتها الحسية ومضات إلى ذهنها، فاستدعت ما مرَّت به في الآونة الأخيرة، فنهضت من سريرها، تعتريها طاقة أمل وثقة.

كان الوقت باكرًا، والعجوز لا يزال نائم؟ا، تمشَّت الطفلة إلى ساحة الكنيسة، تتحسس نداوة العشب بقدميها، غالبًا ما كانت تحوِّل قدميها بعيدًا عن أماكن النمو الطويل للعشب، حتى لا تخطو على القبور. شعرت بشيء من السرور يغمر قلبها؛ وهو الأمر المثير للدهشة نظرًا لوجودها بين منازل الموتى، تقرأ النقوش على مقابر الأناس الطيبين - فقد دُفن حتمًا الكثير من الطيبين في هذا المكان - تتنقل من واحد إلى الآخر في اهتمام متزايد.

شاع الهدوء في المكان - كما ينبغي أن يكون عليه الحال في مثل هذه الأماكن - باستثناء أصوات نعيق، تردد صداها في الأفق، لغربان شيدت أعشاشها بين أغصان بعض الأشجار القديمة الطويلة، في البداية، حلَّق غراب، ريشه طويل، يحوم في مهب الريح بالقرب من عشه الأشعث، يصدر صياحه الأجش في نغمات واقعية متزنة، كما لو كان يستأثر بحديث مع نفسه. رد عليه آخر، ومن ثمَّ أجابه الأول، ولكن بنعيق أكثر صخبًا، ثم شاركهما آخر، ومن ثمَّ آخر، وفي كل مرة مع مرور الوقت، يتبيَّن أن الغراب الأول يختلف معها في الرأي، فيرفع من صوت نعيقه، كأنه يزداد إصرارًا على رأيه ويعضده بشدة أكبر. أما عن الأصوات الأخرى في الأفق، فلم يكن لها أي صدى، كان الصمت لا يزال مخيمًا حتى ذلك الحين، إلى أن انبعثت الأصوات على حين غرة أعلى فروع الشجر وأسفلها وفي الطرقات، يمينًا ويسارًا، ومن بين قمم الأشجار وبعضها البعض، ومن الأبراج الرمادية للكنيسة، ومن نافذة جرسها القديم، تعلو وتنخفض، تستمر حينًا، ثم تنخفض لبرهة، تداخلت أصوات ذلك الصخب، مضفيةً حسًّا منعشًا على فروع الأشجار، ومواصلة التغيير في النمط العام للمكان، تهجو أرق أولئك القابعين في الأسفل، على العشب المغطى بالطحلب، وصراعهم الذي استنفد حيواتهم.

استمرت الطفلة في رفع عينيها نحو الأشجار، حيث اختلط صدى الأصوات، وهبط على مسامعها، لكنها شعرت أن تلك الأصوات جعلت المكان ينعم بهدوء، أكبر مما لاذ به عندما كان يعم الصمت، أخذت الطفلة تتلكَّأ من قبر إلى آخر، حتى توقفت؛ لتلتقط في حرص تام نبات اللبلاب من بعض الربوات الخضراء؛ وتنسقه في تدبر في موضعه، ما برحت تنظر في خلسة إلى داخل الكنيسة من خلال تعريشة متدلية من إحدى نوافذها المنخفضة، التي التصقت بجدرانها ديدان ناخرة، وجوخ أخضر يميل إلى البياض وقد اهترأ متحللًا، ليترك الخشب عاريًا، على مرأى من العابرين. رأت المقاعد، حيث يجلس المسنون الزاهدون، يرتدون ملابسًا صفراء، مماثلون لبعضهم البعض، كما رأت جرن المعمودية الصلب الذي يُعمد فيه الأطفال، والمذبح البسيط حيث يركعون، والمساند السوداء حيث يجلسون بأحمالهم، خلال زياراتهم المستمرة في رحاب

الكنيسة الظليلة الهادئة، التي يشيع منها العبق. نمَّ كل شيء عن القِدم وطول فترة الانتفاع به، ما أدى إلى رثاثة، لها وقع هادئ ورتيب، كان طرف حبل الجرس في الرواق متهرئًا، فقد بلي لقدمه.
أشاحت الطفلة بناظريها، ثم أخذت تنظر إلى حجر أفاد بأن الراقد أسفله شاب، قد توفي في الثالثة والعشرين من عمره، منذ خمسة وخمسين عامًا، حينها سمعت وقع أقدام متعثرة تخطو نحوها، التفتت، قرأت امرأة واهنة، انحنى ظهرها من ثقل السنوات، تأتي بقدمين مترنحتين نحو القبر نفسه، وتطلب منها أن تقرأ ما نُقش على الحجر. شكرتها السيدة العجوز فور تلبيتها لما طلبته، قائلةً: إنها قد حفظت تلك الكلمات عن ظهر قلب لسنوات عدة طويلة، لكنها الآن لم تعد تتمكن من رؤيتها.
قالت الطفلة: " هل كنتِ والدته؟ ".
- لقد كنت زوجته يا عزيزتي.
كيف كنت زوجته، وهو في عمر الثالثة والعشرين! آه، صحيح! لقد كان ذلك منذ خمسة وخمسين عامًا.
عقبت السيدة العجوز، وهي تهز رأسها، قائلةً: " إنك تتعجبين من قولي، لكن لا مشكلة حيال ذلك، لستِ الأولى؛ إن من أكبر منكِ عمرًا قد فعلوا ما فعلتِه نفسه. نعم! لقد كنتُ زوجته. إن الموت لا يغيرنا أكثر مما تفعل بنا الحياة يا عزيزتي ".
سألت الطفلة: " هل تداومين على القدوم إلى هنا؟ ".
أجابت السيدة العجوز: " دائمًا ما أجلس هنا في الصيف، لقد اعتدت أن آتي، أبكي وأنتحب، لكن هذا بات منهكًا لي منذ فترة طويلة، فليباركنا الرب! ".
ثم استطردت قائلة بعد صمت قصير: " لقد قطفت جميع الأقحوانات التي نمت هنا، وأخذتها معي إلى البيت.. إنني لا أحب أي زهور أخرى، بقدر حبي لهذه الزهور، ولم أحب غيرها على مدار خمسة وخمسين عامًا.. إنه لوقت طويل حقًّا، وقد مر بي العمر، وأصبحت عجوزًا ".
خاضت العجوز في حديث جديد، على الرغم من أن المستمع الوحيد كان مجرد طفلة، فأخبرتها كيف بكت وتضرعت، تتوسل الموت، حينما حدث ما حدث، وكيف جاءت إلى هنا أول مرة، شابة صغيرة غائصة في حزنها وحبها، وكم كانت تتمنى أن ينفطر قلبها في الواقع، مثلما كان يشعر في الحقيقة. لكن الوقت قد مر، على الرغم من الحزن الذي بات في قلبها مستمرًّا، تحملت القدوم إلى حيث تقف، وظلت على هذا الحال، حتى تعودت، وبقى الألم مألوفًا لها، حتى تلاشى مع الوقت، وحلَّ محله التكيف الشعائري، وواجب تعلَّمت أن تؤديه. والآن، بعد انقضاء خمسة وخمسين عامًا، باتت تتحدث مع المتوفى كأنه ابنها أو ربما كأنه حفيدها، مشفقةً على شبابه الذي اندثر أسفل التراب، بينما تتوغل إليها الشيخوخة، أخذت في الإشادة بشبابه وقوته ووسامته، مقارنة بوهنها، وعجزها، كانت تتحدث عنه كأنه لا يزال زوجها، تفكر في علاقتهما، مثلما كانت وقتما كانا معًا، ليست على شاكلة ما هي عليه الآن، تحدثت عن لقائهما في الحياة الأخرى، كما لو كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة بالأمس، حتى بدت منفصلة عن نفسها السالفة، تفكر في سعادة تلك الفتاة الجميلة التي بدا كأنها ماتت معه.
تركتها الطفلة، عندما انشغلت العجوز بجمع الزهور، التي نمت على القبر، وعادت على عقبيها، ممعنة في التفكير.

بحلول هذا الوقت، كان العجوز قد استيقظ وارتدى ملابسه، بينما لا يزال السيد كودلين محتجزًا داخل تفكيره؛ يتدبر الحقائق القاسية للوجود، يحزم في حقيبته الكتانية نهايات الشموع المتبقية، التي خلَّفها عرض ليلته السابقة، بينما كان رفيقه يستقبل التحيات من جميع المارة، في ساحة حظيرة الخيل، غير قادر على استبعاد نفسه من هيمنة العقل المدبر (بانش)، حيث أجلس ذلك المرح الهارب من العدالة إلى جانبه، في جلال؛ فلم يكن حبه له بالقدر القليل. عندما شعر أنه قد نال القدر الكافي من الشعبية، توجه حيثما جلسوا جميعًا معًا؛ كي يتناول طعام الإفطار.

قال الرجل القصير، موجهًا كلامه إلى نيل: " إذن! إلى أين ستذهبين اليوم؟ ".

ردت الطفلة: " في الواقع! إنني بالكاد أعرف.. أعتقد أننا لم نحدد بعد ".

قال الرجل القصير: " إننا سنذهب إلى أرض السباقات، إذا كان طريقكما في نفس وجهتنا، وفضلتما أن تكونا في صحبتنا، دعونا نرحل معًا. لكنك إذا أردتِ الذهاب بمفردك، صرحي لنا بذلك فقط، ولن تجدي منا أي مضايقات وسنلبي رغبتكِ ".

قال العجوز: " سنذهب معكما.. إننا سنذهب معهما يا نيل، نعم! معهما ".

أخذت الطفلة ما قاله بعين الاعتبار، وقد شرد ذهنها، تفكر في أنه قد صار لزامًا عليها أن تشحذ في القريب العاجل، وقد تمنت أن تقوم بذلك الفعل في مكان أفضل يعج بالسادة والسيدات الأثرياء، يذهبون إليه؛ راغبين في الاستمتاع والاحتفال، لذلك حسمت أمرها وقررت مرافقة هذين الرجلين. من ثمَّ، شكرت الرجل القصير على عرضه، وتوجهت بنظرة خجولة نحو صديقه، تسأله ما إذا لم يكن لديه أي اعتراض حيال مرافقتهما لهما نحو أرض السباقات.

قال الرجل القصير، معترضًا حديثها: " اعتراض! هذه هو الوقت الذي يجب أن تكون فيه كريمًا يا تومي، وتقول: إنك تفضل ذهابهما معنا. أعلم أنك ستفعل. أعلم أنك كريم يا تومي ".

قال السيد كودلين، بينما كان يتحدث في تؤدة، ويأكل في شراهة، في مشهد من غير المألوف أن ينتهجه شخص ذو نظرة فلسفية، ناقمًا على البشرية: " يا مستدق الساق! لك مطلق الحرية ".

جادله الآخر: " لماذا! ما الضرر الذي من الممكن أن يحدث؟ ".

رد السيد كودلين: " ربما لن يكون هناك أي ضرر على الإطلاق في هذه الحالة، لكن الخطر يكمن في المبدأ، لكني أكررها عليك: لك مطلق الحرية ".

- لا أفهمك! هل هما آتيان معنا أم لا؟

قال السيد كودلين: " نعم سيأتيان، لكنك بالأحرى تطمح إلى نيل معروف من وراء فعلك هذا.. أليس كذلك؟ ".

كان الاسم الحقيقي للرجل القصير هو (هاريس)، لكنه مع الوقت اندمج تدريجيًّا مع كُنية (مستدق الساق) غير المحبذة، نظرًا لما تضفيه الصفة الأولى من معنى يفيد الصغر، وصغر الساق يعني قصرها، كان السبب الكامن وراء نعته بتلك اللفظة؛ قصر ساقيه. لكن عبارة: " مستدق الساق القصير " لم تكن مريحة أو مألوفة؛ كي يتم تداولها في حديث بين أصدقاء؛ كان اسمًا مركبًا وطويلًا، لذلك عُرف بين أصدقائه: بـ " القصير " أو " مستدق الساق "، نادرًا ما كانوا يخاطبونه بتسميته كاملة " مستدق الساق القصير "، عدا في محادثاتهم الرسمية أو المناسبات أو الاحتفالات.

انكب القصير أو مستدق الساق - كيفما يحبذ القارئ - على الطعام في استمتاع نهم، كرد فعل - يميل إلى التفكه - على احتجاج صديقه السيد توماس كودلين، متجاهلًا استياءَهُ، أخذ يلتهم اللحم البقري المسلوق والخبز والزبد، ويشرب الشاي، مستحثًّا رفاقه على أن يفعلوا مثله تمامًا. في واقع الأمر، لم يلتفت السيد كودلين إلى مثل تلك الطريقة؛ لحثه على تناول الطعام؛ فقد أكل بالفعل ملء بطنه، وشرع في ترطيب جوفه بنبيذ المِزْر قوي المذاق، فارتشف رشفات عميقة، في صمت تام، متلذذًا بنكهته، دون أن يدعو أحدًا للمشاركة.. كمثال قوي آخر يعبر باختصار عن فكره الناقم على البشرية.

انتهى تناولهم للإفطار أخيرًا، وطلب السيد كودلين الفاتورة، وزيادة من النبيذ من أجل رفقته على وجه العموم (ربما كان ذلك هو الوجه الآخر المعبر عن النقمة على البشرية)، مقسمًا المجموع على نصفين متساويين تمامًا، مخصصًا النصف له ولصديقه، والنصف الآخر لنيل وجدها. تم كل شيء كما ينبغي له أن يتم، وصاروا مستعدين تمامًا للرحيل، ودَّعوا مالك البيت وزوجته، ومن ثمَّ انطلقوا ليستأنفوا رحلتهم.

هنا تكشَّف بقوة الوضع المستعار الذي اتخذه السيد كودلين في المجتمع، وتأثيره على تشكيل روحه الجريحة؛ كان في أمسه يتحدث من وراء ستار، يتحدث من منطلق شخصية (بانش) الذي كان بمثابة المتحكم فيه وليس العكس، ويدع المشاهدين يفهمون أنه قد حافظ على تقمص تلك الشخصية من أجل سروره المترف واستمتاعه الخاص.. وهذا كيفما كان، أما الآن، فقد عاد إلى طبيعته منهكًا يسير هزيلًا، يحمل ثِقل مخدع (بانش) نفسه فوق كتفيه، يسير على طول طريق مترب في يوم قائظ شمسه لافحة.

بدلًا من أن يلقي على صحبته وابلًا من حسه الفكاهي وفطنته، أو أن يجعل صوت عصاه المبهج يجلجل فوق رؤوس معارفه وأعوانه، كان بانش المنبسِّم بابتهاج، مرتخيًا، دون عمود فقري يقيم ظهره، تثنَّت ساقاه حول رقبته مرتين، يتدلى في ركود، داخل صندوقه المظلم، لا يظهر عليه أي مظهر من مظاهره الإجتماعية.

سار السيد كودلين بخطوات متثاقلة، يتبادل كلمة أو أخرى على فترات مع القصير، يتوقف للراحة أحيانًا، وأحيانًا أخرى يتوقف للتذمر. تقدم القصير وقاد المسيرة، يحمل صندوقًا مسطحًا حازمًا فيه أمتعته الخاصة - التي لم تكن بالقدر الكثير - معلقًا البوق النحاسي على عظمة كتفه. وقد سارت نيل وجدها يدًا بيد من خلفه، أما توماس كودلين فقد كان آخرهم.

فور وصولهم إلى أي مدينة أو قرية، أو حتى منزل منفصل ذي هيئة جيدة، سرعان ما يتوقف القصير؛ ينفخ في بوقه النحاسي، يغني في مرح، مقطعًا من أغنية بانش ورفاقه الشهيرة بنغمات طربية مبهجة. إذا سارع الناس إلى نوافذهم، يلقون بأبصارهم عليهم، ينصب السيد كودلين المسرح من فوره، ويُسدل ستاره، مخفيًا القصير خلفه، ليلوح في الهواء بشكل هستيري بعرائسه. من ثمَّ تبدأ المتعة، كان السيد كودلين هو المتحكم في طول مدة العرض، قادر على التعجيل بانتهائه، وذلك من خلال إعلان الانتصار النهائي للبطل على عدو البشرية، وفقًا لرؤيته، إذا كان ما جناه من أنصاف البنسات، قدرًا قليلًا أو وفيرًا. هكذا إذا ما فرغا من جمع أموالهما إلى آخر فارذنغ، حزما أحمالهما، ومضيا في رحلتهما مرة أخرى.

كانا في بعض الأحيان، يعزفان ألحانهما؛ يقدمان عرضهما، على جسر أو حتى معدية يمران بها أثناء ارتحالهما، لكنهما في إحدى المرات قاما بعرضهما بناءً على رغبة خاصة على أحد الأرصفة؛ حيث

طلب منهم جابٍ مخمور منعزل، العزف خصيصًا له، مقابل دفع شلن كامل، في أحد الأماكن الصغيرة. على الرغم من أن ذلك الأمر يحمل بشائر النجاح والغنى، إلا أن آمالهما كلها أحبطت، فقد كان للشخصية المفضلة في العرض، ذات الرأس الخشبي، وشريط الزينة الذهبي على المعطف، جملة تشهير موجهة للشمَّاس، ما جعل السلطات تفرض عليهم الانسحاب السريع، لكنهما على كل حال حظيا باستقبال جيد بشكل عام، وغادرا المدينة دون أن يلاحقهم فوج من أطفال مشردين يصرخون في أعقابهم، وكان ذلك نادرًا ما يحدث.
رغم الكثير من التوقفات التي عرقلت مسيرتهم لبعض الوقت، إلا أنهم كانوا قد قطعوا مسافة طويلة في تلك الرحلة، لكنهم ما زالوا يمضون في طريقهم، حتى بعد أن لمع ضيُّ القمر في السماء. استطاع

القصير بتوليه الغناء وسرد الدعابات تمضية الوقت وتمرير رتابته، كان ما فعله هو الأفضل من بين كل ما حدث. على الصعيد الآخر، كان السيد كودلين يلعن مصيره، ويسب كل الأشياء الجوفاء الموجودة على سطح الأرض - لكن بانش على وجه الخصوص نال القسط الأكبر - كان يعرج كلما خطى، حاملًا المسرح على ظهره، مستشعرًا أنه ضحية المآسي المرة.
توقفوا بعد حين عند لافتة مرورية، حيث يتقابل مفترق أربعة طرق، فأنزل السيد كودلين المسرح، وأسدل ستاره، في فعل كان محركه غريزته الناقمة على البشرية، وجلس في داخله، غير مرئي للأعين البشرية، بعيدًا عن صحبة رفاقه، بينما شوهد ظلان طويلان قادمان نحوهما، من منعطف الطريق الذي أتوا منه، كانت الطفلة مذعورة تمامًا في البداية؛ فور رؤيتها لكلا العملاقين النحيلين - فقد كانا يتقدمان في خطوات سريعة واسعة أسفل ظلال الشجر - لكن القصير أخبرها أنه لا يوجد أي داع للخوف، ونفخ في بوقه نفخة عالية، تم الرد عليها بصيحات تهليلية.
صاح السيد القصير بصوت عالٍ: " إنكم جماعة جريندر.. أليس كذلك؟ ".
ردت مجموعة من الأصوات العالية في صوت واحد: " بلى! ".
قال القصير: " إذنْ هيا تعالوا إلينا، دعونا نراكم ".
هكذا دُعيت جماعة جريندر للقدوم، فضاعفوا من سرعة قدومهم، وسرعان ما وصلوا إليهم، بحفلة صغيرة مبهجة.
كان يُطلق على رفقة السيد جريندر على نحو مألوف اسم الجماعة، تألفت جماعته من شاب وشابة يقفان على سيقان خشبية، أما السيد جريندر نفسه فكان يمشي مترجلًا على ساقيه الطبيعتين حاملًا طبلة على ظهره.
كان الزي العام للشابين هو الزي التقليدي الإقليمي لسكان المرتفعات أو الإسكتلنديين، لكن برد الليل كان قارسًا، فارتدى الشاب فوق تنورته الإسكتلندية معطفًا طويلًا للبحارة، يصل إلى كاحليه، وقبعة ناعمة لامعة، وكانت الشابة مثله تمامًا، تلفَّحت بسترة نسوية طويلة وقديمة تربط على رأسها وشاحًا. أما السيد جريندر فقد حمل على آلته الموسيقية قلنسوة إسكتلندية، مزخرفة بريش قاتم السواد.
قال السيد جريندر، متقطع الأنفاس، لاهثًا: " إنكم ذاهبون حتمًا إلى أرض السباق كما أرى.. وكذلك نحن. كيف حالك يا قصير؟ ". مع انتهائه من قوله، كانا قد تصافحا بالأيدي بطريقة ودية للغاية. كان الشابان مرتفعين جدًّا كي يقدرا على تقديم التحية المألوفة للاستقبال، لذلك ألقيا

التحية على القصير، لكن بطريقتهما الخاصة. أدار الشاب ساقه الخشبية اليمني، وربت بها على كتفه، أما الشابة فقد هزت الدف في مرح.
قال القصير، مشيرًا إلى سيقانهما الخشبية: " هل يتدربان؟ ".
رد عليه السيد جريندر: " لا! لقد خُيرا بين حملها أو المشي بها، وبالطبع فضَّلا المشي بها. إن الأمر ممتع جدًّا بالنسبة لهما.. قل لي، أي طريق تسلكونه؟ نحن ذاهبون عبر الطريق الأقرب ".
قال القصير: " إننا في واقع الأمر سنذهب عبر الطريق الأطول؛ لأننا بعد ذلك سنتمكن من التوقف طوال الليل، لم يعد أمامنا تقريبًا سوى ميل ونصف. لكن ثلاثة أو أربعة أميال لليلة، سيوفر الكثير لنا غدًا، لكن في حال إذا واصلت فعلك، سـ....، أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نمضي معًا ".
سأل جريندر: " أين شريكك؟ ".
صاح السيد توماس كودلين: " ها هو! ". ثم أخرج رأسه من مقدمة المسرح الخشبي، وعلى ملامحه تعبيرٌ، ينم عن هدوء ورزانة، قلما نراهما على وجهه، ثم أكمل قائلًا: " وسيرى شريكه يُسلق حيًّا، قبل أن يكمل مسيرته الليلة.. وهذا ما يقول ".
جادله القصير: " حسنًا حسنًا.. لا تقل مثل هذا القول أمامهم، إن العصا كُرست من أجل المتعة.. احترم الجماعات يا تومي، خاصةً إذا كنت تنتقد بشدة ".
قال السيد كودلين: " بشدة أو بلين ". ضرب بيده نحو أسفل قدميه، حيثما كان بانش راقدًا، متلمسًا تطابق ساقيه، وكفاءة جواربه الحريرية، التي صنعت من أجل إثارة الإعجاب العام، ومن ثمَّ استطرد في حديثه: " بشدة أو بلين.. لن أذهب أكثر من ميل ونصف الليلة، لن أتوقف حتى الوصول إلى نزل (جولي ساندبويز) وليس في أي مكان آخر. إذا رغبت في المجيء إلى هناك، فلتأت. إذا رغبت في الاستمرار بمفردك، فاستمر بمفردك، وافعل ذلك من دوني، إذا سولت لك نفسك أنك تستطيع حقًّا ".
هذا ما قاله السيد كودلين، وإذ به يختفي في لمح البصر، ويظهر في التو واللحظة خارج المسرح، يحمله على كتفيه في رجة عنيفة، وانطلق في خفة ملحوظة.
بدا أي جدال في ذلك الوقت مرفوضًا تمامًا، لم يكن في سعة القصير، سوى أن يترك السيد جريندر ويلحق برفيقه المنجهم نكد المزاج. بعد أن بقى لبضع دقائق عند اللافتة المرورية؛ يرى السيقان الخشبية تتمايل في ضي القمر، وحامل الطبلة يكد في مشيته في بطء من بعدهما، نفخ في بوقه عدة مرات، كإشارة لوداعهم، ومن ثمَّ انطلق بكل ما أوتي من قوة في سرعة بالغة؛ كي يلحق بالسيد كودلين، مع انتهاء هذا المشهد، مدَّ يده الشاغرة إلى نيل، موصيًا إياها بأن تبتهج فقد قاربا على نهاية رحلتهم لتلك الليلة، باعثًا بإيماءات تشجيعية للعجوز، تفيد التأكيد نفسه، ثم قادهما بوتيرة سريعة، نحو وجهتهم، رغم أن ذلك كان آخر ما يرغب في القيام به؛ فقد كان القمر غائمًا، والسحب تنذر بهطول الأمطار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثامن عشر

كان (جولي ساندبويز) نزلًا صغيرًا، يقع على جانب الطريق، منذ الزمن القديم الجميل، تميَّز بشعار خاص على الجانب المقابل من الطريق، كان عبارة عن ثلاثة صبية يبعثون البهجة في إفراط حاملين أباريق الجعة وسُرر ذهب، تصر وتتأرجح في مكانها. أما المرتحلون فكانوا قد أبصروا الكثير من الدلائل، التي تشير إلى اقترابهم الحثيث من مدينة السباق، فقد رأوا معسكرات الفجر والعربات المحملة بمقصورات المقامرة ولوازمها ومقدمي الاستعراضات المتجولين أصحاب الطقوس المتنوعة والشحاذين والمتنقلين ذوي الأعراق المختلفة، يتوافدون من كل حدب وصوب نحو الوجهة عينها، مع تلك المظاهر، كان السيد كودلين مرتابًا؛ يخشى أن يكون أحد قد استولى على مكان إقامة استعراضه، كان خوفه يتزايد أكثر فأكثر؛ كلما تقلصت المسافة الفارقة بينه وبين النزل، لذلك سرَّع من وتيرة سيره، على الرغم من ثقل ما وجب عليه حمله، حافظ على سرعة هرولته، حتى وصل إلى عتبة الباب. لكن السيد كودلين شعر فور وصوله بالامتنان العارم؛ فقد اكتشف أن مخاوفه لم يكن لها أي داعٍ من الأساس؛ فقد رأى مالك النزل يقف في تكاسل، مستندًا إلى الباب، ينظر في رتابة إلى المطرٍ، الذي بدأ يهطل في انهمار شديد في تلك الأثناء، ولم يدوِّ في الأفق أي رنين للجرس المصدوع، أو صيحات عالية، أو أصوات الجوقة الصاخبة، أو أي مما قد يدل على وجود أي رفقة بالداخل.

قال السيد كودلين، وهو يضع حِمله أرضًا، ماسحًا جبهته براحة يده: " ألا تزال بمفردك؟ ".

رد مالك النزل، معلقًا عينيه إلى الأعلى، ناظرًا نحو السماء: " بمفردي حتى الآن، لكنني أظن أنه مع حلول الليل سيكون لدينا الكثير من الرفقة. فليأتِ أحدكم أيها الصبية؛ كي يحمل لوازم هذا العرض إلى الحظيرة. هيا أسرع نحو الداخل إلى الدفء، بعيدًا عن الأمطار يا توم.. لقد أوصيتهم أن يشعلوا النيران، يمكنني أن أجزم لك أن المطبخ الآن به شعلة متوهجة عظيمة، سينشرح لها قلبك بمجرد رؤيتها ".

تبعه السيد كودلين بشغف خالص إلى الداخل. وفور وصوله، سرعان ما استدل على السبب وراء ثناء مالك النزل على فعله؛ مدركًا أن مقدار تمجيده لتحضيراته لم يكن من فراغ. اشتعلت النيران أسفل الموقد، وارتفع صوت الأزيز، ليكشف عن مرجل حديدي كبير موضوع على الموقد، يبقبق ويغلي ما فيه، باعثًا أجواء لطيفة. خيم على الغرفة لون ضارب إلى الحمرة الغامقة، أذكى مالك النزل النيران وسعرَّها، زائدًا من لهيبها، فأخذت الشعلة تعلو ويتقافز شررُها، ثم أزاح غطاء المرجل الحديدي، ففاحت الرائحة اللذيذة، وبدا صوت البقبقة غنيًا وأكثر عمقًا، وقد تصاعد البخار المشبع بالدهن، عالقًا فوق رؤوسهم في سحب ضبابية غنية باللذة. حينما فعل مالك النزل ما فعل، شعر السيد كودلين أن قلبه قد غُمر بالسعادة. جلس إلى جانب المدخنة، يبتسم مبتهجًا.

جلس السيد كودلين إلى جانب المدخنة يبتسم بكل قسمات وجهه، يثبت ناظريه على مالك النزل، الذي اعتلت وجهه نظرة لئيمة، بينما كان يحمل غطاء المرجل في يده، متظاهرًا أن ما يفعله ضروريٌّ، من أجل إضفاء الجودة على الطهي، لكنه في واقع الأمر كان يوجه الأبخرة الشهية نحو ضيفه؛ لتداعب أنفه. أضفى توهج النيران على رأس مالك النزل الأصلع لمعة مميزة،

أوضحت بريق عينيه، وكشفت عن فمه الذي يسيل منه اللعاب، ووجهه الممتلئ بالبثور، واستدارة جسده السمين.
سحب السيد كودلين طرف كمه، واضعًا إياه على شفتيه، قال متمتمًا: " ما هذا؟ ".
قال مالك النزل لاعقًا شفتيه في تلذذ: " إنها يخنة من اللحم والخضار "، ثم لعق شفتيه ثانيةً: " وكَرَع بقرة "، ثم لعق شفتيه مرة أخرى: " ولحم الخنزير المقدد "، ثم لعق شفتيه لمرة إضافية: " وشريحة من لحم البقر "، ثم لعق شفتيه للمرة الرابعة على التوالي: " والبازلاء والقرنبيط والبطاطس ونبات الهِليون، كلها مختلطة ببعضها تنضج في مرق دسم لذيذ واحد ". بمجرد أن أنهى قوله، وتبيَّن عليه أنه وصل إلى قمة النشوة، لعق شفتيه مرات عديدة متتابعة في شره شديد، أخذ نَفسًا طويلًا وعميقًا، يتشمم رائحة الطعام الذكية التي تفوح من حوله، ثم وضع غطاء المرجل مرة أخرى، مكمدًا الهواء، الذي انتهى به الحال هابطًا على الأرض.
سأل السيد كودلين بصوت واهن قائلًا: " في أي وقت ستكون جاهزة؟ ".
قال مالك النزل، ناظرًا إلى الساعة، التي عكست لونها على وجهه الأبيض السمين: " ستكون جاهزة حينما.. "، ثم تطلع إلى ساعة (جولي ساندبويز) على سبيل الاستعانة والتشاور: " ستكون جاهزة في تمام الساعة الحادية عشرة واثنتين وعشرين دقيقة ".
قال السيد كودلين: " حسنًا! فلتحضر لي نصف لتر من الجعة الدافئة، ولا تدعْ أحدًا يدخل إلى هذه الغرفة، حتى وإن كان من أجل أن يجلب البسكويت، حتى يحين ذلك الوقت ".
عبر مالك النزل عن موافقته بإيماءة تجاه تلك التوصية المشددة الحاسمة، وانتقل من فوره ليحضر الجعة، ومن ثمَّ عاد بها، سكبها في وعاء صغير على شكل قمع؛ كي يكون ملائمًا للإمساك به عند توجيهه نحو النيران من أجل تدفئتها. سرعان ما انتهى، قدَّمها إلى السيد كودلين، وقد اعتلى سطحها الزبد الكريمي، الذي دائمًا يكون أفضل ما في شراب الشعير.
نَعِم السيد كودلين بفائض من الراحة بفضل ذلك الشراب الملطِّف، جلس يتفكَّر في صحبته، مُطلِعًا من كان مضيفًا له من الصبية أنهم على وشك الوصول. كان المطر ينهمر بغزارة في الخارج، متساقطًا على النوافذ، متدفقًا في سيول جارفة، وكرد فعل غير معهود من السيد كودلين، تمثَّلت عاطفته الجياشة في تعبيره لأكثر من مرة عن أمله الجاد في ألا يكونوا أغبياء بالقدر الذي يعرضهم للغرق في مياه الأمطار.
على أي حال، بعد مضي فترة من الوقت، وصلوا أخيرًا، وقد غمرتهم مياه الأمطار تمامًا، على الرغم من أن القصير كان قد قام بإيواء الطفلة، أسفل ذيل معطفه، بدوا جميعًا في حال بائس يرثى له، مقطوعي الأنفاس جراء العجلة التي تحركوا بها. كان مالك النزل يقف منتظرًا عند الباب الخارجي، يعتريه القلق، يراقب المارة؛ مترقبًا وصولهم فور سماعه وقع أقدامهم على الطريق عند وصولهم، سارع نحو المطبخ ورفع الغطاء عن المرجل. كان تأثير ما فعله فعَّالًا؛ إلى الدرجة التي جعلتهم يتقدمون مبتسمي الوجوه، على الرغم من المياه التي كانت تقطر من ملابسهم على الأرض، لم يعر القصير أي انتباه لحاله، وأدلى من فوره بملاحظته الأولى قائلًا: " يا لها من رائحة زكية! ".
لم يكن من الصعب إطلاقًا نسيان المطر والوحل بمجرد أن أصبحوا بجانب النيران الباعثة على السكينة وفي غرفة مضيئة. سرعان ما تزودوا بنعال وملابس جافة من النزل أو من حزمهم الخاصة، ومن ثمَّ التفوا من توِّهم في زاوية دافئة، إلى جانب المدخنة، مثلما فعل السيد كودلين

من قبل، وسرعان ما نسوا مشاكلهم الأخيرة، - أو أقرب إلى الواقع - سرعان ما تعايشوا بكافة جوارحهم مع اللحظات السعيدة التي يمرون بها في وقتهم الحالي. مع هيمنة الدفء والراحة على المكان، وسيطرة الإنهاك على جسد نيل وجدها، لم يلبثا في مقعديهما كثيرًا، حتَّى راحا في نوم عميق من فورهما.
قال مالك النزل هامسًا: "من هما؟ ".
هزَّ القصير رأسه، بما يدل على أنه كان يتمنى لو يعرفهما.
إلتفتَ من توه نحو ضيفه الآخر، وسأل السيد كودلين: " ألا تعرفهما أيضًا؟ ".
أجابه قائلًا: " لا أعرفهما.. لكنني أحسب أنهما غير جيدين ".
قال القصير: " بلى! قل إنهما غير مؤذيين.. كي أُثبت رأيي، دعني أوضح لك واقع ما هما عليه.. إن الرجل العجوز ليس في كامل قواه العقلية.. ".
قاطعه السيد كودلين مدمدمًا، محدقًا في الساعة: " إذا لم يكن لديك معلومة مفيدة تقولها، سيكون من الأفضل أن تدعنا وشأننا؛ كي نتناول العشاء دون إزعاج ".
رد عليه صديقه في حسم: " اسمعني أولًا.. هل سيكون ذلك ممكنًا؟ أعلم أن ما قلته واضح للجميع، لكنني أريد أن أخبرك أنهما ليسا معتادين على تلك الطريقة من الحياة.. لا تقل لي إن هذه الطفلة الرقيقة معتادة على الارتحال هنا وهناك، فلقد أبصرت بنفسك كيف كان حالها في اليومين أو الثلاثة أيام الماضية. أحسب أنني أعرف هذا أفضل من أي أحد آخر ".
عارضه السيد كودلين بحجة حاسمة: " حسنًا.. كيف لك أن تعرف هذا! من الذي أخبرك بأنها حقًّا على نحو ما تعتقد؟ ". حينها نظر إلى الساعة، ومن ثمَّ إلتفتَ إلى المرجل، ثم أكمل قائلًا: " ألا يمكنك التفكير في شيء أكثر ملاءمةً للظروف الحالية، أفضل من أن تقول شيئًا ثم تناقضه برأي آخر في التو؟ ".
رد القصير: " كم أود لو يقدم أحدهم العشاء لك؛ لعلَّك تُهدئ من روعك، وينتابك السلام! هل لاحظت مدى قلق الرجل العجوز حيال المضيِّ قُدمًا.. لطالما استشعرت رغبته نحو الهروب بعيدًا.. الهروب بعيدًا جدًّا.. هل لاحظت ذلك؟ ".
تمتم توماس كودلين: " آه! وماذا بعد؟ ".
استطرد القصير: " ماذا بعد! إن هذا الرجل العجوز قد نصب على أصدقائه. تدبر فقط ما أقول.. إن هذا الرجل العجوز قد نصب على أصدقائه، ومن ثم أقنع تلك الطفلة البريئة الرقيقة أن تكون هي دليله ومرشدته ورفيقة ترحاله، مستغلًّا حبها إيَّاه وولعها به.. إنه كمن ضل سبيله، لا يعرف أين وجهته من الأساس. لذلك أنا على وشك أن أوقف هذا ".
صاح السيد كودلين: " إنك لن توقف أي شيء ". نظر نحو الساعة مرة أخرى، شد شَعره من كلا الجانبين، في نوع من السعار المجنون، كان من الصعب تحديد ما إذا كان مصدره ملاحظات رفيقه أم بطء مرور الوقت: " إنك لن توقف أي شيء، إن هذا هو حال الدنيا التي نعيش فيها ".
ردد القصير بشكل متقطع وبوتيرة بطيئة: " إنني لن.. أوقف أي.. شيء! بلى! إنني لن أقف متفرجًا، أرى تلك الطفلة المسكينة تقع تحت طائلة أيادٍ شريرة، وتُسحب إلى واقع به أناس لا يشبهونها، بدلًا من أن تنخرط في عالم يشبهها مليء بالملائكة، تحظى من بينهم على أصدقاء عاديين. لذلك، عندما يعقدا النية على أن يفارقا صحبتنا، سأتخذ التدابير لاحتجازهما؛ ومن ثمَّ سأعيدهما إلى

أصدقائهما، أكاد أجزم أن سُمعتهما في هذا الحين قد لطخت في جميع شوارع لندن، وأصبحت سيرتهما مضغة بين كل الناس ".
كان السيد كودلين قد أسند رأسه على راحة يديه، واتكأ بمرفقيه على ركبتيه، بهز نفسه بلا صبر حينًا، مدبدبًا على الأرض في أحيان أخرى، حينما فرغ القصير من قوله، نظر إلى الأعلى متلهف العينين، وقال: " اسمعني يا قصير! من المحتمل أن شعورًا جيدًا غير مألوف قد راودني حيال ما قلته، وأنني أستسيغ قولك. على أي حال، إذا صح قولك، وحصلت على مكافأة، تذكر فقط أننا شركاء في كل شيء يا قصير! ".
لم يكن لدى رفيقه الوقت الكافي للرد عليه، سوى بإيماءة تعني موافقته. استيقظت الطفلة في اللحظة نفسها. حينما كانا يتهامسان معًا، كانا قد اقتربا من بعضهما، لكنهما فور سماعهما اقتراب خطوات غريبة، دنت من الدخول إلى مجلسهما، انفضَّا في عجالة مبتعدين، حاولا في غرابة اختلاق حوار آخر، يتبادلان حوله الحديث، متصنعين نبرة صوتهما العادية.
لم يكن هناك أي أحد على الإطلاق، فقد كانت أصوات الخطوات لأربعة كلاب شديدة القبح، جاءت واحدًا تِلْوَ الآخر، يتقدمها كلب عجوز ذو مظهر كئيب، توقف عِند عتبة الباب عندما وصل آخر أتباعه، انتصب على قائمتيه الخلفيتين، ومن ثمَّ نظر إلى رفقته، فقلدت جلسته في الحال، وانتصبت جميعًا على قوائمها الخلفية، واصطفت في مظهر حزين وقابض. لم يكن هذا بالشيء الوحيد الملحوظ، الذي بدا على الكلاب، فقد كان كل كلب على حدة مرتديًا معطفًا صغيرًا ذا ألوان مبهرجة، مزركشًا بلمعة فقدت بريقها، وكان أحدها معتمرًا قبعة على رأسه، مربوطة بإحكام أسفل ذقنه، لكنها سقطت على أنفه، فغمت عينيه تمامًا، إضافة إلى ذلك، كانت المعاطف المبهرجة شديدة البلل، طُمث لونها بفعل ماء المطر، أما مرتدوها، فقد بدت الكلاب جميعها متسخة، تتناثر منها قطرات المياه التي أغرقتها تمامًا، لكن صبية النزل قد أوضحوا ماهية ذلك المظهر غير المألوف لهؤلاء الزوار الجدد.
مع ذلك، لم يكن القصير أو مالك النزل أو توماس كودلين أقل دهشة، بالرغم من أنه تمت الإشارة إلى أنها كلاب (جيري)، وأنه على وشك الوصول في أي لحظة؛ فلا يمكن له أن يكون بعيدًا عن الركب. ثبتت الكلاب على الوضع الذي اتخذته سابقًا في صبر، لكنها باتت تغمز إلى المرجل وتنظر إليه وتحدِّق فيه، إلى أن ظهر جيري نفسه، عدلت عن وضعها من توها، وسارت في الغرفة بطريقة طبيعية. وعلى الرغم من رجوعها إلى الوضع العادي، لم يحسِّن ذلك كثيرًا من المظهر العام، أو يقلل من حالة الاستنكار؛ فلا تزال أذيال معاطفها غير متوافقة مع أذيالها الخاصة، وإن بدا كل شيء على حدة عاديًا.
كان جيري هو مدرب تلك الكلاب الراقصة، كان طويلًا ذا بشرة داكنة، يرتدي معطفًا مخمليًا، بدا معروفًا تمامًا لصاحب النزل وضيفَيه، فقد شاعت مودة عظيمة فيما بينهم. أخفض آلة الأُرْغُن الموسيقية عن
عاتقه، بوضعها على كرسي، لكنه احتفظ بسوط في يده؛ كي تخشاه رفقته الفكاهية، وجلس بالقرب من النيران؛ كي يجفف نفسه، ومن ثمَّ أشرك نفسه في الحديث.
قال القصير، مشيرًا إلى ثياب الكلاب: " إن رفقتك لا تسافر عادةً في مثل تلك الثياب، أليس كذلك؟ ينبغي أن يكون لمجيئكم مجيءٌ حافلٌ مردود ثمين، أليس كذلك؟ ".

رد جيري قائلًا: " لا! إنها ليست عادتنا، لكننا قدَّمنا عروضًا بالفعل اليوم ونحن في طريقنا حيث خرجنا مرتديين ثيابًا جديدة، بينما كنا متجهين نحو أرض السباقات، لذلك حسبت أن خلع الملابس أمر لا يستحق التوقف.. إلى الأسفل يا بيدرو! ".
كان هذا الأمر موجهًا إلى الكلب الذي اعتمر قبعة، بدا عليه أنه عضو جديد انضم حديثًا إلى باقي الجمع، غير مدرك لما يتوجب عليه فعله، فثبَّتَ عينيه المغشيتين على رئيسه في اضطراب، واقفًا على قائمتيه الخلفيتين طوال الوقت، من دون أي مناسبة. كان يسقط، ويقف مرة أخرى، ثم يسقط ثانيةً.
قال جيري، واضعًا يده في الجيب الواسع لمعطفه، غامسًا إياها في زاوية واحدة منه، يتحسس شيئًا دائريًّا، في حجم برتقالة صغيرة أو تفاحة مثلًا: " لقد حصلت على حيوان آخر، إن لديَّ حيوانًا صغيرًا هنا، أحسب أنك تعرف شيئًا عنه يا قصير! ".
صاح القصير: " آه! دعني أُلقي نظرة عليه ".
أظهر جيري جروًا صغيرًا جدًّا من سلالة (الترير) وقال: " إنه نسخة من (توبي)، أليس كذلك؟ ".
في بعض الأجزاء الدرامية الحافلة التي يقدمها بانش، كان هناك كلب صغير - في النسخة الحديثة - يعتبر ملكية خاصة لهذا الرجل، وكان يدعى دائمًا (توبي). كان ذاك الكلب المدعو (توبي) قد سُرق من رجل آخر، وتم بيعه بطريقة احتيالية إلى البطل حسن الظن بالناس، الذي لا يعتريه أدنى شك حيال مكر نفوس الناس، لكن توبي ظل ممتنًّا بشدة لسيده القديم، متعنتًا في الاختلاط بأي رعاة جدد، لم يكن رافضًا تدخين الغليون؛ مزايدًا على بانش فحسب، بل أظهر أكثر ما يبين إخلاصه لراعيه القديم، فقبض على أنفه واعتصرها في عنف شديد بأنيابه، مؤثرًا بعمق في نفوس المتفرجين جميعًا. كان هذا هو السلوك الذي يؤديه توبي الصغير ببراعة، إذا شعر بأي ريب حيال أي موقف يواجهه، يلزم الحذر في حرص متخذًا السلوك نفسه من فوره، وذلك هو ما فعله تمامًا، لكنه حينما لمح القصير والصندوق المسطح إلى جانبه، لم يقتصر الأمر على إظهار العنف نفسه، بل بدت عليه أكثر أمارات الوعي بما يدور حوله، نابحًا بشراسة شديدة، ينظر إلى الصندوق، كأنه على مرأى من الأنف الورقية التي بداخله، لذلك اضطر حامله إلى كبت هياجه وإعادته إلى جيبه مرة أخرى؛ كي لا يصيب باقي الرفقة بالذعر، ما أضفى ارتياحًا كبيرًا على نفوسهم.
على غرار ما يحدث دائمًا، انشغل مالك النزل في بسط غطاء المائدة، وساعده السيد كودلين طواعية، فوضع سكينته وشوكته الخاصة في أكثر الأماكن ملاءمة له مستكينًا وراءهما. حينما أصبح كل شيء جاهزًا، رفع مالك النزل غطاء المرجل لآخر مرة، وأحدث صوتًا يعد بالعشاء، بدا السيد كودلين كما لو كان سينقض بنفسه على الموقد، إذا وضع مالك النزل غطاء المرجل مرة أخرى، أو أعلن مثلًا عن أن العشاء سيؤجل.
على كل الأحوال، لم يحدث شيء من هذا القبيل، بدلًا من ذلك تقدَّم وساعد إحدى الخادمات في تفريغ محتويات المرجل في سلطانية كبيرة، وقد كان ذلك أمرًا مشهودًا بالنسبة إلى الكلاب جميعها، إذ صارت تتلهف في نهم شديد، يزداد مع تساقط النقط الساخنة على أنوفها. في النهاية، حُمِلت السلطانية إلى الطاولة، وقد رُصت عليها أكواب الجعة مسبقًا في شكل دائري، وغامرت نيل بترديد أدعيتها وتقديم الثناء، قبل بدء العشاء.

مع بدء تلك التحضيرات، وقفت الكلاب ثابتة على قوائمها الخلفية بشكل مدهش، بينما أشفقت الطفلة على حالها، وأوشكت على إلقاء بعض فئات الطعام لها قبل أن تتذوقه حتى، على الرغم من شعورها بالجوع القارس، لكن مالك الكلاب حينما رآها مقبلة على فعلها، تدخل في الحال:
" لا! لا يا عزيزتي.. إنها لا تأكل حتى الذرة من أي يدٍ أخرى غير يدي.. لكن إذا سمحتي! هذا الكلب.. ". أشار جيري إلى القائد القديم للحشد، مستكملًا حديثه في لهجة مخيفة: " هذا الكلب قد أضاع علينا نصف بنس اليوم، لذلك سيمضي دون عشاء ".
وقف المخلوق المسكين على قوائمه الأربعة مباشرة، هز ذيله،
ينظر إلى سيده في إلتماسٍ شديد.
مشى جيري غير مكترثٍ نحو الكرسي، الذي وضع عليه آلة الأُرغُن، ومن ثمَّ جلس في هدوء، وقال: " يجب أن تكون أكثر حذرًا يا سيدي.. تعالَ إلى هنا. الآن يا سيدي! عليك أن تعزف طوال فترة تناولنا للعشاء، وإياك أن تجرؤ على التوقف ولو لوهلة ".
شرع الكلب من فوره في العزف، لكن الموسيقى كانت نشازًا وكئيبة. أراه سيده السوط الذي أمسك به، بينما ظل جالسًا على مقعده، واستدعى باقي الكلاب، التي رضخت من فورها إلى توجيهاته، مصطفة على التوالي، كأنها فرقة عسكرية.
قال جيري، وهو ينظر إليها في انتباه: " الآن أيها السادة، بإمكان الكلب الذي سوف يسمع اسمه أن يأكل، أما الكلاب الأخرى، التي لن تكون قد سمعت أسماءها بعد، فعليها أن تبقى هادئة.. كارلو! ".
إلتقطَ المحظوظ الذي نُطق اسمه في البداية، لقمة أُلقيت نحوه، بينما ظلت الكلاب الأخرى ثابتة في مكانها دون حراك. ظل الأمر على هذا المنوال، تطيع الكلاب سيدها، تأكل حسب إرادته.
في تلك الأثناء، كان الكلب الأول في حالة من النكبة الشديدة عند الأُرغُن، يُسرِّع أحيانًا من إيقاع العزف، ثم يبطئ أحيانًا أخرى، لكنه أبدًا لم يتوقف ولو للحظة. عندما كان يعلو صوت رنين السكاكين والشوك بشدة، أو تُلقى قطعة كبيرة من الطعام - على نحو غير مألوف - إلى رفاقه، كان يصاحب عزفه عواء قصير، لكنه سرعان ما يكف عنه؛ حينما يلتفت إلى سيده ويراه ناظرًا إليه، فينكب من فوره على عزف لحن الترنيمة "المئوية " بمزيد من الحرص.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل التاسع عشر

لم يكن العشاء قد انتهى، حينما وصل مسافران آخران إلى (جولي ساندبويز)، قاصدين ملاذ الراحة نفسه الذي قصده البقية، كانت مياه الأمطار تغمرهما بالكلية؛ فقد سارا تحت المطر لعدة ساعات متواصلة، وصلا مبللين ثقيلين لامعين بسبب المياه. كان أحدهما هو الحاوي صاحب العملاق والسيدة الضئيلة، من كانت تتخبط داخل عربة، فلا ساقان لها ولا ذراعان، وكان الآخر رجلًا صامتًا لا يُكثر الحديث، يكسب قوته عن طريق تأديته للألعاب السحرية، والقيام ببعض الخدع بالبطاقات الورقية، أو عن طريق قيامه بألاعيب أفسدت بدورها ملامح وجهه؛ فقد اعتاد على أن يضع خُصِيًّا صغيرة كالرصاص في عينيه، ومن ثم يخرجها من فمه، وكانت تلك الخدعة إحدى أبرع إنجازاته المهنية. كان اسم أول القادمين الجدد هو (فوفين)، أما الآخر فكان اسمه (ويليام الجميل)، لكن لقبه قد بدا كأنه بالأحرى تهكمًا على مدى قبح شكله.
تحرَّك مالك النزل في مظهر رشيق؛ كي يهيئ لهما سبل الراحة، يرحب بهما، ويفسح لهما مكانًا، وبعد مرور لحظات قليلة فحسب، كانا قد أَلِفا المكان.
قال القصير، بينما كانوا جميعًا يدخنون حول النيران: " كيف حال العملاق؟ ".
رد عليه السيد فوفين: " أصبحت قائمناه ضعيفتين.. أخشى أن ينحدر به الحال ويخر راكعًا على ركبتيه ".
قال القصير: " سيكون منظرًا سيئًا ".
رد السيد فوفين، وهو ينفخ في النيران بتنهيدة عميقة: " آي! وأي سوء! بمجرد أن يترنح العملاق قليلًا، ويتبين للعامة أن قائمتيه لم تعودا قادرتين على حمله، لن يكترثوا به على نحو أكبر من اكتراثهم بقلب ملفوف ذابل ".
قال القصير، ملتفتًا إليه مرة أخرى، بعد أن أشاح بنظره قليلًا: " ماذا حلَّ بالعمالقة العجائز؟ ".
قال السيد فوفين: " عادةً يتم احتجازهم في القوافل؛ لانتظار الأقزام ".
علَّق القصير، ناظرًا إليه في ارتياب شديد: " لكن الاحتفاظ بهم من دون عرضهم سوف يكلف الكثير، أليس كذلك.. هاه؟ ".
قال السيد فوفين: " في واقع الأمر هذا أفضل بكثير؛ من أن أطلق سراحهم في الشوارع أو في الأبرشية.. إن حدث وأصبحت العمالقة مألوفة لدى العموم، لن يستهووها مرة أخرى. تأمل السيقان الخشبية. إذا كان هناك شخص واحد لديه ساق خشبية، فما الرجاء منها إذَنْ! ".
رد القصير ومالك النزل في نفس واحد: " نعم.. هذا صحيح جدًّا ".
لاحقهم السيد فوفين قائلًا: " ولكنك إذا كنت تقدم عرضًا لشكسبير، وعرضته كاملًا بواسطة أرجل خشبية، أعتقد أنك حينها لن تحصل حتى على ستة بنسات ".
قال القصير: " بالطبع، أظن فعلًا أنك لن تحصل عليها ". وهذا ما قاله مالك النزل أيضًا.
قال السيد فوفين، زافرًا دخان غليونه، نافدَ الصبر: " إن هذه العروض هي بوليصة الحفاظ على استمرارية وجود العمالقة في القوافل، فَهُم يحصلون على الطعام والسكن طوال حياتهم، مقابل لا شيء، وبصفة عامة يا له من نعيم بالنسبة إليهم. حدث ذات مرة أن أحد العمالقة - العملاق الأسود حسبما أتذكر - بمجرد أن غادر قافلته قبل نحو عام؛ لكي يُسخَّر في تسديد فواتير مدربه

في لندن، أصبح لا يعول عليه، أصبح رخيصًا في مثل رخص مقشات الطرق، ومات.. ". ثم نظر في ما حوله في جدية، وأكمل قائلًا: " إنني لا ألمح بكلامي ضد أي شخص على وجه الخصوص، أردت أن أقول فقط أنه دمَّر التجارة.. ومن ثم مات ".
إلتقط مالك النزل أنفاسه بصعوبة شديدة، ونظر إلى مالك الكلاب، حينما هز رأسه، وقال في فظاظة أنه يتذكر.
قال السيد فوفين، في نبرة مهتمة: " أعلم أنك كذلك يا جيري.. أعلم أنك تتذكر فعلًا، وأعلم أيضًا أن الرأي العام يجد أن ما حدث خدمه بشكل أو بآخر على نحو صائب. أحسب أنني أتذكر الفصول الشتوية، وقت إنتهاء الموسم، حيث كان (موندرز) العجوز يأوي في كوخه الريفي، في حقول (اسبا)، ثمانية من الأقزام، ذكورًا كانوا أو إناثًا، يجلسون يوميًا ليتناولوا العشاء، وفي انتظارهم جنبًا إلى جنب يجلس ثمانية من العمالقة، في معاطفهم الخضراء، وملابسهم التحتية الحمراء، وجواربهم القطنية الزرقاء، وأحذيتهم عالية الرقبة، وكان من بين الأقزام واحد، صار كهلًا وحشيًّا؛ حينما يجد عملاقه غير سريع بما يكفي لإرضائه، يلصق البنسات بقدميه، فلم يكن ليصل لأعلى من ذلك. أعي تمامًا بحقيقة ما قلت ومتأكد تمامًا من صحة حديثي؛ فقد أخبرني بهذا الأمر (موندرز) نفسه ".
عقَّب مالك النزل مستفسرًا: " وما مصيرا القزم عندما يصير كهلًا؟ ".
أجابه السيد فوفين: " كلما صار القزم كهلًا، كلما أصبح الأمر أفضل، تصور معي أن قزمًا عجوزًا ذا رأس شاع فيها اللون الرمادي، وتجعدت بشرته تمامًا، في الحال نفسه، بالطبع سيمحي كل التكهنات، وبإمكانه التأقلم. على الصعيد الآخر، تصور معي أن عملاقًا صار كهلًا، ولم يعد يستطيع أن يقف على قائمتيه، وظهر عليه الوهن! حينها لن أملك أي حيلة سوى أن أحتجزه في العربة، ولا أظهره أبدًا على أي حال، مهما كلف الأمر، ومهما كانت الإغراءات التي تُعرض عليَّ ".
بينما كان السيد فوفين وصديقاه يدخنون غلايينهم، ويعملون على إضاعة الوقت في حديث كهذا، ظل الرجل الصامت في ركنه الدافئ، يبتلع - أو كما يبدو وكأنه يبتلع - ست عملات من فئة نصف البنس؛ كتدريب على عرضه، ويوازن ريشة على أنفه، ويختبر مآثر أخرى من البراعة على الشاكلة نفسها، دون إيلاء أي انتباه لرفاقه الذين لم يلتفتوا إليه أيضًا، تاركينه دون اكتراث مهما فعل. على كل حال، بعد مضيٍّ فترة من الوقت، حثَّت الطفلة المتعبة جدها على أن ينسحبا من المجلس، وهذا فعلًا ما قاما به، فتركا الصحبة جالسة حول النيران، والكلاب نائمة على مقربة منهم.
بعد أن لبَّت كافة احتياجات جدها، وقدمت إليه كل شيءٍ ممكن، وتمنت له ليلة سعيدة، انزوت نيل المسكينة منعزلة في علية النزل، حينما وصلت، وبمجرد أن أغلقت الباب خلفها، سمعت طرقات خافتة عليه.. فتحت الباب مباشرة، وذهلت حقًّا من رؤية السيد توماس كودلين، فقد تركته للتو، نائما أسفل الدرج.
قالت الطفلة: " ما الأمر؟ ".
رد عليها زائرها: " ليس بالأمر المهم يا عزيزتي.. أريدكِ فقط أن تحتسبيني صديقًا. ربما لا تتوسمين فيَّ خيرًا، ولا تعتبريني على هذا النحو، لكنني أنا من سأكون صديقًا لكِ.. وليس هو ".
قالت الطفلة مستفسرةً: " من هو؟ ".

قال كودلين: " أقصد القصير يا عزيزتي، دعيني أخبرك أمرًا.. أعلم أن كل ما فعله معكما طوال الطريق يجعلكما تميلان إليه وتعجبان به.. لكن أنا الرجل الصادق الحقيقي. أعلم أنني لا أبدو كذلك، لكن تلك هي حقيقتي في الواقع، أنا الرجل الصادق، أنا صاحب القلب اللين ".
بدأت الطفلة تشعر بالارتياب، تظن أن الجعة قد أثرت في عقل السيد كودلين، وأن ثناءه على نفسه كان نتيجة عادية لذلك.
استأنف الناقم على البشرية حديثه، وقال: " إن القصير شخص جيد جدًّا، يبدو عطوفًا، لكنه أصبح يزايد في كونه كذلك. أما أنا الآن، فلا ".
من المؤكد أنه إذا ما استشعرنا أي غرابة أو خطأ فيما قاله السيد كودلين تجاه سلوكه، فسيكون في تخليه من الأساس عن إبداء أي عطف تجاه من حوله، وليس المزايدة به، لذلك استحوذت الحيرة على تفكير الطفلة، وباتت لا تدرك ماذا عليها أن تقول.
قال كودلين: " استمعي إلى نصيحتي واعملي بها، ولا تسأليني لماذا! لكنني أريدك أن تعملي بها حقًّا. مهما طال سفرنا، كوني بالقرب مني قدر ما تستطيعين. ولا تقترحي أو تبدي أي نية أبدًا تلمح عن رغبتك في مغادرة صحبتنا.. ليس تحت أي ظرف من الظروف.. كوني بجانبي فقط، وذكِّري نفسكِ دائمًا أنني أنا صديقكِ. هل ستضعين ما أقوله لكِ في الاعتبار يا عزيزتي، وترددي في عقلك أنني أنا صديقكِ حقًّا؟ ".
استفسرت الطفلة ببراءة شديدة: " قل لي متى.. وأين؟ ".
رد عليها كودلين، بنفس الطريقة التي بدا السؤال عليها: " أوه! من الآن.. وأينما نكون.. إنني حريص فقط على أن تفكري فيَّ على هذا النحو، وأن تكوني عادلة في حكمكِ عليَّ. إنك لا تدركين حقًّا إلى أي مدى أهتم بشأنكِ. لماذا لا تخبريني بالقصة التي تكمن خلفكِ.. لماذا لا تخبريني قصتك أنت والسيد العجوز المسكين يا عزيزتي؟ إنني أفضل ناصح يمكنكِ اللجوء إليه.. أفضل بكثير جدًّا من القصير.. حسنًا حسنًا! أحسب الآن أنهم قد فضوا مجلسهم في الأسفل.. كوني حريصة على ألا تخبري القصير بأي شيء، لستِ في حاجة مطلقًا لاقترافكِ ذلك الأمر. لا تخبريه أبدًا، أننا تحدثنا معًا، فليباركِكِ الرب! تذكري أنني أنا حقًّا صديقكِ. إن السيد كودلين هو صديقكِ المخلص، أما القصير فلا. كلما كان القصير بعيدًا، كلما كان ذلك أفضل.. إن السيد كودلين هو صديقك المخلص، أما القصير فلا ".
بهذا الإفراط في تقديم الخير، والمظهر الذي يسعى إلى الحماية، والنفس العطوفة، غادر توماس كودلين منسلًّا على أطراف أصابعه، تاركًا الطفلة في حالة من الذهول العارم، لا تزال أفكارها تتخبط داخل رأسها تجاه سلوكه غير المعهود المثير للدهشة، بينما كان الآخرون يدعسون أرضية النزل ودَرجه المتصدع؛ ذاهبين إلى أسِرَّتهم، حينما مروا جميعًا، وابتعدت أصوات وقع أقدامهم، عاد صوت الهَسَاهِس مرةً أخرى، بيَّنت أن أحدهم كان مترددًا، يدور ويحور في الممر؛ لا يعرف أي باب عليه أن يطرقه، لكنه في النهاية طرق بابها.
ردت الطفلة من الداخل: " نعم! ".
قال صوت نافذ من ثقب المفتاح: " إنه أنا! القصير.. أردت فقط أن أبلغكِ أن علينا الرحيل في الصباح الباكر يا عزيزتي؛ إذا ذهبنا بعد رفقة الكلاب والساحر، فلن نحصل على بنس واحد من القرية بأكملها. يجب عليك أن تكوني على أهبة الاستعداد مبكرًا.. سوف أمر لأصطحبكِ..".

أجابته الطفلة بالإيجاب، ردت عليه بمثل ما اختتم به حديثه قائلة: " ليلة سعيدة "، ومن ثم سمعته يمشي بعيدًا بخطوات خفيفة. شعرت الطفلة بعدم الارتياح إزاء الإهتمام المفاجئ من كلا الرجلين في الحين ذاته، فتزايدت مخاوفها؛ خاصة حينما تذكرت حديثهما الهامس في أول الليل، أسفل الدرج، وارتباكهما عندما استيقظت، لتتأكد تمامًا من أنهما ليسا بالرفقة الصالحة، التي ينبغي الإعتماد عليها. على كل حال، لم يكن ما صارعته الطفلة من أفكار مضطربة وشعور بعدم الارتياح، شيئًا يُذكر أمام ثِقل تعبها، سُرعان ما حلَّ عليها النعاس وانتشلها مما
تخوض فيه.
في الصباح الباكر لليوم التالي، أوفى القصير بما وعد، طرق بابها بهدوء، متوسلًا إليها أن تستيقظ في الحال؛ إذا لم يضيعوا وقتًا، ستتاح لهم فرصة جيدة وسيكونون السابقين؛ فلا يزال مالك الكلاب يغط في نومه، والساحر يتكلم وهو نائم، والذي تبين من سماعه أنه كان يحلم بموازنة حمار على أنفه. نهضت الطفلة من سريرها في الحال دون تأخير، وأيقظت العجوز على أوج السرعة، لدرجة أنهما كانا جاهزين في الوقت نفسه الذي كان فيه القصير جاهزًا، مما جعله في حالةٍ من سرور وارتياح لا يمكن وصفها.
بعد أن تناولوا وجبة إفطار جافة غير متوازنة على الإطلاق، تتكون من لحم خنزير مقدد وخبز وجعة، ودَّعوا مالك النزل، ثم غادروا من باب (جولي ساندبويز). كان الصباح معتدلًا يميل إلى الدفء، وكانت الأرض رطبةً أسفل الأقدام بفعل الأمطار التي استمرت حتى وقت متأخر من الليل، والسياج أكثر اخضرارًا، والهواء صافيًا، وكل شيء منتعشًا نابضًا بالحياة. بسبب كل تلك العوامل التي تضفي ارتياحًا على النفس، ساروا جميعا في حالة من السرور والرضى.
لم يكونوا قد قطعوا مسافة طويلة، حتى أصبحت الطفلة مرة أخرى في مواجهة مع السلوك المريب للسيد كودلين، بدلًا من استمراره في النقمة على البشرية، وتفاخره بنفسه، مثلما اعتاد أن يفعل، ظل على مقربة منها، وحينما أتيحت له الفرصة لينظر إليها دون أن يلمحه رفيقه، قام بتحذيرها مرة أخرى، مؤكدًا عليها بتشديد صارم وبملامح ممتعضة وإيماءات حادة وهزات رأس تنهاها عن أن تجعل القصير محل ثقة، وأنه يتحتم عليها أن تثق فيه ثقة عمياء، لم تقتصر ردود أفعال السيد كودلين على الإيماءات فحسب، بل أظهرت أيضًا أن غيرته وعدم ثقته في أوجهما؛ حينما رآها هي وجدها يمشيان إلى جانب القصير، مستمتعين مستمعين إلى ثرثرته المبهجة الاعتيادية، أخذ يمشي على مقربة منها، ينكز كاحليها بين الحين والآخر بقائمة مسرحه الخشبية، بطريقة مفاجئة ومؤلمة للغاية.
كان من البديهي أن تجعل كل تلك التصرفات الطفلة في حالة من اليقظة والريبة، سرعان ما لاحظت أن السيد كودلين - أينما توقفوا جميعًا خارج القرية، ليقدم العرض مع صديقه، وتوقفت هي وجدها بعيدًا - يبقي ناظريه مثبتين عليها وعلى العجوز، بل أمعن فيما يفعله، مظهرًا الكثير من ود الصداقة، فدعا الأخير لمشاركته عرضه، مبقيًا إياه على مقربة منه، إلى أن انتهى العرض، وهمُّوا بمتابعة سيرهم مرة أخرى. بدا القصير متغيرًا معهما أيضًا، وأضاف على سلوكه الجيد تجاهُما شيئًا من التوق إلى إبقائهما داخل طوق آمن. زاد كل هذا من مخاوف الطفلة، وجعلها أكثر قلقًا واضطرابًا.
خلال هذه الأثناء، بينما كانوا يقتربون من المدينة، حيث تقام السباقات في يومهم التالي، مروا على العديد من الغجر والمرتحلين، الذين أتوا من كل حدب وصوب، ومع مرور الوقت تدفق

زحام من الناس، قادمين من كل ممر جانبي وزقاق، كان منهم من يسيرون إلى جانب عرباتهم، ومن يسيرون إلى جانب أحصنتهم، ومن يسيرون إلى جانب حميرهم، وآخرون يسيرون في كدٍّ؛ حاملين حاجياتهم الثقيلة فوق ظهورهم، لكنهم جميعًا كانوا متجهين إلى النقطة نفسها، وقد اندمجوا بينهم تدريجيًا. تحولت المساكن الجانبية القابعة على جانبي الطريق من كونها خاوية وخالية من الضوضاء، إلى مساكن تعج بصخب الصباح، تعلو من نوافذها الضبابية سحب الدخان، حيث تتجمهر جموع هائلة من الناس ذوي الوجوه الحمراء؛ ناظرين منها إلى الأسفل على الطريق. أصبحت كل رقعة من تلك الأرض، سواءً أكانت عادية أم مقفرة، غير شاغرة؛ حيث أقام بعض المقامرين الصغار في أماكن متفرقة تجارتهم الصاخبة، جعلت المرتحلين غير العابئين بالوقت يتوقفون؛ لتجربة حظهم، والكشف عن نصيبهم. مع مرور الوقت، أصبح الحشد أكثر عددًا وأعلى صخبًا، على إثر ذلك، تجمعت عربات خبز الزنجبيل الذهبي، معبأة الجو بغبار لامع، وبين الحين والآخر، كانت تمر عربة تجرها أربعة خيول، تخلف وراءها غيمة رملية، حاجبة الرؤية.

ساد الظلام قبل أن يصلوا فعليًا إلى البلدة نفسها، بدت المسافة طويلة، على الرغم من كونها أميالًا قليلة في الواقع. بدا كل شيء مضطربًا في حالة من الهرج والمرج؛ فقد امتلئت الشوارع بحشود هائلة من الناس - كانوا على ما يبدو غرباءً؛ من خلال نظراتهم الفضولية التي يلقونها على كل شيء هنا وهناك -، دُقت أجراس الكنائس، وتردد صدى الدقات في الآفاق، وعُلقت الأعلام على النوافذ وأعلى المنازل. انتشرت حالة من الهرج، داخل النزل الكبيرة، فتخبط النُّدُل في مشيهم، ذهابًا وإيابًا، نحو الخارج وإلى الداخل، يصطدمون ببعضهم، في الخارج كانت الخيول تركض محدثةً قعقعة على الصخور غير المستوية، فتتأرجح العربات.. ومن داخل المساكن، فاحت روائح الأعشية الباعثة على الغثيان، تعبئ الهواء بِنَفحات ثقيلة ساخنة. فُرضت حالة من التأهب المضطرب، داخل النزل الصغيرة، حيث استحضر العازفون قوتهم الكاملة، يعزفون نشازًا، خارج اللحن، يترنحون على أقدامهم، إلى جانب المغنين السكارى، الذين غفلوا عن كلمات أغانيهم ونسوها، فغدوا يغنون في رتابة، كانت أقرب إلى عواء لا معنى له، حجب بدوره صوت اللحن الخافت ليظهرهم في همجية مفرطة.. احتشدت مجموعات متفرقة حول الأبواب؛ يشاهدون الراقصة المتجولة، فيمتزج صخب صيحاتهم العالية، بصوت المزمار الرنان وضربات الطبلة المدوية.

جراء ذلك المشهد المفعم بالهذيان، غدت الطفلة خائفة نافرة من كل ما رأته بالكلية، تشبثت بالمسؤول عنها الذي بدا مرتبكًا هو الآخر، ومالت لتقترب من رفقتها، مرتجفة؛ تخشى أن تنفصل عنهم، فتهيم على وجهها؛ تبحث عن الطريق بمفردها. صاروا يسرعون في خطواتهم؛ كي يخرجوا من الزحام، ويبتعدوا عن الصخب، بعد أن مرت فترة طويلة وهم على الحال نفسه، كانوا قد مروا خلالها عبر البلدة كلها، وصلوا أخيرًا إلى المضمار المخصص، حيث أقيم على مساحة ميل كامل، تفصل بين أقصى طرفيه على أرض مفتوحة فوق ربوة شاسعة.

على الرغم من وجود الكثير من الناس هناك، لم يكن من بينهم أي شخص حسن المظهر أو الملبس؛ كانوا جميعًا مشغولين ينصبون خيامهم، يدقون الأوتاد في الأرض، يتنقَّلون في كل إتجاه، يثيرون في الجو ترابًا بأقدامهم، يتوعدون بعضهم بأشد التوعدات، تواجد فيما بين ذلك الجمع الغفير أطفال كثر، كانوا منهكين، متكئين على أكوام القش، بين عجلات العربات، يبكون إلى أن

يحل عليهم النوم، وعلى الرغم من ترك الخيول والحمير دون لجام، أخذت تجول بين النساء والرجال، والأواني والغلايات، ترعى إلى جانب دفء النيران المشتعلة، ونهايات لهب الشموع الفانية في الهواء، شعرت الطفلة بأنها قد لاذت بالفرار أخيرًا من المدينة، وأصبح بإمكانها التنفس بحرية كبيرة. بعد عشاء زهيد، أنفقت الطفلة عليه القليل من مدخراتها التي كانت أساسًا بخسة، تبقى لديها بضع عملات من فئة نصف البنس، احتفظت بها؛ من أجل شراء وجبة إفطار يومهما التالي، استلقت إلى جانب الرجل العجوز في زاوية الخيمة، حيث ناما، على الرغم من مَرَج الاستعدادات، وهرج الازدحام حولهما طوال الليل.

حلَّ الصباح، وحان الوقت الذي يجب عليهما فيه بدء التسول والشحاذة. بعد مرور فترة وجيزة من شروق الشمس، خرجت الطفلة من الخيمة، تجولت عبر بعض الحقول على مسافة قريبة؛ تقطف بعض الزهور البرية والورد النادي؛ لتجعل منها باقات زهور صغيرة؛ تقدمها للسيدات في عرباتهن، فور وصولهن، على الرغم من انشغالها، لم تكن أفكارها مرتبة هادئة، حينما عادت إلى الخيمة مرة أخرى، جلست إلى جانب جدها في زاوية منها، تربط الزهور معًا، بينما كان الرجلان الآخران مستلقيين نائمين في الزاوية الأخرى، نكزت جدها، وشدته من كمه؛ وهي تلقي نظرة خاطفة عليهما، قائلة في صوت خافت:

" يا جدي! أريد أن أقول لك أمرًا، لا تنظر إليهما، واحرص على ألَّا يبدو عليك أننا نتحدث عنهما مطلقًا، حاول أن تجعل ملامح وجهك، كأنني أخبرك بشيء غير الذي سأخبرك به. أتتذكر ما قلته لي قبل مغادرتنا المنزل القديم؟ قلت إنهم إذا علموا شيئًا عن مرادنا، سيدَّعون أنك مجنون، وسيأخذونني منك، ويرغموننا على الإنفصال! أليس كذلك؟ ".

إلتفتَ إليها العجوز من فوره، وقد استحوذ عليه الرهاب والارتياب بالكلية، لكنها نبهته كي يهدأ، دافعةً إليه من فورها بحزمة من الزهور؛ ليمسك بها، بينما تظاهرت بأنها تربطها، حينئذٍ تمكنت من جعل شفتيها أقرب إلى أذنه، وأكملت قائلة:

" أعلم.. أعلم أن هذا ما قلته تمامًا، لا تحتاج إلى التكلُّم يا عزيزي. إنني أتذكره جيدًا. لم يكن أمرًا قابلًا للنسيان. اسمعني يا جدي، إن هذين الرجلين يشتبهان في أننا خلَّفنا سرًّا وراءنا، وتركنا أصدقاءنا خفيةً، قاصدين أن يهتما بنا، إلى حين نعود مرة أخرى، قبل أن يجدنا أي رجل آخر. إذا فزعت الآن، وتركت الخوف يسكن قلبك، لن نتمكن أبدًا من الفرار منهما، لكنك إذا بقيت هادئًا، وحافظت على ضبط النفس، وسيطرت على رعشة يديك، سيكون من السهل علينا أن نفعل ذلك ".

تمتم العجوز: " وكيف ذلك؟ كيف لنا أن نفعل ذلك يا حبيبتي نيلي؟ إنهم بالتأكيد سيحتجزونني في غرفة حجرية، مظلمة وباردة، ويكبلونني في الحائط بالأصفاد يا نيل.. إنهم سيجلدونني بالسوط حتمًا، ولن يسمحوا لي أن أراكِ مطلقًا! ".

قالت الطفلة: " إن يدك ترتعش، وجسدك يرتجف مرة أخرى.. يا جدي! كن فقط إلى جواري طوال اليوم، ولا تعبأ لأمرهما.. لا تنظر إليهما، ثبِّت ناظريك تجاهي. وحريٌّ بي أن أجد الوقت المناسب؛ كي تهرب منهما. حينما أفعل، يجب عليك أن تأتي معي على الفور، لا تتوقف ولا تقل أي كلمة، صه! هذا كل شيء ".

كان السيد كولين قد رفع رأسه، متثائبًا، حينما قطعت الطفلة حديثها على نحو مفاجئ، وقال: " صباح الخير.. ما الذي تفعلينه يا عزيزتي؟ ". ثم نظر تجاه رفيقه، وجده لا يزال نائمًا، فأضاف في

همسات خافتة: " إن السيد كودلين هو صديقك المخلص، أما القصير فلا.. تذكري ذلك جيدًا ".
أجابته الطفلة قائلة: " إنني أحزم بعض باقات الزهور.. سأحاول بيعها، خلال أيام السباق الثلاثة. هل تأخذ لك واحدة.. أقصد كهدية بالطبع؟ ".
همَّ السيد كودلين بالنهوض كي يأخذها منها، لكن الطفلة سارعت نحوه، ووضعتها في يده. أمسك بها، وعلقها في عروة سترته، في مظهر دل على رضى الناقم على البشرية التام عن النفس، ثم نظر إلى القصير اللا واعي، متمتمًا في ابتهاج مرح، بينما يعيد نفسه إلى وضع النوم مرة أخرى: " إن السيد كودلين هو صديقك المخلص، أما الـ..! ".
مع مرور الوقت، اكتسبت الخيمات مظهرًا رائعًا، وأضحت أكثر إشراقًا، صارت الخطوط الطويلة التي خلَّفتها عجلات عربات الخيول ملحوظة على عشب الأرض. ظهر الرجال الذين تسكعوا طوال الليل بثياب فضفاضة وبناطيل جلدية، مختلفين تمامًا، ظهر الحُواة والسحرة مرتدين سترات حريرية وقبعات مزينة بالريش، ظهر الخُدَّام ممن يجذبون الناس بحديثهم المعسول داخل مقصورات القمار مرتدين بذلات أنيقة، إلى جانب النصابين ممن يخدعون الناس بحيلهم في الألعاب غير المشروعة مرتدين ثيابًا أنيقةً. تجمعت الغجريات صاحبات العيون السوداء، مقنَّعات بمناديل مبهرجة، تكشفن عن النصيب، وتبين المصير، وانتشرت السيدات ذوات الوجوه النحيلة الشاحبة، يتسكعن وراء المتحدثين من بطونهم والمشعوذين؛ تحصين عملات الستة بنسات بأعين مترقبة، قبل وقت طويل من حصولهم عليها، تواجد عدد كبير من الأطفال بين الحمير والعربات والخيول، تظهر عليهم أمارات الفقر والإتِّساخ، على الرغم من محاولات السيطرة عليهم وإبقائهم في أماكنهم، تمكنوا من الركض والانسلال إلى جميع الأماكن المتشابكة، فتسللوا بين أرجل الناس، وبين عجلات العربات، يخرجون دون أذى، متفادين حوافر الخيول. خرجت الكلاب الراقصة ومعتلو السيقان الخشبية، والسيدة الضئيلة والعملاق الطويل، وجميع الأمور الأخرى الجاذبة للانتباه، فضلًا عن أعداد غفيرة لا تعد ولا تحصى من الفرق الموسيقية حاملة آلاتها، خرجوا جميعًا من كل زاوية وركن، كانوا قد قبعوا فيه طوال الليل، متوافدين في كامل رونقهم تحت ضوء الشمس.
على طول المسار غير الواضح، قاد القصير حفله، نافخًا في البوق النحاسي، متحدثًا بصوت بانش، راقصًا، يتبعه في أعقابه السيد كودلين كالمعتاد، حاملًا مسرح العرض، لكنه في تلك المرة راقب نيلي عن كثب، وأبقى عينيه عليها هي وجدها، بينما كانا يمشيان في الخلف. حملت الطفلة على ذراعها سلة صغيرة تحوي أزهارها، تتوقف بين الحين والآخر، في سمتٍ خجول ومتواضع، تعرض باقات زهورها على العربات، لكن - وبكل أسف! - كان هناك الكثيرون غيرها من المتسولين والشحاذين الأكثر جرأة منها، فضلًا عن الغجريات محط آمال أزواجهن، والمكدِّين في تجارتهم.. على الرغم من أن بعض السيدات هززن لها رؤوسهن مبتسمات بكل لطف، وأخريات صحن عاليًا؛ يجذبن انتباه مَن كان بجانبهن من السادة قائلات: " انظر.. يا له من وجه جميل! "، مشين كلهن في طريقهن، تاركات الوجه الجميل يمضي بعيدًا، دون أن يفكرن أبدًا في كم بدت صاحبة ذاك الوجه الجميل متعبة أو حتى جائعة!
لم يكن فيما بينهن كلهن سوى سيدة واحدة، بدت متفهمة لحالة الطفلة المسكينة، كانت تجلس بمفردها في عربة باهظة، بينما ترجل منها للتو شابان يرتديان ملابس أنيقة، يتحدثان

ويضحكان معًا بصوت عالٍ على مسافة قريبة منها، بدوا كأنهما نسياها تمامًا، أثناء ذلك الوقت، كان هناك العديد من السيدات في كل مكان، لكنهن إلتفتنَ عنها، ناظرات إلى مكان آخر، أو إلى الشابين - على نحو لم يكن غير مناسب - تاركات السيدة بمفردها. أبعدت عنها سيدة غجرية، أرادت أن تقرأ لها الطالع، قائلةً لها إنها على علم به؛ فقد قُص عليها بالفعل منذ عدة سنوات، لكنها نادت على الطفلة؛ وأخذت منها باقات أزهارها، وأعطتها المال في قبضة يدها المرتعشة، وأوصتها - حبًّا في خالقها - بأن تعود إلى المنزل، وتسكن إليه.
ظل الجميع على هذا الحال والمنوال، عدا الأحصنة، حيثما دق الجرس؛ لإخلاء المضمار، فعادت لتستريح، بين العربات والحمير، إلى أن تنتهي ذروة الحرارة. بينما ظل عرض بانش قائمًا في أوج فكاهته الكاملة، كانت عينا السيد كودلين مثبتة عليهما، وبات واضحًا أن الفرار دون أن يراهما يعد أمرًا مستحيلًا.
بعد مضيٍّ فترة طويلة، في وقت متأخر من اليوم، قدَّم السيد كودلين عرضه في مكان موفَّق وملائم، فاحتشد الجمع حوله، يشاهدون عرضه، وهم في غاية الابتهاج. جلست الطفلة إلى جانب العجوز على مقربة منه، تفكر كم هو غريب أن الخيول - تلك المخلوقات الصادقة الجميلة - عليها أن تبعث الحيرة في نفوس الرجال الذين راهنوا عليها، إلى أن انتشلها من تفكيرها في عواقب ما يحدث أثناء اليوم، صوت الضحكات العالية للحشد على واحدة من مزحات السيد القصير، مجبرًا إياها على النظر حولها.
إذا سنحت لهما الفرص كي يلوذا بالفرار، ستكون هذه الفرصة هي الأعظم من بينها جميعًا. كان القصير مندمجًا في الضرب بالعصا المجلجلة في حيوية، صافعًا جميع شخصيات العرض وسط معركة صاخبة، كان الحشد من حوله ضاحكًا، تظهر أمارات البهجة على وجوههم، بينما استرخى السيد كودلين، وابتسم إبتسامةً متجهمة؛ إثر رؤية عينيه الهائمتين لأيادٍ تلتقط من جيوب الصدريات العملات من فئة الست بنسات في خفية. إذا سنحت لهما الفرص؛ كي يلوذا بالفرار من دون أن يراهما أحد ستكون هذه الفرصة هي الأعظم من بينها جميعًا. وإذ بهما يقتنصانها، ويفرَّان من فورهما.
شقا طريقهما بين المقصورات والعربات، منسلين بين حشود الناس، دون توقف، أو دون حتى النظر إلى الوراء. مع مرور الوقت، دق الجرس، وفتح مضمار السباق، حينها كانا قد وصلا إلى حباله، لكنهما عبرا دون الالتفات إلى الصراخ والصيحات التي انهالت على مسامعهما من كل حدب وصوب؛ لاختراقهما إياه، زاحفين نحو التل بوتيرة سريعة، منتقلين من فورهما إلى الحقول الفسيحة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل العشرون

يومًا بعد يوم من الاعتياد على توجيه خطواته تجاه المنزل، أثناء عودته بعد جهود بحث مضنية عن عمل جديد، داوم كيت على أن يرفع عينيه صوب نافذة الغرفة الصغيرة؛ اشتياقًا للطفلة، متمنيًا لو يرى أي إشارة تدل على وجودها. بناءً على رغبته المتلهفة الجادة، إلى جانب التأكيد الذي تلقاه من السيد كويليب، غُمرت نفسه بيقين في عودتها في أي وقت؛ تطلب المأوى المتواضع، الذي عرضه عليها من قبل، على الرغم من موت أمله كل يوم واندثاره، كان يقين جديد ينبثق، وأمل آخر يتجدد مع كل يوم جديد.

قال كيت متنهدًا، وهو يلقي بقبعته جانبًا بمظهر شديد الإنهاك: " أعتقد جديًّا أنهما من المؤكد سيأتيان غدًا يا أمي.. لقد رحلا منذ أسبوع كامل.. من المؤكد أنهما لن يظلا بعيدًا أكثر من أسبوع.. أليس كذلك يا أمي؟ ".

هزَّت الأم رأسها في حسرة، وذكرته بالمرات السابقة التي خاب فيها أمله بالفعل، رغم أنه كان لديه اليقين ذاته.

قال كيت: " إن كلامك صحيح، بالنسبة لما حدث فعلًا.. إنكِ تتحدثين بعقلانية، لطالما تفعلين ذلك يا أمي. على الرغم مما تقولين، لا يزال لديَّ بعض الأمل؛ فإن مضيّ أسبوع كامل يعتبر فترة طويلة بما فيه الكفاية، على أن يسيرا على أرجلهما.. ألا تظنين ذلك أيضًا؟ ".

- بلي! إنها فترة طويلة إلى حد معقول، بل فترة أطول من الحد المعقول، لكن هذا لا يعني أن عودتهما مؤكدة في النهاية.

صار كيت للحظة منزعجًا جدًّا من هذا التناقض، وما زاد من شعوره هذا تصديقه في قرارة نفسه لرأي والدته، فلم يكن منافيًا لما توقعه في ذهنه، أو أكثر من إدراكه لواقع الأمر أبدًا. لكن انزعاجه كان مؤقتًا، لم يدم طويلًا، سرعان ما تغيرت نظرته المفعمة بالغيظ إلى نظرة لطيفة، قبل أن يغادر الغرفة.

- حسنًا! تُرى ما رأيكِ حيال ما قد يكون حدث لهما يا أمي؟ ألا تظنين أنهما على أي حال من الأحوال قد عبرا إلى البحر؟

أجابته الوالدة مبتسمة: " أظن أنهما لم يذهبا إلى البحر.. لكن لا يمكنني التوقف عن التفكير في أنهما ذهبا حتمًا إلى بلد أجنبي ".

صاح كيت، وأمارات الحزن بادية على وجهه: " لا تتحدثي بتلك الطريقة يا أمي؛ إنك تناقضين نفسكِ.. من فضلكِ استمعي إليَّ! ".

قالت: " إنني أخشى أن يكونا قد فعلا ذلك حقًّا، وأن تلك هي الحقيقة التي يجب عليك تصديقها.. إن ذلك ليس رأيي فحسب، بل حديث الجيران أيضًا، إن البعض منهم رآهما بالفعل على متن إحدى السفن، إنهم يستطيعون إخبارك أكثر مما أعرفه، يستطيعون إخبارك بالجهة التي قصداها.. أعلم أن الأمر وقعه صعب عليك، لكن هذا هو الواقع ".

قال كيت: " إنني لا أصدق! إنني لا أصدق أي كلمة مما تقولين، إنهم ليسوا إلا مجموعة من الثرثارين، كيف لهم أن يعرفوا! ".

ردت عليه الوالدة: " قد يكونون مخطئين بالطبع.. لكنني لا أستطيع إثبات ذلك، على الرغم من أنني أعتقد في أن ما قالوه غير مستبعد، وأنهم على صواب؛ أتتذكر الحديث المتداول عن أموال السيد العجوز التي أخفاها، ولا أحد يعرف عنها شيئًا، حتى ذلك السيد الضئيل القبيح، الذي حدثتني عنه.. ما اسمه؟ السيد كويليب.. ربما اعتمد عليه، ومن ثم رحل هو والآنسة نيل للعيش في الخارج، حيث لن تؤخذ الأموال منهما، أو يزعجهما أحدهم.. أعتقد أن الأمر أصبح الآن أكثر منطقية، أليس كذلك؟ ".

حك كيت رأسه في حزن، رافضًا أن يقر بحقيقة ما قالته والدته، شبَّ حتى وصل إلى المسمار القديم؛ أنزل القفص، وجلس؛ ليُطعم العصفور. تذكر لتوه ذلك السيد العجوز الذي أعطاه شلنًا كاملًا، فتخلص من تسلط الأفكار الأخرى عليه، وتذكر من فوره أن اليوم الذي يحياه، هو اليوم نفسه الذي قصده السيد العجوز، منتبهًا إلى أن الساعة قد اقتربت تمامًا من الموعد، الذي سوف يكون فيه السيد العجوز متواجدًا في منزل كاتب العدل مرة أخرى. لم يمضِ على تذكره أي وقت، حتى عمد إلى تعليق القفص من فوره، مطوحًا إياه، ثم أوضح باختصار على عجل طبيعة مهمته، وانطلق مسرعًا نحو المكان المحدد.

كان المكان المقصود على مسافة كبيرة من منزل كيت، حينما وصل إليه، كان الوقت المحدد قد مرَّ عليه دقيقتان؛ لكن لحسن الحظ لم يكن السيد العجوز قد وصل بعد، أو على الأقل لم تكن هناك أي عربة يسحبها مهر مرئية بالجوار، لذلك من غير المحتمل أن يكون قد جاء ورحل في تلك الفترة الزمنية القصيرة، تنفس كيت الصعداء، وتخلل الارتياح صدره، فور إدراكه أن الموعد لم يَفُتْ بعد، لذا وقف مستندًا على عمود الإضاءة، يلتقط أنفاسه، وينتظر مجيء المهر وراعيه.

سيكون من البديهي بالطبع، إذا ما أتينا على ذكر المهر، أن نشير إلى أنه بمجرد وصوله إلى زاوية الشارع، بدا متعنتًا، ينتقي مواضع خطواته، ويراقب بدقة؛ بحثًا عن أنظف الأماكن على الأرض؛ ليطأها بقدمه رافضًا بشتى المعاني أن يخطو على أي قاذورات، أو أن يسرع من وتيرة خطواته بأي شكل من الأشكال. كان السيد العجوز يجلس خلف المهر، وإلى جانبه كانت تجلس السيدة العجوز، تحمل باقة زهر مثل التي أحضرتها من قبل.

مر السيد العجوز وبصحبته السيدة العجوز، والمهر والعربة، في الشارع في جمع مثالي، حتى عبروا بما يقرب من نصف دستة أبواب شابهت باب منزل كاتب العدل، حينها اختلط الأمر على المهر، وخُدع بصفيحة نحاسية تواجدت أسفل قارع باب الخياط، حيث عرج نحوه، ومن ثمَّ توقف في هدوء، ثابتًا في صمت، موحيًا باقتناعه التام بأن هذا المنزل هو مقصدهم.

قال السيد العجوز: " ألن يكون من الجيد إذا أكملت سيرك الآن يا سيدي؟ إنه ليس المكان المرجو! ".

في ذلك الحين، كان المهر ينظر في تمعن بالغ صوب محبس مطافئ، على مقربة منه، وبدا غارقًا تمامًا في تأمله، منفصلًا عما يدور حوله.

صاحت السيدة العجوز: " أوه! إنك حقًّا مشاغب يا ويشكر! بعد أن كنت جيدًا جدًّا، تسير طوال الطريق معتدلًا، تفعل ذلك! عارٌ عليك! إنني أشعر بالخجل الشديد مما تقترفه الآن، ومن سلوكياتك جميعها.. إنني لا أعرف حقًّا ما الذي يتوجب علينا فعله معك.. لا أعرف حقًّا ".

بعد أن شعر المهر بالرضى النام؛ إثر تحديقه في محبس المطافئ، وتبيَّن زواياه مكتشفًا ماهيته، مُشيحًا برأسه في الهواء؛ يحاول إبعاد أعدائه القدامى من الذباب، فتطن في أذنيه، هازًّا رأسه،

محركًا ذيله، بدا مستكينًا، منغمسًا في أفكاره تمامًا. ترجل السيد العجوز من العربة؛ يحاول مرارًا وتكرارًا إقناعه باستكمال السير، وقد استنفذ كافة السبل، لكن المهر لم يتجاوب معه على الإطلاق؛ ربما ظن أنه إذا فعل ما يؤمر به، سيكون ذلك تنازلًا مشينًا، أو ربما لفت انتباهه محبس المطافئ الآخر، أو ربما كان تواقًا إلى إغاظتهم، لكنه على حين فجأة، انطلق مسرعًا صوب المكان الصحيح، يحمل في عربته السيدة العجوز، تاركًا السيد العجوز يتبعه لاهثًا.
فور وصوله، تقدَّم كيت نحو رأس المهر، رافعًا قبعته وهو يبتسم.
صاح السيد العجوز: " أوه! حمدًا للخالق أن الفتى هنا! هل رأيت ما حدث يا عزيزي؟ ".
قال كيت مربتًا على رقبة المهر: " لقد قلت لك إنني سأكون هنا.. آمل أن رحلتك إلى هنا قد كانت جيدة، إنه مهر صغير لطيف جدًّا ".
قال السيد العجوز: " أوه يا عزيزي! إنك فتى غير عادي، فتى جيد، أنا متأكد تمامًا ".
انضمت السيدة العجوز إلى الحديث قائلة: " وأنا أيضًا متأكدة من ذلك، إنه فتى جيد جدًّا، وأحسب أنه إبنٌ جيد أيضًا ".
قابل كيت ما سمعه من إطراء بثقة واعتراه الخجل الشديد في الوقت ذاته، فتلمَّس قبعته، واحمر خجلًا. مدَّ السيد العجوز يده إلى السيدة العجوز لتتكئ عليها؛ وتترجل من العربة، وبعد أن نظر إليه مبتسمًا إبتسامةً تفصح عن رضى تام، استطردا في الحديث عنه في طريقهما إلى داخل المنزل، مما جعل كيت عاجزًا عن الكلام، مرتبكًا تمامًا. لم يمضِ وقت طويل، حتى خرج السيد ويزردن إلى النافذة، وهو يشم رائحة باقة زهر في غاية الانتشاء، ناظرًا إليه، ثم تبعه السيد هابيل ونظر إليه، وبعد ذلك تبعهما السيد والسيدة العجوز، ناظرين إليه أيضًا، ثم اجتمعوا كلهم ونظروا إليه معًا، ما تسبب في إصابة كيت بالحرج الشديد، وقد تظاهر بعدم ملاحظته لهم، وانكب على رعاية المهر أكثر فأكثر مربتًا عليه، وقد أطلق له المهر الحرية الكاملة في تصرفه.
لم تنتقل تلك الوجوه بعيدًا عن النافذة لعدة لحظات، حتى ظهر السيد تشوكستر على الرصيف، مرتديًا معطفه الرسمي، معتمرًا قبعته بشكل مائل، كما لو كانت معلقة على مِشْجب، وقال له إنه مستدعى إلى الداخل، وإنه سيعتني بدلًا منه بأمر المهر والعربة. بعد أن أبلغه وأرشده إلى الإتجاه، أضاف تعقيبًا أخيرًا، بأنه يتمنى أن يكون مباركًا ويتمكن من إكتشاف ما إذا كان - (كيت) -: " عزيز بالفطرة ". أم: " عزيز بالادعاء "،. لكنه على أي حال هز رأسه في غير ثقة، وبدا ميالًا أكثر إلى الرأي الأخير.
دخل كيت إلى المكتب مرتجفًا، في حالة من التوتر الكامل؛ لم يكن معتادًا على أن يمر بسيدات وسادة غرباء، وبين علب صفيح، ورزم من الأوراق المغبرة، كانت لها جميعًا وقعٌ مبجلٌ ومروعٌ على نفسه. بدا السيد ويزردن رث الملبس، لكنه كان رجلًا مفعمًا بالطاقة، يتكلم بصوت عالٍ وبسرعة، يجتذب الأنظار؛ وكانت جميع أعين من بالغرفة مصوبة إليه.
قال السيد ويزردن: " حسنًا أيها الفتى! لقد جئت للعمل مقابل ذلك الشلن.. ولم تأتِ وفي نيتك أنك سوف تحصل على آخر! أليس كذلك؟.
رد كيت، وهو يجمع شتات نفسه، ويستجمع شجاعته لينظر إلى الأعلى: " في الواقع، لا يا سيدي.. لم أكن أفكر في ذلك الأمر من الأساس ".
قال كاتب العدل: " هل والدك حي؟ ".
- ميت يا سيدي.

- ووالدتك؟
- نعم يا سيدي.
- هل تزوجت مرة أخرى؟
جاءت إجابة كيت على نحو مفعم بالنقمة، قائلًا إنها أرملة ترعى ثلاثة أطفال، إذا عرف أي سيد مقبل على الزواج منها بهذا الأمر، سيكف عن التفكير من فوره. بناءً على هذه الإجابة، دفس السيد ويزردن أنفه بين الزهور مرة أخرى، يتشمم رحيقها، ومال إلى جانب الباقة هامسًا إلى السيد العجوز أنه على اعتقاد تام، بأن الفتى صادق كما هو حري بالصادق أن يكون.
بينما كانوا يستفسرون منه عن أمور أخرى، قال السيد جارلاند: " حسنًا! لن أعطيك أي شيء..".
رد كيت على نحو عاجل، وفي جدية تامة: " شكرًا لك يا سيدي ". نافضًا عنه بذلك التنبيه، الشكوك التي ألمح إليها كاتب العدل.
أكمل السيد العجوز قائلًا: "..لكنني.. ربما أريد معرفة المزيد عنك، لذلك أخبرني أين تعيش؛ لأسجل عنوانك في دفتري ".
أخبره كيت بعنوان مسكنه، ودونه السيد العجوز بقلمه. بالكاد أنهى ما كان يكتب، حتى سمعوا جميعًا ضجيجًا كبيرًا في الشارع، أصاب الهلع السيدة العجوز، وهرعت من فورها نحو النافذة، صاحت بأن ويشكر قد هرب، انطلق كيت من فوره إلى الخارج للحاق به، ثم تبعه الآخرون.
تبيَّن أن السيد تشوكستر، كان واقفًا يضع يديه في جيبه، ينظر إلى المهر بلا مبالاة متناهية، يوبخه بين الحين والآخر، ملقيًا عليه أوامر على شاكلة: " اثبت مكانك "، " كن هادئًا "، " وااواااوو ". وما شابه ذلك من عبارات، يستنكرها المهر، ولا يتحمل أن تُقال له من الأساس، بالتالي لم يقدم المهر أي اعتبار لواجباته الإلزامية، أو يمثل لفروض الطاعة، ومضى في طريقه، دون اكتراث أو خوف من أعين الناس المصوبة نحوه.. أما السيد تشوكستر في تلك اللحظة فقد كان واقفًا خلف العربة من دون قبعته، واضعًا قلمه خلف أذنه، يبذل جهودًا غير مجدية بتاتًا، محاولًا سحبها نحوه إلى الإتجاه الآخر، محاولًا كسب إعجاب الناظرين المذهولين، الذين بدوا غير قادرين على الحديث. كان المهر عنيدًا جانحًا حتى في هروبه؛ لم يكن قد قطع مسافة كبيرة، حينما توقف فجأةً، ومن ثمَّ تقهقر ورجع حيثما كان ثانية، بنفس وتيرته السريعة التي انطلق بها، دون أدنى عون من أحد. حينها طوَّح السيد تشوكستر بنفسه إلى داخل المكتب في أكثر المشاهد المثيرة للضحك، وقد غلب عليه الانهاك والاضطراب الشديد.
صعدت السيدة العجوز إلى مكانها المخصص في العربة، وجلس هابيل في مكانه - حيث أتيا بالأساس من أجل اصطحابه. بعد أن ألقى السيد العجوز على المهر حديثًا عقلانيًّا، لم يَخْلُ من التوبيخ الشديد إزاء تصرفه الماجن، وقد بذل قصارى جهده؛ ليعدِّل من هيئة السيد تشوكستر، صعد إلى العربة، ومن ثمَّ انطلقوا في طريقهم، ملوحين إلى كاتب العدل ومحرره، ملتفتًا أكثر من مرة بإيماءات عطوفة نحو كيت؛ يحييه بها، كيت الذي ظل يرنو إليهم طوال الطريق، إلى أن اختفوا تماما عن الأنظار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الحادي والعشرون

غادر كيت، وسرعان ما نسي أمر المهر والعربة والسيدة العجوز والسيد العجوز والسيد الصغير، فانغمس ثانية في التفكير في سيده الراحل، وحفيدته الجميلة، اللذين استحوذا على كافة تأملاته، لا يزال يختلق حججًا جديرة في الظاهر بالتصديق، تبرر عدم ظهورهما طوال ذلك الوقت، محاولًا إقناع نفسه بأنهما سوف يعودان حتمًا في القريب العاجل، وجه خطاه نحو بيته، عازمًا على إنهاء مهمته التي قاطعها تذكره المفاجئ لوعده، ومن ثمَّ خرج ثانية؛ ساعيًا، يبحث عن قوت يومه، مفتشًا عن مصيره.
حينما وصل إلى الساحة التي يقطن فيها، سكنته الدهشة؛ فور رؤيته للمهر مرة أخرى واقفًا عند الناصية، بدا أكثر عنادًا من أي وقت مضى، وكان جالسًا في العربة السيد هابيل بمفرده، وقد أبقى على نظرته الثابتة مع كل طرفة عين، لكنه بمحض الصدفة، رفع عينيه، ورأى كيت يمر قباله، فأومأ إليه برأسه في حماس، كما لو كان يطيح بها.
لم يكن كيت متعجبًا؛ بسبب رؤية المهر فقط؛ بل بسبب رؤيته على مسافة قريبة جدًّا من بيته، لم يكن أمرًا واضحًا بالنسبة إلى قدرة استيعاب كيت، فدارت في عقله تساؤلات حول الغرض من وجود المهر قبالة بيته، وإلى أين ذهبا السيد والسيدة العجوز، ظلت تلك التساؤلات مشوشة في حالة من التخبط داخل رأسه، إلى أن رفع مزلاج الباب، ودخل، فرآهما جالسين في الغرفة، يتحدثان مع والدته، ومع رهبة ذلك الموقف غير المتوقع، رفع كيت قبعته، وقدم انحناءة مميزة لهما، رغم
ارتباكه.
قال السيد جارلاند مبتسمًا: " لقد سبقناك إلى هنا، كما ترى يا كريستوفر ".
قال كيت مشوشًا: " نعم.. بالطبع يا سيدي ". ثم إلتفتَ إلى والدته، تعلو وجهه علامات الاستفهام، يحاول استخلاص سبب الزيارة منها.
قالت، ردًّا على ذلك الاستجواب الصامت: " إن السيد عطوف بسخاء يا عزيزي.. لقد أتى؛ مستفسرًا عما إذا كنت تعمل في مكان جيد، أو أي مكان في العموم، وقد أخبرته أنه ليس لديك أي مكان، لذلك كان من الكرم الكبير أن يقول...".
قاطعها السيد والسيدة العجوز معًا، حيث قالا في صوت واحد: "..إننا نريد فتًى طيبًا في منزلنا.. ربما تفكرنا بالطبع في الأمر، وسنتخذ قرارًا بتنفيذه، إذا وجدنا كل شيء موافقًا لما تمنيناه ".
بعد أن تدبر كلامهما، تبين له أنهما كانا يقصدانه، شارك كيت والدته اضطرابها فور سماعه ما قيل، واختل خفقان قلبه، وصار يرتجف، أما الزوجان العجوزان، فقد كانا في غاية المنهجية الحذرة في حديثهما، أخذا يطرحان عليه العديد من الأسئلة، لدرجة أن الخوف انتابه؛ خشية إضاعة أي فرصة في النجاح.
قالت السيدة جارلاند لوالدة كيت: " كما تعرفين يا سيدتي العزيزة، إنه أمر ضروري، وعلينا أن نتحرى الدقة، ونكون حذرين للغاية خاصةً في مثل تلك الأمور؛ لأننا أسرة صغيرة مكونة من ثلاثة أفراد فقط، نعيش في هدوء، بالتالي سيكون أمرًا مؤسفًا، إذا ارتكبنا أي نوع من الأخطاء، أو إذا وجدنا أي اختلاف بين الواقع وما كنا نتوقعه ونأمله ".

ردت والدة كيت بناء على ما قيل إنه صحيح تمامًا، وصائب جدًّا، وموضوعي في الآن ذاته، وأنه أمر لا تستطيع القيام به، فقد حرَّمته السماء، فهي لا تملك أي سبب يدفعها إلى الكذب تجاه حقيقة ما هي عليه، أو حقيقة شخصية ابنها، فهو نِعم الإبن الجيد، وتشهد بذلك لأنها أمه التي أنشأته، وعلى غرار ذلك، تملكتها الجرأة لتقول بأنه أخذ طبائع والده، الذي لم يكن ابنًا صالحًا لأمه فحسب، بل كان زوجًا مخلصًا لها، ووالدًا عظيمًا لهم، مؤكدة على أن كيت باستطاعته تأييد ذلك، وأن جايكوب الصغير أو الرضيع إذا كانا في سن كافية للاستيعاب - لكنهما بكل أسف ليسا كذلك - لأدركا من فورهما حجم الخسارة التي تعرضا لها، أو ربما كان من الأفضل لهما أن يكونا كما هما صغيرين؛ لا يعيان ما يدور حولهما.. هكذا أخذت والدة كيت تسرد حكاية طويلة، تكفكف دموع عينيها بمئزرها، تربت على رأس صغيرها جايكوب، الذي كان يهز المهد، محدقًا بكل قوة في السيدة والسيد الغريبين.
حينما أنهت والدة كيت حديثها، تدخلت السيدة العجوز من فورها مرة أخرى، وقالت: إنها متأكدة تمامًا، من كونها امرأة صادقة، وشخصية فاضلة تستحق الاحترام، وإلا ما كانت صرحت بما في نفسها على هذا النحو بكل صدق، وأنه من المؤكد أن مظهر الأطفال ونظافة المنزل، يستحقان ثناءً عظيمًا، وأن الفضل كله يرجع لها، على هذا النحو، انحنت والدة كيت احترامًا لها، وامتنانًا لتعزيتها لها. استطردت المرأة الطيبة في حديثها وانطلقت في سرد طويل ودقيق لحياة كيت، منذ نعومة أظافره إلى وقتهم الحالي، غير غافلة عن ذكر سقوطه من النافذة الخلفية للردهة، حينما كان طفلًا في سنواته الأولى، أو معاناته غير المألوفة عندما أُصيب بالحصبة، التي تمثلت في محاكاة سليمة لسلوكه الحزين، في أثناء طلبه للخبز والماء، ليلًا ونهارًا، قائلًا: " من فضلك يا أمي، لا تبكي، سأكون على ما يرام قريبًا "، وكإثبات لما أشارت إليه، بإمكاننا اللجوء إلى المستأجرة، السيدة (جرين) بائعة الجبن بالجوار، وإلى العديد من السيدات والسادة في أنحاء من إنجلترا ومدينة (ويلز) على وجه الخصوص، (بالإضافة إلى السيد "براون" كان من المفترض أنه قد كان عريفًا في جزر الهند الشرقية حينذاك، لقد تحمل عنا بالطبع بعض المشاكل القليلة)؛ فقد كانوا جميعًا على معرفة شخصية بعواقب الظروف التي حلت بنا.. فور إنتهاء هذا السرد، طرح السيد جارلاند على كيت بعض الأسئلة، التي تتعلق بمهاراته ومقتنياته العامة، في حين ظلت السيدة جارلاند تتابع الأطفال، وتستمع إلى والدة كيت التي شرعت تحكي الأحداث المميزة التي مرت عليها أثناء ولادة كل ابن لها، فقد لاقت تشابهًا كبيرًا، جعلها تستحضر ذكرى ولادة ابنها السيد هابيل، بدا من الحديث ومما استحضرته ذاكرتها، أنها ووالدة كيت، مثل جميع النساء الأخريات - مهما كانت الحالة أو العمر - حياتهن حافلة بالتحديات والأخطار. أخيرًا، جرت التساؤلات بشكل طبيعي، مستفسرين عن حالة ملابسه، محبذين إضافة بعض التعديلات الحسنة عليها، معلنين أنه قد عين رسميًّا بدخل سنوي قدره ستة جنيهات، وأنهما سيتكفلان بمأكله وبإقامته، التي ستكون في فيلا هابيل ببلدة (فينتشلي).
كان من الصعب تحديد أي طرف من الطرفين بدا أكثر سعادة من الآخر؛ بما توصلا إليه من ترتيب نهائي، انتهى إلى أن كيت يجب عليه أن يتواجد في منزله الجديد، في صباح يومهم التالي، لكن خلاصة القول أن الابتسامات المبهجة ارتسمت على وجوه كلا الطرفين، في مظهر لطيف.
وأخيرًا أعطى الزوجان العجوزان عملتين لامعتين من فئة (الشلنين ونصف الشلن)، واحدة لجايكوب الصغير، والأخرى كانت من نصيب الرضيع، ومن ثمَّ غادرا، اصطحبهما مضيفهما

الجديد إلى الشارع، وأحكم لجام المهر العنيد، بينما جلسا في مقعدهما، وظل ينظر إليهما، وهما يبتعدان عن ناظريه، بقلب يغمره الفرح.
سرعان ما انطلق كيت ثانيةً إلى داخل بيته، وهو يقول: " حسنًا يا أمي! أحسب أن مصيري قد كُتب الآن واتضح، إنني على مقربة من تكوين ثروتي يا أمي ".
ردت عليه والدته: " إنني أستشعر ذلك بالفعل.. هل تتخيل الأمر! ستة جنيهات في العام الواحد! ".
حاول كيت الحفاظ على ضبط النفس؛ من أجل التمعن في أمر ذلك المبلغ، وإدراك مدى جدية الموقف، لكنه ابتسم رغمًا عنه، وقال: " إن هذا ما يدعى مالًا حقًّا ".
قال كيت تلك العبارة، منتشيًا، وقد أخذ نفسًا طويلًا، ووضع يديه في جيبيه، كما لو كان في كل واحد منهما أجر عام على الأقل، ونظر إلى أمه، كما لو أنه رأى عبرها في الجانب الآخر وأسفلها كمًّا هائلًا من الجنيهات الذهبية الإنجليزية:
" أتتخيلين يا أمي! هاه! ستة جنيهات في العام الواحد.. يا إلهي! حينها ستكونين دومًا تلك السيدة التي تكونين عليها في أيام الأحاد، سيحظى جايكوب بتعليم جيد، وسيدلل هذا الرضيع، وسنحظى بغرفة مفروشة أعلى الدرج. ستة جنيهات في العام الواحد...".
تنحنح صوت غريب أجش: " احم احم! ستة جنيهات في العام الواحد! ماذا بشأن تلك الستة جنيهات؟ ". بمجرد أن طرح ذلك الصوت استفساره، دخل السيد كويليب مباشرةً، وفي أعقابه ريتشارد سويفيلر.
قال كويليب، ناظرًا بحدة في كافة الأرجاء: " من قال إنه سيحظى بستة جنيهات في العام؟ هل قال العجوز ذلك؟ أم أن نيل هي من أخبرتكما؟ ولماذا سوف يحصل عليها؟ وأين هما من الأساس؟ ".
ذهلت السيدة الطيبة من الظهور المفاجئ لتلك القطعة المجهولة من القبح، قفزت من توها انتشلت الرضيع من مهده، ورجعت في لمح البصر إلى أقصى زاوية في الغرفة، بينما ظل جايكوب الصغير على مقعده، واضعًا يديه على ركبتيه، ناظرًا إليه، كأنه مسحور، يزمجر صاخبًا طوال الوقت. في ذلك الحين، كان ريتشارد سويفلر ينظر من فوق رأس كويليب إلى أفراد العائلة في هدوء، أما كويليب نفسه، فقد وقف واضعًا يديه في جيبيه، يبتسم، تبدو عليه حالة من الاستمتاع المفرط؛ جراء ما أثاره من ضيق في نفوس الجميع.
قال كويليب بعد لحظة من الصمت: " ليس هناك أي داعٍ للخوف، إن ابنك يعرفني، علاوةً على ذلك، إنني لا ألتهم الأطفال، وذلك لأنهم ليسوا طعامي المفَضل، إنني لا أحبهم، أوقفي فقط صراخ ذلك الجعجاع الصغير، وإلا حينها سأتدخل وأتعمد الأذى فعليًّا.. مرحبا يا سيدي! هل لك أن تكون هادئًا؟ ".
ارتعد جايكوب الصغير من توه، حابسًا دمعتين، كادتا أن تنزلقا من عينيه، وانكمش في نفسه في حالة من الذعر الصامت.
تابع كويليب قوله، ناظرًا إليه في عنف قاسٍ: " أتمنى ألا تكون رافضًا لعدم الصراخ ثانية، أيها الوغد الماكر، لأنك إذا صرخت سأريك وجوهًا لن تفضل رؤيتها، وحينها ستنفجر حقًّا في البكاء.. الآن يا سيدي، لماذا لم تأت إليَّ كما وعدت؟ ".

رد كيت بحسم بالغ: " لماذا يتوجب عليَّ أن آتي إليك؟ ليس لدي أي عمل معك، وليس لديك أي عمل معي ".
ابتعد عنه كويليب من فوره، وسرعان ما اتجه إلى والدة كيت:
" حسنًا! قولي لي أيتها السيدة.. متى كانت آخر مرة أتى فيها سيده العجوز أو أرسل إليه؟ هل هو هنا الآن؟ وإذا لم يكن، قولي لي أين ذهب؟ ".
ردت عليه قائلةً: " لم يكن هنا على الإطلاق، وكم أود حقًّا لو أعرف إلى أين ذهب! لأن ابني حينها سيهدأ، ويكف عقله عن التفكير، وسيكون هذا هو حالي أيضًا. إذا كنت أنت فعلًا المدعو بالسيد كويليب، فمن المرجح أنك أنت من تعرف مكانه، هكذا أظن، وهذا ما كنت أخبره به كل يوم ".
" هووف "، زفر كويليب ممتعضًا، خائب الأمل؛ لا يصدق أن ما قالته، هي الحقيقة، وقال: " هل كنتِ ستقولين الكلام نفسه لهذا السيد.. أليس كذلك؟ ".
ردت عليه: " إذا أتى هذا السيد؛ كي يسألني السؤال ذاته، لم أكن لأخبره بأي شيء آخر يا سيدي.. وأتمنى حقًّا لو أستطيع معرفة ما هو أكثر؛ من أجل مصلحتنا جميعًا ".
نظر كويليب إلى ريتشارد سويفلر، فقد كانا قد تقابلا عند عتبة المنزل، مفترضًا أنه جاء للتفتيش عن أي معلومات خاصة بشأن الهاربين. متسائلًا ما إذا كان افتراضه صحيحًا؟ ".
قال ديك: " نعم! هذا هو الهدف من وراء تعجيلي بالمجيء. لقد تخيلت أن ذلك ممكن.. دعنا ندق أجراس الهوى، أنا من سيبدأ، دينغ دونغ..".
قال كويليب: " ما لك تبدو خائب الأمل! ".
قال ديك: " مُحتار يا سيدي، إنني مُحتار فقط.. هذا كل ما في الأمر. إن عقلي مشغول بالتفكير في مسألة ما، جعلتني محتارًا؛ فتقديم قربان مفعم بالجمال والإشراق لمذبح نشيجز، ليس بالأمر السهل. هذا كل ما في الأمر يا سيدي ".
نظر القزم إلى ريتشارد بابتسامة ساخرة، لكن ريتشارد - الذي تناول غذاءً دسمًا مع صديق له - لم يعره أي انتباه، مستمرًا في استنكار مصيره، في مظهر حزين بائس. لاحظ كويليب بكل وضوح أن هناك سببًا سريًا وراء هذه الزيارة، ووراء خيبة أمله غير العادية، آملًا في وجود ضرر كامن في الأمر، عازمًا على أن ينتهي من ذلك الأمر، لم يمضِ الكثير على عقده ذلك العزم، حتى كانت قد ظهرت أمارات الصدق على ملامح وجهه، بقدر ما استطاع التعبير عن مكنونه، حتى بدا متعاطفًا بإفراط مع السيد سويفيلر.
قال كويليب: " إنني أشعر بخيبة أمل أيضًا؛ لكنني أنا المتسبب فيها؛ بدافع الإحساس الودي الذي أكنه لهما، لكنك بلا شك تملك أسبابا حقيقية وراء شعورك بذلك الكم من البؤس، أو ربما أسبابًا شخصية، وذلك يجعل ما تشعر به أكثر ثقلًا مما أشعر به ".
عقب ديك بنكدٍ: " نعم هو كذلك فعلًا ".
" أؤكد لك أنني آسف للغاية، أنا بالفعل آسف جدًّا. إنني أُفضل أن تزيح من على عاتقنا تلك الأحزان. بما أننا رفيقان في الشدائد، فهل لنا أن نكون رفيقين في إيجاد أضمن طريقة لنسيانها؟ إذا لم يكن لديك أي عمل ضروري، من اللازم عليك إتمامه، دعني آخذ بيدك الآن إلى منحى آخر ".
جذبه كويليب من كمه، ناظرًا إلى وجهه نظرة ماكرة من زاوية عينيه، وقال مجادلًا: " يوجد نزل على الضفة، لديهم هناك أفخم أنواع النبيذ في جميع أنحاء العالم، وهو نبيذ مهرَّب بالطبع، ابقَ هذا الأمر سرًّا بيننا. إن المالك يعرفني. وهناك أيضًا نزل صيفي صغير، يطل على النهر، فيمكننا أن

نأخذ كأسًا من هذا المشروب اللذيذ هناك مع نفحة من أفضل أنواع التبغ - وهو الأفضل والأعلى جودة، على حد علمي - حينها سننعم بالدفء والسعادة على أكمل وجه، ها! هل يمكننا القيام بذلك التدبير، أم أنك مرتبط بشأن خاص، سوف يأخذك إلى منحى آخر يا سيد سويفيلر؟ ها! ".
بينما كان القزم يتحدث، استرخى وجه ديك تمامًا، وشرع يبتسم إبتسامةً طيعة، وبدأت حواجبه تستقيم في بطء بعد عبوس، بحلول الوقت الذي كان كويليب قد أتم حديثه فيه، صار ديك ينظر إلى كويليب بالنظرة نفسها التي كان ينظر بها كويليب إليه، لذلك لم يبق هناك أي شيء، عليهما القيام به، غير الخروج والذهاب إلى النزل المقصود. وقد كان، حيث غادرا من فورهما. في اللحظة التي أدارا فيها ظهريهما، تلاشى تيبُّس جسد جايكوب الصغير، وشرع يبكي ثانيةً من النقطة التي استوقفه كويليب عندها، وعلى الوتيرة نفسها.
كان النزل الصيفي الذي ذكره كويليب في حديثه، عبارة عن صندوق خشبي متصدع، شاع فيه عفن ظاهر للعيان، قائمًا على طين النهر، مهددًا بالانزلاق فيه في أي لحظة. أما الحانة التي تجاوره، فقد كانت عبارة عن مبنى عطب، جرفته وقوضته الفئران، إلا أنه لا يزال قائمًا بسبب ألواح خشبية كبيرة، دُقت على جدرانه، تصدت لانهياره لفترة طويلة، لكنها بدأت تتحلل، وتميل مع ميل حمولتها، إذا صادف وحلَّت ليلة عاصفة، تسمع في الحال أصوات صرير وتصدع كما لو كانت البناية كلها على وشك أن تنقلب وأن يُخسف بجدرانها الأرض. وحريٌّ بنا أن نقول إن المنزل كان قائمًا، مثل أي شيء عتيق خرب، على أرض نائية مهجورة، تغطيها غيوم من دخان متصاعد من مداخن المصانع، يدوي في أركانها صدى صرصرة العجلات الحديدية، وصوت الموج عند تدافع المياه العكرة، كان وصف الصورة الخارجية، أفضل تلميح عما يكنه الداخل. كانت الغرف منخفضة تغلب عليها الرطوبة، تشققت جدرانها الدبقة، وتوغلت فيها الثقوب والحفر، غوَّر الماء أرضيتها، حتى أضحى منظر العوارض الخشبية الناتئة، يبعث الحذر في نفس كل غريب عن حيهم، ممن تسول له نفسه الإقتراب.
حينما مرا قباله، وقف السيد كويليب يمعن النظر في انجذاب واضح، منتشيًا، يراقب جماله، بعدها اقتاد السيد ريتشارد سويفلر إلى داخل النزل الصيفي، وسرعان ما جلبا برميلًا خشبيًا، مملوءًا إلى آخره بالنبيذ الفاخر، إلى طاولة مخدوشة بحروف أولية، مربوطة بأحبال كثيرة. شرع كويليب يصب من خمره في الكأسين بمهارة وتمرس، ويضيف مقدار الثلث ماءً، ومن ثمَّ وضع أمام ريتشارد سويفلر حصته من الخمر، مشعلًا غليونه من لهب شمعة قاربت على الذوبان بالكلية، كانت موجودة في فانوس صدئ قديم، ثم جلس بالقرب من صديقه، نافخًا دخان غليونه.
قال كويليب، بينما كان ريتشارد سويفلر يضم شفتيه: " هل مذاقه جيد؟ هل تشعر بقوته وطعمه الحار؟ هل يجعل عينيك تغمزان ويسيل منهما الدمع؟ هل تشعر بالاختناق، وأن نفَسَك أصبح قصيرًا؟ نعم؟ إنك حقًّا تشعر بما أقول.. أليس كذلك؟ ".
صرخ ريتشارد سويفيلر فور تذوقه، ملقيًا بما احتواه كأسه، وملأه بالماء قائلًا: " أليس كذلك! بل هو كذلك.. لماذا يا رجل! لِمَ لم تخبرني أنني سأشرب نارًا ملتهبة؟ ".
رد عليه كويليب: " لا! لا تشربه. انظر هنا، ثم هنا، ثم عاود النظر هنا ثانيةً. لا تشربه! ".
بينما كان دانيال كويليب يتحدث، كان قد شرب ملء ثلاث كؤوس صغيرة من نبيذه المعتق، تبعها بسحب أنفاس متتالية من غليونه في شراهة، مبتلعًا دخانه، حابسًا أنفاسه، زافرًا من أنفه

سحابة ضبابية من الدخان بعد فترة. كان ما فعله دانيال كويليب، قد أعاده إلى شخصيته المعتادة، فصار يقهقه بإفرط.
صاح كويليب فجأةً: " دعنا نقدم نخبًا ". ومن ثمَّ شرع يدق على الطاولة بقبضة يده ومرفقه بالتناوب، بطريقة بارعة، بوقع ملحن، وقال: " من أجل امرأة.. من أجل الجمال.. دعنا نقدم نخبًا من أجل الجمال، ونفرغ كؤوسنا إلى آخر قطرة فيها. هيا قل لي اسمها.. هيا! ".
قال ديك: " حسنًا! إذا أردت اسمًا، فليكن صوفي واكلز ".
صاح القزم في صخب قائلًا: " صوفي واكلز! الآنسة صوفي واكلز! بل قل السيدة ريتشارد سويفيلر. فليكن نخبًا من أجل السيدة حرم ريتشارد سويفلر.. حتمًا كما أقول.. حتمًا حتمًا.. ها ها ها! ".
قال ديك: " آه! كان الأحرى بك لو قلت قولك هذا منذ بضعة أسابيع ماضية؛ لأن الوقت قد انتهى على تحقيق ذلك.. فقد قدمت نفْسها قربانًا على مذبح نشيجز..".
رد عليه كويليب قائلًا: " تشيجز! تشيجز المسموم.. فلتُنزع أذناه من مكانهما، لا أريد أن أسمع هذا الاسم ثانيةً. إنها ستكون حرم السيد سويفلر، أو لن تكون حرمًا لأحد آخر. سأشرب في صحتها مرة أخرى، وفي صحة والدها، وأمها، وأخواتها جميعًا وإخوانها.. في صحة عائلة واكلز المبجلة، في صحتهم جميعًا في كأس واحدة، في صحة العائلة المجيدة، منذ أول كأس إلى حد الثمالة ".
توقف ريتشارد سويفيلر لوهلة عن استمراره في ادعاء رفع الكأس إلى شفتيه، وبات ينظر إلى القزم في شيء من الذهول؛ وهو يلوح بيديه وساقيه، وقال: " حسنًا حسنًا! أتعلم أنك أفضل صديق للكأس، من بين جميع رفقاء الكأس، الذين تواردوا عليَّ، أو سمعت عنهم؛ إن لديك طريقة استثنائية متفردة، تحظى بها حياتي معك ".
زاد هذا التصريح المعلن من غرابة أطوار السيد كويليب، بدلًا من كبح جماحها، لدرجة أن ريتشارد سويفلر ذُهل حقًّا من رؤيته مندمجًا في مثل هذا المزاج الصاخب، فبات يتجرع - هو الآخر - عددًا ليس بقليل من كؤوس الخمر، من أجل صحبته، وشرع ينخرط في الأجواء رويدًا رويدًا بقدر بسيط، لكنه مع الوقت أصبح أكثر ثقةً وأُنسًا؛ جراء شعوره أن السيد كويليب يسانده، حتى أصبح مندمجًا تمامًا، وروحه أكثر خفة في الواقع. بمجرد أن أعاده دانيال كويليب إلى هذا المزاج، وعرف مفتاح لغز شعوره بالضياع وخيبة الأمل، أصبحت مهمته سهلةً نسبيًّا؛ فبات يعرف تقريبًا التفاصيل الكاملة لمخططه المفترض، الذي سيتم بين ديك سهل المراس، وصديقه المولع بالتآمر.
قال كويليب: " مهلًا مهلًا! أهذا هو الأمر؟ بالطبع هذا هو الأمر. أتعلم! يجب أن يتم تحقيقه، يجب حتمًا أن يتم تحقيقه.. ثق فيَّ فقط، وسأقدم لك يد العون، إنني صديقك المخلص بدءًا من هذه اللحظة ".
تفاجأ ديك من ذلك الدعم العظيم، ومن ثمَّ قال مستفسرًا: " هل تظن أنه لا يزال لدينا فرصة؟ ".
ردد القزم: " فرصة! بل قل يقين.. قد تصبح صوفي واكلز، حرم تشيجز أو أي أحد آخر تبغاه، لكنها لن تكون حرم سويفيلر. أيها الكلب المحظوظ! إنه أغنى من أي أحد حي، أما أنت، فأنت رجل عصامي. لا أراك الآن على أي صورة غير صورتك كزوج لنيلي، الذي يتمرغ في الذهب والفضة. سوف أساعدك، يجب أن يتم ذلك الأمر، وسوف يتم، تذكر كلامي فقط.. يجب حتمًا أن يتم ".

قال ديك: " لكن كيف؟ ".
قال القزم: " إن هناك متسعًا من الوقت.. وسوف يتم الأمر. سنجلس معًا مجددًا، وسنتحدث في الأمر مرة أخرى طوال الطريق. املأ قنينتك، بينما سأذهب إلى مكان ما، وسأعود على وجه السرعة.. سأعود مباشرة.. سأعود في الحال ".
مع إنتهاء كويليب من إلقائه لتلك الكلمات في عجالة، ركض مسرعًا إلى ساحة عراء، خلف المنزل العام، خصصت للعب القناني الخشبية، ألقى بنفسه على الأرض، يصرخ متدحرجًا متمرغًا في فرحة مفرطة.
قال صارخًا: " سيبدأ اللهو.. أصبح كل شيء ملكًا ليدي، مرتبًا وجاهزًا، ينتظر التنفيذ فقط، سيبدأ اللهو، وسيبدأ استمتاعي به، أليس هو ذلك الغبي الذي أبرحتي ضربًا وجعلني أشعر بآلام في كامل جسدي ذاك اليوم.. أليس صديقه هو ذلك المتآمر المدعي السيد ترينت الذي لطالما حاول لفت أنظار السيدة كويليب، فيبتسم لها ويغمز، أليس كذلك؟ بعد تكبدهم العناء لمدة عامين أو ثلاثة أعوام في مخططهم الثمين، يستفيقون في النهاية على أنهم لم يحصلوا على أي شيء سوى متسول شحاذ، وأن واحدًا منهم مقيد مدى الحياة، ها ها ها! حتمًا سيتزوج نيل. يجب أن يحدث ذلك، يجب أن يحصل عليها، عند زواجهما، سوف أكون أول رجل، يقول لهما حقيقة ما حصلا عليه، وكيف ساعدتهما. ستكون هذه العملية عملية تصفية حسابات قديمة، لقد جاء الوقت لتذكيرهما من أنا، لتذكيرهما كم كنت صديقًا رأسماليًّا، وكيف ساعدتهما في وراثة الثروة الضخمة. ها ها ها! ".
في أوج تلك النشوة التي يعيشها، كان السيد كويليب تحت الملاحظة، كان مراقبًا على نحو لن يروق له؛ فقد كان يتدحرج بالقرب من بيت مكسور لكلب شرس ضخم، انتهز الفرصة، وانقضَّ عليه انقضاضًا عنيفًا، وهو ما كان ليصير إلى نتائج غير حميدة، لولا أن سلسلته المقيد بها كانت أقصر من المسافة اللازمة. ظل القزم كما كان، راقدًا على ظهره في أمان تام، على الرغم من أن المسافة الفاصلة بينهما لا تتعدى القدمين، يسخر ويستهزئ من الكلب بحركات بغيضة من وجه؛ معلنًا انتصاره عليه؛ يعلم عجزه عن التقدم نحوه بشبر واحد آخر.
قال كويليب، وهو يتراقص أمام الكلب، يفتعل أصوات تثير جنونه: " لماذا لا تأتي وتعضني؟ ها! لم لا تأتي وتقطعني إلى أجزاء؟ ها! أيها الجبان؟ هل أنت خائف أيها الصغير؟ بل أنت مرعوب، وتعلم أنك
كذلك ".
أخذ الكلب يتقافز، ويشد سلسلته؛ محاولًا انتزاع نفسه بالقوة، ينظر إليه بعينين ضاريتين، وينبح في غضب عارم، لكنه كلما غضب أكثر، كلما كان القزم يقرب منه إصبعه، ويومئ إليه بإيماءات تمتلئ بالتحدي والاحتقار. حينما شعر كويليب أنه أصبح مسيطرًا بشكل كافٍ على فرحته، نهض، ثم وضع يديه على خصره، وأمال مرفقيه إلى الخارج، راقصًا حول بيت الكلب رقصة شيطانية، على حدود إمتداد السلسلة بالضبط؛ محاولًا إثارة غيظه أكثر فأكثر. بعد أن أنهى مجونه، حاول ضبط نفسه، وإعادتها إلى طبيعتها المعهودة، ثم عاد إلى رفيقه المسالم، الذي وجده واقفًا، ينظر إلى المد في وقار، منغمسًا في التفكير، يسترجع
كل شيء ذكره السيد كويليب بخصوص الذهب والفضة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني والعشرون

كان ما تبقى من ذلك اليوم واليوم الذي يليه حافلًا تمامًا، بالنسبة إلى عائلة نابلز، التي صبت اهتمامها كله على تحضير ملابس كيت، واستعدادات رحيله، بدت تلك اللحظات لأفراد العائلة لحظات عظيمة ومهمة، كما لو أنه على وشك عبور قارة إفريقيا، أو القيام برحلة بحرية حول العالم. سيكون من الصعب استيعاب أن صندوقًا واحدًا حوى كل ملابسه وضرورياته بالكامل، لقد فُتح وأُغلق، مرات عديدة، من المستبعد حصرها، على مدار أربع وعشرين ساعة كاملة، ولم يسْلَم بالطبع من فحص وتمحيص عينين صغيرتين؛ مثَّل لهما الصندوق بما يحتويه من ثلاثة قمصان، وجوارب متناسقة مع مناديل الجيب، منجمًا ذهبيًّا، فظل جايكوب الصغير يراقبه في حماس مذهل، دون أن يغفل ولو للحظة. أخيرًا، في يومهم التالي، نُقلت حاجيات كيت إلى من سيحملها عنه، في بلدة (فينتشلي)، لكن سؤالين بقيا في رأس كيت ولم يذهبا عن تفكيره، أولهما: ماذا لو أن الحمّال أضاع صندوقه، أو لم يكن نزيهًا، وزعم أنه فَقده خلال الطريق، وثانيهما: كيف ستعتني والدته بنفسها أثناء غياب ابنها!

قالت السيدة نابلز، في قلق شديد، ردًّا على السؤال الأول المطروح: " لا أعتقد أن هناك احتمالًا للفقد من الأساس.. لكنني في الوقت نفسه، من دون شك، أعلم مدى الإغراء الذي يقع الحمالون تحت وطأته، مدعين أنهم فقدوا أشياء أثناء قدومهم ".

قال كيت فزِعًا، وهو ينظر في جدية تامة: " من دون شك! حسنًا يا أمي! في هذه الحالة لا أظن أنه من الصحيح الثقة به على الإطلاق. لذلك كان يجب أن يذهب أحد مع الحاجيات.. إنني أخشى فعلًا ضياعها ".

قالت الأم: " لا حيلة لنا الآن! أعلم أن ذلك كان من الحماقة والخطأ، لكن الناس يجب ألا يغريهم شيء في المطلق ".

قرر كيت في قرارة نفسه أنه لن يختبر نزاهة أي حمال أبدًا بعد ذلك، وأنه إذا اضطر سوف يختبرهم أولًا بصندوق فارغ، وقد أقسم على فعله هذا، وبعد أن عقد هذا العزم، حوَّل فكره إلى السؤال الآخر:

" تعلمين بالطبع يا أمي، أنه واجب عليكِ أن تبقي على معنوياتكِ مرتفعة، وألا ينتابكِ الشعور بأي وحدة بسبب عدم وجودي في البيت. أعدك أنني في كثير من الأحيان، عندما أكون متواجدًا هنا في البلدة، سآتي إليك، وبالطبع سوف أرسل إليكِ خطابًا بين الحين والآخر، وبكل تأكيد حينما تنتهي فترة عملي، وأحصل على عطلة، سآتي إليكم، وأصطحب جايكوب الصغير إلى السيرك، وأعرفه ما هو ال(محار) ".

قالت السيدة نابلز: " آمل ألا تكون العروض مشينة، تقودنا إلى الذنوب والمهلكات.. إنني.. إنني خائفة حقًّا ".

رد عليها ابنها في فظاظة: " أعلم من نقل إليك تلك المخاوف، ووضع تلك الأفكار في رأسك.. إنه ذلك المكان الديني الصغير الذي تترددين عليه. الآن! أقولها لك يا أمي: عديني ألا تداومي على الذهاب إلى هناك؛ لأن وجهك الباش الذي كان يضفي بهجة على المنزل، تحول إلى وجه حزين مهموم، أصبح لرضيعكِ الوجه المهموم الحزين ذاته، ما دامنا كلنا مذنبين، إذنْ هل لكِ أن تسميه

الرضيع المذنب - بارك الله قلبه - أو أن تسميه إبن الشيطان - وكأنه منسوب إلى أحد أسماء والدنا الميت - إن علمت فقط أن هذا تكرر ثانية، وأن جايكوب الصغير بدا حزينًا مهمومًا مثلكما، سأتطوع من فوري وأصبح جنديًّا، وحينها سوف أضع رأسي أمام أول قذيفة مدفعية قادمة نحوي ".

- أوه! كيت، لا تتحدث أبدًا بهذه الطريقة.

- لا سأتحدث يا أمي.. وإذا كنتِ ترغبين حقًّا في جعلي أشعر بالضيق وعدم الارتياح أكثر، احتفظي بتلك العقدة على قلنسوتكِ أيضًا، أظن أنكِ قد حسمتي رأيكِ على عدم حَلِّها طوال الأسبوع الماضي. هل تظنين أنه من العار، إذا ما بدت عليك السعادة، أو إذا ما كنتِ مبتهجة، في ظل ظروفنا الفقيرة؟ هل يجب عليَّ أن أظهر في مظهر المتباكي، الوحيد، المتحدث في همس، المتخفي عن الأنظار، وأظن أن هذا ما سيساعدني على تجاوز الأمور، هل تظنين أنه يجب عليَّ حينما أتحدث عن حالي، أن أتحدث في حزن وانكسار؟ لا يا أمي! على العكس من ذلك تمامًا، أنا لا أغفل عن الأسباب التي تجعلني على النقيض من ذلك تمامًا.. اسمعي! ها ها ها! أليس هذا طبيعيًّا؟ أليس هذا جيدًا على الصحة مثل المشي؟ ها ها ها! أليس هذا طبيعيًّا مثل ثغاء الغنم، ونخير الخنازير، وصهيل الخيول، أو تغريد الطيور؟ ها ها ها! أليس هو كذلك
يا أمي؟

كان من الواضح أن هناك شيئًا معديًا في ضحكة كيت؛ فوالدته التي بدت منذ وهلة في أوج حزنها، كفَّت عن حزنها، وقد تبسَّم ثغرها، إلى أن انفجرت في الضحك بحرارة، بينما يضحك كيت ويكرر قوله أليس هذا طبيعيًّا، ويضحك أكثر فأكثر. صار كيت ووالدته يضحكان بقهقهات عالية، أيقظت الرضيع، الذي لم يكن حينها بين ذراعي والدته، فبات ينظر حوله، مستشعرًا أن أجواء المرح والوئام تغمر البيت، فبدأ يضحك ويركل بساقيه في نشاط وسعادة. على ذات وتيرة هذا المنحى الجديد الذي اتخذه جدالهما، وبسبب الضحك الكثير، ترنَّح كيت ساقطًا إلى الخلف على كرسيه، في حالة من الإنهاك الشديد، غير قادر على إلتقاط أنفاسه، ثم مال على الرضيع، وأخذ يهدهده، ويدغدغ جانبيه، ثم يعاود هدهدته. بعد أن إلتقط أنفاسه، عاود الضحك ثانيةً، وظل على هذا المنوال مرتين أو ثلاث مرات، حتى هدأ تمامًا، مسح عينيه، قال دعاء الطعام، ونَعِم بوجبة عشاء هنيئة رغم بساطتها.

غادر كيت منزله في صباح يومه التالي، مصحوبًا بدموع منهمرة، وقبلات وأحضان؛ ذاهبًا إلى فينتشلي، بدا على مظهره شعوره العارم بالفخر الكافي؛ وقد ضمن رحيله عن تلك الجماعة المتطرفة المفرطة في الحداد، التي تسببت في إضفاء الحزن على وجه أمه، عالمًا بأنه لن يتردد على ذلك المكان الديني ثانيةً، على الأقل طوال ذلك الوقت.

خشية أن يشعر أحدكم بالفضول حيال ما كان يرتديه كيت، وجب ذكر أنه لم يرتدِ زيًّا مخصصًا لعمله، بل ارتدى معطفًا (صولت آند بيبر) لونه أقرب إلى امتزاج الملح بالفلفل، وصدرية باللون الكناري، وبنطالًا باللون الرصاصي، بالإضافة إلى تلك الأناقة غير المعتادة، ارتدى زوجًا جديدًا ومتينًا من الأحذية ذات الرقبة العالية، واعتمر قبعةً، كان بريقها وهاجًا، إذا طرقت عليها في أي موضع بسلميات الأصابع، لسمعت صوتًا كقرع الطبل. وفي ملبسه هذا، سار بين الناس متعجبًا من جذبه لنظرات عدد قليل منهم فقط، لكنه سرعان ما أسند ذلك إلى أن عدد الناس الذين

استيقظوا في هذا الوقت المبكر بالأساس قليل، فانطلق راضيًا متحمسًا يشق طريقه إلى فيلا هابيل.
لم ينتهِ طريق كيت في رتابة، دون تعرضه إلى حدث مؤثر، بينما كان سائرًا، لاحظ صبيًا، يعتمر قبعة لا إطار لها، هزيل الجسم، رث الثياب، ذكره بنفسه في السابق، لذلك اقتسم معه الستة بنسات، التي حصل عليها من قبل، مستكملًا سيره نحو بيت الحمال، حيث وجد صندوقه في أمان، غير منهوب أو ضائع، أخذه من زوجة هذا الرجل النزيه الأمين، فحمله على كتفه مباشرةً، ومضى يشق طريقه مرة أخرى.
في واقع الأمر، لم تكن فيلا هابيل منزلًا ريفيًا مترفًا عاديًا، بل كانت منزلًا جميلًا على صغره، سقفه من القش، اعتلت نهايات سقفه المحدَّب قمم مستدقة، وزينت بعض نوافذه بقطع زجاجية ملونة، لم يتعد حجمها حجم كتب الجيب. كانت هناك في أحد جوانب المنزل حظيرة صغيرة، تناسب حجم المهر، بالإضافة إلى غرفة صغيرة، تناسب حجم كيت تقريبًا. كانت الستائر البيضاء الناصعة ترفرف في الهواء إلى خارج النوافذ، وإلى جانبها تغرد الطيور في طرب، داخل أقفاصها، التي بدت مصنوعة من الذهب الخالص، وعلى جانبها الآخر نُسقت النباتات، وصنعت عناقيد على الباب، كانت الحديقة مفعمة بالحياة، مشرقة بألوان أزهارها المنفتحة، تبعث بعبيرها في كل النواحي، تغمر المكان بالسحر والأناقة، في مظهر تسر له الأعين وترتاح له الأنفس. بدا كل شيء داخل هذا المنزل وخارجه، في كمالٍ تألَّف من النظام والدقة. لم يكن في الحديقة أي عشب، يمكن رؤيته، واستنادًا إلى وجود أدوات بستنة نظيفة، وسلة، وزوج من القفازات، ملقاة في أحد مماشيها، يتبين أن السيد جارلاند العجوز كان يعمل في تلك الساعة المبكرة من الصباح.
نظر كيت في ما حوله نظرة يملؤها الإعجاب الشديد، بعد أن أطال النظر، أرغم نفسه على الالتفات، وتوجيه ناصيته نحو طريقه، ليقرع الجرس. كان هناك متسع من الوقت، للنظر في ما حوله مرة أخرى؛ على الرغم من أنه قرع الجرس مرتين وثلاث مرات، لم يأت أحد ليفتح الباب، لذلك وضع صندوقه قبالة الباب، وجلس عليه منتظرًا.
بات يقرع الجرس، ويجلس، ثم يقرعه ثانية، ويجلس.. ظل على هذا المنوال مرات عديدة، ورغم ذلك لم يأت إليه أحد. لكنه في النهاية، بينما كان جالسًا على الصندوق شاردًا، يأخذه خياله بعيدًا، فكر في قلاع العمالقة، والأميرات التي تُربط في الأوتاد من شعورهن، والتنانين التي تنفث لهيبًا من وراء البوابات، وغيرها من الأحداث المماثلة، الشائعة في الكتب القصصية، التي دائمًا ما ترد إلى أذهان الصغار، عند زياراتهم الأولى للأماكن الغريبة، فُتح الباب برفق، وظهرت فتاة صغيرة، بدا من هيئتها أنها خادمة، لكنها كانت مهندمة وخجولة ورزينة، بالإضافة إلى كونها فائقة الجمال أيضًا، قالت له: " أحسب أنك كريستوفر يا سيدي.. أليس كذلك؟ ".
وقف كيت عند صندوقه وقال: " نعم، إنني أنا هو ".
عاودت الخادمة الحديث قائلةً: " أخشى أن تكون قد قرعت الجرس كثيرًا، ربما لم نكن نسمعك حينذاك؛ فقد كنا جميعًا نحاول اللحاق بالمهر، والإمساك به ".
تعجب كيت مما قالته له، لكنه بدلًا من أن يتوقف ويستفهم عن مقصدها، ويطرح أسئلة، حمل الصندوق على كتفه مرة أخرى، وتبع الفتاة إلى الداخل، لكنه لمح السيد جارلاند، من خلال الباب الخلفي، يقود مسيرة إنتصار في الحديقة، بعد أن راوغ المهر صاحب الإرادة الحرة - كما سيتبين بعد ذلك - العائلة بأكملها، في حقل صغير بالخلف، لمدة ساعتين إلا ربع.

استقبله السيد العجوز في ترحاب ولطف، وكذلك فعلت السيدة العجوز، التي زاد انطباعها الجيد نحوه درجات، حينما لمحته يمسح حذاءه على الحصيرة، قبل دخوله، لدرجة أن أخمص قدميه كادا يلتهبان. أخذاه بعد ذلك إلى الردهة، حيث فُحصت ملابسه الجديدة، على الرغم من خضوعه للتفقد مرات عديدة، إلا أن مظهره أضفى على نفسه ارتياحًا بلا حدود، بعد أن انتهت تلك المعاينة، أرشدوه إلى الحظيرة، حيث استقبله المهر بلين غير مألوف على سلوكه، ثم أرشدوه إلى الغرفة الصغيرة، التي رآها بالفعل في وقت سابق، وقد بدت نظيفة ومريحة، ثم إلى الحديقة، حيث أخبره السيد العجوز أنه يجب عليه أن يُعلِّم نفسه بنفسه، وأنه كلما أخلص في عمله، وأنجز مهامَّ، وحقق نتائج جيدة، كلما نال استحسانًا، عازمًا على أن يجعله مرتاحًا وسعيدًا، إذا وجده يستحق ذلك فعلًا، جراء هذا القدر من الود، عبَّر كيت بأساليب متنوعة عن امتنانه الشديد، متلمسًا قبعته الجديدة، التي استقبل طرفها الكثير من الطرقات عليه، بعدما انتهى السيد العجوز من قول ما توجب عليه قوله من وعود وتوجيهات ونصائح، وأتبعه كيت بالتعبير عن امتنانه، وتأكيده على أنه سيفعل ما في وسعه، سُلِّم كيت ثانية إلى السيدة العجوز، التي استدعت من فورها الخادمة - كان اسمها باربرا - وأمرتها باصطحابه إلى أسفل الدرج؛ كي يأكل ويشرب بعد رحلته الطويلة.

ذهب كيت إلى حيثما قالت السيدة العجوز، ومع نهاية الدرج، كان هناك مطبخ لم يسبق أن كان له مثيل، ولم يره أحد - من وراء نافذة متجر بيع الألعاب حتى - أو يسمع عنه؛ كان كل شيء مشرقًا ذا بريق، منسَّقًا في مثالية، حتى باربرا نفسها كانت مثالية. جلس كيت في هذا المطبخ، على مائدة بيضاء ناصعة البياض، عليها مفرش له اللون نفسه، حيث أكل اللحم البارد، وشرب القليل من نبيذ المزر، لكنه كان مرتبكًا للغاية، يستخدم شوكته وسكينه بطريقة خرقاء للغاية؛ فقد كانت باربرا تنظر إليه وتراقبه.

ومع ذلك، لم يكن هناك أي شيء مثير للريبة بخصوص باربرا؛ قد عاشت حياة هادئة، وكثيرًا ما تخجل، وتشعر بالحرج الشديد والتوتر الهائل حيال ما يجب عليها أن تقوله أو تفعله، كما هو الحال مع كيت نفسه. بعد مضيٍّ بعض الوقت منذ جلوسه، ناظرًا في انتباه إلى تكتكة الساعة، غامر بتقليب نظره فيما حوله، فنظر إلى خزانة الملابس، ثم إلى الأواني والأطباق، فوجد صندوق عمل باربرا الصغير، مع قفل صغير لغلقه، تتدلى منه كرات من القطن، وإلى جانبه كتاب صلوات باربرا، وكتاب الترانيم الخاص بها، والكتاب المقدس الخاص بها كذلك. عُلِّقت مرآة باربرا في مكان جيد الإضاءة إلى جانب النافذة، عُلِّقت قلنسوة باربرا على مسمار خلف الباب. بعد كل تلك الملاحظات الصامتة، والنظرات السرية، التي حدثت في وجودها، بات ينظر إلى باربرا نفسها، كانت قد جلست في صمت مثله تمامًا، تفرط البازلاء في طبق، يحملق في رموشها - في بساطة حتَّمها قلبه عليه - متسائلًا بينه وبين نفسه ما لون عينيها، إلى أن رفعت باربرا رأسها قليلًا، والتفتت نحوه، وتلاقت عيناهما، فإذ بها تستحي، وتخفضهما من فورها، وتنكب على عملها في فرط البازلاء، والآخر ينظر في صحنه، وأصبح كل منهما في ارتباك وخجل شديد من أن يضبط أحدهما الآخر وهو ينظر خلسة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثالث والعشرون

عاد السيد سويفيلر من نزل البرية - بسبب اسمه ذلك، كان هذا النزل أكثر الاختيارات ملائمة لكويليب - بعد الكثير من الترنح والسير في اعوجاج، بعد الكثير من التعثر ومن المحاولات غير المجدية لضبط الاتزان، كان يتوقف فجأة، ملتفتًا، ينظر مليًّا إلى الأفق الفسيح، ثم ينطلق مرة أخرى بأقصى سرعة لديه، ولا يكاد يتجاوز بضع خطوات، حتى يعاود الوقوف المفاجئ، ظل يهز رأسه، يهذي دون وعي، بات جسده ينتفض بالكامل، وبرتعش دون أي إرادة أو تحكم منه، عاد السيد سويفيلر أدراجه نحو بيته، يتخبط ويتعثر، يقع ثم ينهض ويكمل، في حالة يعتبرها الرجال ممَّن نزغهم الشيطان دليلًا بينًا على الثمالة، لكنَّ شخصًا مثله كان يعتبرها لحظة من الحكمة والتفكُّر مع النفس، لحظة يُدرك فيها الممثل حقيقة ما هو عليه، لذلك غرق في أفكاره، يتدبر ما إذا كان مخطئًا حينما جعل القزم محلًّا للثقة؛ لأن القزم نفسه شخص لا يعهد إليه بأمر، ولا يؤتمن على سر على مثل هذا القدر من الحساسية والأهمية. ساقته أفكاره النادمة إلى التفكير في حالته باعتبارها حالة من حالات الثمالة التي يقع فيها الكثير من الرجال ممَّن نزغهم الشيطان - السابق ذكرهم - فإذ به يلقي بقبعته على الأرض، ويصرخ في أنين مدوٍّ، يردد أنه قد كان يتيمًا غير سعيد، وأنه إذا لم يكن يتيمًا، لم يكن شيءٌ مما مرَّ به قد حدث له.

ظل السيد سويفيلر ينتحب، ويقول في فجيعة: " تُركت رضيعًا، وذهب عني والدي، تُركت منذ أن كنت رضيعًا في المهد.. أُلقيت في عالم موحش، وأنا في كامل براءتي، أُلقيت تحت رحمة قزم مضلل آثم، مَن في الكون يهتم لأمري في لحظة ضعفي وانهزامي! يا لك من يتيم بائس.. ". ثم رفع صوته إلى أقصى درجاته، ناظرًا حوله بعين منكسرة: ".. يتيم بائس! ".

ارتفع صوت أجش، قال في جدية: " حسنًا.. دعني أكون أبًا لك ".

تمايل السيد سويفيلر إلى الأمام وإلى الخلف؛ يحاول ضبط اتزانه بالكاد، ينظر عبر سحابة ضبابية أحاطته من كل جهة، يريد أن يعرف مصدر ذلك الصوت، لاحظ أولًا اقتراب عينين منه، ومع الوقت استطاع أن يبصر وجود أنف وفم أسفلهما. نظر نظرة شاملة على مظهرها معًا، واستنبط أنها تشكل وجهًا، أشاح بناظريه إلى الأسفل شيئًا فشيئًا، رأى ساقين، فأصبح واعيًا بحتمية وجود جسد يصلها معًا، وبعد أن تدبَّر هيئة ذلك الجسد في مجملها، شعر بالرضى؛ فور اكتشافه أن صاحب تلك الهيئة هو السيد كويليب نفسه، الذي كان بالفعل في صحبته طوال ذلك الوقت، لكنه بدا في الأغلب مشوشًا، تحيره الأفكار المبهمة؛ حول تركه بالخلف على مسافة ميل أو ميلين.

قال السيد سويفيلر في جدية: " لقد ضَلَّلت يتيمًا يا سيدي.. لقد خدعت يتيما ".

رد عليه كويليب مستنكرًا: " أنا! إنني بمثابة أب ثانٍ لك ".

رد عليه ديك متمتمًا: " بمثابة أب لي! أريد فقط أن أستعيد رباطة جأشي، أرجوك اتركني بمفردي يا سيدي ".

صاح كويليب: " يا لحسّك الفكاهي المسلي اليوم! ".

ارتكن ديك إلى أحد الأعمدة، وقال ملوحًا بيده: " اذهب يا سيدي! اتركني وشأني! اذهب.. أيها المخادع.. اذهب.. لعلك في أحد الأيام تستيقظ من الحلم الوردي الذي تعيشه، على فجيعة اليتيم المنبوذ.. هل ستظل واقفًا، أم ستذهب يا سيدي؟ ".

لم يُعِر القزم تلك المناشدة أي إهتمام، وإذ بالسيد سويفيلر يتقدم نحوه، عازمًا على أن يلحق به الضرر. لكنه سرعان ما تراجع عمَّا نوى فعله، قبل أن يقترب منه، حيث أحكم قبضة يده، وتعهد بصداقة أبدية وليدة تلك اللحظة، معلنًا في وضوح، وبصراحة مقبولة، أنهما منذ ذلك الحين، سيكونان إخوة في كل شيء، عدا اختلاف الشكل بينهما. أخبره بسره مرة أخرى، لكنه في هذه المرة، أوضح شعوره المثير للشفقة حيال شتى ما يخص الآنسة واكلز، مدققًا على أن ما يشعر به هو تأثير قوة مشاعره، وليس من تأثير الخمر المعتَّق الوردي عليه. وحينما انتهى تعانقا، في مشهد تغمره المحبة.
قال له كويليب، بينما كانا يفترقان من عناقهما: " إنني حاد، حاد جدًّا، حاد كالنمس، وكائد ماكر مضلل كابن العرس. أحضرْ لي ترينت فقط، وأكد له أنني صديقه، على الرغم من أنني أخشى أن يكون غير واثق فيَّ، أنا لا أعلم دافعه، وجاهل تمامًا بحقيقة عدم ثقته فيَّ والسبب وراء ذلك، إنني لا أستحق هذا مطلقًا.. أتعلم! إن فعلتما ما أمليه عليك الآن، حينها من وجهة نظري، ستكونان قد مهدتما طريقكما لصناعة الثروة ".
رد عليه ديك: " هذا أسوأ ما في الأمر، هذه الثروة المبنية على وجهة نظرك، تبدو بعيدة المنال ".
قال كويليب، قابضًا على ذراعه: " إنهما أصغر في حقيقتهما، مما يبدوان عليه.. على أي حال، اسمع كلامي جيدًا، وردده في عقلك، لن يكون لديك أي فكرة عن قيمة منالك حتى تقترب منه وتعرف حقيقته.. انتبه لكلامي! ".
قال ديك: " في عكس ما أقول؟ ".
أجابه القزم: " أي نعم! إنني متأكد تمام التأكد مما قلته لك.. أحضر فقط ترينت لي. وأخبره أنني صديقه وصديقك أيضًا.. كيف يجب أن لا أكون؟ ".
رد عليه ديك: " لا يوجد أي سبب يمنعك من أن تصبح صديقنا بكل تأكيد.. على العكس تمامًا لديك مقومات عظيمة تجعلك صديقًا لنا.. على الأقل ليس هناك أمر غريب، حيال رغبتك الملحة في أن تكون صديقي، لكن صداقتنا إذا ما كانت مبنية على اختيار الروح، فأنت تعرف حتما أنك لن تكون أبدًا اختيارًا للروح ".
صاح كويليب مستنكرًا: " لن أكون اختيارًا للروح.. كيف ذلك؟ ".
قال ديك: " من الممكن أن تكون اختيارًا لروح شيطانية على ما أحسب يا سيدي. إن رجلًا في مظهرك هذا حتمًا لن يكون غير ذلك.. إذا كان من اللازم نعت روحك بأي صفة يا سيدي، فسوف تكون الروح الشريرة. إن إختيار الأرواح.. "، سدد ديك ضربة قوية إلى صدره، ثم أكمل قائلًا: " إن اختيار الأرواح شيء يختلف تمامًا، مثلما يختلف الناس عن بعضهم.. على أي حال، يمكنك الآن أن تصون ما تعاهدنا عليه في هذا الخصوص يا سيدي ".
رمق كويليب صديقه المتكلم بحرية وانطلاق، بنظرات يختلط فيها المكر والاستنكار، قابضًا على يده بقوة في اللحظة نفسها، وأعلن أنه شخص غير عادي، لكنه حظي على أحر التقدير والاحترام، هكذا، تفرقا عن بعضهما، اتجه السيد سويفيلر؛ لتحقيق أفضل ما يتمناه في هذه اللحظة، ماضيًا في طريقه نحو منزله؛ ليهنأ بنوم عميق، بينما مضى كويليب؛ ليتدبر أمر اكتشافه الجديد، منتشيًا باحتمالية وجود مجال متاح أمامه، يقوده إلى الغنى والانتقام في الآن ذاته.
لم يكن صباح اليوم التالي جيدًا بالنسبة للسيد سويفيلر؛ حيث شاب صباحه الهموم والاشمئزاز، رغم شعوره بعصف داخل رأسه بسبب ما شربه من خمر، قصد إلى مسكن صديقه ترينت - كان

على سطح نزل قديم، أقرب إلى نزل تسكنه الأشباح - روى له بالتفصيل الرتيب وبوتيرة هادئة، ما حدث بينه وبين كويليب بالأمس. بعد أن استمع صديقه للقصة، لم يُبْدِ أي اندهاش تجاه دوافع كويليب، ولم تكن هناك تكهنات عديدة حولها، لم يملك أيضًا الكثير من التعليقات المريرة حول حماقة تصرفات سويفيلر.

قال ريتشارد نادمًا: " إنني لا أدافع عن نفسي، إن لديه تلك الطريقة الغريبة، التي تجعلك تدلي بكل شيء دون إتخاذ أي حيطة.. إنه كلب ماهر، جعل تفكيري كله طوال فترة وجودي معه ينصَّب على أنه لا ضرر ولا ضرار من إخباره بما يكنه صدري، بينما كنت غارقًا في التفكير مع نفسي، تحدثت دون إرادتي، كان الأمر كأنه قد سحب الكلام من داخلي. إذا كنت رأيته يدخن ويشرب الخمر المعتَّق مثلما رأيته، لم تكن لتخفي أي سر عنه، إنه كالسمندل كما تعرف، حيوان مفترس انتهازي، هذه حقيقته بالضبط ".

دون طرح أي استفسار حيال ما إذا كان من الممكن الوصول في السمندل ([8]) بالضرورة، أم من الأولى الوثوق بمن كان مقاومًا للنار ([9]) بكل تأكيد، ألقى فريدريك ترينت نفسه على كرسي، ووضع وجهه بين راحتي كفيه، وأخذ يتدبر في دوافع كويليب الخفية، وما يكمن وراء تلميحاته، وتسلله إلى داخل ذهن ريتشارد سويفيلر، طالبًا ثقته.. كانت الدوافع وراء سعي كويليب وراء ما يريد، واضحةً بما فيه الكفاية، لم يكن ديك مضطرًا للكشف عنها، وإن كان قد فعل عن غير عمد، وبسبب طبيعته المعهودة؛ فقد كانت أسباب محاولته لإغرائه بيِّنة.

لقد اعترضه القزم مرتين بالفعل؛ بينما كان يحاول معرفة أي معلومات تخص الهاربين. إن لم تكن الشبهات قد أُثيرت حوله، وأصبح مصدرًا لإثارة القلق والاضطراب في وقت سابق، فإن إلحاحه المتزايد الآن أصبح سببًا كافيًا، لإيقاظ كافة الشكوك حول ذلك المخلوق غير الجدير بالثقة والغيور بالفطرة، إذا ما نُحي الفضول الذي اعتراه بالتأكيد جراء السلوك المضطرب لديك الغافل، لكن السؤال العويص هنا، أعوص حتى من محاولة الإجابة عنه، إذا افتُرض معرفته بمخططهما، لماذا يود أن يشاركهما، - بل ما هو أكثر من ذلك - لماذا يعرض عليهما مساعدته؟ لكن عقليات المخادعين تتلاقى، ويعلم كل منهم ما يدور ويحور في رأس الآخر، لذلك تواردت الفكرة على الفور إلى ذهنه، وطرحت نفسها، مبينة أن دافع كويليب الأساسي هو شعوره الغاضب نحو الرجل العجوز؛ إثر عقبات وخيمة نتجت عن معاملاتهما السرية، التي هي في الغالب على صلة وثيقة أيضًا باختفائه المفاجئ، لذلك نظرًا لرغبته في الانتقام منه، لم يجد وسيلة أكثر شرًّا من تدبير مكيدة، يقع فيها مَنفذ حبه الوحيد ومصدر قلقه الدائم، عن طريق جعلها على صلة بمن يدرك تمامًا أنه يكرهه ويفزعه. لكن لماذا تقع عليه الملامة، ففريدرك ترينت نفسه، تغاضى تمامًا عن كونها أخته، وأخفى الغرض ذاته في صميم قلبه، منتظرًا لحظة انتصاره عليه، لذلك اتضح له هدف كويليب ودافعه الأساسي وراء كافة تصرفاته. بمجرد أن أتم كويليب مخططه الخاص، شرع يحرضهما،

عن طريق استغلاله لغرضهما الخاص، وفي تلك الحالة يكون من السهل تصديقه طواعية، بما أنه أثبت مرات عدة أنه مساعد قوي دون شك، ويعوِّل عليه، لذا وافق ترينت على تلبية دعوته، والذهاب إلى بيته في تلك الليلة، على شرط تأكيد ما جزم به قولًا وانطباعًا، والتأكيد على موافقته على مشاركتهما الجهد والتنفيذ، لا الربح.

رتّب تلك الأفكار في ذهنه، وفور وصوله أخيرًا إلى ذلك الإستنتاج أخبر ديك بتأملاته، لكنها لم تكن كاملة، أبلغه فقط بالقدر المناسب - لكن ديك على أي حال شعر بالرضى التام إزاء ذلك القدر القليل - تاركًا له ما تبقى من النهار؛ للم شتات نفسه، واستعادة وعيه من تأثير الخمر؛ كي يصطحبه معه إلى منزل السيد كويليب في المساء.
كان السيد كويليب سعيدًا جدًّا برؤيتهما، أو ربما بدت على وجهه أمارات السعادة، كان على غير العادة مهذبًا على نحو مخيف تجاه السيدة كويليب والسيدة جينيوين، لكنه سرعان ما رمق زوجته بنظرة حادة للغاية فور دخول الشاب ترينت إلى منزله؛ فقد رأى كم كانت زوجته مولعة ومتحمسة، عندما وقعت عيناها عليه. لكن السيدة كويليب كانت بريئة تمامًا مما نُسب إليها، فقد ماثلت نظرتها نظرة والدتها، كانت مجردة من أي مشاعر عاطفية، تخفي ألمًا لكنها في الآن ذاته نظرة ودودة، لكنها بسبب نظرة زوجها إليها، ارتبكت واضطرب تفكيرها تمامًا، وارتعدت من فورها، تجهل ما يجب عليها فعله، أو ما هو مطلوب منها فعله، لم يكن ما صارعته من شعور متضارب، خفيًّا بحيث لا يلحظه السيد كويليب، لكنه تغاضى عما حدث؛ حتى يظل في كامل تركيزه، بخصوص ما يدور في ذهنه، يضحك سرًّا بينه وبين نفسه بسبب ما خططه، رغم غيرته المتأججة في صدره.
لم تظهر أي أمارات على وجه السيد كويليب، تخص مكنوناته، بل كان على النقيض تمامًا، اعتمد أسلوبه على الدماثة واللطف، واعتزم فتح قنينة خمر بكل ود ظاهري.
قال كوبليب: " دعني أتفكر لوهلة.. أحسب أن أول مرة تعرفنا فيها، كانت منذ عامين تقريبًا ".
قال ترينت: " بل وفقًا لما أظن أحسب أنها أقرب إلى ثلاثة أعوام ".
صاح كويليب: " أوه! أقرب إلى ثلاثة أعوام، إن الوقت يمر بسرعة شديدة حقًّا، هل يبدو لك الأمر على النحو نفسه يا سيدة كوبليب؟ ".
جاء ردها على محمل يؤسف له فعلًا؛ فقالت: " نعم! إنني أظن أنها ثلاثة أعوام كاملة يا كويليب ".
تردد صوت كويليب داخل رأسه وهو يقول: " أوه! فعلًا! ما بالكِ كنت تتلهفين على مضيها.. أليس كذلك؟ عظيم جدًّا يا سيدتي.. عظيم جدًّا ".
قال بصوت عالٍ: " حسنًا حسنًا.. لكنك ذهبت بالأمس إلى (ديميرارا) ([10]) في سفينة (ماري آن)، نعم! أعلنها على الجميع أن هذا حدث بالأمس.. إنني أحب المجون، لقد كنت ماجنًا في السابق ".
وثَّق السيد كويليب اعترافه بغمزة فاحشة، دلت على تردي وانحطاط ماضيه، ما استشاط غضب السيدة جينيوين، تذرعت بالصبر، لكنها لم تستطع كتمان أنفاسها، التي حملت تنبيهًا ملحوظًا له أن يؤجل اعترافاته، على الأقل حتى تغيب زوجته، لكنه استكمالًا لتمرده ووقاحته، نظر إليها دون اكتراث، ثم شرب نخب صحتها، في ابتهاج.
قال كويليب، وقد أنزل كأسه عن فمه: " لقد ظننت أنك ستأتي مباشرة يا فريد.. حينما عادت بك ماري آن إلى الميناء، كنت أعتقد أن ذلك ما سيحدث، بدلًا من أن تبعث خطابًا تبين فيه، كم كنت نادم الفؤاد، وكم أصبحت سعيدًا بالظرف الذي توفر لك.. لكنني على كل حال كنت منتشيًا.. منتشيًا للغاية. ها ها ها! ".

ابتسم الشاب الصغير، على الرغم من أن الموضوع المطروح لم يكن أكثرها قبولًا، من أجل اختياره كموضوع مسل لجلستهم، لكن كويليب فور ملاحظته امتعاضهم، انتهز الفرصة، واستأنف حديثه.
قال: " إنني سأقول دائمًا: متى كانت هناك علاقة وطيدة بين شابين صغيرين، أو بين الإخوة، أو الأخوات، أو حتى بين أخت وأخيها، ثم يأتي واحد يقترب من أحدهما على وجه الخصوص، وينحي الآخرين، فإنه حتمًا خاطئ ".
تحرك الشاب وأومأ بنفاد صبره، لكن كويليب استطرد في حديثه في هدوء تام، كما لو كان يناقش مسائل مجردة، رغم أن لا أحد من الحاضرين لديه أدنى إهتمام شخصي بما يقول.
قال كويليب: " إن هذا في منتهى الصحة.. أتعلم أن جدك كان يختصك في قوله ملحًّا على بعض الكلمات، منها الغفران، والجحود، والعصيان، والإسراف، دائمًا ما كنت أقول له: " إنها أخطاء شائعة، لكنه كان يقول: إنه وغد. فأقول له – من أجل مجاراته في الجدال بالطبع -: إنه أمر مألوف، فكثير من الشباب النبلاء والسادة أوغاد أيضًا! لكنه لم يقتنع أبدًا ".
قال الشاب الصغير في تهكم واضح: " إنني مندهش حقًّا يا سيد كويليب ".
قال كويليب: " حسنًا.. حسنًا! لقد انتابني نفس الشعور، كنت مثلك تمامًا في ذلك الحين، لكنه كان متعنتًا طوال الوقت، على الرغم من أنه كان صديقًا لي، كان عنيدًا متشبثًا برأيه الخاطئ دائمًا. إن نيل فتاة لطيفة.. ساحرة.. لكنك أخوها يا فريدريك. إنك أخوها في كل الأحوال وبعد كل شيء، أتتذكر!، لقد أخبرته ذلك بنفسك في المرة الأخيرة التي تقابلتما فيها، وهذا ما لا يمكنه تغييره أبدًا، مهما فعل ".
رد الشاب الصغير بفارغ الصبر: " لو استطاع، لفعل من توه وهذا ما أوقعه في بلبلة وحيرة، والأمور الأخرى المدعاة للشفقة.. لكن لا شيء سيغير من الوضع الآن، أو يجعلنا نحيد عن تنفيذ مخططنا، دعونا ننفذ ما نوينا عليه، تحت مسمى المكر والدهاء ".
قال كويليب: " أتفق معك... وأبدي موافقتي واستعدادي الكامل. لكنني أود أن أقول لك: لِمَ أشرت في حديثي إلى تلك النقطة تحديدًا؟ من أجل أن أبين لك يا فريدريك، أنني لطالما كنت صديقك، وأدعم صفك. إنك على دراية ضحلة بمَن هو صديقك حقًّا، ومَن هو عدوك الآن.. أليس كذلك؟ لقد ظننت أنني ضدك، لا تنكر؛ فقد تمثل ما ظننته في معاملاتنا الفاترة، لكن ذلك الشعور كان من جانبك، أو غالبًا كان من جانبك بالكامل. على أي حال، دعنا ننسَ الماضي، ونتصافح بالأيدي على ما تواعدنا مرة أخرى يا فريد ".
بعدما غاص برأسه بين كتفيه، وارتسمت على وجهه ابتسامة قبيحة الشكل، وقف القزم ومد ذراعه القصير عبر الطاولة. بعد مرور لحظات من التردد، مد الشاب الصغير ذراعه أخيرًا، وإذ بالسيد كويليب يحكم قبضة إحدى يديه على أصابعه، موقفًا مسار تدفق الدم لوهلة، وبيده الأخرى ضغط على شفاهه، مديرًا رأسه تجاه ريتشارد البريء، ناظرًا إليه وهو مقطب الحاجبين، ثم أطلق سراح أصابعه، وجلس ثانية.
لم يستسغ ترينت الأمر؛ فقد أدرك من فوره، أن ريتشارد كان مجرد أداة في يده يحركها كيفما شاء، على الرغم من أنه لم يعرف أكثر مما قاله، واعتقد أنه مناسب للإدلاء به، واستبصر أن القزم يفهم ملابسات موقفهما، ويتقمص بجدارة شخصية الصديق. إنه أمر يستحق التقدير، حتى إذا كان الخداع والاحتيال أساسه. لم يقل هذا الإجلال الصامت لقدراته الفائقة قدرًا عن شعوره بقوة

داخلية، أشاعها فيه تصوره السريع تجاه كويليب، لذلك في نهاية المطاف، مال الشاب الصغير إلى ذلك القبيح الجدير، حاسمًا رأيه على أن يستفيد من مساعدته. فور جلوسه، عقد كويليب العزم على أن يغير الموضوع على وجه السرعة؛ خشية أن يفضح ريتشارد سويفيلر بتلقائيته وعدم وعيه، أي شيء غير مناسب أمام السيدتين، حيث اقترح لعبة الورق (كريبج)، وقسَّم اللاعبين إلى مجموعتين، ضم السيدة كويليب إلى فريدريك ترينت، وضم ديك نفسه إلى فريقه. استُبعدت السيدة جينيوين من أي مشاركة في اللعبة، من قبل صهرها، بإصرار شديد، وأوكل إليها مهمة إعادة ملء الكؤوس بالخمر من حين لآخر، ومن هذه اللحظة، أبقى السيد كويليب إحدى عينيه عليها، حتى لا تتذوق قطرة مما يشربونه تحت أي ظرف من الظروف، فبهذه الطريقة وضعت السيدة العجوز البائسة تحت ضغط مضاعف - لولعها بالخمر واللعب بالورق على حد سواء - مختبرًا سلوكها الحاذق.

لم تكن السيدة جينيوين وحدها مَن خضعت لحصار نظرات السيد كويليب، وصب عليها تركيزه كاملًا؛ فقد كان هناك العديد من الأمور الأخرى، التي تطلبت يقظته المستمرة. من بين سلوكياته المتعددة غريبة الأطوار، كانت لديه طريقة غش طريفة في لعب الورق، لطالما مثلت ضرورة ملحة بالنسبة له، في كل مرة احتفل فيها ولعب؛ فلم يكن يعتمد فقط على التركيز، والمراقبة في دقة، أو على مهارة العد والتسجيل، بل زاد عليها حبكة التصحيح المستمر، عن طريق النظرات الموجهة عن عمد، أو العبوس اللحظي، أو حتى الركل من أسفل طاولة اللعب، ما جعل شريكه في اللعبة ريتشارد سويفيلر في اندهاش وحيرة متواصلة؛ بسبب تغير أوراقه المفاجئ؛ التي لطالما غُيّرت أسفل الطاولة في سرعة فائقة، لدرجة أنه في بعض الأحيان لم يستطع كبح تعبيراته المندهشة، وصدماته المتتابعة، لم يقتصر تركيزه أيضًا على هذا، فنالت السيدة كويليب قسطًا كبيرًا، فأوقعها جلوسها إلى جانب شريكها في اللعبة السيد ترينت الصغير، تحت المراقبة المستمرة، لم تفلت أي نظرة كانت بينهما أو أي كلمة تحدثوا بها أو أي بطاقة لعبوها، لم يجعل تفكيره منصبًّا على ما يدور فوق الطاولة فحسب، بل ظل متأهبًا طوال الوقت للإشارات، التي ربما يتبادلانها فيما بينهما أسفل الطاولة، نصب جميع الفخاخ، التي قد تمكنه من إكتشاف أي حيلة أو حركة، طوال الفترة التي استغرقتها جلستهم، داوم على وطء أصابع قدمي زوجته؛ ليرى ما إذا كانت ستصرخ، أم ستظل صامتةً كالعادة، رغم تعرضها للألم، كما كان ذلك ليظهر تمامًا، ما إذا كان ترينت نفسه قد وطأ أصابع قدميها أيضًا من قبل أم لا. على الرغم من كل تلك الإلهاءات، داوم على إبقاء إحدى عينيه على السيدة العجوز، وبمجرد ما كان يلمحها، تُقرِّب ملعقة ناحية كأس بالقرب منها - وقد كانت مداومة على فعل ذلك - من أجل تذوق طعمه اللذيذ، ينتظر حتى تشعر براحة اقترابها من إتمام فعلتها، ثم يرفع صوته من فوره مستهزئًا، ويقول فلنشرب نخب صحتها الثمينة. على الرغم من كثرة ما كان يهتم به، ويصب تركيزه عليه، لم يَبدُ كويليب منشغلًا أبدًا، ولم يلفظ بأي كلمة متلعثمًا بتاتًا.

مرَّ الوقت، وبعد أن لعبوا جولات كثيرة، وشربوا من الخمر جرعات عديدة، أمر السيد كويليب زوجته في نبرة تحذيرية، أن تترك اللعبة وتذهب لتستريح، وقد خضعت من فورها لأمره، وتبعتها في الحال والدتها الغاضبة، وغلب النوم السيد سويفيلر، أخذ الرفيق المتبقي من الطرف الآخر للعب، إلى آخر الغرفة؛ ليعقد معه اجتماعًا مصغرًا، وأمسيا يتهامسان.

قال كويليب، لاويًا قسمات وجهه، وهو ينظر إلى ديك النائم: " أعلم أنه لا ينبغي عليَّ قول ذلك، لكنني أريد أن أقول لك إن هناك أكثر من شخص يمكنه المساعدة أكثر من صديقنا العزيز هذا.. هل هي صفقة أبرمت فيما بيننا يا فريد؟ هل من المحتم علينا إتمام أمر زواجه من نيل الزهرة المتفتحة الوردية قريبًا؟ ".
قال الآخر: " يجب أن تكون لديك نهاية أخرى؛ كي أجيبك على ما سألت ".
ابتسم كوبليب، بسبب ما خطر على باله بشأن النهاية الحقيقية التي يدبر لها، وما يتوقعه الآخر، وقال: " آه! بالطبع.. إن لديَّ بالطبع نهاية أخرى يا فريد، قد تكون بدافع نزوة ما، أو بدافع الانتقام. إن لديَّ دافعًا يحثني إما على المساعدة، وإما على المعارضة؟ فأي الطرق يجب عليَّ أن أتخذ؟ طالما يوجد مقياسان، وطالما تسير الأمور وفقًا لواحد منهما.
قال ترينت: " حسنًا! دع الأمر لي من هذه اللحظة، وألق به على عاتقي ".
مد كويليب ذراعه، ثم أراح قبضة يده، وفتحها كأنه يلقي بشيء كان ممسكًا به، وقال: " إنه في مجال تصرفك الآن يا فريد، تذكر هذا ".
قال ترينت متسائلًا: " أندري أين ذهبا؟ ".
هز كويليب رأسه نافيًا، وقال إن تلك النقطة يتعين أن تكون قيد الكشف، وهو الكشف الذي يجب أن يتم في سهولة وسرعة؛ لأن تقدمهم فيما خططوا له متوقف على هذا الأمر، فبمجرد إكتشاف مكانهما، سوف يقدمون على تنفيذ الخطوة الأولى في مخططهم. حينها سيتوجب عليه أن يزور الرجل العجوز، أو سيزوره ريتشارد سويفيلر - لن يشكل هذا فارقًا - ومن خلال التأثير عليه، وغرس قلق عميق في نفسه على مصدر اهتمامه، وحثه على الاستقرار في منزل ذي قيمة كبيرة غير بخس، سيجعل هذا الطفلة تشعر من فورها بالامتنان والرضى. ثم قال: إنه بمجرد أن يتحرك إعجابها، سيكون من السهل الفوز بها في غضون عام أو عامين؛ لأنها كانت تظن أن الرجل العجوز فقير، وستدرك أن ما فعله كله يعد جزءًا من سياسته في التقطير - كما هو شائع بين العديد من البخلاء الآخرين - فيتظاهر بكونه فقير فعلًا.
قال ترينت: " لقد إعتاد في أغلب الأحيان على أن يتظاهر أمامي بما فيه الكفاية بكونه كذلك ".
رد القزم: " أوه! تظاهر بالأمر نفسه معي! وذلك ما يجعل الأمر غير مألوف؛ لقد ظننت أنه رجل فاحش الثراء ".
قال ترينت: " أحسب أنك على حق ".
تلفظ القزم بما هو حقيقي بالفعل، قائلًا: " هذا ما أحسبه أيضًا ".
بعد أن تبادلا بضع كلمات في همس، عادا مرة أخرى إلى الطاولة، ثم أيقظ الشاب الصغير ريتشارد سويفيلر من نومه، وأخبره أنه ينتظره كي يغادرا. استفاق ديك من فوره، مرحِّبًا بما قيل له. همَّا بالمغادرة، وبعد أن أنهيا حديثهما بكلمات أفادت ثقتهما في نتيجة مخططهم، تبادلا الابتسامات، ورحلا عن كويليب، متمنيين له ليلة سعيدة.
مشى كويليب على أطراف أصابع قدميه متسللًا نحو النافذة؛ ليستمع إليهما، بينما كانا يسيران في الشارع، حينها سمع ترينت يردد إطراءات في حق زوجته، ثم سمعهما معًا يتعجبان من موقفها، متسائلين عن أي سحر أصابها، جعلها تتزوج هذا البائس الشرير. بعد أن تتبع القزم ظلهما حتى اختفى عن مجال رؤيته تمامًا، تعلو وجهه ابتسامة عريضة، انسل في الظلام إلى سريره في هدوء.

في خضم تآمرهما لحبْك مخططهما، لم يفكر ترينت ولا كويليب في سعادة أو شقاء نيل البريئة المسكينة. مضى واحد في طريقه، ومضى الآخر نحو سريره. ربما يكون من الغريب أن الماجن عديم المبالاة، مَن كان أضحوكتهما، لم يكترث البتة بما قيل، ولم يأخذه بعين الإعتبار؛ فقد كان رأيه في أهليته وشمائله هو الحاسم، وهو ما جعل مخططه جديرًا بالثناء وليس الهجاء، فضلًا عن أنه إذا حظي بزيارة شخص غير مرحَّب به على الإطلاق، في ظل هذه الظروف، كان لا بد إما أن يضرب زوجته وإما في الأغلب يقتلها - في وحشية غير متناهية؛ إرضاءً لنزعته الغريزية - لكنه على الرغم من ذلك هدأ من روعه ملتمسًا لنفسه أنه لم يكن يقصد ضرب زوجته أو قتلها، وبالتالي بعد كل ما قيل وفُعِل، فهو يعتبر من وجهة نظره زوجًا جيدًا ومقبولًا جدًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الرابع والعشرون

لم يحن وقت توقفهما بعد، على الرغم من أنهما استنفدا طاقتيهما تمامًا، ولم يعد بإمكانهما الحفاظ على الوتيرة السريعة نفسها كي يهربًا بعيدًا عن أرض السباق، لكن الرجل العجوز غامر في النهاية ومعه الطفلة، وكفَّا عن الركض، وجلسا على حدود أيكة صغيرة. على الرغم من أن رؤية المضمار حُجبت بالكلية في مكانهما، كانا ولا يزالان يسمعان صخب الصيحات والهتافات وقرع الطبول في وضوح. مع تسلق الطفلة للربوة التي كانت تفصل بينهما وبين الموقع الذي تركاه، تمكنت من تمييز الأعلام المرفرفة، والقمم البيضاء للمقصورات، ولم ترَ أي أحد يتبعهما، أو يقترب من مكانهما، لذلك كان مكان استراحتهما - منذ البدء وبعد أن تحققت الطفلة بنفسها - منعزلًا تمامًا، لا تطؤه أي قدم.

مر بعض الوقت إلى أن تمكنت الطفلة أخيرًا من طمأنة رفيقها، وإعادته إلى حالة من الهدوء النسبي. لكن مخيلته المضطربة أوهمته مع كل حفيف لأوراق الأشجار، أن حشدًا من الناس ينهال عليهما من كل حدب وصوب، من بين الشجيرات، يمينًا ويسارًا، ومن أمامهما ومن خلفهما، يتربصون بهما في كل خندق، قابعين بين الأشجار، ينتظرون الفرصة للانقضاض عليهما. لقد كان ممسوسًا بمخاوفه، يخشى أن يكبَّل ويؤخذ أسيرًا في مكان مظلم موحش، يُجلد فيه، ويكمن الأسوأ في أن نيل حينها لن تتمكن أبدًا من المجيء لرؤيته، وانتشاله من بين القضبان الحديدية، والأسلاك الشائكة. لم تسلم الطفلة من إنتقال مخاوفه إليها، فقد سكن الرعب روحها المسكينة. وخانتها شجاعتها وفشل قلبها في طمأنتها، أصبح أكبر شر تخشاه في عالمها يتمثل في الإنفصال عن جدها، وقد لازمها ذلك الشعور طوال الوقت، تداهمها الريبة كلما ذهبت إلى أي مكان، تشعر أن هناك أحدًا ما يتعقبهما، وأنها لن تجد ملاذًا آمنًا إلا في الاختباء.

من غير المفاجئ أبدًا انغماس روح هذه الصغيرة المسكينة - غير المدركة لوقائع الأمور - في السوداوية، بعد حدوث كل ما مرت به، وتعرض براءتها مؤخرًا لتلك المشاهد غير المألوفة لها. لكن دائمًا ما تحافظ الطبيعة الأم على طهارة القلوب النبيلة الباسلة في صدور الإناث - فليباركهن الرب- حينما أجهشت الطفلة في البكاء، ونظرت بأعين سكنتها الدموع نحو الرجل العجوز، تتذكر كم كان ضعيفًا، وتتدبر كم سيصبح معدومًا واهنًا إذا تخلت عنه، كان قلب الطفلة مع كل ذرة ألم تشعر بها يتسع أمام المآزق، فلا يعرف الضيق مدخلًا إليه، ويمدها بقوة جديدة وقدرة على الثبات.

قالت: " نحن الآن في مأمن، ولم يعد لدينا ما نخشاه يا جدي العزيز ".

رد الرجل العجوز عليها قائلًا: " لم يعد لدينا ما نخشاه! لم يعد لدينا ما نخشاه، إذا ما أخذوني منك وأبعدوني عنك! لم يعد لدينا ما نخشاه إذا افترقنا! لا أحد يكترث لأمري، لا أحد صادق معي. لا أحد بتاتًا، حتى أنتِ يا نيل! ".

ردت الطفلة من فورها: " أوه! إنني حتمًا لا أقصد ذلك.. لا تقل هذا يا جدي؛ إذا كان هناك من هو صادق معك، ويكترث لأمرك بمشاعره المخلصة الخالصة، فسأكون أنا يا جدي. سأكون أنا بكل تأكيد، وأنت تعرف جيدًا أنني كذلك ".

قال العجوز، وهو ينظر حوله في خوف شديد: " كيف إذَنْ؟ كيف تقدرين على التفكير في أننا في مأمن بذلك الارتياح، بينما هم في كل مكان؛ يبحثون عني، ربما يأتون إلى هنا في أي لحظة، يتسللون نحونا، يحيطون بنا، ربما يصلون إلينا، وأنتِ تتكلمين حتى.. قولي لي كيف؟ ".
قالت الطفلة: " لأنني واثقة تمام الثقة أن لا أحد يتبعنا.. احكم بنفسك يا جدي، فلتقف، وتنظر حولك، تبيَّن بنفسك واشعر بمدى الهدوء الذي يحدنا، ولا يزال يحدنا، رغم مرور الوقت. إننا هنا بمفردنا، ربما نتجول كيفما نشاء أيضًا.. لسنا في مأمن؟ أتعتقد أنه من السهل.. أتعتقد أنه كان من السهل الهين على نفسي، أن أشعر بأن هناك أي خطر يهددك؟ ".
أحكم العجوز قبضته على يد الطفلة، كان لا يزال يتلفتُ يمينًا ويسارًا في ارتياب، وقال: " حسنًا، حسنًا! لكن ما كان هذا الصوت إذنْ؟ ".
أجابت الطفلة: " إنه مجرد طائر.. طائر يحلق بين الشجيرات، ربما يرشدنا إلى طريق علينا اتباعه. أتتذكر حينما قلنا إننا سنجوب الأودية والحقول سيرًا على الأقدام، سنمشي وإلى جانبنا الأنهار، سنثق في قدرة أنفسنا وفي رعاية خالقنا لنا.. هل تتذكر هذا الحديث؟ وها هنا نحن حيث تشرق الشمس فوق رؤوسنا، وتنتشر إشراقتها حولنا، ها هنا نحن حيث يبدو كل شيء مشرقًا مفعمًا بالحياة وسعيدًا، والآن بعد أن تحقق ما آملناه، نجلس في كبد، ونضيع الوقت! قف وانظر حولك، متِّع ناظريك، انظر إلى كيف هي الطرق ساحرة.. انظر إلى هذا الطائر! - إنه الطائر نفسه - يحلق بين شجرة وأخرى، ثم يستقر حينًا على أخرى؛ ليغرد.. هيا قف وانظر واستمتع بهذا الجمال! ".
حينما وقفا من جلستهما على الأرض؛ وأكملا سيرهما إلى الطريق المظلل عبر الأيكة، انطلقت الفتاة تسير في خطوات أقرب إلى التحليق، تغرس أصابع قدميها الصغيرة في أرض الأيكة المكسوة بالطحلب، في مرونة وانسيابية، فتنطبع آثار أقدامها بفعل ضغطها الخفيف، وترد الأرض عليها فعلها، كانعكاس أشبه بانعكاس المرايا، تعود إلى موضعها الأولي كأنها تتنفس أسفل قدميها. هكذا، تمكنت من جذب انتباه العجوز لها، ملتفتة نحوه، تفتعل حركات وإيماءات؛ لتجذب ناظريه إليها، تشير في خفة نحو طيور تقف منفردة بنفسها، على أغصان الشجيرات، تغرد هنا وهناك، على طول مسارهما، تنتظر حينًا؛ تستمع إلى تغريدها، الذي يتخلل الصمت بروح مبتهجة، وتقف لوهلة؛ لترى أشعة الشمس المتخللة بين جذوع الأشجار القديمة، كأنها مسارات تشكَّلت من نور. مع مرور الوقت، واستكمالهما لدربهما، يفرقان بين أغصان الشجيرات، التي اعترضت طريقهما، يفسحان المجال لمرورهما، خالج شعور بالأمان والصفاء - كانت قد افترضته الطفلة في البداية - صدر جدها، لم يكن قد مر وقت طويل، حتى كان جدها قد ألقى عن عاتقيه مرارة القلق والاضطراب، متوقفًا عن النظر خلفه في ارتياب، علاوة على أنه فور مروره بين الشجيرات، مستظلًا بظلالها الخضراء، شعر بالراحة والبهجة، فمضيا آمنين مطمئنين، يؤمنان في أن تدابير خالقهما تحيط بهما، وتضفي السلام عليهما.
ظلا على هذا الحال، على طول مسارهما، كلما مضيا فيه أكثر، كلما أصبح أكثر هوادةً وتمهيدًا، قادهما هذا المسار إلى نهاية الأيكة، وفتح أمامهما سبيلًا عبر طريق عام. سارا على طوله لمسافة قصيرة، إلى أن وصلا إلى حارة، على جانبيها أشجار مرتفعة، تشابكت فروعها أعلى رأسيهما، فتشكلت قنطرة من أوراقها الخضراء على طول الطريق الضيق. أرشدتهما لافتة مرورية مكسورة،

إلى قرية تقع على بعد ثلاثة أميال من مكانهما، حينها نشط عزمهما من جديد؛ ومضيا أكثر همة، إلى مقصدهما.
بدت لهما الأميال الثلاثة طويلة، لا نهاية لها، لدرجة أن الظنون قد ساورتهما؛ وتراءى لهما أنهما قد ضلا الطريق. لكن الفرحة والسرور غمرهما في النهاية؛ فقادهما الطريق إلى منحدر، تقابله جداول مياه وممرات للمشاة، وتقع في آخره منازل القرية بازغة في جوف بين الأشجار في الأسفل.
لقد كان مكانًا صغيرًا جدًّا، يلعب فيه الرجال والصبية لعبة الكريكيت على ساحاته الخضراء، أخذا يتجولان صعودًا وهبوطًا بأقدام غير ثابتة، غير متأكدين تمامًا من المكان الذي يمكن لهما أن يحلا فيه كي يبحثا عن سكن متواضع. لم يكن هناك غير رجل واحد عجوز، يجلس في حديقة أمام بيته الريفي، كانا مترددين تمامًا حيال اقترابهما منه، كان من الواضح أنه معلم، وما أكد لهما ذلك كلمة (مدرسة) المكتوبة خلفه على النافذة بحروف سوداء، على لوحة بيضاء. لقد كان رجلًا بشرته شاحبة، له مظهر بسيط ومتواضع، ذا هيئة هزيلة ونحيلة، يجلس بين أزهاره وخلايا النحل، يدخن غليونه، في رواق صغير قبالة الباب.
قال الرجل العجوز هامسًا: " اذهبي، وتحدثي إليه ".
قالت الطفلة في خجل شديد: " أخشى أن أزعجه، أعتقد أنه لم يلحظ وجودنا على الإطلاق، ربما إذا انتظرنا قليلًا، سوف يدير رأسه نحونا، ويلاحظ وجودنا ".
مكثا في مكانهما منتظرين، لكن المعلم لم يلق نظرة واحدة عليهما، كان ولا يزال جالسًا، في الرواق الصغير، غارقًا في صمته وتفكيره. كان لديه وجه عطوف، وقد أكسبته بدلته السوداء القديمة، التي كان يرتديها، مظهرًا شاحبًا وهزيلًا أكثر من واقع حاله. استطاعا أن يشعرا أيضًا، بروح الوحدة والانعزال التي سكنت البيت وحتى الهواء؛ ربما لأن بقية الناس كانوا مجتمعين على مبعدة منه في الساحة الخضراء، وظل هو جالسًا منفردًا في هذا المكان.
لقد كانا متعبين للغاية، لكن الطفلة كانت قوية وجريئة بما فيه الكفاية، كي تخاطب المعلم، على الرغم من أنهما لاحظا عليه أنه غير مرتاح ومكروب لسبب ما. بينما كانا واقفين على مسافة قصيرة منه، مترددين، ظل جالسًا لبضع دقائق، هائمًا في بحور أفكاره الخاصة، لكنه نحى غليونه جانبًا؛ وهمَّ بالسير في حديقته، حتى وصل إلى البوابة، وألقى بنظرة نحو الساحة الخضراء، ثم عاد ليجلس، مثلما كان من قبل، آخذًا غليونه مرة أخرى، مطلقًا تنهيدة.
ولأنه لم يظهر أحد غيره، وأوشك الظلام على الحلول قريبًا، استحضرت نيل شجاعتها كاملة، وفور رؤيته مستكينًا في مجلسه، يدخن الغليون، غامرت بالاقتراب منه، وقد اقتادت جدها نحوه، ممسكة بيده. لفتت تلك الضجة الخافتة، التي فعلاها، حينما رفعا مزلاج البوابة الصغيرة انتباهه، وأرغمته على النظر صوبهما. نظر إليهما نظرة عطوفة لم تخلُ من الانكسار والوهن، ثم رحب بهما بإيماءة بسيطة.
ألقت نيل عليه التحية، وانحنت إجلالاً له، فنحى المعلم غليونه جانبًا، وهم بالوقوف مباشرة، ومضى ينظر إليها بجدية طوال فترة حديثها، أخبرته أنهما مسافران فقيران، يبحثان عن مأوى، يسكنان فيه في الليل، وسيدفعان مقابل ذلك في سرور بكل تأكيد، حسبما تسمح لهما إمكانيتهما.
قالت الطفلة: " إذا أرشدتنا إلى المكان يا سيدي، سنكون ممتنين جدًّا لعطفك ".
قال المعلم: " يبدو لي أنكما قد قطعتما مسافة طويلة سيرًا على الأقدام ".
ردت الطفلة: " طويلة جدًّا يا سيدي ".

قال لها، وهو يربت على رأسها في لطف: " لكنكِ صغيرة جدًا على اختبار السفر يا طفلتي.. هل هي حفيدتك يا صديقي؟ ".
صاح العجوز: " آي! نعم يا سيدي، إنها حفيدتي ومصدر بقائي وراحتي في هذه الدنيا ".
قال المعلم: " حسنًا! تفضلا بالدخول ".
دون أي مقدمات إضافية، قادهما نحو غرفته الصغيرة داخل المدرسة، كانت عبارة عن صالة صغيرة ومطبخ بالحجم نفسه، أخبرهما أنهما مرحب بهما، للبقاء تحت سقف ذلك المكان، حتى يحين الصباح. قبل أن يتناولا على شكره، كان قد بسط قماشة بيضاء خشنة على الطاولة، ووضع عليها السكاكين والأطباق، وأخرج لهما بعضًا من الخبز واللحم البارد وإبريقًا من الجعة، طالبًا منهما أن يأكلا ويشربا.
نظرت الطفلة حولها، في كل أنحاء الغرفة وأركانها، بينما كانت تتخذ لها مقعدًا. كان هناك في ذلك المكان تختتان، بهما العديد من الخرابيش، مليئتان بالملاحظات والكتابات، يغطيهما الحبر في كل مكان، ومكتب صغير له أربعة قوائم، حيث يجلس السيد المعلم بلا أدنى شك، وكُتب ثُنيت ورقة في كل منها، موجودة على رف علوي، وإلى جانبها كانت هناك مجموعة متنوعة من لعبة الخُذْروف، والكرات، والطائرات الورقية، والبلي مختلف الألوان، ونصف تفاحة مأكولة، ومستلزمات وأشياء أخرى كان من الواضح أنها ملكية لولد صغير. أما على امتداد الحائط، فكانت هناك المشاجب، حيث عُلِّق عليها مسطرة وعصا، وعلى مقربة منها، كان هناك رف صغير آخر، وضع عليه طُرْطُور لعقاب المتكاسلين من التلاميذ، مصنوعًا من ورق جرائد قديم، مزخرف بورق ملون عريض صارخ اللون، أما زخارف الحائط فكانت عظيمة، عبارة عن عبارات أخلاقية، منسوخة في تصميم دائري بديع، ومسائل حسابية بسيطة من الجمع والضرب، كُتبت بالخط نفسه، ولصقت بكثرة في جميع أنحاء الغرفة؛ من أجل فائدة مزدوجة، أولهما: كانت برهانًا على تميز المدرسة. وثانيهما: كانت محاكاة ثرية لما يتم تدريسه في المدرسة للطلاب.
قال المعلم العجوز، ملاحظًا أن تلك اللوحات الأخيرة قد جذبت انتباهها: " نعم! إنها كتابات بديعة يا صغيرتي، كُتبت بخط منسق وجميل ".
قالت الطفلة في خجل: " هل هو خطك يا سيدي؟ ".
" خطي! ". أخرج السيد العجوز نظارته، ولبسها، مدققًا النظر في الكتابات، كأنها من أعظم الانتصارات العزيزة على قلبه، وقال: " إنني لا أستطيع الكتابة بمثل هذا الخط المنسق هذه الأيام يا عزيزتي. لا! إنه ليس خطي. إن جميعها قد كُتبت بيد واحدة، بيد صغيرة واحدة، ليست كبيرة حتى كيدك، يد صغيرة حقًّا، لكنها ماهرة جدًّا ".
بينما كان المعلم المسكين في خضم حديثه، لاحظ وجود بقعة قد لطخت إحدى اللوحات، فأخرج من فوره سكينة من جيبه، وذهب إلى الحائط، وأزالها بعناية فائقة وحرص شديد. حينما انتهى، عاد بظهره دون أن يلتفت، مثبتًا ناظريه على اللوحة، يتأملها في إعجاب خالص، كأنها لوحة فنية فريدة، لكنه حينما بادر بالكلام، كان في صوته أنين ملتاع، أحسته الطفلة، على الرغم من أنها لا تعرف أي شيء عن المكروه الذي أصابه.
قال مدير المدرسة المسكين: " يد صغيرة حقًّا.. من بين جميع رفاقه وأصدقائه، من بين جميع زملائه في التعليم، وأصحابه في اللعب، اختارني أنا، اختار أن يولع بي أنا! لا عجب أنني أحبه هذا

الحب، لكنه كان لزامًا عليه أن يحبني...”.، قطع المعلم المسكين حديثه فجأة، وخلع نظارته؛ كي يمسحها، كما لو كانت قد غُبِّرت.
قالت نيل، وقد ساورها القلق: “ آمل ألا يكون هناك خطب ما يا سيدي “.
رد عليها المعلم قائلًا: “ لا داعيَ للقلق حيال أمري يا عزيزتي.. كنت آمل فقط أن أراه على الساحة الخضراء ليلًا. لطالما كان دائما من بينهم، في طلائعهم الأولى. لكنني أحسب أنه سيتواجد غدًا “.
سألته الطفلة من فورها، في تعاطف حقيقي: “ هل كان مريضًا؟ “.
- ليس مريضًا جدًّا. لقد قالوا بالأمس إن هذيان الحمى أصابه، وقبل أمس قالوا الكلام نفسه. لكن هذا جزء من ذاك النوع من الإضطراب. آمل ألا تكون إشارة سيئة لشيء أخطر.. آمل ألا تكون إشارة سيئة على الإطلاق.
قبعت الطفلة في صمتها، بينما سار نحو الباب بخطوات متثاقلة، ينظر إلى الخارج في شرود وحزن. كان الليل قد ألقى بظلاله، أما ما دون ذلك فقد بقي على ما هو عليه.
لكنه عاد إلى الغرفة ثانيةً، وقال: “ إن أراد يومًا أن يتكئ على أحد، ويعتمد عليه، سيأتي حتمًا إليَّ.. أنا أعرف تمامًا! دائمًا ما كان يأتي إلى الحديقة؛ ليقول لي: ليلة سعيدة. لكن مرضه ربما أعجزه عن الخروج. ربما تأخر الوقت على خروجه، بالإضافة إلى أن الجو رطب للغاية، والندى المتكاثف يتساقط. من الأفضل حتمًا ألا يأتي الليلة “.
أشعل المعلم شمعة، أحكم إغلاق النافذة، ثم أغلق الباب، وبعد أن أتم هذا كله، جلس صامتًا لبعض الوقت، ثم خلع قبع
ته، وقال أنه سيذهب ليحظى ببعض الراحة لنفسه، على أن تنتظره نيل حتى يعود مرة أخرى. امتثلت الطفلة في سهولة لِمَا قال، ثم رحل.
جلست الطفلة في مكانها قرابة نصف الساعة أو أكثر، تشعر بالغربة الموحشة والوحدة المضجرة؛ فقد كانت قد أخذت جدها ليفترش سريره، وظلت يقظة لا تفعل شيئًا، تستمع فقط إلى دقات الساعة القديمة، وصفير الرياح بين الأشجار. حينما عاد - كما قال لها - أخذ مقعده إلى جانب المدفأة، وجلس صامتًا لفترة طويلة. ظل على الحال نفسه، إلى أن نظر إليها أخيرًا في عطف، يطلب منها أن تخص الطفل المريض في دعائها الليلة، متمنية له الشفاء.
قال المعلم المسكين، مدخنًا غليونه - الذي نسي إشعاله - وهو ينظر في شرود وحزن إلى الحوائط: “إنه طالبي المفضل! إنها يد صغيرة حقًّا، على أن تُبدع هذا الرقي، ثم يأتي المرض ويضيع كل هذا الإبداع الجم هباءً.. إنها يد صغيرة حقًّا.. يد صغيرة جدًّا “.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الخامس والعشرون

بعد قضاء ليلة هادئة في غرفة، سقفها من القش، بدت كما لو كان خادم كنيسة قد سكنها لعدة سنوات واتخذ منها مأوًى له، ثم هجرها مؤخرًا إلى زوجته وكوخ آخر له، استيقظت الطفلة في الصباح الباكر، وانتقلت إلى الغرفة، التي تناولت فيها العشاء في ليلتها الماضية. لم يكن في الغرفة أحد؛ فقد نهض المعلم عن سريره، وغادرها بالفعل، لذلك كرست نفسها؛ لتجعل الغرفة نظيفة ومريحة، وحينما أنهت ترتيبها للغرفة، كان المضيف الطيب قد عاد لتوه.
شكرها مرات عديدة، وأخبرها أن السيدة العجوز المسؤولة عن تلك المهام، قد ذهبت لتمريض الطفل الصغير، الذي أخبرها عنه، سألته الطفلة، كيف حاله، آملةً أن تكون حالته في تحسن دائم.
رد عليها المعلم المسكين، بينما يهز رأسه بالنفي، في ضيق وحزن شديد، قائلًا: " لا! إن حالته لا يطرأ عليها أي تحسن على الإطلاق.. إنهم يقولون إن حالته تزداد سوءًا ".
قالت الطفلة: " إنني حقًّا آسفة لسماعي ذلك يا سيدي ".
كان من الواضح تمامًا على المعلم المسكين امتنانه لمشاعرها الصادقة، لكنه سرعان ما هام في حالته الأولى، وأضاف في عجالة أن الأشخاص المضطربين عادةً ما يهولون الأمور ويفاقمون من شرها، وقال: " آمل ألا تكون حقيقة الأمر مثلما صوروا لي، لا أصدق أن حالته تزداد سوءًا ".
استأذنت منه الطفلة كي تعد الإفطار، بينما نزل جدها الدرج، ومن ثم تناول ثلاثتهم الإفطار معًا، أثناء تناولهما الإفطار، لاحظ مضيفهما أن الرجل العجوز منهك للغاية، ومن الجلي حاجته الشديدة إلى الراحة القصوى.
قال: " إذا كانت رحلتكما لا تزال طويلة، فلن يكون تأخير يوم واحد عقبة أمامكما، وفي تلك الأثناء أرحب بكما بكل امتنان؛ للمكوث هنا لليلة أخرى. سأكون سعيدًا جدًّا إذا وافقت يا صديقي ".
حينها لاحظ أن الرجل العجوز ينظر إلى نيل، تظهر على وجهه أمارات عدم التأكد، حيال قبوله العرض أم رفضه، لذلك أضاف قائلًا: " سأكون سعيدًا برفقتكما الطيبة ليوم آخر، إذا كان بإمكانك أن تقدم معروفًا لرجل وحيد، وتحصل على قسط من الراحة في الآن ذاته، فمن فضلك لا تتردد. لكن إذا تحتم الأمر وكان لزامًا عليك إستكمال المضيّ قدمًا في الرحلة، فسوف أصطحبك لمسافة يسيرة، قبل بدء موعد المدرسة ".
قال الرجل العجوز في صراحة غير متناهية: " ماذا علينا أن نفعل يا نيل؟ أشيري عليَّ يا عزيزتي بما علينا فعله ".
لم يتطلب الأمر بذل الكثير من محاولات الإقناع، لحث الطفلة على أن تقول إنه من الأفضل لهما قبول الدعوة والبقاء. لم تتوانَ الطفلة للحظة واحدة عن إظهار امتنانها العارم للمعلم الطيب، فقامت من فورها بإتمام الواجبات المنزلية التي يحتاجها بيته الصغير، في سعادة وعن طيب خاطر. حينما فرغت من عملها، أخرجت الإبرة والخيط من سلتها، وجلست على مقعد مجاور للنافذة، حيث تفوح الرائحة الزكية لشجيرة زهر العسل ذات البتلات الرقيقة، التي انتشر أريجها في أرجاء الغرفة جميعها. أما جدها، فقد خرج ليستمتع بحرارة أشعة الشمس الدافئة،

يتشمم عطر الأزهار، يتأمل السحب في سكون، وهي تطوف في السماء، بفعل النسمات الصيفية الرقيقة.
انهمك المعلم في تعديل وضع التختتين، وحينما انتهى، جلس على مقعده الخاص خلف مكتبه، وقام بالتحضيرات اللازمة؛ استعدادًا لبدء اليوم الدراسي، حينها خافت الطفلة أن تعرقل سير عمله، فعرضت عليه أن تنسحب وتلزم غرفتها الصغيرة. لكنه لم يوافقها، وبدا مُرحِّبًا جدًّا وسعيدًا لوجودها معه، لذلك ظلت الطفلة كما كانت جالسة إلى جوار النافذة، منهمكة فيما بدأت فعله.
سألته: " هل لديك العديد من الطلاب يا سيدي؟ ".
هز المعلم المسكين رأسه وقال: " إنهم بالكاد يشغلون التختتين ". عاودت الطفلة حديثها، سائلةً، بينما تنظر إلى الجوائز المعلقة على الحائط: " هل باقي الطلاب ماهرون على النحو نفسه يا سيدي؟ ".
رد عليها المعلم قائلًا: " إنهم أولاد جيدون.. جيدون بما يكفي يا صغيرتي، لكنهم لا يستطيعون أبدًا فعل ما يضاهي ذلك مثيلًا ".
بينما كان يتحدث، ظهر صبي صغير، ذو شعر أبيض خفيف، ووجه لفحته الشمس، وقف أمام الباب، قدم انحناءة بسيطة؛ إجلالًا لمعلمه، ثم دخل، متخذًا مكانه على إحدى التختتين. أخرج كتابًا فجأةً، كانت إحدى صفحاته قد طُويت، ووضعه على ركبتيه، ثم أقحم يديه في جيبيه؛ وبدأ بعد البلي الذي ملأهما، لكن قسمات وجهه أفصحت تمامًا عن عقل يمتاز بقدرة استيعاب ملحوظة؛ لأنه بدأ بتهجئة ما وقعت عليه عيناه من فوره، لم يمر وقت طويل، وإذا بصبي آخر ذي شَعر أبيض أيضًا يأتي، جاء متأنيًا، ثم أعقبه صبي أصهب، ثم اثنان آخران لهما الشَّعر الأبيض نفسه، ثم أتى من بعدهما صبي ذو شعر أصفر، وظل الحال على هذا المنوال، إلى أن امتلأت التختتان باثني عشر طالبًا، أو ما يقرب من ذلك، كانت لهم ألوان شعر مختلفة، لم يكن من بينها الرمادي، تتراوح أعمارهم بين الأربعة أعوام والأربعة عشر عامًا، أو حتى أكبر من ذلك، حينما جلسوا جميعًا، لم تتمكن سوق أصغر اثنين منهم من ملامسة الأرض، كانت تبعد عن الأرض تمامًا، أما أكبرهم، فقد بدا أحمقَ، طلق المحيا، أطول من المعلم نفسه، فقد كان طول الأخير إلى نصف رأسه تقريبًا.
جلس الطلاب جميعهم على التختتين، لكنَّ مكانًا على رأس التختة الأولى - منصب الشرف للطلاب - ظل شاغرًا، كان بالضرورة يخص الطالب الصغير المريض، أما المشاجب فقد اتجه إليها من حضروا بقبعات وطاقيات؛ ليعلقوها عليها، وظل مشجب واحد فارغًا. لم يحاول أي طالب منهم انتهاك خصوصية مكان الغائب أو مشجبه على الإطلاق، بات الطلاب جميعهم ينظرون إلى المعلم عبر
المساحات الفارغة، التي تفصل بينهم وبينه، ووقف واحد بجانب ذراعه، بهمس
إليه.
بدأت همهمات استذكار دروسهم في التعالي، تخالطها أصوات همسات أحاديثهم، وضحكات تبعث مزاحهم معًا، متشدقين بالكلام في جو من الصخب، إلى جانب الأصوات المختلفة الاعتيادية التي تعج بها المدارس، في خضم هذه الضجة، ظل المعلم المسكين جالسًا في أبهى صور الوداعة والبساطة، يحاول دون جدوى ترتيب أفكاره، وحصر واجباته الإلزامية ليومه،

وإخراج صديقه الصغير من حيز تفكيره. كان من البيِّن الجلي، أن تفكيره كله منصب على تلميذه النجيب، حتى إذا تظاهر بتنقيل فكره بين طالب وآخر، بدا عليه أنه مشتت بالكلية.
لم تكن تلك الحالة التي غاص فيها المعلم المسكين خفيةً على الطلاب المشاغبين، فقد استغلوها أسوأ استغلال؛ عالمين أنهم سيفلتون من العقاب، صاروا يتحدثون بصوت أكثر ارتفاعًا وفي جرأة غير متناهية، يلعبون في الخفاء أو حتى تحت أنظار المعلم، يأكلون التفاح علنًا دون رادع، مدركين أنهم لن يتلقوا أي توبيخ على أفعالهم، يتدافعون، لاكزين قارصين أجساد بعضهم، في جوٍّ من لهو صبياني، دون الإلتزام بأدنى قدر من الحيطة، يقطعون أوراقًا حملت توقيعاتهم، ملقين بها بجوار قوائم مكتبه، دون أي اكتراث. بدا الطالب الواقف إلى جواره هامسًا، بليدًا مرتبكًا، يحاول استظهار درسه شفهيًّا مما كان قد حفظه، لكنه لم يعد ينظر إلى السقف؛ محاولًا تذكر كلمة قد نسيها؛ لأنه سرعان ما اقترب من مرفق المعلم؛ ينظر في جرأة - دون اختلاس للنظر أو شعور بالرهبة - إلى الصفحة المفتوحة أمامه، أما مهرج ذلك الجمع الصغير، فبدأ يلوي قسمات وجهه؛ ويغمض عينيه نصف إغماضة، ويحوِّل؛ لإضحاك أصغر طفل بينهم بالطبع، دون أن يفتح أي كتاب أمام وجهه كي يستعين به في إخفاء ما يقوم به، لكن ما فعله لم يقتصر على إضحاك الصغير فقط، فقد ضحك كل مشاهديه، دون أن يحاولوا كبح سعادتهم، أو فرض أي حظر على ضحكاتهم. إذا حدث ولملم المعلم شتات عقله، منتشلًا نفسه من حالة شرود ذهنه، محاولًا استرداد يقظته، والظهور حيًّا مدركًا للواقع، يتوقف الصخب للحظة، يتجنبون تمامًا التقاء أعينهم بعينيه، يتظاهرون أنهم مكدون في استذكار درسهم، في وداعة وحلم، لكن فور انتكاسه، وعودته إلى الحال الذي كان عليه، تنفجر صيحاتهم، وصخب حديثهم من جديد، بل أعلى عشر مرات من ذي قبل.
أوه! كيف كان بعض هؤلاء الطلاب لا يفعلون شيئًا، سوى النظر إلى النافذة وعبر الباب المفتوح؛ يتوقون في تلك اللحظة إلى ترك أماكنهم، كما لو أن نصفهم قد عقدوا العزم بالفعل وعقدوا النية على الإنطلاق في شغب؛ ليمرحوا في الأيكة، نافضين عن أنفسهم الكسل، عاقدين العزم على أن يكونوا أطفالًا مشاغبين، تتملكهم الهمجية والوحشية، من الواضح أنه إذا ما اجتاحت أفكارٌ متمردة مخيلة صبي قوي، فسوف تغريه كي يقفز في مياه النهر المنعشة، والسباحة في أماكن الإستحمام المظللة بأشجار الصفصاف، ذات الأفرع المنغمسة في الماء؛ بدا المنظر فاتنًا، يلح عليه، لقد كان مرتديًا قميصًا، ياقته غير مزررة، مزحزحة إلى الوراء إلى أقصى درجة، يجلس مروحًا على وجهه المتوهج بكتاب الهجاء، متمنيًا لو يصبح حوتًا أو صغير سمكة أبي شوكة أو حتى ذبابة، أو أي شيء آخر عدا أن يكون طالبًا في مدرسة في هذا الحر! في يوم قائظ! شمسه لائحة! وإلى جانبه ذلك الصبي الآخر، الذي كان مقعده أكثر قربًا إلى الباب، حيث سنحت له العديد من الفرص، التي مكنته من الإنسلال في خفة نحو الحديقة، مثيرًا جنون رفاقه، عن طريق غمس وجهه في دلو البئر، والتدحرج على العشب، فأضحوا يتحاورون فيما بينهم، لو أن هناك ما يضاهي يومهم رتابة، حيث يجلسون هم في أماكنهم، بينما يحلق النحل من زهرة إلى أخرى، يرتشف الرحيق، غارزًا خرطومه عميقًا في الزهور، ويقف أينما يشاء، بدوا كما لو أن مخيلتهم قد جرفتهم بعيدًا، وصاروا لا يتمنون شيئًا غير التعطل عن أعمالهم، ليمضوا صانعين العسل. لم يكن اليوم باعثًا في النفوس إلا شعورًا بالكسل، فلا يفعل المرء شيئًا، غير الاستلقاء على ظهره في المروج الخضراء، ينظر إلى السماء، حتى يرغمه سطوع نورها على إغلاق عينيه، فينام في سبات عميق،

لكنهم جلوسٌ هنا، ينظرون في شرود إلى كتب بالية موضوعة أمامهم، في غرفة مظلمة، على الرغم من أن الشمس المنيرة واحدة! يا له من أمر فظ رهيب!
جلست نيل بجوار النافذة، مشغولة تمامًا، مستغرقة في إستكمال عملها، يعتريها الخجل بين الحين والآخر، وتتمكن منها الرهبة؛ بسبب شغب الصبية الصاخبين. انتهى وقت الهجاء الشفهي، وحان موعد الكتابة، لم يكن في تلك الغرفة غير مكتب واحد، يخص المعلم، فاستند عليه الطلاب، إلتفوا حوله متزاحمين، وضعوا أوراقهم مثنية وملوية لضيق الحيز، بينما يمر المعلم على كل واحد منهم على حدة، كان هذا الوقت هو أكثر الأوقات التي شهدها اليوم هدوءًا، فالمعلِّم يمر من حولهم، ينظر من فوق أكتافهم، ينبه كل واحد منهم في لطف، ويطلب منه أن ينظر إلى اللوحات المعلقة على الحائط؛ ليرى كيف ترتسم الحروف بإتقان وبراعة، يشطب بخط صغير هنا وهناك، موصيًا إياهم بأن يتبعوا النموذج الأساسي. لكنه توقف فجأة؛ متسائلًا عما قاله الطفل المريض لهم في الليلة الماضية، وإلى أي مدى كان متشوقاً إلى الإنضمام إليهم مرة أخرى، حينما لاحظ الطلاب جميعهم كم بدا المعلم المسكين مهمومًا مكروبًا، وكم هو حنون رقيق المشاعر، شعروا بالندم الشديد من فورهم؛ لما سببوه من قلق وإزعاج جراء صخبهم وشغبهم، لذلك إلتزموا الصمت، وبقوا هادئين تمامًا، لا يأكلون التفاح، لا يقطعون الأوراق، لا يؤذون بعضهم، متوقفين عن اللكز والقرص، لا يلوون قسمات وجوههم لمدة دقيقتين كاملتين.
قال المعلم، حينما دقت الساعة الثانية عشرة بالضبط: " أعتقد يا أولادي، أنني سأمنحكما باقي اليوم من بعد الظهر، إجازة إضافية ".
بمجرد أن ألقى المعلم تلك الكلمات، هلل جميع الصبية بصيحة عالية، بقيادة الصبي الطويل، في مشهد صاخب، كان فيه المعلم، لا يزال يتحدث، لكن صوته لم يكن مسموعًا على الإطلاق. رفع يده؛ إشارة منه إلى رغبته في إلزامهم الصمت، فانصاعوا لرغبته على الفور في تأدب واضح، لدرجة أن الهواء في لحظة لم يعد يحمل إلا صوت أنفاسهم.
قال المعلم: " يجب عليكم أولًا أن تعدوني ألا تكونوا صاخبين، أو على الأقل، إن تسببتم في ضجة صاخبة، كونوا بعيدين.. بعيدين جدًّا.. وأقصد بكلمة بعيدين، هو أن تكونوا بعيدين عن القرية بأكملها، أنا متأكد تمامًا أنكم لا تريدون إزعاج رفيق لعبكم ودراستكم القديم ".
سادت أصوات الهمهمات النافية، مؤكدين أنهم لا يريدون إزعاجه البتة، وقد بلغت مشاعرهم الصادقة أوجها - ربما لكونهم صبية أنقياء - ربما كان الولد الطويل هو الأكثر صدقًا من بينهم، بالإضافة إلى أنه دعا من حوله كي يشهدوا أنه حتى صياحه كان صياحًا هامشًا.
قال المعلم: " هؤلاء هم أولادي الأعزاء.. لا تنسوا مطلقًا، ما طلبته منكم، ونفذوه كما لو كنتم تقدمون إليَّ معروفًا، كونوا سعداء قدر الإمكان، ولا تكونوا غافلين أبدًا عن أن الصحة نعمة، وأنتم قد بوركتم بها.. الوداع يا أولادي الأعزاء! ".
قالوا مرات عديدة بأصوات متنوعة متتابعة: " شكرًا يا سيدي.. الوداع يا سيدي ". ثم خرج الصبية تباعًا بطاءً، وفي نظام وهدوء. حينها ازداد بهاء ضوء الشمس ولمع، زقزقت الطيور وذاع غناها، وكأن الشمس تشرق، والطيور تزقزق في أيام الإجازات فقط، أو في أنصاف الأيام التي يحتسبها المعلمون إجازةً، بدت الأشجار كأنها تلوِّح للصبية جميعهم؛ تدعوهم إلى التأرجح على أغصانها المُورِقَة، بدا القش كأنه يستحثهم على الإتيان إليه؛ لنثره في الهواء الطلق، بدا حقل الذرة كأنه يغريهم؛ للعدوْ نحو الأيكة والجدول المائي الصغير، كانت الأرض لا تزال رطبة ملساء، تنبض

فيها الحياة، يختلط على سطحها الظلال مع النور، تحض الجميع على الركض والقفز وحتى السير إلى مسافات بعيدة، لا يعلمها إلا الخالق، تحمَّل أكثر من صبي كافة تلك الإغراءات، التي تحيط بهم من كل جانب، إلى أن ابتعدوا تمامًا، حينها انطلقوا، ضاحكين، مهللين، أينما ذهبوا.
قال المعلم المسكين، وهو يتبعهم بنظراته: " إنها طبيعة الدنيا.. أشكر الخالق! إنني سعيد جدًّا؛ لأنهم لم يعارضوني! ".
بالطبع كما اكتشفنا جميعنا في أوقات سابقة من الحياة، أنه - على أي حال - سيكون من الصعب إرضاء كافة الأطراف، حتى لو ظهرت الأسباب، وكشفت القصة الرمزية عن العبرة التي تحملها، ففي فترة ما بعد الظهر، توافدت أمهات الأطفال وعماتهم وخالاتهم ممتعضات؛ يفصحن عن رفضهن الكامل للإجراءات التي اتخذها المعلم، اقتصرت قلة منهن على إلقاء التلميحات، مثل الإستفسار في أدب، عما إذا كان يومهم يومًا احتفاليًّا طبقًا للتقويم، أو يوم عيد القديسين مثلًا..
أما الأخريات - كن من المخضرمات في السياسية في القرية - فتجادلن معه، قائلات: إن فعله يعتبر تجاهلًا وازدراءً للعرش، وإهانةً للكنيسة وللمملكة، وإنه منساق وراء المبادئ الثورية، فكيف له أن يمنح الطلاب نصف يوم إجازة، لمناسبة غير مهمة، ليست على ذات قدر أهمية عيد ميلاد الملك.. أما الأغلبية منهن؛ فعبرن عن استيائهن لأسباب خاصة واضحة، قائلات له: إن تخصيص وقت قصير لتعليم الطلاب، لا يعد إلا نصبًا واحتيالًا صريحًا، لكن سيدة عجوزًا وحيدة وجدت أنه من غير اللائق التحدث مع المعلم الحليم على هذا النحو، ولم ترد أن تزعجه وتثير غضبه، فخرجت من منزله، وتحدثت عنه مع سيدة عجوز أخرى، لمدة نصف ساعة أمام نافذته، قائلةً: إنه من اللازم أن يخصم أجر نصف اليوم من راتبه الأسبوعي، وأن يتقبل الوضع، وإلا سيكون من البديهي أن يلاقي معارضة ضده، لن تُحمد نتائجها، وهنا رفعت السيدة العجوز صوتها، قائلةً: إن الحي ليس في حاجة على الإطلاق إلى شباب كسول عاطل عن العمل، شباب كسول لا يستطيع حتى أن يكون معلمًا؛ لأن الوضع حينها سيصبح مأساويًا، ولن يمكنهن السيطرة عليهم، تنبههن إلى أن عليهن رعايتهم رعاية فائقة، وأنه لزم عليهن أن تعجلن بالتعامل مع الأمر.. على الرغم من كل تلك التوبيخات الساخرة والتهكمات التي انهالت على مسمع ومرأى من المعلم، إلا أنها فشلت جميعها في جعل المعلم ينطق بكلمة واحدة، فقد جلس إلى جوار الطفلة، وربما بدا أكثر كآبة وغمًا، لكنه ظل صامتًا تمامًا غير متذمر.
قبيل هبوط الليل، جاءت سيدة عجوز إلى الحديقة، تحاول جاهدة أن تركض بأسرع ما يمكنها، لكن ارتخاء مفاصلها لم يهبها القدرة على فعل ذلك، حينما وصلت إلى الباب وقابلت المعلم، طلبت منه أن يذهب مباشرة في التو إلى السيدة (ويست)، ويفضل لو أن يسبقها إلى هناك. قبل ذلك بلحظة، كان هو والطفلة يتأهبان للخروج معًا في نزهة، يدًا بيد، لكنه فور سماعه لما قالته السيدة العجوز ركض مسرعًا إلى وجهته، دون أن يفلت يد الطفلة، تاركًا الرسول كي تأتي خلفه على مهلٍ.
فورٍ وصولهما، طرق المعلم الباب بيده في رفق، ووقفا أمامه. فُتِح الباب فورًا دون إضاعة أي وقت. دخلا الغرفة، فوجدا مجموعة من السيدات يلتففن حول سيدة أخرى، لكنها أكبر من البقية، كانت تبكي في حرقة شديدة، وبمرارة مفجوعة، تعتصر يديها الواحدة بالأخرى، ترتج بشدة للأمام وللخلف.
اقترب المعلم من كرسيها قائلًا: " أوه! هل الأمر بهذا السوء يا سيدتي؟ ".

صاحت السيدة العجوز: " إن حالته تتدهور بسرعة، إن حفيدي يحتضر.. كل هذا بسببك. يجب ألَّا تراه الآن، لكنه أصر وكان جادًّا. إن هذا ما نلناه وما أصابه من تعليمه، أوه! يا ربي! يا ربي! يا ربي! ماذا عليَّ أن أفعل! ".
استحثها المعلم الحليم قائلًا: " من فضلك، لا تقولي إنني على خطأ، وأن هذا بسببي، إنني لن أتعمد الإيذاء يا سيدتي.. لا لا! أحسب أنك في حالة من التشوش، ولا تعنين أيًّا مما قلتيه.. أنا متأكد من أنكِ لا تعنين ذلك على الإطلاق ".
ردت السيدة العجوز عليه: " بل أقصد! أقصد كل كلمة تفوهت بها. لو لم يكن منكبًّا على كتبه طوال ذاك الوقت؛ خوفًا منك، لكان الآن في حالة طيبة وحميدة، أعرف ذلك ".
جال المعلم بناظريه بين النساء الأخريات، كأنه يستعطفهن؛ من أجل أن يقلن كلمة لطيفة في حقه، لكنهن هززن رؤوسهن، منهامسات فيما بينهن، يدمدمن بأنهن لم يعتقدن يومًا أنه جيد في التعليم، وأنهن مقتنعات جدًّا بذلك. دون أن ينطق بكلمة واحدة، ردًّا على ما اقترفنه في حقه، نظر إليهن نظرة عابرة، ثم أشاح بنظره عنهن، ملتفتًا إلى السيدة العجوز التي استدعته - حيث انضمت إليهم أخيرًا في اللحظة نفسها -، وتبعها إلى الغرفة الأخرى، حيث يرقد صديقه الصغير، نصف عارٍ، مستلقيًا على السرير.
لقد كان ولدًا صغيرًا، أو على وجه الدقة كان طفلًا هادئًا صغيرًا. كان شعره لا يزال مجعدًا، ينسدل على وجهه، كانت عيناه لامعتين، تشعان نورًا، ليس كمثل الذي نراه على الأرض، بل نورًا من الجنة. جلس المعلم على مقعد إلى جواره، وانحنى على وسادته، ونادى باسمه هامسًا. نبضت الحياة في الطفل، لمس وجهه بيده، مرتميًا في أحضانه، مطوقًا ذراعيه حول رقبته، صائحًا أن هذا هو صديقه المخلص العزيز.
قال المعلم المسكين: " كم أتمنى لو كنت كذلك فعلًا.. لأنني قصدت فعلًا أن أكون كذلك، والرب يشهد على ما أقول ".
قال الفتى، وهو ينظر إلى نيل: " من هذه؟ إنني أخشى تقبيلها؛ حتى لا أنقل إليها مرضي، قل لها أن تصافح يدي ".
اقتربت منه الطفلة الباكية، وأخذت يده الهزيلة في يدها، وأمسكت بها. ثم أراحتها مرة أخرى بعد فترة من الوقت، فأرخاها الفتى المريض بلطف إلى جانبه.
قال المعلم هامسًا، يريد أن يستحث الفتى على الاستيقاظ، يريد أن يثير النشاط فيه، لقلق تلمسه، يحيط بهم: " أتتذكر الحديقة يا (هاري)، وتتذكر كم كانت نابضة بالحياة في الأوقات الليلية، تضفي السعادة على النفس؟ يجب عليك التعجيل بزيارتها مرة أخرى؛ أحسب أن الزهور قد اشتاقت لك، فمنذ أن تغيبت عنها، أصبحت أقل زهوًا من طبيعتها المعتادة.. سوف تأتي قريبًا يا صغيري، قريبًا جدًّا.. أليس كذلك؟ ".
تبسَّم الفتى في وهن شديد - وهن شديد جدًّا جدًّا -، ووضع رأسه على يد صديقه صاحب الشَّعر الرمادي. وحرك شفتيه متحدثًا، لكن لم يسمع له صوت، لم تصدر عنه همهمات مسموعة حتى.
أثناء الصمت الذي أعقب تلك اللحظة، ترددت الأصوات الأخرى في الأجواء، فحملها هواء المساء إلى مسامعهم عبر النافذة المفتوحة، حينها، قال الفتى المريض، وقد فتح عينيه: " ما هذه الأصوات؟ ".
- إنهم الصبية الآخرون يلعبون في الساحة الخضراء.

أخذ الفتى منديلًا من أسفل وسادته، محاولًا أن يلوح به فوق رأسه، لكن ذراعيه الهزيلتين لم يمكِّناه من ذلك، وخارت عاجزة.
قال المعلم من فوره: " هل لي أن أساعدك؟ ".
جاءت الإجابة بصوت واهن لا يسمع، فقال: " نعم! لوِّح به من النافذة من فضلك! ثم قم بربطه خارجها.. فربما يراها البعض منهم، فيتذكرونني، ويفكرون فيَّ ".
رفع رأسه قليلًا، يرمق بناظريه الإشارة التي وضعها لرفاقه، ثم إلى كتابه ودفتره، الموضوعين على الطاولة في الغرفة، إلى جانب باقي ممتلكاته الصبيانية. أزاح نفسه قليلًا، مرتخيًا إلى الأسفل مرة أخرى، ثم سأل ما إذا كانت الفتاة الصغيرة لا تزال في الغرفة؛ لأنه لم يعد يتمكن
من رؤيتها.
تقدَّمت الطفلة نحوه، ولمست يده الموضوعة فوق الغطاء بيدها، وربتت عليها. احتضن الصديقان القديمان ورفيقتهما بعضهم - حريٌّ بنا أن نقول (الصديقان)، على الرغم من أنهما لم يكونا غير رجل وطفل صغير - إلى أن إلتفتَ عنهما الطالب الصغير، موجهًا وجهه إلى الحائط، ونام.
ظل المعلم جالسًا في موضعه، يمسك بيد الطفل المثلجة، يفركها بين يديه، يحاول تدفئتها، لكن الدفء لم يمتد إليها مرةً أخرى؛ لأنها لم تكن إلا يد طفل ميت. لقد أحس المعلم بوقع ذلك فعلًا، لكنه رفض رفضًا قاطعًا أن يتركها، ظل على حاله عازمًا ومثابرًا على تدفئتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السادس والعشرون

غادرت نيل ورفيقها مقطوري القلب، عائدين إلى منزله، في خضم انفطار قلبها وأوج حزنها، عزمت نيل على أن تكون حريصة تمامًا؛ حيال كبت دموعها ومنعها من الظهور، وإخفاء السبب الحقيقي عن الرجل العجوز، فالصبي المتوفى كان حفيدًا، غادر الحياة الدنيا في وقت مبكر عن أوانه، تاركًا فردًا واحدًا من عائلته، مفجوعًا في مصيبته.

فور عودتها، تسللت نيل إلى فراشها بأسرع ما يمكنها، حينما تأكدت أنها وحدها، انفجرت منفِّسةً عما كنَّه صدرها من حزن وكرب، فاق ثقله قدرة إحتمال قلبها. لكن المشهد المؤلم الذي عايشته، لم يمر عليها هونًا، فقد اتخذت منه عبرة وعظة، مدركة معنى تمتع الفرد بالصحة والحرية، عازمة على أن تكون أكثر طاعة وحمدًا، فما واجهته لم يزد عن كونها قد ابتعدت عن فرد واحد من عائلتها، وصديق مقرب، وانتقلت من مكان إلى آخر، لكن هذا كله كان من أجل أن تنعم بالعيش في عالم جميل، في حين أن الكثير من الصغار - ممن يماثلونها سنًّا، ممن كانوا نابضين بالحياة ومفعمين بالأمل- ماتوا وباتوا يفترشون قبورهم. كم من رابية، قد كساها العشب الأخضر، مرت عليها مؤخرًا في فناء الكنيسة القديم، وفي جوفها تسكن قبور الأطفال! على الرغم من كونها طفلة، ربما لم تستطع أن تفكر بما يكفي، في كم الرأفة والسعادة التي ينعم بها مَن يموتون صغارًا، كم يكون الموت راحةً لهم، وخلاصًا نهائيًا من آلام رؤية موت من يحيطون بهم، تحتويهم القبور في عطف ورأفة، أما الآخرون مِمَّن يشاهدون موتهم، فكأن القبور تستأصل جزءًا من قلوبهم وتورثهم الكمد - ذلك ما يجعل كبار السن يصارعون آلام الموت عدة مرات في حياة واحدة طويلة - لكنها تفكرت في الأمر بحكمة كافية، من أجل استخلاص معنى بسيط مما عايشته في ليلتها، تتعظ به، وتحتفظ به في دفائن ذكرياتها.

دارت أحلامها كلها حول ذلك الطالب الصغير، لكنه لم يكن مكفنًا أو حتى مغطًّى، كان يرقص مع الملائكة، يطوفون معًا مبتسمين في سعادة. داعبتها شمس الصباح المشرقة، تسللت إلى غرفتها، فأيقظتها، والآن حان الوقت ليتوجب عليهما أن يتركا منزل المعلم الحليم المسكين، ويمضيا في دربهما مرة أخرى.

بالتزامن مع الوقت الذي تأهبا فيه للرحيل، كان موعد بدء اليوم الدراسي قد حان. وقد شاع نفس هرج الأمس، في الغرفة المظلمة مرة أخرى، لكنه لم يكن ذلك الهرج المعتاد؛ كان أقل صخبًا، ربما أقل بكثير، أو على وجه أدق كان الصخب منعدمًا. قام المعلم عن مقعده، واصطحبهما إلى البوابة.

قدَّمت له الطفلة بيدٍ، تتملك منها الرعشة والارتجاف، تلك الأموال التي أعطتها لها السيدة في ساحة السباق، حينما اشترت منها الزهور، قدمتها له، وكانت تتلعثم أثناء شكرها له؛ كانت هائمةً في أفكارها، وقد احمرت وجنتاها خجلًا؛ لأن المبلغ المقدم بخس. لكنه اعترض يدها، وعرض عليها أن تدخره لنفسها، وانحنى قليلًا؛ ليقبِّل وجنتها، ثم إلتفتَ عائدًا إلى منزله.

لم يكونا قد سارا أكثر من ست خطوات، إلا ووجداه عِند الباب مرة أخرى، عاد الرجل العجوز على عقبيه لمصافحته، ومن ثمَّ تبعته الطفلة كي تقوم بالأمر نفسه.

قال المعلم المسكين: " فلتصحبكما السلامة والحظ الحسن والرزق الوفير، إنني رجل وحيد الآن، إذا حدث، ومررتما من هنا ثانيةً، فلا تنسيا مدرسة القرية الصغيرة ".
قالت نيل: " لن ننساها أبدًا، ولن ننسى أبدًا أن نكون ممتنين شاكرين لعطفك وكرمك معنا ".
قال المعلم، وهو يهز رأسه، وبالكاد يبدو مبتسمًا: " لقد سمعت مثل هذه الكلمات. من أفواه العديد من أولادي، أقصد طلابي، لكنهم سرعان ما ينسون ما كانوا قد وعدوا به. لكنَّ واحدًا فقط هو من كان على إتصال وثيق بي، كان صديقًا صغيرًا.. بل أفضل صديق لكونه صغيرًا.. لكن كل شيء قد انتهى.. فليبارككما الخالق! ".
مشيا ببطء، يكثران من التلفت كي ينظرا خلفهما؛ يلوحان له، ويودعانه، إلى أن غاب عن ناظريهما تمامًا. هكذا غادرا القرية، تاركين كل ما بها وراءهم، حتى حجب الضباب بين الأشجار الرؤية، فلم يعد بإمكانهما رؤيته. أكملا سيرهما الآن بوتيرة أسرع، عاقدين العزم على أن يتخذا من الطريق الرئيس دربًا لهما، غير قاصدين مكانًا بعينه، بل هائمين إلى أي مكان يقودهما الطريق إليه.
لكن الطرق الرئيسة دائمًا ما كانت تمتد لمسافات طويلة، طويلة جدًّا. باستثناء مرورهم بتجمعين أو بثلاثة تجمعات لأكواخ ريفية، لم يقفا بها، ومنزل عام واحد منعزل، توقفا عنده؛ كي يحصلا منه على الخبز والجبن، لم يقودهما هذا الطريق العمومي إلى أي شيء - فقد وصلا إلى ساعة متأخرة من العصر - ولا يزال الطريق طويلًا ممتدًّا أمامهما، لا يختبران شيئًا جديدًا، رتابة الطريق وغيمه وتعرجه نفسه، ظلا على هذا الحال طوال يومهما. لم يكن أمامها خيار آخر غير أن يكملا سيرهما في الطريق نفسه، لكنهما أمسيا يمشيان ببطء؛ فقد أنهكهما التعب، وباتا واهنين ومرهقين.
انقضى العصر، وحل مساء لطيف، حينها كانا قد وصلا إلى نقطة فارقة، حيث ألقى الطريق بهما في أرض مشاع. وجدا على حدود الطريق أرضًا قُسمت إلى حقول مزروعة، أبصرا بالقرب من السياج، عربة متوقفة، - وبسبب ما حلَّ بهما طوال اليوم - ذهبا من فورهما فجأةً تجاهها، لدرجة أنهما لم يتمكنا من تجنبها، ولو أرادا ذلك.
لم تكن عربة رثة مغبرة أو حتى داكنة، لقد كانت عبارة عن بيت صغير متنقل على عجلات، نوافذه مزينة بستائر بيضاء باهتة، ومصاريعها خضراء، ذات أُطر حمراء قاتمة، على الرغم من تناقض الألوان، وعلى الرغم من أن الألوان كلها صاخبة مبهرجة، بدا المظهر العام لامعًا مشرقًا.
لم تكن تلك العربة، عربة من النوع العادي، الذي يسحبه حمار أو حتى حصان هزيل، بل كان يسحبها حصانان صحتهما جيدة، لكنهما تُركا يمرحان، ويعبثان في العشب. لم تكن العربة ذات طابع غجري، كانت تجلس أمام بابها - المزين بمقراع من النحاس الأصفر اللامع - سيدة بدينة، تبعث الراحة فيمن ينظر إليها، تعتمر قبعة كبيرة تتدلى منها أربطة مزخرفة. لم يبد على العربة مطلقًا - من حيث البهرجة والمظهر الغني - عدم هيمنة تلك السيدة عليها، كانت تجلس منتعشة في سرور، تشرب الشاي. كانت مستلزمات الشاي، إلى جانب قنينة ذات شكل مميز، محتواها مجهول، وقطعة من اللحم المقدد، موضوعة على طبلة، مغطاة بمفرش أبيض، ظهرت كما لو أنها من أعظم وألطف الموائد المستديرة في العالم كله، هناك، عندها جلست هذه السيدة المرتحلة، تشرب الشاي، مستمتعة بالأفق.
في لحظة مرورهما، كانت سيدة العربة ممسكة بفنجانها - على الرغم من أنه فنجان عادي، دائمًا ما نراه في وجبات الإفطار، لكن كل شيء من حولها كان متسمًا بطبعها ذاته، من الامتلاء والبهرجة

وإضفاء الحس المرح - ترفعه إلى شفتيها، وقد رفعت عينيها ناظرةً إلى السماء، في استمتاع مفرط بنكهة الشاي المميزة، التي قد مزجت غالبًا بشيء من محتوى تلك القنينة - الذي يُضفي على شاربه حيوية وبريقًا، قد يكون هذا تكهنًا لا يمت للواقع بأي صلة - بدا الأمر كأنها منفصلة عن الواقع، منتشلة منه في استمتاع؛ لذلك لم ترَ المسافرين للوهلة الأولى. لكن بعد لحظات، لمحت الرجل العجوز مصطحبًا الطفلة، يمشيان ببطءٍ إلى جانبها، لم تكن سيدة العربة قد أنزلت عن شفتيها الفنجان بعد، ترتشف منه رشفة طويلة، أنهت محتويات الفنجان، بينما أخذت تنظر إليهما بعينين متواضعتين، يملؤهما الإعجاب الشديد.

صاحت سيدة العربة من فورها، وهي تنفض الفتات من حجرها، وتبتلع الثميلة المتبقية في جوفها، وقبل أن تمسح شفتيها قالت: " يااا! كي أكون متأكدة.. قولي لي من فاز بطبق (هيلتر سكيلتر) ([11]) أيتها الفتاة؟ ".

قالت نيل مستفسرةً: " فاز بماذا يا سيدتي؟ ".

- طبق هيلتر سكيلتر، إنه أحد السباقات أيتها الطفلة.. ذلك الطبق الذي كانوا يعدون له العدة في أنشطة اليوم الثاني.

- أي يوم ثانٍ يا سيدتي؟

كررت السيدة بنفاد صبر: " اليوم الثاني! نعم اليوم الثاني.. ألا تستطيعين الإجابة عن سؤال من فاز بطبق هيلتر سكيلتر، إذا ما سُئلت عن ذلك في صيغة متحضرة؟ ".

- لا يا سيدتي! أنا لا أعرف حقًّا.

قالت سيدة العربة مكررة: " لا تعرفين! كيف لكِ ألَّا تعرفي، وقد رأيتك بعينيَّ هناك؟ ".

ارتبكت نيل قليلًا فور سماعها ذلك؛ تحسب أن تلك السيدة ربما تكون على صلة وثيقة بالقصير وكودلين، لكن الكلمات التالية التي تفوهت بها السيدة، ساهمت كثيرًا في طمأنتها.

قالت سيدة العربة: " لقد كنتِ في منتهى الأسى؛ حينما رأيتكِ مع رفقة بانش، إنها رفقة بائسة ووضيعة وعملية بلا رحمة وسوقية، يجب على الناس جميعًا أن ينظروا إليها باحتقار ".

قالت الطفلة: " لم يكن لدينا أي خيار آخر؛ حينها لم نكن نعرف أي طريق علينا أن نسلكه، وقد كانا رجلين عطوفين معنا؛ وسمحا لنا بالسفر معهما.. هل تعرفينهما يا سيدتي؟ ".

صاحت سيدة العربة بصرخة عالية مستنكرة: " أعرفهما أيتها الطفلة! أنا أعرفهما! انظري إلي، انظري إلى تلك العربة.. لكنكِ صغيرة، لا خبرة لديك، لا تدركين الكثير من الأمور، سأعتبر هذا عذرك الوحيد، لطرحك مثل هذا السؤال. هل تبدو لك تلك العربة كأنهما قد مرَّا أمامها حتى؟ ".

قالت الطفلة، وقد تملكها الخوف من أن تكون قد ارتكبت خطأً جسيمًا: " لا، لا يا سيدتي! أستميحكِ عذرًا ".

على الرغم من اعتذارها الفوري، كان ولا يزال من الملاحظ على السيدة أنها منزعجة ومتأففة تمامًا بسبب افتراضها المهين. أوضحت الطفلة فيما بعد أنهما تركا أرض السباقات أثناء اليوم الأول، ثم سافرا قاصدين المدينة المجاورة التي تقع على الطريق، حيث ينبغي لهما أن يقضيا ليلتهما. حينها لانت ملامح السيدة البدينة، فغامرت الصغيرة وتساءلت إلى أي حدٍّ تبعد.. لم يأتِ الرد إلا بعد أن أوضحت السيدة أنها ذهبت إلى أرض السباقات في اليوم الأول بالعربة، باعتباره

يومًا احتفاليًّا، وكرحلة ممتعة، وأن وجودها هناك لم يكن له أي علاقة بالأعمال أو التربح.. ثم قالت إن المدينة على بعد ثمانية أميال.
خيبت تلك المعلومات المحبطة آمال الطفلة جميعها، رمقت الطريق المظلم الممتد أمامها بعينين ترقرق فيهما الدمع، تحاول جاهدة ألا تبكي. لم يُبْدِ جدها أي تذمر أو شكوى، لكنه تنهد في عمق، وتوكأ على عصاه، يحاول عبثًا المضيَّ قُدُمًا في المسافة المتربة.
همَّت سيدة العربة تلملم لوازم الشاي؛ تمهيدًا لتنظيف المائدة، لكنها ترددت، ثم توقفت ولم تكمل ما بدأته؛ حينما لاحظت أمارات الإضطراب بادية على الطفلة. انحنت الطفلة تقديرًا لها، وشكرتها على ما أفادت به من معلومات، ثم مدت يدها، تحاول اللحاق بالرجل العجوز، الذي سار بالفعل خمسين ياردة بعيدًا، لكن سيدة العربة نادتها من فورها، وطلبت منها أن تعود مرة أخرى.
قالت، وهي تشير لها؛ كي تقترب: " اقتربي.. اقتربي أكثر. قولي لي، هل أنت جائعة أيتها الطفلة؟ ".
- لست جائعة جدًّا، لكنني حقًّا متعبة، وإنها.. إنها مسافة طويلة.
قالت صاحبتها الجديدة: " حسنًا! إن كنتِ جائعة أو لم تكوني.. يستحسن بك أن تتناولي بعضًا من الشاي.. أحسب أنه ليس لديكِ أي اعتراض، وأنك موافق على ذلك أيها الرجل الوقور؟ ".
تراجع الجد في هدوء، وخلع قبعته في تواضع جم، ثم شكرها. طلبت السيدة منه أن يقترب، مثلما فعلت مع الطفلة تمامًا، لكن الطبلة التي صنعت منها مائدة لتناول الشاي، لم تكن مريحة، ليجلس عليها فردان، لذلك جلسا على العشب، قدمت إليهما صينية الشاي والخبز والزبد وقطعة من اللحم المقدد.. باختصار، قدمت إليهما كل شيء كان لديها، عدا القنينة؛ خصت بها نفسها، منتهزةً الفرصة، وزجت بها في جيبها.
قالت صديقتهما، وهي تراقب التحضيرات من الأعلى: " ضعيها بالقرب من العجلات الخلفية؛ هذا أفضل مكان.. الآن، أعطيني إبريق الشاي؛ كي تحصلا على المزيد من الماء الساخن، والشاي الجديد، أريد منكما أن تأكلا وتشربا حد الشبع، وألا تقتصدا في شيء.. هذا كل ما أطلبه منكما ".
قاما فعلًا بما طلبته السيدة منهما، لكن فعلهما لم يكن منوطًا به، فقد كانا سيفعلان الشيء نفسه، سواء أملت عليهما به، أم لم تمل به على الإطلاق. لكن طلبها خفف عنهما وطأة الإحراج والشعور بالحساسية وعدم الارتياح، فتناولا وجبة شهية، واستمتعا بها إلى أقصى حد.
بينما كانا مستغرقين في تناول وجبتهما، أخذت سيدة العربة تنحني ثم تقف ثانية ويداها متشابكتان إحداهما بالأخرى وراء ظهرها، فتتأرجح قبعتها الكبيرة على رأسها تأرجحًا شديدًا، ثم أخذت في المشي صعودًا وهبوطًا، من وإلى العربة، في خطوات محسوبة وبسلوك مهيب، أخذت تتفقد العربة من وقت إلى آخر، متنهدة في سعادة وهدوء، مستمدة طاقة حيوية خاصة، كلما وقعت عيناها على الأُطر الحمراء، وعلى المقراع النحاسي. بعدما واصلت القيام بهذا التمرين لبعض الوقت، جلست على الدرج، ومن ثمَّ نادت على (جورج)، عندئذ ظهر رجل في ملابس السائقين، كان مختفيًا تمامًا عن الأنظار، وسط تداخلات فروع الأشجار، كان قادرًا على رؤية كل شيء من موقعه، لكن لا يمكن لأحد أن يراه في الوقت ذاته، فرَّق الأغصان، مفصحًا عن نفسه، حيث كان جالسًا، يسند إلى ساقيه طبق فرن، وقارورة من الفخار سعتها نصف جالون، وممسكًا بسكين في يده اليمنى، وبشوكة في يده اليسرى.
قال جورج: " نعم يا سيدتي! ".

- كيف وجدت الفطيرة الباردة يا جورج؟
- إنها ليست سيئة يا سيدتي.
قالت سيدة العربة، وقد بدا عليها أنها أكثر اهتمامًا بهذا السؤال عن الذي سبقه: " والجعة! هل هي جيدة يا جورج؟ ".
- إنها ليست جيدة كما ينبغي لها أن تكون، لكن لا بأس بها، ليست سيئة على أي حال.
تناول رشفة من القارورة الفخارية - لم تكن رشفة عادية، فقد شرب ما يقرب من نصف لتر مرة واحدة - حتى يهدأ بالها وتكف عن القلق، ثم ضم شفتيه، وغمز بعينيه، وهز رأسه. ثم استأنف من فوره أكل الفطيرة، مستخدمًا شوكته وسكينه، بنفس الرغبة الودودة، وبطريقة أكثر نهمًا؛ كتأكيد عملي على أن الجعة لم تؤثر بأي حال بالسلب على شهيته.
نظرت إليه سيدة العربة في رضى لبعض الوقت، ثم قالت: " هل شارفت على الإنتهاء؟ ".
" لقد انتهيتُ يا سيدتي ". وبالفعل، بعد أن كشط الطبق كاملًا بسكينه، ورفع الفتات البنية إلى فمه أكلًا، وشرب آخر قطرات الجعة من قارورته الفخارية، في مشهد مرئي بالكاد للعيان، أمال رأسه إلى الوراء شيئًا فشيئًا، إلى أن استلقى على الأرض مقتربًا منهم، باسطًا كامل جسده، كأنه يعلن انفصاله عن الحديث، لكنه سرعان ما تراجع عن فعله.
قالت السيدة، مظهرةً تعاطفًا كبيرًا مع سعيه البطيء: " آمل ألا أكون قد جعلتك في عجالة من أمرك يا جورج ".
رد عليها تابعها في حكمة؛ تحسبًا لأي طوارئ، من الممكن أن تحدث، وقال: " حتى لو كنتِ فعلتِ ذلك، فالوقت قد ولى، علينا أن نعوض عن ذلك في المرة القادمة، هذا كل شيء ".
- لسنا بالحمل الثقيل يا جورج.. أليس كذلك؟
قال الرجل، وهو ينظر مطولًا حوله في الأفق، كما لو أنه يناشد الطبيعة بشكل عام، حول تلك الافتراضات الوحشية: " هذا ما تقوله النساء دائمًا، إذا رأيت أي امرأة تقود عربة، حينها ستدركين أنها مهما أبقت سوطها مرفوعًا، ومهما ركض الحصان سريعًا، لن يركض بالسرعة التي تجدها كافية. لو حمَّلنا على الدواب الثقل المناسب، فلم يكن بالقليل أو الكثير، لا يمكنك أبدًا إقناع امرأة بأن الحمل كافٍ وأن الدابة لن تتحمل المزيد. ما سبب هذا كله من الأساس؟ ".
لم تجب السيدة على تحقيقه المتفلسف، وقالت، مشيرة إلى نيل والرجل العجوز، اللذين تأهبا لاستكمال رحلتهما سيرًا على الأقدام: " هل هذان المسافران سيشكلان فرقًا مهولًا، أو ثقلًا كبيرًا على الحصانين، إذا أخذناهما معنا؟ ".
قال جورج بإصرار: " بالطبع سوف يشكلان فرقًا في سرعة تقدمنا في الطريق ".
كررت السيدة قائلة: " هل سيشكلان فرقًا يا جورج؟ إنهما ليسا بالحمل الثقيل ".
قال جورج متطلعًا إليهما، بنظرة رجل يحسب شيئًا في حدود النصف أوقية أو نحو ذلك: " قد يكون ثقلهما معًا طفيفًا، ليس بشيء يُذكر بالنسبة إلى أحمال (أوليفر كرومويل) ([12]) ".
اندهشت نيل بشدة من الثقة التي تحدث بها الرجل؛ يجب عليه أن يكون على دراية تامة بوزن الشخص الذي ذكر اسمه، كانت قد قرأت أن الرجل المذكور، قد عاش في زمن بعيد عن وقتهم، لكنها سرعان ما نسيت هذا الموضوع لفرحتها الغامرة حين سمعت سيدة العربة، تقول لهما أن يصعدا إلى العربة، وانهالت عليها بعبارات شكر وعرفان في حماس غير متكلف. انطلقت من

فورها تساعد السيدة في جمع لوازم الشاي، وغيرها من الأشياء المنثورة هنا وهناك، وفي الوقت نفسه، شُد على الحصانين سرجهما، حينما انتهت، صعدت إلى العربة، وتبعها جدها فرحًا. أغلقت راعيتهما الباب، ثم جلست على الطبلة، وفتحت النافذة، كان جورج يرصُّ حاجياتهم ويخزنها أسفل العربة، ثم اتخذ مكانه، وانطلق يشق الطريق، صاحبت مسيرتهم ضجة صاخبة من الخفقان والصرير وخبب الحصانين، وبسبب الاهتزازات العنيفة، وتأرجح العربة الدائم، ظل مقراع الباب الذي لم يطرق عليه أحدهم من قبل، يُطرَق في ضربات مزدوجة من تلقاء نفسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السابع والعشرون

بعد أن مضوا في طريقهم لمسافة قصيرة، غامرت نيل باختلاس بعض النظرات إلى أرجاء العربة، متفحصة إياها عن كثب. تبينت أن نصفها - كان على الأغلب النصف الأكثر راحة - حيث جلست راعيتهما، مغطى بالسجاد، وقُسِّم من أجل استيعاب مكانٍ للنوم، صُمم على هيئة تخت على متن سفينة، مغطى بالكامل، بستائر بيضاء ناعمة، مثل تلك التي أُسدلت على النوافذ الصغيرة، بدا مظهره مريحًا للأعين، لكن ما سيظل لغزًا من غير الممكن سبر غوره، ما هي التمارين الرياضية التي يمكن للسيدة أن تواظب عليها، وتمكنها من الدخول إلى هناك. أما النصف الآخر، فكان مخصصًا للمطبخ، جُهِّز بموقد، له مدخنة صغيرة تمر من خلال السقف. احتوى أيضًا ثلاجة صغيرة، ودولابًا، بالإضافة إلى العديد من الصناديق، وقوارير المياه الكبيرة، وعدد قليل من أواني الطهي، وغيرها من الصحون الفخارية. كانت تلك الأغراض المذكورة آنفًا معلقة على الحائط، في مساحة يتبين أنها مخصصة لسيدة العربة، حيث باتت مكدسة بأغراضها، المزخرفة بحُليّ لامعة ومشرقة، مثلما زُخرف المثلث الموسيقي والدُّفَّان.
جلست سيدة العربة جوار إحدى النوافذ في جلال وعزة، وسط حس شِعري أضفته عليها آلائها الموسيقية، وجلست نيل وجدها في الجانب الآخر في تواضع، وسط الأواني الفخارية والصحون والغلاية، بينما تتأرجح العربة، وتسير ببطء، تاركةً حمرة الشفق، التي لا تزال تتخلل ظلمة الليل، في البداية، لم يتحدث المسافران غير كلمات قليلة، وكان حديثهما همسًا، لكنهما بعد أن أصبحا أكثر دراية بالمكان، شعرا بالألفة والراحة، فغامرا بالتحدث بحرية أكبر، متحدثين عن القرية التي مرا بها، والأمور الأخرى التي اختبراها معًا، حتى نام الرجل العجوز، حينها دعت سيدة العربة نيل؛ كي تأتي وتجلس إلى جوارها.
قالت: " حسنًا أيتها الطفلة! قولي لي إلى أي مدى تحبين السفر بهذه الطريقة؟ ".
ردت نيل عليها قائلةً إنها تعتقد أن السفر ممتع للغاية؛ حينها وافقتها السيدة على ما قالته، وخصت بالذكر أن السفر يكون ممتعًا حقًّا، حينما يكون مع أشخاص من نفس طباعها. ثم خصت بالحديث نفسها قائلةً: إنها دائمًا ما تكون منزعجة بسبب افتقار روحها للحيوية، عادةً ما تعوض عن ذلك بحافز روحي.. يعتبر ما قالته آنفًا إشارة خفية، حملت في مكنونها بشكل أو بآخر، تلميحًا لتلك القنينة مجهولة المحتوى، أو لأي مصدر آخر غير معروف، لم تفصح عنه.
أكملت قائلة: " إنها السعادة؛ أنتم أيها الصغار لا تدركون معنى أن يكون المرء مفتقدًا للحيوية، لم يعد يشتهي شيئًا، وأصبح شعوره معطلًا، لا يكترث لشيء البتة. أما أنتم أيها الصغار، فدائمًا ما يكون لديكم الحافز الداخلي، الذي يحافظ على شهيتكم، ويا لها من راحة
نفسية! ".
على الرغم من أنه قد كان لنيل رأي آخر، وأنها اعتقدت، أنه أمر طبيعي؛ فدائمًا كانت تفقد شهيتها بسهولة شديدة في بعض الأحيان، علاوة على أنها لم تجد أي أمارة بادية في مظهر السيدة الشخصي، حين كانت تتناول الشاي، توحي بأنها كانت فاقدة لشهيتها، مما يؤدي إلى استنتاج، مفاده أن حاسة تذوقها الطبيعية للحم وللمشروب هي السبب وراء كل ذلك، إلا أنها صدَّقت على حديث السيدة، وأبقت على صمتها؛ كما ينص الذوق العام؛ وانتظرتها حتى تتحدث مجددًا.

ومع ذلك، عوضًا عن التحدث، جلست السيدة تنظر إلى الطفلة لفترة طويلة، ملتزمة الصمت، إلى أن وقفت وأخذت من ركن العربة لفافة كبيرة من القماش الكتاني، يبلغ عرضها حوالي باردة كاملة، وضعتها على الأرض، وقامت ببسطها بقدمها، حتى وصلت تقريبًا من أقصى العربة إلى أقصاها.
قالت: " هنا أيتها الطفلة.. اقرئي ذلك ".
تقدمت نيل، وقرأت بصوت عالٍ، ما نقش عليها بأحرف سوداء كبيرة: " أعمال الشمع للسيدة جارلي ".
قالت السيدة، بينما يغمرها شعور بالرضى: " اقرئي ذلك مرة أخرى ".
كررت نيل: " أعمال الشمع للسيدة جارلي ".
قالت السيدة: " إنها أنا.. أنا السيدة جارلي ".
نظرت السيدة إلى نيل نظرة مشجعة مليئة بالحماس؛ تريد طمأنتها، وإعلامها أنها على الرغم من وقوفها إلى جانب السيدة جارلي الحقيقية، يجب ألا تدع نفسها ترتبك، وعليها أن تواصل التعامل كأن الأمر طبيعي.. بسطت السيدة لفافة أخرى، كان منقوشًا عليها: " مائة مجسم بالحجم الكامل نابض بالحياة "، ثم بسطت أخرى، نُقش عليها: " المجموعة الوحيدة المذهلة في العالم لأعمال الشمع الحقيقية "، ثم باتت تبسط بالتتابع لفائف أخرى أقل حجمًا، نُقش عليها: " الآن تُعرض داخل.. "، " السيدة جارلي الأولى والوحيدة في مجالها.. "، " المجموعة المتفردة للسيدة جارلي "، " السيدة جارلي هي بهجة النبلاء والشرفاء ". " العائلة المالكة رعاة للسيدة جارلي ".. حينما فرغت من عرض تلك اللفائف الضخمة أمام أعين الطفلة المشدوهة، أحضرت عينات من أوراق في حجم الفواتير، كان بعضها يحوي محاكات ساخرة على نفس وزن الألحان الشعبية مثل: " صدقوني ما دامت أعمال الشمع للسيدة جارلي نفيسة "، " رأيت العرض في زهوة مجده "، " من فوق الماء إلى السيدة جارلي "... بينما راعت تلك العبارات كافة الأذواق، جاءت الأخرى أكثر طرافة، منتهجة روح الهزل؛ فقد تم تأليفها من أجل إضفاء المرح، كانت مثل المحاكاة الساخرة لمطلع: " إذا كان لديَّ حمار..
إذا كان لديَّ حمار
وعلمت أنه لن يذهب
ويشاهد عرض السيدة جارلي المختار
هل تظن أنني سأبقى إلى جانبه في فعل الانتظار
أوه، لا لا لا!
سأركض بالتأكيد إلى هناك، وسأترك الحمار
إلى جانب العديد من المؤلفات النثرية الأخرى، التي تزعم كونها حوارات بين إمبراطور صيني وبين محار، أو حوار دار بين رئيس أساقفة مدينة كانتربري وأحد المنشقين حول ضرائب الكنيسة الأبرشية، لكن رغم اختلافها، كانت لديها الروح ذاتها، التي تقصد التهافت على عروض السيدة جارلي، وأنه مسموح بدخول الأطفال والخدم بنصف الثمن. حينما انتهت السيدة جارلي من إحضارها لكل الوثائق الدالة على مكانتها المهمة، لتعرضها على رفيقتها الصغيرة، طوتها جميعًا مرة أخرى، ووضعتها جانبًا في حرص تام، ثم جلست إلى جوارها مرة أخرى، تنظر إلى الطفلة في ابتهاج، فرحة بالنجاح.

قالت السيدة جارلي: " إذَنْ لا تذهبي أبدًا مع رفقة بانش الساذجة؛ بعد أن رأيت هذا كله ".
قالت نيل: " إنني لم أشهد من قبل أيًّا من أعمال الشمع يا سيدتي، هل هي أكثر إضحاكًا من عرض بانش؟ ".
قالت السيدة جارلي في صوت حاد: " أكثر إضحاكًا! إنها ليست مضحكة بتاتًا ".
تنهدت نيل في أعلى درجات القنوت: " أوه! ".
أكددت السيدة جارلي على ما ذكرته سابقًا، قائلةً: " إنها ليست مضحكة بتاتًا.. إنها هادئة، وماذا يسعني أن أقول ثانية.. ترى ما هي الكلمة المناسبة.. ناقدة مثلًا من النقد! لا.. بل إنها كلاسيكية، نعم هذه هي الكلمة المناسبة.. إنها هادئة وكلاسيكية. ليس بها طَرْقات أو ضربات أو حتى صفعات، ليس بها دعابات أو صخب أو صيحات، مثل التي في عرض عزيزك (بانش)، لكنها في الواقع على الشاكلة نفسها، لا تتغير؛ دائمًا ما تكون راقية وبسيطة، أو حتى تشبه الحياة، شبيهة بالكائنات الحية، أتعلمين إذا كانت أعمال الشمع تتحدث وتمشي فقط، ما كنتِ لتلمسين فارقًا بينها وبين الأحياء إلا بصعوبة بالغة، لا أريد أن أبالغ في الأمر وأقول: إنني رأيت أعمال شمع نابضة بالحياة، ورأيت ما هو نابض بالحياة فعلًا ويشبه بالضبط أعمال الشمع ".
تيقظ فضول نيل تمامًا، جراء وصف السيدة، فسألت: " هل هي هنا يا سيدتي؟ ".
- ما الذي هنا أيتها الطفلة؟
- أعمال الشمع يا سيدتي.
- كيف! فليباركك الرب أيتها الطفلة؟ كيف يتصور لكِ أن تكون هذه المجموعة هنا، وقد رأيت كل شيء هنا عدا ما تحويه الخزانة وقليل من الصناديق المغلقة؟ لقد نُقلت في العربات الأخرى إلى غرفة التجميع؛ سوف يتم عرضها بعد غد. إنكِ ذاهبة إلى المدينة نفسها، التي سيتم عرضها فيها، وأنا متأكدة من أنك سوف ترينها. أن أتوقع رؤيتكِ لها، هذا أمر بديهي، فليس لديَّ أي شك في أنكِ ستفعلين ذلك. أحسب أنه إذا أتيحت لك فرصة تجربة أمر مماثل، فلن تتواني عن ذلك أبدًا.
قالت الطفلة: " أخشى ألا أكون في المدينة حينها يا سيدتي ".
صاحت السيدة جارلي: " لن تكوني في المدينة! إذنْ أين يفترض بكِ أن تكوني؟ ".
- لا أعرف.. أنا.. أنا.. لست متأكدة تمامًا.
قالت سيدة العربة: " إنكِ حتمًا لا تقصدين قول إنك تسافرين حول البلد، دون أن تعرفي إلى أين أنت راحلة؟ كم أنتما مثيران للعجب وللفضول! إلى أي فئة تنتمين أيتها الطفلة؟ لقد نظرت إليكِ في السباقات، كما لو كنت لا تنتمين إليهم البتة، وأنكِ ذهبتِ إلى هناك مرغمة، أو بمحض الصدفة ".
أجابت نيل، وقد تملك منها الارتباك بفعل ذلك الاستجواب المفاجئ: " لقد كان ذهابنا بمحض الصدفة، إننا فقراء يا سيدتي، ولا نملك أي شيء نفعله غير التجول هنا وهناك؛ بحثًا عن القوت.. لا نملك شيئًا آخر لنفعله.. كم أتمنى فعلًا لو كان لدينا ".
ظلت السيدة جارلي صامتة لبعض الوقت، كما لو كانت جالسة بمفردها، ثم قطعت صمتها قائلةً: " إنك تثيرين دهشتي أكثر فأكثر.. حسنًا! ماذا تسميان نفسيكما؟ لستما شحاذين؟ ".
ردت الطفلة: " بل نحن كذلك بالفعل يا سيدتي.. لا أعرف ماذا ينبغي علينا أن نكون غير ذلك ".
قالت سيدة العربة: " فليحفظني الرب.. لم أسمع من قبل شيئًا كهذا، من كان يحسب ذلك؟ ".

إلتزمت السيدة الصمت بعد أن أدلت بتعجبها، بينما شعرت نيل بالخوف الشديد؛ خشية أن تكون قد استدرت تعاطفها، وجعلتها تتحدث مع شخص فقير مثلها، أو أن تكون قد أهانت كرامتها، حيث لا يشفع شيء عن ذلك. لكن ردها أتى ليكسر حاجز الصمت، في نبرة أكدت على هذا الرأي، قالت:

" لا يمكنني أن أتعجب أيضًا، إذا علمتُ أنكِ تجيدين القراءة والكتابة أيضًا.. أليس كذلك؟ ".

قالت نيل في صوت مرتعش؛ تخشى أن تقر بشيء خاطئ آخر، فيُحتسب عليها: " نعم يا سيدتي ".

قالت السيدة جارلي: " حسنًا! أما أنا فلا أعرف! ".

" فعلًا! ". لفظت نيل تلك الكلمة بنبرة توحي ضمنيًّا بأنها قد تفاجأت تمامًا لكن على نحو مقبول؛ بسبب اكتشافها أن السيدة جارلي الأولى والوحيدة، وبهجة النبلاء والشرفاء، ومن رعتها العائلة المالكة، تفتقد هذه المهارة البسيطة، لكنها فكرت في أنها سيدة عظيمة بالقدر الذي يجعلها لا تلتفت مطلقًا إلى مثل هذه الإنجازات العادية. على أي حال، عندما استقبلت السيدة جارلي رد فعل نيل، لم تُستفز، فتُكمل استجوابها، ولم تُستحث أيضًا، فتبدي أي ملاحظات أخرى في ذلك الوقت؛ لأنها ساعتها انغمست في تفكيرها صامتةً، وظلت على هذا الحال لفترة طويلة، فانسحبت نيل من جانبها إلى حيث النافذة الأخرى؛ لتنضم إلى جدها من جديد، جدها الذي استيقظ الآن.

بعد مضيٍّ فترة من الوقت، تخلصت سيدة العربة من انغماسها في التفكير، وانتفضت لاستدعاء السائق؛ كي يأتي لها أسفل النافذة التي جلست إلى جوارها، حينها جرت محادثة طويلة بينهما بصوت منخفض جدًّا، بدت السيدة كما لو كانت تطلب مشورته في أمر حتمي، وتتناقش معه حيال إيجابيات وسلبيات شأن ذي أهمية بالغة، اختتمت هذه المناقشة أخيرًا بعد إسهاب، والتفتت مرة أخرى إلى الداخل، ثم أشارت إلى نيل كي تقترب منها.

قالت السيدة جارلي: " حريٌّ بالسيد العجوز أن يأتي أيضًا؛ أريد أن أحادثه في أمر.. قل لي أيها السيد، هل تريد أن تنعم حفيدتك بأمر جيد؟ إذا أردت ذلك، فبإمكاني أن أمهد لها السبيل، وأتيح لها الفرصة.. ها قل لي ما رأيك؟ ".

أجاب الرجل العجوز: " لكنني لا أستطيع أن أتركها.. لا يمكننا أن ننفصل عن بعضنا مطلقًا. من سأكون من دونها؟ ".

ردت السيدة جارلي بلهجة حادة قاسية: " أحسب أنك كبير بما فيه الكفاية، كي ترعى شؤونك الخاصة، وتكون قادرًا على الاهتمام بنفسك.. إذا صح التعبير أيها السيد ".

قالت الطفلة في همسات جدية: " إنه غير قادر على ذلك.. أخشى أن يكون غير قادر على الإطلاق.. من فضلك حبًّا في خالقكِ، لا تتحدثي معه بهذه القسوة.. إننا شاكرون جدًّا لأفضالك علينا، ولكننا.. ". ثم قالت بصوت عالٍ: " لن ننفصل عن بعضنا أبدًا، ولو نُصِّفت ثروات العالم أجمع بيننا ".

شعرت السيدة جارلي بقليل من الارتباك بسبب الرد الذي تلقته على اقتراحها، فوجهت ناظريها إلى الرجل العجوز، الذي أمسك يد نيل في حنان، وقد أحكم عليها قبضته؛ كما لو كان في إمكانها الإستغناء عن صحبته، أو عن وجوده على وجه الأرض بالكلية، بعد لحظة صمت مريبة طالت بينهم، دفعت السيدة رأسها إلى خارج النافذة مرة أخرى؛ وانفردت باجتماع آخر مع السائق،

فتناقشا في بعض النقاط، التي اتضح أنهما لم يصلا إلى قرار سريع وسهل بشأنها، كما كان الحال في النقاش السابق، لكنهما اختتما النقاش على أي حال، وإلتفتت السيدة إلى الداخل، وتحدثت إلى الجد مرة أخرى.
قالت السيدة جارلي: " حسنًا! إذا كنت ترغب جديًّا في عمل أي شيء؛ كي تكون إلى جوارها، فسيكون هناك الكثير كي تفعله على سبيل المساعدة، مثل إزالة الغبار عن الأشياء، وأخذ الفواتير، وما إلى ذلك. أما عن المطلوب من حفيدتك، فستكون وظيفتها هي أن تقتاد الناس نحو جماعتنا، ومن ثمَّ تحيطهم علمًا بالأعمال، أحسب أن لديها طريقتها الخاصة، في جذب الإنتباه وإضفاء السرور على الناس، على الرغم من أنها أقل مني قدرة في هذا الشأن طبعًا.. لطالما اعتدت على التجول بين الزائرين بنفسي، وأحسب أن الاستمرار في هذا الفعل أمرٌ ضروريٌّ، لكن روحي المعنوية باتت تحثني دائمًا بأن القليل من الراحة قد أصبح أمرًا أكثر ضرورية الآن. إن العرض الذي أقدمه لك غير شائع، ونادر ما يُعرض على أحد، فكر فيه مليًّا، وضع هذا في اعتبارك ". ثم قالت السيدة في لهجة اعتادت على أن تخاطب بها جماهيرها، وقد رفعت صوتها عاليًا: " إنها أعمال الشمع للسيدة جارلي، تذكر هذا.. المثال الحي للأناقة والتألق. إن الواجبات المفروضة عليكما يسيرة وراقية، وكل شيء مجهز بدقة، ستكون أماكن العرض في غرف التجميع، وقاعات البلدة، والغرف الكبيرة في النزل، وصالات عرض المزادات. تذكر جيدًا أن لا مجال للتسكع في رحاب السيدة جارلي، احرصْ جيدًا على ألا توجد قطعة قماش أو نشارة خشب في أي مكان في رحاب السيدة جارلي، إن كل التفاصيل مكتوبة بدقة وإسهاب في المنشورات الإعلانية، حتى هذه اللحظة نحن منفردون تمامًا في إضفاء إشراقة براقة منقطعة النظير على هذه المملكة. تذكر جيدًا أن رسوم الدخول ستة بنسات فقط، وأن هذه فرصة لن تتكرر مرة أخرى! ".
بعد أن انتهت من طرح تلك النقطة، اندثرت كبرياء السيدة المهيبة على نحو مفاجئ، وانتقلت إلى مناقشة نقطة أخرى تتعلق بالحياة العادية؛ فشرعت في الإشارة إلى الأجور، وقالت: إنها غير ملزمة إطلاقًا بدفع أجر مخصص لنيل، حتى تختبر قدراتها بشكل كافٍ، وتراقبها عن كثب أثناء قيامها بواجباتها. لكنها ذكرت أن كل ما يخص المأكل والمسكن، هي ملزمة بتوفيره لها ولجدها، علاوة على ذلك، أوضحت بكلمات أخرى مفادها أن المأكل سيتوافر لهما بجودة عالية وبكميات وفيرة.
تشاورت نيل مع جدها بشأن ما أوضحته السيدة لهما، وبينما كانا منخرطين في حديثهما، تمشت السيدة ذهابًا وإيابًا في العربة، في جلال مهيب، وعلو شأن عظيم، تعقد يديها خلف ظهرها، مثلما كانت تمشي في السابق في الأرض المقفرة بعد أن فرغت من تناول الشاي. لم يبدُ فعل السيدة فعلًا هامشيًّا، لا يستحق الذكر؛ إذا ما تذكرنا حركة العربة غير المستقرة، المتأرجحة طوال الوقت، فلن يستطيع أحد الثبات وعدم الترنح غير شخص ذي جلال مهيب فطري وكياسة مكتسبة.
إلتفتت نيل إليها، فصاحت السيدة جارلي من فورها، وقالت: " ماذا الآن أيتها الطفلة؟ ".
قالت نيل: " إننا طوع أمركِ يا سيدتي، ونشكركِ جدًّا على العرض الذي قدمتيه لنا ".
قالت السيدة جارلي: " لن تأسفي على قبولكِ عرضي أبدًا. إنني متأكدة تمام التأكد من ذلك. أصبح كل شيء على ما يرام الآن، فدعونا نتناول العشاء معًا ".

في غضون ذلك، أخذت العربة تتخبط وتتأرجح أكثر فأكثر، كما لو أنها شربت جعة أيضًا، وغلب عليها ترنح السُّكْر، على كل حال وصلت العربة أخيرًا إلى شوارع المدينة المرصوفة، كانت هادئة تمامًا، وخالية من المارة والمسافرين؛ فقد شارف الوقت على منتصف الليل، وأمسى سكان المدينة أجمعون في أسرتهم. كان الوقت متأخرًا جدًّا من أجل إجراء أي تعديل على غرفة العرض، لذلك عرجوا جانبًا إلى أرض جدباء، تقع مباشرة إلى جانب بوابة البلدة القديمة، وأقاموا بها ليلتهم، إلى جانب عربة أخرى، كان معلقًا عليها لوحة قانونية، حملت الاسم العظيم لجارلي، وإلى جانبها إثباتٌ لملكيتها لأعمال الشمع، التي تعتبر فخرًا لبلدها، موثقة بعلامة تجارية، ومرقمة أيضًا - سبعة آلاف ومائة - كانت متوقفة هناك، كما لو كانت شحنتها الثمينة مجرد دقيق أو فحم!

أمست تلك العربة غير المستخدمة الفارغة - حيث أودعت أحمالها في مكان العرض، وبقيت في ذلك المكان، رهن احتياجهم لها مرة أخرى - مكانًا لنوم الرجل العجوز، يبيت فيه ليلته، داخل جدرانها الخشبية، أعدت نيل أفضل سرير، يمكنها أن تعده بالإمكانات المتاحة حولها. أما بالنسبة لها، فقد أعدت فراشها في عربة السفر الخاصة بالسيدة جارلي؛ كعلامة بينة على أن تلك السيدة قد حظت على تفضيلها وثقتها.

تركت نيل جدها نائمًا، بينما كانت عائدة إلى العربة الأخرى، افتُتِنَت بهدوء الليل، ونعمت بنسمائه المنعشة، فانتظرت قليلًا في الهواء الطلق. انعكس ضي القمر اللامع على بوابة البلدة القديمة، تاركًا الممر المنخفض مظلمًا، يسود فيه الليل الحالك، على الرغم من شعورها بالخوف، انتابها الفضول في الآن ذاته، فاقتربت من البوابة ببطء، ووقفت مكتوفة اليدين، تنظر عبرها، مندهشة؛ كم بدت قديمة باردة مظلمة قاتمة!

كانت هناك مشكاة فارغة، يبدو أنها قد كانت مكانًا لتمثال ما قديم، إما سقط عن مكانه، وإما نقل إلى مكان بعيد منذ مئات السنوات، بينما كانت واقفة مكتوفة اليدين، تفكر فيما يراه الغرباء، حينما يقفون في ذلك المكان، وكم من صعوبات قد واجهتهم، وكم من جرائم شنيعة قد ارتكبت، على تلك الرقعة الحالكة التي يطبق عليها الصمت، زحف خيال فجأة أسفل البوابة المقنطرة، تبين أنه خيال لرجل ما. لكنها في اللحظة التي ظهر فيها، تمكنت من التعرف عليه - فمن يخطئ في التعرف عليه -، لقد كان كويليب القبيح مشوه الشكل بشحمه ولحمه!

كان الشارع ضيقًا حالكًا، يشيع فيه بدرجة طاغية سواد ظلال البيوت المصطفة على جانب واحد منه، ظهر فيه فجأةً كأنه انبثق من الأرض. لا يهم الآن من أين أتى، فقد أمسى موجودًا أمامها. انزوت الطفلة سريعًا في ركن مظلم، وبقت صامتة مرتعدة، وهي تراه يمر على مقربة منها. ابتعد عن ظلال البوابة، وباتت ملامحه ظاهرة، ساعتها استند إلى البوابة، ونظر إلى الوراء مباشرة، نحو المكان التي كانت تختبئ فيه بالضبط، أومأ برأسه وأشار نحوها في فتور بالغ..

هل كان يشير إليها؟ لا! حمدًا للخالق، لم يكن يشير إليها.. كانت الطفلة تقف منكمشة في نفسها، يتملك منها الخوف، ترتعد بالكلية، مترددة، لا تعرف إذا كان عليها أن تصرخ طالبة للنجدة، أم تبرح مكانها وتلوذ بالفرار سريعًا، لكنه قبل أن يصبح على مقربة أكبر منها، ظهر خيال آخر أسفل البوابة المقنطرة، تبين أنه خيال لصبي صغير، يحمل صندوقًا على ظهره.

صاح كويليب، ناظرًا عبر البوابة القديمة، وقد بدا في ضوء القمر، كأنه وحش ليلي، انبثق من الظلام، ملتفتًا إلى الوراء، كأنه يلقي نظرة خاطفة على منزله القديم، وقال: " أسرع أيها الفتى..

أسرع! ”.
قال الصبي مستعطفًا: ” إنه حمل ثقيل جدًّا يا سيدي.. إنني أمشي حقًّا بأقصى سرعة لدي ”.
دمدم كويليب: ” تأتي بأقصى سرعة لديك! إنك تأتي زاحفًا أيها الكلب! إنك تقيس سرعتك بالنسبة إلى سرعة دودة. هل تسمع دقات الساعة، إنها الثانية عشرة والنصف صباحًا ”.
توقف لوهلة؛ كي يستمع إلى دقات الساعة، ثم اندفع تجاه الصبي على نحو مفاجئ في ضراوة شديدة، وسأله في أي ساعة تمر حافلة لندن عند زاوية الطريق، أجابه الصبي من فوره قائلًا في تمام الواحدة صباحًا.
قال كويليب: ” فلتسرع إذنْ، وإلَّا سأكون متأخرًا.. هيا أسرعْ.. أتسمعني؟ أسرعْ ”.
بذل الصبي قصارى جهده؛ كي يسرع من خطواته، بينما استمر كويليب في فعله، يتقدم خطوات، ثم يلتفت، ينهال عليه بعبارات تهديدية، ويحثه على الإسراع أكثر فأكثر. لم تجرؤ نيل مطلقًا على أن تحرك طرفًا لها، ظلت ساكنةً، حتى غابا عن الأنظار تمامًا، ولم تعد تسمعهما، حينها هرعت إلى المكان الذي تركت فيه جدها، لا يشغل عقلها إلا أنه حيثما تواجد القزم على هذا القرب منه، فسوف ينتاب جدها الفزع، وتعتريه الرهبة. لكنه كان نائمًا بعمق، فانسحبت في هدوء.
بينما كانت عائدة في خطوات ثقيلة إلى فراشها، عقدت العزم على عدم التفوه بأي كلمة، تخص ما واجهته في ليلتها، بغض النظر عن السبب الذي من المحتمل أن يكون قد أتى بالقزم إلى هنا - على الرغم من أنها كانت مرتعدة؛ خشية أن يكون السبب الأساسي هو بحثه عنهما - اتضح من خلال استفساره عن حافلة لندن، أنه عائد إلى منزله، وبناءً على قدومه إلى هذا المكان ثم رحيله عنه، سيكون من المنطقي افتراض كونهما في أمان في هذا المكان، عن أي مكان غيره، وأنهما قد سلما من تحقيقاته عنهما. على الرغم من افتراضها ذلك، لم يهدأ اضطرابها، فقد كانت مرعوبةً لدرجة أنها لم تستطع استعادة رباط جأشها، شعرت كما لو أن كويليب يطوقها من كل إتجاه، وأن ذرات الهواء كله عبارة عن حشود من كويليب نفسه.
أما عن بهجة النبلاء والطبقة العليا وموضع رعاية العائلة المالكة، والمزايا الأخرى التي احتفظت بها في قرارة نفسها، فقد افترشت سريرها في عربة السفر، وأمست تغط في نوم عميق، في سلام تام، بينما تتلألأ حولها انعكاسات براقة، بفعل سقوط ضوء خافت للمصباح المتدلي من السقف، على أربطة القبعة المزخرفة، الموضوعة بحرص على الطبلة. لقد أُعِدَّ فراش الطفلة على الأرض، وأمسى من دواعي ارتياحها، أن تسمع وقع الأقدام يبرح المكان فور دخولها، وأن همسات من بالخارج، والباب المغلق، والمطرقة النحاسية، سوف تحجب أي خطر عنها. بالإضافة إلى سماعها لصوت همهمات متداولة بين الحين والآخر في الخارج عبر أرضية الغرفة، وسماعها صوت حفيف قش، ما جعلها تدرك أن السائق، قد افترش الأرض بالقرب من العربة، مما أضفى عليها شعورًا إضافيًّا بالأمان.
على الرغم من كافة سبل الحماية التي حظت بها، لم تهنأ نيل بأي قسط من النوم؛ بسبب نوبات اضطرابها وقلقها طوال الليل؛ خوفًا من كويليب الذي تجسد في أحلامها كلها، فباتت تحلم به مع أعمال الشمع، أو هو نفسه من تجسد في هيئة تمثال شمع، أو تجسد لها في صورة السيدة جارلي وأعمال الشمع معًا، أو حتى تجسد في كافة تلك الأشكال معًا، على الرغم من أنه لم يشبه أيًّا منها، لكن النوم العميق انتصر أخيرًا على قلقها في نهاية ليلتها، فأجبرها على أن تغمض عينيها، وتكف

عن مراقبة ما حولها في تيقظ مضطرب، منتشلًا إياها إلى بؤرة لا وعي، تنعم فيها براحة لا تُعوض ولا يضاهيها مثيلٌ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثامن والعشرون

هيمن النوم على جفنَي الطفلة لفترة طويلة عندما استيقظت، كانت السيدة جارلي في كامل رونقها، معتمرة قبعتها الكبيرة ذات الأربطة المزخرفة، ومنهمكة فعليًا في إعداد الإفطار، استقبلت اعتذار نيل عن نومها إلى وقت متأخر بروح عطوفة، قائلة لها إنها لم تكن تنوي أن توقظها، ولو نامت حتى الظهر.

قالت سيدة العربة: " إن النوم مريح لكِ، خاصةً عندما ينتابكِ التعب، إنه بمثابة تخلص من إرهاق الأيام الشاقة، لذلك يجب على المرء أن ينال قسطًا كافيًا من النوم، حتى يشعر أنه استعاد كامل عافيته.. إن النوم بمثابة استمتاع من نوع آخر لأوقاتنا في الحياة.. كم كنتِ هادئة في نومكِ ".

سألت نيل: " هل كانت ليلتكِ سيئة يا سيدتي؟ ".

ردت السيدة جارلي متنهدة، متقمصة دور الضحية: " نادرًا ما تكون غير ذلك أيتها الطفلة، لدرجة أنني أتساءل أحيانًا، كيف أصبحتُ صامدة إلى الآن ".

لكن مع تذكر أصوات الغطيط، التي ترددت من ذلك الشق الموجود في العربة، القادم من الجزء المخصص لمالكة أعمال الشمع طوال الليل، اعتقدت نيل أن ما سمعته ربما كان ضمن أحلامها التي راودتها طوال الليل، حتى وهي يقظة، لذلك أعربت عن أسفها الشديد لسماع مثل هذا الوصف المحزن لحالتها الصحية والنفسية، وبعد وقت قصير، جلست هي وجدها والسيدة جارلي كي يتناولوا الإفطار معًا، بعد أن أنهوا وجبتهم، تطوعت نيل لتغسل الصحون والأكواب، وتضعها في أماكنها المحددة، إلى جانب القيام بالأعمال المنزلية الأخرى الاعتيادية، أما عن السيدة جارلي فقد وضعت على كتفيها شالًا براقًا؛ بغرض لفت الإنتباه والاستحواذ على الأنظار في شوارع المدينة.

قالت السيدة جارلي: " سيأتي أحدهم؛ كي يحمل هذه الصناديق، حريٌّ بكِ أن تأتي في العربة أيتها الطفلة.. إنني مرغمة على السير؛ اتباعًا لرغبات الناس، حتى لو كان عكس ما تمليه عليَّ رغبتي، أو ضد إرادتي تمامًا، يجب عليَّ أن أفعل دائمًا ما يتوقعون مني فعله؛ فلا يمكن للشخصيات العامة في هذا الصدد أن يكونوا مالكي أو مالكات أنفسهم أو أنفسهن.. على أي حال، قولي لي كيف أبدو أيتها الطفلة؟ ".

ردت نيل عليها بإجابة مرضية، أسعدتها، حينئذٍ أخذت السيدة تضع العديد من الدبابيس في أجزاء مختلفة ومتفرقة من زيها، محاولة دون جدوى الالتفات مرارًا وتكرارًا؛ كي تحصل على رؤية كاملة لظهرها، لكنها في النهاية، رضيت أخيرًا عن مظهرها، وخرجت في جلال مهيب.

لم تكن العربة قد تحركت مسافةً كبيرةً، بينما كانت تخترق شوارع البلدة، إلَّا وكان الفضول قد استحوذ على نيل تمامًا، تريد أن ترى أي الأماكن قد حلوا فيها، لذلك أخرجت رأسها من النافذة، على الرغم من خوفها المتزايد مع كل طرفة عين من رؤية وجه كويليب اللعين. لقد كانت بلدة كبيرة وجميلة، بها ساحة فسيحة، تقدموا عبرها ببطء، تقع في منتصفها قاعة البلدة، التي اعتلى مبناها ساعة ودوارة الرياح. وكان على جانبي الطريق بيوت من الأحجار، وبيوت من الطوب الأحمر، وبيوت من الطوب الأصفر، وبيوت من الخشب والجص، وبيوت أخرى خشبية، كان

معظمها قديمًا جدًّا، مطوقًا بمنحوتات لوجوه على العوارض، تبدو كأنها تحدق في الشوارع، كانت نوافذ البيوت قليلةً جدًّا، وأبوابها مقنطرة منخفضة، لدرجة أنها في بعض الطرقات الأكثر ضيقًا، تعلو الأرصفة بالكاد. بدت الشوارع نظيفة إلى أبعد حد، ومشرقة، غير مزدحمة على الإطلاق، لكنها مضجرة بعض الشيء، لم يكن بها غير عدد قليل جدًّا من الرجال المتسكعين حول النزلين، وفي الأسواق الخاوية، وأمام الدكاكين التجارية، وقليل من العجزة الذين غلبهم النعاس على مقاعد، مصفوفة بمحاذاة حائط بيت صدقة، إذا تراءى لأي مسافر أن يمر في شوارعها، ليرى معالمها، لتردد صدى صوت وقع أقدامه على الأرصفة الساخنة في الأفق لبضع دقائق، حتى بعد مغادرته. لم يكن أي شيء فعالًا أو نابضًا بالحركة غير الساعات، ذات الأشكال الغريبة، وعقاربها المتمهلة التي تصدر صريرًا، يؤكد على سرعتها البطيئة، وتوقيتها المتأخر. كانت جميع كلاب الشوارع منبطحة على الأرض، نائمة أسفل أشعة الشمس، أما الذباب فكان يطن، ناسيًا أجنحته وفرط حركته، ليلتصق ماصًا السكر الرطب، في محلات البقالة، أو أن يشوى حتى الموت من لفحة الشمس، في الجوانب المغبرة للنوافذ.

بعد أن أحدثت العربة ضجة من صرير تقشعر له الأبدان، توقفت أخيرًا أمام مكان العرض، حينئذ ترجلت نيل، وسط مجموعة رائعة من الأطفال، الذين باتوا ينظرون إليها في لهفة، بأعين تشع منها الدهشة والفضول؛ يحسبون أنها ضمن مجموعة أعمال الشمع، وأن جدها نفسه تمثال متقن للغاية من الشمع.. أخرجت الصناديق كاملة من الحافلة، ووضعت في حيازة السيدة جارلي، التي كانت منتظرة بصحبة جورج، ورجل آخر يرتدي سروالًا مخمليًّا وقبعة سمراء مزينة بتذاكر الدخول، إلى أن يتم ترتيب المحتويات كافة - التي كانت عبارة عن أكاليل حمراء وغيرها من الحاجيات الأخرى اللازمة للتزيين وأعمال التنجيد - اللازمة لإضفاء أفضل زينة على الغرفة.

تحضروا جميعًا للعمل دون إضاعة للوقت، فأصبحوا يكدون في أعمالهم كافة. كانت المجموعة المتفردة مغطاة بالقماش بالكامل؛ خشية أن يجد الغبار إليها ثغرة، فيفسد من إطلالتها، كرست نيل نفسها للمساعدة في تزيين الغرفة، إلى جانب جدها الذي انهمك هو الآخر في مساعدتهم بجهد مذكور. أما الرجلان فقد أنجزا العديد من المهام في وقت قصير بهمة نشطة، أما السيدة جارلي فقد خدمتهم عن طريق توفير الدبابيس المصنوعة من القصدير والتي أخرجتها من الجيب الكتاني - كانت قد وضعتها مسبقًا لهذا الغرض من الأساس - أخذت تُحمِّسهم وتحثُّهم على العمل وتجدد من عزمهم.

بينما كانوا منهمكين في أعمالهم، ظهر رجل طويل ذو أنف معقوف وشعر أسود، يرتدي معطفًا عسكريًّا قصيرًا جدًا، ذا أكمام ضيقة، وجدائل مطرزة وأبازيم في كل جزء منه، لكنه الآن مع الأسف أصبح في حالة رثة، يكاد يكون تطريزه مقطوعًا بالكامل، كان يرتدي سروالًا رماديًّا قديمًا، يناسب حجم ساقه بالضبط، وينتعل حذاءً يتناسب بالكاد مع فصل الشتاء، تقدم من الباب، وابتسم في لطف ملحوظ. كانت السيدة جارلي في ذلك الحين تقف مولية ظهرها إليه، هز الرجل العسكري سبابته؛ ناهيًّا الجميع عن إطلاعها على وجوده، مشى على أطراف أصابعه في هدوء تام، حتى اقترب منها، ثم لمس رقبتها صارخًا: " بوووه! ".

صاحت سيدة أعمال الشمع: " ماذا! أوه! السيد سليم.. يا لها من فترة طويلة قد مضت حقًّا! من كان يظن أنني سأراك هنا! ".

قال السيد سليم: " أوه! إنه من دواعي سروري واعتزازي، إنه شرف لي، إنها ملاحظة جيدة من سيادتكِ.. إنه من دواعي سروري واعتزازي، إنه لشرف لي، إنها ملاحظة حكيمة من سيادتك.. من كان يظن ذلك فعلًا! أوه! جورج.. رفيقي المخلص الأمين، كيف حالك؟ ".
تلقى جورج هذا الترحيب بلا مبالاة مؤكدة، مشيرًا أنه جيد بما فيه الكفاية، مفتعلًا طرقات مدوية طوال الوقت.
قال الرجل العسكري، ملتفتًا إلى السيدة جارلي: " لقد أتيت إلى هنا، وإنه من دواعي سروري واعتزازي أن أفعل ذلك، لكنني بالكاد أعرف لأي سبب قد جئت. إن الأمر محير تماما، كيف لي أن أخبركِ؛ أنجدني يا جاد ([13]). إنني أريد بعض الإلهام والانتعاش وتغيير أجواء أفكاري.. ". ثم تابع الرجل العسكري متلفتًا ينظر في أنحاء الغرفة ومتفقدًا نفسه: " إنه من دواعي سروري واعتزازي أن أقول لكِ كم تبدو الأجواء كلاسيكية رائعة، أوه أنجدني يا جاد! إنها أعمال تتبع إلهة العقل والحكمة وربة المهارات والحرف اليدوية (مينيرفا) ".
قالت السيدة جارلي: " ستبدو أكثر حُسنًا، حينما تنتهي وتصبح جاهزة للعرض ".
قال السيد سليم: " عظيم جدًّا! هل تصدقيني إذنْ حينما أقول إنه من دواعي سروري واعتزازي في هذه الحياة أن أكون منخرطًا في الشِّعر، كي أُسخر قلمي في مدح تلك التحف الساحرة؟ بالمناسبة.. أي أوامر؟ هل هناك أي شيء يمكنني فعله من أجلكِ؟ ".
قالت السيدة جارلي: " إنها باهظة الثمن للغاية.. ولا أحسب أنها جيدة ".
رد السيد سليم، رافعًا يده: " صه! لا لا! لا تتفوهي بتراهات واهية. لن أسمع لك أبدًا. لا تقولي إنها ليست جيدة. فأنا أعرف ما هي عليه أكثر منك! ".
قالت السيدة جارلي: " لكنني لا أحسب أنها جيدة بما يكفي ".
صاح السيد سليم: " ها ها! إنكِ تفسحين الطريق، إنكِ تمهدين الطريق نحو سقوطكِ. اسألي العطارين، اسألي ملمعي الأحذية، اسألي صانعي القبعات، اسألي مالكي مكتب اليانصيب القديم، اسألي أي رجل منهم، ماذا فعلت له أشعاري، واستمعي إلى ما أقوله جيدًا، خذي كلامي بعين الإعتبار.. إنهم يمجدون اسم سليم. إذا كان رجلًا أمينًا صادقًا ذا حس فني، فسوف يوجه عينيه صوب السماء، ويمجد اسم سليم.. خذي كلامي بعين الإعتبار! هل أنت على صلة بدير (وستمنستر
آبي) يا سيدة جارلي؟ ".
- نعم، بالتأكيد.
رد السيد بحسم، ناقرًا على جبينه بطريقة تعبير، تلمح إلى أن ما وراء جبينه ليس إلا فتات ذكرى صغيرة: " إذنْ سيكون من دواعي سروري واعتزازي يا سيدتي، أن أبلغكِ أن هناك بكل تأكيد في زاوية ما من مجموعة البنايات الكئيبة، ركنًا يسمى (ركن الشعراء) إنها أسماء أقل شأنًا من اسم سليم بكل تأكيد، أحسب أن معي القليل من الأشعار هنا.. ". خلع السيد قبعته، وقد كانت تعج بقصاصات ورق، قائلًا: " إن معي القليل منها هنا.. على الرغم من أن ما سأقترحه عليكِ الآن سيكون دون تفكير أو حتى تدبير، لكنني أكاد أجزم أن ما سأطرحه عليكِ هو ما ترغبين في سماعه نفسه، وهو ما سوف يملأ ذلك المكان تهليلًا. إنها قصيدة، تدعى في هذه اللحظة (المكان

المكتظ) إن فكرتها قابلة للتغيير، لكنها مفعمة بالإلهام الإيجابي، إنها من أجل السيدة جارلي فقط. هل ستأخذين القصيدة؟ ".
قالت السيدة جارلي: " حسنا! أحسب أنها مميزة ".
قال السيد سليم، مستخدمًا قلمه كأنه مسواك: " خمسة شلنات إذنْ.. أرخص من أي نص نثري ".
قالت السيدة جارلي: " لا لن أعطي في مقابلها أكثر من ثلاثة شلنات ".
قال سليم بحسم: "..اجعليها ثلاثة شلنات وستة بنسات.. هيا! ثلاثة شلنات وستة بنسات ".
لم تُبْدِ السيدة جارلي أي اعتراض على الطريقة التي تعامل بها الشاعر، فقد دون السيد سليم من فوره في دفتر ملاحظاته الصغير: " ثلاثة شلنات وستة بنسات "، ثم سحب من فوره القصيدة، عازمًا على أن يجري عليها بعض التعديلات، وبعد أن أظهر الكثير من الود لراعيته السيدة جارلي، غادر، واعدًا بأنه سيعود مرة أخرى في أقرب وقت ممكن، مع نسخة معدلة للطباعة.
لم تتأثر استمرارية أعمال التحضير على الإطلاق أثناء تواجده، فلم تنقطع أو تتوقف، كانوا قد قطعوا شوطًا طويلًا بالفعل، لدرجة أنهم انتهوا مباشرة من كافة التحضيرات بعد وقت قصير من مغادرته. بمجرد أن انتهوا من تعليق أحبال الورد جميعها في أناقة مبهرة، كشفوا الغطاء عن المجموعة المتفردة كاملة، وعرضوها على منصة مرتفعة على بعد قدمين من الأرض، موازية لحوائط الغرفة، وطوقوها بحبل قرمزي؛ ليفصلها عن الجمهور الفضولي الفظ، كانت عبارة عن تماثيل لشخصيات مشهورة، سواءً أكانوا فرادى أم في مجموعات، في ثياب تحاكي أوقاتًا وعصورًا مختلفة، تقف في ثبات أو في غير ثبات على أرجلها، وأعينها واسعة جدًّا وجاحظة، وفتحات أنوفها كبيرة جدًّا، أما عضلات أذرعها وأرجلها فقد شكلت في تصوير دقيق للغاية، سادت على وجوهها جميعًا تعبيرات الاندهاش العارم. كان كل السادة ذوي صدور جؤجؤية عالية، وذقونهم تميل إلى الزرقة، أما السيدات فكنَّ في غاية السحر، أما السادة والسيدات معًا فكانوا لا ينظرون إلى مكان محدد، يحدقون فقط بملامح وجوه متيبسة إلى اللاشيء.
عندما استنفدت نيل كامل دهشتها في النظر إلى المعروضات النفيسة وهذا المشهد المهيب، أمرت السيدة جارلي بإخلاء الغرفة تمامًا، على أن تبقى هي والطفلة بمفردهما، حينها جلست على كرسي بمسندين وسط الغرفة، وقدمت لنيل بشكل رسمي عصا من خشب الصفصاف؛ كانت قد استخدمتها لفترات طويلة؛ للإشارة بها على شخصيات العرض، وفي مشقة مضنية أخذت توجهها وتبين لها واجباتها المكلفة بها.
قالت السيدة جارلي في لهجتها التي اعتادت أن تتحدث بها أمام الجماهير في العرض، بينما تشير نيل إلى أحد الشخصيات الموجودة على طرف المنصة: " هذه.. كانت إحدى الوصيفات في عصر الملكة إليزابيث، ماتت بسبب وخزة في إصبعها نتيجة لعملها في أحد أيام الآحاد. لاحظوا شكل الدم الذي كان يتدفق من إصبعها، والإبرة ذات الرأس الذهبية التابعة لذلك العصر، التي كانت تعمل بها ".
كررت نيل كل ما قالته السيدة مرتين أو ثلاث مرات، مشيرة إلى الإصبع والإبرة في الأوقات المناسبة، ومن ثم انتقلت إلى التمثال التالي.
قالت السيدة جارلي: " أما عن هذا سيداتي سادتي فهو (جاسبر باكليمرتون) صاحب الذكرى الشنيعة، فقد تودد إلى أربع عشرة امرأة وتزوج منهن جميعًا، سعى إلى تدميرهن، عن طريق

دغدغة باطن أقدامهن، بينما كنَّ نائمات في كل براءة وفضيلة. حينما أحضروه إلى المشنقة، سئل عما إذا كان آسفًا حيال ما فعله، قال نعم إنه آسف، لكن أسفه بسبب أنه جعلهن يرحلن بتلك السهولة، متمنيًا أن يعفو الأزواج جميعهم عنه ويغفروا له تلك الذلة، لذلك على كل سيدة شابة أن تأخذ من ذلك عبرة وعظة وأن تتحرى الدقة في إختيار الزوج، لاحظوا شكل أصابعه الملتوية، كما لو كانت بسبب قيامه بالدغدغة، وانظروا إلى هذا الوجه، وإلى تلك الغمزة التي تعتلي عينيه، كما لو كان ماثلًا أمامكم حين ارتكابه لتلك الجرائم الوحشية.

حينما ألمت نيل بكافة المعلومات حول السيد باكليمرتون، وأصبح في إمكانها ذكر ما قالته السيدة دون تلعثم، انتقلت السيدة جارلي للحديث عن الشخصية التي تليه، انتقلت إلى الشخص السمين، ثم إلى النحيف، ثم إلى الرجل الطويل، ثم إلى القصير، ثم إلى السيدة العجوز التي توفيت جراء رقصها في عمر المائة واثنين وثلاثين عامًا، ثم إلى صبي الأدغال، ثم إلى المرأة التي تسببت في تسمم أربع عشرة عائلة بالجوز المخلل، ثم تابعت على نفس المنوال، تحكي قصصًا شيقة عن كل الشخصيات التاريخية الأخرى، المثيرة للاهتمام والمضللة في الآن ذاته. هكذا استفادت نيل من إرشادات السيدة لها، وأصبحت مستعدة تمامًا لذِكْرها كاملة، فبعد أن مر عليهما ساعتان كاملتان في عزلتهما معًا، أصبحت نيل ملمة تمامًا بتاريخ المؤسسة كاملًا، ومؤهلةً بالقدر الكافي لتنوير الزوار.

لم تتوانَ السيدة جارلي عن إبداء إعجابها الشديد بتلك النتيجة المدهشة، أخذت رفيقتها الشابة وتلميذتها النجيبة؛ لتفقد الترتيبات المتبقية في الغرفة، لقد غُيِّرت هيئة الممر تمامًا، وأصبح كأنه بستان من الجوخ الأخضر، معلق عليه العبارات المقتبسة - أعمال السيد سليم - التي رأتها بالفعل في السابق، وزُينت الطاولة بزخرفة مبهجة، حيث وضعت في الجانب العلوي، المخصص للسيدة جارلي نفسها، حيث تجلس على رأس الطاولة وتأخذ الأموال، في صحبة جلالة الملك (جورج الثالث)، والسيد (غريمالدي) القائم بدور المهرج، والسيدة (ماري) ملكة إسكتلندا، وأحد أفراد الجماعة البروتستانتينية، والسيد (بيت) الذي كان يحمل في يده، النسخة المعدلة لفاتورة الرسوم الضريبية النافذة. لم تُهمل متابعة التجهيزات خارج غرفة العرض أيضًا، فقد وجدت راهبة بهيبة عظيمة لافتة للأنظار، تقف كأنها تتلو صلواتها عند الرواق الصغير إلى جانب الباب، ومناديًا ذا رأس شَعره أسود قاتم، وبشرة صافية تمامًا، يجوب المدينة في عربة؛ عارضًا صورة مصغرة لسيدة.

فور انتهائهم، أخذوا بعين الإعتبار وجوب توزيع مؤلفات السيد سليم في تروٍّ، فهذه الدعاية الشجية يجب أن تجد طريقها إلى داخل كل البيوت والمتاجر، وأن المحاكاة الساخرة المعنونة بـ (إذا كان لديَّ حمار) يجب أن تحصر على الحانات، وتوزع بين كتاب المحامين ورواد تلك الأماكن فقط. تولت السيدة جارلي بنفسها شأن المدارس، حيث انتظرت أمامها، ومعها كتيب مؤلف خصيصًا لها؛ كي تثبت أن أعمال الشمع تفيد العقل وتنمي الذوق وتوسع مدارك الفهم الإنساني. حينما تم ذلك على أكمل وجه، جلست السيدة التي لا تعرف الكلل، لتناول العشاء، ولتشرب من تلك القنينية مجهولة المحتوى، كي تجدد نشاطها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل التاسع والعشرون

مما لا شك فيه أن السيدة جارلي كانت تتمتع بعبقرية لا مثيل لها، حريٌّ بنا أن نقول عنها إنها كانت عبقرية ومبتكِرة. إلى جانب اهتمامها بأعمال الشمع ورونقها، والتحضيرات اللازمة لبدء عرضها، لم تكن نيل خارج حسبانها. في الصباح الباكر، كانت عربة المنادي، التي دائمًا ما يجوب بها الشوارع، مزينةً بأعلام وشارات مبهرجة جذابة، حيث انطلق بها عبر شوارع البلدة، مادحًا الصورة التي حملها كعادته، بينما جلست نيل على مقعد بجانبه، مزينة ومتوجة بورد صناعي، إثر تلك الأجواء الإحتفالية الممتعة، قاد العربة ببطء، متسكعًا في جميع الشوارع طوال النهار، أخذا في توزيع المنشورات الإعلانية على الناس على وقع دقات الطبل ونفخ البوق. أثار جمال الطفلة وحسن روحها وخجلها الطبيعي جلبة كبيرة في البلدة الصغيرة. أصبح المنادي الذي من المفترض أن يكون مصدرًا حصريًا لجذب الإنتباه شيئًا ثانويًّا؛ انحصرت أهميته في كونه مجرد جزء من عرض، كانت هي فيه نقطة الجذب الرئيسة. تهافت الناس؛ لرؤية صاحبة الأعين اللامعة، لدرجة أن بعض الشباب وقعوا في غرامها من أول نظرة على نحو بائس، تاركين لها باستمرار أمام معرض أعمال الشمع عبوات من المكسرات وأقفاص من التفاح مع جواب
صغير.

على ذكر العبقرية المبتكرة للسيدة جارلي، لم يكن الانطباع الفاتن الذي أثارته نيل في شوارع البلدة أمرًا غير متوقع بالنسبة لها، لذلك وخشيةً من أن تكون نيل شيئًا عاديًّا غير مبهر لهم، سرعان ما استدعتهما؛ لكنها أرسلت المنادي مرة أخرى بمفرده، وأبقت نيل في غرفة العرض، تقدم المعروضات كل نصف ساعة لحشد كبير من الجماهير المعجبة. كانت تلك الجماهير من النوع الراقي جدًّا، بالإضافة إلى أنها تضمنت عددًا غفيرًا من الفتيات الصغيرات، اللاتي توافدن من المدارس، في تصرف دلَّ على أن جهود السيدة جارلي لم تضع هباءً، وقد تكللت بالاستحسان والتوفيق، قدَّم السيد غريمالدي، بعد أن بدل ثوبه ليظهر بوجه وملابس بهلوانية، السيد (ليندلي موراي) حيث إنضم بمشاركة عن قواعد اللغة الإنجليزية، ثم تحول من فوره إلى السيدة (هانا مور) القاتلة الأكثر شهرة.. وقد حاز عن تأديته للدورين على إعجاب الآنسة (مونفلاذرز) المشرفة الأولى والمسؤولة الرسمية عن تنظيمات اليوم في البلدة، وقد حاز على إعجابها أيضًا بعد نظرة متفحصة ثماني فتيات مختارات، حيث أبهرنها بكافة المقاييس. أما السيد (بيت)، فقد قدَّم مرتديًّا منامة وقلنسوة، حافي القدمين، الشاعر (كاوبر) بدقة متناهية.. أما السيدة (ماري) ملكة إسكتلندا، فقد أتت واضعة شَعرًا مستعارًا داكنًا، مرتدية ملابس رجالية، وقميصًا ذا ياقات بيضاء، في صورة كاملة مشابهة لـ (اللورد بايرون) بالضبط، لدرجة أن الفتيات الصغيرات صرخن عاليًا فور رؤيتها. ما جعل الآنسة مونفلاذرز تستنكر من فورها صياحهن، منتهزةً الفرصة لتأنب السيدة جارلي، مشددةً على أنها يجب أن تكون أكثر حرصًا حيال انتقاء مجموعتها، معقبة أن جلالته جراء ذلك الفعل ربما شكَّل آراءً لا تناسب مكانة أعمال الشمع بالتأكيد، مضيفة تعقيبات أخرى بشأن كبير الكهنة ورجال الكنيسة، لم تفهم السيدة جارلي منها شيئًا.

على الرغم من أن واجباتها الإلزامية قد كانت شاقة بما فيه الكفاية، وجدت نيل أن سيدة العربة لطيفة ومراعية لمشاعر الآخرين إلى أبعد حد؛ لم يكن استمتاعها الخاص منحصرًا في أن تشعر

بالراحة وحدها، بل شمل راحة الجميع كافة.. وبالنسبة لحسها المرهف ومراعاتها لمشاعر الآخرين، ربما يعد أمرًا مميزًا يستحق الذكر؛ حتى بالنسبة إلى الأشخاص الذين يعيشون في أماكن أكثر رقيًّا من العربات، فإنه يعد أمرًا استثنائيًّا غير مألوف، وخصوصًا أنه على أي حال ليس بالنتيجة الحتمية. أما نيل، فنظرًا لشعبيتها التي أكسبتها القليل من الإكراميات المتنوعة من الزائرين المتوافدين، خاصةً أن راعيتها لم تطلب منها رسومًا عليها، وجدها الذي لاقى معاملة حسنة، وأصبح مستقرًا وصالحًا، لم يعد لديها أي سبب يدعو للقلق بشأن عملها في معرض أعمال الشمع، سوى ذلك القلق الذي كان يساورها بين الحين والآخر؛ عندما تتذكر كويليب، وخوفها من عودته، ومقابلته فجأة في يوم من الأيام.

في الواقع، لطالما كان كويليب كابوسًا مؤرقًا، يطارد الطفلة باستمرار بهيئته الضئيلة ووجهه القبيح طوال أيام إقامتها. اعتادت على أن تنام في غرفة أعمال الشمع؛ كانت تعتبرها أكثر الأماكن أمنًا لها، لم تكن تبرح مكانها أبدًا طوال الليل، على الرغم من ذلك، كانت تعذب نفسها بنفسها -حقيقة لم يكن لديها أي حيلة - لطالما كان يخيل إليها وجود تشابه بين القزم وبين تلك الوجوه المتيبسة التي يسكنها الموت، ومع استحواذ تلك الخيالات على أفكارها، كانت أقرب إلى تصديق أنه قد سكن أحد تلك الأجساد ووقف مكانه مرتديًا الثياب نفسها. كانت الأجساد كثيرة، تجدها واقفة وراء بعضها البعض حول سريرها، تصوب عليها أعينها الزجاجية التي يسكنها الموت، على الرغم من سكونها وصمتها الكئيب، بدت كأنها مخلوقات حية، فظلت المخاوف تجد منفذًا إلى روحها، تخشى مقصدها، وسبب اصطفافها، ترقد تترقب تلك الأجساد الشمعية المغبرة في حذر، إلى أن يتملك منها الرعب تمامًا، فتنهض مرة أخرى مجبرة؛ لتشعل شمعة، أو لتجلس إلى جانب النافذة المفتوحة، فتأنس بضوء النجوم الساطع. لطالما كانت تتذكر في مثل هذه الأوقات منزلها القديم، والنافذة التي اعتادت الجلوس إلى جوارها بمفردها، ثم لا تملك خيارًا، فتتذكر كيت المسكين، ولطفه الجم معها، حتى يترقرق الدمع في عينيها، فتبكي وتبتسم في الوقت نفسه. مع ذلك الكم الهائل من القلق، في تلك الساعات التي يهيمن عليها الصمت، غالبًا ما كانت تمحور فكرها ثانيةً حول جدها، تتساءل عن مقدار تذكره لحياتهما سابقًا، وهل هو مدرك حقًّا للتغيير الذي طرأ على حاليهما، وعجزهما وعوزهما المدقع الذي يصارعانه في الفترة الأخيرة. عندما كانا يجوبان الأودية معًا ويمشيان في الطرقات، نادرًا ما كانت تفكر في تلك الأمور، لكنها الآن لا تستطيع منع نفسها من التفكير فيما سيحل بهما إذا مرض العجوز، وخانتها قدرتها، وخذلتها قوتها، ولم تعد تستطيع التحمل. لقد كان صبورًا ومستعدًّا لتنفيذ أي مهمة بسيطة يقدر على إتمامها، وسعيدًا لشعوره بأنه صالح ومفيد ثانيةً، لكنه لا يزال هو نفسه كما في السابق، الشخص الذي لا يعول عليه أحد، دون أي إحتمال للتحسن، مجرد طفل صغير، مخلوق مسكين منعدم الفكر، عجوز فقير لا ضرار منه، سريع التأثر بحبها له ومراعاتها له، شديد الحساسية تجاه الانطباعات سواء أكانت جيدة أم مفجعة، يجب القول بأنه مجرد جسد حي لا أكثر من ذلك. لقد كان أمرًا مؤسفًا، مؤسفًا حقًّا، بجعلها تكابد أحزانها أكثر.. حينما كانت تراه يجلس شاردًا إلى جانبها، بيتسم ويومئ برأسه إليها، حينما كان يلاعب الأطفال ويحمل الصغار جيئةً وذهابًا، مثلما كان يفعل معها تمامًا، حينما كانت تراه مرتبكًا محتارًا إثر استفهامات كثيرة تتصارع داخل رأسه، حينما كانت تراه صابرًا داخل جسده الواهن الهزيل، حينما كانت تراه يئن وبالكاد يدرك ما حوله، حينما كانت تراه في خضمِ هذا كله، ذليلًا أكثر من قبل، محتجزًا داخل عقل مجرد طفل صغير..

لقد كان أمرًا مؤسفًا حقًّا، أن تراه هكذا، فلا تملك في نفسها وفي نفسه شيئًا، تنفجر باكية، وتنسحب إلى عزلتها، تخر على الأرض، جاثية على ركبتيها، تصلي داعية بأن يعود إلى طبيعته مرة أخرى.
على الرغم من أن ما صارعته كان وقعه على قلبها الصغير كالمصائب المفجعة، لم تكن مرارة وجعها أو حتى تحليلاتها الفردية على معرفة واضحة بحالته الشاملة، حينما كان يبدو هادئًا أو مستكينًا على الأقل. فالحزن المهلك الثقيل لم يأتِ بعد.
في يوم عطلة، وقت الغروب، خرجت نيل وجدها للتمشية. كادا يكونان محبوسين لبضعة أيام، أصبح الجو دافئًا، فقررا التنزه لمسافة طويلة. خرجا من البلدة، سارا عبر ممر. يتخلل حقولًا ساحرة، عاقدين العزم على أن يصلا إلى الطريق الذي مرا به من قبل، ومن ثمَّ سيعودان مرة أخرى من الطريق نفسه. لكن الطريق كان طويلًا جدًّا، عكس ما كانا يفترضان، غير أن منظر غروب الشمس سحرهما تمامًا، فظلا يسيران مستمتعين إلى أن وصلا إلى الطريق الذي كانا يبحثان عنه، ومن ثمَّ توقفا للاستراحة.
على الرغم من أن الجو كان في بداية جولتهما دافئًا، أمسى تدريجيًّا ملبدا بالغيوم، أعتمت السماء، واكفهر السحاب، باستثناء مكان المغيب؛ فبدت الشمس كتلًا من ذهب، وكرة من نار مشتعلة، تغوص إلى عمق الأرض، تعكس لمعة حمراء وهاجة، كأنها تلقي بجمرات مفتتة هنا وهناك وسط الظلام المخيم. بدأت الرياح تصفر في الخلاء الأجوف، بينما تنحسر الشمس لتهم بالشروق على مكان آخر، حل محلها ركام من السحب الضبابية، أنذر بدوي الرعد وإبراق السماء. سرعان ما هطلت الأمطار، وزحفت السحب الغيمية وانتشرت في السماء كافة. دوى هزيم الرعد في الأفق البعيد، وومضت شرارة البرق في سحب العاصفة الرعدية؛ لتنير السماء في لحظة، ويهيمن الظلام على الأرض في اللحظة التالية، كأنه انبثق في طرفة عين.
في ظل هذا الجو العصيب فر العجوز ومعه الطفلة نحو الطريق السريع قلقًا من إتخاذ أسفل الأشجار، أو جانب السياج مأوًى لهما؛ على أمل العثور على منزل يمكنهما اللجوء إليه، حتى تنقشع العاصفة التي هبَّت في شدة الآن، وأخذت تزداد بعنف مع مرور كل لحظة، مرا بجانب منزل منفرد، دون أن يلحظا مدى قربه، مغمورين تمامًا في مياه الأمطار، مذعورين من صوت الرعد الذي يصم الآذان، مشوشين من وهج البرق المتشعب، لكنَّ رجلًا نادى عليهما، كان واقفًا إلى جانب الباب؛ وألحَّ عليهما بشدة أن يدخلا.
قال وهو يتراجع بعض الخطوات نحو الباب، بينما يظلل على عينيه بيده؛ في إثر وميض البرق الذي شق السماء مرة أخرى: " يجب أن تكون آذانكما على أي حال حساستين للسمع أكثر من أي أحد آخر، فإني أرى أن البرق قد أصابكما بالعمى المؤقت ". حينما وصلا إليه، أضاف قائلًا، وهو يغلق الباب، ويقودهما عبر ممر طويل إلى غرفة خلفية: " ما الذي خُيل إليكما أنكما تمضيان نحوه؟ هاه! ".
ردت نيل: " لم نكن نرى منزلك يا سيدي، حتى سمعناك تنادينا ".
قال الرجل: " لا عجب من ذلك، فتأثير البرق على الأعين يفعل ذلك. على أي حال، من الأفضل لكما أن تقفا إلى جانب النيران؛ وتجففا نفسيكما قليلًا. يمكنك أن تطلب ما تريد، إذا أردت أي شيء. وإذا لم تكن تريد أي شيء، فأنت لست مضطرًّا إلى فعل ذلك. هذا منزل عام، يحل به من يشاء، وهذا كل ما في الأمر. دائمًا ما يكون الجندي الباسل في خدمة الناس كافة ".

سألت نيل: " هل هذا المنزل يدعى (الجندي الباسل) يا سيدي؟ ".
قال مالك المنزل: " لقد ظننت أن الجميع يعرفون ذلك.. من أين أنتما، ما دمتما لا تعرفان الجندي الباسل حق المعرفة مثل معرفتكما بتعاليم الكنيسة؟ هذا هو (الجندي الباسل).. إنه (جيمس جروفز).. (جيم جروفز) الصادق الأمين (جيم جروفز)، إنه الرجل ذو الطبيعة الأخلاقية التي لا تشوبها شائبة، إضافة إلى أن لديه أرضًا جيدة للعب القناني الخشبية. إذا كان هناك أي أحد يريد أن يقول أمرًا آخر لجيم جروفز، دعه يقوله لجيم جروفز، فيمكن لجيم جروفز أن يضمه إلى الزبائن الآخرين، بناء على أي شروط، مقابل أربعة جنيهات فقط وحتى أربعين جنيهًا ".
مع انتهائه من تلك الكلمات، نقر المتحدث على صدريته ليبين أنه كان ذا الشأن المجيد المدعو جيم جروفز، بدا أنه منضم على وجه العموم إلى حفلة سمر في غرفة ذات إطار أسود بجوار المدفئة، وقد رفع إلى شفتيه كأسه نصف المملوءة بمشروب روحي ممزوج بالماء، شاربًا في صحة جيم جروفز.
بالإضافة إلى الجو الدافئ الذي شاع في الغرفة، كان هناك لوح كبير قائم، في الجهة المقابلة لحرارة النيران. بدا أن شخصًا ما في الجهة الأخرى من اللوح، قد أثار الشكوك حول مروءة السيد جروفز، مستفزًّا نزعته المغرورة، فتحرك السيد جروفز من فوره؛ لينهي الاستخفاف المثار ضده، فسدد بسلاميات أصابعه طرقة عنيفة على اللَّوْح، متوقفًا لوهلة في إنتظار رد من الجهة الأخرى.
قال السيد جروفز، عندما لم يتلقَّ أي رد: " لا يوجد هنا عدد كبير من الرجال؛ فمن سيغامر بالمجيء إلى هنا، أسفل سقف جيم جروفز. أحسب أنه رجل واحد، لديه الجرأة ليقدم على فعل كهذا، لكن هذا الرجل ليس على بعد مائة ميل حتى. لكن إحقاقًا للحق فهو رجل تعدل براعته براعة دستة من الرجال الآخرين، بسبب ذلك أدعه يقول ما يحلو له في شأني.. وهو يعرف ذلك بالتأكيد ".
في مقابل ذلك المدح العابر، ارتفع صوت أجشّ دعا السيد جروفز قائلًا: " أوقفه عن الصخب وأشعلْ شمعة "،. ثم قال الصوت نفسه مخاطبًا السيد نفسه: " لا تضيع أنفاسه في التباهي، فمعظم الناس يعرفون جيدًا من أي طينة قد شُكِّل ".
قال الرجل العجوز هامسًا، وقد سيطر عليه الحماس فجأة: " أتسمعين يا نيل! إنهم.. إنهم يلعبون الورق. تسمعينهم يا نيل، أليس كذلك؟ "..
قال الصوت: " اقترب من ضوء الشمعة؛ كي تنظر بوضوح، فإن هذا هو أكثر ما يمكنني فعله؛ كي أرى الأرقام على ورق اللعب كما هي، وأغلقْ هذا المصراع بأقصى سرعة لديك، وإلا أعتقد أن الجعة ستصبح أسوأ جعة على الإطلاق، بسبب هذا الرعد الليلي.. إلعبوا! سبعة شلنات وخمسة بنسات.. مررهم لي يا إسحاق ".
قال الرجل العجوز مرةً أخرى هامسًا، وقد ازدادت حماسته المتقدة، حينما سمع رنين النقود على طاولة اللعب: " أتسمعين يا نيل! هل تسمعينهم؟ ".
ارتفع صوت حاد، في نبرة كشفت عن امتعاضه الشديد، بينما دوى صوت الرعد في الأفق: " لم أرَ عاصفة رعدية كهذه، منذ تلك الليلة التي فاز فيها (لوك ويزرس) ثلاث عشرة مرة، كاسرًا جميع الحدود. لقد قلنا جميعًا إنه كان لديه حظ أبالسة، بما أنها ليلة شبيهة بتلك الليالي، التي يتبين فيها أن الشيطان حر طليق ومشغول بأعماله، أحسب أنه واقف على كتفيه الآن، ينظر إلينا، إذا كان بإمكان أحدكم أن يراه ".

ثم عاد الصوت الأجش مرة أخرى قائلًا: " آه! بمناسبة الحديث عن انتصارات لوك خلال السنوات الأخيرة العصيبة منها أو الحميدة، أتذكر ذلك الوقت الذي كان فيه الأقل بختًا والأسوأ حظًّا بين الرجال. لم تصادفه أي مرة يمسك فيها بزهر النرد أو ببطاقة لعب، إلا وقعس وسُلب منه كل شيء تمامًا ".
قال العجوز هامسًا ثانية: " هل تسمعين ما يقوله يا نيل؟ هل تسمعين ذلك يا نيل؟ ".
كانت الطفلة مشدوهة تمامًا من تغير مظهره المفاجئ. فقد تدفق الدم في وجهه، وانعكست على ملامحه أمارات التلهف، جحظت عيناه في توتر، صكت أسنانه، أصبحت أنفاسه قصيرةً وصوت صفيرها غليظًا، أما يده المتوكئة على ذراعها فارتعدت في عنف، لدرجة أن ذراعها اهتزت تحت قبضته.
تمتم العجوز ناظرًا إلى الأعلى: " أشهد على أن هذا ما قلته دائمًا، وما عرفته، وما حلمت به، وما شعرت أنه الحقيقة، لذلك يجب أن يتحقق في الحال! كم لدينا من نقود يا نيل؟ تعالي إلى هنا! لقد رأيت معك نقودًا بالأمس. قولي لي ولا تقفي صامتةً هكذا. كم لدينا من نقود؟ أعطيها لي فورًا ".
قالت الطفلة مذعورة: " لا، لا! دعني أحتفظ بها. دعنا نرحل بعيدًا عن هنا. لا تكترث لهطول الأمطار، دعنا نذهب من هنا من فضلك ".
قال الرجل العجوز بشراسة: " قلت لكِ أعطيني المال فورًا.. صه صه! لا لا! لا تبكي يا نيل.. أنا لا أقصد أن أتحدث معكِ بحدة يا عزيزتي! لقد أسأت القول، إنني ظلمتكِ بالفعل، لكنني سأصحح ما فعلت.. ثقي في أن ما سأفعله من أجل مصلحتنا يا نيل. قولي لي فقط أين المال؟ ".
قالت الطفلة: " لن تأخذها! من فضلك لا تأخذها يا جدي العزيز.. أحتفظ بها، أو
إن كان الأمر من أجل مصلحتنا فعلًا كما قلت، دعني أحتفظ بها، أو حتى أرميها بعيدًا، فضلًا عن أن تأخذها الآن لهذا السبب.. دعنا فقط نذهب من هنا.. دعنا نذهب من هنا من فضلك يا جدي ".
عاد العجوز يقول: " قلت لكِ أعطيني المال يا نيل. يجب أن أحصل عليه في الحال. هيا! نعم.. هذه هي عزيزتي نيل. سأثبت لكِ أنني على حق في يوم من الأيام يا طفلتي. سأثبت لك أنني على حق، لا داعيَ للخوف يا عزيزتي! ".
أخرجت نيل محفظة صغيرة من جيبها، سرعان ما تقدم نحوها، وانتزع المال بنفاد صبر، يشبه النبرة التي تحدث بها، ثم شق طريقه من فوره إلى خلف اللوح. لقد كان من المستحيل كبح جماحه، على الرغم
من أن الطفلة المرتعدة تبعته.
وضع مالك المنزل مصباحًا على الطاولة، ومن ثم انضم إليهم، بعد أن أسدل الستار على النافذة. كان المتحدثان اللذان سمعت صوتيهما رجلين، لديهما رزمة من بطاقات اللعب، وبينهما عملات نقدية، بينما تم تسجيل نتائج الجولات التي لعبوها بالطباشير على اللوح نفسه. كان الرجل صاحب الصوت الأجش، رجلًا في منتصف العمر، قوي البنية، بدينًا، له شارب كبير أسود، ووجنتان عريضتان، وفم كبير غليظ، ورقبة ضخمة، كانت ظاهرة تمامًا لأن ياقة قميصه كانت مشدودة فقط بمنديل أحمر، حُلَّت عقدته. كان يرتدي قبعة ذات لون بني داكن، وإلى جانبه عصا

سميكة. أما الرجل الآخر، الذي ناداه رفيقه (إسحاق)، فقد كان ذا بنية نحيلة جدًا، أحدبَ، له أكتاف عالية، ووجه قبيح، وعينان قد أصابهما الحول، كانت لديه أكثر النظرات بغضًا وشرًا.
قال إسحاق وهو ينظر حوله: " والآن قد أتى نحونا رجل عجوز.. هل تعرف أحدنا من الأساس كي تدخل هكذا؟ إنه مكان خاص يا سيدي ".
قال الرجل العجوز: " آمل أن وجودي لن يشكل إزعاجًا ".
قال الآخر، مقاطعًا حديثه: " لكن يـ.. أحسب أن هذا هو الإزعاج يا سيدي؛ عندما تتطفل على اثنين من السادة، جالسين بمفردهما، يعتبر هذا إزعاجًا يا سيدي ".
قال الرجل العجوز، وهو ينظر في اضطراب إلى بطاقات اللعب: " لم أنوِ أبدًا أن أزعجكما، أو أن أقطع ما كنتما تفعلانه. لقد اعتقدت أن...".
تمتم الآخر: " ليس لديك أي حق كي تعتقد أي شيء من الأساس يا سيدي. أي سخف من الممكن أن يعتقده رجل في عمرك أيها العجوز؟ ".
قال الرجل ذو البنية القوية، رافعًا عينيه عن بطاقات اللعب لأول مرة: " لا لا وجود للتنمر هنا يا صديقي.. ألا يمكنك السماح له بإكمال حديثه؟ ".
كان مالك المنزل طوال ذلك الوقت صامتًا، لم يتفوه بأي كلمة، بدا أنه قرَّر أن يظل محايدًا؛ إلى أن يعرف أي جانب سيدعمه الرجل قوي البنية، كي يتخذ نفس الجانب، لذلك قرر أن يخرج عن صمته أخيرًا وقال: " آه! مثلما قال تمامًا.. ألا يمكنك السماح له بإكمال حديثه يا إسحاق ليست؟ ".
سخر إسحاق من حديث مالك النزل، فقال بصوت صاخب، مقلدًا قدر استطاعته النبرة التي تحدث بها: " ألا يمكنك السماح له بإكمال حديثه يا إسحاق ليست.. بلى، يمكنني السماح له بإكمال حديثه يا جيمي جروفز ".
قال مالك المنزل: " حسنًا! فلتدعه إذنْ.. هل ستدعه؟ ".
بدت نظرة أعين السيد ليست الحولاء نذيرة بإطالة الجدال، بينما كان رفيقه ينظر نظرة حادة إلى الرجل العجوز، واضعًا حدًا لجدالهما في الوقت المناسب.
قال، وقد اعتلت عينيه نظرة ماكرة: " ومن يعرف! أليس من المحتمل أن يكون الرجل العجوز قد أتى إلينا، كي يطلب منا بكل تحضر أن ينال شرف اللعب معنا! ".
صاح العجوز من فوره: " نعم نعم.. هذا ما قصدته تمامًا، وأردت قوله فعلًا.. إنني أريد اللعب معكم الآن! ".
قال الرجل الآخر: " مثلما توقعت بالضبط! حسنًا مَن كان يعرف حقًا.. لكن الرجل العجوز يدرك بالتأكيد اعتراضنا على اللعب الودي، بكل تحضُّر أريد أن أحيطك علمًا بأننا نلعب من أجل المال.. أتفهم ذلك؟ ".
جاءت إستجابة الرجل العجوز في صورة رد فعل فقط، فهزَّ المحفظة الصغيرة بيد متحمسة، وألقى بها على الطاولة، وأخذ يجمع بطاقات اللعب كما البخيل حين يمسك ذهبًا.
قال إسحاق: " أوه! في الواقع.. إذا كان هذا ما قصده الرجل العجوز النبيل منذ البداية، فأنا أستميح الرجل العجوز النبيل عذرًا. هل هذه هي محفظتك أيها الرجل العجوز النبيل؟ إنها محفظة صغيرة جدًا.. ". ثم أضاف قائلًا، بينما أمسكها في يده، ملقيًا بها في الهواء، ثم إلتقطها مرة

أخرى ببراعة متناهية: " إنها صغيرة، وخفيفة أيضًا.. لكنها على أي حال تكفي لتسلية رجل عجوز نبيل لمدة نصف ساعة أو ما يقرب من ذلك ".
قال الرجل ذو البنية القوية: " حسنًا! سنلعب جولة رباعية، وسينضم إليَّ جروفز.. هيا تعال يا جيمي ".
اقترب مالك المنزل من الطاولة دون تردد وعلى سجيته، بدا كأنه معتاد على مثل تلك الحفلات الصغيرة، اتخذ مقعده على الفور. أما الطفلة فقد اقتربت من جدها وجذبته نحوها، وطلبت منه بنبرة دلت على معاناتها الفائقة، أن يذهبا بعيدًا.
قالت الطفلة: " هيا دعنا نذهب من هنا، وربما نصبح سعداء حقًّا ".
رد عليها العجوز على عجل: " سنصبح سعداء بالتأكيد، دعيني أذهب فقط يا نيل. إن هذه هي سعادتي يا نيل، إن سعادتي تتمثل في الزهر والبطاقات. إن المكاسب الصغيرة ستؤدي حتمًا مع الوقت إلى المكاسب الوفيرة. أعرف أنني لن أكسب قدرًا كبيرًا هنا، لكن المكسب الوفير كما قلت سيأتي مع الوقت. حتمًا سيفعل، لكن يجب عليَّ أن أكسب حصتي أولًا. إن كل هذا من أجلك يا عزيزتي ".
صاحت الطفلة: " فلتساعدني يا رب! أوه! ما هذا الحظ العسر الذي جاء بنا إلى هنا؟ ".
قال العجوز، واضعًا يده على فمها من فوره: " صه! إننا لا نتحدث هكذا عن الحظ. لا يمكننا إلقاء اللوم أبدًا على الحظ. لا يجب أن نوبخ الحظ مطلقًا؛ وإلا سينبذنا إلى الأبد. إنني أعرف ذلك يا نيل، لقد اكتشفته مع مرور الوقت ".
قال الرجل ذو البنية القوية: " هيا يا سيدي! إذا كنت لن تأتي وتلعب بنفسك، فلتعطنا البطاقات إذنْ.. هل سمعت؟ ".
صاح الرجل العجوز: " لا إنني قادم بنفسي "، ثم عاد يهمس: " هيا يا نيل اجلسي يا عزيزتي، اجلسي وانظري كيف سألعب، كوني مطيعة، إن كل هذا من أجلكِ يا عزيزتي، إن كل بنس هو من أجلكِ يا عزيزتي.. كل بنس. لن أخبرهم بذلك، بالطبع لا لن أفعل هذا، وإلا لن يلعبوا معي. إنني حقًّا خائف؛ لأنهم لن يقدموا مثل هذه الفرصة ثانية. انظري إليهم يا عزيزتي، انظري إليهم وانظري إلى طريقتي في اللعب، من يشكك في أمر مكسبنا! ".
قال إسحاق، متظاهرًا بأنه يهم بالوقوف؛ ليبتعد عن طاولة اللعب: " أعتقد أن الرجل العجوز النبيل لديه أمر أفضل، ولن يلعب معنا.. أنا آسف حقًّا على ذعره.. فلا شيء يستحق المجازفة.. لا شيء يستحق التراجع.. لكني أعتقد أن الرجل العجوز النبيل يعرف ما هو الأفضل ".
قال العجوز: " لا لماذا! إنني جاهز، لكنني بطيء فقط.. فلا أحد يشعر بالتلهف الشديد كي نبدأ أكثر مني ".
بينما كان يتكلم، سحب كرسيًّا إلى الطاولة، ومن ثمَّ اقترب منه الثلاثة الآخرون، وبدأت اللعبة.
جلست الطفلة على مقربة منهم، بينما كانت تشاهد تقدم جدها بعقل مضطرب.
بغض النظر عن أي حظ سيلازمه، سواء أكان جيدًا أم سيئًا، والشغف المتهور الذي سيطر على جدها تمامًا، فقد كان المكسب أو الخسارة بالنسبة لها على حد سواء.
ظل جالسًا في مكانه، يهلل من أجل الانتصارات البسيطة، ويتذمر وقت الخسارة، لكن الروح الحماسية الجامحة، هيمنت عليه بالكلية، يجلس دون استقرار أو هدوء، يختبر مشاعر كثيرة في لحظات قليلة، كان مفرطًا في حماسه واضطرابه، متلهفًا إلى حد كبير، نهمًا جدًّا إلى المكاسب

الزهيدة، أما الطفلة فظلت تراقبه في صمت وحسرة، فما شعرت به خلال ذلك الوقت يبين أنها إذا رأته ميتًا قد يكون أهون عليها من أن تراه في خضم هذا الموقف. ومع ذلك، كانت براءتها وحدها المتسببة في تعذيبها، أما هو، فلم يكن لديه أي فكرة عما تخوضه، يقامر في تعطش وحشي، لم يسبق أن شعر به أي مقامر نهم حتى؛ لم تكن فكرة أنانية واحدة فقط هي ما تسيطر عليه!

على العكس من ذلك تمامًا، كان الثلاثة الآخرون - تبين من طريقة لعبهم أنهم مخضرمون تمامًا - جالسين في رزانة، على الرغم من أنهم كانوا يصبون جل تركيزهم على اللعبة، بدوا هادئين مسالمين، كما لو أن جميع الفضائل تمركزت في صدورهم. على الرغم من التشتت اللحظي بين الحين والآخر، فيرفع أحدهم عينيه عن الورق؛ لينظر إلى الآخر مبتسمًا، أو نافخًا تجاه شعلة الشمعة الخافتة، أو يلقي نظرة على وميض البرق الذي يتكشف من النافذة المفتوحة والستارة المرفرفة، أو يستمع في انتباه أكثر من الآخرين إلى قصف الرعد، في حالة متكررة من نفاد الصبر، كما لو كان قد أخرجه من مزاج اللعبة، كانوا جميعًا جالسين في أماكنهم، غير مكترثين بأي شيء غير بطاقات اللعب، كأنهم فلاسفة عظماء، يتبادلون الأدوار واللعب دون إظهار أي عاطفة أو تحمس، بدوا متيبسي الملامح كما لو أنهم مصنوعون من حجارة.

استمرت العاصفة لمدة ثلاث ساعات كاملة دون انقطاع، بعدها صار وميض البرق خافتًا غير متواصل، وأمسى هزيم الرعد الذي كان يزلزل السماء فوق رؤوسهم بعيدًا، لكن اللعبة لا تزال مستمرة، والطفلة المنكوبة باتت في طي النسيان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثلاثون

ظلوا على الحال نفسه، إلى أن انتهت اللعبة أخيرًا، بإعلان أن السيد إسحاق ليس هو الرابح الوحيد، تحمَّل مات ومالك النزل خسارتيهما بضبط نفس قوي وباحترافية قصوى. أما إسحاق، فقد جمع مكاسبه في جيبه في هيئة الرجل الواثق من فوزه، فلم يكن مندهشًا أو حتى مبتهجًا.
أُلقيت محفظة نيل الصغيرة على طاولة اللعب، بجوار الرجل العجوز، بينما قام اللاعبون الآخرون عن الطاولة، ظل هو شاردًا، يجلس إلى الطاولة، مهزومًا مدحورًا منكس الرأس، ينظر إلى بطاقات اللعب، يتفحصها، يقلبها يمينًا ويسارًا، يلعب الأدوار كلها، يتعامل كما لو أنهم ما زالوا جالسين معه، يمرر البطاقات كما لو كانت اللعبة ما زالت قائمة. لم يُنتشل من هذا الاستحواذ، ويستوعب ما مر به، حتى اقتربت منه الطفلة، وربتت بيدها على كتفه، وأخبرته أن الوقت قد قارب على منتصف الليل.
أطاح بورق اللعب على الطاولة، وقال وهو يشير إلى البطاقات المنثورة: " إنها لعنة الفقر يا نيل.. إنها لعنة الفقر. لو كان بإمكاني فقط أن أستمر لوقت أطول، وقت أطول بقليل، لكان الحظ حالفني. نعم! إن الأمر واضح تمامًا، إذا أكملنا على نفس الوتيرة، لكان الحظ حالفني.. انظري هنا.. انظري هناك.. انظري هنا مرة أخرى.. انظري يا نيل ".
حثته الطفلة قائلة: " من فضلك نحِّها جانبًا.. حاول أن تنساها ".
قال مرددًا: " أحاول أن أنساها! ". ثم رفع وجهه العابس، ناظرًا إليها بعينين حائرتين: " كيف سأصبح غنيًّا إذا نسيتها؟ ".
لم تستطع الطفلة أن تنبس ببنت شفة، هزت رأسها فقط.
قال الرجل العجوز، وهو يلامس وجنتها: " لا لا يا نيل! لا يجب نسيانها أبدًا. يجب أن نعوض الخسارة، ونعود إليها مجددًا في القريب العاجل. التحلي بالصبر.. الصبر فقط، وأعدكِ أن كل شيء سيكون على ما يرام.. أعدك يا عزيزتي. خسارة اليوم سيعوضها مكسب الغد. ولا يمكننا كسب أي شيء دون مجهود وحرص تام.. لا يمكننا كسب أي شيء. هيا بنا، أنا مستعد ".
قال السيد جروفز، بينما كان يدخن مع أصدقائه: " هل تعرف كم الوقت؟ إنها الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل ".
استطرد صاحب البنية القوية قائلًا: " وهي ليلة ممطرة أيضًا ".
قال السيد جروفز، نقلًا عن لوحته الإعلانية: " الجندي الباسل، في ضيافة السيد جيمس جروفز. أسِرَّة جيدة. ترفيه خاص للنبيل وللفقير ".
قالت الطفلة المنكوبة: " إن الوقت متأخر حقًّا. كم أتمنى لو كنا قد ذهبنا مبكرًا. ما الذي سيحسبونه بشأننا! ستكون الثانية بعد منتصف الليل حين وصولنا.. قل لي يا سيدي، كم ستكون التكلفة، إذا قضينا
هذه الليلة هنا؟ ".
رد عليها الجندي الباسل: " إن تكلفة سريرين جيدين شلن وستة بنسات، وتكلفة العشاء والجعة شلن واحد، إذنْ سيكون المجموع شلنين وستة بنسات ".

كان ولا يزال لدى نيل العملة الذهبية التي حاكتها في فستانها، الآن! حينما فكرت في الساعة المتأخرة من الليل، وفي طبيعة نوم السيدة جارلي، وتخيلت حالة الفزع التي سيتسببون بها عندما يوقظون تلك السيدة الطيبة بفعل طرقات الباب في منتصف الليل، وعلى الناحية الأخرى، فكرت في أنهما إذا قضيا ليلتهما في هذا المكان، ثم استيقظا في الصباح الباكر، فمن الممكن أن يعودا قبل أن تستيقظ، وحينها يمكن لها أن تتخذ من العاصفة العاتية التي هبت ليلًا واحتجزتهما خارجًا حجة واعتذارًا جيدًا عن غيابهما.. لذلك قررت البقاء، بعد الكثير من التردد. تنحت بجدها جانبًا، وأخبرته أنه لا يزال معها ما يكفي، لتدفع نفقة إقامتهما، وأنه يجب عليهما قضاء ليلتهما هناك.
بناء على ما تم، نفخ السيد جروفز دخان غليونه، وألقى الرماد بعناية تامة في وعاء وُضِع في زاوية المدفأة، ومن ثمَّ أحضر الجبن والجعة، مرددًا الكثير من الثناء على شرف وجودهما، دعا ضيفيه الآخرين، واستحثهما على أن يتصرفا كما لو كانا في منزلهما. أكلت نيل وجدها القدر القليل، فقد كانا كل على حدة مشغولًا بأفكاره، أما السيدان الآخران، فقد كانت الجعة بالنسبة لهما خالية من النكهة، وضعيفة التأثير، لذلك حاولا تسليه أنفسهما بتدخين التبغ وتجرع المشروبات الروحية الأخرى.
ولأنهما سيرحلان في الصباح الباكر، أصرت الطفلة في حرص شديد على أن تدفع مقابل استضافتهما، قبل أن يذهبا إلى الفراش. لكنها شعرت بحتمية إخفاء كنزها الصغير عن جدها، وأنه يجب عليها أن تغير العملة الذهبية، وأن تخرجها من مخبأها في سرية تامة، لذلك انتهزت فرصة خروج مالك المنزل، فتبعته، وقدمت له العملة الذهبية في خمارة المنزل الصغيرة.
قالت الطفلة: " هل من الممكن أن تعطيني الباقي هنا من فضلك يا سيدي؟ ".
كان من الواضح أن الدهشة والعجب أصابا السيد جيمس جروفز، فبات ينظر إلى الطفلة، ثم إلى العملة النقدية، ثم يطرق عليها؛ ليسمع رنينها، ثم يعاود النظر إلى الطفلة ثانية، ثم إلى العملة الذهبية مرة أخرى، وقد بدت عليه أمارات الاستنكار، كأن عقله يحثه على الإستفسار، من أين أتت بها. لكن على أي حال، كانت العملة أصلية، وسيتم تغييرها في منزله، لذلك فكر مثل أي مالك نزل حكيم، أن ملابسات الأمر ليست من شأنه الخاص، وما يهمه هو حصوله على المال. لذلك، حسب تكلفة إقامتهما، وأعطاها الباقي. وبينما كانت الطفلة عائدة إلى الغرفة التي قضت فيها المساء، خُيِّل إليها أنها رأت أحدًا ما كان يقف عند الباب. لم يكن يفصل بين ذلك الباب والمكان الذي غيرت فيه العملة الذهبية غير ممر طويل مظلم، على الرغم من أنها كانت متأكدة تمام التأكد من عدم دخول أو خروج أي شخص أثناء وقوفها مع مالك النزل، ألح عليها عقلها بأنه قد رأت أحدهم.
لكن مَن الذي رآها؟ حينما عادت مرة أخرى إلى الغرفة، وجدتهم مثلما تركتهم تمامًا، لم يبرح أحد موضعه، فلا يزال السيد قوي البنية ممددًا على كرسيين، يسند رأسه على يده، أما أحول العينين فقد كان جالسًا في وضع مماثل على الجانب الآخر من الطاولة، أما جدها، فقد كان جالسًا بينهما، ينظر باهتمام إلى الفائز في إعجاب نهم، منصتًا إليه كما لو كان ساميًا رفيع المقام. أمست نيل في حيرة تامة من أمرها لبعض الوقت، وباتت تنظر حولها؛ تتبين ما إذا كان هناك أشخاص آخرون. لكنها لم تجد أي أحد آخر. سألت جدها هامسةً؛ تستفسر منه إذا ما كان أي أحد قد غادر الغرفة أثناء غيابها، فقال لها: " لا! لم يغادر أي أحد ".

على الرغم من أنها اعتقدت في النهاية أن ما رأته هو محض خيال، كان من الغريب بالنسبة لها أن ترى خيالًا بذلك الوضوح، دون أن يكون عقلها مشغولًا بهذه الفكرة. باتت متعجبة حائرة البال تفكر في الأمر، حتى أتت فتاة لتقتادها إلى سريرها.
حينما همت نيل بالمغادرة، غادر الرجل العجوز صحبته الأخرى في الوقت نفسه، وصعدا الدرج معًا. كان منزلًا كبيرًا معرشًا، به العديد من الأروقة المظلمة، والأدراج العريضة الموحشة، التي أضفت عليها أضواء الشموع مظهرًا أكثر كآبة. اصطحبت جدها إلى غرفته، وتركته هناك، ثم اتبعت مرشدتها إلى غرفة أخرى، أُعدت لها، كانت موجودة في آخر الرواق، ووصلت إليها بعد بضع خطوات واهنة. بقيت الفتاة إلى جانبها؛ تحدثها عن مآسيها. أخبرتها عن عدم وجود مكان جيد لها، وعن الأجر البخس، وعن مشاق العمل التي تواجهها. ثم أخبرتها أنها سوف ترحل بعد أسبوعين، ثم افترضت أنه ليس بإمكان الطفلة أن ترشِّح لها أمرًا آخر! بدلًا من ذلك؛ فقد كانت تخشى أن يكون من الصعب على أي شخص آخر التأقلم في هذا البيت؛ لما له من نظم مختلفة، مثل كثرة لعب الورق فيه وما إلى ذلك، لقد كانت مخطئة تمامًا حينما ظنت أن الناس الذين يأتون إلى هذا المكان غالبًا ما يكونوا هادئين وأمناء مثلما يفترض أن يكونوا، لكنها لم تكن تعرف سبب اعتقادها بأي حال من الأحوال. أخبرتها عن تلميحات حمقاء لرفض حبيبها، وتهديده لها بأنه سينضم إلى الجيش.. وبعد حين وعدتها أنها ستطرق الباب في الصباح الباكر.. ثم تمنت لها: " ليلة سعيدة ".
لم تشعر الطفلة بالراحة، عندما باتت بمفردها. لم تستطع منع عقلها من التفكير في شأن ذلك الخيال الذي رأته بالأسفل وهو ينسل مبتعدًا، وخصوصًا أن ما أخبرتها به الفتاة، لم يطمئنها أبدًا، بل فاقم من قلقها. إلى جانب أن مظهر الرجال مريب للغاية. ينم عن أنهم يحصلون على قوت يومهم عن طريق السرقة أو قتل المسافرين واختلاس أموالهم مثلًا.. فمَن يستطيع أن يجزم بذلك؟
حينما خلدت إلى النوم، حاولت أن تنحي مخاوفها جانبًا، وألا تفكر فيها ولو لبعض الوقت، لكن ما تعرضت له طوال الليل كان كافيًا بأن يلقي بالاضطراب الكلي في نفسها. باتت تفكر في الشغف النهم الذي ملأ صدر جدها تجاه أوراق اللعب ثانية، فمن يعرف أي وهم رآه جنةً، فانساق وراءه. باتت تفكر في أي مشاكل قد سببها غيابهما بالفعل! ربما خرج أشخاص بالفعل للبحث عنهما، حتى في ذلك الوقت. باتت تفكر فيما سوف يحدث حينما يعودان في الصباح، هل ستتم مسامحتهما والموافقة على بقائهما ثانية أم لا! لماذا أتيا إلى هذا المكان الغريب من البداية؟ كان الأفضل لهما لو أنهما مضيا في طريقهما عائدين تحت أسوأ الظروف أو حتى أوخم العقبات!
أخيرًا! بعد صراع دام طويلًا مع أفكارها، انتشلها النوم تدريجيًّا، لكنه كان نومًا مضطربًا، غير مريح على الإطلاق، مليئًا بأحلام السقوط من مبانٍ عالية، فتستيقظ فزعة، ويتسارع خفقان قلبها، لم يكن في وسعها أي شيء غير أن ترضخ للنوم ثانية.. ثم.. ثم ماذا! إن الخيال الذي رأته موجود معها في الغرفة.
نعم صاحب هذا الخيال، كان موجودًا بالفعل في غرفتها. كانت نيل قد أزاحت الستار، لترى ضوء الفجر، لكنها لم تكن تدرك أنها أزاحته لتتبين وجود ذلك الشخص، كان هناك ما بين قائم سريرها والباب المظلم، رأته ينسل في خفة، لا يقيم ظهره، يتلمس طريقه بيديه في صمت تام، يدور حول

سريرها. حينها خارت قوة نيل بالكامل، لم تملك القدرة على الصراخ طلبًا للمساعدة، أو حتى الحركة، بقيت مستلقية في مكانها تترقب في رهبة يرتعد لها قلبها.
اقترب الشخص من سريرها في صمت وخفة، لدرجة أنها أحست بأنفاسه على مقربة من وسادتها، انكمشت على نفسها؛ خشية أن تلمس تلك اليد الحائرة وجهها. رأته يوجه رأسه صوب النافذة، لكن ذلك لم يستغرق ثوانيَ، حتى إلتفتَ نحوها مجددًا.
على الرغم من أن الظلام كان مهيمنًا على الغرفة، تمكنت من رؤية رأسه حينما إلتفتت لتنظر إليها، ساعتها خالجها شعور أنها تعرف شكل العينين والأذنين، لكنها مكثت كما هي، بلا حراك، ظل موجهًا رأسه نحوها، لكن يديه لم تبقيا ثابتتين، باتتا تفتشان وتبحثان عن شيء، لا تعرف ما هو، حتى سمعت صوت رنين النقود.
سُحبت اليد في خفة ثانيةً كما كانت من قبل، ثم انشغلت في إعادة الملابس التي كانت أخرجتها من جانب السرير إلى مكانها، حينما انتهت، جثا صاحب الخيال على ركبتيه، مستندًا على يديه، وخرج حبوًا. كم كان بطيئًا جدًّا، وحركته ثقيلة، لكنها لم تكن تراه، تبين لها من سماعها له، وهو يحبو على الأرض! وصل أخيرًا إلى الباب، ووقف على رجليه مرة أخرى، وأصبح صوت وقع قدميه على الأرضية عاليًا، حتى رحل تمامًا عن غرفتها.
نهضت الطفلة من الفراش من فورها، كرد فعل تلقائي دون انتباه منها أو وعي بما تفعله، أرادت أن تنتزع نفسها من الرعب الذي جثم عليها، قاصدةً ألا تكون وحدها في الغرفة - أرادت أن تكون إلى جوار أي أحد، وألا تكون بمفردها البتة - متصورة أنها سوف تستعيد قدرتها على الكلام أو الصراخ ثانيةً فور وجودها مع أي أحد، نهضت من فراشها دون إدراك أو وعي تام حتى خرجت من باب الغرفة.
كان وقع أقدام صاحب الظل المروع قد دوى ثانية، لكن صوته كان خافتًا، لم تستطع تجاوزه، أو ربما مرت إلى جانبه بالفعل، لكنها لم تلحظه بسبب الظلام، تجمد الدم في عروقها، وتبلد فكرها تمامًا. ظل صاحب الظل واقفًا لا يسمع له صوت، مثلها تمامًا، لم تكن جرأة منها، بل ضرورة حتمية تلزمها بالعودة إلى غرفتها ثانية، فضلًا عن مضيها قدمًا.
اشتد المطر، وتسارع انهمار قطراته، مسببًا ضجة عالية على سطح المنزل. أما في داخله، فكانت الحشرات الصيفية، التي هربت من الطقس، تتطير في كل مكان على نحو أعمى، تتخبط في الجدران وفي السقف، تكسر حاجز الصمت بحترشتها، تحرك صاحب الخيال مرة أخرى، فتحركت الطفلة كرد فعل غير إرادي، نحو غرفة جدها، معتقدة أنها ستكون آمنة.
لكن صاحب الظل حينها كان ينسل عبر الرواق في صمت تام، حتى وصل أخيرًا إلى الباب الذي تاقت إليه بشدة، وقد انتابها ابتهاج مفاجئ، حينما تخيلت أن الأمر سينتهي فور وصولها إلى الباب، حيث تُلقي بنفسها داخل الغرفة، ومن ثمَّ تغلق الباب خلفها في سرعة شديدة؛ لكن صوت وقع قدميه قد توقف مرة أخرى.
خطرت فكرة طارئة على بالها في لحظة، فماذا لو أن صاحب ذاك الخيال قد دخل بالفعل إلى غرفة جدها، ماذا سيكون وقع ذلك على حياة جدها العجوز! أمست الطفلة في حيرة من أمرها تشعر بالغثيان وبأنه سيغشى عليها. لقد حدث ما كانت تخشاه تمامًا؛ لم تمر لحظات، حتى رأت ضوءًا ينساب من داخل الغرفة. تبينت أن صاحب الظل قد أمسى متواجدًا في الغرفة نفسها، أما

هي فباتت لا تعرف كيف لها أن تتصرف، ثبتت مكانها، لا تحرك رمشًا، فاقدة القدرة على كل شيء تمامًا، لا يسعها غير الوقوف منتظرة.. لا تعرف ماذا سيحل بها.

كان الباب مفتوحًا نوعًا ما، لا تدري مطلقًا، ما الذي كانت تعتزم فعله، لا تعرف ما إذا كانت أرادت معرفته، أم كانت تحاول قتل نفسها، لكنها على أي حال، تقدمت إلى الأمام، لتنظر؛ حتى تتبين من هو!

لم يكن أحد مستلقيًا على السرير، فقد كان مرتبًا وشاغرًا. كان الرجل العجوز هو الكائن الوحيد الموجود في الغرفة. كان جالسًا على الطاولة، لكن ملامحه قد تبدلت بالكلية، فقد هيمن عليها الجوع والجشع، أمسى وجهه شاحبًا وعيناه جاحظتين، يشعان شررًا.. منهمكًا في عد النقود التي سرقتها يداه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الحادي والثلاثون

انسحبت الطفلة متقهقرة إلى الوراء بخطوات ثقالٍ أكثر تعثرًا من تلك التي اقتربت بها من غرفته، تتخبط في طريقها إلى غرفتها، لم يكن الخوف الذي شعرت به مؤخرًا شيئًا يُذكر، مقارنة بالفاجعة التي استحوذت على كيانها كله الآن. لا يستطيع لص، أو غريب، أو مضيف تآمر على سرقة ضيوفه، أو أي أحد من هؤلاء الذين ينسلون ليلًا إلى أسرة الآخرين لقتلهم أثناء نومهم، أو أي متجول ليلي، مهما بلغت قسوته أو شروره، أن يضرم في قلبها ذلك الفزع المتأجج، الذي تسبب فيه زائرها الخفي الصامت. لم يكن هناك ما هو أكثر بشاعة من أن تراه في غرفتها، وترى رأسه ذا الشَّعر الأبيض يحوم في أركانها كأنها شبح، ينسل مثل اللصوص، مفترضًا أنها هادئة البال، يغشاها النوم سريعًا، فيتقدم ويختلس غنيمته، يحملها في انتصار مفزع، لقد بلغ ما أبصرته عيناها من القبح أشده، كان شنيعًا أكثر من أي فكرة شنيعة خطرت على بالها. ماذا لو عاد مرة أخرى.. لا يوجد مزلاج أو حتى قفل على الباب.. ماذا لو صورت له نفسه أنه قد خلّف بعض النقود وراءه..
ماذا لو عاد مرةً أخرى للبحث عن المزيد من النقود.. تملكت تلك الأفكار المرعبة عقلها، وأحاطت بها رهبة غامضة حول فكرة رجوعه مرة أخرى، لكن بوقع أقدام غير مسموع، يلتفت إلى سريرها، موجهًا رأسه نحوها، فيجد سريرها شاغرًا، بينما هي منكمشة على نفسها بالقرب من قدمه، تتجنب ملامسته لها، رغم أن فعلها لن يكون مجديًا. قبعت في مكانها، تصغي إلى أي صوت يتردد حولها، سمعت صوت خطوات أقدام على الدرج، والآن فتح باب غرفتها ببطء. لم يكن هذا إلا محض خيالها، على الرغم من ذلك، كان خيالها أكثر رأفةً عليها من رعب الواقع، لا على العكس تمامًا، لم يكن كذلك، كان خيالها أكثر سوءًا؛ لأن ما يحدث في الواقع، تأتي نهايته دائمًا، لكن ما يدور في خيالها، لا نهاية له، يتوارد ولا يرحل، ولا تُكتب له نهاية.
كان الخوف الذي أحاط بها مبهمًا وغريبًا، لا تعرف ماهيته، لم تكن خائفة من جدها العجوز العزيز، فإن حبه المؤكد هو سبب ما تصارعه في عقلها، لكنها كانت خائفة من ذلك الرجل الذي رأته في ليلتها هذه، مَن انتهز الفرصة وخطط لها، وتسلل إلى غرفتها، وسرق، ثم ذهب ليعد النقود التي سرقها في جشع بيِّن تحت ضوء خافت، بدا كأنه مخلوق آخر، متمثل في شكله، أو قد انسل منه، عازمًا على أن يلحق بصورته تشويهًا بشعًا، وما زاد من خوفها، أنه يشبهه تمامًا، واقترب منها مثلما يفعل جدها تمامًا. لم تملك في وسعها أي شيء غير أنها كانت تحاول بالكاد الربط بين رفيقها الودود - الحزينة لخسارته - وبين ذلك الرجل العجوز الذي يشبهه ولا يشبهه في الآن ذاته. لقد بكت لمجرد رؤيته هادئًا وحزينًا. فما أدعى سبب البكاء الآن!
مكثت الطفلة في مكانها، محتجزة داخل أفكارها، يلح عليها عقلها، بأفكار سوداوية، تزداد بؤسًا وكآبة مع مرور الوقت، لكنها شعرت أنها في حاجة ماسة لتسمع صوت الرجل العجوز، أو تسمع أنفاسه وإن كان نائمًا، ظنت أنها إذا فعلت ذلك سيكون فيه خلاصها، وستبعد بعض المخاوف التي شوهت صورته. نزلت الدرج، ومرت في الرواق مرة أخرى، وكان الباب لا يزال مواربًا، مثلما تركته تمامًا، والشمعة لا تزال مشتعلة، كما كانت من قبل.
تقدمت نيل ممسكة شمعتها الخاصة بيدها، على استعداد تام إذا ما وجدته مستيقظًا، أن تقول: إن الأرق لازمها فلم تستطع النوم وأتت إليه؛ كي ترى ما إذا كان مستيقظًا أم لا. حينما نظرت إلى

داخل الغرفة، رأته مستلقيًا على فراشه في هدوء تام، لذلك تشجعت على الدخول.
كان نائمًا، لا تعتلي وجهه أمارات التلهف، أو الجشع، أو القلق، أو حتى رغباته الوحشية، كان هادئًا مستكينًا مطمئنًا، كان نائمًا في سلام تام. لم يكن المقامر، ولم يكن الظل الذي اقتحم غرفتها ليلًا، لم يكن حتى الرجل الواهن، ذا الوجه الشاحب الذي تراه في نور الصباح، لقد كان صديقها القديم العزيز، صاحبها في سفرها، الذي لا يضمر أي أذى، خليلها الصالح، لقد كان جدها الطيب.
نظرت إلى ملامحه النائمة، ولم تعد خائفة، لكنها شعرت بحزن عميق، خيم على قلبها وأثقله، حتى وجدت نفسها تبكي.
قالت الطفلة، بينما انحنت في هدوء لتُقبِّل وجنة جدها النائم: " فليباركك الرب! بِتُ أعلم جيدًا الآن، السبب وراء أنهم سيبعدون أحدنا عن الآخر، إذا عثروا علينا، بت أعلم لماذا تتخفى من ضوء الشمس ونور الصباح، بت أعلم أنه ليس لديك أحد غيري كي يساعدك. فليباركنا الرب معًا! ".
بعد أن أشعلت شمعتها، رجعت في صمت تام مثلما جاءت، وجلست في غرفتها مرة أخرى، تنتظر انقشاع الليل، وانتهاء ما تبقى من تلك الليلة الطويلة المحزنة.
مع مرور الوقت، تضاءلت شعلة شمعتها، وغلبها النوم. سرعان ما ظهرت على مقربة من سريرها تلك الفتاة التي أوصتها بأن توقظها، وبالفعل استيقظت نيل، وبمجرد أن ارتدت ملابسها، استعدت لملاقاة جدها بالأسفل. لكنها قبل مغادرتها، تفحصت جيبها، ووجدت أن مالها كله قد أُخذ، ولم يتبقَّ منه غير ستة بنسات فقط.
كان جدها متأهبًا للرحيل، لم تمر لحظات، حتى كانا قد مضيا في طريقهما. وجدت الطفلة أنه كان يتجنب النظر إلى عينيها، وأنه يتوقع منها أن تخبره بخسارتها في أي لحظة. شعرت الطفلة أنه يجب عليها أن تخبره حقًّا، وإلا سيراوده الشك، ويستنتج الحقيقة.
قالت بصوت مرتجف، بعد أن مشيا ميلًا كاملًا في صمت: " يا جدي! هل تحسب أنهم في ذاك المنزل قد كانوا أناسًا أمناء؟ ".
رد عليها العجوز، وقد انتفض جسده: " لماذا؟ هل أحسبهم أناسًا أمناء.. نعم! على الأرجح.. فلقد لعبوا بأمانة ونزاهة واضحة ".
قالت نيل: " حسنًا يا جدي! سأخبرك لماذا سألت هذا السؤال. إنني فقدت هناك بعض المال في الليلة الماضية.. فقدته خارج غرفتي، أنا متأكدة من ذلك تمامًا. إلا إذا لم أكن فقدتها فعلًا، ويكون أحدٌ ما قد أخذها على سبيل المزاح معي.. المزاح فقط يا جدي العزيز؛ لأنني حينها سأضحك جدًّا، وسأبتهج حقًّا.. لكنني أعرف أنها...".
قال الرجل العجوز من فوره: " ومَن تظنين أنه أخذ المال بقصد المزاح؟ فمن يأخذون المال، يأخذونه من أجل الاحتفاظ به، وليس من أجل المزاح ".
قالت الطفلة، وقد فقدت آخر أمل كانت قد تشبثت به؛ بفعل سلوك العجوز معها، والمغزى الذي أدركته من حديثه: " حسنًا يا جدي! إذنْ لقد سُرق المال من غرفتي ".
قال العجوز: " أليس معكِ مال غيره يا نيل؟ ألم تحتفظي بمال غيره في مكان آخر؟ هل أُخذ كله؟ هل أُخذ مالك كله إلى آخر فارذنغ.. ولم يعد متبقيًا أي مال آخر؟ ".
أجابت الطفلة: " نعم! لم يعد لديَّ أي شيء ".

قال الرجل العجوز: " يجب أن نحصل على مال غيره، يجب أن تكسب مالًا غيره يا نيل، ندخره وتنفقه معًا يا نيل، يجب أن نحصل على المال بأي طريقة ممكنة. لا تكترثي بشأن الخسارة، ولا تخبري أحدًا عنها. ربما نسترده مرة أخرى. لا تسأليني كيف، لكننا ربما نكون قادرين حقًّا على استرداده مرة أخرى، بل كسب ما هو أكثر.. كوني حريصة فقط على ألا تخبري أحَدا، وإلا ربما تحدث مشكلة.. لقد أخذوا المال من غرفتك، حينما كنتِ نائمة يا عزيزتي.. ". ثم تابع قائلًا، لكن بنبرة متعاطفة، مختلفة تمامًا عن نبرته الماكرة التي كان يتحدث بها حتى تلك اللحظة: ".. مسكينة يا نيل، مسكينة يا صغيرتي نيل ".
نكست الطفلة رأسها، وأجهشت في البكاء دون إرادة منها. كانت متأكدة تمامًا أن تلك النبرة المتعاطفة الأخيرة، التي تحدث بها صادقة تمامًا. لم يكن إدراكها لما حدث لها بالأمر الهين وكان مدعاة للحزن.
قال الرجل العجوز: " لا تخبري أحدًا غيري بأي كلمة بخصوص هذا الأمر.. لا لا! حتى أنا، لا تتحدثي معي ثانية حول ذلك الموضوع ". ثم أضاف على عجل: " أحسب أنه ليس من الجيد الحديث عن الخسارة. إن كل الخسائر التي حدثت لنا في أي وقت مضى، لا تستحق دموع عينيك يا حبيبتي. إن المال يمكن استرداده، لكن الدموع لا يمكننا استردادها ثانية.. أليس كذلك يا عزيزتي؟ ".
قالت الطفلة، وهي تنظر إليه: " دع الدموع تذرف، سأبكي مرة واحدة الآن ولن أبكي ثانيةً إلى الأبد.. لن أذرف دمعة أخرى أبدًا، ولو أصبحت قيمة كل قرش ألف جنيه ".
لم يعد العجوز يعرف أي رد ينبغي عليه أن يقوله، لكن همهمات متهورة انبثقت من شفتيه مخاطبًا نفسه: " حسنًا حسنًا.. إنها لا تعرف شيئًا أكثر من ذلك، حري بي أن أكون ممتنًا لذلك ".
قالت الطفلة في صرامة شديدة: " لكن استمع إليَّ جيدًا.. هل ستستمع؟ ".
رد العجوز، ولا يزال لا يجرؤ على النظر إليها: " نعم نعم! بالتأكيد سأستمع إلى هذا الصوت العذب الرقيق. دائمًا ما يكون صوتك جميلًا بالنسبة لي. مثل صوت والدتك يا طفلتي المسكينة ".
قالت الطفلة: " دعني أقنعك بشيء.. نعم دعني أقنعك بشيء، لن يكون هناك المزيد من التفكير بشأن الربح أو الخسارة ثانية، ولن تقول سأجرب حظي؛ لأن حظنا سيكون مرتبطًا ببعضه، لذلك يجب علينا أن نسعى لتحقيق هدفنا معًا ".
ردد جدها: " نسعى لتحقيق هدفنا معًا! ". كان لا يزال لا ينظر إليها، وقد بدا أنه يتحدث إلى نفسه: " مَن الذي سيكرس نفسه للعبة؟ ".
أكملت الطفلة حديثها: " قل لي هل مر علينا وقت أسوأ من الوقت الحالي منذ أن نسيت ولعك بها، وسافرنا معًا؟ قل لي ألم نصبح سعداء دون منزل يأوينا، أكثر سعادة من أي وقت مضى كنا فيه في ذاك المنزل التعيس، حينما كنت مولعًا بذلك الشغف، أليس كذلك؟ ".
قال العجوز متمتمًا بالنبرة نفسها، التي تحدث بها إلى نفسه سابقًا: " إنها تقول الحقيقة.. لكنها يجب ألا تثير بداخلي أي مشاعر، لكنها تقول الحقيقة فعلًا، لا شك في ذلك ".
قالت نيل: " أريدك فقط أن تتذكر ما كنا عليه منذ ذلك الصباح المشرق الذي ولينا فيه ظهرينا له للمرة الأخيرة.. أريدك فقط أن تتذكر ما أصبحنا عليه عندما تحررنا من كل تلك المآسي.. تذكر الأيام الهادئة والليالي الساكنة التي نعمنا بها.. تذكر الأوقات المرحة التي عشناها.. تذكر السعادة

التي تمتعنا بها معًا. إذا داهمنا الجوع أو التعب، لم تكن تمر سوى لحظات ونكون قد أكلنا وشربنا، ونعمنا بالنوم في سلام. تذكر جميع المناظر الجميلة التي رأيناها معًا، وكيف أثلج الرضى صدورنا. تذكر كل هذا، وتدبر السبب وراء كل هذا التغيير المبارك ".
استوقفها بإشارة من يده؛ كي لا تستطرد في حديثها أكثر من ذلك، وقد بدا أن عقله مشغول بالكلية، وبعد مضيّ القليل من الوقت، قبّل وجنتها، وهو لا يزال يحثها على الصمت، صار إما ينظر في شرود أمامه على إمتداد الطريق، واما ينكس رأسه، ناظرًا إلى الأرض، وقد تغضنت جبهته، بدا كما لو كان يحاول بجهد شاق أن يرتب أفكاره المبعثرة داخل رأسه. بمجرد أن لاحظت الدمع يترقرق داخل عينيه؛ إثر انخراطه في تفكيره وشروده، أخذ يدها وأمسك بها، كما إعتاد أن يفعل دائمًا، دون عنف أو ظهور لأي أثر لشخصيته الأخيرة، كانت لمسته إياها حانيةً جدًّا بكل المقاييس، ومع ذلك لم تستطع الطفلة مبادلته المشاعر نفسها، لكنه على كل حال أصبح هادئًا مستقرًا كالمعتاد، تاركًا لها كامل الحرية، ولم يسعه من نفسه شيء غير أن يتبع خطواتها.
حينما وصلا إلى معرض أعمال الشمع الرائعة، وجدوا - كما توقعت نيل تمامًا - أن السيدة جارلي لم تنهض من سريرها بعد، وعلمت أن القلق عليهما قد لازمها طوال الليل، فقد ظلت مستيقظة، لم تعرف عيناها النوم، حتى الساعة الحادية عشرة والنصف مساء، حينما أقنعت نفسها، بأن العاصفة قد احتجزتهما في مكان بعيد عن المنزل، وأنهما من المؤكد سوف يلجئان إلى أقرب مأوى، ولن يعودا حتى الصباح.
كرست نيل نفسها من فورها للاعتناء بنظافة الغرفة، وإتمام زينتها، وأضحت راضية عن إتمام مهمتها، وارتدائها ملابس نظيفة مهندمة، قبل أن تنزل المحببة لدى العائلة المالكة لتناول الإفطار.
قالت السيدة فور انتهائها من تناول وجبتها: " لم يكن لدينا طوال الوقت غير ثماني آنسات يتبعن الآنسة (مونفلاذرز)، وأصبح الآن لدينا ست وعشرون آنسة تابعون لها، فلقد أخبرتني الطاهية بذلك، حينما سألتها سؤالًا أو سؤالين، وألحقت اسمها باللائحة المجانية. يجب علينا أن نجرب رزمة الفواتير الجديدة، وعلى وجه الدقة أنتِ مَن سيتولى هذه المهمة يا عزيزتي، ويجب عليكِ أن تتحري ماذا سيكون تأثير ذلك عليهنَّ ".
كان من الواضح أن البعثة المقترحة - التي كُلفت بها - ذات أهمية قصوى، فهندمت السيدة جارلي موضع قبعة نيل بيديها، معلنة أنها تبدو جميلة جدًّا، وأن ذلك سينعكس على مظهر المؤسسة بكل تأكيد، أذنت لها في الانصراف، بعد أن ألقت عليها العديد من التوجيهات التي يجب عليها الإلتزام بها، وأخبرتها بالاتجاهات التي ستحتاجها، مؤكدة على المنعطفات التي يجب عليها سلوكها في الجهة اليمنى، والمنعطفات الأخرى التي يجب عليها تجنبها في الجهة اليسرى.
بناءً على تلك التعليمات والإرشادات، لم يكن لدى نيل أي صعوبة، في وصولها إلى مدرسة مونفلاذرز الداخلية، كانت المدرسة عبارة عن منزل كبير ذي سور عالٍ، له بوابة ضخمة، معلق عليه لوحة نحاسية كبيرة، بها كوة صغيرة، فلا يمكن لأي أحد من الزوار - حتى بائع الحليب - المرور عبر البوابة دون أن يتفقد الحارس هويتهم، ودون ترخيص خاص، حتى المسؤول عن تحصيل الضرائب، قوي البنية، الذي إعتاد أن يرتدي نظارة وقبعة عريضة الحافة، كان لزامًا عليه أن يمرر فواتير الضرائب عبر تلك الكوة. لكن ما كان أكثر صلابة حتى من حاجز بوابة من الصلب

أو من النحاس، هو الحاجز الذي تستهجن به الآنسة مونفلاذرز البشرية جمعاء. حيثما أتى الجزار وقف أمامها كأنها بوابة من غموض، تاركًا صفيرًا مدويًا عندما رن الجرس.
حينما اقتربت نيل من ذلك الباب المروِّع، اضطرت إلى دفعه بروية وبطء شديد، فقد كان صرير مفصلاته عاليًا، اجتازت البستان المهيب، مرت على صف طويل من الآنسات الصغار، اللائي انقسمن إلى اثنتين اثنتين، كان بعضهن يمسكن بكتب مفتوحة في أياديهن، أما الأخريات فكن يحملن المظلات على نفس الشاكلة. سارت نيل بينهن على نحو جيد، حتى وصلت أخيرًا إلى الآنسة مونفلاذرز، التي كانت تحمل مظلة أرجوانية من الحرير، وقد كان في صحبتها معلمتان، كانتا تبتسمان، لكن كل واحدة منهما بدا عليها أنها تُكِنُّ للأخرى مشاعر مليئة بالغيرة والحسد على نحو شديد، فأصبحتا تتصارعان على خدمة الآنسة مونفلاذرز.
ظلت نيل واقفة في مكانها مرتبكة من تجمهر الفتيات وهمساتهن، تسلط عينيها على الأرض، يخالجها شعور بالتوتر بسبب سيرها وسط الفتيات، حتى حملت الآنسة مونفلاذرز طرف فستانها، واقتربت منها، بينما انحنت نيل لها وقدمت لها الرزمة الصغيرة، عند استلام الآنسة مونفلاذرز للرزمة، أعلنت من فورها ضرورة وضع حد فاصل.
قالت الآنسة مونفلاذرز: " أنت طفلة معرض أعمال الشمع، أليس كذلك؟ ".
أجابت نيل في ارتباك شديد، وخجل احمرت له وجنتيها؛ بسبب تجمع الفتيات حولها، وأن كل الأعين كانت مثبتة عليها قائلة: " نعم يا سيدتي ".
قالت الآنسة مونفلاذرز - التي أصبحت في مزاج عكر - من دون إضاعة أي فرصة لفرض الثوابت الأخلاقية على العقول البريئة للفتيات: " ألا تعتقدين أنك طفلة خبيثة جدًّا كي تكوني طفلة معرض أعمال الشمع؟ ".
تيبست نيل المسكينة في مكانها صامتة، لا تعرف ما يجب عليها أن تقول، وقد احمرت وجنتاها أكثر من ذي قبل؛ فلم تكن قد تعرضت لموقف مشابه على الإطلاق.
تابعت الآنسة مونفلاذرز قولها: " ألا تعرفين أنه أمر مشاغب غير أنثوي، ويعتبر إفسادًا ملحوظًا لخصائصنا الحميدة العقلانية، واستهلاكًا هائلًا للطاقات؟ ".
تهامست المعلمتان بإيماءات ملحوظة بما يدل على كونهما مؤيدتين تمامًا لهذا الحديث المناهض، ناظرتين إلى نيل، كأنهما أرادتا القول أن الآنسة مونفلاذرز قد نالت منها بشدة. تبادلتا الابتسامات فيما بينهما، لكن أعينهما تلاقت مع عيني الآنسة مونفلاذرز، فتغيرت نظراتهما على الفور، وأضحت كل واحدة منهما تفتعل إبتسامة عادية، كأنها تبتسم للآنسة مونفلاذرز في المطلق، دون أي مقصد صريح، ثم نظرتا إلى إحداهما الأخرى مرة ثانية، كأن كل واحدة منهما تحث الأخرى - في شيء من التوبيخ - على عدم الإبتسام؛ وأنه ليس لديها أي حق في ذلك، وأن إبتسامة الأخرى لا تدل إلا على الوقاحة والسفاهة.
استطردت الآنسة مونفلاذرز في حديثها قائلةً: " ألا تشعرين كم أنتِ سيئة السلوك، كي تكوني مجرد الطفلة العاملة في معرض أعمال الشمع، في وقت يجب أن يكون لديكِ الوعي الباعث على الفخر لتقديم المساعدة، بالحد الذي يساوي قوتكِ الطفولية، وبالقدر الذي يكافئ صناعة بلدتكِ، من أجل تنمية عقلكِ عن طريق التعلُّم المستمر ولو كان ذلك تحت ضغط هائل، من أجل الاستقلالية في كسب رزق جيد من شلنين وتسعة بنسات حتى ثلاثة شلنات في الأسبوع الواحد؟ ألا تعلمين أنه كلما كان عملكِ أكثر صعوبة، كلما كِنتِ أكثر سعادة؟ ".

غمغمت إحدى المعلمتين باقتباس من دكتور (واتس) قائلةً: " كيف والنحلة الصغـ..".
قالت الآنسة مونفلاذرز، ملتفتة على وجه السرعة: " ماذا! من قال ذلك؟ ".
أشارت المعلمة التي لم تقل ذلك بالطبع إلى من سألت عنها الآنسة مونفلاذرز، على سبيل كسب ودها، مُلقية بالمعلمة الأخرى في براثن الإضطراب.
قالت الآنسة مونفلاذرز وهي مشرئبة: " (النحلة الصغيرة المشغولة) تنطبق فقط على الأطفال المهذبين..".
- في الكتب، وفي العمل، وفي الألعاب المفيدة.
".. يعد ذلك القول بالنسبة لهم صحيحًا تمامًا، فالمقصود بالعمل الرسم على المخمل، أو فنون الحياكة بالإبر، أو حتى التطريز، أما عن مثل هذه الحالات.. ". كانت تشير إلى نيل بمظلتها: "..
أقصد أبناء الفقراء، فيجب أن نقول:
في العمل، يجب أن نعمل عملًا مجديا؛ لأن العمل دائم
دع سنواتي الأولى تنحصر في الماضي
لأن بإمكاني أن أجعل من كل يوم فرصة جديدة
لإحراز مَجدٍ في آخره ".
لم تكن همهمات استحسان ما قالته الآنسة مونفلاذرز نابعة من المعلمتين فقط، بل صدرت من الطالبات جميعهن؛ اللاتي اندهشن على حد سواء من هذا الارتجال رائع الأسلوب؛ لأنها طوال الوقت تظهر في مظهر السياسية المحنكة، ولم تظهر أبدًا كشاعرة مبدعة. ظللن في حالة من الانبهار، إلى أن تبينت إحداهن أن نيل كانت تبكي، فتحولت كل الأنظار إليها مرة أخرى.
لقد ترقرق الدمع في عينيها فعلًا، وباتت تبكي، فأخرجت منديلها لتكفكف دموعها، لكنه سقط منها. همت بالانحناء لالتقاطه، لكن فتاة في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها، كانت تقف بعيدًا إلى حد ما عن الأخريات، كما لو أنه ليس لها مكان بينهن، أتت نحوها والتقطته ثم وضعته في يدها، وعادت أدراجها إلى مكانها مرة أخرى في خجل شديد، حينها لم تفلت من قبضة المربية، التي أوقفتها على الفور.
قالت الآنسة مونفلاذرز: " إنها الآنسة إدواردز من فعلت ذلك، أنا أعلم.. والآن أصبحت متأكدة أنها الأنسة إدواردز فعلًا ".
إنها كانت بالفعل الآنسة إدواردز، وهذا ما قاله الجميع: كانت الآنسة إدواردز، وما أقرته الآنسة إدواردز نفسها.
قالت الآنسة مونفلاذرز، وقد أنزلت مظلتها، لتلقي نظرة صارمة على الجانية: " أليس هذا أمرًا مثيرًا للقلق يا آنسة إدواردز، أن يكون لديك نزعة قوية تجاه الطبقات الفقيرة المعدمة، تجعلك تنجذبين دائمًا إلى صفوفهم، أو على وجه الدقة، أليس هذا أمرًا غريبًا استثنائيًّا، أن كل ما أقوله أو أفعله لا يجعلك تتخلين عن نزعتك، التي تجعل طبقتك الإجتماعية الأساسية لديها تحفظات ثابتة نحوكِ، أيتها الفتاة صاحبة العقل الرجعي؟ ".
قال صوت عذب: " لم أقصد أي ضرر حقًّا يا سيدتي، لقد كان رد فعل تلقائيًّا وليد اللحظة ".
كررت الآنسة مونفلاذرز في سخرية واضحة: " وليد اللحظة! إنني أتعجب حقًّا! هل ردكِ عليَّ الآن وليد اللحظة أيضا! ". - تعجبت كلتا المعلمتان -: " أنا مندهشة حقًّا ". - اندهشت كلنا

المعلمتان -: " بناءً على هذا أفترض أن ردود أفعالك وليدة اللحظة هي التي تجعلك تتخذين جانب كل متذلل وغشاش يصادفك في طريقكِ ". - افترضت كلتا المعلمتان الأمر نفسه -.
استأنفت المربية الحديث، ولكن بنبرة أكثر صرامة: " لكنني أود أن تعرفي شيئًا يا آنسة إدواردز، من غير المسموح بأي حال من الأحوال - ولو كان فقط من أجل الحفاظ على مظهر أخلاقي لائق وسلوك قويم في هذه المؤسسة - ولا يفترض أن يكون مسموحًا لكِ بأي حال من الأحوال، أن تتعدي رؤساءَكِ وتتخطيهن على هذا النحو الجسيم، إذا لم يكن لديك أي سبب تشعرين من أجله أنكِ أرقى من أطفال عرض أعمال الشمع، فإن فتيات أخريات هنا لديهن، لذلك يجب عليكِ إما أن ترضخي لهؤلاء الفتيات، وإما أن ترحلي من مؤسستنا الكريمة يا آنسة إدواردز ".
كانت هذه الفتاة متدربة في المدرسة، فقيرة بلا أم، تعلمت دون مقابل، وتُعلِّم ما تعلمته دون مقابل، تقيم وقت دراستها دون مقابل، وتستقر وقت تدريسها دون مقابل، لكن إقامتها والمعاملة التي كانت تُعامل بها أقل من أقل أي مقابل، لدرجة أن الخادمات كُنَّ يشعرنها بالدونية؛ لأنهن عوملن على نحو أفضل منها، كُنَّ أحرارًا في مواعيد ذهابهن ومجيئهن، وحظين في وظائفهن على تقدير واحترام أكثر منها. أما المعلمات فقد حصلن على امتيازات لا حدود لها؛ لأنهن دفعن مقابل دراستهن، والآن يتم الدفع لهن مقابل تدريسهن. وبالنسبة للطالبات، فلم يعرن لرفيقتهن انتباهًا، فلم يكن لديها أي قصص جذابة ترويها عن البيت، أو أخِلاء يأتون لزيارتها بعرباتهم، أو مربية تأخذ منها النبيذ والكعك في تواضع، أو خادمة مطيعة تباشر لها الأعمال المنزلية في العطلات، لم يكن لديها أي شيء لنتحدث عنه أو تعرضه. لكن السؤال هنا: لماذا تشعر الآنسة مونفلاذرز بالغضب والانزعاج الدائم تجاه تلك المتدربة المسكينة.. كيف وصلت الأمور إلى ذلك الحد؟
لقد كانت الفتاة المدللة عند الأنسة مونفلاذرز، والأعلى مكانةً في مدرسة الآنسة مونفلاذرز كلها هي ابنة البارونة - الابنة الحقيقية للبارونة الحقيقية، بناءً على بعض انعكاسات قوانين الطبيعة - لكن ذلك لم يكن ظاهرًا في الملامح، بقدر ما كان خفيًّا فيما يتعلق بالتشابه في التفكير، في حين أن المتدربة المسكينة - على عكسها - تمتعت بفطنة وجمال شكلي وجوهري فائق الوصف، لقد كانت رائعة من جميع النواحي، طوال تلك المدة، لم تحصل الآنسة إدواردز إلا على علاوة صغيرة، صرفت منذ فترة طويلة، لكنها لم تتأثر بذلك، وازدادت تألقًا وازدهارًا يومًا بعد يوم مقارنة بإبنة البارونة، وذلك على الرغم من تعلمها جميع المواد الإضافية غير المقررة - أو أقرب للواقع تعليمها لها - كان إجمالي فاتورة نصف العام الدراسي لها ضعف فاتورة أي فتاة أخرى في المدرسة، دون مراعاة لمشاعر أو عزة نفس طالباتها. بناءً على ذلك، ولأنها كانت تابعة، كرهت الآنسة مونفلاذرز الآنسة إدواردز بشدة، وكانت حاقدة عليها، عادةً يتفاقم غضبها بسببها، لذلك حينما تعاطفت مع نيل، انتهزت الفرصة لتنهال عليها بوابل من الإساءات اللفظية، ولتسيء معاملتها، مثلما لاحظنا جميعًا ذلك.
قالت الأنسة مونفلاذرز: " اليوم لن تري ضوء النهار يا آنسة إدواردز، اذهبي ولازمي غرفتك، وغير مسموح لك على الإطلاق بمغادرتها، دون إذن صريح ".
تحركت الفتاة المسكينة على عجل، بينما استوقفتها فجأة صرخة خافتة من الأنسة مونفلاذرز تقول: " أحضروها إلى هنا ".

صاحت المربية، ناظرةً نحو السماء: " لقد مرت من أمامي دون إلقاء أي تحية! لقد سارت بالفعل من أمامي دون إبداء أي اعتبار لوجودي، كما لو أنني غير موجودة ".
إلتفتت الفتاة، وانحنت لها. في غضون تلك اللحظة، حينما رفعت عينيها في وجه رئيستها، استطاعت نيل أن تبصر في عينيها الداكنة ما لامس قلبها، وتدرك من طريقة نظرتها، تعبيرًا مكبوتًا ثائر ضد الإستغلال الوضيع للمكانة الإجتماعية. لم تقم الآنسة مونفلاذرز بأي رد فعل، غير أنها حركت رأسها، كأن نار قلبها قد خمدت.
قالت الآنسة مونفلاذرز، ملتفتة إلى نيل: " أما بالنسبة لكِ أيتها الطفلة الكريهة، فاذهبي وأخبري سيدتكِ، أنها إذا تجرأت وأرسلت إليَّ المزيد، حينها سأكتب للسلطات التشريعية، وأضعها في الصندوق الخشبي ([14])، وسأرغمها على التكفير عن ذنبها على مرأى ومسمع من الجميع في الكنيسة بارتداء الزي الأبيض ([15])، أما أنتِ، فأحسب أن لديك الخبرة المؤكدة الآن، وصرت تعلمين ما ستلاقينه إذا جرؤتِ على المجيء إلى هنا مرةً أخرى.. والآن باشرن أعمالكن يا فتيات ".
انفض الجمع في لحظات، سارت الفتيات تباعًا اثنتين خلف اثنتين، آخذات معهن الكتب والمظلات، أما الآنسة مونفلاذرز فدعت إبنة البارونة للسير معها لتهدئة مشاعرها المضطربة، متجاهلة المعلمتين - اللتين بدلتا ابتساماتهن مع حلول ذلك الوقت إلى نظرات تعاطف - وتركتهما تأتيان خلفها، وقد لازمهما الكره أكثر مما سبق؛ فقد كانتا مضطرتين وملزمتين بالسير معًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثاني والثلاثون

لا يمكن وصف غضب السيدة جارلي فور معرفتها بالتهديد والوعيد بعقوبة الصندوق الخشبي، ووجوب امتثالها للتكفير عن ذنبها بالزي الأبيض. كيف للسيدة جارلي الأولى والوحيدة أن تتعرض إلى ازدراء العامة، وسخرية الأطفال، وإهانة شماس الكنيسة! كيف لقبعة هي مجد وبهجة النبلاء والشرفاء - تتوق زوجة العمدة نفسها إلى ارتدائها - أن تستبدل بقماش أبيض، في مشهد مهين ومذل! كيف للآنسة مونفلاذرز، تلك المخلوقة الفظة أن تتصور - ولو في دفائن مخيلتها - ذلك المشهد المهين.. قالت السيدة جارلي وهي في أوج غضبها وضعفها؛ لافتقادها أي قدرة على الثأر لنفسها: " حينما أفكر في الأمر بإمعان، أجد نفسي أميل إلى الإلحاد! ".
لكن السيدة جارلي بدلًا من أن تخطط مسارًا للانتقام، تحضرت لأفكار أخرى، فأخرجت قنينتها مجهولة المحتوى، وأمرت بوضع الكؤوس على طبلتها المفضلة، وجلست على كرسي إلى جانبها، واستدعت تابعيها للجلوس إلى جوارها، وأخذت تردد كل ما تلقته من إهانات كلمة كلمة عدة مرات. فعلت ذلك، ثم بانت تتوسل إليهم للشرب معها في يأس شديد، ثم أخذت تضحك وتبكي، تأخذ رشفة صغيرة من مشروبها، ثم تعاود الضحك، وتتبعه بالبكاء، ثم تأخذ رشفات أخرى، فتبكي وتضحك، ظلت على الحال نفسه، تكرر فعلها، وكلما مر الوقت كلما ازدادت نوبات ضحكها وقلَّت دموعها، لكنها في النهاية لم تستطع الضحك ثانيةً على ما قالته الأنسة مونفلاذرز، ورأت أن تلك المخلوقة ما هي إلا مصدرًا سخيفًا للسخرية، عوضًا عن أن تكون مصدرًا رهيبًا للغضب.
قالت السيدة جارلي: " إنني أتساءل حقًّا، أي منا أفضل.. هي أم أنا؟ إنه مجرد حديث، أن تقول وتفعل ما تريده، إذا كانت قد ذكرت أمر القفص الخشبي، فحريٌّ بي أن أفعل ما فعلته، وأذكر أمر القفص الخشبي، يا له من أمر مضحك، إذا وصلت الأمور إلى ذلك الحد. يا ربي! ما الفائدة المرجوة بعد هذا كله؟ ".
بعد أن وصلت إلى هذه الحالة من الهدوء العقلي، وضبط النفس - بمساعدة أكيدة من الملاحظات المتعجبة التي كان يلقبها المتفلسف جورج في خضم حديثها - عملت على تهدئة نيل وتعزيتها بالعديد من الكلمات الطيبة، وطلبت منها معروفًا شخصيًّا، وهو أنه في أي وقت طوال أيام حياتها، إذا ما خطرت الآنسة مونفلاذرز على بالها، عليها فقط ألا تفعل شيئًا غير أن تضحك ساخرة.
هكذا انتهى غضب السيدة جارلي، متخلصةً من جميع مشاعرها السلبية قبل وقت طويل من غروب الشمس. أما نيل، فكان غضبها واضطرابها أشد وطأة، لم يكن من السهل عليها نسيان ما حدث، أو تناسي تعنيفهن لها، فقد طغى على بهجتها ومحياها تمامًا.
لم تصارع تلك الليلة اضطرابها فقط، بل عانت من الخوف أيضًا؛ فقد خرج جدها متسللًا، ولم يعد حتى انقضى الليل. جلست وحيدة منعزلة، يستنزفها التعب النفسي والجسدي، تعد الدقائق، تنتظر عودته، حتى أتاها، مفلسًا، مهزومًا، بائسًا، لكنه ما زال عازمًا على ما افتُتِن به.
قال في حدة، حينما افترقا في الليل: " احصلي لي على مال.. يجب عليكِ أن تعطيني مالًا، لا بد أن يكون معي أموال يا نيل. سأعيدها إليكِ بالتأكيد بأرباح كبيرة في يوم من الأيام، لكن كل الأموال

التي ستقع في يدك، يجب أن تكون لي.. لا أقصد أن تكون لي بالمعنى الحرفي، أقصد أنني سأستخدمها من أجلكِ يا نيل، تذكري ذلك جيدًا.. سأستخدمها من أجلك! ".
ما الذي ستفعله طفلة في موقفها، طفلة تدرك الحقيقة كاملةً، تفضل أن تعطيه فعلًا كل بنس يقع في يدها، حتى لا يرتكب فعلًا جسيمًا، ويغريه المال، فلا يسعه سوى أن يسرق راعيتهما؟ فكرت في أنها إذا ما أدلت بالحقيقة، سيعامل باعتباره رجلًا خرفًا أصابه الجنون، أما إذا لم تزوده بالمال الذي يحتاجه، فسوف يجد طريقة أخرى ليحصل بها على المال، لكنها إذا زودته بالمال بالفعل، فسوف تكون بمثابة الشخص الذي يسعر النار، التي أحرقته من قبل، وربما تقصيه عن الشفاء. في خضم صراعها مع أفكارها، وتفكيرها المشتت تمامًا، الذي أثقلها حزنًا على حزنها، لم تجرؤ على إخباره بأي شيء، وظلت معذبة بأفكارها، تشعر أن الرجل العجوز كلما تغيب عنها، كلما كانت معرضة إلى الاضطهاد على يد حشود من الناس، لكن وجوده معها أو غيابه عنها أصبح سيان؛ تشعر بالخوف في كل الأوقات، لقد اختفى تورد وجنتيها، وخفتت لمعة عينيها، وبات قلبها مغمومًا مثقلًا بالهموم مكروبًا. توافدت أحزانها القديمة على فكرها تِباعًا، ففاقمت مخاوفها وشكوكها، التي لازمت عقلها طوال النهار، تنهال على رأسها، وتحوم حول وسادتها، تطاردها في أحلامها طوال الليل.
كان من الطبيعي، على الرغم من أنها كانت في غمار مصابها، أن ترد إلى عقلها لمحة تنتشلها من أحزانها، فقد تذكرت تلك الفتاة اللطيفة، التي ألقت عليها نظرة سريعة، فاضت بالعاطفة والتعاطف، على الرغم من أنها كانت نظرة لحظية، أضفت على ذاكرتها لطف سنين. ظلت تفكر، ماذا لو كان لديها صديقة مثلها، ينشرح لها صدرها، تخبرها عن مآسيها كافة، فتخفف من ثقل هموم قلبها، ماذا لو كان بإمكانها سماع صوتها العذب، فتصير أكثر سعادة، باتت تتمنى لو كان بإمكانها أن تصبح شخصًا أفضل حالًا، ألَّا تكون فقيرة وذليلة إلى هذا الحد، فتتجرأ على الذهاب إليها دون أن يلازمها خوف صدها، لكنها شعرت في النهاية أنهما غير متكافئتين، وأن فارقًا كبيرًا يحول بينهما، وأنه لا وجود لأي أمل في أن تخطر حتى على بال الفتاة فيما بعد.
جاء وقت العطلة الرسمية في المدارس، عادت الفتيات إلى بيوتهن، قيل أن الآنسة مونفلاذرز ذهبت إلى لندن، تشعل النيران في قلوب الشباب متوسطي العمر، أما الآنسة إدواردز فلم يقل أحد عنها شيئًا، لا يعرفون إذا كانت قد ذهبت إلى بيتها، أو أن لا بيت لها من الأساس كي تذهب إليه، لا يعرفون إذا ظلت في المدرسة، أو تواجدت في مكان آخر، لا أحد يعرف عنها أي شيء. لكن في إحدى الأمسيات، بينما كانت نيل عائدة من نزهة بمفردها، مرَّت أمام نزل، حيث توقفت مركبة الجياد العمومية؛ لتقل أحدًا ما، رأت الفتاة الجميلة - لقد تذكرتها جيدًا - تعانق طفلة صغيرة كانوا يساعدونها لتنزل من على السطح.
حسنًا! لقد كانت شقيقتها، شقيقتها الصغيرة، كانت أصغر بكثير من نيل، لم تكن قد رأتها منذ قرابة الخمس سنوات - حسب تتابع سير القصة - أنت إلى ذلك المكان في زيارة قصيرة، لطالما شكل وجودها فارقًا؛ كان قادرًا على احتواء اضطراباتها طوال الوقت. شعرت نيل حينما رأتهما تتعانقان كأن قلبها يُعتصر ويتفتت داخل صدرها. تحركتا بعيدًا عن الأشخاص الذين تزاحموا حول المركبة، ومن ثمَّ ارتمينا في حضن بعضهما، متنهدتين، باكيتين بدموع الفرح. لم تكن قصتهما بحاجة إلى كلمات، كي تُسرد تفاصيلها؛ فإن ملبسهما البسيط العادي، والمسافة التي

قطعتها الطفلة وحدها، وسعادتهما وفرحهما الشديد عند اللقاء، والدموع التي ذَرفت، قد أوضحت كل شيء.
أمستا مع مرور الوقت، رغم قصره، أكثر هدوءًا وضبطًا للنفس، مضيتا في طريقهما، تمسك كل واحدة بيد الأخرى، لكن فعلهما كان أقرب إلى التشبث. قالت الطفلة عند مرورهما حيث كانت تقف نيل: " هل أنتِ متأكدة أنك سعيدة يا أختي؟ ". ردت شقيقتها: " نعم! أنا في غاية السعادة الآن ". قالت الطفلة: " إنني أقصد سعيدة في المطلق؟ "، " نعم يا أختي.. لماذا تديرين وجهكِ بعيدًا؟ ".
لم تستطع نيل أن تمنع نفسها من تعقبهما لمسافة قصيرة، لقد ذهبتا إلى منزل مربية عجوز، حيث أخذت الشقيقة الكبرى غرفة نوم للصغرى. قالت: " سوف آتي إليكِ كل صباح، فيمكننا قضاء النهار كله معًا ".
لماذا تذكرين النهار فقط؟ لِمَ لا نقضي الليل معًا أيضًا؟ هل سيغضبن منكِ إذا فعلتِ ذلك يا أختي العزيزة؟
لماذا بكت نيل في تلك الليلة، لماذا ترقرقت في عينيها دموع شابهت دموع الشقيقتين؟ لماذا كان قلبها ممتنًّا للقائهما؟ ولماذا عانى ألمًا حينما فكرت في اقتراب موعد فراقهما؟ دعونا لا نصدق أبدًا في أن مشاعرها لم تكن خالصة، أو أن نُئوِّل اضطراب مشاعرها ونعزوه إلى تفكيرها في نفسها وفي مصائبها الخاصة - ولو كان دون وعي أو قصد منها، كما يُرجح أن يكون الحال - ونشكر الذي خلقنا، وبث فينا مشاعر طيبة فنفرح لفرح الآخرين الأبرياء، حتى وإن كنا في أسوأ حالاتنا، فكلٌ منا لديه نبع مشاعر طيبة خالصة، سيُجزى عليها نعيمًا في الجنة!
مع ظهور أول إشراقة للصباح المبهج، وسط خيوط الليل اللطيفة المنسدلة، تاقت الطفلة إلى الإقتراب أكثر من الشقيقتين؛ لتعبر عن امتنانها الشديد نحوهما، لكن احترامها لخصوصيتهما وللحظات القصيرة السعيدة التي تحظيان بها، منعها من التقدم، لكنها تتبعتهما لمسافة ليست بقصيرة، تحذو حذوهما، إذا مشيتا تمشي، إذا توقفتا توقفت، إذا جلستا على العشب تتسامران، جلست بالقرب منهما، إذا همَّتا بالرحيل، وقفت من فورها لتهيئ نفسها للرحيل، شعرت لمجرد القرب منهما بالرفقة والسرور. كانت نزهتهما المسائية بالقرب من الممشى النهري. ظلت على الحال نفسه لياليَ عديدة، على الرغم من أنها لم تكن مرئية، مهمشة، ولم يكن وجودها لهما مُدرَكًا، كان قلبها مثلجًا بمشاعر رقيقة، لازمتها طوال مجاورتها لهما؛ فقد شعرت كما لو كانتا صديقتيها، يثقن في بعضهن، ويشعرن بالراحة معًا، شعرت كما لو أن ثقل أعباء قلبها يتلاشى، وأصبح تحملها لمشاقها أقل صعوبة، شعرت كما لو أن أحزانهن قد اختلطت، ونتج عنها عزاء متبادل، ربما ما عايشته كان محض خيال عاجز، محض خيال طفولي لمخلوقة صغيرة وحيدة. تتابعت الليالي، ليلة تلو الأخرى، ولا تزال الشقيقتان تتقابلان في المكان نفسه، ولا تزال الطفلة تتبعهما بقلب رقيق عطوف.
لكنها في ليلة ما فور عودتها إلى البيت، أصابها الذهول الشديد؛ فقد وجدت أن السيدة جارلي قد أوصت بأن يتم إعداد إعلان، ينوه عن أن مجموعتها المتميزة ستبقى في هذا المكان لمدة يوم واحد آخر فقط، وأنه ليس تهديدًا، بل سيتم تنفيذه فعلًا - من المعروف أن الأخبار التي يتم الترويج لها وسط الجموع البشرية يجب أن تكون دقيقة، غير قابلة للإلغاء - مشددة على ذكر أن المجموعة الهائلة المتميزة ستغلق فعلًا في اليومِ التالي.

قالت نيل: " هل سنرحل من هذا المكان مباشرةً يا سيدتي؟ ".
قالت السيدة جارلي: " اسمعي جيدًا أيتها الطفلة، ما سيقال سيحيطكِ علًما "، أخبرتها السيدة جارلي أنها أتبعت الإعلان الأول بإعلان آخر، ينص على أنهم نتيجة للاستفسارات التي لا حصر لها التي ترددت أمام باب معرض أعمال الشمع، ونتيجة لاستياء الجماهير بسبب عدم حصولهم على تذاكر دخول المعرض، سوف تمد مهلة العرض لمدة أسبوع واحد آخر فقط، وأنه سيعاد فتح المعرض بدءًا من اليوم التالي.
قالت السيدة جارلي: " نعلم أن الفترة الدراسية في وقتنا الحالي قد انتهت، ولن يأتينا زوارنا المعتادون، بالتالي سيكون أغلب زوارنا من الجمهور العام، الذين يريدون معاملة خاصة وإثارة مميزة ".
في ظهر اليوم التالي، تحضرت السيدة جارلي، وجلست خلف طاولتها المبهرجة، تحيط بها التماثيل الشمعية الفريدة من كل منحى - سابقة الذكر -، ومن ثم أمرت بأن تفتح الأبواب على مصراعيها، من أجل استقبال الجمهور الفطن المستنير. لكن انطباعات اليوم الأول لم تكن مكللة بالنجاحات؛ نظرًا إلى أن المتوافدين من الجمهور العام، لم يكونوا مولعين بالتماثيل الشمعية - مثلما كان يُظن - بقدر ولعهم بالسيدة جارلي شخصيًّا، لدرجة أنهم لم يتأثروا بالتحفيز، وإعلان أن تذكرة الدخول لا تكلف غير ستة بنسات فقط للنفر الواحد. على الرغم من ذلك، ظل العديد من الناس يحملقون قرب المدخل إلى التماثيل الشمعية أثناء العرض، ولبثوا في أماكنهم بمثابرة شديدة، على رأس كل ساعة؛ كي يستمعوا إلى عزف الأرغن الموسيقي، وبرنامج العرض، وقد كانوا لطفاء بما يكفي، لكي يوصوا أصدقاءهم بالذهاب إلى المعرض، لكنهم سلكوا نفس مسلكهم، لدرجة أن مدخل معرض الشمع حوصر تمامًا، جراء احتشاد نصف سكان البلدة تقريبًا، والذين ما إذا هموا بالمغادرة، تبعهم على الفور نصف سكان البلدة الآخر، على الرغم من هذا كله، كان حال الخزينة لا يوحي بأي ثراء، وكانت الانطباعات عن المؤسسة لا تضفي أي تشجيع على الإطلاق.
في ظل هذه الأجواء المحيطة للمصنفات الكلاسيكية، لم تجد السيدة جارلي أي خيار غير أن تبذل جهودًا إستثنائية؛ لتحفيز وخدمة الذوق الشعبي، وإثارة فضول الجمهور العام. عملت على تعديل ضبط الآلات الموجودة في جسد الراهبة القائمة أمام الباب، وضبطتها على موضع الحركة، فأمست الراهبة تهز رأسها باستمرار على نحو مترنح طوال اليوم، مما أثار إعجاب السكارى، في حين أن حلاقًا بروتستانتيًّا، عندما رأى حركة الراهبة، اعتبرها شكلًا نموذجيا لمحاكاة التأثير المهين الواقع على العقل البشري إثر إحتفالات الكنيسة الرومانية، متحدثًا عن هذا الموضوع بفصاحة شديدة وأخلاق حميدة. وأوصت المناديين أن يتنقلا من وإلى المعرض باستمرار، بأزياء تنكرية عديدة، يعلنان بصوت عالٍ، أن العرض يستحق المال أكثر من أي شيء قد شاهدوه أو سيشاهدونه طوال حياتهم، ويحثان المارة طوال سيرهما، والدموع تترقرق في أعينهما، على ألَّا يضيعوا متعة مشاهدة العرض. حينما تم ذلك على أكمل وجه، جلست السيدة جارلي أمام خزينتها، تستقبل العملات المعدنية منذ الظهر حتى المساء، معلنةً وسط الحشود أن سعر الدخول ستة بنسات فقط للنفر الواحد، وهكذا، تم تدبير أمر الرحيل بعد أسبوع، وتم التعامل مع الأمر وإصلاحه بإيجابية مدهشة في يوم واحد، إثر جولة قصيرة بين شعب أوروبا المجلل.

قالت السيدة جارلي، في ختام يوم كل حدث مماثل: " احضروا في الموعد.. احضروا في الموعد.. احضروا في الموعد، تذكروا دائمًا أن مجموعة السيدة جارلي الفريدة تضم أكثر من مائة شخصية، وأنها المجموعة الأصلية الوحيدة في العالم، فكل المجموعات الأخرى ليست سوى تقليد ومخادعة. احضروا في الموعد.. احضروا في الموعد.. احضروا في الموعد! ".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثالث والثلاثون

بما أن سياق هذه الحكاية، سيضطرنا في مرحلة ما، إلى التعرف على بعض التفاصيل المهمة المتعلقة بالاقتصاديات الخاصة بالسيد (سامبسون براس)، وبما أن التأجيل في ذكر التفاصيل غير محبذ، فلن نجد وقتًا أكثر ملاءمة لذكرها من الوقت الحاضر، إن المؤرخ يأخذ بيد القارئ النهم، يحلق به في سماء المعرفة، يحيطه علمًا بمعارف وأخبار، يشقان طريقهما نحو أماكن شيقة، بمعدل يفوق كل ما فعله (كليوفاس لياندرو بيريز زامبولو) ([16]) لرفيقه، حينما سافرا معًا، وهنا يصطحب المؤرخ القارئ الودود، ويحلق معه، ينزل به في (بيفيس ماركس).

هبط المحلِّق الجسور على بيت مظلم صغير، كان محل إقامة السيد سامبسون براس.

كانت نافذة ردهة مسكنه الصغير قريبة جدًّا من طريق المارة، لدرجة أن من كان يمشي مجاورًا لجدران البيوت، يمكنه أن يلمس زجاج النافذة المعتم بُردن معطفه - من الجدير بالذكر أن ذلك كان فعلًا مستحسنًا؛ نظرًا لقذارتها - كان يعلق على نافذة ردهة ذلك المسكن الصغير، في أيام امتلاك سامبسون براس له، ستارة خضراء باهتة - أقرب ما يمكن أن توصف به - رثة مرتخية مهترئة بفعل أشعة الشمس، بالية جدًّا، لم يكن وجودها بأي حال من الأحوال، لحجب رؤية الغرفة المظلمة الصغيرة، بل ربما توفرت من خلالها وسيلة مواتية للمراقبة بدقة. لم يكن هناك الكثير للنظر إليه من الأساس. حريٌّ بالقول أن المنضدة الهشة المتزعزعة، التي اعتلتها بشكل ملفت رزم من الأوراق، اصفر لونها وباتت مهترئة بسبب وضعها لوقت طويل في الجيب، والكرسيان الموضوعان أحدهما أمام الآخر، في مقابل قطعة الأثاث البالية المذكورة، والمقعد القديم الآخر، الذي يمكن وصفه بمقعد الغدر؛ فقد ساعد مسنداه على ضم العديد من الوكلاء دون إفلات، إلى أن يدلوا بما في جعبهم، والصندوق المستعمل لحفظ الشَّعر المستعار، الذي استخدم كحافظة للتدوينات والوثائق والتصاريح وبعض من البنود القانونية المكتوبة، كأن سبب وضع تلك الكتابات في ذلك الصندوق تحديدًا قد افترض من منطلق أن المعلومات الكتابية تحفظ في الرأس، والشَّعر المستعار يوضع على الرأس، بما أن الشعر المستعار مكانه الصندوق، إذن الكتابات مكانها حيث وضعت بالفعل، والكتابان أو الثلاثة كتب النمطية للتدريب، وقنينة الحبر، والمرملة، ومكنسة الموقد المتآكلة، والسجادة التي يجوز وصفها بأنها خرقة للمداس، لكن خيوطها على أي حال لا تزال متشابكة على نحو شديد البؤس، إضافة إلى الحوائط الخشبية الصفراء، والسقف الذي تغير لونه من دخان حرق التبغ، والغبار وأنسجة العنكبوت التي سكنت كل شيء، كانت جميعها من بين أبرز معالم مكتب السيد سامبسون براس.

على الرغم من كافة تلك الأشياء الجامدة التي تطغى على المظهر العام في الغرفة، إلا أنها كانت لا تضاهي بأهمية اللوحة النحاسية المعلقة على الباب والتي كانت تحمل اسمه (المحامي / السيد براس)، واليافطة التي رُبطت إلى قارع الباب، والمكتوب عليها (الدور الأول.. مكتب السيد النبيل). لكن مكتبه احتوى أيضًا على نموذجين حيين مألوفين مثَّلا الطبيعة المتحركة، من أجل هدف تاريخي إلى حد كبير؛ لما لهما من أهمية كبرى وشأن خاص.

كان أحد النموذجين السيد براس نفسه، والذي ظهر بالفعل عبر صفحات الرواية. والنموذج الآخر كاتبته ومساعدته ومديرة منزله وسكرتيرته ومدبرة شؤونه الخاصة ومستشارته، ومحط

إعجابه، والسبب الرئيس لزيادة أجر مشاريعه القانونية، لقد كانت الآنسة براس مثالًا حيًّا للمرأة القوية النابغة في القانون العام، وأظن أنه سوف يكون من المحبب، لو ذكرنا وصفًا موجزًا لها.

حسنًا! كانت الآنسة سالي براس في الخامسة والثلاثين من عمرها أو ما يقرب ذلك، كان لها جسد نحيل عظامه بارزة، تمتعت بشخصية قوية حازمة، لها قدرة فائقة على إخماد أي مشاعر حب، وإبقاء معجبيها على مسافة بعيدة منها، وهو الأمر الذي ألقى في صدور الرجال الغرباء مشاعر متأججة من السعادة؛ لمجرد الإقتراب منها. حملت ملامح وجهها تشابهًا كبيرًا بينها وبين شقيقها السيد سامبسون، تشابهًا يصل إلى درجة التطابق في الواقع، لكنه كان تشابهًا متوائمًا مع حياء الآنسة براس العزباء ومع أنوثتها المتواضعة، إذا ارتدت ملابس أخيها وجلست إلى جانبه بغرض المزاح، سيكون من العسير حتى على أقدم صديق للعائلة التمييز بينهما، وحسم أمر أي منهما سامبسون وأي منهما سالي، حتى إذا كانت الحمرة التي اعتلت الشفة العليا للسيدة دليلًا مؤكدًا يشير إليها، وحتى لو دعم تخمين الهيئة العامة بالزي، فلا تزال اللحية عاملًا مضللًا. مع ذلك، وبأخذ كافة الإحتمالات في الإعتبار، فلا يوجد ما هو أكثر من أن تنبت الرموش في مكان خاطئ، لكن فيما عدا ذلك كانت أعين الآنسة براس خالية إلى حد كبير من أي عيوب طبيعية. أما بشرتها فكانت باهتة شاحبة - باهتة إلى درجة مقززة إذا جاز التعبير - لكن هذا الشحوب كان مقبولًا بسبب التورد الذي يظهر على أبرز جزء من طرف أنفها عند الضحك. أما صوتها فقد كان مثيرًا للإعجاب بشكل فائق، عميقًا وجيدًا وغنيًا، إذا ما سمعته مرة واحدة، ليس من الوارد أبدًا أن تنساه. كان زيها المعتاد عبارة عن فستان لونه أخضر، لم يكن مختلفًا البتة عن لون تلك الستارة المنسدلة على نافذة المكتب، كان ضيقًا على جسدها إلى حد ما، تمتد ياقته إلى أعلى حلقها، مثبتة من الخلف بزر ضخم على نحو غريب. كانت تؤمن بلا شك في أن البساطة والسهولة هما روح الأناقة، فلم تكن ترتدي أي قلادة أو وشاح، باستثناء ذلك الذي كانت تضعه على رأسها، دائمًا ما كانت تعقد وشاحًا شفافًا كالشاش لونه بني حول رأسها، يشبه جناح مصاصي الدماء الأسطوريين، كان من الممكن تغيير شكله وفق أنماط عديدة، فقد فرض نفسه كأحد أغطية الرأس الجميلة بسبب بساطته.

هكذا انتهينا من وصف الآنسة براس في مظهرها الخارجي. أما وصفها من حيث عقلها، فيمكن القول بأنها كانت فطنة ذات عقل نشيط وقوي؛ فقد كرست نفسها منذ سنوات شبابها الأولى في حماسة شديدة غير شائعة؛ لدراسة القانون، لم تكن تضيع فرصها كرحلات النسر - التي تكون نادرة على الأغلب - بل عملت على اقتفاء أثر كل ما كان مضمونه يشكل لغزًا كأسماك الإنقليس، وهو ما كان يقودها عادة إلى طريقها المراد. كانت تشبه أمثالها من الأشخاص الذين تمتعوا بعقليات فذة، فلم تحصر نفسها في الجوانب النظرية، أو لم تتوقف عن المثابرة من أجل تقدمها حينما حازت على الفائدة العملية، كانت منهمكة في مراجعة النسخ المعدلة، وملء النماذج المطبوعة بدقة متناهية، كانت - باختصار - تباشر الأعمال الإلزامية في المكتب، لدرجة أنها كانت تنزع بقايا الجلد مثلًا من على ورق البرشمان، أو تصلح قلم الحبر بنفسها. إن من الصعب حقًّا فهم كيف لها أن تمتلك تلك المقومات مجتمعة، ولا تزال الآنسة براس، لكنها على كل حال قد أورث قلبها القساوة وجعلته فولاذًا ضد الرجال، حتى مَن تودد إليها ارتدع بسبب خوفه من كونها ملمة بالقانون، وتستطيع تحت أي ظرف من الظروف أن تضع أصابعها على ثغرات قانونية إثر أي إجراء تنظيمي مألوف، فلا عجب أنها لا تزال عزباء، ولا تزال ملتصقة بالكرسي

القديم المقابل لكرسي شقيقها سامبسون، ولا عجب أيضًا بناءً على ما تم ذكره أجمع، أن العديد من الناس قد وقفوا في المساحة الفاصلة ما بين هذين الكرسيين القديمين.
في صباح أحد الأيام، كان السيد سامبسون براس جالسًا على كرسيه ينسخ بعض اللوائح القانونية الرسمية، غارسًا قلمه عميقًا في الورق في وحشية تامة، كما لو كان يكتب على قلب خصم من يترافع عنه، وكانت الآنسة براس تجلس على كرسيها تجهز قلمًا؛ تحضيرًا لتحرير كشف حساب صغير، الذي يعتبر بمثابة الجزء المفضل لها في المهنة، ظلا جالسين في صمت تام لفترة طويلة، حتى كسرت الآنسة براس حاجز الصمت.
قالت الآنسة براس: " هل أوشكت على الانتهاء يا سامي؟ ". عادةً ما تحرف اسم سامبسون إلى سامي؛ فقد كانت كل كلمة تخرج من شفتيها الأنثوية الرقيقة، تجد سبيلها نحو الرقة واللطف.
رد عليها شقيقها: " لا! لكن كان كل شيء لينتهي، إذا ما كنتِ تدخلتِ وساعدتيني في الوقت المناسب ".
صاحت الآنسة سالي: " أوه! كلامك صحيح في الواقع! إذنْ هذا اعتراف منك أنك في حاجة إلى مساعدتي، أليس كذلك؟ ورغم ذلك تريد أيضًا أن يكون لديك كاتب! ".
قال السيد براس، واضعًا القلم في فمه، مبتسمًا إبتسامةً عريضة لشقيقته: " هل أريد أن يكون لدي كاتب من أجل سعادتي الخاصة، أو بناءً على رغبتي الذاتية أيها النذل المستفز! لماذا تسخر بشأن أن يكون لديَّ كاتب؟ ".
ربما يكون من الملاحظ في أرجاء هذا المكان، أن السيد براس كان يشير بصيغة المذكر إلى الآنسة قائلًا أيها النذل، لذلك خشية من أن يثير هذا شعورًا بالتعجب أو الاندهاش، يجب توضيح أنها من كثرة مساعدته والوقوف إلى جانبه موقف الرجال، اعتبرها واحدًا منهم، لدرجة أنه تدريجيًّا إعتاد التحدث معها كما لو كانت رجلًا حقًّا، لم يكن هذا الشعور مقتصرًا عليه فقط، بل كان شعورًا متواترًا بشكل كبير، فلم تأخذ مناداته لها بـ "أيها النذل"، وإلحاقه ذلك النداء بنعت بصيغة المذكَّر أيضًا على محمل الاستنكار؛ فقد رأت الآنسة براس الموضوع من المنظور نفسه، وأنه أمر طبيعي تمامًا، بل إن ما كانت تستنكره حقًّا، إذا ما نادتها إحدى السيدات بـ "أيتها الملاك".
كرر السيد براس ما قاله، مبتسمًا الإبتسامة العريضة نفسها، وهو يضع القلم في فمه، مثل علية الشرفاء والنبلاء: " لماذا تسخرين مني بشأن أن يكون لديَّ كاتب، بعد الحديث لمدة ثلاث ساعات متواصلة بالأمس؟ قولي لي هل هذه غلطتي؟ ".
قالت الآنسة سالي، وهي تبتسم في فتور رهيب؛ نظرًا لأن أي أمر يثير غيظ شقيقها يجعلها سعيدة: " إن كل ما أعرفه هو أنه إذا جاءنا كل واحد من وكلائك وأجبرنا على أن يكون لدينا كاتب، سواء أردنا أم لم نرد، وسمعنا له، حينها يستحسن لك في أقرب وقت ممكن أن تصفي حساباتك، وتنهي عضويتك وتفرغ نفسك للتعيين ".
قال براس: " انتظري انتظري! قولي لي هل لدينا وكيل مماثل له؟ أو إلى الآن هل كان لدينا وكيل آخر يماثله.. هل ستجيبيني على تلك الأسئلة؟ ".
قالت شقيقته: " أتقصد يشبهه في ملامح وجهه! ".
ردد سامبسون براس ساخرًا: " هل أقصد ملامح وجهه! ". سحب من فوره دفتر الفواتير في سرعة شديدة، قلَّب لها أوراقه، وقال: " انظري هنا.. دانيال كويليب.. السيد المبجل.. دانيال كويليب..

السيد المبجل.. دانيال كويليب، السيد المبجل.. داني.. وهكذا وهكذا إلى آخره. قولي لي إذنْ! هل يجب عليَّ أن أختار الكاتب الذي يرشحه لي، وهو يقول: " هذا الرجل من أجلك " أم أخسر هذا كله، هاه! قولي لي ".
تكرمت الآنسة سالي بعدم الرد، لكنها حافظت على الإبتسامة الجافة ذاتها، وباشرت عملها.
بعد لحظة قصيرة ساد الصمت فيها، استأنف براس حديثه وقال: " لكنني أعي السبب الرئيس وراء دوافعكِ، إنكِ تخشين أن يفلت من يدكِ زمام الأمور، أو أن تصبحي غير ملمة بتفاصيل العمل أو مهيمنة عليه، كما أنتِ الآن، وكما اعتدت أن تكوني.. أليس كذلك! هل كنتِ تظنين أنني لست على دراية تامة بكل هذا؟ ".
قالت شقيقته برباطة جأش ملحوظة: " على أي حال، إن عملك سيستغرق منك وقتًا طويلًا من دون خدماتي، على ما أظن.. فلا تكن أحمق وتثير غيظي يا سامي، ركز فيما كنت تفعل، وأتممه ".
انكب سامبسون براس على عمله من فوره، منحنيًا لاستكمال الكتابة، فقد كان قلبه يُكِنُّ خوفًا من شقيقته، التي قالت: " أنت تعرف جيدًا أنني لو اتخذت قرارًا بعدم حضور هذا الكاتب، فبالطبع لن يُسمح له بالحضور تحت أي ظرف من الظروف، وأعتقد أنك تعرف هذا جيدًا، لذا لا تتفوه بالترهات مرة أخرى ".
تلقى السيد براس ملاحظاتها بمزيد من الوداعة، لكنه قال متمتمًا بصوتٍ خفيض، أنه لا يحب هذا النوع من المزاح أبدًا، وأن الآنسة سالي ستكون زميلًا أفضل بكثير، إذا ما كفَّ عن إغاظته.
ردت الآنسة سالي على هذه المجاملة الرقيقة قائلة بأنها تستمتع بهذا اللهو، وليس لديها أي نية على الإطلاق للتخلي عن متعتها، لم يكترث السيد براس باستكمال الحديث أكثر من ذلك حيث باشر عمله، وكذلك هي، وأصبحا منخرطين في الكتابة إلى حد كبير، فانتهت المناقشة عند هذا الحد.
بينما كانا منهمكين في عملهما، حُجب الضوء المنبعث من خلال النافذة فجأة، كما لو أن شخصًا ما وقف أمامها. رفع السيد براس والآنسة سالي أعينهما عن أوراقهما، موجهين ناظريهما نحو النافذة؛ كي يتبينا السبب، حينها أُنزل إطار النافذة من الخارج، وظهر السيد كويليب مقحمًا رأسه إلى الداخل.
قال، بينما كان واقفًا على أطراف أصابع قدميه، متكئًا على إطار النافذة، وهو ينظر إلى داخل الغرفة: " مرحبًا! هل يوجد أحد في المنزل؟ هل يوجد من يخشى الشياطين هنا؟ هل السيد براس غير مشغول؟ ".
ضحك المحامي ورسم على وجهه حالة من البهجة المتكلفة: " ها ها ها! أوه! إنك مضحك للغاية يا سيدي! أوه! مضحك للغاية في الواقع يا سيدي! هذا أمر فكاهي على نحو غير مألوف إطلاقًا! أوه يا نفسي العزيزة! أي روح فكاهة يمتلكها! ".
تحدث القزم من جديد، ولكن بصوت أجش، رامقًا الأنسة براس الجميلة بنظرة غرامية: " هل هذه عزيزتي سالي؟ هل هذه هي رمز العدالة، تجلس هناك لكن من دون عصبة عينيها، أو أن يكون السيف في يمناها والميزان في يسراها؟ هل هذه يد القانون التي يضرب بها من حديد؟ هل هذه هي عذراء بيفيس؟ ".
صاح براس: " يا لها من روح فكاهة تعم أجواء أي مكان تحل به! أكاد أجزم لك أنها روح إستثنائية! ".

قال كويليپ: " افتح الباب! لقد جئت به إلى هنا. إنه نِعم الكاتب الذي من الممكن أن تحظى به في يوم من الأيام يا براس، إنه بمثابة هدية أقدمها لك، إنه ورقة الـ (آس) الرابحة. هيا! كن سريعًا وافتح الباب، وإلا سوف يقتنصه أي محامٍ آخر يسكن بالجوار، إذا خرج ونظر فقط من نافذته، سوف يقتنصه في لمح البصر، أسرع حتى من أن تلمح عيناك الأمر ".
ربما توحي شخصية السيد براس بأن خسارته لسفينة (فونكس) محملة بالكتبة - حتى لو ربحها منافس له - لن تفطر قلبه على الإطلاق، لكنه على أي حال تظاهر بالحماس الشديد، وقام عن مقعده من فوره، وذهب إلى الباب، وأدخل وكيله، الذي لم يجد من هو أفضل من السيد ريتشارد سويفلر، كي يصطحبه معه يدًا بيد.
قال كويليب، وقد توقف عند الباب فور فتحه، يحملق في الآنسة سالي، رافعًا حاجبيه: " إنها المرأة التي يجب عليَّ أن أتزوجها.. إنها ساسا الجميلة.. إنها الأنثى التي حصلت على كل سحر بنات جنسها، ولم تأخذ أيًّا من نقاط ضعفهن. أوه! سالي، سالي! ".
لم تجب الأنسة براس على هذه الخطبة الغرامية، سوى برد موجز عبارة عن كلمة واحدة، ألا وهي: " مزعج! ".
قال كويليب: " إني أمام قلب من النحاس صلب كالمعدن الذي سميت عائلتها به ([17])، حسنًا! ألا تفكران في إذابة النحاس (براس).. أقصد أن تغيرا اسم عائلتكما، وتختارا اسمًا أقل صلابة؟ ".
ردت الآنسة سالي من فورها، تبتسم ولكن في تجهم: " توقف عن الهراء يا سيد كويليب، إنني أتعجب حقًّا، ألا تخجل من نفسك حينما تتحدث بتلك الطريقة أمام شاب غريب! ".
قال كويليب، وقد جذب ديك سويفيلر إلى الأمام: " إن هذا الشاب الغريب بالخصوص لا يمكنه إساءة فهمي مطلقًا. إنه السيد سويفيلر، صديقي المخلص، إنه رجل نبيل من عائلة كريمة، إنه رجل التوقعات العالية، لكن طيش الشباب وحماسهم لا يزال يسيطر عليه إلى حدٍ ما، لكنه يرضى بأن يحل في وظيفة ذات مكانة متواضعة، ويعمل كاتبًا.. إنها مكانة متواضعة حقًّا، لكنها في أكثر الأماكن المرغوبة. يا له من جو جميل هنا! ".
إذا كان السيد كويليب تحدث بالمعنى المجازي، وقصد بقوله التلميح إلى أن أنفاس الآنسة سالي براس - تلك المخلوقة صعبة المراس - التي تتخلل الجو عطرة، فلديه سبب وجيه بلا شك إذنْ لما قاله، لكنه إذا كان يتحدث عن الجو العام في مكتب السيد براس بالمعنى الحرفي، فإن لديه ذوقًا غريبًا مقززًا بكل تأكيد؛ لأن المكتب كان مغبرًا قريبًا من الأرض، تعبئ الرائحة العطنة كل شيء فيه، فضلًا عن النفحات الكريهة النفَّاذة التي كانت تهب فجأة، بسبب الملابس المستعملة، التي تُعرض للبيع في شارع (هوندسديتش) وكنيسة (الدُّوق جيمس)، ربما كانت الرائحة عبارة عن رائحة فئران وجرذان ممزوجة برائحة عفن. بلا شك قد وصلت تلك الروائح إلى أنف السيد سويفيلر، فقد تشمم الهواء مشمئزًا قرابة المرة أو المرتين، لذلك نظر مستنكرًا متعجبًا إلى القزم المبتسم.
قال كويليب: " إن السيد سويفيلر ماهر في الأعمال الزراعية الخاصة بزراعة الشوفان البري، أحسب يا آنسة سالي بكل حكمة وإنصاف أن الحصول على نصف رغيف أفضل من عدم الحصول على أي خبز. كي أطمئن قلبكِ، وكي نكون في الجانب الآمن، دعيني أقول إنه حاذق في

تفكيره، وخير دليل على قولي هذا موافقته على عرض أخيكِ. إذنْ يا سيد براس، إن السيد سويفيلر تحت إمرتك الآن ".
قال السيد براس: " إنني سعيد للغاية يا سيدي.. سعيد للغاية فعلًا يا سيدي. إنني محظوظ بما يكفي لصداقتك يا سيد سويفيلر. لا بد أنك فخور جدًّا يا سيدي لصداقتك بالسيد كويليب ".
تمتم السيد سويفيلر بينه وبين نفسه بكلمات مفادها على وجه التقريب أنه في غنى تام عن تلك الصداقة أو عن أي زجاجة خمر تأتي منه، بالإضافة إلى أنه قال لاهثًا ساخرًا عبارته المفضلة الخاصة بجناح الصداقة الذي لا يُسقط ريشة.. في أثناء ذلك الوقت، كان القزم يراقب ما حوله جيدًا في خبث تام، كان من الواضح له أن شخصية سويفيلر، قد حازت على انتباه الآنسة براس، التي بدت كأنها تتدبر أمره فعليًّا، فقد كانت تحدق فيه بنظرات شاردة وكئيبة على حد سواء، مما أسعد القزم اليقظ إلى أبعد الحدود، أما بالنسبة إلى الآنسة سالي نفسها، فقد كانت تفرك يديها إحداهما بالأخرى كما يفعل السادة من رجال الأعمال، وتتمشى جيئة وذهابًا في المكتب، واضعةً قلمها خلف أذنها.
قال القزم، ملتفتًا في خفة نحو صديقه رجل القانون: " أظن أن السيد سويفيلر سيتولى مهامه جميعها من الآن ومرة واحدة.. أليس كذلك؟ إنه صباح يوم الإثنين ".
قال براس: " من الآن! إذا كانت هذه هي رغبتك يا سيدي، فلتكن إذنْ ".
قال كويليب: " سوف تُعلِّمه الآنسة سالي دراسة القانون.. ما أبهج دراسة القانون معها.. إنها ستكون معلمته ومرشدته وصديقته ورفيقته، إنها سوف تكون له كـ (بلاكستون) ([18])، إنها ستكون له كـ (كوك مع ليتلتون) ([19])، إنها ستكون له أفضل رفيقة محامية ".
قال براس، وهو ينظر إلى سطح البيت المقابل له، ويضع يديه في جيبيه، شارد الذهن تمامًا: " إنه بليغ للغاية! لديه ذائقة لغوية إستثنائية ".
قال كويليب: " أحسب أن أيامه ستمر كالدقائق، ما دامت في صحبة الآنسة سالي، وسوف يكون مولعًا بدراسة القانون مع الآنسة سالي. انتظرا فقط حتى يحل عليه إلهام إبداعاته الشِّعرية الساحرة؛ حينها تتسع مداركه، كأن عالمًا جديدًا من الإسهاب والإطناب لكل ما طاب لعقله، وما حسن لقلبه، قد فُتح له ".
صاح براس: " أوه، جميل، جميل! جميــل! جميل جدًّا في الواقع! إذن سيكون من المسلي والممتع سماعه! ".
قال كويليب، وهو ينظر حوله: " أين مقعد السيد سويفيلر؟ ".
رد عليه براس قائلًا: " سوف نشتري له مقعدًا آخر بالتأكيد يا سيدي.. لم نكن على دراية أبدًا بأن رجلًا نبيلًا مثله سينضم إلينا يا سيدي - لقد كنتَ كريمًا فاضلًا معنا بما يكفي يا سيدي ورشحته لنا - فضلًا عن ذلك فتجهيزات إقامتنا هنا ليست متكلفة.. لكننا على كل حال، سنتدبر أمر شراء كرسيٍّ مستعمل يا سيدي. وفي غضون ذلك الوقت، من الممكن أن يجلس السيد سويفيلر هنا على الكرسي الخاص بي، وينشِّط يده في التدريب على نسخة دعوى الاسترداد هذه، فإنني سأكون بالخارج طوال الصباح تقريبًا..".
قال كويليب: " إذا كان الأمر كذلك، تعال معي إذنْ؛ أريد أن أقول لك كلمة أو كلمتين بخصوص العمل، هل يمكنك إتاحة بعض الوقت لذلك؟ ".

أجاب المحامي، وهو يعتمر قبعته: " هل يمكنني إتاحة بعض الوقت للمشي معك! هل تمزح معي يا سيدي! بالتأكيد تمزح معي.. أنا مستعد يا سيدي، مستعد تمامًا. إن وقتي مشغول بالكامل يا سيدي، لا يسمح أبدًا بالمشي. لكنك لست أي شخص با سيدي، ولا يتاح لأي شخص فرصة أن يطور من نفسه ويعتلي بها، من خلال الحديث مع السيد كويليب نفسه ".
نظر القزم بتهكم واضح وسخرية لاذعة نحو صديقه النحاسي، ثم استدار على عقبه مع كحة قصيرة متنحنحًا؛ كي يودع الآنسة سالي، بعد وداع أنيق ألقاه عليها، وبعد وداع هادئ لطيف ألقته عليه، أومأ برأسه إلى ديك سويفيلر، ومن ثمَّ غادر مع المحامي.
وقف ديك إلى جانب المكتب في حالة من الحماقة المطلقة، يحدق مليًا في الآنسة سالي المفعمة بالحيوية، كما لو كانت هجينًا ناتجًا من تزاوج مجموعة حيوانات مثيرة للفضول، لم تظهر على سطح الكوكب أبدًا، ولم يكن لها وجود من الأساس. حينما عاد القزم إلى الشارع ثانيةً، سارع بالاتكاء على إطار النافذة مرة أخرى، يسترق النظر إلى المكتب بوجه مبتسم في حذر ومكر، كما لو كان ينظر إلى قفص. نظر ديك نحوه إلى الأعلى، لكن دون إظهار أي إيماءة لوجوده، رحل كويليب، ولا يزال سويفيلر يقف ثابتًا في مكانه كأن جذورًا قد نمت له، وغرسته في الأرض، يحدق في الآنسة سالي براس، دون أن يحرك ساكنًا، لا يفكر ولا ينظر إلى أي شيء آخر.
خلال ذلك الوقت، لم تنتبه الآنسة براس إلى أي من تصرفات ديك، كأنه لم يكن موجودًا، فقد صبت تركيزها الجم على كشوف الحسابات، تخربش بقلمها على الأوراق، تصدر صريرًا عاليًا، تسجل الأرقام وتحسبها في بهجة واضحة، باتت تعمل كأنها محرك بخار لا يتوقف. أما سويفيلر، فأضحى ينظر الآن إلى فستانها الأخضر، ووشاحها البني، ووجهها، ثم إلى حركات قلمها السريعة، مشوشًا في بلاهة طاغية، يتعجب؛ كيف انتهى به الحال، ليزج به في صحبة هذا الوحش الغريب، يشعر أنه يعيش حلمًا، لن يستيقظ منه مطلقًا. لكنه على أي حال، استفاق من شروده، متنهدًا، وبدأ يخلع معطفه ببطء.
خلع السيد سويفيلر معطفه، وطواه في أناقة بالغة، دون أن يحرك جفنًا، محدقًا طوال الوقت في الآنسة سالي، ارتدى سترة زرقاء ذات صف مزدوج من الأزرار المذهبة، إعتاد أن يرتديها أثناء رحلاته المائية، لكنه أحضرها معه هذا الصباح من أجل الأعمال المكتبية، كل هذا ولا يزال يراقبها، ولم يشح بناظريه عنها أبدًا، لكنه ساق نفسه أخيرًا نحو مقعد السيد براس في صمت تام، وجلس في ضجر. لكن لم تكد تمر بضع لحظات، إلا وداهمته انتكاسة قوية، فقد خارت قواه ثانية، أسند ذقنه على راحة كفه، أخذ يحدق فيها، يفتح عينيه على اتساعهما، لدرجة أن بدا كأنه لن يعود قادرًا على إغلاقهما مرة أخرى.
طالت فترة تحديقه فيها، لدرجة أن عينيه لم تعودا تبصران شيئًا، أشاح بنظريه عن مصدر دهشته، وألقاه على النسخة التي يجب عليه كتابتها، مقلبًا صفحاتها، ثم بحركات بطيئة للغاية، غمس قلمه في المحبرة، وبدأ في الكتابة. لم يكن قد كتب ما يعادل ست كلمات، إلا ورفع ناظريه عن الورق؛ كي يغمس قلمه ثانية في المحبرة، لكنه لم يبصر سوى وشاح بني بشع لا يطاق النظر إليه، وفستان أخضر.. باختصار، لم يبصر سوى الآنسة براس، جالسة في كامل بهائها، لكنه كان بهاءً واضحًا أكثر من أي وقت مضى.
حدث ذلك الموقف مرات ومرات، لدرجة أن السيد سويفيلر بدأ يشعر برغبات غريبة تعتمل في صدره، رغبات رهيبة تسعى لمحق غموض الآنسة سالِي براس، فيتصور نفسه ينتزع وشاحها؛

ليرى كيف تبدو من غيره. كانت هناك مسطرة كبيرة جدًّا على المكتب أمامهما، مسطرة، سوداء، كبيرة جدًّا. انتشلها من فوره وبدأ يفرك بها أنفه.

بعد أن فرك أنفه بالمسطرة، أمسك بها بيده في إحكام، وأخذ يلوح بها يمينًا ويسارًا في خفة، على نحو جعله كأنه يمسك بالتمهوك (فأس الهنود الحمر)، ملوحًا به في تأنق غير معهود. اقتربت بعض تلك التلويحات من رأس الآنسة سالي، فتطايرت أطراف وشاحها الخشنة بفعل تسارع الهواء أمامها، صار يلوح قريبًا جدًّا منها على مسافة شبر واحد.. لكن حتى لو وقعت تلك العقدة البنية على الأرض، فلن تحرك رمشًا لتلك العذراء اللاواعية، ولن يرفع لها جفنًا من شدة انهماكها في عملها.

حسنًا، كان في هذا ارتياح كبير له. شرع يكتب في صخب وجموح، حتى داهمه اليأس الممل، فالتقط المسطرة، وأخذ يلوح بها بشكل دائري حول وشاحها، مصدقًا توهمه بأن في إمكانه أن ينتزع عن رأسها الوشاح، إذا أراد ذلك. لقد كان من الجيد أن يسحبها مرة أخرى، ويعاود فرك أنفه، لكن هذه المرة أخذ يفركها بشدة بالغة، فقد تصور أن الآنسة سالي كانت على وشك أن ترفع عينيها، وأنه على مقربة من أن يعوض عن هذا بتلويحات أكثر سرعة، لكنها لا تزال مستغرقة في عملها. بالوصول إلى هنا، كانت رغبات السيد سويفيلر قد أحبطت إلى حد ما، حتى أمست تلويحاته بالمسطرة أقل ضراوة وغير متكررة، فقد تمكن بالكاد من كتابة ستة سطور متتابعة، دون أن يلجأ إلى تكرار فعلته، وهذا بمثابة تقدم مشهود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الرابع والثلاثون

بعد مضي بضع ساعات، كان الصمت فيها مخيمًا على المكتب، وبعد عمل دؤوب، وصلت الآنسة براس أخيرًا إلى نهاية مهمتها، وأكدت على هذا الأمر بمسح قلمها في فستانها الأخضر، مستنشقة نفحة من علية دائرية بالغة الصغر، كانت تضعها في جيبها، بعد أن فرغت من هذا الانتعاش المعتدل، وقفت عن كرسيها، رزمت الأوراق في ظرف رسمي، ربطته بشريطة حمراء، ثم تأبطته، ومشت إلى خارج
المكتب.

لم يكن السيد سويفيلر طوال هذا الوقت قد بارح مكانه، لذلك حينما غابت عن ناظريه، وقف عن كرسيه في مجون تام، متخذًا وضع رقصة البوق البريطانية، ليعبر عن السعادة القصوى التي خالجت صدره، لكونه بمفرده أخيرًا بعد تلك الساعات الطويلة، لكنه سرعان ما توقف؛ حينما فُتح الباب، وظهر رأس الآنسة سالي مرة أخرى.

قالت الآنسة براس: " أردت قول أنني سأخرج ".

قال ديك: " عظيم جدًّا يا سيدتي ". ثم أسرَّ بحديث داخل قرارة نفسه: " ولا تكوني في عجالة من أمرك، وتعودي باكرًا يا سيدتي ".

قالت الأنسة براس: " إذا أتى أي أحد إلى المكتب بخصوص شؤون العمل، تلقَّ رسالته، وأخبره أن السيد المسؤول غير متواجد، أدركت ماذا ستفعل؟ ".

أجاب ديك: " نعم يا سيدتي، سأفعل ذلك بكل تأكيد ".

قالت الآنسة براس في خجل: " حسنًا! على أي حال، أحسب أنني لن أبقى طويلًا بالخارج ".

قال ديك معقبًا: " إنني آسف حقًّا لسماعي ذلك يا سيدتي، آمل أن يزج بكِ في السجن إلى أمد مجهول يا سيدتي، أو ربما من الأفضل أن تتعرضي لحادث يا سيدتي، لا! ليس عن جد! أقصد أنه سيكون من الأفضل كثيرًا يا سيدتي ".

بعد أن نطق ديك سويفيلر بما يكنه صدره من نوايا حسنة في رزانة وبثبات انفعالي، بالتأكيد بعد أن رحلت الأنسة براس وأغلقت الباب مباشرةً، جلس على مقعد الوكلاء متدبرًا أمر شيء ما، ثم قام عنه، وأخذ يتجول في الغرفة جيئةً وذهابًا، حتى عاد ليجلس مجددًا على المقعد ذي المسندين.

قال ديك: " حسنًا! أنا الآن كاتب براس، أليس كذلك؟ كاتب براس.. هاه؟ وكاتب الآنسة شقيقة براس.. كاتب أنثى التنين. عظيم جدًّا.. عظيم فعلًا؟ ماذا يجدر بي أن أكون بعد ذلك؟ هل حريٌّ بي أن أكون سجينًا، يضع على رأسه قبعة اللباد، يتجول في ساحة السجن، مرتديًا البدلة الرصاصية، ورقمه التسلسلي مطبوع بدقة على زيه، وشارة (فارس الرباط) مربوطة إلى ساقه - كي لا تبلى بسبب الاحتكاك بكاحله - بواسطة المنديل الأزرق المنقط بنقط بيضاء، تتوسطها نقط زرقاء؟ هل حريٌّ بي أن أكون كذلك؟ هل هذا ما سيحدث لي فعلًا؟ أم أن ذلك هين لطيف؟ على العموم، أيًّا كان ما ترجوه، احصل عليه بطريقتك الخاصة بالطبع ".

لم تفت إلا لحظات قليلة على وجود السيد سويفيلر بمفرده، وإذ به قد باح بكل ما في جعبته، لا حيلة له، فهو خاضع لمصيره وقدره. بناء على هذا الموقف ومواقف سابقة، يتبيَّن أن تلك هي

عادة الأبطال، يتهكمون بطريقة مريرة على الواقع، وعلى أنفسهم فور تعرضهم لسخرية الحياة، فلم تكن تصوراته، ومخاطبته لنفسه بالأمر الغريب، فتلك كانت عادته أمام نوائب الدنيا غير السارة. على الرغم من أنها تكهنات، لا إثبات عليها، كان هذا هو التفسير المحتمل الوحيد لما استجد على حال السيد سويفيلر، الذي بات يتحدث بما يكنه صدره، موجهًا حديثه إلى السقف، بغض النظر عن أننا لا نجد تلك الإيماءات الجسدية عادةً على أرض الواقع، باستثناء في العروض المسرحية، حينما يُحيِّي الأبطال بكامل جوارحهم في بهاء الثريا.
استطرد ديك في حديثه بعد أن داهمته لحظات من التفكير الصامت، وصار بعد تداعيات موقفه على أصابعه: " أتى كويليب بي إلى هذا المكان، ويقول إنه يستطيع تأميني.. فريد! فريد الذي كان من الممكن أن أحصل منه على إقرار مكتوب أمام المحكمة، أصبح لا يكترث البتة، بل والأدهى من ذلك، وما يثير دهشتي حقًّا أنه يدعم كويليب، ويحثني على فعل ذلك أيضًا.. عظيم عظيم! واحد.. عمتي! لقد توقفت عن إرسال أي معونات، بل والأدهى تكتب إليَّ ملاحظة حميمية بالغة المودة، تقول لي فيها أنها تكتب وصية جديدة، ولن تشملني بكل تأكيد.. عظيم عظيم! اثنان.. تُركت دون مال، دون ائتمان، حتى دون أي مساعدة من فريد، الذي بدا مستقرًا على حين غرة، بالإضافة إلى إخطارات الطرد من غرفة سكني القديم.. بالغ العظمة! ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة! مع تراكم كافة هذه التداعيات على المرء، فإن حريته ما هي إلا محض خيال. لا أحد يصارع نفسه، إذا كان مصيره يصارعه ويريد أن يطرحه أرضًا، يجب على المصير أن يتغير، لينتشله مرة أخرى، حسنًا حسنًا! أنا سعيد جدًّا؛ لأن كل هذا أصبح على عاتقي، يجب أن أتعامل مع الأمر بلا مبالاة قدر الإمكان، وأتعامل كأن شيئًا لم يكن، لإثارة غيظه ". أشاح بناظريه عن السقف في إيماءة معبرة وقال: " فلندع الأمور تتفاقم، ونرى من منا سيتعب أولًا! ".
بغض النظر عما أثار تلك الجلبة والصراعات داخل عقل السيد سويفيلر، وبغض النظر عن الموضوع الذي أثار انعكاسات من التخبط الفكري داخل عقله، إلا أنه بلا شك موضوع عويص، وحقيقة ليست مجهولة بالنسبة للقيم الراسخة للفلسفة الأخلاقية، تخطى السيد سويفيلر انحصاره داخل تلك الأفكار، وسرعان ما نحَّى يأسه، مستحضرًا بهجة سهولة عمله، فقد أصبح كاتبًا دون أي مسؤوليات.
حاول إستعادة رباطة جأشه وثباته الانفعالي، فقد صب كل تركيزه على فحص المكتب، مستغرقًا وقتًا طويلًا، أكثر مما يتطلبه ذلك المكتب الأمر مع التدقيق الشديد، تفقد صندوق الشَّعر المستعار، والكتب، وقنينة الحبر، أخرج الأوراق من ملفاتها، ألقى عليها نظرة، وخريش بعض الأدوات الموضوعة على المكتب بشفرة مدية الجيب الحادة للسيد براس، ناقشًا اسمه داخل سطل الفحم الخشبي. بعد أن وضع بصمته على كل شيء، كما لو أنه عن طريق تلك الإجراءات، يثبت حيازته الرسمية على عضوية الكتبة مثلًا، فتح النافذة، واتكأ على إطارها ينظر إلى الشارع، حتى صادف ومرَّ صبي يبيع الجعة، فأمره من فوره أن يضع الصينية، ويقدم له نصف لتر من الجعة متوسطة الكحول، شربه دفعة واحدة، ودفع ثمنه من فوره؛ بهدف تمهيد الطريق أمام نظام ائتماني في المستقبل، وفتْح سبيل للتعامل الودي في هذا المكان، دون إضاعة للوقت. أتى بعد ذلك ثلاثة أو أربعة صبية في مهام رسمية، مكلفين بها من ثلاثة أو أربعة محامين لا يقلون مكانة عن السيد براس، يُذكر للسيد سويفيلر أنه قابلهم وودعهم بطريقة مهنية، أما عن الفهم الصحيح والاستيعاب لطبيعة عملهم، فلم يكن سوى مهرج يمثل في مسرحية إيمائية في ظل

الظروف المماثلة. حينما فرغ من كل هذا، عاد إلى المقعد مرة أخرى، غمس القلم في المحبرة، وبدأ في رسم صورة كاريكاتورية للآنسة براس، وهو يصفر في مرح شديد طوال الوقت.
بينما كان جامحًا في لهوه، توقفت عربة قبالة الباب، تبعت توقفها طرقات عالية على الباب. نظرًا لأن وظيفة الكاتب لا تتضمن مهام فتح الباب لمن يطرق عليه، ما دام الشخص لا يقرع جرس المكتب، فقد استكمل لهوه في رباطة جأش مثالية، على الرغم من اعتقاده الكامل أن لا أحد في المنزل غيره.
لقد كان مخطئًا في هذا الصدد؛ لأنه بعد أن تكررت الطرقات في نفاد صبر عارم، فُتح الباب، وسمع وقع أقدام ثقيلة، تصعد الدرج، وتنتقل إلى الغرفة العلوية، بينما خطر على بال السيد سويفيلر تساؤلات كثيرة، عما إذا كان هناك آنسة براس أخرى، تكون توأم لأنثى التنين، سمع صرير مفصلات باب المكتب.
قال ديك: " هيا ادخل! لا تلتزم بالشكليات والمظاهر، كان الأمر سيغدو معقدًا إلى حد ما، إذا كان لديَّ العديد من العملاء هنا.. هيا ادخل! ".
قال صوت منخفض جدًّا، ينبعث من عند الباب: " أوه! من فضلك يا سيدي! هل من الممكن أن تأتي وتعرض المسكن؟ ".
مال ديك بجزعه فوق المكتب، فرأى طفلة صغيرة، ترتدي مريلة خشنة رثة متسخة، ومئزرًا، يغطيانها أولًا عن آخر، غير تاركة سوى قدميها ووجهها مكشوفين فقط. بدت كأنها ترتدي حقيبة آلة الكمان.
قال ديك: " من أنت؟ ".
لم تجئْ جملتها ردًا على استفهامه، بل جاءت على هذا النحو: " أوه! من فضلك! هل من الممكن أن تأتي وتعرض المسكن يا سيدي؟ ".
لم يكن هناك أحد أبدًا يماثل تلك الفتاة في قِدم طريقتها وسلوكها وشكلها. بدت كما لو كانت تعمل منذ مهدها. بدت خائفة جدًّا من ديك، بقدر ما كان ديك نفسه مذهولًا منها.
قال ديك: " لا شأن لي هنا بالمسكن.. قولي لهم أن يأتوا مرةً أخرى ".
قالت الطفلة: " من فضلك! يجب أن تأتي وتعرض المسكن.. ستكون الإقامة مقابل ثمانية عشر شلنًا في الأسبوع الواحد، وستتوفر أدوات المائدة والمنسوجات الكتانية، إلى جانب أن الملابس والأحذية إضافية، ويجب أن تُدفع ثمانية بنسات لليوم الواحد في الأيام الشتوية مقابل إذكاء النيران ".
قال ديك: " حسنًا! إذا كان الأمر كذلك، لماذا لا تذهبي بنفسكِ وتعرضي المسكن؛ من الواضح لي أنك ملمة بكل التفاصيل ".
" إن الآنسة سالي قالت إنه يجب عليَّ ألَّا أفعل هذا الأمر بالذات؛ لأن الناس إذا رأوا كم أنا صغيرة، لن يصدقوا مطلقًا أن الإقامة جيدة، حتى قبل أن تدخل أقدامهم المكان ".
قال ديك: " حسنًا! لكنهم حتمًا سيرون كم أنت صغيرة فيما بعد.. أليس كذلك؟ ".
نظرت الطفلة نظرة تدل على الفطنة وقالت: " آه! إنه أمر لا جدال عليه! لكن حينما يأتي هذا الوقت سيكون قد مر على حجزهم أكثر من أسبوعين، إضافة إلى أن الناس إذا ما حدث واستقروا في مكان ما، لن يفضلوا الإنتقال منه أبدًا؛ سيكون أمرًا شاقًّا عليهم ".
قال ديك متمتمًا: " يتعذر على فهمي إدراك نقطة ما.. أتقصدين بقولكِ أنكِ.. الـ.. الطاهية؟ ".

ردت الطفلة قائلةً: " نعم! أنا أطبخ أكلات بسيطة، إنني خادمة المنزل أيضًا، أقوم بكافة الأعمال المنزلية هنا ".
داهمت الأفكار عقل ديك مرة أخرى، متحدثًا إلى نفسه: " أظن أن براس وأنثى التنين وأنا نقوم بأقذر جزءٍ منها "، ربما انغمس في أفكاره أكثر فأكثر، لدرجة أنه بدا شاردًا مترددًا بالكلية، لكن صوت الطفلة الذي تردد بالقرب من أذنه، يحثه على الطلب نفسه، وأصوات متذمرة وأصوات أخرى يجهل مصدرها غامضة تتردد بالخارج في الممر وأعلى الدرج، دلت على نفاد صبر صاحب الطلب، انتشلته من شروده. وضع ريتشارد سويفيلر قلمًا خلف كل أذن، ووضع آخر بين شفتيه، كرمز لعلو شأنه، ومكانته الكبرى، ومدى إخلاصه وانهماكه في العمل، وسارع نحو الخارج، ليلتقي الرجل الأعزب ويتعامل معه.
سرعان ما تغير نمط سلوكه الذي خرج به من المكتب، صار مندهشًا بعض الشيء؛ فور تبينه أن مصدر الجلبة، والأصوات التي سمعها، آتيًا من أعلى الدرج، سببه نقل صندوق الرجل الأعزب، والذي من الواضح أن عرضه يقترب من ضعف عرض الدرج، فضلًا عن كونه بالغ الثقل، على الرغم من المجهودات التعاونية المبذولة من الرجل الأعزب ومن سائق العربة، لم يكن من السهل أبدًا أن يتمكنا من رفع هذا الثقل مع انحدار الدرج. كانا يدفعان من كل إتجاه، يدفعان حتى أحدهما الآخر، ثم يسحبان ثانية بكل ما أوتيا من قوة، يحاولان تمريره بكل وسيلة ممكنة، يقلبانه رأسًا على العقب، يحاولان إدخاله بكل الزوايا المحتملة، لذلك كان التحدث معهما أمرًا لا طائل منه، فليس هناك ما قد يستدعيه الحديث أهم من ذلك شأنًا، فتبعهما السيد سويفيلر ببطء، محتجًّا ممتعضًا، كلما صعد درجة من درجات السلم، كلما انهال عليهما بتذمر جديد، مستهجنا تلك العاصفة التي اجتاحت منزل السيد ساميسون براس فجأةً.
على الرغم من هطول الاحتجاجات على مسامع الرجل الأعزب، لم ينبس ببنت شفة، لكنه على كل حال تمكن أخيرًا من إدخال صندوقه إلى غرفة النوم، جلس عليه، ومسح رأسه الأصلع ووجه بمنديله. بدا عليه الشعور بالحر الشديد، فقد كان يتصبب عرقًا، لكن لا شيء غريب في ذلك، ناهيك عن الجهد المضني الذي بذله لرفع صندوقه عبر الدرج، فقد كان ملتحفًا ملابس شتوية، على الرغم من ثبات ميزان الحرارة طوال اليوم على الدرجة الحادية والثمانين في الظل.
قال ريتشارد سويفيلر بعد أن أخرج القلم من بين شفتيه: " إني أثق تمام الثقة في أنك سوف تجد مبتغاك في هذا المسكن يا سيدي. إنها شقق ساحرة رائعة جذابة يا سيدي. أما المنظر الذي تطل عليه الشقق، فإنه منظر خلاب، إنها تطل مباشرة على.. على الشارع بأكمله، وتقع بعد دقيقة مشي واحدة من.. من زاوية الشارع. أما عن مميزات الموقع، ففي المنطقة المجاورة مباشرة يمر صبي يبيع جعة معتدلة الكحول، إنها ممتازة، باختصار، أريد أن أبلغك أن المميزات التي يتمتع بها المكان لا حصر لها ".
قال الرجل الأعزب: " كم الإيجار؟ ".
رد ديك محاولًا تحسين الوضع: " جنيه واحدٌ فقط مقابل الأسبوع كاملًا
- قبلت العرض.
استأنف ديك قائلًا: " إلى جانب أن الملابس والأحذية إضافية، وإذكاء النيران في الأيام الشتوية سيكون مقابـ..".
قال الرجل الأعزب: " حسنًا حسنًا! أوافق على كل شيء ".

قال ديك: " أحسب أن أسبوعين سيكونان مـ.. ".
صاح الرجل الأعزب بأسلوب فظ، وهو يتطلع إليه من أخمص قدميه إلى أعلى رأسه: " أسبوعين! قل عامين.. سوف أمكث هنا لمدة عامين.. تفضل، عشرة جنيهات، أبرمت الصفقة إذنْ ".
قال ديك: " مهلًا مهلًا! إن اسمي ليس براس، وأنتـ..".
- ومن قال إنه كذلك؟ اسمي ليس براس.. ها! وماذا بعد.
قال ديك: " إنه اسم مالك المسكن ".
قال الرجل الأعزب: " إني سعيد لمعرفتي بذلك، إنه اسم جيد لمحامٍ. أيها السائق! يمكنك أن ترحل الآن ".
تيبس السيد سويفيلر في مكانه، مرتبكًا مشوشًا، لا يصدق الازدراء الملحوظ الذي تعامل به معه هذا الرجل الأعزب، لدرجة أنه وقف ينظر إليه بالحدة نفسها التي كان ينظر بها إلى الآنسة سالي. مع ذلك، لم يتأثر الرجل الأعزب ولو بدرجة طفيفة من فعله، بل شرع في رباطة جأش مثالية، في إرخاء الشال الذي كان معقودًا حول رقبته وخلع حذائه. بعد أن حرر الرجل الأعزب جسده من تلك المعوقات، شرع في تجريد نفسه من ملابسه الأخرى، كلما خلع قطعة، كان يطويها بإتقان شديد، ويضعها في هدوء تام على صندوقه، بعد أن انتهى، اتجه نحو النافذة، أسدل الستائر، ثم عبأ ساعته، وأوى إلى فراشه في روية وثبات تام.
كانت كلماته الأخيرة، بينما كان ينظر إلى الفراغ الذي خلَّفه بين ستائر الناموسية المسدولة: " خذ الرسوم.. ولا تدع أحدًا يأتي إليَّ، حتى أرن الجرس ". وبعد أن أحكم غلق ستائر الناموسية، ارتفع صوت غطيطه في الحال.
تيقظ ديك من شروده، وغادر الغرفة، يتمتم بكلمات بينما كان عائدًا إلى المكتب، والرسوم في يده، ويقول: " حريٌّ بهم أن يطلقوا عليه بيت الظواهر الغربية وخوارق الطبيعة! أولًا: أنثى التنين التي تتصرف كالرجال المحترفين في العمل. ثانيًا: طاهية الأكلات البسيطة، التي لا يتعدى طولها ثلاث أقدام، كأنها بغرابة تامة نبتت من تحت الأرض! ثالثًا: أشخاص غرباء يأتون ويقتحمون المكان، يثيرون الجلبة، ثم يخلدون إلى النوم دون ترخيص أو إذنٍ وفي منتصف النهار! إذا كان ذلك الشخص أحد هؤلاء الخارقين للطبيعة الذين يحضرون بين الحين والآخر، وكانت قواه الخارقة تكمن في قدرته على النوم لمدة عامين كاملين، حينها سيكون الأمر لطيفًا بالنسبة لي. إنه قدري شئت أم أبيت، على كل الأحوال، آمل أن ينال إعجاب براس. سأكون آسفًا حقًّا إذا لم يعجبه. لكن ما لي دخل بهذا الشأن من الأساس.. حتى إذا كان، ليس باليد أي حيلة، دع الأمور تأخذ مجراها ".





الفصل الخامس والثلاثون

تلقى السيد براس فور عودته تقريرًا شاملًا من كاتبه عما حدث في اليوم، سرَّت له نفسه، ورضت عنه ذاته بقدر كبير، وازداد رضاه أضعافًا؛ خاصةً حينما تفقد ورقة العشرة جنبهات، ووجد أنها ورقة مالية في حالة جيدة، والأهم أنها قانونية صادرة من بنك إنجلترا. ازدادت رحابة صدره كثيرًا، وغمُر قلبه بفائض من التسامح والسخاء؛ فدعا السيد سويفيلر لمشاركته صحنًا من اللكمة، التي يشتهيها المرء في زمن مجهول من ماضيه، وعقد العزم على أن يحقق رغباته وهو يقول: " يومًا ما "، بالإضافة إلى أنه أطرى على مسامعه بالعديد من عبارات الثناء اللطيفة، بسبب كفاءته غير المعهودة، التي تجلت بوضوح في يوم عمله الأول.

لطالما كان السيد براس يتبع نهجًا معينًا طوال حياته وهو (إذا أحسن المرء قولًا، حافظ على لسانه رطبًا)، إن ممارسة المحاماة كلها متوقفة على هذا العضو العضلي، لن يكون من المستحب أبدًا أن يجف أو أن يصيبه الثقل، رأى أن مثله مثل أي آلة إذا تركت دون استخدام، يتخللها الصدأ، وتشرع صواميلها في الصرير، لذلك يجب أن يكون رطبًا بليغًا طليقًا، ومن هذا المنطلق، لا يضيع السيد براس إلا فرصًا قليلة جدًّا كي يحسن من مستوى أدائه، فيوظف لسانه في ذكر عبارات الثناء وخطب المديح. أصبح حديثه المعسول عادةً لا يكف عن فعلها، لكن هيهات، كان من الأحرى به إعتماد أي نهج آخر؛ لأن اللسان موجود في أكثر الأماكن التي تكشف عن تعبيرات المرء، كان من الأحرى به أن يتمنى لو أن لسانه كان موجودًا في مكان آخر غير وجهه، فكما عرفناه من قبل، كان وجهه مكفهرًا، وملامحه مزعجة، وتعبيراته مثيرة للاشمئزاز، لذلك من العبث أن يرتسم كل هذا حول العضو الذي يلقي خطبه المادحة.. تُعلمنا الطبيعة دروسًا تحاكي الواقع البشري، فكما تحذر المنارة من يعبرون المياه الضحلة، أو من يغامرون بالإبحار وسط الأمواج العاتية، تحثهم على البحث عن أي ميناء أقل غدرًا، وتجربة حظهم في أماكن أخرى، تفعل منارة الدنيا الشيء نفسه بشأن الاقتراب ممَّن هم محنكون في القانون، ويجيدون التلاعب به.

بينما كان السيد براس ينهال بالإطراء وعبارات المدح على كاتبه، متفقدًا ورقة العشرة جنيهات، أظهرت الآنسة سالي القليل من المشاعر، لكنها كانت مشاعر خالية تمامًا من السرور؛ فقد عدلت نزعتها القانونية من أفكارها حول المكاسب الصغيرة أو إبداء التذمر لتحتكم إلى حكمتها وتوضحها، لم تكن تشعر بخيبة أمل لأن هذا الرجل الأعزب حصل على مسكنه مقابل هذا السعر الزهيد، بل بسبب من وافق على إبرام الصفقة، على الرغم من ملاحظته أن الرجل الأعزب أصر على هذا المكان بعينه، فكان من اللازم أن تكون الرسوم على الأقل ضعف أو حتى ثلاثة أضعاف الشروط المفترضة، وهذا بحسب مدى إصراره، لذلك كان يجب على السيد سويفيلر التراجع، وعدم إبرام الصفقة على هذا الحال. لكن وقع كلمات السيد براس المادحة ورأيه الجيد، واستياء الآنسة سالي كانا على حد سواء بالنسبة له؛ لم يؤثر كلاهما في هذا الرجل النبيل، ولم يثيرا بداخله أي انطباعات، فقد أخلى مسؤوليته تمامًا عن هذا الحدث وغيره من الأحداث، ملقيًا بالسببية المؤكدة على حظه العسر، فإذ به يحرر نفسه من ثقل اللوم، ويمضي في سلام، هادئًا مرتاحًا، مستعدًا على أكمل وجه، ومرحبًا بالأسوأ - فلسفيًّا - غير مبال بالأفضل.

"صباح الخير يا سيد ريتشارد". كانت تلك هي التحية التي ألقاها السيد براس، في بداية اليوم الثاني لعمل السيد سويفيلر ككاتب، ثم استأنف حديثه وقال: " حصلت لك الآنسة سالي على كرسي يا سيدي، ذهبت مساء أمس إلى حي (وايت تشابل) وانتقته بنفسها، أكاد أجزم لك أنك ستجد هذا الكرسي جيدًا من الدرجة الأولى، إن الآنسة سالي جيدة جدًّا في انتقاء خياراتها ".
قال ديك: " إنني متحمس للغاية لرؤيته ".
قال السيد براس: ': " ستتأكد بنفسك من أنه من أجود وأمتن الكراسي التي ستجلس عليها.. اشترته من الشارع المقابل للمستشفى، ولأنه كان معروضًا هناك لمدة شهر أو شهرين فقط، ستجده مغبرًا بعض الشيء، ولونه قارب إلى البني بسبب تعرضه للشمس طوال هذه الفترة.. هذا ما في الأمر كله ".
رد عليه ديك قائلًا: " آمل فقط ألَّا تكون الشمس قد سفعته، أو أصيب بالحمى أو أي شيء من هذا القبيل ". ثم تقدَّم مستاءً قلقًا، ليجلس بين السيد سامبسون والآنسة سالي المحتشمة، على الكرسي المختار: " إن أحد قوائمه الأربعة أطول من الأخرى ".
رد براس من فوره بحجة جاهزة: " إذنْ نكون قد حصلنا على قطعة خشب زائدة.. ها ها ها! حصلنا بفضلك على كرسي وقطعة خشب زائدة عن الحاجة يا سيدي.. قلت لك إنها جيدة جدًّا في انتقاء خياراتها، هكذا عرفنا ميزة أخرى من مميزات ذهاب أختي إلى السوق من أجلنا. يا آنسة براس، إن السيد ريتشارد هو الـ..".
قاطعته المعنية بحديثه، بعد أن رفعت ناظريها عن أوراقها وقالت: " هل من الممكن أن تبقى صامتًا! كيف من الممكن أن أعمل بينما تواصل هذه الثرثرة؟ ".
قال المحامي: " يا لك من شخص متقلب المزاج! تدفعنا إلى الحديث أحيانًا، وترغمنا على التوقف بسبب عملك أحيانًا أخرى. إن المرء أصبح في حيرة من أمرك، بات لا يعرف كيفية التمييز بين أمزجتك، وفي أي مزاج سيجدك ".
قالت سالي: " أنا في مزاج العمل الآن، لذلك رجاءً لا تزعجني! ".
ثم أشارت الآنسة سالي بريشة قلمها نحو ريتشارد واستأنفت قائلةً: " ومن فضلك! لا تشغله عن أداء عمله، إني أجرؤ على أن أقول إن منجزه قليل لا يذكره ".
كان من الواضح أن كلمات الآنسة سالي لم تمر هونًا على مسامع السيد براس، فقد بدت أمارات الحنق على وجهه، لدرجة أنه أوشك على أن ينهال عليها برد غير حميد ساخط، لكنه كبح جماحه في آخر لحظة، استنادًا إلى شيء من الحكمة أو الخجل، فنفَّس عن غضبه بترديد عن المفاقمة والتشرد، غير قاصد بها أي فرد، بل ألقاها كأنها وليدة أفكار مجردة خطرت على باله، خيَّم الصمت على الغرفة لفترة طويلة، انكب فيها كل واحد منهم على مباشرة عمله، منهمكين في الكتابة.. لكن كان للصمت المضجر على السيد سويفيلر أثرٌ مختلف - فهو شخص يميل إلى الإثارة لا يعرف السكون - غشاه النوم مرات عدة، يكتب كلمات غريبة غير مفهومة لا تمت للغة بصلة، بينما كانت عيناه مغلقتين، لكن الآنسة سالي كسرت رتابة الصمت الذي ساد المكتب أخيرًا، فأخرجت علبة القصدير الصغيرة، واستعطت ما بها من سُعُوط في صخب، ثم أوضحت ما جال في خاطرها، موجهةً حديثها إلى السيد سويفيلر قائلة: " هل انتهيت؟ ".
قال ريتشارد: " من ماذا انتهيت؟ ".

قالت الآنسة براس: " هل تعلم أن الساكن لم يستيقظ من نومه بعد.. منذ أن أوى إلى فراشه بعد ظهر أمس، لم يره أحدٌ ولم يُسمع له أي صوت قط؟ ".
قال ديك: " حسنًا يا سيدتي! أحسب أن بإمكانه النوم في سلام وهدوء مقابل العشرة جنيهات ".
عقبت الآنسة سالي قائلةً: " آه! إذا كان الأمر كذلك، أنا على وشك أن أظن أنه لن يستيقظ أبدًا ".
وضع السيد براس قلمه، وقال: " أتعلمان! إن هذا الأمر جدير بالملاحظة.. جدير بالملاحظة فعلًا..... يجب عليك يا سيد سويفيلر أن تتذكر، إذا حدث ووجدنا هذا الرجل قد شنق نفسه على أحد أعمدة السرير، أو أصابه أي حادث مرير على هذه الشاكلة، يجب أن تتذكر يا سيد سويفيلر أن العشرة جنيهات التي أعطاها لك، كانت جزءًا من إيجاره للسكن لمدة عامين! يجب أن تأخذ هذا بعين الإعتبار، وتكتب مذكرة شاملة؛ لإثبات الحالة، فإذا استُدعيت، تكون جاهزًا بالأدلة الورقية.
أخذ السيد سويفيلر من فوره ورقة فولسكاب عريضة، وبدأ يدون بأهمية قصوى وفي حرص شديد ملحوظة صغيرة في إحدى زوايا الورقة.
قال السيد براس: " لا يسعنا إلا أن نتوخى الحذر الشديد طوال الوقت.. إن العالم ينضحُ بالشرور، لا تعلم أين يكمن الخطر بالتحديد. هل صادف أن قال الرجل الأعزب.. دعك من هذا الآن يا سيدي، واحرص على إنهاء هذه المذكرة أولًا ".
فعل ديك ما أُمر به، سلمها إلى السيد براس، الذي قام عن كرسيه، وبدأ يتمشى في الغرفة جيئةً وذهابًا.
قال السيد براس، بينما يمر بعينيه على محتواها: " أوه! هذه هي المذكرة، التي أوصيتك بإنهائها.. أليس كذلك؟ حسنًا! عظيم جدًّا، والآن لنكمل حديثنا، قل لي، هل صادف أن قال لك الرجل الأعزب شيئًا آخر؟ ".
- لا.
قال براس في رزانة واضحة: " هل أنت متأكد من أن الرجل الأعزب لم يقل لك أي شيء آخر يا سيد ريتشارد؟ ".
رد ديك قائلًا: " إن كلامي محل ثقة يا سيدي ".
قال السيد براس: " فكر مرة أخرى يا سيدي، إن واجبي، والمنصب الذي أشغله، وبصفتي عضوًا له قيمة وقامة في مهنة المحاماة.. المهنة الأولى في هذه البلد يا سيدي، وفي البلاد الأخرى أيضًا، بل على مستوى الكوكب، والكواكب الأخرى التي تلمع فوق رؤوسنا في سمائنا طوال الليل، إذا كانت مأهولة بالبشر.. إن واجبي يا سيدي وبصفتي عضوًا له قيمة وقامة في هذه المهنة، يحتِّمان عليَّ ألَّا أضعك تحت ضغط سؤال جذري له هذه الحساسية والأهمية بتلك الطريقة. دعني أصيغه لك بأسلوب آخر.. هل الرجل الأعزب الذي جاء إلى هنا بعد ظهر أمس، وأقام في الطابق الأول، وأحضر معه صندوقًا من ممتلكاته الخاصة.. أكررها.. من ممتلكاته الخاصة، قال أكثر مما هو مدون هنا في هذه المذكرة؟ ".
انتفضت الآنسة سالي من صمتها قائلةً: " هيا! كف عن ذلك، لا تكن أبله ".
تسمَّر ديك في مكانه، ينظر إليها، ويعاود النظر إلى السيد براس، ثم ينظر إليها مرةً أخرى، ثم قال أخيرًا بعد أن وجه رأسه إلى السيد براس: " لا! ".

صاح السيد براس: " أوف أوف! اللعنة.. كم أنت ممل يا سيد ريتشارد! ". ومن ثمَّ رسم إبتسامة متكلفة محاولًا تهدئة نفسه، ثم استأنف قائلًا: " دعني أقولها صريحة يا سيد ريتشارد.. هل قال أي شيء يخص ممتلكاته؟ ها! هل قال؟ ".
قالت الآنسة سالي، وهي تومئ إلى شقيقها: " نعم هذه هي الطريقة التي تطرح بها استجوابك ".
استطرد السيد براس في حديثه في نبرة مربحة حانية ظاهريًا: " هل قال لك على سبيل المثال.. أنا لا أفرض عليك قولًا، ولا أحتم عليك أمرًا، ولا أجزم أنه قد قال فعلًا.. أنا أطرح عليك أسئلة فقط؛ لأنشط ذاكرتك.. ها! قل لي، هل قال لك - على سبيل المثال - إنه غريب عن لندن؟ أو بدا من سلوكه وهو في كامل قواه وحريته أي إشارة تفيد بأن لدينا حق المطالبة بها.. وهذا بالطبع في حالة حدوث أي شيء له، في أي وقت، هل بدت عليه رغبة في نقل ممتلكاته - التي في مبناي الخاص - كاملة لتكون ملكًا لي، كتعويض زهيد عن المتاعب والانزعاج الذي يجب عليَّ تحمله! ".
أضاف براس، وهو لا يزال محافظًا على البسمة المفتعلة ذاتها، في هدوء وحنو زائد عما سبق: " هل تم حثك على القبول بها كمؤجر، نيابة عني، مقابل تلك التعويضات والشروط؟ ".
أجاب ديك: " بالطبع لا يا سيدي! ".
قال براس في غطرسة متناهية، محدقًا فيه بنظرة فاقت معاني التوبيخ: " حسنًا يا سيد ريتشارد، وفقا لرأيي، أحسب أنك أفسدت الأمر برمته، وأخطأت في دعواك، ولن تصبح محاميًا أبدًا ".
" ولو عشت ألف سنة "، بعد أن أضافت الأنسة سالي تلك الكلمات، استنشقت هي وشقيقها شهقات مزعجة من علبة القصدير الصغيرة الخاصة بها، ثم شردا كلاهما في غمار التفكير.
لم يكن في الوجود أي أمر وارد قد يجعل السيد ريتشارد يستغني عن وقت إستراحة الغذاء، بالكاد كانت الساعة الثالثة عصرًا، وقد شعر أنه قد مرت عليه ثلاثة أسابيع وليس بضع سويعات. مع الدقة الأولى للساعة الثالثة، اختفى الكاتب، ومع آخر دقة للساعة الخامسة ظهر مرة أخرى، لكنَّ تغييرًا طرأ على المكتب، كما لو كان بفعل السحر، فقد تحولت رائحته إلى نفحات عبقة من النبيذ المسكر المخلوط بالماء وقشر الليمون.
قال براس: " يا سيد ريتشارد! لم يستيقظ هذا الرجل الأعزب بعد، من الواضح أن لا شيء يمكن أن يوقظه، ما العمل إذنْ؟ ".
قال ديك: " العمل هو أن نتركه نائمًا كما يحلو له ".
صاح براس: " نتركه نائمًا! وكما يحلو له! أليس نائمًا إلى الآن ستًّا وعشرين ساعة! لقد أزحنا خزائن الطابق الذي يعتليه جميعها من موضعها وأعدناها ثانيةً، طرقنا على الباب الخارجي طرقات عالية متتابعة، جعلنا الخادمة تسقط مرات عدة على الدرج.. إنها خفيفة الوزن، لن يؤذيها السقوط كثيرًا.. لكن لا شيء يوقظه ".
قال ديك مقترحًا: " بالسلم الخشبي! ربما إذا أحضرنا سلمًا، نتمكن من الدخول إلى الطابق الأول عبر النافذة..".
قال براس: " حتى إذا فعلنا ذلك، فلا يزال يحول بيننا وبينه باب، إلى جانب أن هذا سيثير غضب الجيران ".
قال ديك مقترحًا: " حسنًا! ما رأيك حيال الصعود إلى سطح المسكن، من خلال الباب السري، ثم الهبوط من المدخنة؟ ".

قال براس: " أحسب أنها خطة ممتازة، إذا.. ". وهنا نظر إلى السيد سويفيلر بشدة وقال: ".. إذا تكرم أحد وتعطف وكان لطيفًا، بما يكفي للتعهد بهذه المهمة.. أجرؤ على قول أنها من الخطط التي يجب على المرء رفضها، إنها محض جنون ".
لم يكن ديك ليقترح تلك الخطة، إلا إذا كان لديه اعتقاد بأن هذه المهمة ستقع على عاتق الآنسة سالي. كما أنه لم يزد على قوله شيئًا، مفتعلًا عدم فهمه لما تم التلميح إليه، أصر السيد براس على أن يصعدا الدرج معًا، وأن يحاولا محاولة أخيرة لإيقاظ هذا النائم بطرق أقل جنونًا، إذا فشلا في إتمام ما سعيا إليه، فلن يسعهما سوى اللجوء إلى ما هو أكثر جنونًا لإنجاح ما يسعيان إليه.
صدق السيد سويفيلر على حديثه، تحضر كأنه ذاهب في مهمة رسمية، فقد تسلح بكرسيه والمسطرة الكبيرة، وتبع صاحب العمل إلى مكان الإثارة، حينها وجدا الآنسة براس، تدق الجرس يدويًّا بكل ما بها من قوة، لكن دون جدوى، دون إحداث أدنى تأثير على مستأجرهم الغامض.
قال براس: " انظر يا سيد ريتشارد، إنه حذاؤه ".
قال ريتشارد سويفيلر: " يبدو متصلبًا جدًّا وثقيلًا، كنوم صاحبنا ".
هذا صحيح! لقد كان حذاءً طويل الرقبة متينًا شامخًا، كما يود المرء أن تكون عليه حال أحذيته، كانت رقبته منتصبة كما لو أن رجلَي مالكه موضوعة فيه، بدا أن نعله العريض، ومقدمته المستوية غير المدببة هما القوة الرئيسة التي زادت من ارتكازه.
قال براس، ناظرًا عبر ثقب المفتاح: " إنني لا أرى شيئًا سوى ستارة السرير.. يا سيد ريتشارد! هل هو رجل قوي؟ ".
أجاب ديك: " إنه قويٌّ جدًّا ".
قال براس: " سيكون الوضع غير حميد بالمرة، إذا خرج علينا فجأةً.. حسنًا! أفسحوا مجالًا إلى السلم، وأبقوه خاليًا. على كل حال يجب ألَّا أكون له طُعمًا سائغًا، يجب أن أكون أقوى منه؛ لأنني بالطبع صاحب حجة قوية؛ أنا مالك السكن، ومن هذا المنطلق يحق لي أن أفرض عليه حتمية الإلتزام بقوانين الضيافة.. مرحبًا أيها القاطن وراء الباب، مرحبًا، مرحبًا.. هل من مجيب! ".
بينما ظل السيد براس ينظر في فضول شديد عبر ثقب المفتاح، وينادي على المستأجر، ويردد الكلمات نفسها دون توقف؛ لجذب انتباهه، واظبت الآنسة براس على هز وتحريك الجرس في سرعة شديدة، ووضع السيد سويفيلر كرسيه بمحاذاة الجدار بجانب الباب، ثم اعتلاه ووقف عليه ثابتًا؛ فإذا نهض المستأجر، واندفع إلى الخارج نحوهم، وكان في أوج غضبه، يمر دون أن يلاحظ وجوده، ثم بدأ في الطرق على إطار الباب العلوي في عنف شديد بالمسطرة. كانت تلك الحبكة المليئة بالإبداع والبراعة التي اعتمدها في إتخاذ موقعه، مستوحاة من هؤلاء الأقوياء الجسورين، الذين يفتحون أبواب المعارض والمسارح في الليالي المزدحمة.. مع إمطار السيد سويفيلر إطار الباب بوابل من الطرقات الصاخبة، وصوت رنين الجرس المدوي، وقفت الخادمة الصغيرة على الدرج، تضع يديها على أذنيها؛ خشية أن تغدو صماء مدى الحياة، لكنها كانت على أهبة استعدادها لتطير من على الدرج وتسقط عليه في اللحظة الحاسمة.
فجأة! سمعوا صوت فتح مزلاج الباب، خيَّم الصمت للحظة، وبعدها فتح الباب عن آخره في عنف شديد.. ساعتها، طارت الخادمة الصغيرة فعلًا، لكن صوب قبو الفحم، اهتز جسد الآنسة سالي وتحركت في لمح البصر نحو غرفتها، وغاصت بين لحائف سريرها، أما السيد براس، فقد ضاعت حجته، واندثرت الشجاعة التي تحدث بها، وساغ له أن يسبق الريح، مهرولًا نحو

الشارع.. لكنه حينما إلتفتَ، ولم يجد أحدًا يتبعه، ويحمل مذكي النيران، أو أي سلاح حاد آخر، وضع يديه في جيبيه، كأن شيئًا لم يكن، ومشى ببطء شديد، يصفر.
في خضم هذا الموقف، لم يستطع السيد سويفيلر أن يبرح مكانه، ظل واقفًا على كرسيه، يلتصق بالجدار، يكتم أنفاسه، يحاول أن يسطِّح جسده قدر الإمكان، يتملك منه القلق، ينظر إلى الأسفل نحو الرجل، الذي انهال بأقذع الشتائم واللعنات بسلوك فظ عنيف، ممسكًا بحذائه في يده، ويظهر عليه أنه عازم على إلقائه على من سيجده أسفل الدرج. لكنه على كل حال، تغاضى عن هذه الفكرة، وعاد إلى غرفته مرةً أخرى، وهو لا يزال يتذمر في سخط شديد، حينها إلتقت عيناه بعيني ريتشارد المفتوحتين على اتساعهما في ترقب.
قال الرجل الأعزب: " هل أنت مفتعل هذه الضجة الرهيبة؟ ".
ثبتت مقلتا عيني ديك، حدق فيه مليًا، ثم لوح بالمسطرة التي أمسكها بيمناه في لطف تام؛ كإشارة للرجل الأعزب لما هو بملاقيه، إذا كانت لديه نية اللجوء إلى العنف، وقال: " لقد كنت أساعد فقط يا سيدي؟ ".
قال المستأجر: " كيف تجرؤ.. هاه؟ ".
لم يقدم ديك أي رد آخر سوى إستفسار عما إذا كان المستأجر الذي جاء وكان يُظن أنه سيتصف بصفات النبلاء ويعتمد سلوكهم، ونام ستًّا وعشرين ساعة متواصلة، أم سلام عائلة نبيلة فاضلة، هو مثقال حبة من خردل؟ ".
قال الرجل الأعزب: " أتقصد أن سلامي لا يعني شيئًا؟ ".
قال ديك: " وهل يوجد سلامٌ لا يعني شيئًا يا سيدي؟ انظر يا سيدي! إنني لا أود حقًا توجيه أي تهديدات؛ مع الأسف لا يسمح القانون بذلك، يعتبره جرمًا يستوجب العقوبة.. لكنك يا سيدي إذا تصرفت على هذا النحو مرة أخرى، فكن حذرا ألا ينتهي بك الحال عند الطبيب الشرعي، وبعدها يتم دفنك في مفترق الطرق، قبل أن تستيقظ من نومك ". عدَّل ديك من لهجته، ونزل عن كرسيه واستأنف قائلًا: " لقد انتابنا خوف من أن تكون قد مت يا سيدي.. على العموم يا سيدي، لا نسمح في هذه المؤسسة بأن يأتي رجل بمفرده ثم ينام كما لو كان شخصين دون أن يدفع رسومًا إضافية ".
صاح المستأجر: " فعلًا! ".
خضع ديك لمصيره، وقال أول فكرة طرأت على باله: " فعلًا يا سيدي؟ دعني أوضح لك، إن عدد الساعات المساوي لعدد ساعات نومك، لا يجب أبدًا أن تكون على سرير واحد، لذا يجب عليك دفع ثمن غرفة بسرير مزدوج ".
بدلًا من أن تتشوش أفكاره، أو أن تصيبه الدهشة بسبب هذه الملاحظات، بدت على ثغر المستأجر بسمة عريضة، بات ينظر إلى السيد سويفيلر بعينين لامعتين. لقد كان رجلًا ذا بشرة لفحتها الشمس، ووجها مسفوعًا، بدا لونه مائِلًا إلى البنية أكثر؛ حينما اعتمر قلنسوة بيضاء. كان من الواضح أن هذا الرجل ممن يشتد حنقهم سريعًا، لذلك ابتهج السيد سويفيلر فور رؤيته في تلك الحالة، وأراد أن يستكمل الحديث بالحالة نفسها، فابتسم من فوره لتبسمه.
أقر المستأجر بأنه كان فظًا، وأنه تصرف بوقاحة شديدة فعلًا، ومن ثم أمال قلنسوته ميلًا شديدًا على جانب رأسه الأصلع، وقف السيد سويفيلر مسحورًا للغاية من رد فعله، ومن مظهره الذي بدا بسيطًا غريب الأطوار، لكنه بعد أن توقف لوهلة يستمتع برؤيته في هذا الحال، قال: إنه

يتمنى ألا يكونوا قد سببوا له إزعاجًا، وإنهم ليسوا السبب في إيقاظه، وإنه على كل الأحوال كان على وشك الاستيقاظ، ثم أعرب في استعطاف، آملًا أن فعله لن يتكرر مرة أخرى بعد الآن.
دخل المستأجر إلى غرفته، وكان رده: " تعالَ إلى هنا أيها الوغد الماجن! ".
تبعه السيد سويفيلر، وقد ترك كرسيه بالخارج، لكنه احتفظ بالمسطرة؛ خشية حدوث أي مفاجأة. لم تمر لحظات، إلا وكان قد هنأ نفسه على رجاحة عقله؛ فقد أوصد المستأجر الباب بغلقتين دون سابق إنذار أو تفسير.
جاءت كلماته التالية مستفسرة حيث قال: " هل تشرب شيئًا؟ ".
رد السيد سويفيلر بأنه قد انتهى من توه من تخفيف آلام ظمئه، لكنه يرحب بـ (مُرَوٍّ روحي)، إذا كان في متناول اليد. دون أي كلمة وردت من الجانب الآخر، أخرج المستأجر من صندوقه الضخم هيكلًا شديد اللمعان كما لو كان مطليًّا بالفضة، ووضعه في حرص شديد على الطاولة.
تابع المستأجر تحضيراته في دقة متناهية، بينما مكث السيد سويفيلر يراقبه عن كثب في إهتمام بالغ. كان بهذا الهيكل تجاويف، أسقط في التجويف الأول بيضة، وأعد في تجويف آخر بعض القهوة، ووضع في تجويف ثالث قطعة لحم نيئة أخرجها من علبة صفيح نظيفة، وسكب بعض الماء في الرابع. بعد ذلك وبمساعدة صندوق فسفوري وبعض الأعواد الخشبية، حصل على شعلة ضوئية، خلفها في ساعور الكحول، الذي تبيَّن أن له مكانًا مخصصًا أسفل ذلك الهيكل، أغلق جميع أغطية التجاويف الصغيرة، ثم فتحها، ومن خلال بعض القوى العجيبة غير المرئية، أمست شريحة اللحم مطهية، والبيضة مسلوقة، والقهوة معدة بإتقان، ووجبة الإفطار كلها جاهزة.
قال المستأجر: " المياه الساخنة.. ". بينما كان يقدمها للسيد سويفيلر في أقصى درجات الهدوء والثقة، كما لو أن نيران المواقد مشتعلة في مطبخه، ثم استأنف قائلا: " إن لديك هنا نبيذ الروم.. والسكر.. والكوب. حضِّر المزيج بنفسك، هيا! كن سريعًا ".
امتثل ديك من فوره، لكن نظرته كانت تتنقل بين الهيكل الموضوع على الطاولة، الذي بدا له أنه يفعل كل شيء، والصندوق الضخم الذي بدا له أنه يحوي كل شيء. تناول المستأجر فطوره كرجل معتاد على حدوث مثل هذه المعجزات، وأنها لا تشغل حيزًا من تفكيره، بل لا تشغل باله من الأساس.
قال المستأجر: " إن صاحب النزل محامٍ.. أليس كذلك؟ ".
أومأ ديك بالإيجاب. كان المشروب لذيذًا.
- وماذا عن سيدة المنزل.. ماذا تعمل؟
قال ديك: " تنينًا ".
ربما لأن الرجل الأعزب واجه الكثير من الأمور الغريبة في رحلات سفره، أو ربما لأنه أعزب، لم يتفاجأ أبدًا، بل لازم سكونه، وقال مستفسرًا: " زوجته أم أخته؟ ". قال ديك: " أخته "، فقال الرجل الأعزب: " أفضل كثيرًا.. بإمكانه التخلص منها في أي وقت إذا أراد ".
ثم أضاف قائلًا بعد لحظة من صمت: " ما أعظم أن تفعل ما تريد! إنني أريد أن أفعل ما يحلو لي فعله، أن أفعل ما أريد، أن أخلد إلى النوم في الوقت الذي أريده، وأستيقظ في الوقت الذي يحلو لي، أعود إلى المنزل في الوقت الذي أريده، وأغادره وقتما أفضل.. أريد ألا تنهمر عليَّ الأسئلة وألا

أكون محاطًا بجواسيس.. بخصوص هذا الأمر الأخير، إن الخدم ما هم إلا شياطين. أحسب وجود واحد منهم هنا؟ ".
قال ديك: " واحدة.. لكنها من النوع الصغير جدًّا ".
كرر المستأجر: " إنها منهم وإن كانت واحدة من النوع الصغير جدًّا.. حسنًا! هل تعتقد أن المكان سوف يناسبني؟ ".
قال ديك: " نعم ".
قال المستأجر: " محتالون وفقًا لما أظن! ".
أومأ ديك بالإيجاب، متجرعًا مشروبه في جرعة واحدة.
قال الرجل الأعزب وهو يهم بالوقوف: " أريد منك أن تجعلهما يعرفان مع من يتعاملان.. إذا تسببا في إزعاجي مرة ثانية، فسوف يخسران مستأجرًا جيدًا. إذا عرفا عني هذا الأمر فقط، فسيكونان قد عرفا ما يكفي. لكنهما إذا حاولا معرفة ما هو أكثر من ذلك، فعليهما أن يعتبراه إخطارًا بالمغادرة. يجب أن يعيا هذه الشروط جيدًا ودفعةً واحدة.. يومًا سعيدًا أيها السيد ".
قال ديك، متجهًا نحو الباب، الذي فتحه المستأجر له مع نهاية كلماته السابقة: " أستميحك عذرًا! عندما يترك شخص شيئًا، يقول أي اسم..؟".
- ماذا تقصد؟
قال ديك: ".. أي اسم.. يترك لك شيئًا، ولا يقول اسمًا.. أقصد في حالة الجوابات والطرود..".
قال المستأجر: " لم يكن لديَّ أي منها ".
- وفي حالة إذا أراد أحد أن يناديك.
- لا أحد يناديني.
" حسنًا يا سيدي! إذا وقع أي خطأ بسبب الاسم، لا تقل إنه كان خطأي يا سيدي.. "، أضاف قائلًا، ولا يزال متجهًا نحو الباب: ".. أوه! لا تلم الشاعر الـ..".
قال المستأجر في انفعال غاضب: " لن ألوم أحدًا "... لم تمر لحظة، إلا ووجد ديك نفسه على الدرج، والباب مغلق فيما بينهما.
ارتعد السيد برأس والآنسة سالي من فورهما فور إغلاق الباب، والخروج المفاجئ للسيد سويفيلر، فقد كانا يختلسان النظر عبر ثقب المفتاح طوال الوقت. على الرغم من مجهوداتهما المضنية التي بذلاها في محاولة سماع الحديث الذي دار بينهما، وتسديد اللكزات والقرصات للوقوف في المقدمة، ونزاعهما الصامت الذي استمر طوال الوقت وشابه المسرحيات الإيمائية، لم يتمكنا من تمييز أي لفظة قيلت في مقابلتهما، لذلك سارعا بالسيد سويفيلر إلى المكتب؛ لاستجوابه وسماع ما حدث منه.
تحدث السيد سويفيلر بوضوح عن رغبات الرجل الأعزب وشروطه، وأفادهما بأنماط سلوكه، ثم أخبرهما في شغف ملحوظ عن الصندوق العظيم، مسترسلًا في وصفه بعبارات بديعة، راسمًا صورة متكاملة الأوصاف يشرد لها الخيال، أكثر مما تعتمدها ثوابت الواقع، وأعلن بتأكيدات قوية عدة مرات، أن الصندوق يحتوي على كل ما لذ وطاب، يحتوي على عينات من أطعمة غنية وأجود أنواع النبيذ، ثم خص بالذكر أنه من النوع المستقل بذاته، يخدم نفسه بنفسه، مهما كانت متطلباته، هادئًا، يعمل بدقة متناهية بلا مشاكل، كما لو كان منظم الساعة. ثم ساق مخيلتيهما من أجل استيعاب أن لديه جهازًا للطبخ، يطهي قطعة من لحم الخاصرة، تزن ستة

أرطال، في دقيقتين وربع فقط، وأنه شهد ذلك بنفسه، مُثْبِتًا حديثه عن غير قصد بإشارة من حاسة تذوقه، وعلاوة على التأثير الذي تركه في نفسيهما، زاد قائلًا: إنه رأى بعينيه غليان الماء وبقبقته بمجرد أن طرف الرجل الأعزب بعينيه. من خلال هذه الاستدلالات التي أدلى بها السيد سويفيلر، أكد جازمًا أن هذا المستأجر واحد من كبار المشعوذين أو الكيميائيين، أو أنه كلاهما معًا، معربًا عن أن إقامته تحت سقف هذا النزل، سيدر المنافع وسيضفي امتيازًا فارقًا على اسم السيد براس في الأيام القادمة، وسيكون إضافة ثرية إلى تاريخ بيفيس ماركس.

لم يكن هناك سوى جزئية واحدة أعتقد السيد سويفيلر أن من غير الضروري الإسهاب فيها، كانت تلك الجزئية التي تخص المروِّي الروحي، لكن في الواقع، يجب ذكر أن حرارة جسده كله قد ارتفعت بسبب قوة تأثيره الجوهرية، خاصةً أنه شربه مباشرةً بعد المشروبات معتدلة الكحول التي تجرعها وقت الغذاء، وتطلب الأمر أن يشرب مشروبين أو ثلاثة مشروبات معتدلة الكحول في البيت العام عندما حل المساء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السادس والثلاثون

بعد مرور عدة أسابيع على إتمام إجراءات سكن الرجل الأعزب، لا يزال يرفض المواءمة، فلا ينطق بكلمة، أو يشير بإيماءة للسيد براس أو شقيقته الآنسة سالي، معتبرًا ريتشارد سويفيلر وسيط التواصل - إذا رغب في التواصل من الأساس - أثبت خلال هذه الوقت الطويل على كافة الأصعدة أنه مستأجر مثالي؛ يدفع مقابل كل شيء وأي شيء مقدمًا، لا يفتعل أي مشاكل، لا يصدر أي ضوضاء، يواظب على الاستيقاظ في ساعات مبكرة.. ارتفعت مكانة السيد ريتشارد على نحو غير مسبق، وبشكل غير متوقع، أصبح رجلًا مهمًّا وسط العائلة؛ فقد كان هو الرجل الوحيد والأوحد الذي يجيد التعامل مع المستأجر الغامض، لدرجة أنه تمكن من التفاوض معه بخصوص السيئ قبل الحسن، في حين لم يجرؤ أحد على الإقتراب منه.

إذا كان من اللازم ذكر الحقيقة دون تجميل، فحتى اقتراب السيد سويفيلر منه كان خاضعًا لشروط معينة، لم يكن اقترابًا بالمعنى الحرفي، كان اقترابًا من مسافة بعيدة، ويلاقى بحماس فاتر.. لكن، حين كانا يلتقيان بعد عودته من مقابلاته الفردية مع شخص مجهول، فقد كان يردد عبارات على شاكلة: " يا سويفيلر! إني أعرف أنه يمكنني الإعتماد عليك "، " يا سويفيلر! إني لا أتردد أبدًا في قول أنني أكن احترامًا وتقديرًا لك "، " يا سويفيلر! أعلم أنك صديقي، وأعلم أيضًا أنك ستقف إلى جانبي وتأزرني، ومتأكد من ذلك ". والعديد من العبارات القصيرة الأخرى، التي لها نفس وقع الألفة والود، التي زعم أنها جاءت على لسان الرجل الأعزب؛ كي تشكل المحور الرئيس لحديثهم المعتاد ومن أجل إضفاء التشويق عليه، لدرجة أن السيد براس أو الآنسة سالي لم يشككا في مدى تأثيره، ولو للحظة، فقد أيَّداه بحفاوة، ومنحاه ثقة كاملة منقطعة النظير.

بصرف النظر عن هذا المصدر كمصدر للمجد، وإذا ما نُحيَّ تمامًا، كان لدى السيد سويفيلر مصدر آخر، أهله ليكون على قدم المساواة، وأن يكون حديثه مستساغًا، ووجوده مقبولًا إلى حد كبير.

لقد لاقى المحاباة من عينيّ الآنسة سالي براس.. لا تدع المستهزئين من سحر الأنثى، يسترقون السمع، للاستماع إلى قصة حب جديدة من أجل السخرية.

بالنسبة للآنسة براس، على الرغم من توفُّر كافة المعايير فيها وبدقة متناهية، كي تكون محبوبة، لم تكن من المحبين أبدًا. فهذه العذراء اللطيفة، لم تعرف ثوبًا غير ثوب القانون، لم تعرف التنانير الأنثوية، اتخذت من القانون تنورة تزيد بهاءها بها منذ وقت مبكر من شبابها، مع أول فرصة للاعتماد على نفسها، دعمت نفسها به، وعززتها، وأبقت على شغفها به منذ ذلك الحين، حتى قضت حياتها في نوع من الطفولة من الجائز أن يطلق عليه طفولة قانونية.

كانت رائعة، جديرة بالملاحظة، حينما كان يمارس هذرًا خفيف الظل موهبته غير المألوفة، ليحاكي مشية وسلوك حاجب المحكمة، ويحاكون المشهد القضائي كله، كانت تصنف بعضًا منهم ليكونوا مجرمين، قد تلقي القبض عليهم، وتمسك بهم من أكتافهم، ثم تزج بهم إلى داخل البيت الإسفنجي ([20]) الخيالي، تحاكي كل تفصيلة في دقة متناهية، فيذهل كل من كان يشاهد أداءها، وتنبسط أسارير وجهه لكن ما فاق الوصف حقيقة هو طريقتها في تجهيز غرفة إعدام في بيت الدمى الخاص بها، وقيامها بجرد متقن للطاولات والكراسي، كانت ممارستها لتلك الأنشطة -

غير الفنية - سببًا أساسيًّا في إسعاد وتخفيف آلام والدها الأرمل، كان رجلًا نبيلًا مثاليًّا - دعاه أصدقاؤه بـ (الثعلب العجوز) نظرًا لحصافته وحكمته - دعمهما بكل جهده، إلتاع قلبه أشد الإلتياع؛ حينما اقترب من ساحة كنيسة (هاوندوسديتش)، وعرف أن ابنته لم تتمكن من الحصول على شهادة المحاماة، لكنه عقد العزم من فوره على إصلاح الأمر. بدافع ألمه وعاطفته الجياشة التي أكنَّها لابنته، عهد بها إلى ابنه سامبسون كمساعد جديد لا يقدر بثمن، منذ وفاة هذا الرجل الطيب وإلى عهدنا هذا، تعتبر الآنسة سالي براس ركيزة عمله ودعمه.
من البديهي معرفة أن الآنسة براس بعد تكريس ذاتها منذ الطفولة في دراسة القانون، لم تكن على علم سوى بالقليل جدًّا عن العالم، بخلاف ما يتعلق بالقانون، وكسيدة مثلها وُهِبت بهذا الذوق الفريد، كانت لا تسعى وراء الفنون الجمالية أو الرقيقة التي عادةً ما تُولعْ بها غيرها من السيدات، وتتفوقن فيها، تمحورت إنجازات الآنسة سالي حول نوع الإنجازات الذكورية والقانونية الصارمة، فقد بدأت بتدريبات المحاماة، وانتهى بها المطاف في منصبها الذي تشغله الآن، إذا جاز التعبير، يمكن قول أنها (البريئة المخضرمة بالقانون). كان القانون هو حاضِنتها. بما أن نقوس الساق أو أي تشوه جسدي يُعتبر نتيجة رعاية سيئة من الحاضنة، لذلك، إذا أصاب العقل الجميل عجز، أو حدث لها أي إلتواء أخلاقي، أو صارت سهلة المنال، حينها ستكون حاضنة الآنسة سالي براس الوحيدة التي يقع عليها اللوم.
كان وجود السيد سويفيلر بمثابة بصيص الإشراق، الذي لم يُحلم بانبثاقه أبدًا، فقد أضفى على المكتب أجواء عذبة مرحة، بأطروحاته الغنائية والفكاهية، وتصرفاته البهلوانية، يلعب بصناديق الأوراق والمحابر، يلتقط ثلاث برتقالات بيد واحدة، يوازن الكرسي على ذقنه، ومدية الجيب على أنفه، يستعرض المئات من ألعاب الخفة والتوازن ببراعة فائقة، فور رفع الحصار عن المكتب، عند غياب السيد براس؛ لتخفيف عبء العمل، وكطرق مرحة للاسترخاء. اكتشفت الآنسة سالي تلك السلوكيات الإجتماعية أول مرة بمحض الصدفة، وقد راقت لها، تدريجيًّا استحثت السيد سويفيلر أن يواصل في سلوكياته الفكاهية، كما لو أنها غير موجودة بالجوار، جاء امتثال السيد سويفيلر طواعية. من هنا، نشأت بينهما صداقة. تدريجيًّا بدأ السيد سويفيلر يعاملها كما كان يعاملها شقيقها، أو كان سيعامل أي كاتب آخر. بدأ يحدِّثها عن أسرار طريفة، حكى لها سر الذهاب إلى الرجل الغريب، وذهابه إلى مدينة (نيوماركت) من أجل الفاكهة، وبيرة الزنجبيل، والبطاطا المخبوزة، أو حتى من أجل مشروبه الروحي، الذي لم تتردد الأنسة براس في مشاركته معه.
في كثير من الأحيان كان يقنعها بأن تقوم بواجباته، وأن تأخذ حصته من الكتابة إلى جانب حصتها الأساسية، لا! والأدهى من ذلك أنه كان يكافئها بصفعة على ظهرها، ويعلن أنها صديقه المخلص، رفيقه المرح، وهكذا.. وبالطبع مع هذه الإطراءات، كانت الآنسة سالي تقوم بها مُرحبةً وبرضًى تام.
ظل هناك موضوع واحد يشغل عقل السيد سويفيلر للغاية، ويفكر في شأنه مرارًا وتكرارًا، كان هذا الموضوع يخص الخادمة الصغيرة؛ دائمًا ما تكون موجودة في مكان ما في أعماق الأرض تحت بيفيس ماركس، لا تخرج إلى السطح أبدًا، إلا إذا قرع الرجل الأعزب جرسه، كي تجيبه، وتلبي طلباته، ثم في لمح البصر تختفي مرة أخرى. لا تطأ قدماها المكتب مطلقًا، لا تدخل ولا تخرج منه أبدًا، لم يكن وجهها نظيفًا قط، ولم تخلع المئزرة عنها نهائيًّا، لا يذكر أنها دلفت إلى أي

نافذة، أو وقفت عند الباب المطل على الشارع لتتنفس هواءً رطبًا بتاتًا، من المرجح أنها لا تعرف معنى الراحة أو الاستمتاع على الإطلاق. لا يسأل عنها أحد، لا يتحدث معها أحد، ولا يهتم بها أحد. ذات مرة، قال السيد براس أنه يعتقد أنها (إبنة الحب) - ذلك على الأغلب يعني أي شيء آخر غير أنها إبنة (الحب) - كان ذلك بمثابة كل المعلومات التي استطاع ريتشارد سويفيلر حصرها عنها. ذات يوم، فكر ديك مع نفسه، بينما كان يتأمل ملامح الآنسة براس: " أحسب أنه لا فائدة مرجوة من سؤال أنثى التنين، أظن أنني إذا طرحت أي سؤال يخص هذا الشأن، ستفسد علاقتنا، وينتهي الوئام بيننا.. لكن السؤال المطروح فعلًا هنا، هل هي أنثى تنين فعلًا، أم مخلوق ينسب إلى حوريات البحر! إن لديها مظهرًا حرشفيًّا. لكن حوريات البحر مغرمات بالنظر إلى أنفسهن في المرآة، أما هي فلا تنظر أبدًا. كما أن لديهن عادة تمشيط شعرهن، أما هي فتخفيه وراء وشاحها البني.. لا لا! إنها أنثى التنين كما هي ".

قال ديك بصوت مرتفع، بمجرد أن مسحت الآنسة سالي قلمها في فستانها الأخضر، وقامت عن كرسيها: " إلى أين أنتِ ذاهبة يا رفيقتي القديمة؟ ".

أجابت أنثى التنين: " أتناول الغذاء ".

فكر ديك: " تناول الغذاء، هذا شيء أدعى مما سبق كله! أحسب أن الخادمة الصغير ليس لديها ما تأكله ".

قالت الآنسة براس: " إن سامي ليس في المنزل.. ابقى هنا حتى أعود، لن أغيب طويلًا ".

أومأ ديك بالإيجاب، ثم تابع الآنسة سالي بعينيه، حتى وصلت إلى الباب، وتابعها بأذنيه حتى وصلت إلى ردهة خلفية صغيرة، حيث تتناول هي وشقيقها وجباتهما.

قال ديك، بينما أخذ يتنقل في الغرفة جيئة وذهابًا، وهو يضع يديه في جيبيه: " الآن! أدفع أي مقابل - إذا كان معي - لكي أعرف كيف يستغلان هذه الطفلة، وأين يحتجزانها. أحسب أن أمي كانت امرأة فضولية محبة للتحقيق، ليس لديَّ شك في أنني لاحظت مذكرة استجواب هنا في مكان ما، إنها مشاعري.. إنها السبب وراء هذا الكرب.. إنني أقمعها. إنها مشاعري.. إنني أجزم أن..". تفحص السيد سويفيلر نفسه، ثم ارتمى على مقعد العملاء وقال: " أريد أن أعرف حقًّا كيف يستغلونها! ".

بعد أن ظل على هذا الحال لفترة، فتح السيد سويفيلر باب المكتب في هدوء تام، وتسلل إلى الشارع للحصول على كأس من النبيذ القوي. أثناء خروجه، رأى وشاح الآنسة براس البني في لمحة خاطفة، يتدلى على درج المطبخ. فكر ديك: " أوه! أخيرًا! إنها ذاهبة لتطعم الخادمة الصغيرة. هيا! إما الآن وإما أبدًا! ".

بادر أولًا باختلاس النظر عبر الدرابزين، حتى لم يعد يرى الوشاح البني الذي ابتلعه الظلام، فشق طريقه من فوره إلى الأسفل، وصل إلى الباب الخلفي للمطبخ، مباشرةً بعد أن دخلت الآنسة براس، حاملة في يدها فخذ ضأن باردة. لقد كان مكانًا موحشًا مظلمًا، منخفضًا للغاية ورطوبته عالية، تصدعت جدرانه، وانتشرت فيها البقع والشقوق. تسربت المياه من أنبوب راشح، وقف عنده أكثر القطط هزالًا؛ يحاول أن يلعق قطراته في أقصى درجات الجوع بؤسًا. كانت الشعرية حاملة الوقود من النوع العريض، لكن اتساعها قد ضاق، وتقاربت أطرافها، فباتت لا يمكنها حمل سوى شطيرة رقيقة من نار. كان كل شيء مغلقًا، قبو الفحم، صندوق الشموع، علبة الملح، وحافظة اللحم، كان كل شيء موصدًا. لم يكن هناك أي شيء يمكن لخنفساء حتى أن تأكله،

لدرجة أن قفر المكان وضيقه ووحشته يمكن أن تميت حرباء. لم يكن يوجد في هذا المكان غير الهواء، حتى الهواء غير صالح للأكل، حتى الأشباح لا يمكن لها أن تسكنه، وجب عليها أن تفر بعيدًا في قنوط. هناك، وقفت الخادمة الصغيرة بكل تواضع، مطأطأة الرأس، في حضور الآنسة سالي.
قالت الأنسة سالي: " هل أنت هنا؟ ".
جاء الرد من صوت واهن غير مسموع: " نعم يا سيدتي ".
قالت الآنسة سالي: " ابتعدي عن فخذ الضأن، وإلّا ستحملينها أنتِ ".
تراجعت البنت من فورها إلى أحد الأركان، بينما أخرجت الآنسة براس مفتاحًا من جيبها، وفتحت الخزانة، وأحضرت منها بعضًا من بقايا بطاطس باردة جافة، بدت مثل (ستونهنج) ([21]). من حيث صلاحيتها للأكل. وضعتها أمام الخادمة الصغيرة، وأمرتها بالجلوس، ثم أخذت سكينًا ضخمة ذات نصل حاد عريض، في عرض اتسم بالعنف والقوة، مستعينة بشوكة تقطيع اللحوم.
قالت الآنسة براس، وقد قطعت حوالي بوصتين من فخذ الضأن بعد كل هذا التحضير والجهد المبذول، ممسكة به على الشوكة: " هل ترين هذا؟ ".
نظرت الخادمة الصغيرة بعينين جائعتين، بتمحيص دقيق بما فيه الكفاية، تتفحصه من جميع الجوانب، ثم أجابت: " نعم ".
ردت الآنسة سالي في حسم قائلة: " إذنْ لا ألمحكِ تذهبين هنا وهناك وتقولين: ليس لدينا لحم.. هيا كليه ".
تم ذلك في لمح البصر. قالت الآنسة سالي: " الآن! قولي لي، هل تريدين المزيد؟ ".
أجابت المخلوقة الجائعة في وهن شديد وقالت: " لا ".. ومع هذه الإجابة، كان من الواضح أنه قد تم الوصول إلى تسوية أخيرة.
قالت الآنسة براس، بشكل إجمالي للوقائع: " لقد تم تقديم اللحم لكِ مرة واحدة، وأكلتِ قدر ما تستطيعين أكله، ثم سُئلت عما إذا كنت تريدين المزيد، وأجبت: لا! إذنْ لا تذهبي أبدًا وتقولي إنه ينقصك أي شيء أو أنه قد جرى حرمانك من أي حاجة.. مفهوم؟ ".
مع انتهائها من التلفظ بهذه الكلمات، وضعت الآنسة سالي اللحم، وأعادت إغلاق الخزانة، ثم اقتربت من الخادمة الصغيرة، ترقبها عن كثب، وهي تنهي البطاطس.
كان من الواضح أن الأنسة سالي اللطيفة نفسها، تضمر بغضًا وحقدًا يفوق مستوى الوصف، وهو ما دفعها، دون أدنى سبب حاضر، إلى وخز الطفلة بنصل السكين، مرة في يدها، وأخرى في رأسها، ثم أتبعتهما بوخزة ثاقبة في ظهرها، كما لو كان من المستحيل أن تقف على مقربة منها دون لكز وصفع ووخز لجسدها النحيل. لكن السيد سويفيلر لم تصبه أي دهشة، حينما رأى رفيقة الكاتب القديمة، بعد أن مشت إلى الخلف بضع خطوات تجاه الباب ببطء مترقب، كما لو كانت تسحب نفسها إلى خارج الغرفة عنوة، تعود أعقابها فجأة كأنها لم تستطع المغادرة، وتنهال باللكمات القاسية بقبضة يدها على الخادمة الصغيرة. صاحت الضحية بأنين مختنق، كما لو كانت تخشى أن تعبر عن آلامها، أو أن خوفًا يتملك منها ويكتم صوتها ويمنعه من الإرتفاع، وصلت الآنسة سالي إلى الدرج، استجمت بنفحة من علبتها، صعدت الدرج، في الوقت الذي وصل فيه ريتشارد بأمان إلى المكتب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الجزء الأول بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞




متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس الجزء الأول

Notes

[←1]

الشوكة "الهجوم المزدوج": هي نقلة تكتيكية يهاجم فيها اللاعب بنقلة واحدة قطعتين.

[←2]

القربان المقدس: معناها اللغوي هو الشكر، وهو تذكير بالعشاء الذي تناوله المسيح بصحبة تلاميذه عشية آلامه.. وعند الإحتفال به يتم تناول الخبز ويعرف بـ (البرشان) - الذي يمثل جسد المسيح - وأحيانًا يغمس الخبز في النبيذ - الذي يمثل دم المسيح.

[←3]
أوليفر جولد سميث من رواية (قس ويكفيلد) إحدى أشهر روايات القرن الثامن عشر.

[←4]
يُقال عنه غرز الايتامين وهو جزء من أسلوب التطريز، غالبًا يطبق هذا الأسلوب على نوع قماش يُسمَّى (الكنفا).

[←5]

تعني المُذهّب أو الذهبي، هو الاسم الذي أطلق في البداية على ملوك أو زعماء الكهنة في إحدى قبائل أمريكا الجنوبية، إذ يقال إنه كان يغطي نفسه بغبار الذهب في احتفال ديني سنوي، ومع الوقت أصبح اسم إلدورادو رمزًا لكل مكان يمكن فيه اكتساب الثروة السريعة. (المترجمة).

[←6]

الفصل (17:24) سفر أعمال الرسل: "الإله الذي خلق العالم، وكل ما فيه، هذا، إذ هو رب السماء والأرض، لا يسكن في هياكل مصنوعة بالأيادي".

[←7]

يذكر أن مصطلح البيت العام تم استخدامه لأول مرة في أواخر القرن السابع عشرة للتفرقة بينه وبين المنازل الخاصة، كان عبارة عن مبنى يجمع ما بين خصائص النزل والحانات، حيث يمكن فيه المبيت ويقدم فيه الطعام والمشروبات الكحولية.

[←8]

سمندل: سحلية النار، توجد أسطورة تفيد بأن السمندل يمكنه أن يظل حيًّا في النار، لكن عالم الطبيعة الروماني بليني الأكبر في القرن الأول الميلادي، ألقاه في النار ليرى إذا كان سينجو من النار أو يطفئها، كما ادعى أرسطو أن مثل هذه الحيوانات يمكنها ذلك، لكن السمندل مات ولم تخمد النار، لكن لم يصدقه أحد. واستمر تداول المعتقدات والأساطير حول قدراته السحرية الغريبة، وقد ذُكر في التلمود.

[←9]

يرجح أن الكاتب يقصد الفتية الثلاثة (شدرخ وميشخ وعبدنغو) الذين ذكروا في الكتاب المقدس في سفر دانيال وقد كانوا أصدقاء لدانيال.. وقد جاءوا معًا في السبي البابلي الأول.. رفضوا أن يسجدوا لتمثال الذهب الذي نصبه نبوخذنصر، فأمر جبابرة القوة بأن يلقوا بهم في وسط النار المتقدة، لكنهم خرجوا من النار سالمين.

[←10]
منطقة تاريخية في غيانا تقع على الساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية. كانت مستعمرة هولندية حتى عام 1815 ومن ثم صارت مقاطعة غيانا البريطانية 1838 حتى 1966 وكانت تقع على الممرات السفلية لنهر ديميرارا.

[←11]

عبارة عن (زحليقة) لولبية تُبنى حول برج عالٍ، ويقام السباق فيصعد المتسابقون داخل البرج حتى يصلوا إلى قمته، ثم ينزلقون متزحلقين إلى الخارج.. عادةً كانت تُبنى من الخشب ليسهل تفكيكها وإعادة بنائها في المواقع التي تقام فيها السباقات أو المعارض.

[←12]

قائد عسكري وسياسي إنجليزي، يُعرف بأنه هزم الملكيين في الحرب الأهلية الإنجليزية.

[←13]

إبن يعقوب وزلفة.

[←14]
طريقة عقاب عُرفت منذ العصر السكسوني حتى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، يخضع لها من أدينوا بارتكاب جرائم بسيطة، فيجلسون داخل ذلك الصندوق الخشبي وقتًا قصيرًا، وتكون أرجلهم مقيدة، ويسخر منهم العامة ويتعرضون إلى الإهانات أو يلقى عليهم البيض الفاسد من المارة.

[←15]

طريقة عقاب يمتثل فيها المخطئ للكنيسة مرتديًا زيًّا أبيض للتكفير عن ذنبه.

[←16]

بطل الرواية الفرنسية Le Diable Boiteux: يُحكى أنه حرر آشماداي عن طريق الخطأ " ملك الجن والعفاريت " - وهو مضاف في الأدب المسيحي إلى قائمة أمراء الجحيم السبعة حسب التلمود - فشعر الشيطان بالامتنان، فقرر أن يأخذه إلى مكان عالٍ ويكشف أسطح مدريد فيتمكن من رؤية ما يجري في كل مكان.

[←17]

Brass

تعني النحاس

[←18]

وليام بلاكستون: قاضي وأستاذ متخصص في القانون، عرض صورة كاملة عن القانون الإنجليزي في مؤلَّفه (تعليقات على القانون الإنجليزي).

[←19]

إدوارد كوك: كان النائب العام في حكومة الملكة إليزابيث الأولى، ورئيسًا للقضاء في عهد الملك جيمس الأول، السير توماس ليتلتون: الإبن الأكبر لإليزابيث ليتلتون، قاضٍ إنجليزي. تمت الإشارة لهما بناء على الجزء الأول في أطروحات إدوارد كوك في Institutes of the laws of England المسمى بـ (تعليقات كوك على ليتلتون).

[←20] كان مكانًا للحبس المؤقت للمدينين إذا تخلَّفوا عن سداد الدين في بريطانيا.

[←21]

أثر صخري يرجع تاريخه لأواخر العصر الحجري.


تشارلز ديكنز
متجر
التحف القديم
رواية
الجزء الثاني
فريق
متميزون
E-BOOK
ترجمة :ريهام سمير سعد

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

متجر التحف القديم

تشارلز ديكنز

ترجمة: ريهام سمير سعد

الجزء الثاني

الفصل السابع والثلاثون

على غرار سلوكيات الرجل الأعزب المبهمة - الذي لديه مخزون وفير من مؤن مختلفة، لم تنفذ طوال هذه الأيام، كان يعد كل يوم أصنافًا مختلفة - كان لديه ولع واهتمام إستثنائي لا مثيل له بعرض بانش. إذا تسلل لأذنه صوت بانش، ولو كان على مسافة بعيدة جدًّا من بيفيس ماركس، وكان الرجل الأعزب في سريره نائمًا، ينهض من فوره، ويسارع في ارتداء ملابسه، قاصدًا مصدر الصوت بأقصى سرعة لديه، ويصل في التو إلى موكب طويل من المتكاسلين، يتوسطه المسرح ومالكيه. في إحدى الأيام القريبة، نُصب المسرح أمام منزل السيد براس مباشرةً، فأطلّ الرجل الأعزب من فوره من نافذة الطابق الأول، لكن الترفيه، المصحوب بصوت الصراخ وعزف الناي ودقات الطبل، ما لبث أن تسبب في إصابة كافة الجمهور الرصين في هذا الشارع الهادئ الساكن بالذعر المفرط. ربما كان من المتوقع - حين الإنتهاء من العرض - أن ينفض الجمع، ويمضي كل حي في سبيله، ويتفرق الجمهور عن مؤديي العرض، لكن العكس تمامًا هو ما حدث؛ نظرًا لأن الخاتمة كانت سيئة مثلها كمثل العرض كله؛ لأن الميت في النهاية لم يكن الشيطان، فدعا الرجل الأعزب من فوره محرك الدمى وشريكه إلى غرفته، حيث نعما بالوفير من النبيذ القوي من مخزونه الخاص، ثم تكلموا في أحاديث طويلة، لا يمكن لأي بشري أن يفهم من مضمونها شيئًا، لكن سر هذه النقاشات - على كل حال - لم يكن له أي أهمية. ومن الجدير معرفة أنهم أثناء ما كانوا ماضيين في فعلهم، كان الجمهور لا يزال محتشدًا حول المنزل، وقد أمسى الفتيان يدقون على الطبول بقبضات أيديهم، مقلدين صوت بانش بأصواتهم الناعمة، وأمست نافذة المكتب مطموسة الملامح بسبب الأنوف المسطحة الملتصقة بها، وأمسى ثقب المفتاح يلمع مع تبدل أعين الناظرين من خلاله، كلما كان الرجل الأعزب أو أي من ضيفيه ينظر من النافذة، أو كلما ظهر أنف أي منهم واضح للعيان، ارتفعت صيحة لاعنة من الجمهور المُقصى، عاوين صارخين مشددين على أنهم لن يتحركوا إلى أي مكان آخر، ولن يقبلوا أي تعزية، حتى يتم تسليمهم العارضين. باختصار يكفي أن نعرف أن بيفيس ماركس أحدثت انقلابًا بهذه التحركات الشعبية، وأن السلام والهدوء قد تلاشيا من ضواحيها.

وسط هذه المستجدات الطارئة، لم يكن هناك من هو أكثر سخطًا من السيد سامبسون براس؛ لأنه بأي حال من الأحوال لن يتحمل خسارة نزيل مربح، اعتبر أنه من الحكمة تحمل إهانة النزيل وعدم إظهار أي استياء، ما دامت أمواله تُغْني، وعمد إلى مضايقة وإبعاد تلك التكتلات الجماهيرية التي طوقت منزله، واحتشدت أمام بابه، من أجل الانتقام والأخذ بالثأر، بأي وسيلة متاحة أمامه، والتي اقتصرت على تقطير الماء القذر فوق رؤوسهم من أصائص غير مرئية لهم، ورشقهم بالحجارة وبشظايا من القرميد والهاون من فوق سطح المنزل، ورشوة سائقي الحناطير، كي يقتحموا صفوفهم فجأة من كل حدب وصوب. ربما في بادئ الأمر قد تتفاجأ قلة من غير المفكرين؛ بأن السيد براس نفسه، الرجل النبيل المهني، لم يجرِّم طرفًا أو أطراف الخصومة قانونيًا، وأنه أحتكم إلى إثارة أعمال الشغب، وحرَّض عليها، ساعتها سيكون من الجيد لهم بما يكفي أن يتذكروا أن الأطباء نادرًا ما يتناولون وصفاتهم الطبية، وأن رجال الدين لا يلتزمون دائمًا بما يعظون به، لذا يخجل المحامون من اللجوء إلى القانون في شؤونهم الخاصة.. بل يدرسونه

ويعرفون ثغراته، حتى يكون لهم سلاحًا حادًّا في القضايا الملتبسة، ومصدرًا للثراء في العمل، وغالبًا لأنه مميز بحقوقه التبعية التي تمكنهم من التعجيل بالإجراءات بدلًا من اتخاذها دائمًا مع الشخص الصحيح.
قال السيد براس بعد ظهر أحد الأيام: "ها نحن مجددًا! لقد مضى يومان على عدم وجود بانش. كم آمل أن يصفعهم جميعًا في النهاية".
ردت عليه الآنسة براس: "لماذا تراودك تلك الأمال؟ ما الضرر الذي يتسببان فيه؟".
صاح براس، وقد وضع قلمه في قنوط شديد: "الأمزجة المتعددة! تكون زميلًا حسنًا، ثم تتحول إلى حيوان متعجرف!".
قالت سالي في صرامة: "قل لي ما الضرر الذي يتسببان فيه؟".
صاح براس: "ما الضرر! أتقولين ما الضرر! أليس الصخب المستمر والصيحات العالية بجانب أذن المرء ضررًا؟ أليس إلهاء المرء عن ممارسة عمله وكزه على أسنانه من شدة غيظه وغضبه ضررًا؟ ألا يكمن الضرر في أن المرء كاد أن يصيبه العمى ويختنق؟ أليس زحام الطريق الرئيس الذي يمر منه الملك، بمجموعة محتشدة من الغوغاء الصارخين العوَّائين الذين خلقت حناجرهم من.. من...".
قال سويفيلر مقترحًا: "من النحاس".
قال المحامي: "نعم بالتأكيد من النحاس!". ثم رمق كاتبه مليًّا، ليؤكد لنفسه أنه اقترح هذه الكلمة بحسن نية، ودون قصد السخرية من اسمه، ثم تابع قائلًا: "أليس هذا ضررًا؟".
توقف المحامي عن التذمر للحظة؛ ليسترق السمع، متبينًا أنه صوت مألوف، أسند رأسه على راحة يده، ورفع عينيه إلى السقف، وقال متمتمًا بصوت خافت: "مرة ثانية!".
انطلق الرجل الأعزب بالأعلى إلى النافذة مباشرةً.
كرر براس قوله: "مرة ثانية! إذا كان بإمكاني الحصول على إستراحة وأربعة خيول أصلية؛ تشق زحام ماركس، وتفرق الحشود، سأدفع ثمانية عشر بنسًا عن نفس راضية، دون تذمر أبدًا!".
سُمع صوت الصرير البعيد مجددًا. فُتح باب مسكن الرجل الأعزب. نزل الدرج مندفعًا، ومن ثمَّ خرج إلى الشارع مباشرة، مر أمام النافذة، لم يكن معتمرًا أي قبعة، ويتجه إلى المكان الذي صدر منه الصوت.. قاصدًا - بلا شك - تلبية نداء الغريبين.
تمتم سامبسون، وهو يدس أوراقًا في جيبه: "أود فقط لو أعرف من كانوا أصدقاءه.. لو زادوا العمولة الصغيرة فقط في مقهى نزل (جراي)، ومنحوني الوظيفة، سأكون راضيًا، حتى إذا خلت الغرف السكنية كلها، لفترة من الوقت، وفي جميع المناسبات".
مع نطقه هذه الكلمات، اعتمر السيد براس قبعته، وقد أمالها على عينيه حاجبًا عنها الرؤية، كما لو كان لا يود بتاتًا إلقاء ولو نظرة على هذه الزيارة المروعة، ثم انطلق من المنزل على عجل وسارع إلى الخارج.
لأن السيد سويفيلر بطبيعة حاله يفضل تلك العروض، ملأ الحماس صدره يريد أن يدلف إلى النافذة؛ كي يشاهد عرض بانش، حتى إن لم يكن هذا سببًا رئيسًا، فأن تنظر من النافذة إلى أي شيء مهما كان، أثناء وقت العمل أفضل كثيرًا من العمل، كأنك قد وجدت مخرجًا أخيرًا لتلوذ بالفرار، من هذا المنطلق، إثر حماسه المتأجج، وبعد مجهود مضنٍ تمكن من بعث حس التشويق في نَفس زميلته الكاتبة، مقنعًا إياها بجمال منظرهم وبتلقيها متعة مضاعفة، فَقَاما عن

كرسيهما، ودلف مع الآنسة سالي إلى النافذة في وئام تام ساد بينهما، واستقرا في مكانيهما، لكن العديد من السيدات والسادة الشباب من العاملين في احتضان الرضع، قد تمركزوا بكل ارتياح على حافة النافذة، كأنه مجلس لمنصب شرفي، ومعهم رعاياهم، متأقلمين تمامًا مع ما تسنح به الظروف.
تغبش الزجاج، وغمم الغبار الرؤية، وفقًا للعرف الودي الذي نشأ بينهما، فك عقدة وشاح الآنسة سالي البني، وخلعه ومسح به الزجاج، ثم نفض عنه الغبار، وسلمه لها حينما انتهى، أخذته منه، وأعادت ربط وشاحها الجميل مجددًا على رأسها في هدوء تام ولا مبالاة واضحة، عاد المستأجر، لكنه لم يعد منفردًا، عاد وفي عقبيه رَجُلا الاستعراض، وجمهورٌ حافلٌ من المتفرجين. سرعان ما اختفى العارض وراء الستائر، وتمركز شريكه إلى جانب المسرح، يحملق في المتفرجين بقسمات وجه غمرتها على نحو ملحوظ، صارت أكثر وضوحًا عندما نفخ لحن رقصة البوق البريطانية في آلة موسيقية ذات صوت عذب تُدعى: هرمونيكا، ظلت تعبيرات الحداد ملازمة لنصف وجهه الأعلى كما هي دون أدنى تغيير على الإطلاق، أما الجزء الآخر من الفم والذقن فغلبت عليه التشنجات الحية؛ فقد طُوِّعا قسرًا.
انقشعت الحالة الدرامية التي غمرت المتفرجين، وارتدُّوا إلى حالتهم الطبيعية. كانت الضجة التي سادت وسط الجموع ما زالت رائجة، عندما استدعى المستأجر رَجُلَي العرض كعادته إلى سكنه أعلى الدرج، فور تعافيهم من حالة اختطاف الأنفاس، وبعد أن صاروا أحرارًا قادرين على التحدث والحركة.
صاح من النافذة في رَجُلَي العرض فقط: "أنتما الاثنان.. أريد أن أتحدث معكما، اصعدا معًا".
تحضر السمين القصير من فوره، ممتثلًا إلى دعوته.
قال القصير: "هيا يا تومي".
رد الآخر: "لا أتحدث، قل له ذلك. لأي شأن سأذهب إليه وأتحدث؟".
رد القصير: "ألا ترى أن الرجل الأعزب قد حضر لنا قنينة فاخرة ورص الكؤوس؟".
رد الآخر وقد غلبه الحماس المفاجئ: "ألم تستطع قول ذلك منذ البداية؟ هيا! ماذا تنتظر؟ هل ستجعل الرجل النبيل ينتظرنا طوال اليوم؟ أليس لديك أي أخلاق حميدة؟".
مع هذا الاحتجاج الموبخ، دفع السيد ذو ملامح الحداد والتعبيرات الكئيبة، الذي لم يكن سوى السيد توماس كودلين، صديقه وأخاه في العربة السيد هاريس، أو كما يدعونه القصير أو مستدق الساق؛ وسبقه إلى سكن الرجل النبيل الأعزب.
قال الرجل الأعزب: "الآن يا رجال! لقد أديتما العرض بشكل رائع. هيا! قولا لي ماذا تتناولان؟ قل للرجل القصير خلفك أن يغلق الباب".
قال السيد كودلين، ملتفتًا إلى صديقه في تجهم بيِّن: "ألا تستطيع إغلاق الباب خلفك؟ لأنه وفقًا لما أظن، يجب عليك أن تعرف بمفردك أن الرجل النبيل يريد الباب مغلقًا، دون أن نخبرك.. أليس كذلك؟".
أطاعه القصير، وأخذ يرمقه خلسة، فقد أمسى صاحبه (غريب الأطوار) أكثر من المعتاد، متمنيًا ألا يتواجد في الحي أي حليب؛ فمزاجه كافٍ كي يعكر صفاءه، ولو من على هذا البعد.
أشار الرجل الأعزب إلى زوجين من الكراسي، مشددًا على جلوسهما بإيماءة مؤكدة، مستنكرًا أنهما لم يجلسا من تلقاء نفسيهما. تبادل السيد كودلين والسيد القصير النظرات، يساورهما الشك

والتردد، لكنهما جلسا في النهاية - على حافة الكرسيين اللذين أشار إليهما - ممسكين بقبعتيهما بإحكام، بينما ملأ الرجل الأعزب كأسين من القنينة الفاخرة الموضوعة بجانبه على الطاولة، وقدمهما إليهما بشكل لائق.
قال مضيفهما: "إن وجهيكما قد لفحته الشمس، هل كنتما تسافران؟".
رد السيد القصير بإيماءة مُثْبِتة وتبعها بابتسامة. ثم أضاف السيد كودلين إيماءة مؤكِدة، وتبعها بتأوه قصير، كما لو كان يشعر فعليًّا بثقل المسرح فوق كتفيه وهو مسافر.
استأنف الرجل الأعزب: "أحسب أنكما تتنقلان بين المعارض والأسواق والسباقات وهلم جرا.. أليس كذلك؟".
قال القصير: "بالضبط يا سيدي.. إننا نتنقل تقريبًا في جميع أنحاء غرب إنجلترا".
قال المضيف من فوره في عجالة: "لقد تحدثت مع رجال لهم نفس حرفتكما، من الشمال والشرق والجنوب، لكنني لم ألتقِ بأي أحدٍ من الغرب من قبل".
قال القصير: "دائمًا ما تكون جولتنا الصيفية المعتادة في الغرب يا سيدي، لذلك نحن هنا. إننا نطوف في شرق لندن في الربيع والشتاء، ثم نطوف في غرب إنجلترا في الأوقات الصيفية. لقد مرت علينا أوقاتٌ عصيبة، وهطلت على رأسينا الأمطار، وغرست في الوحل أقدامنا، دون أن نكسب بنسًا واحدًا، لذلك أتينا إلى الغرب".
- دعني أعيد ملء كأسك مرةً ثانية.
قال السيد كودلين فجأة من تلقاء نفسه، منحِّيًا القصير جانبًا: "إنني ممتن كثيرًا لك يا سيدي، إنني حقًّا كذلك.. لكنني أود أن أقول إنه أنا من يعاني هنا، أنا من يقع عليه العبء طوال السفر، وطوال الإقامة في النزل، سواء أكنا في بلد أم بلدة، سواء أكان الجو جافًّا أم ممطرًا، سواء أكان الطقس حارًّا أم بردًا، كودلين فقط هو من يعاني، لكن توم كودلين ليس بشكَّاء بكاء رغمًا عن كل الظروف والتداعيات. أوه، كلَّا البتة! من الممكن أن يشتكي القصير، إنه أمر وارد، لكن كودلين إذا تذمر، يقول كلمة واحدة فقط وعندئذ تكون الكلمة بالقدر الكثير.. أوه! دعك منه في الحال يا عزيزي، لا تُعِرْهُ انتباهًا أو أذنًا، إنه ليس بالمكان اللائق للتذمر، هذا غير وارد قطعًا".
عقَّب القصير مقطب الوجه، وبنظرة متجهمة: "إن فائدة كودلين لا تنكر حقيقةً، لكنه لا يخلو من عبئه، لا يبقى متيقظًا دائمًا. أحيانًا يغشاه النوم في أوقات لا يفترض فيها النوم أبدًا، كما تعرف! أتتذكر السباقات الأخيرة يا تومي!".
قال كودلين: "ألا تتخلى عن تضخيم الأمور يا رجل؟ يبدو الأمر كما لو كنت نائمًا بينما تجمع خمسة قروش وعشرة بنسات أثناء العرض الواحد مثلًا.. أليس كذلك؟ لقد كنت أحضر لعملي، ومن المستحيل على المرء أن يبقي عينيه على عشرين مكانًا مرة واحدة، أتحسبني طاووسًا، يوجد في ظهري أعين كما في ريش ذيله، ليس في مقدوري أكثر مما يمكنك فعله. إذا لم أكن كفؤًا لمراقبة الرجل العجوز والطفلة، فأنت أيضًا لم تكن كفؤًا لذلك، لذلك لا توجه أصابع الاتهام ضدي؛ لأن الملامة تليق بك تمامًا كما تليق بي".
قال القصير: "من الأحرى بك أن تصرف نظرًا عن هذا الموضوع يا توم؛ لأن ما لا يليق هنا هو أن نتحدث عن هذا الآن، أجرؤ على أن أقول إن هذا الموضوع غير سائغ للرجل النبيل".
رد السيد كودلين: "إذا كان الأمر كذلك، لِمَ طرحته من الأساس؟ لكنني أستميح الرجل النبيل عذرًا نيابةً عنك، نيابةً عن رجل طائش يحب أن يسمع نفسه يتحدث، دون أي دراية عن ماذا

يتحدث، يتحدث غير عابئ بما يقول".
منذ بداية هذا الجدل، كان المضيف جالسًا في سكينة تامة، ينظر إلى أحدهما، ثم ينظر إلى الآخر، كما لو كان متأهبًا ينتظر أن تتاح له الفرصة كي يطرح عليهما بعض الأسئلة، أو أن يعودا إلى موضوعهم الأساسي الذي عَدلوا عنه تمامًا. لكنه انطلاقًا من النقطة التي اختصت السيد كودلين بالذِّكْر، واتُّهم فيها بالنعاس، أظهر اهتمامًا متزايدًا بجدالهما، الذي قد وصل آنذاك إلى ذروته.
قال: "إنكما الرجلان اللذان أريدهما، إنكما من بت أبحث عنهما، وأُفتش وراءهما! قولا لي أين ذاك الرجل العجوز وتلك الطفلة اللذان تحدثتما عنهما؟".
قال القصير، وقد تملكه التردد، ينظر مباشرة إلى صديقه: "ماذا تقول يا سيدي؟".
- الرجل العجوز وحفيدته اللذان سافرا معكما.. أين هما؟ قولا لي، سيكون الأمر مجديًا، إذا تحدثتما، سيكون مجديًا أكثر مما يفوق توقعاتكما. لقد قلت إنهما رحلا عنكما، في أرض السباقات، كما فهمت من حديثك. لقد تُتُبع أثرهما إلى ذلك المكان، ثم تواريا عن الأنظار، ولم يعد بالإمكان اقتفاء أثرهما، أليس لديك أي فكرة أو أي اقتراح حول كيفية الوصول إليهما؟
صاح القصير، ملتفتًا إلى صديقه، وتعتلي وجهه نظرة مشدوهة: "هل كنت أقول لك دائمًا إنني متأكد من أن هناك لغزًا وراء سفرهما، وإن أمرهما مريب؟".
رد السيد كودلين: "لقد قلتَ فعلًا! هل كنت أقول لك دائمًا إن هذه الطفلة المباركة هي أكثر الأطفال الذين رأيتهم إثارةً للاهتمام على الإطلاق؟ هل كنت أقول لك إنني أحبها، وإنني شغوف بها؟ أوه! تلك المخلوقة العذبة، أحسب أنني أسمع صوتها الآن. إنها تقول: إن صديقي هو كودلين. تقول والدموع تنهمر من عينيها: إن صديقي هو كودلين، وليس القصير. - تقول: إن القصير شخص جيد، ليس بيننا أي عداوة، يحسب له أنه لطيف، وأكاد أجزم بذلك. - تقول: لكن كودلين، على الرغم من أنه يعلم بوجود أموالي، لن ينظر إليها البتة".
كرر السيد كودلين تلك الكلمات بعاطفة متأججة، يمسح أنفه في طرف كم معطفه، ويهز رأسه من جنب إلى آخر متحسرًا، تاركًا الرجل الأعزب يصارع أفكاره، ويواجه حقيقة أنه منذ اللحظة التي غابت فيها صغيرته العزيزة، لم يعد يعرف راحة للبال، ولا سعادة للقلب.
قال الرجل الأعزب، وهو يسارع الخطى في الغرفة ذهابًا وإيابًا: "يا رحمة السماوات! بعد أن وجدت أخيرًا هذين الرجلين، أكتشف أنهما لن يدلاني على شيء ولن يساعداني بأي معلومة! كم كنت أود البقاء هائمًا، أعيش يومًا بيوم على أي أمل، وألا أعتمد عليهما، بدلًا من أن تتبعثر أفكاري وتندثر توقعاتي هكذا".
قال القصير: "مهلًا! انتظر لحظة! الرجل الذي يدعى جيري.. أتتذكر الرجل الذي يدعى جيري يا توماس؟".
رد السيد كودلين: "أوه! لا تتحدث معي عن جيري.. كيف لي أن أكترث بجيري ولو بمثقال ذرة، حينما أفكر في تلك الطفلة المحببة؟ تقول: إن كودلين هو صديقي، كودلين الجيد العزيز العطوف، الذي يكن لي الخير دائمًا! أنا لا أخاصم القصير، ولكنني مقربة إلى كودلين. ثم قال الرجل بشكل عكسي كأنه يراجع أفكاره: لكنها ذات مرة دعتني (بابا كودلين) أعتقد أنني حتمًا أخفقت في شيء ما".

إلتفتَ القصير عن صديقه الأناني، متجهًا إلى من عرفاه قريبًا: "إن هذا الرجل الذي يدعى جيري يا سيدي، المعروف بمالك الكلاب الراقصة، أخبرني ذات مرة أنه بمحض الصدفة وهو سائر في طريقه، رأى الرجل العجوز في رفقة معرض من معارض أعمال الشمع المتنقلة، غير المعروفة له. منذ أن هربا منا لم نسمع عنهما أي شيء سوى هذا، وهذا قد حدث في البلدة، حيث رآهم هناك، في الواقع ساعتها لم أتخذ أي إجراء، ولم أَسْعَ للاستدلال على مكانهما.. لكنني أستطيع الآن، إذا أردت ذلك".
قال الرجل الأعزب بنفاد صبر: "هل هذا الرجل في المدينة؟ هيا رد سريعًا".
رد السيد القصير من فوره: "لا! ليس في المدينة، لكنه سيأتي غدًا، وسيقيم في منزلنا".
قال الرجل الأعزب: "إذنْ أحضِره إلى هنا.. خذ هذا (السفرن) جزاءً لما قلت. إذا وجدتهما بفضلك، وبفضل خدماتك، فهذا الجنيه الذهبي لن يكون إلا مقدمة لعشرين جنيهًا غيره، عد لي غدًا، وتذكر ما أطلبه منك جيدًا، رغم أنني لا أحتاج أن أوصيك بذلك؛ لأنك حتمًا ستفعل من أجل مصلحتك. الآن، أعطني عنوانك، واتركاني".
أخذ العنوان، غادر الرجلان، رحلت معهما الجماهير، وظل الرجل الأعزب على مدار ساعتين كاملتين، يمشي في الغرفة دون هوادة، فوق رأسي السيد سويفيلر والآنسة سالي براس المتعجبين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثامن والثلاثون

كيت! حريٌّ بنا أن نقول إننا سنلتفت نحو هذا الخصوص أولًا، ليس لأن لدينا وقتًا مستقطعًا، كي نتابع مصيره الذي كُتب عليه، بل لأن ضرورات هذه المجازفات تكيف نفسها مع طبيعتنا وأهوائنا، مثلما تطالبنا بحتمية متابعة المسار الذي طالما نرغب في اتباعه. كيت! في حين أن الأحداث التي عولجت في الفصول الخمسة عشرة الأخيرة لا تزال قيد التقدم، يُفترض أن الوقت قد حان، ليتعرف القارئ تدريجيًّا على السيد والسيدة جارلاند والسيد هابيل وباربرا، ليأخذ بعين الإعتبار أنهم مع تقدم الأحداث سيصبحون أصدقاءه المقربين، وستكون فيلا هابيل في بلدة فينتشلي منزله الخاص.

البقاء.. يمكن للكلمات أن تُكتب، ثم تُطوى في غياهب النسيان، لكني إذا ما تطرقت لنقل أي فكرة تفيد أن كيت على الرغم من رغد المعيشة وراحة الإقامة في مسكنه الجديد، نسي أجره الزهيد، وأثاث مسكنه القديم، فإن الكلمات قد ضلت مسعاها، وشرعت في إرتكاب الظلم. من كان يعصف ذهنه من التفكير فيمن تركهم وحدهم في بيته القديم، حتى إذا كانوا أُمًّا وطفلين صغيرين مثل كيت؟ مَن كان بمثابة الأب المتباهي من كل قلبه والمتيم بكل حركات الرضيع الساحرة، ليراه طفلًا أعجوبة، مثل كيت؟ من كان لا يسأم الحديث مطلقًا مع باربرا في أوقات الليل عن كل ما يخص جايكوب الصغير؟ هل كانت هناك أم مثل أم كيت كما كانت في عين ابنها، هل وُجِد في الفقر راحة أبدًا كما وُجد في فقر أسرة كيت؟ إذا ما سُرد الواقع من خلال رؤية كيت بتلك الكلمات، هل ستكون الكلمات اهتدت إلى مسعاها؟

اسمحوا لي أن أتريث في هذه الجزئية - ولو للحظة - كي أشير إلى أن مودة وحب أهل البيت إذا كانت تحمل معاني بهية، فإنها بهية فعلًا في الفقر. من الممكن أن تكون الروابط التي تربط الثري والمتفاخر ببيته أصلها زائف، أما تلك التي تربط رجلًا فقيرًا بموقده البسيط، فهي الحقيقية التي لا يمكن أن تشوبها شائبة، وتحمل شهادة السماء. من الوارد أن يحب الرجل ذو النسب والحسب الأبهة الفاخرة والأراضي الواسعة، التي يحملها له إرثه كأنها جزءٌ لا يتجزأ منه، كأنها أنصبة تذكارية لولادته ولمصدر قوته، فيكون ارتباطه بها ارتباط فخر وثروة وانتصار، أما العلاقة التي تنشأ بين الرجل الفقير ومسكنه الذي يأويه - الذي كان على الأغلب ملكا لغرباء من قبله، ومن الممكن بين ليلة وضحاها أن يسكنه الغرباء مجددًا - فهي علاقة ذات جذر متين متأصل تشعب في أعماق تربة صالحة. خلقت مقدسات منزله من لحم ودم، لا تتزين بسبائك من ذهب أو فضة أو أحجار نفيسة، ليس لديه أي ممتلكات سوى تلك العواطف التي تغمر قلبه، حينما يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالأرض العارية والجدران المتصدعة، بصرف النظر عن الثياب الرثة ومرارة العيش، والكدح المضني والأجر الزهيد؛ لأن مَن ألقى في قلبه حبه لبيته هو خالقه، فيصير بيته المتصدع مكانًا مهيبًا.

ماذا لو كان بإمكان من يتحكمون في مصائر الأمم أن يتذكروا هذا، أن يفكروا فقط في هؤلاء المكروبين في الفقر وكم من الصعب أن يكمن في قلوبهم حبهم لبيوتهم الذي تنبثق منه فضائلهم الأهلية، بينما يعيشون وسط جماعات دنيئة تستحق الازدراء، حيث تندثر الفضائل الإجتماعية أو لا تتواجد على الإطلاق، أن يلتفتوا عن الشوارع العريضة والمنازل الفخمة؛ ويكرسوا جهودهم

لتحسين المساكن الموحشة التي يقبع فيها الفقر المدقع ويهيم في طرقها.. فكم من أسطح منخفضة كانت أقرب إلى السماء من القبب المتباهية لدور العبادة، التي ترتفع في تفاخر وسط الذنوب والجرائم والأمراض الفتاكة؛ كي تسخر منها بشكل مغاير. تنتشر هذه الحقيقة يوما وراء يوم، وتُعلن على مدار أعوام بأصوات جوفاء في بيوت العمل والمستشفيات والسجون. ليس الأمر بالهين - ليس احتجاجًا على عمل شاق - ليست راحة وصحة الناس التي ربما تزهق في ليالي الأربعاء مسألة بسيطة؛ لأن حب الوطن، ينبثق من حب البيوت، وحينئذ وجب السؤال، من هم الوطنيون الصادقون، الذين يعول عليهم في وقت الحاجة؟ هل هم من يبجلون الأرض، ممتلكين أخشاب الوطن وأنهاره ويابسته وكل ما ينتجون؟ أم أولئك الذين يحبون بلدهم، ولا يمتلكون موضع قدم وسط رحابها الشاسعة!

لم يكن كيت على أي دراية مطلقًا بمثل تلك المسائل، كان كل ما يعرفه هو أن منزله القديم كان مكانًا مقفرًا فقيرًا، وأن البيت الجديد الذي سكن فيه لا يشبهه البتة، وأنه لا يزال يتذكره باستمرار في رضاه الممنون وبقلق حنون، وغالبًا ما يبعث رسائل مطوية إلى والدته، ويرفق معها شلنًا أو ثمانية عشر بنسًا، أو أي مال آخر مهما كان قليلًا، استطاع أن يحصل عليه بسبب سخاء السيد هابيل. في بعض الأحيان، حينما كان يتواجد في الحي، ويكون لديه متسع من الوقت، يعرج نحو والدته، التي لا يسعها الفرح متهللة في مرح واعتزاز بابنها، تعلو أصداء صخب سرور ورضى جايكوب الصغير والرضيع، فضلًا عن التهنئات الحارة التي شاعت في الأفق في الساحة بأكملها، مِمَّن سمعوا بآذان متلهفة عن فيلا هابيل، التي لا يمكن قول الكثير عن بهائها وسحرها.

على الرغم من أن كيت حاز على أعلى درجات التفضيل عند السيدة العجوز والسيد النبيل العجوز والسيد هابيل وباربرا، من المؤكد أن أيًّا من أفراد الأسرة لم يُبْدِ له هذا القدر من المحاباة الملحوظة مثل المهر العنيد، الذي يُعتبر الأكثر تعنتًا وتشبثًا بالرأي على وجه الأرض كلها، فقد كان بين يديه الأكثر وداعة والأسهل انقيادًا بين الحيوانات جميعها. صحيح أنه ومن أجل الاتساق الدقيق علينا أن نشير إلى أنه حين أصبح مطيعًا مع كيت، وبات صعب المراس بالكلية مع أي شخص آخر - كما لو أنه قد حسم أمر وجوده في الأسرة رغم أي صعوبات أو اعتراضات - لم يتخلَّ تمامًا عن سلوكه المعتاد، حتى بعد أن صار تحت إشراف مَن فَضَّله على الجميع، كان يستعرض أحيانًا تصرفات عجيبة متنوعة أو بعض الوثبات الراقصة، التي تضطرب لها أعصاب السيدة العجوز بشدة، لكن كيت دائمًا ما كان يبرر فعله بأنه يمزح، وأن هذه متعته الخاصة، أو أنها حتى طريقته في التعبير عن حبه وارتباطه الوثيق بأصحاب العمل، صارت السيد جارلاند تكابد من أجل إقناع نفسها تدريجيًّا بأن هذا الإعتقاد هو صحيح، حتى أصبحت في النهاية متأكدة تمامًا من صحته، حتى لو كاد أن يطيح بها من مقعدها أثناء تأديته إحدى حركاته الجامحة، باتت راضية تمامًا ما دام فِعله نابعًا من أطيب النوايا وأخلصها.

إلى جانب أنه أصبح في وقت قصير أعجوبة مثالية في جميع الأعمال الخاصة بالحظيرة، سرعان ما جعل من نفسه بستانيًّا على نحو مقبول للغاية، وخدومًا نشيطًا داخل المنزل، ومساعدًا لا غنى عنه للسيد هابيل، ما برح يقدم له يومًا بعد يوم إثباتًا لثقته فيه واستحسانه له. علاوة على ذلك، كان السيد ويزردن - كاتب العدل - ينظر إليه بعين رؤوفة، حتى السيد تشوكستر كان يتلطف أحيانًا ويومئ له بإيماءة خفيفة، أو يشير له بالشكل المتعارف عليه لإتخاذ الهدف نصب الأعين

وهي الإشارة التي تعني: "أراقبك"، أو يحييه ببعض التحيات الأخرى التي تجمع بين المزاح والمحاباة.
في صباح أحد الأيام، اقتاد كبت السيد هابيل إلى مكتب كاتب العدل، مثلما كان يفعل أحيانًا، وبعد أن وصلا إلى المنزل، تحضر كيت للعودة إلى حظيرة الخيل، لكن السيد تشوكستر خرج من باب المكتب وصاح عاليًا: "وووعاااااا". مطيلًا في صيحته؛ بغرض أن يدس الرعب في قلب المهر؛ زاعمًا سيادة البشر على الحيوانات الأدنى منزلة.
صاح السيد تشوكستر، مخاطبًا كيت: "أوقف العربة أيها الصبي! إنك مطلوب في الداخل".
قال كبت مترجلًا من العربة: "تُرى هل نسي السيد هابيل شيئًا؟".
رد تشوكستر: "لا تسأل أي سؤال أيها الصبي.. ادخل وستعرف! وووعاااا! إذا كان المهر ملكًا لي، فسوف أكسره".
قال كيت: "يجب عليك أن تكون معه في غاية اللطف، وإلا ستجده مزعجًا، مفتعلًا للمشاكل.. من الأفضل ألا تشد أذنيه، من فضلك! إنه لا يحب ذلك مطلقًا".
لم يرد السيد تشوكستر بأي تعقيب على هذه التوجيهات، سوى بزفرة غير ودية من أنفه في غطرسة عالية، نافخًا الهواء كما لو كان (طفلًا صغيرًا) محتجًّا، ثم طلب منه أن يذهب ويعود مرة أخرى بأقصى سرعة لديه، امتثل (الطفل الصغير).. وضع السيد تشوكستر يديه في جيبيه، وحاول أن يبدو كما لو كان غير مكترث على الإطلاق بالمهر الذي كان يسترخي بمحض الصدفة.
نظف كيت حذاءه بعناية فائقة - لم يكن قد فقد تبجيله لهيبة رزم الأوراق والعلب الصفيح بعد - طرق باب المكتب، الذي فتح بسرعة شديدة من قبل كاتب العدل نفسه.
قال السيد ويزردن: "أوه! ادخل يا كريستوفر".
سأل رجل عجوز ذو بنية متينة، كان متواجدًا في الغرفة: "هل هذا هو الفتى؟".
قال السيد ويزردن: "نعم إنه الفتى.. إنه يعمل لدى موكلي السيد جارلاند، إن لديَّ سببي الخاص لأصدق أنه فتى حسن يا سيدي، ولعلك تصدق ما يقوله. دعني أولًا أقدم السيد هابيل جارلاند يا سيدي.. إنه رب عمله الشاب، وتلميذي النجيب، وصديقي العزيز.. أعز أصدقائي يا سيدي". كرر كاتب العدل ما قاله ثانية، ساحبًا وشاحه الحريري، ولوح به حول وجهه.
قال الرجل الغريب: "لي الشرف يا سيدي".
رد السيد هابيل في لطف: "ولي أيضًا يا سيدي، بكل تأكيد.. هل كنت تريد التحدث إلى كريستوفر يا سيدي؟".
- نعم أردت التحدث إليه، إذا سمحت بالطبع!
- على الرحب والسعة.
همَّ السيد هابيل وكاتب العدل أن ينصرفا، لكن الغريب قال من فوره إثر ذلك: "إن أمري ليس سرًّا، أو ينبغي علي أن أقول: لا حاجة للأسرار هنا.. إن الأمر يخص بائع التحف القديمة، الذي عاش معه، إن أمره يهمني بشدة. لقد كنت مغتربًا عن هذه البلد لسنوات عديدة.. لذلك أرجو منكما أيها السيدان أن تعذراني، إذا كنت في هيئة غير مناسبة أو إذا اقترفت أي سلوك خاطئ".
رد كاتب العدل وكذلك السيد هابيل: "لا داعيَ للمعذرة أبدًا يا سيدي.. على الإطلاق".
قال الرجل الغريب: "لقد سألت في الحي الذي سكنه سيده القديم، وعرفت أن هذا الفتى كان يقوم على خدمته. فوصلت إلى البيت الذي تسكن فيه والدته، فدلتني على هذا المكان، باعتباره

أقرب مكان من الممكن أن أجده فيه. هذا هو السبب الذي أتيت من أجله إلى هنا هذا الصباح".
قال كاتب العدل: "إنني ممتن لأي سبب جعلني أنال شرف زيارتك يا سيدي".
رد الرجل الغريب في صرامة قائلًا: "يا سيدي! إنك تتحدث كأبسط رجل في العالم، وأحسب أنك أفضل حالًا كثيرًا من ذلك، لذا أرجو منك ألا تقلل من هيبتك الحقيقية كي تقول لي مجاملات ليس لها أي معنى".
تنحنح كاتب العادل وقال: "امم! إنك متحدث صريح يا سيدي".
رد الرجل الغريب قائلًا: "وتاجر صريح.. قد يكون غيابي الطويل وقلة خبرتي هما ما يقوداني إلى الشدة، لكن إذا كان المتحدثون الصرحاء في هذا الجزء من العالم نادرين، فإني أعتقد أن التجار الصرحاء لا يزالون أكثرة ندرة. إذا كان حديثي يسيء إليك يا سيدي، أحسب أن تعاملي - كما آمل - سوف يعوضك".
بدا السيد ويزردن مستاءً نوعًا ما من الأسلوب الذي يتبعه الرجل العجوز في إجراء الحوار، أما بالنسبة إلى كيت، فقد بات فاغر الفم، ينظر إليه مشدوهًا، يتساءل ما بال الرجل العجوز يتحدث مع كاتب العدل نفسه بهذه النبرة، فبأي نبرة سوف يتحدث معه. مع ذلك، إلتفتَ إلى كيت على عجل، لم يكن هناك أي قسوة أو حدة بادية عليه، لكن ذلك لم يُغْنِ عن وجود بعض الإنفعال المضطرب، وقال له:
"يا أيها الفتي! إذا كنت تعتقد أنني أسعى وراء ما أطلبه لأي غرض آخر غير أنني أريد خدمة من أبحث عنهما وأردهما إلى جادة الصواب، ستكون اقترفت بدورك خطأً فادحًا، وتسعى إلى تضليل نفسك. لذا أرجو منك ألَّا تكون مُضَلِّلًا، وثق في قولي". ثم أضاف بعد أن إلتفتَ مجددًا إلى كاتب العدل وتلميذه قائلًا: "في الواقع، إنني في موقف لا أُحسد عليه، ولا يحمد عقباه، وليس متوقعًا على الإطلاق. لقد أتيت إلى هذه المدينة من أجل هدف عزيز على قلبي، أتوقع عدم مواجهة أي صعوبة أو عقبة في طريقي لبلوغ مقصدي. لكنني فجأةً وجدت نفسي مقيدًا متوقفًا عن تنفيذ مخططي؛ بسبب لغز غامض لا يمكنني حله. على الرغم من كل الجهد الذي بذلته لأفك شفرات اللغز، والتي كانت تمضي بي إلى شفرات أكثر غموضًا وتعقيدًا، وأخشى أن أثير جلبة في هذه المسألة، فيلجأ من أتبعهما من فورهما إلى الإبتعاد أكثر عني. أؤكد لكم أنكم إذا مددتم لي يد العون، فلن تأسفوا أبدًا على فعلكم، إذا علمتم فقط مدى احتياجي لمساعدتكم، ومقدار الحمل الذي ستخففونه عن عاتقي".
وجدت البساطة التي بدت في هذا الاستئمان والاتكال مكانها في صدر حسن المحيا كاتب العدل، الذي اعتمد الرد من فوره وقال بالروح نفسها، إن الغريب لم يخطئ مقصده، وإنه إذا أراد أن يكون في خدمته، فسيكون على أهبة الاستعداد، وسوف يفعل ما في وسعه من توه، دون أي تقصير أو تأخير.
كان تعرُّض كيت لهذا الاستجواب، ووضْعه تحت أعين الرجل الغريب المرتقبة، سببًا رئيسًا ساقه إلى تذكر سيده القديم، والطفلة، وطريقة حياتهما التي غمرتها الوحدة، وعاداتهما التي كفا عنها، وعزلتهما الموحشة، ما جعله يسترجع كافة الأسئلة والأجوبة المبهمة بشأن الغياب الليلي للرجل العجوز، وبقاء الطفلة بمفردها، والوحدة التي صارعتها في تلك الأوقات، ومرضه وشفائه، وحيازة كويليب للمنزل، ومن ثمَّ اختفائهما المفاجئ. لذا أبلغ كيت الرجل، أن بيتهما صار للإيجار، وأن

اللوحة المعلقة على الباب تفيد بإحالة جميع المستفسرين إلى السيد المحامي سامبسون براس في بيفيس ماركس، الذي ربما يعلم منه بعض التفاصيل الإضافية.
قال الرجل هازًّا رأسه: "إنها لا تسنى إحالة المستفسرين.. إنني أعيش هناك".
صاح السيد ويزردن في دهشة، يريد معلومة مؤكدة من الرجل فسأله: "أتعيش في سكن السيد براس المحامي!".
كانت الإجابة: "آه! لقد ولجت إلى مسكنه في أحد الأيام، خاصة بعد أن رأيت تلك اللوحة. بالنسبة لي يهمني إلى حد ما أين أعيش، كثيرًا ما صاحبني أمل يائس بأن بعض المعلومات الاستخباراتية التي لن تصلني إذا كنت في أي مكان آخر، ستتوافد على مسامعي ما دمت هناك.. نعم! إنني أعيش في سكن براس نفسه.. بؤس! أليس كذلك؟".
قال كاتب العدل، هازًّا كتفيه: "إن ما سأقوله هو رأي خاص.. لكني أحسب أنه يجب أن ينظر إليه على أنه شخصية مريبة مشكوك في أمره".
قال الآخر مرددًا: "مشكوك في أمره؟ إنني سعيد أن أسمع عن أي شكوك تمسه. أحسب أنني حسمت هذا الأمر منذ فترة طويلة. لكن.. هل تسمح لي أن أتحدث معك بكلمة أو بأخرى على إنفراد؟".
وافق السيد ويزردن على مطلبه، دخلا إلى مقصورة الرجل حسن المحيا الخاصة، وحظيا بمحادثة انفرادية لمدة ساعة ثم عادا إلى المكتب مجددًا. كان الرجل الغريب قد ترك قبعته في غرفة السيد ويزردن، بدا عليه أنه أنشأ معه علاقة ودية في هذا الفاصل الزمني القصير.
قال، وهو يضع في يد كيت كراون (ربع جنيه إسترليني)، وينظر مباشرة نحو كاتب العدل: "لن أحتجزك أكثر من ذلك في هذا الوقت، حري بنا أن نتقابل مرة أخرى. لا تقل كلمة عن هذا لأي أحد، باستثناء سيدك وسيدتك بالطبع".
قال كيت متلعثمًا: "وأمي يا سيدي.. أظن أنها ستكون مسرورة بمعرفة ذلك".
- مسرورة بمعرفة ماذا؟
- أي شيء.. أن لا ضرر قد أصاب الآنسة نيل.
- هل ستكون فعلًا؟ حسنًا! يمكنك إخبارها إذا كان بإمكانها كتمان السر، وإذا كانت لن تنبس بحرف إلى أي مخلوق آخر. لا تنس هذا أبدًا.. كن حذرًا.
قال كيت: "سآخذ حذري يا سيدي. شكرًا لك يا سيدي. صباحك خير يا سيدي".
لم ينتهِ الأمر عند ذلك، بل كان الرجل حريصًا يساوره القلق، يريد أن يؤكد عليه ألَّا يخبر أحدًا بما دار بينهما، لذلك تبعه إلى الباب لتكرار تحذيره، وفي تلك اللحظة يحدث أن تلتفت أعين السيد ريتشارد سويفيلر نحوهما، فيرى صديقه الغامض وكيت معًا.
أن يقع هذا الحادث بهذه الطريقة، فإن أبلغ ما يُقال: إنها كانت صدفة إلى حد بعيد.
كان السيد تشوكستر الرجل النبيل صاحب الذوق الرفيع والروح الراقية، وواحدًا من أتباع جماعة "أبوللو المجيدة"، التي كان السيد سويفيلر رئيسها الثابت. حينها كان السيد سويفيلر يمر في الشارع؛ لتنفيذ بعض المهام التي كلفه بها المحامي السيد نحاس (براس)، رأى على قارعة الطريق واحدًا من الأخوية المجيدة يحدق باهتمام في مهر، فعبر إليه الطريق كي يقدم له تحية ودية، نصت عليها الأخوية الأبدية، من خلال العرف المتداول فيما بينهم، الذي يحتم عليهم الهتاف وتحية أتباعها. بالكاد ألقى عليه التحية، ثم استطرد في كلامه بحديث عام عن الوضع الحالي،

متفقدًا أحوال الطقس وما إلى ذلك، فيرفع عينيه، وإذا به يبصر الرجل النبيل من بيفيس ماركس يخوض محادثة جادة مع كريستوفر نابلز.
قال ديك: "مهلًا! من هذا؟".
رد السيد تشوكستر: "لقد أتى هذا الصباح، كي يرى مديري، ولا أعرف ما هو غير ذلك، فإني لم أسمع عنه ولم أره منذ خُلقت البرية".
قال ديك: "لكنك على الأقل تعرف اسمه.. أليس كذلك؟".
وقبل أن يعرف رد السيد تشوكستر، قال في نبرة عالية مقتدٍ بأبوللو المجيدة أنه: "مبارك للأبد"، إذا عرف.
قال السيد تشوكستر، وهو يمرر أصابعه بين خصلات شعره: "إن كل ما أعرفه يا رفيقي العزيز، أنه سبب وقوفي هنا لمدة عشرين دقيقة كاملة، وأنني أكرهه كراهيةً مهلكة لا تفنى، كراهية تكفي من الآن حتى الفناء، إذا كان في عمري ما يكفي".
بينما كانا في منتصف كلامهما، كان موضوع حديثهما الرئيس - الذي لم يَخْطُ إلى الخارج، ولم يعرف عن وجود ريتشارد سويفيلر شيئًا دخل إلى المنزل مرة أخرى، وعرج كيت نحوهما، منضمًّا إليهما، فأعاد عليه السيد سويفيلر تساؤله المطروح، لكن دون تحقيق نجاح أفضل.
قال كيت: "إنه رجل لطيف للغاية، وهذا كل ما أعرفه عنه".
تفاقم غضب السيد تشوكستر، لكن دون أن يخص سببًا معينًا بالذكر، قال على وجه العموم، كأنه افتراضٌ يسلم به، أنه من المفروض كسر رؤوس المتكبرين، وقرص أنوفهم. بعد مرور لحظات قليلة، دون أن يعبر عن تأييده له في هذا الصدد، وتجهمه في أفكاره الغامضة، سأل السيد سويفيلر عن أي الطرق سيسلك كيت، وبمجرد إعلامه، أعلن أن هذا الطريق هو طريقه أيضًا، وفرض عليه أن يوصله، متعديًا على حقه في القبول أو الرفض. كان من دواعي سرور كيت أن يرفض هذا الشرف المعروض عليه، لكن السيد سويفيلر جلس واستراح بالفعل على المقعد المجاور له، غير تاركٍ له فرصة الرفض بأي حال، بخلاف حمله على النزول قسرًا، بالتالي، اندفع بالعربة في تهور - تهور شديد في الواقع - ليقطع وداع السيد تشوكستر للرئيس الدائم، علاوةً على أنه أراد أن يسبب إزعاجًا للأخير، بجعل مسامير قدمه تُدعس من انطلاقة المهر الجامح.
أما بالنسبة إلى ويشكر نفسه، فقد كان ضجرًا؛ سئم الوقوف، بدا السيد سويفيلر لطيفًا بما فيه الكفاية، فصار يحمسه وينشطه عن طريق صافرات عالية، وصيحات حماسية متنوعة، ظلت تتتابع طوال الوقت في حدة وسرعة أكبر، لدرجة أنها شابهت الحديث، كادت أن تثير جماح أي مهر، ولأنه المهر معروف السلوك، صار ساخطًا غاضبًا من توجيهات السيد سويفيلر، زايد في نزواته، مبينًا انجذابًا شديدًا لكل أعمدة المصابيح وعجلات العربات، وأظهر رغبة قوية في الركض على طوار الطريق، وسحج نفسه عن طريق الركض إلى الجدران القرميدية. لكن الأمر لم يكن على النحو نفسه، حينما وصلوا إلى المزرعة، حيث دخلت العربة من مدخل صغير للغاية، فقد سحبها المهر بدافع أن يأخذه إلى حجيرته المعتادة، حيث وجد السيد سويفيلر وقتًا للحديث.
قال ريتشارد: "إنه عمل شاق عليك.. أتريد شرب بعض الجعة؟".
رفض كيت في البداية، لكنه أذعن مع الوقت، وقد أرجأ حديثهما إلى حين بلوغهما حانة مجاورة.
قال ديك، ممسكًا بكأس الجعة المزبدة: "لنشرب في صحة صديقنا، ما اسمه؟ ذاك الرجل الذي كنت تتحدث معه هذاِ الصباح، أتعرف.. إنني أعرفه.. إنه رفيق جيد، لكنه غريب الأطوار.. رجل

نبيل غريب الأطوار جدًا.. ما اسمه؟".
شرب كيت النخب، ولم ينطق بكلمة.
قال ديك: "إنه يعيش في مسكني.. أو كي أكون دقيقًا، إنه يعيش في السكن الذي يمتلكه صاحب العمل، الذي أعمل لديه كـ..، كشريك إداري.. إنه شخص حسن، لكن من الصعب بل من المستحيل معرفة أي معلومة منه.. لكننا نحبه.. نحبه فعلًا".
قال كيت، وهو يهم بالرحيل: "يجب أن أرحل يا سيدي، بعد إذنك".
رد داعيه: "لا تكن متعجلًا يا كريستوفر.. ما زلنا سنشرب نخب والدتك".
- شكرا لك يا سيدي.
قال السيد سويفيلر: "إن والدتك يا كريستوفر أم مثالية.. من يلتقطنا حينما نسقط، ويقبل موضع الألم، كي يسكن؟ إنها الأم. المرأة الساحرة.. إنه رفيق سخي. يجب أن نقصده، لكي يقدم أي مساعدة لأمك.. قل لي هل يعرفها يا كريستوفر؟".
هز كيت رأسه بالنفي، ملقيًا نظرة خاطفة على السائل، ثم شكره، وانطلق قبل أن ينطق معه بكلمة أخرى.
فكر السيد سويفيلر مليًا، وقال كأنما يحدث نفسه: "همف! إن الأمر مريب.. لا شيء له صلة بمنزل براس إلا وكان مبهمًا غامضًا، تغمره الألغاز. على كل حال سأدع تحرياتي لنفسي. أحسب أنني أحوز على ثقة كل منهم وأي منهم حتى الآن، لكن الوقت قد حان لتدبير شؤوني الخاصة، ولأقوم ببعض المصالح التي تخدمني، إن الأمر غريب.. غريب ومريب حقًا!".
بعد أن غرق في تفكيره، واعتلت أمارات الحكمة وجهه لبعض الوقت، انتشل نفسه من أفكاره، وشرب بعض الجعة، ثم استدعى صبيًا صغيرًا، كان يحدق فيه بنظراته، ويراقبه طوال تلك المدة، وسكب في كأسه القطرات القليلة المتبقية، باعتباره يريق شيئًا عديم النفع، ثم أمره بأن يحمل الكأس الفارغة وتحياته إلى الساقي، علاوةً على ذلك أوصاه بأن يعيش حياة رصينة معتدلة، يمتنع عن شرب جميع المشروبات الكحولية، بعد تقديم هذه النصيحة الأخلاقية - التي كانت أفضل كثيرا من النصف بنس - وضع الرئيس العظيم لجماعة أبوللو المجيدة يديه في جيبيه، وشق طريقه مبتعدًا، لكنه لا يزال يفكر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل التاسع والثلاثون

على الرغم من انتظار كبت للسيد هابيل طوال ذلك اليوم وحتى المساء، إلا أنه قرر أن يبقى بعيدًا عن منزل والدته؛ كي لا يفسد مفاجأة ملذات الغد، حتى يراهم في أقصى درجات بهجتهم، لأن الغد هو اليوم العظيم الذي طال انتظاره طوال حياته؛ لأن الغد هو نهاية ربع المدة الأولى؛ لأن الغد هو يوم استلام ربع مرتبه السنوي للمرة الأولى - ستة جنيهات، أي ثلاثون شلنًا بالتمام والكمال -؛ لأن الغد سيكون نصف اليوم كاملًا إجازة من العمل، من أجل الترفيه فقط، سيعرف جايكوب معنى المحار، وسيشاهد العرض أخيرًا.

كان الأمر أشبه بأنك إذا ما أردت شيئًا بشدة، فستتكاتف الأمور جميعها على تسخيره لك، فقد تكاتفت الأحداث كلها لصالح هذه المناسبة.. لم يقتصر الأمر فقط على أن السيد والسيدة جارلاند أخبراه أنهما قررا عدم خصم تكلفة ملبسه من راتبه - الهائل - بل أنهما قررا أيضًا التكفل دون انقطاع بمصاريف ملابس أنيقة وقيمة له.. لم يقتصر أيضًا على الزيادة التي أضفاها الرجل الغريب على راتبه، بإعطائه خمسة شلنات دفعة واحدة، كأنها منحة إلهية مثالية، فقد كانت ثروة بذاتها.. لم يقتصر الأمر على هذه الأحداث، التي لا يمكن لأحد أن يحصل عليها مرة واحدة، أو أن تصور له في أكثر أحلامه جموحًا.. بل كان ذلك اليوم كذلك هو آخر يوم في الربع السنوي لباربرا أيضًا، علاوة على ذلك، كان نصف ذلك اليوم إجازة لها أيضًا، تمامًا مثلما كان الحال مع كيت، وقد قررت والدة باربرا أن تقيم نوعًا من الاحتفالات، وتشرب الشاي مع والدة كيت؛ كي توطد العلاقات، ولترعى التعارف.

في وقت مبكر من صباح اليوم، نظر كيت من النافذة، يتابع سير السحب على وجه العموم، ويتبين على وجه الخصوص ما إذا كانت باربرا تطل من نافذتها، إذا لم تكن قد استيقظت إلى وقت متأخر من الليل؛ ترتب وتكوي الأقمشة، وتزخرفها بقطع الشاش، وتحيكها مع قطع أخرى، لتفضل زيا رائعًا، لملابس اليوم التالي، لكنهما كانا مستيقظين، فقد كان ذلك اليوم المشهود لهما، تناولا القليل في وجبة الإفطار، وأقل من القليل في الغداء، حتى غمرهما الحماس، عندما دخلت والدة باربرا في مظهر منتعش، دل على صفاء الجو واعتدال الطقس في الخارج - لكن ذلك لم يُغْنِ عن مجيئها ممسكة بمظلة كبيرة جدًّا، فقد يصعب على الناس أمثال والدة باربرا أن تفوت الخروج في العطلات من دونها - حينما دق الجرس، صعدا من فورهما في أوج حماستهما؛ لاستلام راتبهما الربع السنوي بالعملات الإنجليزية الفضية والذهبية.

حسنًا! ألم يكن السيد جارلاند لطيفًا حينما قال: "ها هو راتبك يا كريستوفر، لقد استحققته عن جدارة"؟ ألم تكن السيدة جارلاند عطوفة حينما قالت: "ها هو راتبك يا باربرا، إنني سعيدة بك جدًّا"؟ ألم يوقع كيت باسمه على قسيمة الاستلام بخط عريض؟ ألم تكن باربرا ترتجف حينما كانت تكتب اسمها؟ ألم يكن من الجميل رؤية كيف سكبت السيدة جارلاند لوالدة باربرا كأسًا من النبيذ؟ ألم تتحدث والدة باربرا قائلة: "هذا نخب سيدتي، فإنك حقًّا سيدة كريمة، ونخبك يا سيدي، فإنك خير الرجال النبلاء، ونخب حبي لك يا باربرا، ونخبكَ أيضًا يا كريستوفر"؟ ألم تكن تشربه لمدة طويلة كما لو كان قدحًا كبيرًا، ألم يكن شكلها أنيقًا جدًّا، حينما كانت تقف مرتدية قفازها؟ ألم يكن في تلك الأجواء الكثير من الضحكات العالية والأحاديث المتداولة بينهم، كما لو

كانوا يشاهدون كل هذه الأحداث من فوق الأريكة؟ ألم يكونوا مشفقين على من في أعمالهم ولم يأخذوا ذاك اليوم عطلة؟
ووالدة كيت.. ألم يتصور أحد أنها ستظهر في حلية حسنة، وتبدو في رونق السيدات فعلا - لأول مرة طوال حياتها -؟ لقد كانت مستعدة تمامًا لاستقبالهم، حضرت لوازم الشاي في حرص تام - وبقلب دافئ كما لو أنها ملكت العالم وما فيه -، ألم يكن جايكوب والرضيع في حالة مثالية؟ ألم تَبْدُ ملابسهما رائعة كما لو كانت جديدة بالضبط، رغم أننا نعرف أنها قديمة بما يكفي! ألم تقل بعد خمس دقائق من استقرارهم في جلستهم، إن والدة باربرا كانت مثلما توقعت تمامًا؟ ألم تقل والدة باربرا إن والدة كيت كانت الصورة الواقعية لما تصورته في مخيلتها؟ ألم تلق والدة كيت على والدة باربرا العديد من عبارات المديح لباربرا؟ ألم ترد والدة باربرا على والدة كيت بالعديد من عبارات الإطراء على كيت؟ ألم تكن باربرا نفسها مولعة بجايكوب الصغير؟ ألم يكن أي طفل يتباهى ويستعرض مهاراته أمام الغرباء إذا أراد، مثلما فعل ذلك الطفل، أو يكوِّن صداقات؟
قالت والدة باربرا: "وكلتانا أرملة أيضًا.. أحسب أننا خلقنا لتعرف كل واحدة منا الأخرى".
ردت السيدة نابلز: "لا شك لديَّ في ذلك.. لكن يا لها من خسارة لأننا لم نتعارف منذ مدة طويلة".
قالت والدة باربرا: "لكننا تعرفنا في النهاية، وإنه حقًّا لمن دواعي سروري، ويرجع الفضل في ذلك إلى ابنك وابنتي.. هذا أمر مؤكد. أليس كذلك؟".
أبدت والدة كيت ما قالته، وأعطتها موافقتها الكاملة على ما ذكرت، وبتركهما التأثير، وتعقبهما الأسباب، كان من الطبيعي أن يصل بهما الحديث إلى زوجيهما المتوفيين، وتخليد ذكراهما، متحدثتين عن حياتهما، وموتهما، ومراسم دفنهما، قارنتا بين الأحداث، واكتشفتا ظروفًا متشابهة وأخرى متباينة في دقة عجيبة، فقد كان والد باربرا أكبر من والد كيت بأربع سنوات وعشرة أشهر، بينما توفي أحدهما يوم الأربعاء والآخر توفي يوم الخميس، وكان كلاهما وسيمًا، تمتعا بحسن المنظر بشكل ملحوظ، وكانت هناك العديد من المصادفات غير العادية غير ذلك. ألقت تلك الذكريات ظلالها على سطوع بهجة العطلة، لذلك غير كيت مجرى الحديث، وشرع في التحدث عن مواضيع عامة، سرعان ما عادوا إلى بهجتهم، مثلما كانوا في بداية جلستهم. على غرار الأحاديث العامة، حدثهم كيت عن البيت القديم، وعن نيل ذات الجمال الاستثنائي الفريد - تحدث عنها قرابة الألف مرة من قبل مع باربرا - لكن الكلمة الأخيرة التي قالها، قد ضلت مسعاها، ولم يجد منهم رد الفعل الذي كان يفترض، حتى والدته التي بدت بمحض الصدفة تنظر إلى باربرا في التوقيت ذاته - قالت إن الآنسة نيل بلا شك كانت جميلة جدًّا، لكن العديد من الآنسات الصغيرات جميلات أيضًا مثلها، وعقَّبت باربرا من فورها أنها تظن ذلك فعلًا، وأنه من الواضح أن اعتقاد السيد كريستوفر يجب أن يحتمل الخطأ.. لكن كيت اندهش كثيرًا من ردود أفعالهن؛ لا يستطيع تحديد سبب وجيه إزاء تشكيكهن في كلامه. علاوة على أن والدة باربرا أضافت قائلةً: إنه من الشائع أن يتغير شكل الفتيان والفتيات في سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة تقريبًا، على الرغم من تمتعهم بجمال ساحر من قبل، يكبرون ويصيرون عاديين، ثم دعمت حقيقة ما قالته بالعديد من الأمثلة قوية الحجة، إضافة إلى أنها قد أتت على ذكر أن أحد الشباب - قد اختص باربرا بالاهتمام - وأنه كان بنَّاءً، يتمتع بمميزات عظيمة، لكن باربرا لم يكن لديها أي شيء تقوله - على الرغم من أن كل شيء كان ممتازًا - وقد ظنت أن عدم اكتمال هذا الأمر مؤسف حقًّا. حينها قال

كيت إنه يظن ذلك أيضًا، وبدا أنه صادقٌ ويعني ما يقوله، لكن سرعان ما صار مشدوهًا لا يعرف لماذا صمتت باربرا فجأةً، ولماذا نظرت إليه والدته كما لو كان من المفروض ألا يتلفظ بأي كلمة مما قاله أبدًا.
على كل حال، بات الوقت مناسبًا كي يحيدوا عن تلك الأحاديث، ويتأهبوا من أجل العرض، الذي يستلزم الذهاب لمشاهدته تحضيرات كثيرة، فمثلًا سوف يأخذون معهم القبعات والشالات، والوشاحين المكتنزين، أحدهما بالبرتقال، والآخر بالتفاح، الذي استغرق ربطهما وقتًا طويلًا؛ فلم تكف الفاكهة عن السقوط منه والدحرجة إلى أركان الغرفة. في النهاية، صار كل شيء جاهزًا، فانطلقوا من فورهم، حملت والدة كيت رضيعها، الذي كان متيقظًا بشكل مريب، وأمسك كيت يد جايكوب الصغير، الذي رافق باربرا ممسكًا يدها بيده الأخرى، جعلت حالة الوئام التي بدت عليهم الوالدتين اللتين سارتا خلفهم، تعلنان أنهم يبدون كما لو كانوا أسرة صغيرة بالضبط، ذلك ما جعل وجه باربرا يحمر خجلًا، وتقول: "لا داعي لهذا الكلام الآن من فضلك يا أمي!". لكن كيت قال لها ألا تُعير حديثهما انتباهًا، لكنها في الحقيقة لم تكن بحاجة إلى ذلك؛ إذ عرفت إلى أي حد فكرة الحب بعيدة تمامًا عن أفكار كيت. مسكينة باربرا!
وصلوا في النهاية إلى مكان العرض، الذي كان في مدرج (أستلي).. بعد وصولهم بدقيقتين تقريبًا، لم يكن الباب قد فُتح بعد، تتجمهر أمامه تكتلات بشرية لا حصر لها، لدرجة أن جايكوب الصغير صار شبه مسطح بين الناس، وتعرض الطفل إلى العديد من الارتجاجات والارتطامات كالتي يتلقاها الغواصون، وأطيح بمظلة والدة باربرا إلى مسافة عدة ياردات، ثم أُعيدت إليها مرة أخرى من فوق أكتاف الناس، أما كيت فقد سدد ضربات لرأس رجل بالوشاح الذي حمل في داخله التفاح؛ لأنه تعرض لوالدته بعنف غير ضروري، باختصار كان المكان كله يعج بالفوضى والضجة العارمة. لكنهم في النهاية تخطوا مكان الدفع والتزاحم، وتسلموا في أيديهم التذاكر. حينما دخلوا إلى المدرجات، وجدوا مقاعدهم في مواقع مميزة جدًّا، لم يكن ليحصلوا على أفضل منها، ولو أتيح لهم أن ينتقوها، ويحجزوها مسبقًا.. بدا كل هذا لهم على أنه مزحة مرحة، وجزءًا أساسيًّا من الترفيه.
يا إلهي! يا إلهي! كيف يمكن وصف هذا المكان! كيف يمكن وصف مدرج أسلي! مع الطلاء المذهب، والمرايا، ورائحة الخيل التي تفوح من أرجاء المكان، والتي تضفي شعورًا بأن العجائب آتية، والستائر المسدلة التي تواري خلفها كل ما هو رائع وغامض ومثير للفضول، والنشارة البيضاء النظيفة المنثورة على أرض السيرك، والجماهير الحاشدة التي أتت واتخذت أماكنها، والعازفين الذين باتوا ينظرون نحوهم في فتور وهم يضبطون آلاتهم الموسيقية، كما لو كانوا لا يريدون بدء العرض، وعلى علم بأحداثه مسبقًا! كيف يمكن وصف التوهج الذي انعكس على الجميع بالتزامن مع الإنارة التدريجية لصف طويل من الأضواء الساحرة، كيف يمكن وصف الإثارة المتأججة حينما قُرع الجرس، وبدأت الموسيقى تُعزف مع تأثيرات قوية من قرع الطبول، ورنين آلة المثلث! ربما قالت والدة باربرا لوالدة كيت: إن مدرجات العرض كانت مكانًا رائعًا للمشاهدة، متعجبة من أنها لم تكن أغلى من المقصورات.. ربما قالت باربرا: إنها تشعر بشعور غريب لا تعرف إذا كانت تريد الضحك أم البكاء بسبب الفرحة العارمة التي تخالجها.
كيف يمكن وصف العرض نفسه؟ كيف يمكن وصف الخيول؟ التي سلم جايكوب الصغير بأنها خيول حية من أول وهلة، لكنه لم يقتنع بواقعية السيدات والسادة بأي حال من الأحوال، فلم

يكن قد رأى أو سمع عن مثل تلك العروض من قبل على الإطلاق، كيف يمكن وصف صوت دوي إطلاق الرصاص! الذي طرفت له عينا باربرا لا إراديًّا، والسيدة البائسة التي جعلتها تبكي، والرجل الطاغي الذي جعلها ترتجف خوفًا، والرجل الذي تغنَّى مع الخادمة وأرقَص الجوقة الذي جعلها تضحك، والمهر الذي وقف على قائمتيه الخلفيتين حينما رأى القاتل ولم يعد يمشي على قوائمه الأربعة مرة أخرى حتى أُخذ إلى الاحتجاز، والمهرج الذي غامر بالمزاح مع الرجل العسكري الذي كان يرتدي حذاءً ذا رقبة عالية، والسيدة التي قفزت من فوق تسعة وعشرين شريطًا ثم نزلت بأمان على ظهر الحصان، كيف يمكن وصف أن كل شيء كان باعثًا على السرور رائعًا مدهشًا! صفق جايكوب الصغير إلى أن احمرت راحتا يديه، صاح كيت: "عرض رائع". بما تضمنه من عروض ثلاثية، ضربت والدة باربرا بمظلتها على الأرض مِرارًا وتكرارًا في ابتهاج، حتى كادت أن تهترئ ويظهر منها نسيجها القطني.

على الرغم من تلك الأجواء الفاتنة المبهجة، ما زالت أفكار باربرا تحوم حول ما قاله كيت وقت شربهم الشاي، لدرجة أنهم حينما غادروا العرض، جاءت إلى جانبه، تعتلي وجهها إبتسامة متكلفة، وسألته في قلق هستيري: هل جمال الآنسة نيل يضاهي جمال السيدة التي قفزت فوق الشرائط!

قال كيت: "جمالها يضاهي جمال السيدة! بل قولي ضعف جمالها".

قالت باربرا: "أوه.. كريستوفر! إنني متأكدة أن هذه السيدة هي أجمل مخلوقة على الإطلاق".

رد كيت: "هراء! إنها جميلة بما يكفي.. لا أنكر ذلك، لكن بارتدائها تلك الملابس ووضعها تلك المساحيق.. فكري فقط كيف يمكن لتلك الأشياء أن تغير من شكلها الطبيعي. إنكِ تبدين أجمل منها كثيرًا يا باربرا".

نظرت باربرا إلى الأسفل وقالت: "أوه.. كريستوفر".

قال كيت: "إنكِ فعلًا جميلة.. في أي وقت.. وكذلك والدتكِ".

مسكينة باربرا!

ما قيمة كل هذا - على الرغم من أنها أشياء مهيبة - إلى جانب الإسراف الاستثنائي الذي تلاها، حينما ذهب كيت إلى مطعم المحار، دخل جريئًا واثق الخطى، كما لو كان يعيش هناك، ولم تمضِ مجرد وهلة فائتة حين نظر إلى طاولة البيع، أو الرجل الذي يقف وراءها، اقتاد صحبته إلى مقصورة - كانت مقصورة خاصة، مجهزة بستائر حمراء، ومفرش طاولة أبيض، وحامل توابل كامل - استدعى رجلًا ذا شارب كثيف، كان يعمل نادلًا، قال - قال لكريستوفر نابلز -: "تفضل يا سيدي"، فأمره بإحضار ثلاث دستات من المحار كبير الحجم، وأن يكون سريعًا! نعم! لقد أوصى كيت ذلك الرجل أن يكون سريعًا، وما حدث بعد ذلك لم يقتصر على تأكيد الرجل على أنه سوف يكون سريعًا، بل نفذ كلامه بالفعل، وأحضر معه العيش الساخن، والزبد الطازج، وأكبر محار قد سبقت رؤيته، ثم قال كيت لهذا الرجل: "وأريد قدحًا من الجعة". - دون أي كلمة إضافية - وبدلًا أن يرد عليه الرجل ويقول: "هل تقول لي هذا الكلام يا سيدي؟". قال: "قدحًا من الجعة يا سيدي! أمرك يا سيدي". ثم خرج وجلبه له، ووضعه في دورق صغير على الطاولة، يشبه ما تحمله كلاب المكفوفين في أفواهها في الشارع، لوضع نصف بنس بداخله، أعلنت كلتا السيدتين - والدة كيت ووالدة باربرا - بمجرد أن إلتفتَ عنهما، أنه أروع وأنبل الشباب الذين رأينهم على الإطلاق.

انكبوا على تناول عشائهم في نهم، لكن باربرا - الحمقاء باربرا - أعلنت أنها لا تستطيع أن تأكل أكثر من محارتين، وأنها ستضغط على نفسها لأكلهما كاملتين أكثر من أن يمكن لأحد أن يتخيل، قبل أن تلتهم أربعة من المحار، على الرغم من أن والدتها ووالدة كيت أكلتا بشكل طبيعي جدًّا، ضاحكتين مستمتعتين، مثل كيت تمامًا، الذي ضحك وسُرَّ بسبب سرورهما، وهو يأكل بانسجام شديد. لكن المعجزة العظيمة لتلك الليلة كان جايكوب الصغير، الذي أكل المحار كأنه ولد وتربى وهو يعمل في تحضيره - يرش الفلفل والخل بدقة متناهية رغم صغر سنه - وقد بنى مغارة على الطاولة بالأصداف. بالإضافة إلى الرضيع أيضًا، الذي لم تغمض له عين طوال الليل، لكنه جلس حسن التصرف تمامًا، بخلاف أنه حاول أن يحشر برتقالة كبيرة داخل فمه، وبات يحملق في أنوار الثريا، ويحدق في وهج الشعلة دون أن يحرك جفنًا، جالسًا في حضن أمه، ينقش على وجهه الرقيق لوحات من لصق الأصداف به، بالدرجة التي تجعل قلبًا من حديد يفتتن به! باختصار، لقد كان عشاءً مِثاليًّا، حينما طلب كيت مشروبًا دافئًا كي يختتموا به جلستهم، ويذهب إلى السيد والسيدة جارلاند، كانوا أسعد ستة أشخاص في جميع أنحاء العالم.

لكن لكل شيء نهاية، وللسعادة أيضًا نهايتها.. - أو من هنا تأتي بدايات السرور في الأساس - أمسى الوقت متأخرًا، فقرروا جميعًا توجيه وجوههم إلى منازلهم. لذلك، بعد أن حاد كيت ووالدته قليلًا عن مسار بيتهما؛ لمرافقة باربرا ووالدتها إلى منزل صديقتها، حيث ستقضيان الليل، غادراهما أمام الباب، مع موعد مبكر بالعودة إلى فينتشلي في صباح اليوم التالي، وخطط كثيرة تخص الربع السنوي التالي. حمل كيت على ظهره جايكوب الصغير، مد يده إلى أمه، وأعطى قبلة للرضيع، وساروا جميعًا إلى المنزل، تغمرهم نشوة الفرح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الأربعون

مع هذا الشعور المبهم من الأسف التي تبعثه العطلات في صباح اليوم التالي لها، خرج كيت مع شروق الشمس إلى إلتزاماته وواجباته اليومية، تتغمده متع ليلته الماضية، وتنعشه النسمات الصباحية، ذهب ليلتقي بباربرا ووالدتها في المكان المحدد. حينما كان يتحضر للمغادرة، كان حريصًا جدًّا ألَّا يوقظ أيًّا من طفلي الأسرة الصغار؛ فقد كانا لا يزالان يستريحان حتى الآن من إرهاق غير اعتيادي، ترك كيت أمواله على رف المدفأة، مع نقش بالطباشير؛ ليلفت انتباه والدته إلى مكانها، وأبلغها أن تلك الأموال لها من ابنها المطيع، ثم رحل بقلب أثقل من جيوبه، لكنه خالٍ من أي غصَّة.

يا لهذه العطلات! لماذا تترك في أنفسنا شعورًا بالأسف؟ لماذا لا نستطيع إقصاء ذكراها في ذاكرتنا إلى الماضي، لأسبوع واحد أو لأسبوعين، فتصبح على مسافة مريحة من الذاكرة، يُنظر إليها بلا مبالاة هادئة أو بجهد غير جهيد! لماذا تتوافد ذكراها على بالنا، كمذاق خمر الأمس، فتتنزل علينا بالكسل والصداع، أو لماذا لا نجعل منها أهدافًا حسنة للمستقبل، لكن عادةً ما يستمر أثرها حتى وقت الغداء فقط، أو ما يقرب من ذلك!

مَن سيتعجب أن باربرا كانت تعاني من الصداع، وأن والدة باربرا كانت إلى حد ما منزعجة، وأنها استخفت بعرض (أسلي)، فقد ظنت أن المهرج كان عجوزًا على أن يقدم عرض ليلتهم الماضية؟ لكن كيت لم يكن مندهشًا مما قالته على الإطلاق. لطالما كانت تراوده هواجس - بسبب بصيرته الوهاجة - حيال فكرة أن الممثلين المتلونين بشخصيات عكس واقعهم قد فعلوا نفس ما فعلوه الليلة الماضية لليالٍ كثيرة سابقة، ثم يعيدونه الليلة مرة أخرى، ثم في الليالي القادمة كلها، ربما لأسابيع أو حتى لشهور - وذلك على الرغم من عدم حضوره حينذاك - وأن الاختلاف سوف يقتصر على الأيام، بين الأمس واليوم. وكذلك نحن، إما ذاهبون إلى عرض، وإما عائدون منه إلى المنزل، وتتابع الأيام.

على غرار أن الشمس نفسها تبزغ باهتةً، ثم ينساب نورها في إشراق تام على الأفق مع تقدم ساعات النهار، كانوا كذلك، فبدأوا تدريجيًّا في استجماع نشاطهم، يتذكرون ما حدث أكثر فأكثر بروح سعيدة مشرقة، يسيرون ويتحدثون ويضحكون حتى وصلوا إلى فينتشلي بقلوب تغمرها البهجة، حينها أعلنت والدة باربرا أنها لم تكن أقل إرهاقًا أو أفضل حالًا أبدًا من ذلك الوقت. قال كيت إنه كذلك فعلًا. أما باربرا، فعلى الرغم من أنها كانت صامتة طوال الطريق، قالت: إنها تشعر بالمثل أيضًا. مسكينة باربرا الصغيرة! لقد كانت هادئة جدًّا.

لقد وصلا المنزل في توقيت مناسب، لدرجة أن كيت قد أنهى تنظيف المهر، وجعله في أناقة أحصنة السباقات، قبل أن ينزل السيد جارلاند لتناول الإفطار، دائمًا ما يكون الكد في العمل والانضباط والسلوك القويم أفعالًا يمجدها السيد والسيدة جارلاند والسيد هابيل. في تمام الساعة المحددة - أو على وجه أدق في تمام الدقيقة والثانية المحددة، فقد كان رمزًا للانضباط والإلتزام بالمواعيد - خرج السيد هابيل، ليستقل حافلة لندن، وذهب السيد العجوز وكيت إلى العمل في البستان.

لم تكن أيام عمل كيت في البستان هي الأقل متعة من بين وظائفه؛ فقد كانت بمثابة إحتفال عائلي صغير، فقد اعتادت السيدة العجوز أن تجلس وتضع على طاولة صغيرة سلة مشغولاتها، واعتاد السيد العجوز أن يساعد كيت بفعل أو بآخر بجد وجهد عظيم، يحفر ويشذب ويقطع بجَلَدٍ كبير، واعتاد ويشكر أن يقف في حقله المعشوشب، يتابعهم جميعًا بنظراته في تأمل ساكن، وفي اليوم المذكور، كان عليهم تقليم كروم العنب، فتسلق كيت إلى منتصف سلم قصير، وبدأ في التقطيع والدق، بينما وقف السيد العجوز، يتابع فعله بشغف كبير، ويعطيه المسامير وخرقات الأقمشة حينما يطلب منه. بينما قامت السيدة ويشكر بفعلها المعتاد.
قال السيد جارلاند: "حسنًا يا كريستوفر! أظن أنك أنشأت صداقة جديدة.. ها! أليس كذلك؟".
نظر كيت إلى أسفل السلم، وقال: "أستمحيك عذرًا يا سيدي!".
قال السيد العجوز: "لقد سمعت في المكتب من السيد هابيل أنه أصبح لديك صديق جديد.. أليس كذلك؟".
- أوه! نعم يا سيدي.. لقد تصرف معي على نحو راقٍ يا سيدي.
رد السيد العجوز، تعتلي وجهه إبتسامة ٍ صافية: "إنني سعيد لسماعي ذلك.. أيفترض أنه سيعاملك برقي أكثر يا كريستوفر فيما بعد".
قال كيت، بينما يدق بقوة على مسمار متصلب: "في الواقع يا سيدي.. أعتقد أنه كذلك فعلًا، لكن ما يهم أنني لا أحتاج إليه في شيء يا سيدي، أنا متأكد من ذلك".
قال السيد العجوز: "أحسب أنه متلهف إلى أن يأخذك لخدمته الخاصة.. خذ حذرك! كن حذرًا حيال ما تفعله، وإلا سقطت وأصبت نفسك".
توقف كبت عن عمله لوهلة، ونظر إلى أسفل السلم، مثل بعض المهرجين البارعين، وصاح: "يأخذني لخدمته الخاصة يا سيدي؟ لماذا يا سيدي؟ أعتقد أنه لن يكون جادًا حينما يقول ذلك".
قال السيد جارلاند: "أوه! لكنه جاد في الواقع! وقد أخبر السيد هابيل بذلك".
قال كيت مدمدمًا، وهو ينظر بأسف إلى سيده وسيدته: "لم أسمع بهذا مطلقًا.. إنني أتعجب من مطلبه فعلًا يا سيدي".
قال السيد جارلاند: "اسمعني يا كريستوفر.. إن هذا الحدث هو نقطة فاصلة وفي غاية الأهمية بالنسبة إليك، لذلك يجب عليك أن تفكر مليًا، وتأخذ كل شيء بعين الإعتبار. إن هذا الرجل النبيل بإمكانه أن يعطيك مالًا أكثر مما أعطيه لك.. آمل أن أكون الأكثر لطفًا والأكثر ثقةً في المعاملات المتعددة التي تجمع الخادم بسيده، لكنه بالتأكيد يا كريستوفر سيعطيك مالًا أكثر".
قال كيت: "حسنًا يا سيدي! لكنني لا أظ..".
قال السيد جارلاند: "تمهل للحظة.. ليس هذا كل شيء. أعلم أنك كنت خادمًا مخلصًا لأرباب عملك القدامي - وفقًا لما أفهم - وأعلم أن هذا الرجل النبيل يسعى إلى الوصول إليهم بكل الوسائل المتاحة له، وأن هدفه الرئيس هو إيجادهم، لذلك لا يساورني أي شك أنك ستحصل على مكافأتك الخاصة حينما تكون في خدمته. علاوةً على أن.."، أضاف السيد العجوز مشددًا على كلامه: "علاوةً على أن السعادة ستغمرك حينما تصير مرة أخرى على تواصل بأولئك الذين يتبين لي أنك مرتبط بهم بشدة، ومهتم كثيرًا بأمرهم. يجب أن تأخذ كل هذا بعين الإعتبار يا كريستوفر وتفكر فيه مليًا، يجب أن تتمهل وألَّا تتعجل في خيارك".

شعر كيت بوخزة لحظية حادة، وعانى من ألم مفاجئ، كي يثابر على قراره الذي حسمه، بمجرد أن طاف ذاك الحوار الأخير بين أفكاره، وجعل خواطر تحقيقه لكل آماله وأحلامه تتوافد إلى ذهنه. لكنه في غضون دقيقة، لملم من شتات نفسه، وقال للسيد النبيل: إنه يجب أن يبحث عن خادم آخر، بل يجب أن يجده أولًا.
إلتفتَ كيت مرة أخرى بعد نصف دقيقة من الدق المتواصل، وقال: "ليس من حقه البتة أن يعتقد أنني سأذهب لأكون في خدمته.. هل يظن أنني غبي؟".
قال السيد جارلاند بجدية: "أحسب أنه سيظن ذلك فعلًا يا كريستوفر؛ إذا رفضت عرضه".
قال كيت بحسم: "إذنْ، دعه يظن يا سيدي، ما لي أكترث بما يظن؟ لماذا يجب عليَّ أن أهتم بما يفكر أو يظن يا سيدي، حينما أكون على ثقة تامة، إنني سأكون غبيًّا فعلًا، بل سأكون أسوأ من غبي يا سيدي، إذا ما رحلت عن ألطف سيد وأكرم سيدة - كانا ولا يزالان - معي، مَن إلتقطاني من الشوارع طفلًا فقيرًا جائعًا - بل أكثر فقرًا وجوعًا مما تتصوران - يا سيدي، لن أذهب إليه أو إلى غيره!". إلتفتَ إلى سيدته فجأة وقال: "لكن الآنسة نيل إذا عادت، من الممكن حينئذ أن يختلف الوضع، فإذا أتت واحتاجت إلى خدماتي، سآتي إليكِ يا سيدتي وأطلب منكِ السماح لي بالعمل لديها في وقت ما أو الآخر حينما أفرغ من عملي هنا، رغم أنني أظن أنها حينما تعود هذه المرة، ستكون غنية مثلما إعتاد أن يقول سيدي القديم دائمًا، ستصبح سيدة شابة غنية، وما بالها أن تحتاجني ثانية؟". أضاف كيت وهو يهز رأسه في كمد: ".. لا لا! إنها لن تحتاجني مرة أخرى على الإطلاق.. فليباركها الرب، آمل ألا تحتاج أحدًا قط، ولو أنني أتوق إلى رؤياها في الوقت ذاته!".
وهنا دق كيت مسمارًا بعنف في الحائط، بعنف أشد من الضروري بمراحل، ثم نظر إليهما ثانيةً.
قال كيت: "والمهر يا سيدي! ويشكر يا سيدتي! الذي صهل الآن، لأنه يعرف أنني أتحدث عنه يا سيدي.. هل تتوقعان أنه سوف يدع أحدًا يقترب منه غيري يا سيدتي؟ البستان يا سيدي! السيد هابيل يا سيدتي!
هل سيبتعد عني السيد هابيل يا سيدي؟ هل هناك أحد سيهتم بالبستان مثلي يا سيدتي؟ إن قلب أمي لينفطر يا سيدي، حتى جايكوب الصغير أحسب أنه سيبكي كثيرًا يا سيدتي إذا علم أن السيد هابيل سيبتعد عني قريبًا، بعد أن وعدني في ذاك اليوم أنه يأمل أن نكون معا لسنوات قادمة..".
لا نعلم طول المدة التي كان سيستغرقها كيت واقفًا على السلم، يلتفت من سيده إلى سيدته، ويحدثهما عن الشأن نفسه، لولا إلتفاته إلى شخص غير مقصود.. لو لم تكن باربرا قد أتت في تلك اللحظة؛ لتبلغهم أن رسولًا قد أتى من مكتب كاتب العدل، ومعه رسالة، سلمتها من فورها إلى سيدها، بينما وقف كيت مشدوهًا، ينعكس على مظهره كله هول المفاجأة.
قال السيد العجوز بعد أن قرأها مباشرةً: "أوه! اطلبي من الرسول أن يحضر إلى هنا". إلتفتت باربرا من توها لتلبية أمر سيدها، نظر إلى كيت وقال: إنهما لن يمضيا قدمًا في حديثهما، وإن كيت لا يمكن له أن يكون غير راغب في الرحيل عنهما، أكثر من رغبتهما في رحيله، وذلك كان بالخبر الذي تردد صداه على مسامع السيدة العجوز، وتأثر له وجدانها.
أضاف السيد جارلاند، وهو ينظر إلى الرسالة التي يمسكها بيده قائلًا: "وفي الحين ذاته يا كريستوفر، إذا أراد الرجل النبيل أن يستعيرك الآن أو في أي وقت، لمدة ساعة أو أكثر، أو ليوم

كامل، يجب علينا أن نوافق على إقراضك له، ويجب عليك أن تذعن لمطلبه.. أوه! ها هو السيد الشاب. كيف حالك يا سيدي؟".
كانت هذه التحية موجهة إلى السيد تشوكستر، الذي أتى متبخترًا، وقبعته مائلة على جانب رأسه، وشعره طويل من ورائها.
رد هذا السيد قائلًا: "أتمنى أن تكون في حالة جيدة يا سيدي.. أتمنى أن تكوني في حالة جيدة يا سيدتي. إنها مقصورة ساحرة يا سيدتي. إنها بلدة لطيفة يا سيدي بكل تأكيد".
قال السيد جارلاند: "أحسب أنك تريد أن تأخذ كيت معك حين عودتك!".
رد الكاتب: "إن هناك عربة أجرة تقف في الخارج لهذا الغرض، ولون الحصان رمادي غامق يا سيدي، إذا كنت مهتمًا بالخيل أو بجمعها".
مع رفضه لتفقد اللون الرمادي الغامق، بناءً على إقراره بأنه على دراية سيئة بمثل هذه الأمور، دعا السيد جارلاند السيد تشوكستر لمشاركته مأدبة خفيفة فقد اقترب وقت الغذاء. جاء قبول هذا الرجل للدعوة بسهولة؛ فقد تم تحضير المقبلات الباردة، ومن حولها الجعة والنبيذ من أجل إنعاشه في سرعة مهولة.
أثناء تلك المادبة، أظهر السيد تشوكستر كافة مهاراته لإبهار مضيفيه، وإثارة إعجابهما، ليشهدا بالتفوق العقلي الذي يتمتع به ساكنو المدينة، ومن هذا المنطلق، قاد الحوار نحو الفضيحة التي حدثت في يومهم هذا، فطالما اعتبره أصدقاؤه بارعًا في هذا الصدد. وهكذا، صار في وضع يسمح له بربط كافة الظروف الدقيقة للخلاف القائم بين (نبيل ميزلر) و (اللورد بوبي)، الذي بدأ من زجاجة شمبانيا تنازعا عليها، وليس من فطيرة حمام، كما ورد خطأً في الصحف، إضافة إلى أن اللورد بوبي لم يقل لنبيل ميزلر: "إن واحدًا منا نحن الاثنين قد روى تلك الكذبة، ولست أنا القائل". وما ذُكر خطأ من قبل السلطات نفسها: "يا ميزلر، إنك تعرف أين ستجدني، سحقًا! أيها السيد، اعثرْ عليَّ إذا أردتني..". مما أدى بطبيعة الحال إلى تغيير مجرى أحداث هذا الموضوع المثير للفضول، وساقه إلى منحى آخر تمامًا، كما أنه أطلعهم على المبلغ المحدد الذي اعتمده الدوق (ثيجبيري) لـ (فيوليتا ستيتا) في الأوبرا الإيطالية، الذي اتضح أنه مستحق الدفع كل ثلاثة أشهر وليس كل ستة أشهر، مثلما فرض على العامة فهمه - أو كما أُعلن عنه بوحشية - واتضح أنه كان مقصورًا غير شامل المُجوهرات أو العطور أو مسحوق الشَّعر لخمسة أجراء، أو تغيير قفازات وصيف مرتين يوميًّا. بعد أن حث السيد والسيدة على ألَّا يشغلا عقليهما بهذه النقاط الشيقة؛ لأنهما من الممكن بكل بساطة أن يعتمدا على أن كلامه هو الصحيح، أمتعهما بمحادثة مسرحية وبمنشور محكمة، حتى اختتم حديثه الذكي الساحر القائم عليه بذاته، دون مساعدة من أحد على الإطلاق، الذي استمر لمدة ساعة إلا ربع الساعة دون انقطاع.
قال السيد تشوكستر وهو يقف برشاقة: "يجب على الفرس أن يلتقي برياح الطريق ثانية، ويجب عليَّ الرحيل، آسف على العجلة".
لم يقدم السيد جارلاند، أو حتى السيدة جارلاند أي اعتراض على رحيله، بل كانا يشعران - دون أدنى شك - أن رجلًا مثله، يكاد المرض ذاته أن يفر من حيز أفعاله، وبالتالي، لم تمض سوى لحظات قليلة، حتى صار كل من السيد تشوكستر وكيت في طريقهما نحو المدينة، حيث جلس كيت بجانب الحوذي، وجلس السيد تشوكستر منفردًا في الداخل، واضعًا أحد زوجي حذائه خارج النافذة الأمامية.

حينما وصلا إلى منزل كاتب العدل، دخل كيت إلى المكتب، وحثه السيد هابيل على الجلوس والانتظار إلى أن يأتي السيد النبيل الذي استدعاه، فقد غادر، وربما سيأتي بعد وقت طويل. وبالفعل كان ذلك ما حدث، وتأكدت التوقعات، فقد تناول كيت العشاء، وشرب الشاي، وقرأ جميع البنود السهلة في قائمة القانون، ودليل البريد، وغشيه النوم مرات عدة، قبل أن يدخل الرجل النبيل الذي رآه سابقًا، ويبدو عليه أنه في عجلة مهولة من أمره.

اقترب الرجل النبيل فور دخوله من السيد ويزردن، وحازا على إجتماع مغلق لبعض الوقت، ثم استدعيا السيد هابيل للأخذ برأيه في أمر ما، وقبل أن تكثر الأسئلة داخل عقل كيت، ويتعجب من أمر استدعاء هذا الرجل النبيل له، ومن أجل أي سبب كان حضوره، طلبوا. منه أن ينضم إليهم أخيرًا.

قال الرجل النبيل، ملتفتًا إليه مباشرة فور دخوله إلى الغرفة: "يا كريستوفر! لقد وجدت سيدك القديم وسيدتك الصغيرة".

قال كيت، وقد لمعت عيناه بالبهجة: "حقًّا يا سيدي! هل وجدتهما حقًّا؟ أين هما يا سيدي؟ كيف حالهما يا سيدي؟ هل هما.. هل هما على مقربة من هنا؟".

أجاب الرجل النبيل، هازًا رأسه: "لا، إنهما بعيدان جدًّا عن هنا. لكنني سوف أذهب إليهما الليلة؛ لأعيدهما، وأريد منك أن تأتي معي".

صاح كيت، متهللًا من المفاجأة: "أنا! أنا يا سيدي؟".

قال الرجل الغريب، ملتفتًا إلى كاتب العدل في تمعن: "المكان! كم يبعد المكان الذي أشار إليه مالك الكلاب؟ كم يبعد عن هنا؟ ستين ميلًا؟".

- يتراوح ما بين الستين والسبعين ميلًا.

- همف! أحسب أننا لو مضينا في طريقنا الآن، سوف نصل في وقت مناسب من صباح الغد، لكن السؤال الوحيد الآن، إنهما لا يعرفانني، وأظن أن الطفلة - باركها الرب - ستعتقد أن أي غريب يقترب منهما يريد أن يقضي على حرية جدها، لذلك هل يكون من الأفضل أن أصطحب معي هذا الفتى الصغير، الذي يعرفانه، وسيتذكرانه بسهولة تامة، كضمان لهما على أن نواياي حسنة؟

رد كاتب العدل: "ليس أكيدًا! لكن خذ كريستوفر بأي حال من الأحوال".

قال كيت، وقد استمع إلى هذا الحديث بإنصات تام: "أستميحك عذرًا يا سيدي! إذا كان هذا هو سبب أخذك لي، فأحسب أنه سيضر أكثر مما ينفع، إن الآنسة نيل تعرفني، وتثق في، أنا متأكد من هذه تمامًا، لكن بالنسبة إلى سيدي القديم.. لا أعرف أيها السادة، ولا أحد يعرف، لماذا شدد على عدم ظهوري أمام عينيه بعد مرضه، لقد أخبرتني الآنسة نيل نفسها بذلك، وأوصتني بعدم الإقتراب منه، فلا أذهب لأراه، ولا أدعه يراني مرة ثانية، إنني أخشى يا سيدي، إذا ذهبت معك يا سيدي، أن أفسد كافة الأمور التي تسعى من أجلها. إنني أفتدي العالم بأسره كي أذهب معك يا سيدي، لكن من الأفضل ألا تصطحبني معك يا سيدي".

صاح الرجل باندفاع عنيف: "صعوبة أخرى! هل يوجد رجل جاذب للصعوبات مثلي؟ ألا يوجد أي شخص.. أي شخص على الإطلاق، يثقون فيه؟ ولو شخص بمفرده كما كانت حياتهما، ألا يوجد أي أحد بإمكانه أن يخدمني في غرضي؟".

قال كاتب العدل: "هل يوجد أحد تعرفه يا كريستوفر؟".

رد كيت: "لا يا سيدي! لا أعرف أحدًا.. بلى بلى يا سيدي.. أمي يا سيدي".

قال الرجل الأعزب: "هل يعرفانها؟".
- يعرفانها؟ لطالما كانت تتردد عليهما. كانا لطيفين معها، مثلما كانا معي تماما. باركك الرب يا سيدي! إنها تتوقع أنهما سيعودان إلى بيتها في أحد الأيام.
قال السيد نافد الصبر، ملتقطًا قبعته: "قل لي أين هذه المرأة؟ لماذا ليست هنا؟ لماذا السيدات دائما بعيدات في أكثر الأوقات احتياجًا لهنَّ؟".
مع تلفظه بآخر كلمة، كان الرجل الأعزب قد انطلق من توه إلى خارج المكتب، عازمًا على أن يصطحب والدة كيت معه، وإن وصل به الأمر إلى أخذها عنوة، والزج بها إلى العربة، وإرغامها بالقوة على الجلوس، لكن بعد جهود متضامنة من السيد هابيل والسيد كاتب العدل لوقف هذا النوع غير المألوف من الاختطاف، كبتوا جماحه باعتراضهما، وأقنعاه أن يفوض كيت ليتبين احتمالية قدرتها واستعدادها للقيام بمثل هذه الرحلة الطويلة بمجرد إعلامها.
آثار ما حدث بعض الشكوك في خاطر كيت، وخلَّف الرجل الأعزب في مظهر يجتاحه العنف، وجعل السيد كاتب العدل والسيد هابيل يتكاتفان من أجل ذكر العديد من الخطب المهدئة. لكن في نهاية الأمر، وبعد تفكير من كيت، وموازنة الأمر كله في ذهنه، وتدبره بعناية، وعدهم بالنيابة عن والدته، أنها ستكون جاهزة في غضون ساعتين فقط، للذهاب في هذه الرحلة، ولتأدية ما يلزم عليها فعله تمامًا، وأنها من الممكن أن تكون مستعدة ومؤهلة لمهمتها قبل إنتهاء المدة المحددة.
بعد أن أقر كيت بهذا التعهد، الذي كان على الأغلب تعهدًا جريئًا، وليس من السهل العدول عنه، لم يهدر كيت وقتًا، واتخذ من توه إجراءاته للتنفيذ الفوري.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الحادي والأربعون

انطلق كيت من فوره، يعبر الشوارع المتكدسة، يشق صفوف الناس، يندفع عبر الطرقات المزدحمة، يخترق الممرات والأزقة، دون أن يتوقف أو يحيد جانبًا، حتى وصل إلى متجر التحف القديم، فتوقف طبقًا لعادته، وربما ليلتقط أنفاسه أيضًا.

لقد كانت ليلة خريفية، بدا البيت القديم فيها مقفرًا كئيبًا أكثر من أي وقت مضى، زادته حمرة الشفق كآبة ووحشة، كانت النوافذ مكسورة، تهتز البقايا المهشمة داخل إطاراتها، ويقف البيت حائلًا منيعًا مظلمًا، يقسم أضواء الشارع الساطعة إلى مسارين طويلين، ويستقيم وسطهما باردًا معتمًا خاويًا، في مشهد بائس تداخل بعنف مع رؤى الصبي المشرقة التي كان يبنيها في خاطره لساكنيه القدامى، فعصف بذهنه، وغمره بخيبة الأمل وفجعة المصائب. لطالما إعتاد كيت على رؤية النيران المشتعلة في المداخن الفارغة، يضيء نورها ويتلألأ منعكسًا على النوافذ، ينتقلان فيه جيئة وذهابًا، يعلو صدى أحاديثهما المبهجة في الأفق، إعتاد أن يراه بالصورة التي تنسجم مع آماله الجديدة، التي هي قيد التحقيق. على الرغم من أنه لم يكن يتوقع أن يرى البيت بشكل مختلف عن صورته الواقعية - ويعرف تمامًا أن هذا لا يمكنه أن يحدث - لكنه حيثما وقف أمامه ورآه على هذا الحال وهو في خضم أفكاره المشرقة متعايشًا مع تصوراته الشغوفة، ثبطت عزيمته، وحُجِّمت تصوراته، واندثرت إشراقة أفكاره، وخيم عليها الظلام الحزين.

لكن كيت - لم يكن لحسن حظه - متعلمًا أو متأملًا بما يكفي ليرى نذر الشر من على تلك المسافة البعيدة، لم يكن ثاقب النظر، لم يتمتع بقوة بصر أو بصيرة تدعم رؤياه في هذه الناحية، لم يرَ سوى بيت موحش يغشاه الظلام الدامس، زعزع أفكاره وتصوراته جميعها. تمنى لو لم يمر أمامه قط، على الرغم من صعوبة معرفته ما الحكمة، انطلق مجددًا، يضاعف من سرعته؛ ليعوض الدقائق القليلة التي أهدرها سدى.

قال كيت مخاطبًا نفسه، فور اقترابه من مسكن والدته الفقير: "ماذا سأفعل إذا وجدتها بالخارج، ولم أتمكن من العثور عليها؟ أحسب أن هذا الرجل نافد الصبر سيتخذ إجراءاته التي قال عنها حينما كان ثائرًا. إنني متأكد بما فيه الكفاية أن النور مطفأ والباب موصد.."، ثم أضاف في حرص بالغ وهو يطرق الباب: "الآن يا ربي! أرجو منك أن تسامحني على قولي، لكن الأمر إذا كان متعلقًا بتلك الكنيسة، فكم أود لو كانت.. لو كانت مقصاة عن هنا تمامًا".

لم تتلقَّ الطرقة الثانية أي إستجابة من أحد داخل المنزل، بل تسببت في جعل امرأة كانت تمر في الطريق تتساءل من الطارق؟ وما الشيء الذي تريده السيدة نابلز؟

قال كيت: "إنه أنا.. إنها في.. في الكنيسة وفقًا لما أظن.. أليس كذلك؟". ثم ذكر مترددًا شيئًا عن اجتماعات دينية سرية غير قانونية بغيضة، مشددًا على ما لفظه بمرارة لاذعة.

أومات الجارة بالإيجاب.

قال كيت: "أخبريني أين هي! إننا في خضم مسألة مهمة ملحة، يجب عليَّ العثور عليها في التو واللحظة، يجب عليَّ إخراجها من هذا المكان، ولو كانت في منبر الوعظ"

لم يكن من السهل بتاتًا أن يستدل كيت من أحد على مكانها بالضبط؛ فلم يكن أي من الجيران يتردد عليها، أو منضمًّا إلى تلك الجماعات، كانت مجرد قلة قليلة منهم ولا يعرفون شيئًا أكثر من

الاسم. لكن الثرثرة مع إحداهن، مع شرب كوب مهدئ من الشاي - فاقت أهميته ولاءها - جعلها تفصح عن أنها رافقت السيدة نابلز إلى الكنيسة خلال مناسبة أو مناسبتين، وأدلت بالمعلومات اللازمة، فانطلق كيت من جديد، فور حصوله عليها.
ربما كانت تلك الكنيسة الصغيرة أكثر قربًا، وربما كانت في طريق أكثر استقامة، ولو أن الكاهن رئيس هذه الجماعة في هذه الحالة سوف يخسر توريته المفضلة عن الطرق المتعرجة التي مكنته من تشبيهها بالجنة الفردوسية نفسها، وسوف يتناقض بالكلية مع الكنيسة الأبرشية التي يؤدي إليها الطريق العام مباشرة.
من منظور ما، لم تكن تسميتها مضللة قط، فقد كانت كنيسة صغيرة جدًّا - كنيسة ذات الأبعاد الأصغر أبدًا - بها عدد مقاعد صغير، ومنبر وعظ صغير، فيه رجل صغير - كان إسكافيًّا في الأصل، وبينهم كان رجل دين - يتحدث بصوت مقياس تردده صغير، يلقي خطبة، اشتملت على مواعظ صغيرة، استندت إلى حالة الحاضرين، الذين إذا تم حساب عددهم الإجمالي لن يكون غير عدد صغير، مقارنة بالعدد الأصغر لمستمعيه؛ لأن الأغلبية كانوا نيامًا.
كان من بينهم والدة كيت، التي جاهدت بصعوبة بالغة من أجل إبقاء عينيها مفتوحتين بعد إرهاق الليلة الماضية، فقد شعرت بمدي ثقل جفنيها، اللذين زادا ثقلًا وتضاعفت قوة إغلاقهما بسبب خطبة الواعظ، لم تجد مفرًّا من الاستسلام أخيرًا للنعاس، وأن تخر نائمة، ورغم ذلك لم تكن نائمة بعمق، كانت تصدر من وقت إلى آخر أنينًا خافتًا، غير مسموع، بدا كما لو كان اعترافًا بمذاهب وتعاليم الواعظ. والرضيع الذي احتضنته بين ذراعيها، سرعان ما أصبح نائمًا مثلها، وجايكوب الصغير، الذي احتجزته طفولته عن إيجاد أي شيء مثير للاهتمام في هذه التغذية الروحية المطولة بقدر ما وجده في المحار، سرعان ما كان نائمًا بعمق ثم مستيقظًا في كامل انتباهه بالتناوب، محصورًا بين رغبته الشديدة في الهجوع، وفزعه من أن تتم الإشارة إليه في تلك الخطبة.
حدث كيت نفسه: "حسنًا! الآن بت هنا..". ثم أردف قائلًا بينما كان يتسلل نحو المكان الأقرب من والدته، أمامها وفي الجهة الأخرى: ".. لكن كيف لي أن أصل إليها كي أقنعها بالخروج معي؟ أشعر كما لو كنت على بعد عشرين ميلًا. إنها لن تستيقظ أبدًا حتى ينتهي كل شيء وينفضَّ الجمع.. إن الوقت يمر! يا ليته يعدل عن خطبته هذه لمدة دقيقة فقط، أو يا ليتهم يشرعون في الغناء!".
لكن هناك إحتمال ضئيل يذهب إلى استمرار هذا الحدث لبضع ساعات متتالية. بدأ الواعظ يخبرهم عن مقصده في إقناعهم قبل أن يستطرد في حديثه وإقناعهم، وكان جليًّا أنه إذا أوفى بنصف وعوده فقط ولم ينكثها ولو أنكر النصف الآخر، لكان جيدًا على الأقل في هذا الوقت.
في خضم يأسه وقلقه، جال كيت بعينيه في الكنيسة، وحدث أن عينيه وقعتا على مقعد صغير أمام مكتب الكاتب، لم يصدق ما رآه من أول وهلة، فقد بينتا له أن ما رآه قد كان.. كويليب!
فرك عينيه مرتين أو ثلاث مرات؛ يتحقق مما أبصرتاه، لكنهما لا تزالان تصران على أنه كويليب نفسه، يجلس واضعًا يديه على ركبتيه، وقبعته بينهما على مسند خشبي، تعلو وجهه القبيح إبتسامته السمجة المعتادة، يثبت عينيه صوب السقف. من المؤكد أنه لم يلتفت إلى وجود كيت

أو والدته؛ بدا غير واعٍ بوجودهما على الإطلاق، لكن كيت رغمًا عن ذلك لم يستطع إزاحة فكرة أن تركيز هذا الشرير الضئيل الخبيث مسلط عليهم تمامًا، وليس على أي شيء آخر.
بات مشدوهًا من ظهور كويليب بين المترددين على هذه الكنيسة الصغيرة، غير قادر على محو ظنونه في أن وجوده فقط يعتبر نذير شؤم، ويهدد بالمتاعب والانزعاج، لكنه اضطر إلى قمع صراع أفكاره المشوشة؛ كي يتخذ التدابير اللازمة لإخراج والدته من هذا المكان، بينما كان المساء يزحف، والوضع يزداد جدية وخطورة. لذلك، في المرة التالية التي استيقظ فيها جايكوب الصغير، عزم كيت على لفت انتباهه الشارد، لم يكن ذلك بالمهمة الصعبة؛ كانت عطسة واحدة كفيلة بإتمام المهمة، ومن بعدها يتمكن من الإشارة إليه بأن يوقظ والدته.
لكن لسوء الحظ، كان الواعظ في الآن ذاته، في خضم شرحه لإحدى النقاط الرئيسة في خطابه، فإذ به ينحني بالكلية على منبر الوعظ، لدرجة أنه لم يتبق منه سوى ساقيه في الداخل، ملوحًا بإشارات عنيفة بيده اليمنى، مثبتًا نفسه بيده اليسرى، يحدق، أو بدا كأنه يحدق مباشرةً في عيني جايكوب الصغير، يهدده بإيماءاته الصارمة، ونظراته التي يتطاير منها الشرر، حينها بدا للطفل، أنه - الواعظ - لو حرك طرفًا واحدًا، حرفيًّا وليس مجازيًّا (سينقض عليه أو سيسقط فوقه)، في غمرة خوفه مما يحدث حوله، مشتتًا من ظهور كيت المفاجئ، مسحورًا من نظرات الواعظ، جلس جايكوب الصغير مغلوبًا على أمره باستقامة، غير قادر على الحركة بتاتًا، يريد أن يجهش في البكاء بشدة، لكنه خائف من فعله ذلك، ينظر بعينيه الطفوليتين إلى تحديق القسيس فيه، بالدرجة التي تجعلهما تبدوان كما لو كانتا ستنقلعان من تجويفهما.
قال كيت محدثًا نفسه: "لا بد لي من القيام بذلك علنًا، لا بد أن أفعل ذلك". حينها خرج مباشرة من الصف الذي كان يقف فيه، واتجه مباشرةً إلى صف والدته، لكنه إلتزم الهدوء أيضًا، كما لو أن السيد سويفيلر يرمقه بنظراته، إذا كان حاضرًا، (طوَّق) الطفل دون أن ينبس ببنت شفة.
همس كيت: "هووووش! تعالي معي يا أمي. أريد أن أخبرك بشيء عاجل".
قالت السيدة نابلز: "أين أنا؟".
رد ابنها في تجهم: "في هذه الكنيسة المباركة".
صاحت السيدة نابلز، وقد راقت إليها الكلمات: "طوبى لك حقًّا! أوه! لا يسعني أن أقول لك إلى أي مدى ازدادت معرفتي الدينية هذه الليلة يا كريستوفر!".
قال كيت في عجل: "نعم نعم أعرف يا أمي، هيا بنا الآن.. إن الجميع ينظرون إلينا. لا تصدري أي صوت.. أحضري جايكوب..هيا بنا!".
بينما تحرك كيت ليهم بالمغادرة، صاح الواعظ: "ابقَ.. ابقَ أيها الشيطان".
قالت والدته هامسة: "إن هذا الرجل النبيل يوصيك بأن تبقى يا كريستوفر".
صاح الواعظ عاويًا مرة أخرى: "ابقَ، ابقَ أيها الشيطان!". ارتفع صوته، مشيرًا نحو الصبي: "لا توسوس للمرأة، لا تغوها لتكن لك آذان مصغية، بل أنصت إلى صوته الذي يدعو. إن لديه حملًا من بين القطيع! يريد أن يأخذ الحمل بعيدًا، حملًا قيمًا، يريد أن يذهب به نائيًا، مثل ذئب في ليل دامس، يستدرج الحملان المطيعة".
من المرجح أن يكون كيت هو أكثر الأشخاص لطفًا في العالم، لكن وضعه في هذا الحالة، والحديث إليه بتلك الطريقة، علاوة على ما تثيره الظروف الأخيرة من مشاعر مضطربة داخل

نفسه، جعله يلتف إلى منبر الوعظ، حاملًا الطفل بين ذراعيه، ويرد عاليًا: "لا! لن أفعل.. إنه أخي".
صاح الواعظ: "إنه أخي!".
قال كيت بسخط: "لا إنه ليس أخاك، كيف تجرؤ على أن تدعي شيئا كهذا؟ علاوة على ذلك، لا تنعتني بأسماء من فضلك؟ ماذا اقترفت كي تفعل كل ذلك؟ لم أكن سأقدم لأخذه، إلَّا إذا كنت مضطرًّا بكل تأكيد، ومن الأحسن لك أن تتصرف بناء على هذا القول. لقد أردت إتمام ذلك في هدوء تام، لكنك لم تدعني. الآن يا سيدي! ولك كل الخير، أريد منك أن تصرف الشيطان وتسمح لهم بالانصراف، وأن تدعني وشأني من فضلك".
بمجرد أن أنهى كيت قوله، سار إلى خارج الكنيسة، تتبعه والدته وجايكوب الصغير، لكنه لم يستوعب ما حدث، إلَّا حينما وجد نفسه في الهواء الطلق، بينما تعرض ذاكرته ومضات باهتة لرؤيته للناس يستيقظون وعلامات الدهشة بادية على وجوههم، ورؤيته لكويليب ماكثًا دون حراك طوال فترة تدخله، وعلى نفس الحال ذاته، مثبتًا عينيه صوب السقف، أو ربما كان يسجل أدق وأصغر الملاحظات والمستجدات التي تدور حوله دون أن تطرف له عين.
قالت والدته، واضعةً وشاحها على عينيها: "أوه! ما الذي فعلته للتو يا كريستوفر؟ لن يمكنني الذهاب إلى هناك مطلقًا بعد الآن.. مطلقًا".
- إنني سعيد وفخور بما فعلت يا أمي. ما الخطأ في شعوركِ بالقليل من السعادة في ليلة أمس، كي تصور لكِ نفسكِ أنه من الضروري عليكِ القدوم إلى هنا الليلة كأن السعادة ذنب تكفرين عنه فترغمين نفسكِ على الشعور بالحزن؟ هل هذه هي الطريقة التي تلجئين إليها، إذا شعرت أنكِ سعيدة أو مسرورة، تأتين إلى هنا، مع هؤلاء، كي تكوني آسفة على سعادتك. عارٌ عليكِ يا أمي.. عارٌ عليكِ.
قالت السيدة نابلز: "صه! وانتبه إلى كلامك يا عزيزي.. أنا أعرف تمامًا أنك لا تعني ما تقول، لكن قولك مغموس في الآثام".
قال كيت مدمدمًا: "لا أعني ما أقول؟ لا يا أمي، أنا أعني كل حرف فيه! إنني لا أصدق يا أمي أن النفس غير المؤذية السعيدة ذات السلوك الطيب تقترف من الآثام أكثر مما تقترفه أطواق القمصان مثلًا، وأصدق أن هؤلاء الأشخاص سيكونون عقلانيين وعلى صواب في قمع الآخرين، إذا كان الرحيل عمَّن هم في حاجة ماسة إلينا صوابًا.. هذا ما أؤمن به يا أمي. لكنني لن ألفظ بأي كلمة أخرى تخص هذا الموضوع، إذا وعدتيني أن تكفي عن البكاء، احملي أنتِ الرضيع، إنه خفيف الوزن، وأعطيني جايكوب، بينما نمضي في طريقنا الطويل - وحريٌّ بنا أن نسرع - سأخبرك بالأخبار التي حملتها إليك، وأظن أنها ستدهشك حقًّا، بل أكاد أجزم أنها ستدهشك حقًّا. ها هنا نحن.. إنكِ تنظرين إلى الكنيسة كما لو كنتِ لن تأتيها مجددًا، وكم آمل أن يحدث هذا بالطبع مرة أخرى.. احملي الرضيع يا أمي، أما أنت يا جايكوب، فتعال يا صغير لأحملك على كتفي، تشبث برقبتي جيدًا، وحينما يدعوك كاهن هذه الكنيسة بالحمل الصغير، أو يقول: إنك أخوه، قل له: إن هذا هو أكثر ما قاله صوابًا من بين كل ما قاله على مدار اثني عشر شهرًا كاملًا، وإنه إذا أراد بعضًا من لحم الحمل لنفسه، والقليل من صلصة النعناع، عليه ألا يكون حادًّا، وألا يزيد من المرارة - حينها سأتمنى له كل الخير - هذا ما يجب عليك قوله له يا جايكوب".

على هذا الحال ونفس المنوال، بين الحديث الذي يحمل بين طياته كلامًا جادًّا، وبين الحس الفكاهي، الذي يروِّح به عن نفس والدته وأخويه ونفسه، معتمدًا على روح الدعابة التي تمتع بها، قادهم كيت نحو طريق المنزل في خفة ونشاط، وروى ما حدث في منزل كاتب العدل، وذكر الغرض الأساسي الذي من أجله اقتحم قداسة الكنيسة الصغيرة.
لم تكن دهشة والدته قليلة، حين علمها بالمهمة التي تُساق إليها، سقطت في غمرة تشوش أفكارها، فقد كان شرفًا عظيمًا وفخرًا كريمًا لها أن تركب في عربة خاصة، وفي الآن ذاته كان أمرًا مستحيلًا أن تترك طفليها وراءها. بالإضافة إلى أن ملابسها الأساسية كانت تُغسل، ولا بديل لها في خزانة السيدة نابلز من الأساس، لكنَّ هذا الإعتراض وكثيرًا غيره، استطاع كيت أن يجعلها تتخطاها، بمقارنة كل اعتراض اختلقته بالسعادة التي ستعم على الجميع حين عودة نيل، وكم ستكون مسرورة حينما تعيدها معها، وبتوجها الإنتصار.
قال كيت حينما وصلوا إلى المنزل: "هيا يا أمي! إن لديك كل ما تحتاجينه في الصندوق، ليس لدينا سوى عشر دقائق فقط، ونرحل من هنا مباشرة".
أحسب أن توضيح كيف وضع كيت في هذا الصندوق شتى أنواع اللوازم، التي قد يحتاجها المرء في حالات الطوارئ، مقص منه كل ما ليس له قيمة كبرى.. وكيف أقنعها الجيران أنهم سيأتون للاطمئنان على الأطفال.. وكيف بكى الرضيع وارتفعت صرخاته بشكل مأسوي في بادئ الأمر، ثم علت ضحكاته حينما وُعد بشتى الألعاب المستحيل منها وغير الوارد.. وكيف لم تتركهم والدة كيت دون أن تغمرهم بالقبلات.. وكيف لم يستطع كيت أن يوقف انزعاجه من تقبيلها له، سوف يستهلك وقتًا طويلًا، ونحن في غنى عن إضاعته.
لذا، حينما انتهت كافة تلك الأمور، يكفي أن نقول: إنهما في غضون دقائق قليلة بعد إنتهاء مهلة الساعتين، وصل كيت ووالدته أخيرًا أمام باب مكتب كاتب العدل، فقد كانت العربة في انتظارهما بالفعل.
قال كيت صراحةً، وقد أذهلته الاستعدادات: "حسنا! أربعة أحصنة يا أمي! إنك قادرة على إتمام مهمتكِ يا أمي.. ها هي أمي يا سيدي. إنها على أهبة الاستعداد".
رد الرجل النبيل: "هذا جيد.. لا ترتجفي يا سيدتي، سيتم الاعتناء بك على أكمل وجه، أين صندوق الملابس الجديدة ولوازمهما التي سيحتاجان إليها؟".
قال كيت: "ها هي يا سيدي.. إن كل شيء جاهز يا سيدي".
قال الرجل الأعزب: "إذن هيا بنا". وبناءً عليه، مد يده إلى والدة كيت؛ ساعدها في الصعود إلى العربة بكامل الوقار الذي يمكنك أن تتخيله، ثم اتخذ مقعده بجانبها.
اتُّخذت إجراءات الرحيل، أُغلق الباب، دُورت العجلات، وانطلقا في طريقهما يهتزان من تأرجح العربة، لكن والدة كيت مالت إلى خارج إحدى النوافذ، تلوح بمنديل جيبها، وتصرخ بالعديد من الوصايا والتوصيات على جايكوب الصغير والرضيع، لم يسمع أحد منها كلمة واحدة.
وقف كيت في منتصف الطريق، ينظر إليهما، وقد اغرورقت عيناه بالدموع.. لكن مشهد رحيلهما عن ناظريه لم يكن السبب، بل ما تصوره في مخيلته حين عودتهما، تحدث إلى نفسه: "لقد رحلا خلسةً دون أن يتحدثا مع أحد، أو يودعا أي أحد بأي كلمة، والآن سيعودان، بعربة يجرها أربعة أحصنة، مع صديقهما الرجل النبيل الغني، فقد انتهت مشاكلهما كلها! وربما ستنسى أنها علمتني أن أكتب..".

بغض النظر عن المدى الذي سرح فيه كيت بأفكاره، إلا أنه استغرق وقتًا طويلًا في التفكير، بينما يقف محدقًا في شرود في ضوء المصابيح، واستغرق وقتًا أطول ناظرًا على مرمى بصره حيث اختفت العربة تمامًا، دون أن يعود إلى المنزل، حتى استدعاه كاتب العدل والسيد هابيل عدة مرات، بعد أن بقيّ بالخارج طوال تردد صدى أصوات العجلات في الأفق، وحتى انقطاعها تمامًا، متسائلين عن سبب بقائه في الخارج طوال تلك المدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثاني والأربعون

حريٌّ بنا أن نترك كيث بعض الوقت، هائمًا في توقعاته، شاردًا في أفكاره، ونعود مجددًا لمتابعة مصائر نيل الصغيرة، ونستأنف السرد من النقطة التي توقفنا عندها، منذ بضعة فصول سابقة.
في إحدى جولاتها الليلية، حينما كانت تتبع الشقيقتين لمسافة غير قصيرة، جاش في صدرها إثر تعاطفها معهما، ومعرفتها بمحنتهما التي شابهت جزءًا من وحدتها الروحية، شعور بالراحة والعزاء، جعل من لحظاتها التي تقضيها بقربهما فرحة عميقة تكمن في صدرها، ومع ذلك كانت السعادة الرقيقة التي وهبتاها إياها من النوع الذي يسبب وجوده أو غيابه قلقلة الدمع.. في إحدى جولاتها الليلة، في ساعة الشفق الهادئة، أثارت السماء والأرض ونسمات الهواء وتموجات المياه وأصوات رنين الأجراس البعيدة في نفس الطفلة المنعزلة عواطف دافئة، وألهمتها أفكارًا مريحة، لكنها لم تكن مشابهة لتلك الخاصة بعالم الأطفال أو أفراحه السهلة.. في إحدى تلك النزهات، بينما كانت تقتفي أثر سعادتها الوحيدة، معفاة من الرعاية، تلاشت آخر خيوط الضوء وزحف سواد الليل، واختفت الآفاق تحت جُنح الظلام، هامت تلك المخلوقة الصغيرة في الظلام، تشعر بالرفقة المؤنسة الساكنة في الطبيعة، في وقت كان فيه صخب الألسنة ووهج الأنوار هما العزلة حقًّا.
عادت الشقيقتان إلى البيت، بينما ظلت هي وحيدة. رفعت عينيها إلى النجوم اللامعة، تسبح بعينيها في الأفق، تنظر إلى عوالم الهواء الواسعة، تتفرس في منظر السماء، ترى نجومًا جديدة تتلألأ في الفضاء، تواصل النظر، تجد أخرى، ومن ثم أخرى، حتى رأت فلكًا كاملًا لامعًا، بريقه وهاج، يرتفع أكثر فأكثر في فضاء لا آخر له، عدد أجرامه لا نهاية له مثل توهجه المتواصل ووجوده الحتمي، مالت نحو النهر الهادئ، رأت انعكاس النجوم لامعًا بنفس الدرجة المهيبة، يتلألأ سابحًا مع أمواج المياه، أبصرت بريقه فوق أعلى قمم الجبال، وعلى الأرض حيث كُتب فناء البشر، وعلى عمق مليون قامة من المياه.
جلست الطفلة أسفل شجرة في هدوء، صامتة تخمد صوت أنفاسها، شاردة في سكون الليل، وشتى عجائبه المرافقة له. لكن المكان والوقت انعكسا على روحها، أيقظا بداخلها أفكارًا، ربما تدبرتها بأمل - قليل من الأمل، ربما باستسلام - حيال الماضي والحاضر، وماذا خبأته لها الدنيا من قبل. تفكر فيما تعيشه هي والرجل العجوز من افتراق تدريجي، يصعب عليها تحمله أكثر من أي حزن أو ألم سابق. بات كل مساء، أو حتى في النهار غائبًا، ووحيدًا، على الرغم من أنها كانت تعرف أين يذهب ولماذا - أو كانت على يقين بسبب استنزافه المتواصل لحقيبتها الصغيرة ونظرات عينيه الباهتتين الذابلتين - كان يتهرَّب من كل الاستعلامات، ويلتزم بتحفظات صارمة، لدرجة أنه كان يتجنب وجودها.
جلست تفكر في ذلك التغيير في كبد، لا ترى شيئًا سواه؛ ممتزجًا مع كل ما أحاط بها، حتى دق جرس الكنيسة معلنًا أن الساعة التاسعة مساءً. قامت أثناء تردد صوت الجرس، لتعود على عقبيها، منغمسة في تفكيرها، متجهة صوب المدينة.
عبرت في طريقها جسرًا خشبيًّا صغيرًا، يوجد على طرفه الآخر مرج، حينما وصلت عنده رأت ضوءًا ضاريًا إلى الحمرة، فتطلعت إليه في انتباه، فتبين لها مما رأته أنه معسكر للغجر، فقد

أشعلوا النيران في إحدى الأركان، على مقربة من الطريق، وكانوا من حولها جالسين وراقدين. لقد كانت بريئة جدًّا على أن يتملكها أي خوف منهم، لذا لم تحد عن مسرها - في الواقع إذا أرادت لم تكن لتفعل ذلك إلا بقطع مسافة طويلة جدًّا - عجلت من سرعتها قليلًا، واستكملت طريقها.
حينما وصلت إلى المكان، دفعها فضولها على استحياء، أن تقترب أكثر وتنظر مباشرةً إلى النيران. لكن أحدًا ما كان يحول بينها وبين النيران، ويعترض ضوءها، لكن ما صورته لها ظنونها جعلها تتوقف فجأة. بدت كما لو كانت تفكر بينها وبين نفسها، وتطمئنها أن ما تتصوره لا يمكن أن يكون حقيقة، ربما سعت إلى إرضاء نفسها عن طريق تعمد إقناعها بأنه ليس الشخص الذي افترضته، واستكملت طريقها مرة أخرى.
لكن في اللحظة ذاتها التي انطلقت فيها، استؤنفت المحادثة - التي تجري على مقربة من النيران - لم تكن كلمات المحادثة مفسرة لها، لكن الصوت كان مألوفًا لها مثل صوتها.
إلتفتت ونظرت خلفها. كان من رأته سابق ا جالسًا، لكنه الآن واقف، ينحني قليلًا إلى الأمام، متكئًا على عصا بكلتا يديه. لم يكن مظهره أقل ألفة لها من صوته.. لقد كان جدها.
لأول وهلة أرادت مناداته، ثم تساءلت في الوهلة الثانية عما يفعله، ومن هم رفاقه، ولأي غرض يجتمعون. نجحت مخاوفها المبهمة من السيطرة عليها، فإذ بها تستسلم للميل القوي الذي أثارته بداخلها، فاقتربت من المكان، ولكنها لم تقترب من الحقل مباشرةً، بل تسللت من وراء السياج.
تمكنت بهذه الطريقة من التقدم بضع أقدام من النيران، تختبئ بين القليل من الشجيرات؛ تستطيع أن تسمع وترى كل ما يدور حولها، دون أن تُرى وتتعرض لخطر كبير.
لم يكن هناك نساء أو أطفال، كما كانت ترى في معسكرات الغجر، التي مروا بها في طريقهم سابقًا، كان هناك رجل غجري واحد، يقف طاويًا ذراعيه على صدره، يستند إلى شجرة على مسافة قصيرة، ينظر إلى النيران، ثم ينظر أسفل رموشه السوداء إلى ثلاثة رجال آخرين، يستمع إلى حديثهم، باهتمام منقوص، كان جدها واحدًا من بين هؤلاء الثلاثة، أما الآخران، فكانا أول لاعبي بطاقات عرفتهما، اللذين رأتهما لأول مرة في البيت العام في الليلة العاصفة، الرجل الذي دعوه بإسحاق ليست ورفيقه صاحب الصوت الأجش. وإلى جانبهم، وجدت واحدة من الخيمات الغجرية المنخفضة المقوسة، التي تعود إلى هؤلاء الرجال، لكنها بدت إما مطروحة جانبًا، وإما فارغة.
نظر الرجل ذو البنية القوية إلى الأعلى بعد أن كان ناظرًا إلى الأرض، حيث يرقد في راحة تامة، نحو وجه جدها مباشرة، وقال: "حسنًا! هل ستذهب الآن؟ لقد كنت في عجلة من أمرك منذ دقيقة فائتة. هيا اذهب، إذا أردت. إنك تملك حرية التصرف أيها السيد.. أتمنى هذا بكل تأكيد!".
قال إسحاق ليست، بينما كان يجلس القرفصاء، مثل الضفدع، على الجهة المقابلة للنيران، وقد ثمل لدرجة أنه بدا كأنه يحدق في ما حوله في آن واحد بعينيه الحولاء: "لا تغضبه.. إنه لم يقصد أي إساءة".
قال الرجل العجوز، وهو يقلب بصره من جانب إلى آخر: "إنكما تبقيانني فقيرًا، وتنهبانني، علاوة على أنكما تجعلان مني تسليتكما، وتسخران مني.. إنكما تدفعانني إلى الجنون بأفعالكما".
تناقض تردد ووهن الطفلة ذات الشَّعر الرمادي تمامًا، مع النظرات الماكرة الحادة لأولئك الذين كان يقف بين أيديهم، فقد ارتعد قلب المستمعة الصغيرة. لكنها على الرغم من ذلك، فرضت

على نفسها الحضور، حتى ينتهي الأمر؛ لتكون على مرأى ومسمع من كل كلمة.
قال الرجل ذو البنية القوية، بينما نهض قليلًا من اضطجاعه، متكئًا على مرفقه: "ندفعك إلى الجنون! ماذا تقصد! نبقيك فقيًرا.. ألم تكن لتبقينا نحن فقراء، إذا استطعت! أليس كذلك؟ هذا، هو حالك، مثلك مثل اللاعبين المنتحبين الضعفاء مثيري الشفقة. عندما تخسر، تلتزم بدور الضحية، لكنني لم أرَ حينما تربح، تنظر إلى الخاسرين الآخرين على هذا النحو.. تنهباتني!". صاح الرجل، وقد علا صوته: "ننهبك! سحقًا يا رجل! كيف لك أن تحدثنا بتلك اللهجة غير اللائقة! ماذا تقصد بتوجيهك إلينا كلمة كالنهب! هاه؟".
استلقى المتحدث مرة أخرى على طول جسده، بعد أن ركل بقدميه ركلة أو ركلتين قصيرتين، نمَّتا عن غضب شديد، وعبَّرتا عن سخط غير محدود. كان من الواضح أنه تعمد التنمر في حديثه على الرجل العجوز الواهن، وبدعم من صديقه متصنع السلام، لغرض معين، فقد تبادلا النظرات جهرًا مع أحدهما الآخر، ومع الغجري، الذي ابتسم مؤيدًا لما يفعلانه بابتسامة، لم يستطع التقليل منها، حتى
كشفت عن أسنانه البيضاء اللامعة.
وقف الرجل العجوز بينهما عاجزًا لبعض الوقت، لكنه قال في النهاية، ملتفتًا إلى خصمه:
"إنك نفسك كنت تتحدث عن النهب الآن. وأنت تعرف ذلك. لذا لا تكن عنيفًا معي، كما كنت. قل لي هل من الممكن؟".
رد الآخر: "لا نهب بين الشراكة الحالية! إنه الشرف بين.. بين السادة يا سيدي". وقد تبين أنه كان قريبًا جدًّا من وضع نهاية غريبة لجملته، لكنه لم يفعل.
قال إسحاق ليست: "لا تكن قاسيًا معه يا جول.. إنه قد شعر بالأسف بما فيه الكفاية على اقترافه تلك الإساءة، ها هنا نحن.. تابع ما كنت تقول.. تابع".
صاح السيد جول: "إنني حمل وديع ظريف ذو قلب طيب، على أن أجلس هنا، واستقطع من أوقات حياتي، لأقدم النصيحة، وأعلم أنكم لن تفعلوا بها، وأنني في آخر المطاف لن أتلقى سوى السخرية مقابل تكبدي العناء معكم.. لكن هكذا تغدو حياتي، فلا تنفع خبرة التجارب مع قلبي العامر بالطيبة".
احتج إسحاق ليست من فوره وقال: "لكنني قلت لك: إنه آسف.. أليس كذلك؟ وقلت لك: إنه يتمنى لو تتابع قولك".
قال الآخر: "هل يتمنى ذلك فعلًا؟".
جلس الرجل العجوز، وبات يهز نفسه للأمام وإلى الخلف، وقال متنهدًا: "آه! إنه من العبث الجدال معكم.. لست قادرًا.. لست قادرًا البتة.. تابع.. تابع".
قال جول: "حسنًا.. سأتابع حديثي، من النقطة التي توقفت عندها، وجعلتك تقفز من مكانك. إذا كنت مقتنعًا أن الوقت قد حان ليحالفك الحظ، - كما هو الأمر بالتأكيد - واكتشفت حينها أنك لا تملك ما يكفي كي تجرب حظك.. وما أقوله، تعرف أنه صحيح، تعرف أنه لن تتوافر معك الأموال الكافية التي تتيح لك الإستمرار لفترة أطول في الجلسة.. ساعد نفسك بما يتراءى لنا أنه لم يوجد في طريقك بمحض الصدفة، بل وجد لهذا الغرض بالتحديد. أو أقول لك شيئًا.. خذها على سبيل الاستعارة، وحينما تكون مقتدرًا، يمكنك إرجاعها مرة أخرى".

تدخل إسحاق ليست في الحديث: "بالتأكيد! إذا كانت هذه السيدة الطيبة التي تملك أعمال الشمع، لديها المال، وحينما تخلد إلى فراشها تحتفظ به في الصندوق، ولا تغلق الباب لارتيابها من نشوب حريق، فإن العملية برمتها أسهل ما تكون.. إنها.. إنها (العناية الإلهية). أحسب أن هذا هو التعبير الصحيح والأقرب في هذه الحالة، لقد تربيت على التقوى الدينية".
قال صديقه: "إنك ترى يا إسحاق"، ثم اقترب أكثر من الرجل العجوز، بينما أشار إلى صديقه الغجري ألا ينضم إليهم، وبدت عليه أمارات التحمس وقال: "إنك ترى يا إسحاق أن الغرباء يتوافدون ويرحلون على مدار الساعة يوميًّا، ولن يكون احتمالًا بعيدًا أن أحد هؤلاء الغرباء، قد اختبأ أسفل سرير السيدة الطيبة، أو احتجز نفسه داخل الخزانة، ستكون الاشتباهات لا حصر لها، ستكون التوقعات بلا أدنى شك بعيدة كل البعد عن الفاعل الأساسي.. علاوةً على أنني سأجعله يأخذ بثأره مقابل كل فارذنغ سيجلبه، مهما كان المبلغ". قال إسحاق ليست مجادلًا: "لكن.. هل يمكنك ذلك؟ هل معك ما يكفي؟".
أجاب الآخر بازدراء: "معي ما يكفي! فلتنظر يا سيدي – أخرجْ لي الصندوق من بين القش!".
كان هذا الطلب موجهًا إلى الرجل الغجري، فحَبَا على أربع، إلى داخل الخيمة المنخفضة، وبعد قليل من التفتيش والخشخشة، عاد ومعه الصندوق، فتحه من كان يتحدث بمفتاح كان يرتديه حول رقبته.
قال: "هل ترى هذا؟". وأخذ يجمع النقود في يده، ويحررها كي تسقط مرة أخرى في الصندوق، متخللة ما بين أصابعه، مثل الماء. تابع قوله: "هل تسمع؟ هل تعرف صوت صلصلة الذهب؟ هيا أعده.. لا تتحدث معي ثانية بهذا الشأن يا إسحاق، حتى تمتلك صندوقًا خاصًّا".
احتج إسحاق ليست في تواضع ملحوظ، مبينًا أنه لم يشكك أبدًا في رصيد رجل نبيل وخاصة إذا كان مشهورًا بتعامله النزيه مثل السيد جول، وأنه عندما ألمح إلى ما يحتويه الصندوق، لم يكن من أجل إخماد شكوكه، التي لا تساوره من الأساس، بل من أجل أن يستمتع برؤية هذا المشهد المفعم بالثراء، الذي قد يراه البعض متعة وهمية لا أساس لها، لكنه بالنسبة إلى شخص في ظروفه يراه مصدرًا للسعادة العارمة، فقد يشعر أنها تنتقل من مكانها الآمن، إلى جيوبه الخاصة.
على الرغم من أن السيد ليست والسيد جول كانا يتحدثان إلى أحدهما الآخر، كان من المثير للفضول أن كليهما كانا ينظران بحدة إلى الرجل العجوز، الذي أبقى عينيه مصوبتين على النيران، جالسًا في الحال ذاته، يستمع بشغف إلى حديثهما، كما أوضحت حركات رأسه التلقائية، وتعبيرات وجهه غير الإرادية من وقت إلى آخر، طوال فترة حديثهما.
قال جول، بينما استلقى مرة أخرى بلا مبالاة بيئة: "إن نصيحتي واضحة.. وقلتها بالفعل. إنني أتصرف كصديق. لماذا يجب عليَّ أن أساعد رجلًا وأرشده إلى الطريق الذي ربما يربح به كل ما أملك، ما دمت لا أعتبره صديقي؟ إنها حماقة، إنني أجزم أنها حماقة بالكلية، أن تشغل عقلك برفاهية الآخرين.. لكن هذا هو نهجي، ولا أستطيع أن أحيد عنه، لذا لا تلمني يا إسحاق ليست".
رد من وجه إليه الكلام: "ألومك! لن أفعل، ولو كان ذلك مقابل العالم بأسره يا سيد جول. إنني أتمنى حقًّا أن أكون متسامحًا مثلك.. وأحسب أنك قلت: إنه يمكنه إرجاعه مرة أخرى.. لكن ماذا لو خسر الـ..".
قال جول: "لا يجب أن تأخذ ذلك بعين الإعتبار أو تفكر في شأنه".

- لكن دعنا نفترض أنه فعل - ليس هناك ما هو أقل احتمالًا، بناء على ما أعرفه عن الفرص - لكن على كل حال، أن تخسر أموال الآخرين أفضل كثيرًا من أن تخسر أموالك الخاصة.. أليس كذلك؟

صاح إسحاق ليست في انتشاء: "آه! نشوة الربح! سعادة إلتقاط الأموال.. أحبائي اللامعين المشرقين بإطلالة ذهبية.. تأخذها وتزج بها إلى جيوبك! لذة أن تنتصر في النهاية.. التفكر في أن المرء لم يتوقف ويلتفت ليعود مجددًا، وأنه لم يمضِ إلا نصف الشوط ليلتقي بها! إنها سعادة إلتقاط الأم.. لكنني أحسب أنك لن تذهب من الأساس أيها العجوز! أليس كذلك؟".

قال الرجل العجوز: "سأفعلها". وقد قام وسار خطوتين أو ثلاث خطوات باندفاع ثم عاد إلى مكانه مرة أخرى على عجل: "سأحصل عليها كلها، سأحصل على كل بنس".

صاح إسحاق، وقد نهض من فوره، وصفعه بقوة على كتفه: "هذه هي الشجاعة.. إني أحترمك لمحافظتك على تلك الروح الشبابية بداخلك. ها ها ها! أحسب أن جول يشعر بالندم الآن لأنه قدم إليك النصيحة. لقد عكسنا الأماكن، وجعلناه هو في موضع السخرية ها ها ها!..

قال الرجل العجوز بحماس، وهو يشير إليه بيده المجعدة: "إنه يعطيني فرصة الأخذ بالثأر.. تذكر.. تذكر.. إنه يقارع عملات ضد عملات، ويراهن على آخر قطعة في الصندوق، بغض النظر عما إذا كان محتواه قليلًا أم كثيرًا.. تذكر ذلك!".

رد إسحاق: "أنا شاهد.. وسأحكم بينكما بالعدل".

قال جول في نفور متكلف: "لقد تلفظتُ بكلمني، ولن أنقضها أبدًا.. متى ستبدأ هذه الجولة؟ أتمنى أن تكون منتهية.. الليلة!".

قال الرجل العجوز: "يجب أن أحصل على المال أولًا.. وأظن أنني سأفعل ذلك غدًا..".

قال جول مجادلًا: "ولماذا لن تفعل الليلة؟".

قال الرجل العجوز: "أمسى الوقت متأخرًا الآن.. علاوة على أنني مضطرب يتدفق الدم إلى وجهي. يجب أن يتم ذلك بهدوء وثبات. إذنْ.. ليلة غد".

قال جول: "إذن فلتكن ليلة غد... ولننعم بالراحة. أطيب الأمنيات لأفضل رجل! فلنشرب نخبنا!".

أحضر الغجري ثلاثة أكواب من الصفيح، وملأها حتى الحافة بنبيذ البراندي. لكن الرجل العجوز قبل أن يشرب، إلتفتَ عنهم وتمتم إلى نفسه بكلمات. تردد على أذن المستمعة اسمها مرتين مع أمنيات أخرى قيلت بإخلاص، وقد بدت عليه آلام التضرع والتوسل الشديد.

صاحت الطفلة: "كن رحيمًا بنا يا رب! وساعدنا في هذه الساعة العصيبة! ماذا عليَّ أن أفعل كي أحميه!".

استطردوا في باقي محادثتهم بنبرة صوت خافتة، كانت محادثة موجزة بما فيه الكفاية، مقتصرة على النقاط التي تتعلق بتنفيذ الخطة، وأفضل الاحتياطات الواجب اتخاذها، لإبعاد الشكوك عنهم، حينما انتهوا، صافحهم الرجل العجوز، ثم انسحب من مجلسهم.

تابعوا انحناء جسده، وانحناءه في مشيته، تابعوه وهو ينسحب عنهم ببطء بخطى واهنة، وحينما أدار رأسه إلى الخلف كي ينظر إليهم، لوحوا له بأيديهم، صائحين ببعض العبارات التحفيزية الموجزة. لم يتغير فعلهم، يراقبونه وهو يبتعد عنهم تدريجيًّا، يتابعونه بأعينهم حتى غيبه الطريق، حينها نظروا إلى بعضهم، وتعالت قهقهات ضحكاتهم.

قال جول، بينما يدفئ يديه بالقرب من النيران: "إذنْ! تم الأمر أخيرًا. لقد تطلب إقناعه أكثر مما كنت أتصور. لقد مضت ثلاثة أسابيع كاملة، منذ أن وضعنا هذه الفكرة في رأسه. تُرى ما الذي سيجلبه لنا في النهاية بحسب ما تظن؟".
رد إسحاق ليست قائلًا: "بغضِّ النظر عما سيجلبه لنا... سيتم تنصيفه بيني وبينك".
أومأ الرجل الآخر برأسه، وقال: "يجب علينا فقط أن ننهي الأمر بسرعة، ونقطع صلتنا به، وإلا سيشتبهون فينا. السرعة هي نهجنا".
وافق ليست والغجري على ما قاله. حينها شرع ثلاثتهم في تسلية أنفسهم على حساب ضحيتهم، ثم حادوا عن الموضوع؛ كأي موضوع تحدثوا عنه بإسهاب، وشرعوا في الحديث عن موضوع آخر، لكنهم تكلموا بلغة غير مفهومة للطفلة. حينما رأتهم الطفلة شغوفين منتبهين جدًّا إلى حديثهم، اعتبرت أن هذا الوقت هو أفضل وقت للهروب دون أن يلاحظها أحد منهم، فتسللت مبتعدة بخطوات بطيئة وحذرة للغاية، تبقى على مقربة من السياج، تتخفى في ظل الأجمات، تسلك دربًا بينها أو بين الخنادق الجافة، حتى تمكنت أخيرًا من الخروج إلى قارعة الطريق، بعيدًا عن مرمى أبصارهم. حينها هربت بأقصى سرعتها إلى البيت، ممزقة تنزف من جروح الأشواك والورد البري، لكن ما كان أكثر تمزقًا هو قلبها، بمجرد أن وصلت إلى غرفتها، ارتمت على سريرها مشتتة، تصارعها الأفكار.
كانت أول فكرة طرأت على عقلها هي الرحيل، الرحيل الفوري، انتشاله من هذا المكان، فقد بات لها الموت على قارعة الطريق، أفضل من أن يتعرض إلى هذه الإغراءات الرهيبة مرة أخرى. لكنها سرعان ما تذكرت أن الجريمة لن تتم حتى الليلة التالية، وأن هناك وقتًا كافيًا كي تتحرى الدقة في تفكيرها، وتصل إلى حل سليم يرشدها إلى ما ستفعله بالضبط. لكنَّ خوفًا مفزعًا خيم على قلبها فجأة؛ فربما يرتكب جريمته في التو واللحظة، حينها تملكها ارتياب سماع الصيحات واختراق الصرخات لسكون الليل، وتمكنت منها أفكار، ارتعد لها قلبها، فماذا لو أغري وسيق لإتمام فعلته، ومن ثمَّ اكتشف متلبسًا، ومضى في صراع مباشر مع السيدة. كان ضربًا من المستحيل أن تتحمل الطفلة كل تلك المخاوف الجمة. انسلت إلى الغرفة التي بها المال، فتحت الباب، ونظرت.. فليحمد الرب! لم يكن هناك، وكانت السيدة نائمةً بعمق. عادت إلى غرفتها، وحاولت أن تعد فراشها للنوم، لكن من يستطيع النوم؟! النوم! من يستطيع أن يرقد حتى في سلام، وهذا الرعب مخيم على قلبه؟ ما كانت تصارعه من أفكار، بات أضعافًا مضاعفة. بعد أن ارتدت نصف ملابسها، وبِشَعر أشعث، انطلقت من توها إلى جانب الرجل العجوز، أمسكت رسغه، وأيقظته من نومه.
استيقظ العجوز فزعًا من نومه، مثبتًا ناظريه على وجهها الشاحب، وصاح: "ماذا حدث؟".
قالت الطفلة وهي في حالة لا تنتج إلا عن المخاوف التي طغت عليها: "لقد راودني حلم مريع.. مفزع.. حلم رهيب، لقد رأيته مرة في السابق. إنه الحلم الذي يحدث فيه أن أرى الرجل ذا الشعر الرمادي الذي يشبهك، في غرف مظلمة ليلًا، يسرق أموال النائمين.. انهض.. انهض!".
انتقض الرجل العجوز من موضعه، وارتجف كل مفصل في جسده، وأطبق على يديه مثل من يدعو.
قالت الطفلة: "ليس من أجلي هذه المرة.. ليس من أجلي.. بل تضرع إلى السماوات؛ كي تحمينا من تلك الشرور! كان الحلم أقرب إلى الواقع. لا يمكنني النوم. ولا يمكنني البقاء هنا، ولا يمكنني

تركك بمفردك تحت هذا السقف، فقد تجتاح مثل تلك الأحلام سلامنا. انهض! يجب أن نرحل من هنا".
نظر إليها كما لو كانت روحًا ملائكية - ربما كانت فعلًا بكل ما تعنيه الكلمة من معنى - وأخذ يرتجف أكثر فأكثر.
قالت الطفلة: "هيا انهض! ليس لدينا وقت لنضيعه.. لن أهدر دقيقة واحدة.. هيا! ارحل بعيدًا معي!".
تمتم العجوز: "الليلة؟".
ردت الطفلة: "نعم، الليلة.. لأن مساء الغد سيكون وقتًا متأخرًا جدًّا على الرحيل. سيراودني الحلم مرة أخرى، بل سيكون أشد فزعًا، لن يحمينا سوى الرحيل. انهض!".
نهض الرجل العجوز من فراشه، ووجهه مندًّى بعرق الخوف البارد. انحنى صوب الفتاة، كما لو كانت رسولًا ملائكيًّا بُعث له؛ كي يقوده أينما يشاء، واستعد لاتباعها. أمسكت يدهُ واقتادته إلى الطريق. حينما مرا أمام باب الغرفة التي كاد أن يسرقها، ارتجف جسدها ونظرت إليه. يا له من وجه شاحب رأته، ويا لها من نظرة قابلت عينيها!
قادته إلى غرفتها، وهي لا تزال ممسكة بيده، كما لو كانت تخشى أن تفقده بين لحظة وأخرى، جمعا أغراضها معًا، وعلقت سلتها على ذراعها. أخذ الرجل العجوز محفظته من يدها، وحمل على كتفه أغراضه - التي أحضرتها له - ثم اقتادته ليمضيا في طريقهما. عبر الأزقة، والدروب الضيقة، والطرق الملتوية، سارت أقدامهما المرتعشة بسرعة كبيرة. وصلا إلى التل، المتوج بالقلعة الرمادية القديمة، أكملا دربهما بشق الأنفس بخطوات سريعة، دون أن ينظرا إلى الخلف ولو لمرة واحدة.
حينما اقتربا من أطلال الجدران، كان القمر نورًا بازغًا على مجدها، وعمرها المهيب، من بين تلك الجدران المزينة باللبلاب والطحالب، من بين تموجات العشب، نظرت الطفلة من خلفها إلى المدينة النائمة في عمق ظلال الوادي، نظرت إلى النهر المتلألئ بمسار ضوء متعرج، والتلال البعيدة، حينما فعلت ذلك، احتضنت اليد التي أمسكتها، بشدة أقل، أجهشت في البكاء، وارتمت في حضن جدها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثالث والأربعون

سرعان ما انقضى ضعفها اللحظي، استجمعت الطفلة شتات نفسها، بمجرد أن تذكرت الدافع وراء قرارها، الذي يجعلها تثابر حتى الآن، ويحتم عليها أن تضع صوب عينيها فكرة أنهما يفران من الخزي والجريمة، تذكرت أن الحفاظ على جدها يعتمد بالكلية على ثباتها وحدها، دون أي إرشاد أو كلمة أو نصيحة أو مؤازرة من أحد، قادته إلى الأمام، ودون أن تنظر مرة أخرى إلى الخلف.

بينما كان ذلك هو حالها، كان جدها خاضعًا مغلوبًا، بدا مُنحنيًّا لها، يتكمش على نفسه ويتقلص حجمه أمامها، كما لو كان في حضرة مخلوق أسمى، لدرجة أن الطفلة نفسها راودها شعور جديد، ارتقى بطبيعتها، وأمدها بالقوة والثقة اللتين لم تعرفهما من قبل. صارت واعية أن المسؤولية لم تعد مقسمة بينهما بعد الآن، وأن العبء كله يقع على كاهلها وحدها، وأنها من الآن فصاعدًا عليها أن تفكر وتدبر لكليهما معًا. حدثت نفسها: "يجب عليَّ أن أحميه من كل خطر وضيق، يجب أن أتذكر هذا دائمًا".

ربما في أي وقت آخر كان تذكرها لهجر الصديقة التي أوتهما في منزلها، وحنت عليهما باللطف الأسري، دون قول كلمة تبرير واحدة - ظاهريًّا ما هما إلا مذنبين بالخيانة والنكران - أو حتى رحيلها عن الشقيقتين، كفيل بجعل روحها تجيش حزنًا وندمًا. أما الآن، فأمست لا تأخذ شيئًا بعين الإعتبار، حتى تلاشت جميع اهتماماتها الأخرى بين الدروب المستجدة لحياة الترحال الوحشية المليئة بالاضطرابات، والمحاطة بالريبة، والمليئة بالشكوك والمخاوف، فقد باتت حالتهما الميؤوس منها حافزها ودافعها.

حينما أرخى الليل سدوله، وانساب ضوء القمر الباهت، وعكس شحوبًا خاصًّا على الوجه الناعم، الذي بدت عليه أمارات التفكير والحذر الرصين مختلطًا برعونة الشباب وسحر الجمال وهدوء الرحمة، حينما تلألأ ضياؤه على الأعين اللامعة، والروح اليافعة، والشفاه التي تزم على بعضها بعزيمة عالية وشجاعة منبثقة من القلب، والجسد الهزيل الذي صار بالنسبة لحمله واهنًا، روى حكايتها الصامتة، لكنه رواها لدفقات النسيم البارد، التي تموج في الأفق؛ فربما تنتزع همومها، وتحملها معها إلى وسادة أم نائمة، فتبعث كأحلام مشوشة عن طفولة تتلاشى في إزهارها، وتستريح هي في النوم الذي لا يعرف الأرق.

أدبر الليل، وهبط القمر، وخفتت النجوم وبهت الضوء، ظهر النهار ببطء، باردًا مثل جسديهما. ومن وراء التل البعيد، لاح ضوء النهار، وأشرقت الشمس المجيدة، مزيحة الأطياف الوهمية المتجسدة في الركام الضبابي، فتطهر الأرض من أشباح الليل إلى أن يسدل أستاره مرةً أخرى. حينما اعتلت السماء، وشاع الدفء في بوارقها المبهجة، كشفت عن نومهما في غير راحة، إلى جوار جدول مائي.

ظلت نيل ممسكة بذراع الرجل العجوز، تراقبه أثناء نومه، بأعين لا تكل. لكن التعب هزمهما في النهاية، وخارت مستسلمة إلى النوم بعد مضي فترة طويلة، استرخت قبضتها، فأحكمتها، ثم استرخت مرة أخرى أخيرة، وناما جنبًا إلى جنب.

استيقظت على أصوات مبهمة تداخلت مع أصوات أحلامها. حينما فتحت عينيها، بدا أن رجلًا أخرق الهيئة فظ المظهر، يقف إلى جوارهما، واثنين من رفاقه يحملقان إليهما من قارب ثقيل طويل، يرسو على مقربة منهما، عند الجدول المائي، حيثما كانا نائمين. لم يكن للقارب مجداف أو شراع، بل كان مسحوبًا بحصانين، استراحا على الطريق، بينما أرخى حبلهما في الماء.
قال الرجل بفظاظة: "مرحبًا! ما الخطب هنا؟".
قالت نيل: "لا شيء يا سيدي، إننا فقط نائمان.. لقد كنا نمشي طوال الليل".
قال الرجل الذي دنا منهما وبادر بالكلام: "امم! مسافران غريبان مشيا طوال الليل.. واحد منهما كهل عجوز على هذا الفعل، والأخرى صغيرة هزيلة على تلك المشقة. إلى أين أنتِ ذاهبة؟".
تلعثمت نيل، لم تكن تعرف ماذا تقول، لكنها أشارت مجازفة تجاه الغرب، ساعتها استفسر الرجل إذا كانت تقصد بلدة معينة، ثم ذكر اسمها. حينها خشت نيل من كثرة الاستجواب، لذلك كي تتجنبه قالت: "نعم! هذا هو المكان بالضبط".
كان السؤال التالي: "ومن أين أتيتما؟". بدا لنيل أن هذا السؤال أكثر سهولة للإجابة عليه، ذكرت من فورها اسم القرية التي يسكن فيها صديقهما مدير المدرسة؛ لاحتمال غير وارد أن تكون معروفة لهؤلاء الرجال، ولتمنع إثارة المزيد من التحقيقات.
قال الرجل: "حسنًا! لقد ظننت أن أحدًا قام بخطفكِ وبسيء معاملتكِ.. هذا كل شيء، يومكِ سعيد".
بعد رد التحية، والشعور بالراحة فور رحيله، تبعته نيل بناظريها، وهو يمتطي أحد الحصانين، ويتحرك القارب. لم يكونوا قد ابتعدوا كثيرًا، حيثما توقفوا مرة أخرى، وأشاروا إليها.
قالت نيل، بينما ركضت نحوهم: "هل دعوتموني؟".
قال أحد من كانا في القارب: "يمكن أن تأتي معنا إذا كنتِ تريدين؛ إننا ذاهبون إلى نفس المكان الذي أشرتِ إليه".
ترددت الطفلة لوهلة. لكنها فكرت - مثلما فكرت بخوف شديد مرات عديدة سابقة - أن الرجال الذين رأتهم مع جدها، ربما يقتفون أثرهما، ويزحفون خلفهما بكل توق؛ طلبًا للغنيمة، وأنها إذا ذهبت مع هؤلاء الرجال، ربما سيضلون سبيلهم خلفهما، وتُمحى آثار تواجدهما في ذلك المكان، لذا حسمت قرارها، وقبلت العرض.
اقترب القارب من البر مرة أخرى، قبل أن يتيح لها الوقت فرصة التدبر في الأمر ثانيةً، كانت هي وجدها على متن القارب، يبحران بسلاسة في القناة.
لمعت أشعة الشمس فوق المياه، وأكسبتها بريقًا لامعًا، ظللتها الأشجار أحيانًا، وأفسحت لها مكانًا ممتدًّا في أحيان أخرى، تسارع التيارات المتدفقة من تموجاتها، وتزيد التلال المشجرة والأراضي المزروعة والحقول المغطاة حولها من بهائها. من وقت لآخر، كانت تلوح لهم قرية، من بين الأشجار المتشابكة، فيبصرون أسطح مبانيها البسيطة، وأسقفها المبنية من القش، ونهايات الأسقف المحدبة (الجملون)، وأكثر من مرة، كانت تظهر لهم مدينة، على مرمى أبصارهم، فيرنون إلى قمم كنائسها الشامخة التي تلوح في الأفق بين الدخان، ومصانعها العالية، وورشها التي علت الكثير من المنازل.. كشف لهم طول الوقت الذي يستغرقه القارب لقطع تلك المسافة، كم كانوا يسافرون ببطء. امتد طريقهم - في أغلب الأحيان - بين الأراضي المنخفضة والسهول غير

المطوقة. لم يقطع أي شيء مسارهم الرتيب المعزول عدا تلك الأماكن النائية، وبعض الرجال العاملين في الحقول، أو من انحنوا فوق الجسور التي مروا من تحتها لرؤية القارب.
في وقت متأخر من الظهيرة داهم الإحباط نيل؛ حينما توقفوا عند رصيف ما، وعلمت أنهم لن يصلوا إلى وجهتهم حتى اليوم التالي، ساعتها كان من الأفضل لها، إذ لم يكن معها من المؤن ما يكفي، أن تشتريها من المكان الذي توقفوا فيه. لم يكن معها غير القليل من البنسات، لكنها على أي حال تفاوضت معهم بالفعل من أجل الحصول على الخبز، وعلى الرغم من ذلك، كان لزامًا عليها أن تقتصد وتتوخى الحذر؛ فقد كانا في طريقهما إلى مكان غريب بالكلية، دون أي موارد، يجهلان ما سوف يلاقيانه هناك. لذا، كان رغيفًا صغيرًا وقطعة من الجبن هما ما استطاعت دفع ثمنهما، عادت بهما إلى القارب مرة أخرى، وجلست في مكانها، وبعد مرور نصف ساعة، عاد الرجال الآخرون - كانوا في الحانة يتناولون مشروبًا - من أجل استكمال الرحلة.
أحضروا معهم الجعة والمشروبات الروحية، إضافة إلى الكميات الوفيرة التي شربوها في الحانة، سرعان ما خروا سكارى في حالة عدوانية، ارتعدت نيل، وتجنبت المقصورة الصغيرة، التي كانت مظلمة وقذرة، رغم دعوتهم لها ولجدها للجلوس فيها، بقيت في الهواء الطلق، تجلس إلى جانب العجوز، تستمع إلى مضيفيهما العدوانيين بريبة وانتباه، وتزداد خفقات قلبها، متمنية أن تكون على شاطئ الجدول مرة أخرى سالمة، ولو توجب عليها أن تسير طوال الليل.
في الحقيقة، لقد كانوا أفظاظًا متبجحين صاخبين للغاية فيما بينهم، بخلاف ما كانوا مع الراكبين، فقد كانوا معهما متحضرين بما يكفي. لكن شجارًا عنيفًا نشب بين الرجل الذي كان يوجه القارب، وصديقه الذي كان في المقصورة؛ بسبب خلافهما على من اقترح تقديم بعض الجعة إلى نيل أولًا، حينما اشتدت المجادلة، ووصلت إلى حدة العراك، سددا إلى بعضهما ضربات يردعها خوفهما الكامل من إثارة استيائها، ومن الرعب غير القابل للوصف الذي ألقيّ في نفسها، وانتفضت له أطرافها، لكنهما نفَّسا عن نفسيهما، عوضًا عن تسديد الضربات، بتوجيه شتائم مقذعة، لحسن حظ الطفلة لم تفهم منها شيئًا. لكن نزاعهما قد انتهى، وسُوِّي الخلاف أخيرًا، لصالح الرجل الذي خرج من المقصورة، وسدد ضربة موجعة لرأس الآخر أولًا، وأخذ الدفة من بين يديه، دون أن يثير أي بلبلة، أو يظهر أثر العراك عليه، أو على صديقه، الذي بدا قوي التحمل، ومعتادًا على مثل هذه الترهات؛ فسرعان ما استلقى كما كان، معلقًا كعبيه إلى الأعلى، وفي غضون بضع دقائق غط في نومه بعمق.
بحلول هذا الوقت، هبط الليل مرة أخرى، على الرغم من أن الطفلة شعرت بلسعات البرد تتسلل إلى جسدها، فلم تكن ترتدي سوى الرث الخفيف من الملبس، انتزعتها أفكارها المضطربة من معانتها وارتجافها الجسدي، وألقت بها في معاناة أخرى من العصف الذهني، الذي أبقى عقلها شاردًا مشغولًا؛ يخطط لمجرى حياتهما القادمة، وكيفية تدبير معيشتهما وقوت يومهما. لكن الدافع نفسه الذي حثها على المواصلة في الليلة السابقة، استحثها الآن على تحمل المشقة وتكبد العناء. وكانت الراحة الوحيدة التي عرفتها خلال ذلك الوقت، هو أن جدها نائم إلى جوارها في أمان، ولم تُرتكب الجريمة، التي ساقه جنونه إليها.
كيف وجدت كل عقبة وكل حدث مرَ في حياتها القصيرة المترعة بالعراقيل سبيلًا إلى عقلها دفعة واحدة، بينما كانا في طريق سفرهما! حوادث طفيفة لم تفكر فيها من قبل ولم تكن تتذكرها حتى وقتها الحالي، وجوه لم ترها سوى مرة واحدة ونسيتها منذ تلك المرة، كلمات لم تلتفت إليها

حينما قيلت، مشاهد منذ سنة ماضية تمتزج مع مشاهد أمسها وتنشأ بينهما صلة، أماكن مألوفة تلوح من بين الظلام، حينما تقترب منها، تتكشف لها، فتجدها بعيدة كل البعد، وغير مألوفة على الإطلاق.. في بعض الأحيان، حينما كانت تتنقل من مكان إلى آخر، كان يطغى على عقلها تشوش غريب له صلة بمكان وجودها، أو المكان الذي كانت ذاهبة إليه، والأشخاص الذين كانت برفقتهم، لكن خيالها الآن يفيض عليها بملاحظات وتساؤلات مسموعة لأذنيها، كي تبدأ، وتتجاوب، وتُستحث على الرد.. هيمنت على عقلها الخيالات والتناقضات، وهيمن على إحساسها الإضطراب والانفعال المرتبط بتغير المكان، وراحت الطفلة سجينة عقلها وإحساسها.
في خضم كل هذا، تنبهت من شرودها، حيث فقد نفسها تقابل وجهًا لوجه الرجل الذي حُسم العراك لصالحه، وظل على سطح القارب، حينها كان الرجل منتشيًا بالسُّكْر، يباعد ما بين شفتيه غليونٌ صغير، غلفه بخيط للحفاظ عليه أطول مدة ممكنة، طلب منها أن تهديه أغنية.
قال هذا الرجل: "إن لديكِ صوتًا عذبًا، وعينين صافيتين، وذاكرة قوية.. بالنسبة إلى الصوت والعينين، فأنا لديَّ أدلة بينة، أما الذاكرة، فإن حكمي عليها نابع من رأيي الخاص. وأنا لا أخطئ أبدًا. دعيني أسمع أغنية الآن".
ردت نيل: "أخشى أني لا أتذكر أي أغنية يا سيدي".
قال الرجل في رصانة، وهو على علم بأن لا شجار سينشب حول هذا الموضوع: "هيا! إنكِ تتذكرين سبعًا وأربعين أغنية.. سبعًا وأربعين أغنية. دعيني أسمع واحدة منها.. دعيني أسمع أفضلها. هيا! أغنية واحدة من أجل هذه اللحظة".
لم تكن نيل على علم بنتائج رفضها، أو عواقب غضبه، لذا بصوت مرتجف أرغمت نفسها على تنفيذ طلبه، غنت له نيل المسكينة أغنية قصيرة، تعلمتها في أوقات أخرى كانت حينها سعيدة، وقد بدا عليه استحسان نغمة صوتها على أذنيه، حينما انتهت من الغناء، طلب منها بنفس اللهجة الرصينة، أن تشجيه بأغنية أخرى، كان يتبع غِنَاءها كالجوقة، لكن دون لحن أو كلمات على الإطلاق، فشابه صوته صوت الزئير، ومع ذلك أضفى بصورة أو بأخرى طاقة مدهشة نابضة بالحماس. أيقظ الصخب الرجل الآخر، الذي جاء إلى سطح القارب مترنحًا، وهز خصمه القديم بيديه، مقسمًا أن الغناء هو مصدر فخره ومتعته وسعادته الرئيسة، وأنه لم يتمنَّ أبدًا ترفيهًا أفضل من ذلك، جاء الطلب الثالث، أكثر إلحاحًا من الاثنين السابقين، شعرت نيل بأنها مضطرة للامتثال، وهذه المرة لم تكن الجوقة مكونة من الرجلين اللذين كانا على سطح القارب، بل انضم إليهما الرجل الثالث، الذي كان يمتطي ظهر الحصان، وعلى الرغم مما يفرضه موقعه عليه، فلا يستطيع الإنضمام إليهم، غنَّى كلما تغنَّى صديقاه، وامتزج صوته بصوتهما، وتعايش مع الأجواء. وعلى هذا النحو، ودون توقف سوى للحظات قليلة، ومع إعادة غناء الأغاني نفسها مرارًا وتكرارًا، أدخلت الطفلة المثقلة بالهموم المرهقة على قلوبهم السرور طوال الليل، أما عن ساكني الأكواخ، فقد نهضوا فزعين من نومهم العميق، بسبب أصوات الجوقة النشاز التي حملتها الرياح، منتفضين مع علو أصواتهم، وقد اختفت رؤوسهم أسفل ملابس النوم.
بزغ الفجر، وأتى معه ضوء الصباح، لكن الضوء لم يلبث في الأفق، إلا وساق معه مُزنًا ممطرةً. ولأن الطفلة لم تتحمل رائحة المقصورة التي لا تُطاق، وكنوع من الإعتراف بمجهودها، قاموا بتغطيتها بقطع من قماش الشراع، وأطراف من القماش المشمع، أبقتها جافة إلى حدٍ ما، وأوت

جدها أيضًا، مع تقدم اليوم، ازداد انهمار المطر، وعندما حلت الظهيرة، وبلت السماء بشكل ميؤوس منه وبغزارة أشد من أي وقت سبق، لا تبشر بأي بصيص من أمل لتوقف ذلك الوابل.

مع مرور الوقت كانوا يقتربون تدريجيًّا من المكان المقصود. صارت المياه أعلى كثافة وأكثر قذارة، أبحرت الزوارق إلى جانبهم، تمر بهم بشكل متكرر.. ظهرت الطرق المرصوفة برماد الفحم، والبيوت المغطاة بالقرميد، التي تميز بعض المدن الصناعية الكبرى، أما الشوارع والبيوت العشوائية المتناثرة والدخان المتصاعد من الأفران، فدلَّت على أنهما كانا بالفعل في الضواحي.

الآن، أُعلن انتهاء رحلتهم بعد ظهور الأسقف المكدسة وأوتاد المباني المتزاحمة، التي تنتفض مع تشغيل المحركات، وتهتز مع اهتزازاتها، وترد على هديرها الصاخب بصوت مكتوم، وكذلك ظهور المداخن الطويلة التي تنثر ضبابًا أسود، وتعلق فوق أسطح المنازل ركامًا من رماد كثيفٍ، وتثقل الهواء بغيوم كئيبة لا تتلاشى، ودوي رئين المطارق على الحديد، وصخب الشوارع المكدسة وعجيج الحشود، الذي ازداد تدريجيًّا وامتزج بباقي الأصوات، حتى بات من المستحيل تميز صوت واحد.

وُجِّهَ القارب إلى الرصيف حيث مكانه. وسرعان ما انهمك الرجال. بعد أن انتظرت الطفلة وجدُّها عبثًا كي يشكراهم على توصيلهما، ويسألاهم إلى أي مكان يجب عليهما أن يتجها، مرا عبر حارة قذرة في شارع مزدحم، وسط ضجيجه وصخبه، تحت وابل من المطر المنهمر، غريبين، مشوشين، مرتبكين، كما لو كانا يعيشان قبل ألف سنة، وبمعجزة ما، بُعثا من رقادها، ووضعا في هذا المكان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الرابع والأربعون

يتدافع المارة، كلٌّ يدفع الآخر، يسيرون على عجل وسط التيارات الصاخبة، وفي اتجاهات متعاكسة، دون توقف، دون أن يظهر عليهم أي كلل، منكبين على إتمام شؤونهم الخاصة، لا يشتتهم صوت قعقعات العربات، ولا قلقلة أحمالها المكدسة، لا يربكهم انزلاق قوائم الخيول على الأرصفة الزلقة المبللة، ولا هدير المطر المتساقط في غزارة، حينما يرتطم بالنوافذ، والمظلات، لا يهتمون لأمر السابلة المتدافعين دون هوادة، لا يكترثون لضجيج أو جلبة الشارع الغاص بالبشر، في حين استحوذت على الغريبين المسكينين حالة من الذهول، يقفان خائري القوى وسط الزحام، مرتبكين من تكدس الناس حولهما، دون أن يكونا جزءًا منه، ينظران إلى الجميع، ويغمرهما الأسى، يشعران وسط تلك الحشود بعزلة، لا مثيل لها يضاهيها سوى ظمأ بحَّار غرقت سفينته، يصارع وسط عباب موج المحيط، أصاب العمى عينيه الحمراوين من النظر إلى الماء الذي يغمره من كل جانب، دون أن يجد قطرة واحدة تروي جفاف حلقه، وتبرد لهيب لسانه.

أويا إلى ممر منخفض للاحتماء من ماء المطر، يراقبان وجوه من يمرون بهما، يتوقان لإيجاد أي بصيص أمل، يرتقبان أي دعم. مرت بهما وجوه عابسة، وأخرى باسمة، من يتمتمون متحدثين إلى أنفسهم، ومن يشيرون بإيماءات غير واضحة، لتوقعهم حديثًا سيخوضون فيه قريبًا، رأوا وجوهًا اعتلتها أمارات المكر ونية المساومة والتآمر، وأخرى مفعمة بالقلق، وأخرى تنبض بالحماسة، وأخرى بليدة كئيبة، رأوا ملامح كأن النجاح عليها مكتوب، وأخرى مثقلة بالهزيمة، بدا الأمر كما لو كانا حائزين على ثقة جميع من يمرون أمامهم، يقفان في هدوء، يدققان النظر في وجوههم التي تلوح أمامهما ثم ترحل عنهما. في الأماكن المزدحمة، حينما يكون لدى المرء ما يكترث به، ويشعر باطمئنان أن كل امرئ آخر لديه ما يصب اهتمامه عليه، ينضح وجهه بكمائن نفسه وحقيقة شخصيته. في الشوارع العامة وردهات الاستقبال في المدينة، حيث يذهب الناس ليروا الآخرين ويراهم الآخرون، حينها تتصدر التعبيرات نفسها، وتتكرر مئات المرات على وجوههم. ربما وجوه أيام العمل هي الأصدق، والأقرب لحقيقة المرء؛ لأنها تتكشف بوضوح بيِّن.

سقطا هائمين وسط هذا النوع من التجريد، حيث ينعزل كل واحد عن الآخر وينحصر تفكيره في ذاته. استمرت الطفلة تحدق في المارة باهتمام عجيب، واكبه نسيان مؤقت لحالتها. لكن البرد والثياب المبللة، والجوع، واحتياج جسدها المُلِح إلى النوم والراحة، وعدم وجود مكان تلجأ إليه، أو تسند رأسها الموجوعة عليه، سرعان ما اجترت عليها أفكارها من النقطة التي كانت قد ضلت فيها السبيل عن بالها، لم يتبين أن أحدًا لاحظ وجودهما ممن كانوا يمرون بهما، حتى من تجرأت على مناداتهم. بعد مرور بعض الوقت، غادرا المكان الذي ارتكنا إليه ليحميهما من الطقس، واختلطا مع الحشد.

زحف الليل، ولا يزالان هائمين مشردين، يسيران في كل إتجاه، دون وجهة محددة، قلَّ عدد السابلة، لكن شعور العزلة نفسه لا يزال قابعًا في صدورهم، واللامبالاة ذاتها تحيط بهم من كل إتجاه، ساقتهما أضواء الشوارع والمحلات إلى شعور أكثر وحشة، أبعد عنهما أي أمل في تلقي المساعدة، وأنذر بقرب حلول الظلام الحالك، باتت الطفلة في أمس الحاجة للثبات ورباطة

الجأش لتمضي خطوة للأمام، مع ارتجاف جسدها من البرد والرطوبة، والإعياء الذي استحوذ عليها، والغُصص المميتة التي نالت من القلب.
لماذا أتيا إلى هذه المدينة الصاخبة، تاركين وراءهما الأماكن الريفية المسالمة؟! على الأقل كانت معاناة الجوع والعطش هناك أقل وطأةً من صراعهما البائس هنا! لم يكونا سوى ذرة أمام ركام جبل من شقاء، زاد من معاناتهما وبأسهما أضعافًا مضاعفة.
لم يكن على الطفلة أن تتحمل المصاعب المتراكمة بسبب حالتها المعدمة فقط، بل لزم عليها أن تتحمل عتاب جدها، الذي بدأ يدمدم متذمرًا بسبب رحيلهما بعيدًا عن مسكنهما الأخير، ويطالب بالحاح بالعودة إليه. كانت الطفلة مفلسة تمامًا، لم يتبقَّ معها بنسٌ واحد، ولم يَلُحْ لهما أي أمل، أو أي لمحة تشير إلى الفرج، فعادا على عقبيهما إلى الرصيف عبر الشوارع الموحشة المكتسية بظلام الليل؛ آملين أن يجدا القارب الذي أتيا به، ويُسمح لهما بالنوم على متنه تلك الليلة. لكن خيبات المسعى تتوالى عليهما تباعًا؛ وجدا البوابة مغلقة، وبعض الكلاب التي أجبرهما نباحها على التراجع. قالت الطفلة بصوت واهن، بينما كانا عائدين من نكبتهما الأخيرة: "يجب علينا أن ننام هذه الليلة في العراء يا عزيزي، وغدًا سوف نستجدي طريقنا إلى أي ركن هادئ، ونحاول كسب قوت يومنا من أي عمل بسيط".
رد الرجل العجوز بشراسة فظة: "لماذا جئتِ بي إلى هنا؟ إنني لا أُطيق هذه الشوارع المزدحمة التي لا نهاية لها، لقد أتينا من مكان هادئ. لماذا أجبرتني على المغادرة؟".
ردت الطفلة في صرامة لحظية، تلاشت مع انهمار دموعها: "بسبب ذلك الحلم الذي أخبرتك به، لا أكثر.. لذا يجب علينا أن نعيش بين الفقراء، وإلا سيراودني الحلم المفزع مرة أخرى.. يا جدي العزيز! إنك عجوز وضعيف، وأنا أدرك ذلك، ولكن انظر إليَّ. إنني لا أشكو مطلقًا ما دمت لا تفعل.. لكنني حقا متعبة، ولدي ما أعانيه".
وقعت عينا العجوز على الطفلة، كما لو كانت تلك أول مرة ينظر إليها، فصاح قابضًا على يده، وهو يحدق في وجهها الشاحب المضطرب، وثيابها الملطخة من السفر، وكدمات قدميها المتورمتين، قائلًا: "آه! طفلة مسكينة بلا مأوى، يتيمة بلا أم، مرتحلة من مكان لآخر! هل الشقاء الذي تكبدته في رعايتها هو ما ساقها إلى هنا في النهاية! هل كنت رجلًا سعيدًا من قبل، وفقدت سعادتي وكل ما أملك من أجل هذا!".
قالت الطفلة بفرحة افتراضية، بينما مضيا يبحثان عن ملاذ آمن: "إذا كنا في القرية الآن، كان يجب علينا أن نبحث عن شجرة قديمة سامقة، تفرد لنا أغصانها، كما لو كانت تريد احتضاننا، وتهتز لنا فروعها المورقة كأنها تغني تهويدة النوم.. علينا أن نفكر فيه بينما هو مطلع علينا.. أرجوك يا ربي! أن نكون هناك عاجلًا.. غدًا أو بعد غد.. نكون على أبعد مسافة ممكنة.. وفي هذه الأثناء دعني أقول.. إنه أمر جيد أننا جئنا إلى هنا؛ وأمسينا متخفيين وسط زحام وسرعة هذا المكان.. إذا أراد أي شخص فظ اللحاق بنا، لن يتمكن أبدًا من اقتفاء آثارنا. وهو أمر مريح. وها هنا مدخل قديم.. مظلم للغاية، لكنه جاف إلى حد ما، ودافئ أيضًا، على الأقل لن تهب الرياح هنا.. ما هذا؟".
علت صرخة ذعر غير مكتملة، من الظلام؛ حيث ظهر أحد ما فجأة من وسط الظلام، في المكان الذي كانا على وشك اللجوء إليه، وظل واقفًا ثابتًا، ينظر إليهما.
قال: "تحدثي مرة أخرى.. هل أعرف هذا الصوت؟".

قالت الطفلة في خوف: "لا! إننا غريبان.. وليس معنا أي أموال للإقامة في سكن، لذا كنا نستريح هنا".
لم يكن في هذا المكان الذي بدا أنه فناء، سوى مصباح واحد على مسافة بعيدة منهما، وكان نوره خافتًا للغاية، لكنه كان كافيًا لإظهار كم كان فقيرًا ومتسخًا. اقتادهما ذلك الشخص، وفي الوقت ذاته، لم يبد عليه أي نية للاستفادة منهما أو الاختباء منهما. كان هذا الشخص رجلًا، ملابسه مهلهلة، تلطَّخ لونه بالدخان، ربما مقارنة بلونه الطبيعي، بدا شاحبًا أكثر مما كان عليه حقًّا. كان من البديهي أن يكون لونه شاحبًا وباهتًا، فوجنتاه المقعرتان، وعظام وجهه البارزة، وعيناه الغائرتان، ليست سوى مظهر أكيد يشهد بما يكفي على طول مرضه. كان صوته أجشَّ طبيعيًّا، ليس غليظًا وحشيًّا، على الرغم من أن وجهه قد ظلل عليه شعر داكن طويل، إلى جانب الصفات المذكورة بالفعل، كانت تعبيرات وجهه بينة، لا يضمر شرًّا أو سوءًا.
قال: "كيف سوَل لكما عقلكما أن تأتيا إلى هنا كي تستريحا؟". ثم نظر إلى الطفلة باهتمام بالغ وأضاف قائلًا: "هل أتيتما إلى هنا في هذا الوقت من الليل لأنكما تريدان مكانًا للراحة؟".
أجاب الجد: "إن مصائبنا هي ما اضطرتنا إلى ذلك".
قال الرجل، ولا يزال ناظرًا إلى نيل، لكن نظرته أمست أكثر جدية: "هل تعرف كم هي مبتلة، وأن الشوارع الموحشة الزلقة بالخارج ليست مكانا آمنا لها؟".
قال: "إنني أعرف ذلك، وآمل أن يساعدني الرب.. ما عساي أن أفعل!".
نظر الرجل إلى نيل نظرة عطوفة، ولمس ملابسها بكل لطف، فقد كانت مياه المطر تقطر من أطرافها. قال بعد لحظة صمت: "حسنًا! يمكنني أن أوفر لك الدفء، دون أي شيء آخر". ثم أشار إلى المدخل الذي أتى منه، وقال: "إن المسكن الذي أملكه يوجد في هذا المنزل، لكنني أحسب أن المكان هناك أكثر أمنًا وسلامًا عليها من هنا. على الرغم من أن النيران توجد في مكانٍ قاسٍ، لكن يمكنكما قضاء الليل بأمان إلى جانبها، إذا وهبتماني ثقتكما. هل تلاحظان كيف يزداد الضوء الأحمر توهجًا؟".
رفعا أعينهما، ورأيا وهجًا ساطعًا في السماء المظلمة، والانعكاس الخافت لبعض النيران البعيدة.
قال الرجل: "إنها ليست بعيدة، هل عسايَ أن أصطحبكما إلى هناك؟ كنتما ستنامان على الطوب البارد، والآن بات بإمكاني أن أوفر لكما سريرًا من الرماد الدافئ.. وأحسب أن لا شيء أفضل".
دون أن ينتظر منهما أي رد أكثر مما أدلى به مظهرهما، أخذ نيل بين ذراعيه، ودعا الرجل العجوز إلى أن يتبعهما.
حملها بين ذراعيه بحنان، وبسهولة أيضًا، كما لو كانت طفلًا رضيعًا، وسار بخطى رشيقة ثابتة، يقودهما عبر الطريق الذي بدا من حاله، أنه أفقر وأكثر أحياء المدينة بؤسًا ووحشة.. أحيانًا كان يعرج جانبًا في سيره؛ ليتجنب أوكار الكلاب التي غمرتها المياه، ويتفادى مياه المزاريب الجارية، لكنه - بغض النظر عن هذه العوائق - حافظ على مساره، يشق طريقه في ثبات دون أن يحيد عنه. وهكذا، ساروا في صمت تام، لما يقرب من ربع الساعة، فقدوا فيها الوهج - الذي أشار إليه سابقًا - خلال سيرهم في الطرق المظلمة والضيقة التي سلكوها، لكنهم حينما اقتربوا من المكان المقصود، بزغ الوهج مرة ثانية، منبعثًا من مدخنة عالية لمبنى قريب منهم.
قال الرجل، بينما وقف أمام الباب لينزل نيل ويأخذ بيدها: "هذا هو المكان، لا تخافا شيئًا، لن يصيبكما أحد هنا بأي أذى".

في الواقع، حمل هذا الضمان ثقة قوية، حفزتهما على الدخول، لكن ما رأياه في الداخل لم يقلل من تخوفاتهما أو ريبتهما. كان المبنى شاهقًا ضخمًا، تدعمه أعمدة من الحديد، له منافذ تهوية سوداء كبيرة في الجدران العلوية، بداخله تتردد أصداء رنين المطارق وأصوات تغيُّظ الأفران، التي تتداخل مع صوت صفير معدن ساخن أحمر عند وضعه في الماء، ومع مئات الأصوات الأخرى الغريبة التي من المرجح أنها لم تسمع من قبل قط في أي مكان آخر، في هذا المكان المعتم، كانوا يتحركون مثل الأشباح بين اللهب والدخان، كومضات خافتة سريعة، يموجون ويعذبون بالنيران المشتعلة، يبدو المكان كأنما يحتوي على أسلحة دامية خطيرة، تكاد ضربة خاطئة واحدة من أي منها أن تسحق جماجم بعض العمال، كان بعض منهم يكدحون كالعمالقة، وبعض آخر يستريحون على أكوام من فحم أو رماد، من كدهم، وقد توسَّخت وجوههم جميعًا بالدخان، وبعض آخر، يفتحون أبواب الفرن الملتهبة، ويسكبون الوقود على اللهب، فتتلظى النار وتستعر، وتعلو للقائه، والتهامه. وبعض آخر يطرقون على صفائح كبيرة متوهجة، ينبعث منها حرارة لا تحتمل، وضوء من أعماقها خافت يشبه الحمرة المتأججة في أعين الوحوش الضارية.
من بين تلك المشاهد المربكة، والأصوات المفزعة، قادهما دليلهما عبر جزء مظلم من ذلك المبنى، إلى فرن لا تهدأ ناره ليلًا ونهارًا، ثم تجمعوا في النهاية، بسبب حركات شفتيه، فلم يكن بإمكانهما سوى رؤيته يتكلم، دون أن يسمعاه، حينها انسحب الرجل الذي كان يراقب النار، فقد أنهى مهمته في الوقت الحالي في سرور، وتركهما مع صديقهما، الذي بسط لنيل عباءة على كومة من الرماد، وأراها أين يمكن لها أن تُعلق ملابسها حتى تجف، ثم أشار لها وللرجل العجوز أن يرقداويناما. أما هو، فاتخذ مجلسه أمام باب الفرن على حصيرة متينة، وأسند ذقته على راحة كفه، يراقب الشعلة وهي تلمع من بين الكوات الحديدية، والرماد الأبيض بينما يتهاوى في حفرة مضيئة حارة أدناه.
امتزج دفء سريرها - على الرغم من بساطته وقساوته - بإرهاقها التي رزحت تحت وطأته، وتبدلت ضجة المكان إلى صوت خافت يقع على أذن الطفلة المتعبة، فلم يمضِ الوقت الطويل حتى هداها ذلك المزيج إلى النوم. رقد الرجل العجوز إلى جوارها، ومع احتضان يدها له، نامت الطفلة في سبات عميق.
لم يكن الليل قد انقشع، حينما استيقظت، لم تكن تعرف كم مضى من الوقت، أو إذا كانت قد نامت وقتًا طويلًا أو قصيرًا. لكنها وجدت نفسها محمية من تيارات البرد القارسة، التي يمكن أن تتدفق إلى داخل المبنى، ومحمية أيضًا من الحرارة الحارقة، ببعض ملابس العمال، حينها نظرت نظرة خاطفة على صديقهما، ورأته لم يبرح مكانه، يجلس جلسته نفسها، يحملق في النار بعينين ثابتتين في جدية، هادئًا ساكنًا، بدا كما لو كان لا يتنفس حتى. لم تكن الطفلة قد تيقظت بعد، محجوزة في حالة بين النوم والاستيقاظ، وقد نظرت مطولًا إلى هيئته الهامدة؛ لدرجة أنها خافت أن يكون قد مات، وهو جالس. نهضت من توها بهدوء، واقتربت منه، وغامرت بالهمس في أذنه.
تحرك، ونظر إلى المكان الذي نهضت منه، كما لو كان يطمئن نفسه أن الطفلة هي من تقف فعلًا بالقرب منه، ثم نظر إلى وجهها محتارًا، وعلى وجهه علامات الاستفهام.
قالت: "لقد خشيتُ أن تكون مريضًا، كل الرجال هنا يحدثون جلبة، وأنت هادئ للغاية".
رد عليها قائلًا: "إنهم يدعونني وشأني، فهم أعلم بحالي. يسخرون مني، لكنهم لا يؤذونني فيها. انظري إليها.. إنها صديقتي.

قالت الطفلة: "النار؟".
أجاب الرجل: "إنها حية طوال ما أنا حي، نتحدث ونفكر معًا طوال الليل".
نظرت إليه الطفلة في لمحة خاطفة وهي في أوج دهشتها، لكنه كان قد إلتفتَ بعينيه عنها، وصوبهما في اتجاههما السابق، متأملًا في شرود كما كان من قبل.
قال: "إنها مثل الكتاب بالنسبة لي.. الكتاب الوحيد الذي تعلمت قراءته طوال حياتي، يروي لي حكايات قديمة. إنها الموسيقى التي أستطيع أن أميزها من بين آلاف الأصوات، موسيقى لها أصوات مختلفة وسط أجيجها، وصور مختلفة أيضًا. إنك لا تعلمين عدد الوجوه الغريبة والمشاهد المختلفة التي أتعقبها في الجمرات الحمراء الساخنة. هذه النار.. إنها ذاكرتي، أرى فيها حياتي بأكملها".
انحنت الطفلة لتستمع إلى كلماته، لكن ما لا يمكن إغفاله، ذكر كم كانت عيناه تبرقان وهو يتحدث مستغرقًا في تأمله.
قال وهو يبتسم إبتسامةً مستترة: "نعم! لقد كانت على الحال نفسه، حينما كنت طفلًا، كنت أحبو حولها، إلى أن أنام. إن أبي رأى ذلك بنفسه".
سألت الطفلة: "أليس لديك أم؟".
- لا، لقد كانت ميتة. تكد النساء في أعمالهن. لقد ظلت تعمل إلى آخر أنفاسها، عملت حتى الموت، لقد أخبروني بذلك، وكما قالوا حينها، وكما ظلت النار تقول لي الأمر نفسه منذ ذلك الحين. أحسب أنها كانت الحقيقة. ودائمًا ما آمنت بذلك.
قالت الطفلة: "هل أصبحت تأتي إلى هنا بعد ذلك؟".
رد قائلًا: "صيفًا وشتاءً.. في بادئ الأمر، كان مجيئي سرًا، لكنهم بعد أن اكتشفوا الأمر، سمحوا لي بالبقاء. حينها كانت النار جليستي، من ترعاني.. هذه النار نفسها. إنها لا تُخمد أبدًا".
قالت الطفلة: "هل أنت مولع بها؟".
- بالطبع أنا كذلك. لقد مات أمامها. رأيته يسقط.. هناك.. حينما يحترق هذا الرماد، أتذكره، لكني أتساءل، لماذا لم تساعده؟
سألت الطفلة: "هل أنت هنا منذ ذلك الحين؟".
- منذ ذاك اليوم الذي جئت فيه لرؤيته، لكنني أغيب أحيانًا، وكم يكون الجو قارسًا في ذلك الحين! على الرغم من أنها مشتعلة طوال الوقت، حينما أعود إليها أرى لهيبها يتقافز، ووهجها يعلو، كما اعتادت أن تفعل في أيام لعبنا معًا. ربما تخمنين من هيئتي التي تنظرين إليها، أي نوع من الأطفال كنت، لكنني.. على الرغم من كل الاختلافات التي بيننا، لقد كنت طفلًا حيثما مات، وحينما رأيتكِ الليلة في الشارع، ذكرتيني بنفسي، وكيف كنت بعد وفاته، وجعلتيني أرغب في إحضارك هنا إلى جانب النار. لقد تذكرت تلك الأوقات القديمة كلها مرة أخرى، حينما رأيتكِ نائمة هنا بجوارها. الآن يجب أن تعودي إلى النوم. هيا نامي مرة أخرى أيتها الطفلة المسكينة، نامي في سلام!
وبتلك الكلمات، اقتادها إلى أريكتها الخشنة، وغطاها بالملابس التي وجدت نفسها ملتحفة بها حينما استيقظت، ثم عاد إلى كرسيه مرة أخرى، لا يتحرك مطلقًا إلا لإطعام الفرن، يمكث دون حراك كالتمثال. ظلت الطفلة تتابعه لبعض الوقت، لكنها سرعان ما استسلمت لنعاس مريح،

أتاها في مثل هذا المكان المقفر الكئيب، وعلى كومة من الرماد، لقد نامت في سلام تام كما لو كانت تلك الغرفة غرفة في قصر، وكان سريرها سريرًا من الريش الناعم.
حينما استيقظت مرة أخرى، كان ضوء النهار يتخلل من شقوق الجدران، وتسقط أشعته مائلة، جاعلة المبنى يبدو أكثر قتامة مما كان عليه في الليل. كانت القعقعة لا تزال مستمرة والجلبة مدوية، والنيران المستعرة أشد توهجًا من ذي قبل، فلم يتباين النهار عن الليل سوى ببعض الراحة والقليل من الهدوء.
قسَّم صديقهما فطوره، بينه وبينهما - كان عبارة عن القليل من الخبز الجاف والقهوة غير الكافية - وسألهما إلى أين كانا ذاهبين. أخبرته أنهما يبحثان عن مكان بعيد عن الريف وعن المدينة وحتى بعيد عن القرى، وبكلمات متلعثمة، استفسرت عن أفضل طريق يجب عليهما سلوكه.
قال هازًّا رأسه: "إنني أعرف القليل عن الريف، إننا نقضي عمرنا أمام أبواب الفرن، ونادرًا ما نخرج لنلتقط أنفاسنا. لكنني أحسب أن هناك أماكن مناسبة".
قالت نيل: "وهل هي بعيدة عن هنا؟".
- نعم بالتأكيد. كيف يكون الريف قريبًا من هنا، كيف سيبقى لونه أخضر ومنعشًا؟ لكن الطرق مقفرة أيضًا، على امتداد أميال وأميال، تشتعل بنيران مثل نيراننا.. إنه طريق مظلم مقفر، طريق سيجعلكِ ترتعدين من الخوف في الليل.
قالت الطفلة في شجاعة، فقد لاحظت أن العجوز يستمع إلى حديثه بنفس قلقه: "إننا هنا، وعلينا أن نستمر ونمضي قدمًا".
"ستجدين أشخاصًا فظين.. طرقًا لم تُمهد لأقدام صغيرة كقدميكِ.. مسارات موحشة مغمة قابضة للصدر.. أليس هناك سبيل لتعودا من حيث أتيتما أيتها الطفلة؟".
صاحت الطفلة، واندفعت إلى الأمام: "لا لا يوجد.. إذا كان بإمكانك أن توجهنا، فمن فضلك افعل ذلك. إذا لم يكن بإمكانك، فاستسمحك لا تثبط عزيمتنا. إنك لا تعرف مدى الخطر الذي نتجنبه، وكم سيكون صوابًا وصحيح ا إذا ابتعدنا عنه قدر إمكاننا، إلا إذا كنت تحاول منعنا؛ لأنني متأكدة أنك لا تقصد".
قال حاميهما الغريب وهو ينظر إلى الطفلة وجدها، الذي نكس رأسه ونظر إلى الأرض: "حاشا وكلا، إن كان الأمر كذلك! سأوجهكما من الباب، وهذا أفضل ما أستطيع فعله، رغم أنني أود فعل المزيد".
سار معهما إلى الباب، وأشار لهما إلى أي الطرق عليهما أن يسلكاه كي يغادرا المدينة. وأي المسارات عليهما أن يسيرا فيها. أملى عليهما التعليمات، وأسهب فيها مطولًا، وبمباركات حميدة كثيرة رددتها الطفلة، أرغمت نفسها على الرحيل، وألا تبقى لتستمع إلى المزيد.
قبل أن يصلا إلى زاوية الممر، جاء الرجل يركض خلفهما، أتاها، وأمسك بيدها، قابضًا عليها، وترك شيئًا في قبضتها.. لقد كانا بِنسين قديمين معوجين عليهما طبقة من الرماد , من يدري أنهما كانا يلمعان في أعين الملائكة، كهدايا ذهبية دونت على القبور؟
وهكذا.. ابتعدا عن بعضهما، تقتاد الطفلة من ترعاه بعيدًا عن الذنب والعار.. ويتجه العامل إلى المكان الذي نام فيه ضيفاه، يتعلق بشغف جديد، ويقرأ حكاية جديدة من نيران الفرن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الخامس والأربعون

في جميع رحلاتهما السابقة، لم يصابا بالسأم، ولم يتوقا أبدًا إلى هذا الحد إلى الحرية، ويشتاقا لهواء الريف الطلق النقي مثل الآن. حتى في ذلك الصباح العصي على النسيان، حينما هجرا بيتهما القديم، ملقين بأنفسهما تحت رحمات عالم غريب، راحلين عن الأشياء الخرقاء الغريبة التي عرفاها وأحباها، تاركين كل شيء وراءهما.. حتى وإن كانا يرغبان حينها في عزلة المروج المنعشة، والتلال والحقول، مثلما يرغبان بها الآن، بعد أن أحاطت بهما الضوضاء، وطوقتهما القذارة، وخنقهما ركام الضباب الملوث، في المدينة الصناعية التي تعج بالبؤس، والتعاسة المحيطة بهما من كل إتجاه، كأنها تحتجزهما داخلها، تقصي أي أمل، وتجعل الفرار مستحيلًا.

تحدثت الطفلة إلى نفسها: "نهارين وليلتين.. لقد قال نهارين وليلتين يجب أن نمضيهما في هذا المسار. أوه! إذا ما بقينا على قيد الحياة ووصلنا إلى الريف مرة أخرى، ونجونا من هذا المكان الموحش الرهيب - الأقرب إلى أن يكون مكانًا للرقاد فيه من أجل الموت - سأشكر ربنا على رحمته الشاملة بقلب ممتن!".

آزرت الطفلة نفسها كي تقدر على مواصلة مهمتها بجسارة، وعلى إتمام هذه الرحلة الأخيرة بخواطر كهذه، أخذت تتردد في بالها، وبتصميم مبهم على السفر كل هذه المسافة الطويلة، بين الجداول والجبال، حيث يسكن الفقراء البسطاء الكادحون، من يكرسون أنفسهم بروح متواضعة للعمل في المزارع، لتوفير ضرورات معاشهم وقوت يومهم يومًا بيوم، بعيدًا عن الرعب الذي فرَّا منه.. دون أي مورد سوى هبة الرجل المسكين لها، دون أي دافع سوى المتدفق من قلبها، وإحساسها بأن ما فعلته هو الحق والصواب.

قالت، وهما يشقان طريقهما بين الشوارع في شقاء: "أخشى أننا اليوم سنكون بطيئين في سيرنا يا عزيزي؛ قدماي متقرحتان، وأشعر بالألم في كامل أوصالي من رطوبة الأمس. علمت أن هذا ما سيحدث عندما نظر إلينا وأخبرنا بالمدة التي سوف نقضيها على هذا الطريق".

قال جدها بشفقة، وهو في حالة يرثى لها فعلًا: "لقد أخبرنا أن هذا الطريق مقفر كئيب.. ألا يوجد طريق آخر؟ ألن تسمحي لي بالذهاب في طريق آخر غير هذا؟".

قالت الطفلة في صرامة: "إن هذا الطريق الشاق، هو ما سيجعلنا نتمكن من العيش في سلام في نهاية المطاف، فلن نُرغم على ارتكاب الأذى وإلحاق الضرر أو نُغوى من أجل ذلك. إننا سنسلك الطريق الذي سيفضي بنا إلى تحقيق هذه الغاية، ولن نحيد عنه مطلقًا، وإن كان أسوأ مئات المرات مما تدفعنا مخاوفنا إلى توقعه. لن نفعل ذلك قط يا عزيزي.. أليس كذلك؟".

أجاب الرجل العجوز، بصوت مرتعش فضلًا عن رعشة جسده: "بلى! لن.. لن نحيد عنه مطلقًا.. هيا لنكمل سيرنا، إنني مستعد.. إنني مستعد تمامًا يا نيل".

سارت الطفلة بصعوبة أكبر من التي مهدت لرفيقها أن يتوقعها، فلم تكن الآلام التي أصابت مفاصلها، وقرت على تعذيبها، آلامًا محتملة، ومع كل جهد تبذله، كانت تشتد وطأتها، لكنها لم تنتزع منها أي شكوى، أو تطغى عليها مظاهر المعاناة، وعلى الرغم من أن المسافرين تقدما ببطء شديد، إلا أنهما استمرا في طريقهما ولم يتوقفا، فالرحيل عن المدينة، والتخلص من أجوائها مع مرور الوقت، جعلهما يشعران أنهما يسيران في الدرب الصحيح، إلى مبتغاهما.

مرًّا بضاحية طالت مسافتها، كانت منازلها مبنية من الطوب الأحمر، وبها بعض البقع الزراعية، لكن عادم ودخان المصنع فحَّم أوراقها المنكمشة، وأذبل أزهارها، وأفسد نباتها بالهواء الساخن للأقران والأنانين التي يتصاعد منها الصهد، فآفت، وبدت أقفر وأكثر إزعاجًا من المدينة ذاتها.. تخطيا الضاحية المنبسطة الطويلة الواسعة، ووصلا بخطوات بطيئة إلى منطقة لا تسر، حيث لا يُرى في أرضها الجدباء الوخيمة أي عشب ينمو، ولا يظهر أي برعم يبشر بقدوم الربيع، فلا يمكن لأي شيء أخضر أن يعيش سوى على أسطح المياه الراكدة، المترامية هنا وهناك على جانب الطريق الأسود.
توغلا أكثر فأكثر تحت ظلال هذا المكان السوداوي المشؤوم، وقد استحوذ تأثيره الكثيب المظلم على روحيهما، وألقى في نفسهما بكآبة مغمة قابضة للصدر. على كل جانب، وعلى امتداد مرمى بصريهما، ولمسافات بعيدة، لاحت المداخن الطويلة، مكدسة جنبًا إلى جنب، تعيد مشهدًا لا نهائيًّا من الحزن الغائم نفسه، والقبح المقيت ذاته، تجسد رعب الأحلام السوداوية القمعية، تنفخ وباء دخانها، تحجب الضوء، تفسد الهواء وتملأ ذراته بغم أسود. وعلى أكوام رماد على جانبي الطريق، غير محاطة سوى بألواح خشبية خشنة أو بكِنان أصابها العفن، وجدت محركات غريبة تهتز في مكانها وتتلوى كمخلوقات تتعذب، تصدر سلاسلها الحديدية صليًلا مفجعًا، كأنها تصرخ مع دوامات دورانها السريعة من وقت لآخر كما لو كانت تتعذب عذابًا أليمًا لا نهاية له، وترتجف لمعاناتها الأرض، ظهرت منازل مفككة هنا وهناك، تتداعى على الأرض، غير راسخة لكنها مدعومة بحطام منازل أخرى قد انهارت، غير مسقوفة، بلا نوافذ، وخيمة، فحم لونها، لكنها لا تزال مسكونة. الرجال والنساء والأطفال، كانوا شاحبين، مهلهلين في ملابسهم، يراقبون المحركات، ويسعرون نيرانها، يتسولون على الطرقات، ويمشون نصف عراة في منازل لا أبواب لها. تتابع ظهور الوحوش الضارية، كانت في كامل وحشيتها واهتياجها، تعوي بصرخات ذعر تدور وتحور حول نفسها، ولا يزال من الأمام ومن الخلف وعن اليمين وعن اليسار أبراج من الطوب، بدت أن لا نهاية لها، لا تتوقف عن نفث الهباب الأسود قط، تنسف كل شيء الحي والجامد، تطمس ملامح اليوم، وتزيد على كل تلك الأهوال سحابة كثيفة داكنة.
ماذا عن الليل في هذه البقعة المفزعة! الليل.. تبدل الدخان بنيران مشتعلة، وعكست المداخن وهج شعلاتها، وبرقت الأماكن التي ظهرت قبابًا مظلمة طوال النهار بالوهج الأحمر، وماجت الأجساد في الداخل ذهابًا وإيابًا بين جدرانها المتصدعة كفريسة بين فكين مشتعلين، ينادي
كل منهم على الآخر بصياح أجشَّ. الليل.. تعالت ضوضاء الآلات الغريبة وصخبها بسبب الظلام، وبدت الناس من حولهما أكثر وحشية وهمجية، خرجت جماعات من العمال العاطلين على الطرقات، تجمهروا تحت ضوء الشعلات حول قاداتهم، الذين أخبروهم بلهجة صارمة من بطشهم، يستحثونهم بالصيحات المفزعة والوعيد والتهديد، وحينما اشتاط غضب بعض الرجال وجن جنونهم، وانطلقوا مسلحين بسيوف وشعلات، غير مكترثين لإلحاح ودموع السيدات، وهن تحاولن ردعهم، مندفعين إلى مهام الأهوال والدمار؛ كي لا يحل الخراب الكلي. الليل.. عندما أتت العربات مهتزة، مليئة بنعوش ذميمة - فقد حامت الأمراض المعدية والموت حول كل ما كان حي من بشر وزرع - بكى الأيتام، وصرخت السيدات متفجعات، وتبعنهم في أعقابهم. الليل.. خرج البعض يطلبون لقمة عيش، وخرج آخرون للشرب لإغراق همومهم، وعاد آخرون إلى بيوتهم بأقدام متقرحة، وأعين بكت دمًا. الليل.. الذي بدت صورته مناقضة لرحمات السماء التي تنزلها

على الأرض، فلا يحل السلام، ولا يسود الهدوء، ولا تنقشع الظلمات، ولا تظهر أي علامة لنوم هانئ مبارك.. من يملك الجرأة ليخبر طفلة صغيرة مرتحلة عما تخبئه أهوال الليل!
استلقت الطفلة في العراء، لا يفصل بينها وبين السماء شيء، لا تعبأ لحالها، ولا تخاف على نفسها، تجاوزت تلك الأمور؛ تكترث لأمر العجوز فقط، وباتت تدعو له. واهنةً مستنزفة القوى، شعرت بآلام جسدها، ولم تلتفت إليها، ظلت هادئة ساكنة، لا تشتكي، لم تفكر البتة في حاجاتها، بل ظلت تدعو خالقهما بأن يُسخِّر له أحدًا ليداويه، حاولت أن تتذكر الطريق الذي أتيا منه، وتنظر في الإتجاه الذي ناما فيه ليلتهما الماضية، حيث كانت النيران مشتعلة. لقد نست أن تسأل ذاك الرجل الطيب عن اسمه - أن تسأل صديقهما - الذي تذكرته وهي تدعو، بدا لها أنه من غير الإمتنان إذا لم تلتفت لتنظر صوب المكان، الذي كان يراقبه.
في ذلك اليوم لم يتناولا سوى رغيف ببنس واحد. لقد كان بالقدر القليل، لكن الجوع نُسي في راحة بال غريبة تسللت إلى حواسها. استلقت، في لطف شديد، وعلت وجهها إبتسامة هادئة، ثم نامت في سبات عميق. لم يكن نومًا أكثر مما كان مهدًا لأحلام سارة، لكن، لماذا كانت أحلامها كلها طوال الليل عن الطالب الصغير؟ أتى الصباح. مضت أكثر وهنًا، خائرة القوى بالكلية، حتى السمع والرؤية كانا يشكلان مشقة، ولم تتذمر الطفلة بعد.. ربما ما كانت ستقول أي شكوى أيضًا، حتى وإن لم يكن من يحفزها على الصمت، وسببه الأساسي، مسافرًا إلى جانبها. شعرت باليأس حول خروجهما معًا من هذا المكان المشؤوم، وبات لديها قناعة تعسة أنه من شدة مرضها، ربما ستموت، وعلى الرغم من ذلك لم ينتابها القلق أو الخوف.
لم تدرك فقدانها للشهية حتى أنفقا آخر بنس كان معها لشراء رغيف آخر، ومنعها إعياؤها من تذوقه. أما جدها، فأكل بنهم شديد، وسُرَّت لرؤيته. لم يطرأ تغيير أو تحسن على طريقهما خلال هذا اليوم، كأن مشاهد الأمس تتكرر مرة ثانية. كان الهواء الملبد الكثيف الصعب تنفسه ذاته، والأرض القاتمة الدقعاء ذاتها، ويداهمها البؤس نفسه، والضيق وآلام المصائب نفسها. بدت الأشياء من حولهما معتمة، قلَّت الضوضاء، وصار المسار وعرًا والطرق أكثر تعرجًا، تتعثر خطواتها بين الحين والآخر، لكنها سرعان ما تحث نفسها على الاستكمال، كما كانت تحاول بشق الأنفس منع نفسها من السقوط. طفلة مسكينة! ترى أن السبب قدماها المترنحتان.
مع حلول الظهيرة، اشتكى جدها بمرارة من الجوع. اقتربت من فورها من أحد الأكواخ الضنكة المتواجدة على جانب الطريق، فتح رجل هزيل الباب، وقال: "ما الذي تريدينه من هنا؟".
- صدقة.. لقمة من الخبز.
رد الرجل الهزيل بفظاظة، مشيرًا إلى حزمة ما مكومة على الأرض: "هل ترين ذلك؟ إنه طفل ميت. أنا وخمسمائة رجل آخر سُرِّحنا من العمل منذ ثلاثة أشهر. وهذا هو طفلي الثالث الذي يموت، الثالث والأخير. هل تظنين أن لديَّ صدقة لأخرجها، أو لقمة لأوفرها؟".
تقهقرت الطفلة إلى الوراء، وأغلق الباب أمام وجهها. لكن بدافع من الضرورة الملحة، طرقت على باب آخر، كان كوخ أحد الجيرة، وبطرقة خفيفة من يدها، فُتح الباب.
كان من الواضح أن أسرتين فقيرتين تعيشان معًا في هذا الكوخ، فقد جلست امرأتان في مكانين مختلفين من الغرفة وحولهما أطفالهما، وفي المنتصف كان يقف رجل مهيب بزي أسود، تبين أنه دخل للتو، وقد حمل على ذراعه ولدًا.

قال: "خذي يا امرأة ابنكِ الأصم الأبكم. يجب أن تشكريني على إعادته لكِ. أحضروه لي هذا الصباح بتهمة السرقة، أؤكد لكِ، أنه لو كان طفلًا آخر، لكنت اتخذت إجراءات أخرى قاسية، لكني تعاطفتُ مع حالته، واعتقدت أن تعليمه لم يكن حسنًا، لذا أعدته إليكِ، من الأفضل لك أن تعتني به في المستقبل أكثر من ذلك".
قالت السيدة الأخرى، وهي تقوم على عجل، وتقف قبالته: "وماذا عن ابني؟ ألن تعيده إليَّ يا سيدي؟ لقد احتجز بسبب نفس الجريمة!".
سأل الرجل بصرامة: "هل هو أصم وأبكم؟".
- ألم يكن كذلك؟
- أنتِ تعلمين أنه لم يكن كذلك.
صاحت السيدة: "بل كان.. كان كذلك من مهده. أصم وأبكم وأعمى. أتقول: إن ابنها لم يكن تعليمه جيدًا! وأين تعلم ابني؟ قل لي أين يستطيع أن يتعلم؟ من كان هنا ليعلمه جيدًا ويحسن تعليمه، وأين هو من الأساس كي يتعلم؟".
قال الرجل: "مهلًا يا امرأة! إن ابنك لديه كل حواسه".
صاحت الأم: "حسنًا! لقد كان.. وبسبب ذ ذلك، كان من السهل أن يضل. إذا أنقذت هذا الولد لأنه لا يعرف الصواب من الخطأ، فلماذا لم تنقذ صغيري الذي لم يعلم الفرق أبدًا؟ لكم الحق أيها السادة في معاقبة ابنها، الذي حجب عنه الرب الكلام والأصوات، مثلما لكم الحق في معاقبة ابني، الذي تحجبونه عني بأنفسكم. كم عدد البنات والأولاد.. آه! وكم عدد الرجال والنساء أيضًا، الذين أحضروهم إليك، ولم تشفق على حالهم، وكانوا صُمًّا بُكمًا في عقولهم، وساءت أعمالهم بسبب ذلك، وعُقبوا على ذلك، معاقبة جسدية ونفسية، بينما أنتم أيها السادة تتجادلون فيما بينكم، وتقررون من يُرد إلى أهله ويستحق التعلم ومن لا؟ كن رجلًا عادلًا، وَرُدَ إليَّ ابني يا سيدي".
قال الرجل، وهو يخرج علبة السعوط: "إنكِ متبجحة بائسة.. وأنا آسف لكِ".
ردت السيدة: "أنا بائسة، وقد جعلتني كذلك فعلًا. رُد إليَّ ابني، كي يعمل من أجل هؤلاء الأطفال الذين لا عون لهم. كن رجلًا عادلًا يا سيدي، وكما رحمت هذا الولد، ارحم ابني، ورده إليَّ!".
رأت الطفلة وسمعت ما يكفي، لتتأكد من أن هذا ليس مكانًا تطلب فيه الصدقات، فاقتادت الرجل العجوز بهدوء إلى الخارج، وواصلا رحلتهما.
على الرغم من تمادي فقدان الأمل ووهن القوى أكثر فأكثر، مضت الطفلة في طريقها بقرار ثابت، ترفض إفشاء أي كلمة أو التنهد بأي أنين يكشف وهنها، كانت تجبر نفسها على استكمال الطريق طوال هذا اليوم العصيب، دون أن تتوقف باستمرار للراحة كما اعتادت؛ تريد أن تعوض ولو بالحد القليل عن وتيرة خطواتها البطيئة وخطواتها المتعثرة. هبط المساء، لكنهما لم يتوقفا، لا يزالان يسافران بين الأراضي المقفرة والمظاهر البائسة، حتى وصلا إلى بلد مزدحمة.
كانت شوارعها مظلمة، فاقدة للروح، لا تُحتمل. بعد أن طلبا الإغاثة طارقين بعض الأبواب، وتم صدهما، اتفقا على الخروج إلى الطريق العام بأسرع ما يمكنهما، ويُجربان ما إذا كان سيرأف أي من سكان البيوت المعزولة بحالتهما المنهكة، ويشعر بالشفقة تجاههما.
كانا يجران أرجلهما عبر الشارع الأخير، حينها شعرت الطفلة أن الوقت الذي تخور فيه قواها كافةً، ولا تستطيع الصمود أكثر من ذلك قد اقترب. ظهر أمامهما في هذا المنعطف مسافر

مترجل يسير في الإتجاه نفسه الذي يسيران فيه، ويحمل حقيبة سفر على ظهره، يتوكأ في سيره على عصا سميكة، ويمسك في يده الأخرى كِتابًا يقرأ منه.
لم يكن من السهل مطلقًا اللحاق به، وإلتماس مساعدته؛ فقد بدا لهما أنه يسير بسرعة، على الرغم من أنه كان على مقربة منهما، بعد فترة، صادف أنه توقف، لينظر متمعنًا إلى بعض المقاطع في كتابه. لاح بصيص من الأمل، أسرعت الطفلة من خطواتها، تاركةً جدها بالخلف، واقتربت من الغريب دون أن تلفت انتباهه بصوت وقع أقدامها، حينها قالت بضع كلمات بصوت واهن، تتوسل إليه مساعدتهما. أدار رأسه، قبضت الطفلة على يديها معًا، وصرخت صرخة مفجعة، وسقطت فاقدة
للوعي عِند قدميه.





الفصل السادس والأربعون

لقد كان المعلم الطيب، لم يكن من قابلاه في طريقهما رجلًا غريبًا.. لقد كان المعلم الطيب نفسه. استطاع بالكاد أن يتحرك؛ صار مشدوهًا بالكلية لرؤية الطفلة التي تعرفت عليه من فورها، توقف لوهلة، صامتًا مرتبكًا من هذا الظهور غير المتوقع، لكنه تلقائيًّا ودون أي حضور ذهني مال من فوره على الفتاة ليرفعها من على الأرض.

سرعان ما استعاد وعيه الذهني، فألقى في الحال بعصاه وكتابه، وخرَّ على ركبتيه إلى جانبها، يحاول إعادة وعيها لها ولو بأبسط الطرق، بينما وقف جدها لا حول له، قابضًا على يديه، يناشدها بألطف العبارات كي تنهض وتتحدث معه، ولو بكلمة واحدة.

رفع المعلم رأسه، ونظر إلى وجهه، وقال: "إنها متعبة للغاية.. لقد تماديت في إنهاك قواها أكثر من اللازم أيها الصديق".

قال الرجل العجوز: "لم أفكر أبدًا في مدى ضعفها وإعيائها حتى هذه اللحظة، ولم ألحظ كم كانت ضعيفة ومريضة قط".

بنظرة نصفها عتاب ونصفها شفقة، رمق المعلم الرجل العجوز، ثم حمل الطفلة على ذراعيه، وطلب منه أن يجمع محتويات سلتها الصغيرة التي انفرطت على الأرض، وأن يتبعه مباشرةً، كي يبعداها عن هذا المكان بأقصى سرعة لديهما.

لاح على مرمى البصر نزل صغير، بدا أنه يوجه خطواته نحوه، مندفعًا إلى الداخل فور وصوله. سارع بحمولته الفائدة للوعي نحو المطبخ، وناشد جميع من كانوا هناك - حبًّا في الرب - أن يفسحوا الطريق؛ ليضعها على كرسي أمام النار.

فور دخول المعلم، قام كل من كان هناك في ارتباك عارم، وهموا بفعل ما يفعله الناس عادةً في مثل هذه الظروف. نادوا جميعًا من أجل إحضار أفضل علاج لدى الآخر والأخرى، دون أن يتحرك المنادون لإحضار أي شيء، صاحوا جميعًا من أجل إفساح المجال لمرور الهواء، لكنهم يستثنون المجال الذي يشغلونه بأنفسهم وفي نفس الوقت، مطوقين أساس التعاطف، متعجبين لماذا لم يفعل أي شخص آخر ما لا يبدو أنهم سيفعلونه قط.

على أي حال، كان لدى مالكة النزل استعدادٌ فعالٌ ونشاطٌ أكثر من أي واحد منهم، فاتخذت رد فعل سريع مدركة حيثيات الموقف، فسرعان ما أتت مهرولة، ومعها القليل من نبيذ البراندي الساخن والماء، تتبعها خادمتها، تحمل الخل والنشادر وبعض المقويات الأخرى، وباستخدامها كما ينبغي، تعافت الطفلة إلى الحد الذي مكنها من شكرهم جميعًا رغم صوتها الخافت، ومدت يدها بصعوبة بالغة إلى المعلم، الذي وقف إلى جوارها بوجه كانت سيماه القلق الشديد. دون حملها على قول أي كلمة أخرى، أو تكبد عناء تحريك ولو إصبع، حملتها السيدة على الفور إلى السرير، وغطتها لتدفأ جيدًا، غسلت قدميها الباردتين، ولفتهما بقماشة قطنية ناعمة، ثم أرسلوا بسرعة رسولًا إلى الطبيب.

حضر الطبيب بأقصى سرعة، أحمر الأنف، يتدلى من صدريته الستان السوداء المضلعة مجموعة كبيرة من الأختام، اتخذ مقعده بجوار نيل المسكينة، أخرج ساعته، واستشعر نبضها. نظر إلى

لسانها، ثم استشعر نبضها مرة ثانية، وبينما كان يفعل ذلك، علق عينيه على كأس النبيذ نصف الفارغة في ذهول عميق.
قال الطبيب بعد مدة: "يجب أن نعطيها ملعقة صغيرة من نبيذ البراندي الساخن والمياه بين الحين والآخر".
قالت مالكة النزل مبتهجة: "هذا ما فعلناه بالضبط يا سيدي!".
قال الطبيب، وقد مرَ بطست حمام القدم الموضوع على الدرج: "ويجب أيضًا أن..". تمهل للحظة ثم تابع الطبيب بصوت وسيط الوحي: "يجب أيضًا أن نضع قدميها في مياه ساخنة، وأن نلفهما بقماش قطني..". ثم أكمل في جدية بالغة: "ويجب أيضًا أن نجعلها الآن تأكل شيئًا بسيطًا للعشاء.. جناح فرخة مشويًّا...".
صاحت مالكة النزل: "أوه! باركنا يا رب! إنه يحضر يا سيدي على النار في هذه اللحظة في المطبخ".. كان الأمر بالفعل كذلك؛ لأن المعلم أوصى بتحضيره لها، وقد أوشك على النضج، ربما لو كان الطبيب قد حاول أن يشم رائحته، لتبين الأمر، أو ربما قد فعل.
قال الطبيب في صرامة وهو يقوم: "يمكنكِ بعد ذلك أن تقدمي إليها كأسًا من نبيذ البورت الساخن، إذا كانت تحب النبيذ...".
قالت مالكة النزل مقترحة: "ونقدم نخْبًا يا سيدي؟".
قال الطبيب، بنبرة رجل يتكرم بتقديم تنازل، أو يهبهم امتيازًا جليلًا: "ونخبًا.. لكن على أن يكون من الخبز، خذي الأفضل من بينه.. إذا سمحتِ يا سيدتي".
مع تلك الوصايا التي أخبرهم بها بتوانٍ، مشددًا على قوله، غادر الطبيب، تاركًا من في المنزل كلهم يشيدون بحكمته وسداد رأيه الذي طابق رأيهم إلى حد بعيد. أثنى الجميع على الطبيب بعد مغادرته، قائلين جميعًا: إنه كان طبيبًا ذكيًّا حقًّا، ويعرف تمامًا تشخيص حالة الناس.. ربما وضح لهم سبب أو آخر لافتراضهم أنه حقًّا كذلك.
أثناء تحضير عشائها، نامت الطفلة نومًا رحيمًا، لكنهم اضطروا إلى إيقاظها؛ حينما صار العشاء جاهزًا. بمجرد أن أبدت عدم ارتياحها فور علمها أن جدها بالأسفل، واضطربت كثيرًا عندما ظنت أنهما افترقا، صعد لها، وتناول معها العشاء. حينما لاحظوا أنها لا تزال مضطربة، أعدوا فِراشا لجدها في غرفة داخلية، حيث سكن بها الآن. لحسن الحظ أن مفتاح تلك الغرفة كان في جانب الباب المطل على غرفة نيل، عندما نزلت مالكة النزل من عندها، أعادته إليه، ثم عادت إلى سريرها بخطوات هادئة وقلب ممتن.
جلس المعلم لفترة طويلة، يدخن غليونه، إلى جانب نيران المطبخ، الذي بات شاغرًا من الناس، يفكر وتعلو وجهه أمارات السعادة؛ ممتنًا للفرصة التي أحضرته في الوقت المناسب لمساعدة الطفلة، ويتفادى بقدر الإمكان الاستجواب الفضولي لمالكة النزل؛ فقد كان لديها حب استطلاع كبير للتعرف على كافة تفاصيل حياة نيل وتاريخها. أما المعلم المسكين، فكان طيب القلب، لديه خبرة ضئيلة بأساليب المكر والدهاء، التي لا يمكن أن تفشل في تحقيق مسعاها مع شخص مثله، وفي الخمس دقائق الأولى فقط، لكن ما حدث أنه لم يكن على دراية بما كانت تأمل في معرفته، لذا أخبرها بهذا بمنتهى الصراحة، كانت مالكة النزل بأي حال راضية عن هذا التصريح، الذي اعتبرته تهربًا بديعًا من سؤالها، وأرجعت هذا إلى أن لديه أسبابه بالطبع. حاشا وكلا أن ترغب في التطفل على شؤون نزلائها الخاصِة، وأن هذا ليس من شأنها بتاتًا، غير أن لديها شؤونًا أخرى

كثيرة لتهتم بها. لقد سألت سؤالًا عفويًّا متحضرًا؛ لأنها كانت متأكدة أن الإجابة التي ستتلقاها ستكون عفوية متحضرة أيضًا. لذا كانت راضية.. راضية تمامًا. ربما كان من الأفضل لها إذا قال مباشرةً إنه لم يختر أن يكون صريحًا لأن ذلك كان ليبدو بسيطًا مفهومًا. على أي حال، لم يكن لديها الحق أن تشعر بالإهانة بالطبع. لقد كان أفضل من يحكم على الأمر، وكان له الحق في أن يقول ما يرضيه، ولا أحد يستطيع أن يجادل هذا ولو للحظة. يا إلهي الكريم! لا أحد على الإطلاق.

قال المعلم الدمث: "إنني أؤكد لك أيتها السيدة الطيبة أنني أخبرتكِ بالحقيقة الواضحة. كما أتمنى أن أكون مصونًا، كما أخبرتكِ الحقيقة".

ردت مالكة النزل بدعابة نمطية جاهزة: "إذنْ لماذا! إنني أعلم أنك جاد، وأعتذر أنني أزعجتك، لكن الفضول هو لعنة جنسنا، كما تعرف.. هذه هي الحقيقة".

وجد مالك النزل صعوبة في فهم ما قالته، لأنه وفق اعتقاده، ظن أن تلك اللعنة تشمل أحيانًا الجنس الآخر، لكن رد المعلم منعه من الإدلاء بأي ملاحظة تخص هذا الصدد، إذا كان لديه نية ليقدم على فعله من الأساس..

قال المعلم: "إذا سألتِني لمدة ست ساعات متواصلة، سأكون مرحبًا بكِ، وسأجيبك بكل صبر إذا ما تمكنت من ذلك؛ جزاء لعطف قلبك الذي أظهرته الليلة.. لذا، أرجو منك أن تعتني بها في الصباح، وتخبريني باكرًا عن حالتها، وللإيضاح، فأنا المسؤول عن تكاليفنا نحن الثلاثة.

وهكذا، فض مجلسهم على نحو ودي - ربما لم يكن أقل ودية بسبب هذا المنعطف الأخير - ذهب المعلم إلى سريره، وانتقل المضيف والمضيفة إلى سريرهما أيضًا.

جاء التقرير الموصى به في الصباح الباكر، أفاد بأن الطفلة أصبحت في حال أفضل، لكنها لا تزال ضعيفة، تحتاج إلى الرعاية القصوى، والراحة الكاملة لمدة يوم على الأقل، قبل أن تتمكن من استكمال رحلتها. استقبل المعلم تلك الأخبار بصدر منشرح، وقال: إنه كان سيحل عندهم لمدة يوم.. لكنه بناءً على ما حدث برمته سينتظر ليومين.. وسيدفع التكلفة كلها بكل ترحيب. حينما علم أن المريضة ستبقى يقظة حتى المساء، حدد ساعة معينة لزيارتها في غرفتها، ثم خرج ومعه كتابه، ولم يعد حتى حان الموعد.

حينما تُركا على انفراد، لم تستطع نيل منع نفسها من البكاء، وبمجرد أن رأى المعلم وجهها الشاحب ومظهرها الواهن، اغرورقت عيناه بالدموع وأجهش في البكاء، في الوقت الذي كان يردد فيه بكل عفوية وحيوية مدى حماقة هذا الفعل، وأنه من السهل جدًّا تجنبه، إذا ما حاول أحدهما.

قالت الطفلة: "على الرغم من كل هذا اللطف الذي يحيط بي، إلا أنه يجعلني غير سعيدة؛ لأنني أشعر أننا نشكل عبئًا ثقيلًا عليك، كيف لي أن أشكرك؟ إذا لم أكن قد قابلتك على هذه المسافة البعيدة من بيتك، كنت على الأغلب قد مت، وتُرِكَ هو بمفرده".

قال المعلم: "إننا لا نتكلم عن الموت، أما بالنسبة إلى تشكيلكما عبئًا، فمنذ أن نمت في كوخي المتواضع، وينهال عليَّ الرزق".

صاحت الطفلة مهللة: "فعلًا!".

رد صديقها: "أوه! فعلًا.. لقد عُينت كاتبًا ومعلمًا في قرية تبعد عن هنا كثيرًا.. وتبعد كثيرًا أيضًا عن القرية القديمة إذا كنت تتذكرينها.. والآن صرت أحصل سنويًّا على خمسة وثلاثين جنيهًا

إسترلينيًّا. أتصدقين! خمسة وثلاثين جنيهًا إسترلينيًّا!".
قالت الطفلة: "إنني سعيدة جدًّا.. سعيدة جدًّا جدًّا".
أكمل المعلم وقال: "كان حريٌّ بي أن أمضي الآن في طريقي. لقد وفروا لي حنطورًا، علاوة على توفير أجرة العربات العمومية على طول الطريق.. فليباركهم الرب، إنهم لا يبخلون بشيء مطلقًا، لكنني وصلت مبكرًا جدًّا عن الوقت الذي كنت أتوقع وصولي خلاله إلى هناك، فتوفر لي الكثير من الوقت، لذا قررت أن أمشي بدلًا من ذلك، كم أنا سعيد حقًّا أنني فعلت ذلك بالأمس!".
- يجب أن نكون نحن السعداء!
قال المعلم، وهو يتحرك على كرسيه باضطراب: "نعم نعم! بالتأكيد! هذا تمامًا. لكن.. أين كنتِ ذاهبة، ومن أين كنت آتية، ماذا فعلت منذ أن تركتِني، ماذا كنت تفعلين قبل ذلك؟ أخبريني! أخبريني الآن. إنني أعلم القليل عن الدنيا، وربما تكونين جديرة بنصحي في شؤوني أكثر من كوني مؤهلًا لتقديم النصيحة لك.. لكنني صادق للغاية، ولدي سببي لحبك - أحسب أنك لم تنسيه -. إنني شعرت منذ ذلك الوقت، كما لو أن حبي لعزيزي المتوفي نُقل إليكِ بينما كنتِ تقفين إلى جوار سريره. إذا كان..". نظر إلى الأعلى وأكمل قائلًا: ".. إذا كان هذا هو الخلق الجميل الذي ينهض من الرماد، فاجعل سلامه يأتيني بالخير ويدوم معي، لأستطيع أن أكتنف هذه الطفلة الصغيرة في رقة وحنان!".
مع بساطة المعلم الأمين ولطفه الخالص، والجدية الحنونة التي تمثلت في حديثه وتصرفاته، والحقيقة الموثقة في كل كلمة وكل نظرة، صار محط ثقة الطفلة، فلا يمكن لأبعد درجات الغدر والرياء أن تغير من رأيها شيئًا أو أن تخطر على بالها قط. لقد أخبرته، أخبرته بكل شيء.. أخبرته بأنهما ليس لديهما أي أصحاب أو أقارب.. أنها هربت مع الرجل العجوز؛ كي تحميه من منزل أودى به إلى الجنون ومن المآسي التي خشاها.. أخبرته أنهما كانا يسافران الآن؛ كي تحميه من شرور نفسه.. وأنها تأمل اللجوء إلى أي مكان بعيد وبسيط، حيث لا تجد الفتن التي نالت منه سابقًا مدخلًا إليه، حيث لا يوجد لأحزانها وأهوالها وكرباتها الأخيرة مكانٌ.
سمع المعلم كلمات الطفلة مشدوهًا غارقًا في الذهول، تحدث إلى نفسه قائلًا: "هذه الطفلة! هل هذه الطفلة محفوفة بالأهوال والمخاطر وكل تلك الشكوك، وتكافح الفقر المدقع والمعاناة المستنزفة وحدها بمثابرة بطولية، ولا يدعمها شيء سوى العاطفة القوية ورجاحة الإدراك!
حقًّا! لا يزال العالم مليئًا ببطولة كهذه. ألم أكن قد تعلمت بعد، أن أقسى التجارب وأكربها مِحنًا هي تلك التي لم تُؤَرَّخ أبدًا في أي سجل، ويعاني أصحابها يوميًّا! هل يجب عليَّ أن أندهش لسماع قصة هذه الطفلة!".
وإن كثر فكره وزاد قوله، فلن يهم. استخلص في النهاية أن نيل وجدها يجب أن يرافقاه إلى القرية، حيثما كان متجهًا، وأن لزامًا عليه أن يسعى ليجد لهما مسكنًا بسيطًا، يمكنهما العيش فيه. قال المعلم في مودة جياشة: "من المؤكد أننا سننجح، إن الفكرة جيدة للغاية ولا يمكن أن تفشل".
رتبا للمضيِّ قدمًا في رحلتهم مساء اليوم التالي، فالعربة التي ستقطع جزءًا من مسافة طريق سفرهم نفسه، سوف تتوقف مساءً عند النزل؛ من أجل تغيير الخيول، وحينها إذا ما دُفعت إكرامية بسيطة للسائق، سيجد لنيل مكانًا شاغرًا في الداخل. حان الوقت، وسرعان ما أبرموا اتفاقًا مع السائق فور وصول العربة، منطلقين في الوقت المناسب. جلست الطفلة في الداخل، على

المقاعد الأكثر نعومة، منعمة بالراحة، وجلس جدها والمعلم إلى جانب السائق، وخرجت مالكة النزل ومالك النزل وجميع الأشخاص الطيبين لتوديعهم، صائحين بنمنياتهم الطيبة.
يا لها من طريقة فاخرة مريحة هادئة مُنعسة للسفر! حيث تستلقي كأنك داخل جبل يتحرك في تؤدة، تستمع إلى رنين أجراس الخيول، ولسعات سوط السائق العرضية، وقعقعة العجلات الكبيرة للعربة وهي تدور في سلاسة، وخشخشة السرج، وتمر ليالي المسافرين المبهجة أسرع مع قليل من صهيل الخيول الهادئ.. تجتمع السعادة كلها أسفل سقيفة سميكة، بدت مصممة خصيصًا لتمهد لها سبيلًا لاستمتاع مشجع على الخمول، إلى أن تنام المستقلة بها! تنام ولكن فكرة مبهمة تبقى داخل رأسها المهتز إلى الأمام والخلف على الوسادة، تهدهد دون تعب يصيبها أو مشكلة تعكر صفو بالها، تستمع إلى كل تلك الأصوات الحالمة، فتستكين حواسها.. يتبع الغفوة استيقاظ هادئ بطيء، تجد نفسها ترنو إلى ستارة تتطاير مع النسمات، نصف مفتوحة، ترى السماء اللامعة الباردة البعيدة، ونجومها المنيرة التي لا تعد ولا تحصى، وفي الأسفل، ترى فانوس السائق يتراقص كـ (فانوس جاك) ([1]) على المستنقعات والأهوار، وعلى الجانب، ترى أشجارًا متراصة قائمة، وفي الأمام ترى الطريق يرتفع ثم يرتفع ويرتفع أكثر، حتى يصل إلى نقطة عالية، تصور لها أن لا طريق بعدها، وأن ما بقي هو السماء.. تمر بنزل، يتوقفون عنده، يساعدونها للنزول من العربة، ومن ثمَّ تذهب إلى غرفة تدفئها النيران والشموع، تطرف عيناها كثيرًا، لكنها تنسجم مع إحساسها بأن الليلة كانت باردة، تتلهف إلى الراحة مستشعرة أن الليلة باتت أكثر برودة مما كانت عليه! يا لرحلة العربة من رحلة ممتعة!
تستعد للرحيل مجددًا، مفعمةً بالنشاط، ولا تمر اللحظات حتى تمضي ناعسةً. تستيقظ من قيلولة عميقة، بسبب برق يخترق السماء كمذنب الطريق السريع، مع المصابيح البراقة وصوت الحوافر الصاخب، ورؤى حارس يقف إلى الخلف، ليبقي قدميه دافئتين، ورجل مغطًّى بالفرو، برَّق بصره، يبدو مخدرًا وحشيًّا.. يتوقفون عند بوابة الرسوم، يجدون أن الرجل قد أوى بالفعل إلى فراشه، فيستمر الطرق على بابه، حتى يجيب من غرفة علوية صغيرة بصيحة مكتومة من تحت ملابس نومه، ثم يشتعل ضوء خافت، يدلف إلى الأسفل، يذهب الرجل مرتجفًا متدثرًا بغطاء الليل، ليفتح البوابة على مصراعيها، متمنيًّا لو أن جميع العربات على الطريق لا تأتي إلا مع حلول الصباح.. تفصل اللسعات الباردة بين آخر الليل ووجه الصباح، ينتشر حيز اتساع الضوء في الأفق، يتبدل من الخيط الرمادي إلى الأبيض، ثم من الأبيض إلى الأصفر، ثم من الأصفر إلى الأحمر المتوهج.. يرتفع النهار، يجلب معه البهجة والحيوية كلها، يتواجد الرجال والخيول على الأرض المحروثة، والطيور على الأشجار والأجمات، والصبية في الحقول المنزوية، يخيفونها بالخشخشات.. ويتبعه الوصول إلى المدينة، يتكدس الناس في الأسواق، تشغل الحناطير والعربات ساحة الحانة، يقف التجار على أبواب متاجرهم، يعرض الرجال الأحصنة للبيع جاعليها تركض ذهابًا وإيابًا أمام أعين الناظرين، تغوص الخنازير في الوحل وتنخر، تخرج ويتعلق في قوائمها خيوط قذرة، تجري إلى محلات العقاقير، فيطردها الصبية بالمكانس.. يغير سائقو الليل الخيول، يظهر الركاب غير مبتهجين، باردين، قبيحين، ساخطين، طال شعرهم، كمن لبثوا الليلة الواحدة كأنها ثلاثة أشهر.. لكن سائقو العربات على النقيض منتعشين يبدون في هيئة جميلة وأنيقة.. يحدثون الكثير من الضجة، الكثير من التحركات، يمورون هنا وهناك، يفتعلون مجموعة

متنوعة من الحوادث.. متى يمكن للمرء أن يجد رحلة فيها هذا الكم من المتع والمسرات، كرحلة في العربة!
في بعض الأحيان، كانت نيل تسير لمسافة ميل أو ميلين، حينما كان يجلس جدُّها في الداخل، أو يأخذ المعلم مكانها ليستريح قليلًا، وقد لازمتها سعادة تامة، وصلوا إلى مدينة كبيرة، وتوقفت العربة لقضاء ليلتهم. مروا بكنيسة كبيرة، وفي شوارع يتكدس فيها عدد هائل من البيوت القديمة، مبنية من نوع ما من الطين أو من الجص، مخططة بخطوط سوداء عريضة، أكسبتها مظهرًا لافتًا وأكثر قدمًا، كانت أبوابها مقنطرة ومنخفضة، كان بعضها له رُتُج بلوطية، ومصاطب غريبة، إعتاد أن يجلس عليها القاطنون السالفون في الأمسيات الصيفية. كانت النوافذ مزينة بألواح زجاجية صغيرة لامعة، بدت كما لو كانت تطرف وتغمز للسابلة، براقة كما لو كانت عينًا أصابها العمى. اجتازوا مسافة طويلة من طريق سفرهم، وتخلصوا من الدخان والأفران، باستثناء مرة واحدة أو مرتين على حدة، رأوا مصنعًا راسخًا وسط الحقول، عاليًا وتعتليه النيران كبركان محترق. حينما عبروا تلك المدينة، وصلوا ثانية إلى ريف، وأمسوا يقتربون أكثر فأكثر من وجهتهم. لم تكن بذلك القرب المنصور، لكنهم على أي حال، قضوا ليلة أخرى في الطريق، لا يعني أن القيام بذلك كان فعلًا ضروريًا، لكن المعلم حينما اقتربوا وكانوا على بعد أميال قليلة من قريته، شعر ببعض الحرج بسبب مظهره؛ لكونه معلمًا جديدًا، لم يرغب في الدخول إلى القرية، منتعلًا حذاءً مغبرًا، مرتديًا ملابس غير مهندمة بسبب السفر. لقد كان صباحًا خريفيًا صافيًا، حينما وصلوا إلى مكان ترقيته، توقفوا لتأمل جماله.
صاح المعلم مبتهجًا، ولكن في صوت خافت: "انظري هنا! هذه هي الكنيسة، وهذا المبنى القديم المجاور لها، إنه مبنى المدرسة، يجب عليَّ أن أذهب كي أؤدي القسم. خمسة وثلاثون جنيهًا سنويًا وفي هذا المكان الجميل!".
لقد أُعجبوا بكل شيء، الرواق الرمادي القديم، والنوافذ المحصنة بالقضبان العمودية، وشواهد القبور الجليلة المنتشرة في الساحة الخضراء للكنيسة، والبرج العتيق، ودوارة الرياح، والأسقف البنية للأكواخ، وعلية الحظيرة، والمساكن التي تنبثق من بين الأشجار، والتيارات المتدفقة من طاحونة المياه البعيدة، وجبال (ويلز) الزرقاء اللائحة في الأفق. لقد سئمت الطفلة أماكن الكد المظلمة البائسة، لكن أحلامًا تخص هذا المكان راودتها، على فراشها من الرماد، ووسط الفظائع الدنيئة التي أجبرت على خوضها خلال طريقها، راودتها رؤى عرضت لها مشاهد مماثلة - جميلة بالفعل، لكنها لم تكن أجمل من الواقع - حتى وإن كادت تتلاشى وتتباعد عن ذهنها مع طول المسافة وعتمتها، وإن قلت احتمالية رؤيتها لها، كانت في المرات التي تتذكرها، تزداد حبًّا وتوقًا إليها أكثر فأكثر.
وبعد مدة، طال فيها تأملهم مبتهجين، كسر المعلم حاجز الصمت وقال: "يجب أن أترككما في مكان ما لبضع دقائق.. إن لديَّ رسالة لتقديمها، وطلبات لأقوم بها، كما تعرفان. تُرى أين يمكن لي أن أصطحبكما؟ إلى نزل صغير بالجوار مثلًا؟".
ردت نيل: "دعنا ننتظر هنا. إن البوابة مفتوحة. سنجلس في رواق الكنيسة حتى تعود".
قال المعلم، وهو يتجه نحو الرواق: "إنه مكان جيد أيضًا". أنزل عن عاتقه حقيبته، وضعها على مقعد حجري، وقال: "كونا متأكدين أنني حينما أعود إليكما، سأحمل أخبارًا سارة.. لن أغيب لوقت طويل!".

وهكذا، ارتدى المعلم زوجًا جديدًا أنيقًا ونظيفًا من القفازات، كان يحمله معه في لفافة صغيرة في جيبه طوال الطريق، ومضى سريعًا، مفعمًا بالنشاط والحماس.
راقبته الطفلة من الرواق، حتى غيبته أوراق الأشجار المتشعبة عن ناظريها، خرجت تمشي الهوينى، بتؤدة ورفق إلى فناء الكنيسة القديم.. رصينة هادئة، لكن صوت خشخشة أوراق الشجر المتساقطة في مسارها التي تجرفها ملابسها المتدلية، جعل صوت وقع قدميها صامتًا، وبدا كأنه انتهاكٌ لصمتها. كان المكان روحانيًا عتيقًا، بُنيت الكنيسة قبل مئات السنين، يتبين أنه كان لها صلة ذات مرة بدير رهبنة للرهبان أو الراهبات، فلا تزال أطلال الحوائط، وبقايا المشربيات، وجذيذ الجدران السوداء قائمة.. بينما انهارت وسقطت أجزاء أخرى من المبنى القديم، ومن ثمَّ دثرت في أرض فناء الكنيسة المعشوشب حيث نما عشبها في غزارة، كما لو كانت تطالب بمكان للدفن أيضًا، وتسعى إلى مزج رمادها مع رماد البشر، إلى جانب سنوات الموت التي تحملها شواهد القبور، وإعمار جزء من الخراب عن طريق استنزاف بعض الآلام لجعله صالحًا للسكنى في الأوقات المعاصرة، كان هناك مسكنان صغيران، نوافذهما غائرة، وباباهما من خشب البلوط، خاويان، يتحللان، يشيع فيهما العفن، مهجوران.
عند هذين المسكنين انصب انتباه الطفلة تمامًا وانحصر. لا تعرف لماذا! ربما تكون الانطباعات التي تخلفها الكنيسة والأطلال والقبور القديمة متشابهة - على الأقل - في أفكار الغرباء، لكن منذ الوهلة الأولى، التي استقرت فيها عينا الطفلة على هذين المسكنين، لم تستطع أن تحيد ببصرها نحو أي شيء آخر. حتى بعد أن طافت في الحظيرة، وعادت إلى الرواق، جلست في تدبر منتظرةً صديقها، واتخذت موضعها، ولا تزال تنظر إليهما، لقد شعرت كما لو أنها مسحورة بتلك البقعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السابع والأربعون

مضت والدة كيت والرجل الأعزب إلى المسار المنشود على عجل؛ خشية أن يكون التاريخ عارمًا بالتقلبات، وخشية ترك من يسعيان إليهما محفوفين بأهوال الخطوب، تصارعهما حالة من عدم اليقين وتساورهما الشكوك.. سرعان ما رحلت والدة كيت والرجل الأعزب في عربة يجرها أربعة خيول من أمام باب بيت كاتب العدل - كما شهدناهما - وسرعان ما تركا المدينة خلفهما.
مضى القليل، ولم تعد المرأة الطيبة محرجة من مستجدات وضعها، لكن حالة الهلع التي كمنت في صدرها بسبب جايكوب الصغير أو الرضيع، أو كليهما معًا؛ خشية أن يصيبهما أي مكروه، أو أن تشتعل فيهما النيران، أو أن يسقطان من على الدرج، أو أن يحتجزان وراء الأبواب، أو أن يحرقان قصبتيهما الهوائية بماء مغلي، في محاولة منهما لريِّ عطشهما شاربين من فوهات غلايات الشاي، كُبتت في صمت غير مريح، تلاقت عيناها مع أعين رجال بوابات الرسوم، وسائقي العربات العمومية، وغيرهم، حينها شعرت بمهابة جديدة لوضعها، بدت لنفسها مثل شخص في حالة حداد في جنازة، ليس منكوبًا بشدة لفقدان الراحلين، يتعرف على معارفه اليومية من نافذة عربة الحداد، لكنه مقيد بالحفاظ على الجدية اللائقة بالحداد، والظهور في حالة لا مبالية بجميع الأشياء الخارجية.
كي تظل غير مبالٍ وأنت برفقة الرجل الأعزب، فمن الأحرى بك أن تكون متنعِّمًا بأعصاب فولاذية، فلا يبقى داخل العربة وقتما تتوقف، ولا يهدأ وقتما كانت الخيول تسحبها، هكذا كان الرجل الأعزب، لم يجلس أبدًا في الوضع نفسه لمدة دقيقتين متواصلتين، يحرك يديه ورجليه باستمرار ويطوِّح بهما، يسحب إطار النافذة إلى الأعلى، ويدعه يسقط بشدة فجأةً، يدفع رأسه إلى خارج نافذة، ثم سرعان ما يسحبها إلى الداخل، ليدفعها خارج النافذة الأخرى. حمل أيضًا في جيبه (علبة أعواد ثقاب) مجهولة للكل ولسبب مبهم غير معروف، وبمجرد أن أغمضت والدة كيت عينيها - كان متأكدًا من ذلك تمام التأكد - سحبها بحركة خاطفة، ثم صدر صوت خشخشة ثم أزيز، لقد كان الرجل الأعزب يختبر جودة ساعته بشعلة من النار، تاركًا الشرر يتساقط بين التبن، كما لو أن لا شيء يضاهي إمكانياته في شواء نفسه ووالدة كيت، وهما على قيد الحياة، قبل أن يتمكن سائقو العربة من إيقاف خيولهم. كلما توقفوا لتبديل الأحصنة أو الراحة، كلما كان يسارع إلى ساحة النزل دون أن ينتبه إلى خطواته أو أن يتمهل، ينطلق مثل سهم ناري مفرقع، يخرج ساعته إلى جانب الضوء، وسرعان ما يضعها مرة أخرى، ناسيًا أن ينظر إليها، باختصار لقد ارتكب العديد من الأمور المتطرفة المتهورة، جعلت والدة كيت تخاف من مغبة أفعاله. حينما تصبح الخيول مهيئة لاستكمال الرحلة مرة أخرى، يعود فاغرًا فاه كالمهرج، ولا يسعهم أن يمضوا ميلًا واحدًا، حتى يخرج ساعته وعلبة أعواد الثقاب معًا، فتستيقظ والدة كيت فزعة، دون أمل في أن يغمض لها جفن مرة أخرى، أو حتى تطرف عيناها مع هذا الرجل.
بعد واحدة مناقب الرجل الأعزب، إلتفَ بحدة إلى والدة كيت وقال: "هل أنتِ مرتاحة؟".
- بالطبع يا سيدي.. شكرًا لك.
- هل أنتِ متأكدة؟ ألا تشعرين بالبرد؟
قالت والدة كيت: "إلى حدٍّ ما يا سيدي".

صاح الرجل الأعزب، وهو ينزل أحد الألواح الزجاجية الأمامية: "علمت ذلك! إنها تريد بعضًا من الماء ونبيذ البراندي! بالطبع إنها كذلك. كيف أنسى هذا الأمر؟ أيها الصاح! توقف عِند النزل التالي، واطلب كأسًا من نبيذ البراندي الساخن والماء".
كان من غير المجدي بتاتًا أن تعترض والدة كيت على أنها في حاجة إلى شيء من هذا القبيل، فقد كان الرجل الأعزب متشدد الرأي عنيدًا، حينما كاد يستنفذ جميع أنماط التعبير عن عدم راحته وملله، يخطر في باله بإصرار أن والدة كيت تريد نبيذ البراندي والماء.
ظلا على هذا الحال طوال سفرهما حتى قارب الوقت منتصف الليل، فتوقفوا لتناول العشاء، حينها طلب الرجل الأعزب جميع الطعام الصالح للأكل الذي اشتمل عليه النزل، ولأن والدة كيت لم تأكل كل شيء قُدِّم إليها، أخذ فعلها على محمل أنها مريضة، ودار في رأسه فكرة أن علةً قد أصابتها بكل تأكيد.
قال الرجل الأعزب الذي لا يفعل أي شيء، سوى الحركة المفرطة، والمشي جيئةً وذهابًا في أنحاء المكان: "إنكِ واهنة! أستطيع أن أعرف أن بكِ علة، إنك واهنة وشاحبة".
- شكرًا لاهتمامك يا سيدي! لكنني في الواقع لست كذلك.
- لا تكابري! أعرف تمامًا أنكِ كذلك. أنا متأكد. انتشلت سيدة مسكينة من بين أحضان أسرتها في لمح البصر، وتصبح واهنة أكثر فأكثر أمام عيني مع مرور كل لحظة.. أي رفيق جيد أكون! قولي لي، كم طفلًا لديكِ يا سيدتي؟
- اثنان يا سيدي بالإضافة إلى كيت.
- هل جميعهم أولاد يا سيدتي؟
- نعم يا سيدي.
- هل تم تعميدهم؟
- معمودية خاصة قصيرة إلى الآن يا سيدي.
- حسنًا! أنا عرابهما من هذه اللحظة.. تذكري هذا دائمًا، إذا سمحتِ بالطبع يا سيدتي. يفضل أن تشربي بعض النبيذ الساخن.
- في الواقع، لا أستطيع أن أرتشف ولو قطرة يا سيدي.
قال الرجل الأعزب: "يجب عليكِ. أعلم أنكِ تريدين ذلك.. كان يجب عليَّ أن أفكر في هذا من قبل".
وفي الحال سارعت يده إلى الجرس، طالبًا نبيذًا ساخنًا بمحض السرعة وبشكل متهور، كما لو كان في حاجة ماسة إليه، لإفاقة غريق، أرغم الرجل العجوز والدة كيت على أن تتجرع كأسًا دِهاقًا، ساخنة ملتهبة، درجة حرارتها عالية، لدرجة أن الدموع تساقطت على وجنتيها، ثم زج بها في عجالة إلى العربة مرة أخرى، فبات من غير المستحيل بعد تأثير المهدئ المريح، أن تصبح غير مكترثة لأفعاله الماجنة أو حركته المفرطة، وتنام من فورها. لكن هذا لم يكن التأثير السعيد لهذه الوصفة ذات الفعالية المؤقتة، على الرغم من أن المسافة كانت أبعد، ووقت الرحلة كان أطول مما ظنه الرجل الأعزب، لم تستيقظ حتى يوم الوصول، ارتفعت أصوات الثرثرة على رصيف المدينة.
صاح رفيقها، وقد أنزل جميع أطر النوافذ: "هذا هو المكان! قدنا إلى معرض أعمال الشمع".

انصاع الحوذي الجالس على العربة في التو، لامسًا طرف قبعته، نخس حصانه بالمهماز؛ ليركض نحو الوجهة المقصودة، خبَّت الأربعة خيول في طريقها ببراعة، مندفعة عبر الشوارع بضوضاء لفتت أنظار عدد غير قليل إليها، وإلى أبواب العربة ونوافذها، حاجبة الأصوات المنضبطة لدقات ساعات المدينة المعلنة أن الساعة تشير إلى الثامنة والنصف مساءً. اقتادتهم العربة حتى وصلوا إلى باب أحاط به الناس، وتكتلوا أمامه، وتوقفت.
قال الرجل الأعزب، دافعًا رأسه إلى الخارج: "ما هذا؟ هل هناك أمر ما؟".
صاحت أصوات عديدة: "إنه حفل زفاف أيها السيد، حفل زفاف، مرحى مرحى!".
ارتبك الرجل الأعزب حينما ترجل من العربة بمساعدة الحوذي، ثم ساعد والدة كيت على النزول، مادًّا إليها يده، ووجد نفسه في وسط حشود صاخبة، يتقافزون مهللين في مرح، وصار على مرأى ومسمع منهم وهم يصيحون: "إنه حفل زفاف آخر!".
قال الرجل الأعزب، وهو يخترق التكتلات المحتشدة مع العروسة المزعومة: "من الواضح أن العالم قد جن جنونه، قفي هنا، ودعيني أطرق الباب".
لطالما كان أي شيء مصدر للجلبة والصخب مُرْضيًا الجمهور. ارتفعت أيادٍ متسخة كثيرة مباشرة للطرق على الباب بدلًا منه، نادرًا ما تجد لقارع باب مثل هذه القوة، أو تجده قد صمم ليصدر أصواتًا تؤدي إلى الصمم، كذلك القارع وفي هذه الحالة بالذات، بعد تقديم كافة الخدمات التطوعية، تقهقر الحشد إلى الوراء بشكل خجول، مفضلين ترك الرجل الأعزب يتحمل عواقب فعلهم بمفرده.
قال رجل ذو عقدة كبيرة بيضاء في قطبة العروة، وهو يفتح الباب في إطلالة غير مبالية للغاية: "ماذا تريد الآن أيها السيد؟".
قال الرجل الأعزب: "من كان يتزوج هنا يا صديقي؟".
- أنا!
- أنت! تتزوج من بحق الشيطان؟
رد العريس، وهو يرمقه من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه: "بأي حق تسأل؟".
صاح الرجل الأعزب: "بأي حق!". جذب ذراع والدة كيت ناحيته، قابضًا عليها، كان من الواضح أن هذه المرأة الطيبة كانت على وشك الهروب: "حق تحلم به. اشهدوا أيها الناس الطيبون، إذا كان هذا الصباح يتزوج من قاصر.. لا لا هذا مستحيل. أين الطفلة، أين الطفلة التي معك هنا أيها الرفيق الطيب. تُدعى نيل. قل لي أين هي؟".
عندما طرح هذا السؤال، ثم رددته من بعده والدة كيت، سُمعت صيحة عالية من غرفة مجاورة، وأتت سيدة تهرول نحو الباب، مرتدية فستانًا أبيض، ثم احتمت بذراع العريس.
صاحت السيدة: "أين هي؟ ما الأخبار التي جئت بها إلى هنا؟ ماذا حدث لها؟".
تراجع الرجل الأعزب من مكانه، محدقًا في وجه السيدة جارلي التي أتت للتو بمظهر يختلط فيه الخوف بخيبة الأمل، تلتهمه الشكوك - يذكر أنها تزوجت هذا الصباح بجورج المتفلسف -، ملقيين بالسيد سليم الشاعر في آلام القنوط والحنق الأبدي.
قال متلجلجًا في النهاية: "لقد.. لقد سألتكِ أين هي؟ فما الذي تقصدينه بكلامكِ؟".
صاحت العروس: "أوه! اسمع يا سيدي، إذا كنت قد أتيت إلى هنا لتفعل لها أي خير، فلماذا لم تكن هنا منذ أسبوع؟".

قال الشخص الذي وجهت إليه الكلام، وقد شحب وجهه وبهت: "إنها.. إنها ليست.. إنها لم تمت؟".
- لا! ليس الأمر بهذا السوء.
صاح الرجل الأعزب في وهن: "أشكرك يا رب! دعيني أدخل".
تراجعا إلى الخلف، سامحين له بالدخول، وأغلقا الباب.
قال، ملتفتًا إلى الزوجين حديثي الزواج: "أريد منكما أيها الزوجان الطيبان أن تعرفا، أن حياتي ليست عزيزة على نفسي، مثل حياة الشخصين الذي أسعى إليهما. إنهما لن يعرفاني، ملامحي غير مألوفة بالنسبة لهما، لكنهما إذا كانا هنا معًا أو أحد منهما، فخذي معكِ هذه السيدة الطيبة، ودعيهما يريانها أولًا؛ فكلاهما يعرفانها. إذا كنت تحجبينهما بسبب اعتبار مخطئ أو خوفًا عليهما، فاحكمي على نواياي فعلًا، بعد أن يتعرفا عليها، ويؤكدان على أنها صديقتهما الوديعة القديمة".
صاحت العروس: "لطالما قلت ذلك! لطالما عرفت أنها ليست طفلة عادية! للأسف يا سيدي! ليس بيدنا أي حيلة لمساعدتك، فإن كل ما في وسعنا، قمنا به بالفعل، لكن عبثًا وهباءً".
بعد هذا القول، آمنا له، وتحدثا معه دون تمويه أو إخفاء، قالا له كل ما عرفاه عن نيل وجدها، منذ لقائهما الأول حتى اختفائهما المفاجئ، مضيفين أنهما قاما بكل الجهود الممكنة لتتبعهما - ذلك كان بالأمر الصحيح تمامًا - لكن دون جدوى، وأنهما في بادئ الأمر، كانا في حالة ذعر شديد، خوفًا على سلامتهما، إضافة إلى الشكوك التي ساورتهما، والارتياب الذي تمكن منهما؛ إزاء ما قد يتعرضان إليه من خطر في يوم واحد عقب رحيلهما المفاجئ. لقد أسهبا في التفكير طويلًا في بلاهة الرجل العجوز العقلية، وفي عدم الارتياح والقلق المتواصل الذي شهدته الطفلة دائمًا، حينما كان يتغيَّب مع رفقائه الذين داوم على رفقتهم، وفي الاكتئاب المتزايد الذي تسلل إليها تدريجيًّا، وأمرضها صحيًّا ونفسيًّا على حد سواء، لا يعرفان إذا كانت قد افتقدت الرجل العجوز ليلًا، وكانت تعرف أو خمنت إتجاه خطواته، فخرجت تسعى إليه، أم إذا كانا قد غادرا المنزل معًا، لم يكن لديهما دليل حاسم. بات من المؤكد بالنسبة إليهما أن احتمالية السماع عنها أو رؤيتهما مرة أخرى، قد تلاشت، وأن رحيلهما سواء كانت بدايته الرجل العجوز أو الطفلة، هو رحيل أبدي، ولا يوجد أي أمل لعودتهما.. استمع الرجل الأعزب إلى كل هذا، محبطًا يغمره الغم والأسى. وقد ذرف دموعًا لا نهاية لها، حينما تحدثا عن الجد، وبدا كأن الألم قد انتزع قلبه.
دون إطالة في هذه الجزئية من روايتنا، واختصارًا لقصة طويلة، دعوها تكتب بإيجاز.. قبل إنتهاء لقائهما، اعتبر الرجل الأعزب أن ما قيل له هو الحقيقة الكاملة مستدلًّا بالبراهين الكافية، وقد أصر على مجازاة العروس والعريس خيرًا؛ اعترافًا بلطفهما مع الطفلة يتيمة الأصدقاء، لكنهما على أي حال رفضا قبول ذلك. في النهاية، رحل الزوجان السعيدان في عربة كبيرة؛ ذاهبين في نزهة إلى الريف لقضاء شهر العسل، بينما وقف الرجل الأعزب ووالدة كيت أمام باب العربة، يغمرهما الحزن.
قال الحوذي: "إلى أين سنذهب يا سيدي؟".
قال الرجل الأعزب: "من الممكن أن تقودني إلى.. تقودني إلى...". لم يكن سيضيف قائلًا: "النزل". لكنه قال ذلك من أجل والدة كيت، لذا ذهبوا إلى النزل.

سرعان ما انتشرت الإشاعات في الساحات وترددت، أفادت أن الفتاة الصغيرة التي كانت تعرض أعمال الشمع، إبنة أناس عظماء، وأنها اختطفت من والديها منذ كانت في المهد، وأنهما يبحثان عنها الآن ويقتفيان أثرها. شاعت الآراء، وانقسمت حول ما إذا كانت إبنة أمير، أم دوق، أم إيرل، أم فيكونت، أم بارون، لكن الجميع اتفقوا وأقروا بصحة رأي واحد، وهو أن الرجل الأعزب هو والدها.. وتهافتوا جميعًا ليلقوا نظرةً عليه، على الرغم من أن أنفه النبيل هو الشيء الوحيد الذي كان مرئيًّا للعيان، بينما كان جالسًا في عربته التي تجرها أربعة خيول.

تُرى أي مقابل كان من الممكن أن يقدم، وأي غم كان من الممكن أن ينكشف عنه، إذا ما عرف أن الطفلة والجد في تلك اللحظة كانا يجلسان في رواق الكنيسة في صبر، منتظرين عودة المعلم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثامن والأربعون

راجت الشائعات بين الناس، وانتقلت من شخص إلى آخر، وصار خبر الرجل الأعزب ومهمته مشاعًا على ألسنة الناس، يتناقلونه فيما بينهم في سرعة خارقة - ربما لم تشبه هذه الشائعة أي شائعة أخرى، عكس ما ذُكر في المثل الذي يذهب إلى أن الحجر غير الراكد، لا يُكسى بالطحلب؛ لأنه في الواقع قد جمع الكثير من الطحالب أثناء طوافه - بمجرد أن ترجل الرجل الأعزب أمام باب النزل، تطلعوا إليه في مشهد حماسي فاتن، كان كافيًا جدًّا لإثارة الإعجاب، اجتمعت حشود كبيرة من العاطلين عن العمل، ممن شرحوا بعد إغلاق معرض أعمال الشمع وإتمام مراسم الزواج، معتبرين أن وصوله ليس إلا جزءًا من عناية إلهية وسعت كل شيء، مشيدين بقدومه مهللين فرحين، تغمرهم بغتة فرحة شاملة.

لم يكن هذا الإحساس العام ينتاب كافة الموجودين؛ فقد شاع الاكتئاب في نفس أحدهم، وساء به الحال وأمسى منكسرًا من الحزن، شاردًا في خيبة أمله، صامتًا منزويًا على نفسه، ترجل الرجل الأعزب من العربة، ومد يده للحوذي في أدب مغتم، إلا أنه أثار إعجاب الناظرين بشدة. مد إليها ذراعه لتستند عليها، ومن ثمَّ تأبط ذراعها، ورافقها إلى النزل، بينما هرول العديد من الندل النشطاء أمامهما كما لو كانوا فريق مناوشات؛ يفسحون لهما الطريق، ويرشدونهما نحو الغرفة المجهزة

لاستقبالهما.

قال الرجل الأعزب: "ستؤدي أي غرفة الغرض، احرص على أن تكون قريبة فقط، هذا كل شيء".

- إنها بالقرب من هنا يا سيدي، تفضل معي في هذا الطريق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما كانا على أول الدرج، تردد صوت شخص، على مقربة من الباب، يقول: "هل الغرفة نالت إعجاب السيد النبيل؟". ثم فُتح الباب لوقته، واندش منه رأس، وقال صاحبها: "إنه مرحب به كالزهور في شهر مايو، كالفحم في عيد الميلاد المجيد. هل أُعجبت بالغرفة يا سيدي؟ اجعلني أنال شرف الدخول. قدِّم إليَّ معروفًا يا سيدي، واسمح لي".

صاحت والدة كيت، متراجعة في صدمة شديدة: "ارحمني يا رب! من هذا!".

من المؤكد أن لديها سببًا ليجتاحها الذهول بهذا الشكل، ذلك لأن من أتى مُقَدِّمًا ترحيبًا كريمًا، لم يكن سوى دانيال كويليب. كان الباب الذي أقحم منه رأسه قريبًا جدًّا من حافظ اللحوم، وبينما كان يقف منحنيًا في أدب غير معتاد، غريبًا تمامًا عنه، مقدمًا على فعله بكل ارتياح، كأن هذا الباب باب منزله الخاص، فسد لحم الضأن والدجاج البارد كله، كأنه شبيه روح شيطانية شريرة تسكن الأقبية، تأتي من تحت الأرض لتلحق الأذى.

قال كويليب: "هل ستجعلني أنال هذا الشرف يا سيدي؟".

رد الرجل الأعزب: "أفضل البقاء بمفردي".

قال كويليب: "أوه!". ثم اندفع إلى الخارج مرة أخرى على نحو عنيف، صافعًا الباب الصغير بصوت مدوٍّ، كالذي يصدر من جوف الساعة الهولندية عندما تدق.

همست والدة كيت: "كيف وصل إلى هنا، لقد تركته في الكنيسة الصغيرة ليلة أمس يا سيدي!".

قال رفيق سفرها: "فعلًا! أيها النادل، متى جاء هذا الشخص إلى هنا؟".
- لقد أتى في العربة الليلية هذا الصباح يا سيدي.
- أوف! ومتى سيرحل؟
- لا أستطيع أن أجيبك بمعلومة مؤكدة يا سيدي. حينما سألته مسؤولة خدمة الغرف يا سيدي، عما إذا كان يريد سريرًا، لوى قسمات وجهه بأشكال غريبة، وأراد تقبيلها.
قال الرجل الأعزب: "استدعه كي يأتي إلى هنا. اخبره أني سأكون ممتنًا، إذا تبادلنا أطراف الحديث معًا. استدعه ليأتي في الحال، أكلامي مسموع".
حدق الرجل مليًّا وبإمعان تام، طوال تلقيه تلك التعليمات؛ لأن الرجل الأعزب لم يكن مذهولًا كما كانت والدة كيت فور رؤية القزم فقط، بل وقف دون أي خوف منه، ممتعضًا يصارع آلامًا، لإخفاء كراهيته ونفوره، على أي حال، غادر منصافًا، وعاد على الفور، يقتاد من أُمر بإحضاره.
قال القزم: "خادمك يا سيدي.. لقد قابلت رسولك في منتصف الطريق. فقد ظننت أنك ستتقبل تحياتي في آخر المطاف، أتمنى أن تكون في حال جيد. أتمنى أن تكون في أفضل حال".
ساد الصمت لوهلة، ظل خلالها القزم واقفًا في صمت، وقد تغضن جبينه، وضاقت عيناه، في إنتظار الرد. ودون تلقيه أي رد، إلتفتَ لتوه نحو معارفه المألوفة.
صاح: "أوه! والدة كريستوفر نفسها! يا لك من سيدة عزيزة! امرأة فاضلة، أُنعمت بابنها الأمين! كيف حال أم كريستوفر؟ هل حسَّن تغيير الهواء والمناظر من حالتها؟ كيف حال عائلتها الصغيرة أيضًا؟ وكريستوفر بالأخص؟ هل هم منعمون؟ هل هم مكرمون؟ هل ينشؤون على أن يكونوا مواطنين صالحين؟".
حينما تحدث السيد كويليب كان يرفع صوته تدريجيًّا مع كل سؤال متتال، لدرجة أنه حينما أنهى حديثه كان صوته أشبه بصوت نعيق حاد، وبدا وجهه في مظهر لهاثه المعتاد، سواء أكان ذلك مظهره الطبيعي أم مظهرًا متكلفًا، كان التأثير سيان في محو كافة تعبيرات وجهه، بالدرجة التي جعلت وجهه خاليًا تمامًا من أي دلالة على مزاجه أو حالته.
قال الرجل الأعزب: "يا سيد كويليب!". وضع القزم يده خلف أذنه الطويلة المرفرفة؛ متظاهرًا بالانتباه الشديد.
- تقابلنا نحن الاثنان من قبل...
صاح كويليب، وأومأ برأسه: "بالتأكيد! أوه! لقد تقابلنا بكل تأكيد يا سيدي. ولي كل الشرف والامتنان.. كلاهما، يا أم كريستوفر، كلاهما.. الشرف والامتنان.. لا يجب نسيانهما بهذه السرعة، تحت أي ظرف من الظروف!".
- ربما تتذكر ذلك اليوم الذي وصلت فيه إلى لندن، ووجدت المنزل الذي ذهبت إليه، خاليًا ومهجورًا، ووجهني إليك بعض الجيران، ومن ثم انتظرتك دون كلل أو توقف للراحة أو تناول أي وجبة خفيفة؟
قال كويليب، متشاورًا مع نفسه، في فعل أشبه بمحاكاة حديثه مع صديقه سامبسون براس: "كم كان ذلك فعلًا اندفاعيًّا، ومع ذلك يا له من إجراء جاد مفعم بالحيوية!".
قال الرجل الأعزب: "ووجدتك على نحو غير مسؤول حائزًا بالكلية على ممتلكات كانت مؤخرًا لرجل آخر، وكان ينظر إلى هذا الرجل الآخر قبل وقت استحواذك على ممتلكاته، على أنه رجل ثري، وفي لمح البصر، تدهور به الحال ليمضي شحاذًا، ويطرد من بيته وموطنه".

رد كويليب قائلًا: "إن لدينا مذكرة تثبت حالة ما فعلناه، أيها السيد الجيد.. هاه! إن لدينا مذكرة تثبت أحقية ما فعلناه. فلا تقل: إننا أرغمناه على فعله. لقد رحل من تلقاء نفسه.. اختفى في الليل يا سيدي؟".
قال الرجل الأعزب حانقًا من شدة غضبه: "لا يهم! ما يهم الآن أنه رحل".
قال كويليب في نفس رباطة الجأش الساخرة: "نعم، لقد رحل. لقد رحل دون أدنى شك. لكن السؤال الذي طُرح في ذلك الوقت، ولا يزال مطروحًا حتى وقتنا الحالي.. إلى أين رحل؟".
قال الرجل الأعزب مظهرًا إحترام شديد له: "ما أتعجب منه الآن، أن من كان حينها نافرًا بكل وضوح، لا يريد الإدلاء بأي معلومات.. بتاتًا.. ويتهرب بمنتهى الشفافية، مستندًا إلى كل أساليب المكر والخداع.. يلاحق خطواتي الآن؟".
صاح كوبليب: "أنا ألاحقك!".
رد سائله، وهو تجتاحه حالة من القلق الشديد: "نعم! ألست كذلك! ألم تكن على بعد ستين ميلًا منذ سويعات قليلة، في الكنيسة التي تؤدي فيها هذه السيدة الصالحة صلواتها؟".
قال كويليب، ولا يزال في ثبات تام، دون أن يحرك طرفًا: "هل كانت هناك أيضًا؟ حريٌّ بي أن أقول، دون أدنى قصد مني أن أكون فظًّا، لماذا لا يكون أنت من يلاحق خطواتي! نعم، لقد كنت في الكنيسة. ما الذي يفيده ذلك! ماذا بعد! لقد قرأت في الكتب التي كان يستخدمها المسافرون قبل أن ينطلقوا في رحلاتهم، أنهم يذهبون إلى الكنيسة، للتوسل وتقديم الصلوات من أجل عودتهم سالمين. رجال حكماء! الرحلات محفوفة بالمخاطر.. خاصة خارج العربة. ربما تنحرف العجلات، فيثور ذعر الخيول، ويقود الحوذي العربة على نحو متهور، وتنقلب العربة. دائمًا ما أذهب إلى الكنيسة قبل أي رحلة سفر، في الواقع.. إنه آخر إجراء أتخذه في مثل هذه المناسبات".
ما كان واقعيًّا فعلًا، أن كويليب كذب في حديثه، وفي كل ما ادعاه في حماسة متفاقمة، فلم يكن حديثه بحاجة إلى دهاء بالغ كي يُكتشف كذبه، على الرغم من أنه قد عانى كثيرًا، لئلا يُفتضح أمره وينكشف عن طريق صوته، أو ملامح وجهه، أو حركات جسده، ربما بدا كأنه متشبث بالحقيقة في ثبات مشهود.
قال الرجل الأعزب التعيس: "إن كل هذا يقودني إلى الجنون يا رجل! ألا تأخذ مهمتي على عاتقك بشكل مبالغ فيه، لسبب خاص بك؟ ألا تعرف السبب الرئيس الذي دفعني إلى المجيء إلى هنا! ألا تعرف في صحبة من جئت إلى هنا! إذا كنت لا تعرف حقًّا، هل يمكنك ألا تُلقيَ الضوء عليه؟".
هز كويليب كتفيه، ورد مستهجنًا: "هل تراني مشعوذًا يا سيدي! لأنني إذا كنت كذلك، ربما أعرف الغيب، وأعرف طريق صنع ثروتي".
رد الآخر، مرتميًا على الأريكة نافد الصبر: "آه! أحسب أننا قلنا ما احتجنا إلى قوله، لذا حبًّا في الرب، اتركنا وشأننا، إذا سمحت".
قال كويليب: "عن طيب خاطر، وبكل امتنان.. يا أم كريستوفر! لك مني خالص تحياتي.. وداعًا! رحلة ممتعة.. رحلة عودة ممتعة أيها السيد.. احم!".
مع كلمات الوداع تلك، وبابتسامة اعتلت وجهه من غير الممكن وصفها البتة، لكنها - على نحو تقريبي - بدت كمفاقمة لكل كَشْر الوحوش التي من الممكن أن يقلدها البشر أو القردة، رجع القزم بتوانٍ رهيب، وأغلق الباب خلفه.

عاد إلى غرفته، جلس على الكرسي، واضعًا يديه على خصره وقال: "مرحى.. مرحى! هل أنت هناك يا صديقي؟ فعلًا!".
يغالي في الضحك، تنفرج شفتاه في سعادة عارمة، يعوض نفسه عن تسخير وجهه من أجل رسم ملامح ضبط النفس الذي لازمه مؤخرًا، يلوي قسمات وجهه، راسمًا على وجهه أكثر التعبيرات التي يمكن تصورها قبحًا، بهز نفسه في الكرسي إلى الأمام والخلف، ويحتضن ساقه اليسرى في الآن ذاته، غارقًا في تأملات، قد تبدو ضرورية لربط فحوى الأمور ومرماها.
أولًا، استعرض لفترة وجيزة كافة الظروف التي قادته إلى تلك البقعة بالتحديد. منذ أن قصد مكتب السيد براس مساء أمس، في غياب هذا الرجل النبيل وشقيقته المتعلمة، وانفرد بلقاء السيد سويفيلر، الذي تصادف أن كان يتجرع في اللحظة نفسها كأسًا من نبيذ الجين الساخن والماء في رحاب القانون، لكن الحال الذي كان عليه يبين فرط قيامه بري نفسه، وكمخلوق من طين يروي نفسه بالمسكرات، ويفرط فيها، لا يسعه سوى أن يصبح لينًا هشًّا، غير متماسك ضعيفًا، ينهار في أماكن غير متوقعة، وينزلق، يحافظ على شكله ولكن بصورة مائعة، لا يُظهر أي قوة أو صلابة، لذا راح السيد سويفيلر - المخلوق الطيني - بعد أن أفرط في الشرب، في حالة مرتخية زلقة، لدرجة أن الأفكار الكثيرة التي كانت تهيمن على عقله، بانت فوضوية وخسرت استقلاليتها، وتداخلت ببعضها، لم يكن من غير الشائع بالنسبة للمخلوق الطيني في هذه الحالة - كي يلملم شتات نفسه، ويعلي من شأنه في خضم تلك التداعيات - أن يعتمد اعتمادًا كليًّا على إبراز تبصره وحصافته، والسيد سويفيلر.. كان أكثر من يُقدِّر تمكنه في هذا الصدد، لذا بعبارات كثيرة، انتهز الفرصة ليتحدث عن اكتشافاته الذاتية الغريبة الخاصة بالرجل الأعزب القاطن بالأعلى، متلاعبًا بالكلمات، معقبًا أن لسانه لن ينزلق بالأسرار، وأنه سيحتفظ بتلك الاكتشافات داخل قرارة نفسه، ولن ينبس ببنت شفة، ولو عذبوه أو حرضوه أو حتى داهنوه. أمام هذا التصميم، أعرب السيد كويليب عن أقصى درجات موافقته له، وفي الآن ذاته قام بتحفيز السيد سويفيلر لما هو على النقيض تمامًا من ذلك، دافعًا إياه للبوح بالمزيد من التلميحات، ولم يمضِ الكثير، حتى أذاع أن الرجل الأعزب قد شوهد على إتصال بكيت، وأن هذا هو السر الذي لن يبوح به أبدًا.
فور إلمامه بتلك المعلومة، استنبط كويليب مباشرة أن الرجل الأعزب الساكن أعلى الدرج، هو الشخص نفسه الذي انتظره سابقًا، وبمجرد أن أكد لنفسه صحة استنباطه بطرحه المزيد من الاستفسارات، فلم يكن من العسير مطلقًا أن يصل في النهاية إلى استنتاج مفاده أن غاية وهدف اتصاله بكيت محوره سيده القديم والطفلة. حينها داهمه الفضول الشديد كنار متأججة في صدره؛ يريد أن يعرف الإجراءات التي سيتخذها، فقرر أن يسرع إلى والدة كيت؛ باعتبارها أقل الأشخاص قدرة على مقاومة مهاراته في الخبث، وأسهل من يمكن خداعها لتبوح بما تعرف، فسرعان ما يصل إلى مسعاه.. وهكذا، غادر متعجلًا، تاركًا السيد سويفيلر، وهرول من فوره إلى بيتها، حينما وصل، كانت المرأة الطيبة خارج المنزل، استفسر من جارتها - كما فعل كيت نفسه بعد ذلك بوقت قصير - ومن ثم اتجه إلى الكنيسة، ليتربص بها، بعد الإنتهاء من صلاتها.
لم يتعد جلوسه في الكنيسة ربع الساعة، كان خلالها مثبتًا ناظريه على السقف، لكنه ضاحك متهكم في داخل قرارة نفسه على مزحة وجوده هناك، حتى ظهر كيت نفسه. وبنظرة خاطفة، وفي يقظة حيوان الوشق، استدل القزم على أن كيت جاء من أجل مهمة ما. كما شاهدناه في وضع

ثابت، وفي مظهر غير مكترث البتة، متظاهرًا بتعبير مجرد، كان على مرأى من كل تفصيلة في سلوك كيت، وحينما انسحب مع عائلته، انطلق خلفه. وظل يتتبعهم، حتى وصلوا في النهاية إلى منزل كاتب العدل.. علم بوجهة العربة من أحد الحوذيين، وعلم أيضًا أن عربة الليل السريعة ستنطلق من المكان نفسه، ودون أي توانٍ، وفي خضم تلك الأمور، وفي الساعة نفسها، انطلق مباشرة إلى مكتب العربات دون إثارة الكثير من اللغط، حاجزًا مقعدًا له على السطح. بعد الانتقالات والتنقلات، والمرور بعربته مرات ومرات، أو حدوث العكس في مختلف الأوقات، بسبب اختلاف طول وقصر فترات التوقف، أو السرعات، وصلا إلى المدينة في الآن ذاته تقريبًا. راقب كويليب عربته عن كثب، اختلط بالعامة ممن أثاروا جلبة الشائعات، علم بسبب وجود الرجل الأعزب ومهمته التي يسعى وراءها، وفشله في مسعاه، وبعد أن صار على معرفة بكافة الأمور، أسرع، ووصل إلى النزل قبله، ومن ثم أجرى المقابلة التي لم يفت عليها لحظات وذكرت مفصلة، ذهب ومن ثمَّ ارتكن إلى الغرفة الصغيرة، التي استعرض فيها سريعًا الأحداث كافة.
قال مكررًا، وهو يقضم أظافره في نهم وحماس: "أنت هناك.. أليس كذلك يا صديقي؟ أمسيت مشتبهًا به، ونُحيت جانبًا، أظن أن كيت هو الوكيل السري.. أليس كذلك؟ أخشى أنه يجب التخلص منه. إذا كنا تواصلنا معهم هذا الصباح...". وقف لوهلة مفكرًا وقال: "..لقد كنت على وشك إثبات ادعاء جيد. كنت على وشك تحقيق ربحي. لكنَّ هؤلاء المنافقين الكادحين، الصبي وأمه.. يجب أن أستدرج هذا الرجل الأعزب المنفعل إلى عشي مثل صديقنا العجوز.. مثل صديقنا المشترك العجوز، ها ها ها! ونيل ذات القوام الممشوق، ذات البشرة الوردية. في أسوأ الأحوال، ستكون فرصة ذهبية، لا يمكن إضاعتها. دعنا نعثر عليهما أولًا، وبعدها سأجد طرقًا وثغرات استنزف بها أموالك المفرطة يا سيدي، بينما تتوفر قضبان السجن ومزاليجه وأقفاله، لتحفظ صديقك هذا وتصونه في أمان تام". دهق كأسًا من نبيذ البراندي، وقال وهو يمط شفتيه: "كم أكره أناسك الأعفاء متبعي الفضائل. آه! كم أكرههم جميعًا!".
لم يكن هذا ادعاءً فارغًا، بل نبأ متعمدًا يعبر عن مشاعره الحقيقية.. بالنسبة إلى السيد كويليب، الذي لم يحب أحدًا قط، صار شيئًا فشيئًا يكره تقريبًا كل من كان دانيًا أو قاصيًا أو على صلة قريبة أو بعيدة بعميله المفلس.. لقد كره الرجل العجوز نفسه؛ لأنه تمكن من خداعه ومراوغته وتملص من يقظته.. والطفلة، لأنها كانت سبب تبكيت وإشفاق السيدة كويليب المستمر.. والرجل الأعزب، بسبب نفوره واشمئزازه الذاتي منه.. وكيت ووالدته - على نحو بشع - بسبب ما ذكر آنفًا، وعلاوة على ذلك سيادة الشعور العام بمناهضته لهم، الذي يعتبر جزء ا لا يتجزأ من رغبته النهمة في إثراء نفسه مستغلًا تلك الظروف المتغيرة، لقد كرههم دانيال كويليب جميعًا حقًّا، لقد كره كل واحد منهم.
في هذا المزاج اللطيف، أنعم السيد كويليب نفسه بالحيوية، وأنشاها بالكراهية، وتجرع المزيد من نبيذ البراندي، غيَّر مكان مجلسه، وانسل إلى حانة مغمورة؛ يستجوب الجميع بطرق ماكرة ملتوية، مستفسرًا بكل الطرق الممكنة عن أي معلومة من الممكن أن ترشده إلى العثور على الرجل العجوز وحفيدته. لكن كل ذلك راح سدى. لم يتمكن من الوصول إلى أي أثر أو دليل.. لقد غادرا المدينة ليلًا، لم يرهما أي أحد، لم يقابلهما على الطريق أحد، لم يتعرف أي حوذي عربة أو حنطور أو أي مسافر على وصفهما، لم يختلط بهما أحد، ولم يسمع عنهما أي أحد. اقتنع أخيرًا أن محاولاته في الوقت الحاضر ميؤوس منها تمامًا، لذا كلف اثنين أو ثلاثة نوافِض؛ يتجسسون

على الطريق، يبعثون له بأي معلومة، وغمرهم بالوعود بمكافآت كبيرة في حال إرسالهم له أي معلومة، ثم عاد إلى لندن في عربة اليوم التالي.
كان من دواعي سرور السيد كويليب، حينما اتخذ مكانه في العربة على السطح، أن يجد والدة كيت، تجلس بمفردها داخلها، لذا بسبب كونها بمفردها، إضافة إلى السعادة الروحية التي استمدها في غضون الرحلة، تمكَّن من إمطارها بسيل من الترويع والمضايقات غير المألوفة للبشر.. على سبيل المثال كان يميل على جانب العربة رأسًا على عقب، مغامرًا بحياته، يحملق إليها بعينين جاحظتين، بدَوا أكثر رعبًا من وجهه المقلوب، يراوغها من شباك إلى آخر وبالوضع نفسه، ينزل برشاقة وسرعة وقتما قاموا بتغيير الخيول، كي يقحم رأسه، من النافذة أحول العينين وينظر إليها شزرًا، فتنتفض السيدة نابلز مروعة، وترزح تحت تأثير عذاب مرير، لدرجة جعلتها غير قادرة البتة على مقاومة إيمانها بأن ما فعله السيد كويليب بذاته ما هو إلا تمثيل وتجسيد لنزغات شيطانية كالتي كان تُحجَّم بالقوة في الكنيسة الصغيرة، وأن قوى الشيطان عادت بسبب ترديها وذهابها إلى سيرك أسلي وأكلها للمحار، وصارت طليقة منتشرة.
بعد أن أُبلغ كيت برسالة مفادها عودة والدته، ذهب لانتظارها في مكتب العربات، وقد كان ذهوله عارمًا؛ فور رؤيته لشيطان مألوف ينظر شزرًا متلفتًا وراء الحوذي، غير مرئي لأعين الجميع باستثناء عينيه.. إنه الوجه المعروف لكويليب.
قال القزم بصوت أشبه بالنعيق من سطح العربة: "كيف حالك يا كريستوفر؟ كل شيء على ما يرام يا كريستوفر، إن أمك في الداخل".
همس كريستوفر: "لماذا وكيف أتى إلى هنا يا أمي؟".
ردت السيدة نايلز، وهي تترجل من العربة بمساعدة ابنها: "لا أعرف كيف جاء أو لماذا يا عزيزي.. لقد خارت قواي وتجمدت أوصالي وكدت أن أفقد حواسي السبع في هذا اليوم المبارك".
صاح كيت: "هل هو السبب؟".
ردت والدته: "لن تصدق، لن تصدق بتاتًا.. لا توجه إليه أي كلمة، أنا لا أصدق أنه بشر مثلنا. صه صه! لا تلتفت، كما لو كنت أتحدث عنه بالفعل.. إن عينيه تقدحان شررًا، إنه يحدق في وجهي بأعين مستعرة كفانوس العربة.. إن هذا مرعب شنيع حقًّا!".
على الرغم من أمر والدته له، استدار كيت من فوره لينظر إليه. حينها كان السيد كويليب يرنو في هدوء وسكينة إلى النجوم، هائمًا في تأمل السماء.
صاحت السيدة نابلز: "أوه! إنه أكثر المخلوقات حذقًا.. على كل حال، هيا بنا، ولا تتحدث إليه قط".
- حاضر يا أمي، سأفعل ذلك.
تأثر السيد كويليب في البداية، لكنه سرعان ما نظر حوله مبتسمًا.
قال كيت: "هل يمكنك أن تترك أمي وشأنها! هلَّا فعلت ذلك؟ كيف تجرؤ على مضايقة امرأة مسكينة مثلها، وتدفعها إلى القلق والارتياب، كما لو لم يكن لديها ما يكفي ليثقلها همًّا، غيرك. ألا تخجل من نفسك أيها الوحش الضئيل؟".
قال كويليب في باله مبتسمًا: "وحش! ألم أكن القزم الأكثر قبحًا ممَّن يمكن رؤيتهم في أي مكان مقابل بنس واحد.. صرت وحشًا.. آه! يا للزمن العجيب".

أكمل كيت، وهو يحمل الصندوق على كتفه: "إذا أظهرت لها آيًّا من أفعالك الوقحة مرة أخرى.. اسمعني يا سيد كويليب، أنا لن أخوض ثانية في هذا الكلام بعد الآن. لكنك ليس لديك أي حق لتفعل ذلك، إننا لا نتدخل في شؤونك، ولا نريد أن نتعامل معك من الأساس، ولن نفعل قط! وليست هذه المرة الأولى لفعلك القبيح، لذا إذا أظهرت لها أيًّا من أفعالك الوقحة، أو أثرت ذعرها أو قلقها مرة أخرى، ستضطرني إلى ضربك بعنف، وسأكون آسفًا على إبراحك ضربًا، بسبب حجمك الضئيل".

لم يتفوه كويليب بأي كلمة، لكنه مشى على مقربة من كيت لدرجة أن عينيه كانتا على مسافة بوصتين أو ثلاث بوصات من وجهه، ينظر إليه بثبات دون أن يطرف له جفن، ثم ابتعد لمسافة دانية دون أن يحيد ببصره، ثم اقترب منه مرة أخرى، ثم ابتعد، وداوم على فعله لنصف دستة من المرات، مثل رأس وهمي شبحي. وقف كيت في مكانه متأهبًا لأي هجوم فوري، لكنه لم يستقبل أي مردود بعد تلك الإيماءات، مجرد أن طقطق أصابعه ثم رحل، اقتادته والدته من فورها بأسرع ما يمكنها، لكنها حتى وإن كانت في خضم الحديث عن أحوال جايكوب الصغير والرضيع، كانت لا تزال تتلفت حولها في ارتياب؛ لتعرف ما إذا كان كويليب يتبعهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل التاسع والأربعون

ربما بعد وقت طويل، وفرت والدة كيت على نفسها عناء النظر إلى الخلف، فلم يكن هناك أبعد من نية السيد كويليب في مطاردتهما، أو اللحاق بها هي وابنها، أو حتى استئناف الشجار الذي تجنباه مبتعدين. مضى في طريقه، يصفر من وقت إلى آخر، يتغنى ببعض الألحان، بوجه هادئ ورباطة جأش غير متناهية الثبات، يمشي مهرولًا إلى بيته، يمتع نفسه برؤية مخاوف وهلع السيدة كويليب، التي لم تسمع عنه أي خبر لمدة ثلاثة أيام وليلتين كاملتين، دون إخطار مسبق أو تنبيه عن غيابه، متخيلًا كم أدى ذلك إلى ارتباكها وهلعها، وتسبب في إصابتها بنوبات إغماء مستمرة، وأطاح بها في قلق وحزن واضطراب.
كانت تلك الاحتمالية طريفة ومفعمة بروح الدعابة، ملائمةً تمامًا لحس القزم الفكاهي، ومسلية له لأبعد الحدود، سار ضاحكًا مقهقهًا حتى سالت دموع عينيه على وجنتيه، لأكثر من مرة، حينما كان يجد نفسه في شارع جانبي، يعبر عن سعادته بصرخة مدوية، ينتفض لها ويفزع كل مارٍ بمفرده، فيسير أمامه ساكن النفس، منعمًا نفسه بالحيوية والسرور لمظهرهم المذعور، ويزداد مرحه، ويكمل سيره سعيدًا مبتهجًا بشكل ملحوظ.
في هذه الحالة من دفقات السعادة التي غمرت روحه، وصل السيد كويليب إلى تاور هيل، حينما رشق ببصره في نافذة غرفة الجلوس في منزله، وجد ضوءًا يشع منها على غير المعتاد في منزله الكئيب. اقترب في توانٍ، واسترق السمع في إهتمام بالغ، حتى تمكن من سماع عدة أصوات تتبادل أطراف الحديث في جدية، حينها لم يستطع تمييز صوت زوجته وحماته فحسب، بل ميز أصوات ألسنة رجال.
صاح القزم الغيور: "ها! ما هذا! هل تستقبلان زوارًا وقتما أكون بالخارج!".
أتى الرد على هيئة سعال مختنق من العلية. تحسس جيوبه بحثًا عن المفتاح، لكنه نساه، فلم يجد أي وسيلة متاحة أمامه، سوى الطرق على الباب.
قال كويليب، بينما كان يختلس النظر عبر ثقب المفتاح: "ضوء في رواق البيت، وطرقة خافتة، ومعذرة يا سيدتي، سألاحقكِ وأتجسس عليكِ خفية دون أي وعي منك. سو هو ([2])".
لكن طرقة خافتة لم تتلقَّ أي انتباه أو رد من الداخل. وبعد طرقة ثانية بالمطرقة، لم تكن أعلى من الأولى، فتح الباب بكل تؤدة وروية من قبل صبي رصيف الميناء، كممه كويليب من فوره بيد، وسحبه عنوة إلى الشارع باليد الأخرى.
همس الصبي: "إنك تخنقني يا سيدي.. اتركني، هلَّا تفعل".
قال كويليب ممتعضًا بنفس طبقة الصوت: "من بالأعلى أيها الكلب؟ قل لي. وإياك أن ترفع صوتك فوق صوت أنفاسك، وإلا خنقتك فعلًا وبكل جدية".
لم يقل الصبي شيئًا، لكنه ضحك ضحكة مختلفة، مشيرًا إلى النافذة، في استمتاع شديد، حينها أمسك كويليب بحلقه، عازمًا على أن ينقل تهديده إلى مرحلة الفعل ويخنقه حتى الموت، ربما حقق تقدمًا كبيرًا في هذا الصدد، وكان على وشك الإقتراب من النهاية، لكن الصبي تملص من قبضة يده برشاقة، وحصن نفسه بالابتعاد، وبعد محاولات عابثة للإمساك به من شعر رأسه، اضطر سيده بعد استنزاف كافة المحاولات إلى اللجوء إلى الحوار.

قال كويليب: "حسنًا! هل ستجيبني؟ وتخبرني بما يحدث بالأعلى؟".
رد الصبي: "إنك لا تدع أي شخص يتكلم. على العموم.. إنهم ها ها ها! إنهم يحسبونك.. إنهم يحسبونك ميتًا ها ها ها!".
صاح كويليب: "ميتًا". عبر عن نشوته بضحكة خبيثة: "لا! قل أمرًا آخر. هل هم؟ هل هم حقًّا يا كلب؟".
رد الصبي الذي كانت في طبيعته الكيد الخبيث وهو الأمر الذي كان أكبر سبب فيه سيده، وقال: "إنهم يحسبون أنك.. أنك غرقت. لأن آخر مرة رآك أحدهم فيها، كنت على حافة الرصيف، لذا يعتقدون أنك سقطت. ها ها ها!".
أضافت احتمالية تأدية دور المتجسس في هذه الظروف العظيمة، وخيبة أملهم جميعًا بعد أن يظهر ثانية حيًّا، سرورًا، انبسطت له أساريره، وأوحت له بأكبر ضربة حظ، وأكثر الفرص مواتية. لم يكن أقل قهقهة من مساعده حامل البشارة، فوقف كلاهما لبضع ثوان، يضحكان ويلهثان ويهزان رأسيهما، إلى جانب العمود، كزوجين لا مثيل لهما من الأوثان الصينية.
قال كويليب، بينما يتجه نحو الباب على أطراف أصابع قدميه: "لا كلمة، لا صوت، لا صرير، ولا حتى خطوة على شبكة عنكبوت.. غرقت يا سيدة كويليب! غرقت!".
فور ما انتهى من كلماته، أطفأ الشمعة، خلع حذاءه، وتلمس طريقه صعودًا أعلى الدرج، تاركًا صديقه الصغير المبتهج في نشوة شقلباته البهلوانية على الرصيف.
كان باب غرفة النوم المطل على الدرج مفتوحًا، فانسل عبره السيد كويليب إلى الداخل، وثبت وراء الباب الواصل بين هذه الغرفة وغرفة الجلوس، حينها كان ذلك الباب مُواربًا من أجل التهوية، ويصدر عنه صوت صرير معتاد، فاستفاد كويليب بالدرجة القصوى من شتى الظروف السانحة لأغراض التجسس، متزودًا بسكين الجيب، فلا يكون على مسمع فقط، بل يكون على مرأى ومسمع مما يتم في الغرفة المجاورة بكل وضوح.
أجال البصر في ذلك المكان، فرأى السيد براس جالسًا على الطاولة، ومعه قلمه وقنينة حبر وأوراق، وقارورة نبيذ الروم المسكر - قارورته الخاصة - ونبيذ جامايكا والماء الساخن والليمون العطر، ومكعبات السكر الأبيض، وكل المستحضرات الملائمة في وفرة، لكن من بين كافة تلك المروحات، لم يَحُزْ شيئًا انتباهه، فقد دهق كأسًا من نبيذ البنش الساخن ذي الرائحة الكريهة، كان في تلك اللحظة يقلبه بالملعقة، غارقًا في التفكير في ادعاء واهٍ لندم عاطفي، يقاوم لكن على نحو ضعيف فرحة مباغتة ومتعة مريحة. على الطاولة نفسها، كانت تجلس السيدة جينيوين، متكئة على كلا مرفقيها، لم تعد ترتشف بالمعلقة من كؤوس الآخرين بشراهة خفية، بل كانت تتجرع بعمق رشفة بعد رشفة من قدح يخصها وحدها، أما ابنتها فتستلقي على كرسي مريح، تهدئ من حالها بكأس أصغر من المشروب نفسه، لم يكن التراب على رأسها، والخيش على ظهرها، متفجعة نادمة حزينة، بل كانت في هيئة أنيقة محتشمة. كان حاضرًا أيضًا رجلان من الميناء وبينهما ماكينة معينة تدعى (ماكينة السحب)، حتى هذين الاثنين ضُيِّفا بقنينة زجاجية، وجلسا يشربان في استمتاع نهم، كان لهما أنفان حمراوان، ووجهان مملوءان بالبثور، ومظهر مؤنس مخمور، زاد حضورهما - بدلًا من أن ينتقص - من مظهر راحة لا جدال فيه، بدا أنه هو السمة المميزة لذلك التجمع.

قال كويليب مغمغمًا: "لو بإمكاني فقط أن أدس السم في شراب الرم والماء لسيدتي العزيزة العجوز، حينها يمكن أن أموت سعيدًا".
قال السيد براس، كاسرًا حاجز الصمت، ورفع عينيه إلى السقف، متنهدًا: "آه! من يعرف! ربما ينظر إلى الأسفل نحونا الآن! من يعرف ربما يتفقدنا بناظريه من.. من مكان أو آخر، ويتأملنا بأعين يقظة! آه! يا ربي!".
هنا، توقف السيد براس عن الحديث ليشرب نصف كأسه، ثم أكمل، وهو ينظر إلى النصف الآخر، وتعتلي وجهه إبتسامة كاسفة.
قال المحامي، هازًّا رأسه: "أستطيع أن أجزم أنني أرى عينيه تتلألآن أسفل مشروبي الكحولي - متى يمكننا أن نراه مرةً أخرى؟ أبدًا أبدًا! دقيقة نكون هنا". - حمل قدحه أمام عينيه: "والدقيقة الأخرى نكون هناك". بلع محتوياته، وضرب نفسه بعنف شديد أسفل صدره بقليل: "في قبر صامت. لذا أعتقد أنه لزام عليَّ أن أشرب نبيذ الرم من أجل أن يرقد في سلام! آه يا ربي! يبدو كأنه حلم".
ومن أجل إختبار حقيقة موقفه مما قاله، دفع السيد براس قدحه نحو السيدة جينيوين لتملأه مرة أخرى، ثم إلتفتَ إلى البحارين الحاضرين.
- إذنْ باء البحث بالفشل؟
- تمامًا يا سيدي. لكنني أود أن أقول إن جسده إذا طفا على سطح الماء في أي مكان، فسيصل إلى الشاطئ في مكان ما حول غرينتش غدًا، وفقا لحركة المد والجزر.. هاه! أليس كذلك يا رفيقي؟
أيد الرجل الآخر كلامه، مضيفًا أنه يترقب أي خبر يصل إليه من المستشفى، فالعديد من المتقاعدين متأهبين لاستقباله وقتما يصل.
قال السيد براس: "إذنْ ليس في اليد حيلة سوى الاستسلام.. لا شيء سوى الاستسلام والانتظار. سنشعر بالراحة إذا عثرنا على جثته، راحة حزينة".
صدَّقت السيدة جينيوين على كلامه في عجل قائلة: "أوه! قطعًا وبلا شك.. إذا حدث وعثرنا على جثته، سنكون متأكدين من موته تمام التأكد".
أمسك السيد سامبسون براس بقلمه، وقال: "فيما يتعلق بالإعلان الوصفي، إنه لمن دواعي سروري أن أتذكر قسمات وجهه. فيما يتعلق بوصف ساقيه...".
قالت السيدة جينيوين: "مقوستان بكل تأكيد".
قال السيد براس بنبرة مخادعة: "هل تعتقدين أنهما كانتا مقوستين؟"، "إنني أعتقد أن بإمكاني رؤيتهما في الشارع متباعدتين للغاية، في سراويل قطنية، منكمشة إلى حد ما، ودون زُنّار. آه! يا لحياتنا التي امتلأت بدموع الوداع.. ها هل سنكتب مقوستين؟".
عقبت السيدة كويليب في حسرة: "أعتقد أنهما كانتا كذلك".
قال براس الذي كان يكتب بينما يتحدث: "حسنًا فلتكونا مقوستين.. إذنْ، رأس ضخم، جسد قصير، ساقان مقوستان...".
قالت السيدة جينيوين مقترحة: "مقوستان جدًّا".
قال براس في ورع: "حسنًا يا سيدتي.. لن نقول مقوستين جدًّا.. دعينا لا نذكر سيئات الميت. لقد رحل يا سيدتي، فلن تكون رجلاه محور تساؤل قط يا سيدتي.. سنكتفي بقول ساقين مقوستين يا سيدة جينيوين".

قالت السيدة العجوز: "حسنًا حسنًا.. ظننت فقط أنك تريد الحقيقة كما هي، هذا كل شيء".
قال كويليب مغمغمًا: "تسلم عيناكِ.. كم أحبكِ! ها هي مرة أخرى، ألا تفعل شيئًا سوى تجرع نبيذ البنش!".
قال المحامي، وهو يضع قلمه، شاربًا محتويات قدحه: "هذه المهمة تبدو كما لو كانت تستحضره أمام عيني مثل شبح والد هاملت، في الملابس التي كان يرتديها في أيام العمل. معطفه، وصدريته، وحذاءه، وجواربه، وسرواله، وقبعته، وفطنته وحسه الفكاهي، وشجاعته، ومظلته.. يتوارد كل شيء أمامي كالرؤى التي كنت أراها في شبابي.. وملابسه الكتانية". نظر السيد براس إلى الحائط مبتسمًا: "ملابسه الكتانية التي امتازت دائمًا بلون خاص، فقد كان هواه وسحره.. كيف أرى ملابسه الكتانية أمام عيني الآن!".
قالت السيدة جينيوين نافذة الصبر: "أعتقد أنه من الأفضل أن تُكمل أيها السيد".
صاح السيد براس: "معكِ حق يا سيدتي.. معكِ حق! يجب ألَّا تخور قوانا مع مرارة غمنا. أخشى أن أزعجك بالمزيد من ذلك قليلًا يا سيدتي.. إن السؤال المطروح الآن.. ماذا عن أنفه".
قالت السيدة جينيوين: "منخار أفطس مفلطح".
صاح كويليب، محركًا رأسه بعنف، لاكما أنفه بقبضة يده: "معقوف! إنه معقوف أيتها العجوز الشمطاء. هل ترينه؟ هل تدعينه أفطس؟ هل تجرأت؟ هاه؟".
صاح براس من منطلق عادته القوية: "أوه! مرحى، مرحى! ممتاز! كم هو مثاليٌّ! إنه أكثر رجل.. أكثر رجل غريب الأطوار على نحو مميز! كم هو مفعم بطاقة مذهلة حينما يفاجئ الناس على حين غرة!".
لم يكترث كويليب مطلقًا بأي من تلك الإطراءات، ولا حتى بالنظرة المريبة الخائفة التي اعتلت وجه المحامي تدريجيًا، ولا بصرخات زوجته وحماته، ولا حتى هرولة الأخيرة من الغرفة، أو إغماء الأولى. فقد ثبت ناظريه على سامبسون براس، دون أن يحيد عنه ولو لوهلة.. شرب محتويات قدحه كاملًا، وزاد عليه ملء قدحين آخرين، ثم أمسك بزجاجته، وتأبطها، وحدجه بأكثر النظرات شزرًا، حينها انتفض من فوره، وقام عن الطاولة، ليلوذ بالفرار.
قال كويليب: "لا! ليس بعد يا سامبسون.. لا! ليس بعد!".
صاح براس، مستعيدًا بهجته إلى حد ما: "أوه! هذا جيد جدًّا في الواقع! ها ها ها! أوه! جيد لأبعد الحدود! لا يوجد رجل آخر على قيد الحياة يمكنه أن يتم الأمر بنجاح هكذا. أصعب موقف للقيام به. يا لها من نفحات فكاهية، دفقات فكاهية عظيمة!".
قال القزم، هازًّا رأسه: "عمت مساء.. ليلة سعيدة".
صاح المحامي، متراجعًا نحو الباب: "ليلة سعيدة يا سيدي! ليلة سعيدة.. وأي ليلة سعيدة.. سعيدة بسبب هذه المناسبة يا سيدي.. إنها المتعة! ها ها ها! أمر مترف، مترف للغاية وبشكل ملحوظ!".
انتظر كويليب حتى تلاشي هتاف السيد براس مع طول المسافة - حيث ظل يهتف ويمدح طوال فترة نزوله الدرج - ومن ثم اتجه صوب الرجلين، اللذين كانا مشدوهين، وتعلو وجهيهما أمارات الغباء، وقد تجمدت أوصالهما من الذهول، وعقدت الدهشة لسانيهما.
قال القزم، وهو يمسك الباب مفتوحًا في صبر تام: "هل كنتما تُنقبان في النهر طوال اليوم أيها السادة؟".

- وبالأمس أيضًا يا سيدي.
- أوه! يا لنفسي العزيزة! ربما عانيتما كثيرًا. صليا كثيرًا لتجدا.. لتجدا الجثة. عمتما مساءً!
نظر الرجلان أحدهما إلى الآخر، وقد بدا أنهما ليس لديهما أي دافع مطلقًا للجدال حول تلك النقطة في ذلك الحين، لذا هرولا مسرعين إلى خارج الغرفة.
على إثر التصفية السريعة، أوصد كويليب الأبواب، بينما لا يزال يتأبط القنينة، وكتفاه مرفوعتان، وبأيد مطوية على صدره، وقف ينظر إلى زوجته الغافلة كالكابوس المترجل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الخمسون

عادةً ما تناقش الخلافات الزوجية من قبل الطرفين المعنيين في شكل حوار، وتتولى السيدة إدارة نصفه على الأقل، لكن السيد والسيدة كويليب كانا إستثناء من القاعدة العامة.. جاءت التعقيبات التي أفادت بها مقتصرة على مناجاة طويلة من السيد، وربما القليل من الملاحظات الاعتراضية التي قالتها السيدة، لكنها لم تكن أكثر من كلمات أحادية المقطع، قيلت بصوت مرتجف وعلى فترات متباعدة، وبنبرة خاضعة ذليلة. خلال هذا الوضع الراهن، لم تجرؤ السيدة كويليب على الصمود لفترة طويلة في مواصلة دفاعها الوديع؛ لأنها بمجرد أن استعادت وعيها وتعافت من نوبة الإغماء، جلست في صمت دامعة، تستمع في خنوع إلى لوم سيدها ومولاها.

جراء ذلك، تحدث السيد كويليب بأقصى سرعة وبحركة مفرطة، مفتعلًا الكثير من الإيماءات المشوهة بملامحه والحركات المرعبة بأطرافه، لدرجة جعلت زوجته - على الرغم من اعتيادها الجيد على مهارته وكفاءته في هذه النواحي - انكمشت في نفسها في فزع، تتملكها حالة من التأهب الهلوع. لكن نبيذ جامايكا والرم وحرارتهما العالية، وانتشاءه بتخييب الآمال، وإحباط الجميع، هدأوا من اهتياجه العنيف، وقللوا من حنقه الشديد، روَّح عن نفسه وانتشى، فاعترته روح الفكاهة، ووصل ببطء إلى نقطة عندها ظل في مزاج حسن.

قال كويليب: "إذن لقد ظننتِ أنني كنت ميتًا، ورحلتُ عن الدنيا، أليس كذلك؟ لقد ظننت أنك أصبحت أرملة ها؟ ها ها ها! أيتها المرأة المغناج".

ردت زوجته: "نعم، هذا ما حدث بالضبط.. لكن يا كوبليب.. أنا آسفة للغاية!".

صاح القزم: "بالطبع آسفة! من يشك في ذلك! من يشك في أنكِ آسفة! من يشك في أنكِ آسفة للغاية!".

قالت زوجته: "أنا لا أقصد أنني آسفة أنك أتيت إلى المنزل حيًّا ومنعمًا بالصحة.. أنا آسفة؛ لأنه كان لزامًا عليَّ أن أتمسك بإيماني بعودتك. إنني سعيدة لرؤيتك يا كويليب، إنني سعيدة فعلًا".

في الحقيقة، بدت السيدة كويليب سعيدة فعلًا لرؤية سيدها بقدرٍ فاق كل التوقعات، برهنت على صدق إحساسها بدرجة كبيرة من الإهتمام بسلامته، وبكل الأفعال التي تؤخذ بعين الإعتبار على محمل أنها غير قابلة للتفسير. أما بالنسبة إلى كويليب، فلم تترك هذه السلوكيات أي انطباع في نفسه، أكثر من أنه طقطق أصابعه بالقرب من عيني زوجته، تعتلي وجهه ابتسامات متنوعة، تتراوح بين الإنتصار والسخرية والتهكم.

سألت المرأة الشابة المسكينة وهي تشهق أثناء بكائها: "كيف ابتعدت طوال هذه الفترة دون أن تقول لي أي كلمة، أو تدعني أسمع أي خبر عنك، أو أعرف أي شيء حيالك؟ كيف يمكن أن تكون قاسيًا إلى هذا الحد يا كويليب؟".

صاح القزم: "كيف أكون قاسيًا إلى هذا الحد! قاسٍ! لأنني كنت في مزاج حسن، مثلما أنا في مزاج حسن الآن، وأحب روح الدعابة، ثم إنه بإمكاني أن أكون قاسيًا وقتما أشاء. على أي حال، سأرحل مرة أخرى".

- لا! ليس مجددًا!

"بلى! مجددًا ومجددًا! وسأرحل الآن! ومباشرةً. أعني أنني سأرحل لأعيش في المكان الذي يحلو لي، ويدلني عليه الهوى.. سأعيش عند رصيف الميناء.. في بيت الحوسبة.. وأكون عازبًا مرحًا. لقد كنتِ أرملة في الظن.."، صاح القزم: "تبًّا! سأكون عازبًا في الواقع".
قالت زوجته، وهي تشهق منتحبة: "لا يمكن أن تكون جادًّا يا كويليب" ـ
قال كويليب، مبتهجًا لخطئه: "بلى! دعيني أخبركِ بالأمر الواقع! سأكون عازبًا، شيطانًا عازبًا يفعل ما يحلو له دون أي عواقب، وسأجعل من بيت الحوسبة شقة عزوبية، وخلال ذلك الوقت، أريدكِ أن تقتربي من هناك إذا كنت تجرئين. آه! وخذي بعين الإعتبار أيضًا أنني لن أتردد عليكِ في ساعات محددة مرة أخرى، بل سآتي في غير الأوان؛ لأنني سأتجسس عليكِ، وسآتي وأذهب مثل الخلد أو حتى ابن العرس. يا توم سكوت! أين أنت يا توم سكوت؟".
صاح الصبي، بينما دلف كويليب إلى النافذة: "أنا هنا يا سيدي".
قال القزم: "حسنًا! انتظر عندك أيها الكلب لتحمل حقيبة السيد العازب.. احزميها يا سيدة كويليب، واطرقي باب عزيزتي الشمطاء لتساعدك، هيا! اطرقي عليها الباب. مرحبًا أيتها العجوز! مرحبًا!".
مع هذا الهتاف، أمسك السيد كويليب بمذكِّي النيران، وسارع نحو باب غرفة نوم السيدة الطيبة، يطرق عليه بعنف، حتى استيقظت السيدة في فزع يتعذر وصفه، تعتقد أن صهرها الودود الظريف جاء عازمًا على قتلها؛ لتسوية الأمر، وللأخذ بثأر ساقيه التي شوهت وصفهما. هيمنت الفكرة على عقلها، ورزحت تحت تأثيرها، فلم يفت على استيقاظها لحظات، حتى صارت تصرخ بشدة، مهرولة نحو النافذة، وكانت ستقفز منها في لمح البصر، نحو منور مجاور، لولا أن ابنتها أسرعت لتحررها من الأوهام، وطلبت منها مساعدتها. بعد أن اطمأنت السيدة جينبوين إلى حدٍ ما عندما عرفت نوع المساعدة التي طلب منها تقديمها، خرجت عليهما في مِبْذَلها، باتت الأم وابنتها على حدٍ سواء، ترتجفان من الرعب والبرد، فقد غسق الليل الآن وصار في جوفه الأخير، انصاعتا لتوجيهات كويليب في التو واللحظة، في صمت مطيع. ماطل في استعدادات رحيله قدر ما تمكن؛ ومن أجل بث راحةٍ أكبر فيهما، ظل الرجل النبيل غريب الأطوار طوال الوقت يراقب حزم ملابسه، وبعد أن أضاف بيديه، صحنًا وسكينًا وشوكة وملعقة وفنجان شاي وطبق الفنجان وغيرها من الأغراض الصغيرة المنزلية على الشاكلة نفسها، شد حزامًا على حقيبته، ومن ثم حملها على كتفه، ومضى في طريقه دون أن ينطق بأي كلمة أخرى، متأبطًا قنينة الرم - التي لم ينزلها قط طوال تلك المدة ولو لمرة واحدة - ويشدد عليها بإحكام أسفل ذراعه، فور وصوله إلى الشارع، سلَّم حمله الثقيل لتوم سكوت، كي يبقى تحت رعايته، متناولًا جرعة من شراب قنينته المسكر من أجل انتشائه الخاص، وصفع الصبي صفعة خفيفة على رأسه من أجل تسلية نفسه، وهكذا، اتخذ كويليب الطريق نحو الرصيف في تأنٍّ وتروٍّ، حتى وصل قرابة الساعة الثالثة أو الرابعة فجرًا.
قال كويليب، حينما وصل إلى بيت الحوسبة الخشبي، وفتح الباب بمفتاح كان معه: "حجيرتي ومستكنِّي! يا له من مستكنٍّ دافئ محجوب عن الأنظار، أنيق ومريح! أيقظني الساعة الثامنة صباحًا أيها الكلب".
ودون ذكر المزيد من عبارات الوداع أو الخوض في نقاش، انتشل الحقيبة، أغلق الباب فور دخوله، صعد على المكتب، ولف نفسه باستدارة مثل القنفذ، في ذريعة قديمة، وسرعان ما نام.

في الصباح، وفي الوقت المحدد بالضبط أيقِظ، ولكن بصعوبة شديدة، بسبب ما تعرض له آنفًا من مشقة في الأيام السابقة. حينما استيقظ كويليب أمر توم سكوت، بأن يشعل النيران في الساحة باستخدام حطام أخشاب المراكب، وأن يعد له الإفطار والقهوة، ومن أجل أن يجهز مائدة أفضل للإفطار، أعطاه القليل من المال، ليشتري اللفائف الساخنة، والزبد، والسُّكَّر، وسمك الرنجة المدخن، وغيرها من مواد التدبير المنزلي، وفي غضون دقائق قليلة، كانت وجبته موضوعة على الطاولة يتصاعد منها البخار. تلذذ كويليب بهذه الراحة الثرية المترفة، واستمتع بطعامه الشهي، وأصبح راضيًا تمامًا مع هذا النمط الحر الهمجي من الحياة - لطالما عاشه وتعايش به، وقتما تسنح له الفرص، كلما شاء أن ينتفع بها أو أن يغتنمها، فقد كان بالنسبة له بمثابة حرية سائغة، من القيود الزوجية، ووسيلة لإبقاء السيدة كويليب ووالدتها في حالة من الاهتياج والترقب المستمر - بعد أن أنهى وجبته، كرَّس نفسه لتحسين مأواه، لجعله أكثر راحة ورحابة.

وبناءً عليه، انطلق إلى مكان مجاور، تبيع فيه المحلات البحرية أراجيح شبكية، فاشترى له أرجوحة مستعملة، وجعلها تتدلى من سقف بيت الحوسبة على غرار فعل الملاحين. إضافة إلى أنه نصَّب مدخنة صدئة على موقد سفينة قديم في حجيرته المتعفنة نفسها؛ لتنقل الدخان عبر السقف.. وهكذا، وبعد أن انتهى من هذه الترتيبات، وقف متفحصًا إياها، تغمره فرحة شاملة.

قال القزم، وهو يرمق تجهيزات إقامته بنظرة غرامية: "أصبح لديَّ منزل ريفي، بمعزل عن الناس مثل روبنسون كروز ([3])، مسكن منفرد، في منطقة معزولة، على جزيرة مقفرة، أصبح بإمكاني أن أكون لوحدي تمامًا، حينما يكون لدي عمل لأنجزه، أصبح بإمكاني أن أكون آمنًا وفي منأى عن الجواسيس ومسترقي السمع. لا يتواجد أحد بالقرب مني هنا، سوى الفئران، وهي رفقة سرية متخفية. سأكون مرحًا مثل الشاب الغرير بين هؤلاء النبلاء. حاليًا حريٌّ بي أن أبحث عن شخص يمكنه اكتساب حب كريستوفر وأوسوس له، لأدفع به إلى الهلاك.. ها ها ها! العمل.. العمل، يجب أن نأخذ العمل بعين الإعتبار في خضم هذه السعادة، أكاد أجزم أن الوقت يمر بسرعة مهولة هذا الصباح".

بإلزام توم سكوت بانتظار عودته، وعدم الوقوف على رأسه، أو تأدية أي حركات بهلوانية، أو المشي على يديه خلال ذلك الوقت، والانهيال عليه بالوعيد بالعذاب الأليم المستمر، ألقى القزم نفسه في قارب وعبر إلى الجانب الآخر من النهر، ومن ثمَّ أسرع مشيًا على الأقدام، ووصل إلى منزل الترفيه المعتاد للسيد سويفيلر في بيفيس ماركس، ووجده سيدًا نبيلًا يجلس بمفرده ينتظر الغداء في الردهة المعتمة.

قال القزم، مقحمًا رأسه من الباب: "يا ديك.. يا حيواني الأليف.. يا تلميذي النجيب.. يا قرة عيني.. أهلًا أهلًا!".

رد السيد سويفيلر: "أنت هنا! كيف حالك؟".

قال كويليب: "بل كيف حال عزيزي ديك؟ كيف حال صفوة الكتَّاب وقشدتهم؟ ها؟".

رد السيد سويفيلر: "رائب.. في بداية تحولي إلى جبن في الواقع".

قال القزم متقدمًا: "ما خطبك؟ ما الأمر؟ هل برهنت سالي على قساوتها؟ من بين جميع الفتيات الفطنات، لا توجد أي فتاة تشبه الـ.. ما الأمر؟ ما خطبك يا ديك ها!".

رد السيد سويفيلر في ثقل شديد، وهو يتناول غداءه: "قطعًا لا توجد فتاة تشبهها، إنها القط الفرعوني، إنها سالي براس".
قال كويليب، وهو يسحب كرسيًا: "إنك لست على ما يرام.. ما الخطب؟".
رد ديك: "إن القانون لا يتوافق معي، إنه ليس مثريًا بما يكفي، علاوةً على أن به الكثير من الحبس. لقد كنت أفكر في الهروب".
قال القزم: "باااه! وإلى أين ستهرب يا ديك؟".
رد السيد سويفيلر: "لا أعرف! ربما صوب شمال لندن، إلى (هاي غيث)، ربما تقرع الأجراس - فلتعد ثانية يا سويفيلر، عمدة لندن - كان اسم (ويتنجتون) هو ديك. كم أتمنى أن تكون القطط كلها أكثر ندرةً".
نظر كويليب إلى رفيقه، ثم وجه بصره إلى الأعلى، في تعبير هزلي ينم عن الفضول، منتظرًا شرحه الإضافي في صبر، ومع ذلك لم يَبدُ على السيد سويفيلر أنه في عجلة من أمره لتقديم أي شرح لما قاله أو ذكر أي كلمة أخرى، مكث يتناول غداءه في وقت طويل وفي صمت مخيم.. أبعد الطبق أخيرًا، أسند ظهره إلى الكرسي، طوى ذراعيه، يحدق في النيران في أسف شديد، حينها كان بها بعض أعقاب السجائر الدخنة، التي تفوح بعبقها الزكي.
إلتفتَ ديك أخير ا إلى القزم وقال: "ربما سوف تريد قطعة من الكعكة. سيكون مرحبًا بك تمامًا. حتمًا يجب أن يكون مرحبًا بك، فإنها من صنعك".
قال كويليب: "ماذا تقصد؟" -
تمثَّل رد السيد سويفيلر في أنه أخرج من جيبه لفافة صغيرة دهنية للغاية، فتحها ببطء، وكشف عن قطعة صغيرة من كعكة برقوق، يتسبب مظهرها في عسر الهضم، محفوفة بمعجون من السُّكَّر بعمق بوصة ونصف البوصة.
قال السيد سويفيلر مستجوبًا: "أتستطيع قول ماذا كانت هذه؟".
أجاب القزم مبتسمًا: "تبدو مثل كعكة عروس".
سأل السيد سويفيلر، وهو يفرك الحلوى أمام أنفه في هدوء مخيف:
"ولمَن تظن أنها كانت؟ لمن؟".
- ليس...
قال ديك: "نعم! بالضبط. لا داعي لذكر اسمها. لا يوجد لاسمها محل الآن. أصبح اسمها تشيجز، صوفي تشيجز، لم تحبني كرجل لم يحب أنه لم يكن لديه ساق خشبية، وآه يا قلبي! انفطر قلبي لحب صوفي تشيجز".
مع هذا التعديل المرتجل للقصيدة القصصية ([4]) لتكييفها مع الظرف المحزن لحالته، طوى السيد سويفيلر اللفافة مرة أخرى، وضربها براحة يديه، فصارت مسطحة تمامًا، ووكزها كطعنة عنيفة إلى صدره، وزَرَّ معطفه فوقها، ثم طوى ذراعيه فوق كل هذا.
قال ديك: "الآن! آمل أن تكون راضيًا يا سيدي.. وآمل أن يكون فريد راضيًا أيضًا. لقد كنتما شريكين في هذا الأذى، وآمل أن تكون النتيجة قد نالت إعجابكما. هذا هو الإنتصار الذي كان يجب أن يشملني في النهاية. أليس كذلك؟ إنها مثل رقصة الريف، حيث يوجد سيدان لسيدة

واحدة، ويظفر بها واحد منهما، في حين أن الآخر يعرج وراءهما ليتبين مظهرهما. لكنه القدر في النهاية، وأحسب أن قدري ساحق".
تمويهًا على فرحته السرية بما حل بالسيد سويفيلر وهزيمته، لجأ دانيال كويليب إلى أضمن وسيلة لتهدئته، فقرع الجرس، وطلب تزويده بالنبيذ الوردي في الحال - أو على الأغلب كان هذا هو طلبه المعتاد - دهقه بكل براعة، داعيًا السيد سويفيلر إلى مشاركته في نخب مختلف ساخر من تشيجز، ونخب متنوع مُؤبن ومادح ومشيد بسعادة الرجال العزَّاب. انعكست الانطباعات التي خلقتها تلك الأنخاب على تفكير السيد سويفيلر، فرأى أن المرء لا يمكن أن يعارض مصيره أو قدره بأي حال، وفي غضون وقت قصير جدًّا، ارتفعت معنوياته بشكل مدهش، لدرجة مكنته من إعطاء القزم إيصال استلام الكعكة، التي على ما يبدو أنه أحضرها إلى بيفيس ماركس اثنان من خادمي الآنسة واكلز، وسلماها عند باب المكتب مع الكثير من الضحك والفرح.
قال كويليب: "اسمع! إن المهم هو من يضحك أخيرًا، وأحسب أن دورنا في الضحك قريب.. هذا يذكرني بـ.. ألم تتحدث عن شاب عائلة ترينت.. أين هو؟".
أوضح السيد سويفيلر أن صديقه المحترم قد قُبِل مؤخرًا مسؤولًا في مقمرة متنقلة، وأنه غائب في ذاك الوقت لأنه في جولة مهنية بين الأرواح المغامرة في بريطانيا العظمى.
قال القزم: "هذا أمر مؤسف. في الواقع.. لقد جئت لأسألك عنه. لقد خطر على بالي فكرة يا ديك.. بالمناسبة هل من الممكن أن يكون صديقك عل..".
- أي صديق؟
- القاطن في الطابق الأول.
- مَن!
- صديقك يا ديك، الساكن في الطابق الأول، هل من الممكن أن يكون على معرفة به.
قال السيد سويفيلر، هازًّا رأسه: "لا، لا يعرفه".
قال كويليب: "بالتأكيد لا يعرفه؛ لأنه لم يره قط.. لكن إذا جمعناهما معًا، من يدري يا ديك! أليس من الممكن إذا تعرَّف فريد عليه بشكل صحيح، يخدمنا تقريبًا مثل نيل الصغيرة وجدها.. من يدري يا ديك! من الممكن أن هذا الرفيق الشاب سيجني الثروة، ومن خلاله تجني ثروتك. هاه؟".
قال السيد سويفيلر: "في الواقع.. لقد جُمعا معًا سابقًا".
صاح القزم، ناظرًا إلى رفيقه بصورة مريبة يملؤها الشك: "جُمعا معًا! ومن جمعهما يا ديك؟".
قال ديك، وقد إلتهمه الارتياب: "لقد جُمعا من خلالي.. ألم أذكر لك في آخر مرة تقابلنا فيها هناك؟".
رد القزم: "أنت تعلم أنك لم تفعل".
قال ديك: "أحسب أنك على حق.. لا! لم أفعل.. لقد تذكرت. أوه! نعم! لقد جمعتهما معًا ذاك اليوم، بناء على طلب فريد".
- وما الطائل من ذلك؟ ها! ماذا حدث؟
- بدلًا من أن يجهش صديقي بالبكاء، حينما علم من هو فريد، احتضنه في لطف شديد، وأخبره أنه كان جده، أو جدته المتنكرة - ذلك ما توقعناه - ثم اعتراه حزن هائل، ودعاه بمختلف الألفاظ.. وقال: إن الفقر الذي تعرضت إليه نيل الصغيرة والرجل العجوزِ هو خطؤه إلى حد

كبير، ولم يلمح أبدًا إلى دعوتنا لشرب أي شيء.. بل أخرجنا من الغرفة بدلًا من ذلك في وقت قصير جدًّا".
قال القزم متدبرًا: "هذا غريب!".
استأنف ديك قائلًا في هدوء: "هذا ما قاله أحدنا للآخر في ذلك الوقت.. إن هذا صحيح تمامًا".
في ذلك الحين، بدا كويليب مشدوهًا تمامًا بسبب تلك المعلومات، جلس في سكينة يطيل التفكير، غالبًا كان يرفع عينيه ليتفحص تعبيرات وجه السيد سويفيلر في حدة. يريد أن يستنبط منها أي معلومة إضافية، لكنه لم يجد في دلالتها أي إشارة أو علامة تدفعه إلى الإعتقاد في أن ما حدَّثه به قد كان كذبًا.. حينها كان من الواضح أن السيد سويفيلر غارق في تأملاته، يتنهد بعمق، وقد جاشت نفسه بالعاطفة حيال السيدة تشيجز، لذا فض كويليب لقاءه به سريعًا، تاركًا الثاكل لحبيبته في خضم اجترار أحزانه.
قال القزم مخاطبًا نفسه، بينما كان يسير في الشوارع بمفرده: "لقد جُمعتما معًا. أليس كذلك؟ يحاول صديقي أن يسبقني بخطوة. لكن، لا يهم، لقد قادته إلى اللاشيء، لم يَجنِ أي طائل. وبالتالي، ما فعله ليس بالأمر العظيم، وهذا ما يجب أن أضعه في الإعتبار.. إنني سعيدٌ جدًّا لأنه خسر محبوبته. ها ها ها! هذا الأبله لا يجب أن يترك عمله بالقانون في الوقت الحالي؛ لأنه بوجوده هناك سيخدم أغراضي الخاصة في أي وقت، علاوةً على أنه جاسوس جيد على براس دون أي وعي منه، يخبرني بكل شيء يسمعه أو يراه وقتما تدهق الكؤوس، إنك مفيد لي جدًّا يا ديك، ولا تكلف شيئًا سوى القليل من الإنعام عليك بالأكل أو بالشرب بين الحين والآخر. لست متأكدًا من أنه لن يكون من المفيد قبل مضي فترة طويلة، أن ننسب الفضل إلى ديك، لاكتشاف إصرارك على الطفلة أيها الغريب، لكننا في الوقت الحاضر سنبقى أفضل صديقين في العالم، بسبب معلوماتك الثرية".
هكذا، سار كويليب في طريقه، لاهثًا، يعرض أفكاره على نفسه، ويتدبر كامل الأمر من منطلق تفكيره، عَبَرَ نهر التايمز مرةً أخرى، وأغلق على نفسه حجيرة العازب، التي لا يمكن لأي شخص شريف أن يتقبلها؛ فقد ساهمت المدخنة المنتصبة حديثًا تقريبًا في ترسيب الدخان داخل الغرفة بدلًا من إخراجه.. ذلك فإن مثل تلك الأمور الباعثة على الغثيان، بدلًا من أن تثير اشمئزاز القزم من محل إقامته الجديد، جعلته مكانًا أكثر ملاءمة لمزاجه. بعد أن تناول عشاءه الذي طلبه من الحانة، أشعل غليونه، وأخذ يدخن وينفخ الدخان قبالة المدخنة، حتى لم يعد يظهر أي شيء منه وسط الدخان سوى عينين حمراوين ملتهبتين بشدة، ورؤية ضبابية مشوشة بين الحين والآخر لوجهه ورأسه، حينما كانت تنتابه نوبه سعال حادة، كانت تحرك ذرات الدخان، فينقشع ركام السحب الدخانية التي حجبتهما عن الرؤية. في مثل هذا الجو، الذي يكاد أن يخنق أي شخص آخر، مرَّ السيد كويليب بأسعد لحظات مسائه في فرح غامر، يبعث النشوة في نفسه طوال الوقت إما بتدخين غليونه، وإما بشرب نبيذ الرم من قنينته، وأحيانًا يسلي نفسه بإطلاق عواء رخيم، يقصد به الغمغمة، لكنه في الواقع ليس به أدنى تشابه على الإطلاق بأي مقطع من أي قطعة موسيقية لها كلمات أو اقتصرت على عزف الآلات، ألفها بشر. ظل الحال على هذا المنوال حتى منتصف الليل تقريبًا، فصعد إلى أرجوحته منتشيًّا، وفي أعلى منازل الرضى.
كان أول صوت وقع على مسامعه في الصباح الباكر في الغرفة، حينما فتح عينيه إلى نصفهما، ووجد نفسه على غير المعتاد قريبًا من السقف، مستمتعًا بفكرة ناعسة، يعتقد أنه ربما تحول إلى

حشرة طائرة أو ذبابة زرقاء ضخمة أثناء الليل، هو صوت بكاء ونحيب مختنق. شَخَصَ بِبصره في حذر تام إلى جانب أرجوحته، فرأى السيدة كويليب، بعد أن أطال النظر إليها في صمت، صاح فجأة في عنف شديد: "مرحبًا!".
صرخت الزوجة الشابة المسكينة: "أوه.. كويليب! لقد أفزعتني".
قال القزم: "نعم هذا ما كنت أقصد فعله بالضبط أيتها المرأة المغناج.. ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟ ماذا تريدين من هنا؟ أنا ميت. ألست كذلك؟".
قالت السيدة كويليب، وهي تشهق في نحيبها: "أوه! من فضلك عد إلى المنزل. أرجوك عد إلى المنزل. لن نفعل ذلك أبدًا بعد الآن يا كويليب. فضلًا عن أنه لم يكن سوى خطأ نبع من قلقنا".
قال القزم مبتسمًا: "خطأ نبع من قلقكِ.. نعم، بالطبع أنا أعلم ذلك. نابع من قلقكِ على موتي. دعيني أقل لكِ أمرًا.. سآتي إلى المنزل وقتما أشاء، وأرحل عنه وقتما أريد، سأكون السراب من الآن، سأكون وهج المستنقع، طيفًا يحوم هنا وهناك، يتراقص حولكِ دائمًا، يتواجد حيث لن يخطر على بالك، بداية من آخر الأماكن التي تتوقعين فيها ظهوري، سأبقيكِ في حالة مستمرة من القلق وعدم الراحة. هلَّا رحلتِ؟".
- حينها تجرأت السيدة كويليب وأومأت إليه تتضرع وتتوسل إليه.
صرخ القزم: "لقد قلت لكِ لا! لا! إذا تجرأتِ على المجيء إلى هنا مرةً أخرى، إذا ما لم يتم استدعاؤكِ، فسأجعل جميع كلاب الحراسة في الساحة أكملها، تجري وراءكِ وتعضكِ.. لديَّ هنا أشْراك للرجال، سأعدلها وأحسنها بكل مكر ودهاء لتكون مصائد للنساء.. سيكون لديَّ بنادق زنبركية، ستنفجر فيكِ، حينما تدوسين على الأسلاك، وتفتتكِ إلى فتات صغير.. ها! هلَّا رحلتِ؟".
قالت زوجته في جدية: "اغفر لي! أرجوك عد إلى المنزل".
جمجع كويليب: "لاااااااا! لن أعود حتى أستمتع بوقتي كاملًا. وبعد ذلك سأعود مرةً أخرى وقتما أشاء. ولن أكون عرضة لمحاسبة أي أحد بسبب أوقات ذهابي أو عودتي. هل ترين الباب هناك؟ إرحلي!".
قال السيد كويليب كلمته الأخيرة بصوت جهوري للغاية، مفتعلًا إيماءة مفاجئة، وهو مغطى بالذريعة القديمة مثلما كان، كأنه سينهض من أرجوحته؛ ويجبر زوجته بنفسه على العودة إلى المنزل ثانيةً عبر الشوارع العامة، فانطلقت كالسهم من فورها. مد مولاها القدير رقبته وأطال النظر إليها حتى رآها قد عبرت الساحة، حينها لم يشعر بأي أسف قط، فقد أُتيحت له الفرصة للتأكيد على وجهة نظره وعلى قدسية قلعته، ومن ثم انتابته نوبة ضحك غير عادية، واستلقى في وضع النوم مرةً أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الحادي والخمسون

نام اللطيف رقيق القلب، صاحب حجيرة العازب، وسط أجواء مشابهة له طبعًا وطِباعًا، نام حتى وقت متأخر من النهار، وسط المطر والطين والقاذورات والأوساخ والرطوبة وركام الضباب والفئران، حينما استيقظ، استدعى خادمه توم سكوت؛ ليساعده على النهوض، ويعد له الإفطار، تخلى عن أريكته، وجعل منها مرحاضًا، عندما أنهى عمله، والتهم إفطاره، ذهب إلى بيفيس ماركس.
في الواقع لم تكن هذه الزيارة للسيد سويفيلر، بل كانت لصديقه وصاحب عمله السيد سامبسون براس. حينما وصل وجد أن كلا السيدين ليسا في المنزل، حتى نور الحياة والقانون الآنسة براس، لم تكن في مكتبها أيضًا. لكن غيابهم الجماعي، وفرارهم المشترك من المكتب، أفصح عنه لجميع الوافدين، من خلال قصاصة ورقية مكتوبة بخط السيد سويفيلر، أُرفقت بمقبض القارع، لم تقدم للقارئ أي مدلول عن أي ساعة في اليوم قد عُلقت، لذا ما زُود به كانت معلومات غامضة غير مرضية بالكلية، فما كُتب أفاد بأن السيد سيعود في غضون ساعة.
قال القزم محدثًا نفسه، وهو يطرق باب المنزل: "أظن أن هناك خادمة، ربما ستخبرني".
بعد مرور وقت طويل بما فيه الكفاية، فُتح الباب، وبادر بالكلام في الحال صوت صغير يقول: "أوه! هل ستترك بطاقة أم رسالة؟".
نظر القزم إلى الأسفل نحو الخادمة الصغيرة - كان حادثًا جديدًا من نوعه تمامًا بالنسبة له - وقال: "ماذا؟".
ردت الطفلة - التي أجرت سابقًا حديثًا مع السيد سويفيلر خلال مقابلتهما الأولى - مرة أخرى، وقالت: "أوه! هل ستترك بطاقة أم رسالة؟".
دفعها القزم أمامه إلى داخل المكتب وقال: "سأكتب له ملاحظة.. وأعلمي بها سيدكِ فور وصوله إلى المنزل مباشرة". تسلق السيد كويليب مقعدًا عاليًا؛ كي يكتب الملاحظة، حينها فعلت الخادمة الصغيرة ما أوصت به في حرص تام، ففي مثل هذه الحالات الطارئة، تقف متأهبة، وتنظر بعينين محملقتين، فإذا اختلس مثقال رقاقة حتى، تهرع إلى الشارع وتطلب النجدة.
سرعان ما أنهى السيد كويليب كتابة ملاحظته - فقد كانت قصيرة جدًا -، طوى الورقة، رفع بصره، فرأى نظرة الخادمة الصغيرة له، فحملق إليها مطولًا وفي جدية.
قال القزم، وهو يبلل الورقة، وتعتلي وجهه كشرة مرعبة: "كيف حالكِ؟".
ربما ارتعدت الخادمة الصغيرة من نظرته، لدرجة أنها لم تنطق بأي رد مسموع، لكن من حركة شفتيها تبين أنها تردد داخليًا الجملة نفسها التي تتعلق بترك ملاحظة أم رسالة.
قال كويليب بضحكة مكتومة: "هل يستغلونكِ هنا؟ هل سيدتكِ من التتار؟".
ردًا على هذا الاستجواب الأخير، لوت الخادمة الصغيرة فمها وأحكمت غلقه، وأومأت في حدة، بنظرة دهاء إلى أبعد الحدود ممزوجة بخوف، سواء كان هناك أي شيء في تعبيرها الماكر المتكتم ومراوغتها هو ما أبهر السيد كويليب، أو أي شيء آخر تمثّل في تعبيرات ملامحها في تلك اللحظة هو ما جذب انتباهه، أو أن ما حدث له كان هوى مفاجئًا ممتعًا بسبب تحديق الخادمة الصغيرة

مليًّا في قسمات وجهه، فقد سند بمرفقيه بزاوية قائمة على المكتب في حزم، وضغط على وجنتيه بيديه، ونظر إليها في ثبات دون أن يحرك جفنًا.
قال بعد أن هيمن الصمت طويلًا، وهو يمسد ذقته: "من أين أتيتِ؟".
- لا أعرف.
- ما اسمكِ؟
- لا شيء
غمغم كويليب: "هراء! بماذا تناديكِ سيدتكِ عندما تحتاج إليكِ؟".
قالت الطفلة: "الشيطانة الصغيرة".
وأضافت في اللحظة نفسها، كما لو كانت تخشى أي استجواب آخر قائلةً: "أرجوك هل ستترك بطاقة أم رسالة؟".
قد تكون هذه الإجابة غير العادية بطبيعة الحال مثيرة للمزيد من الاستفسارات. ومع ذلك، لم ينطق كويليب بأي كلمة أخرى، كل ما فعل أن حاد ببصره عن الخادمة الصغيرة، يمسد ذقته غارقًا في تفكيره أكثر من قبل، ثم انحنى على ملاحظته يدقق فيها على مسافة قصيرة جدًّا وبدقة متناهية، ثم نظر إليها سرًّا ولكن بقوة من أسفل حاجبيه، كانت نتيجة استطلاعه السري أنه ظلل على وجهه بيديه، يكتم ضحكاته بخبث ودون إصدار أي قهقهة، لدرجة أن أوردته كادت أن تنفجر بسببها. سحب قبعته على جبينه لإخفاء طربه وأثر الضحك عليه، ثم ألقى بالرسالة على الطفلة، وانسحب على عجل.
بمجرد أن وصل إلى الشارع، كان هناك دافع خفيٌّ وراء ضحكاته، ظل يضحك، ويمسك بجانبيه من كثرة الضحك، ثم يضحك ثانية، يحاول أن يختلس النظر من خلال تفاريج الدرابزين المغبر القاتم، يريد أن يلمح الطفلة مرة أخرى، حتى خار منهك القوى. في النهاية، عاد أخيرًا إلى حانة البرية، على مدى طلقة بندقية من مأوى العزوبة، وطلب إعداد الشاي في ذلك الكوخ الصيفي الخشبي بعد الظهر لثلاثة أشخاص، فقد كان فحوى ملاحظته وغرض زيارته هو دعوة الآنسة براس وشقيقها لمشاركته الترفيه والمقبلات في هذا المكان.
لم يكن هذا الطقس على وجه التحديد هو ما يذهب خلاله الناس إلى الأكواخ الصيفية لشرب الشاي؛ فقد كانت الأكواخ مشبعة بالعفن في كل ركن، مطلة على الجداول الموحلة ومياه النهر العظيم المنخفضة. ومع ذلك، أمر السيد كويليب في هذه الخلوة بتحضير وجبات طعام خفيفة باردة.. وفي الموعد المحدد، تحت السقف المعطوب الراشح، استقبل السيد سامبسون وشقيقته سالي.
قال كويليب مبتسمًا: "أعلم أنك مغرم بجمال الطبيعة، هل تراه ساحرًا يا براس؟ هل تراه غير عادي وغير مبهج وبسيطًا؟".
رد المحامي: "إنه مبهج حقًّا يا سيدي".
قال كويليب: "باردًا؟".
رد براس، بينما تصطك أسنانه داخل فمه قائلًا: "لـ لـ لا! ليس بالتحديد يا سيدي حسب ما أعتقد".
قال كويليب: "ربما رطبًا قليلًا ويسبب القشعريرة؟".

رد براس: "رطبًا فقط يا سيدي، لكن بالدرجة التي يبتهج لها المرء.. لا أكثر من ذلك يا سيدي، لا أكثر".
قال القزم المبتهج: "وماذا عن سالي؟ هل يعجبها المكان؟".
ردت السيدة صاحبة العقل الحكيم صعب المراس: "سيعجبها أكثر حينما تشرب الشاي، لذا دعنا نتناوله، ولا تزعجنا".
صاح القزم، وهو يفرد ذراعيه، كما لو كان على وشك احتضانها: "سالي الجميلة اللطيفة الفاتنة! سالي القوية".
قال السيد براس يناجيه: "إنه رجل رائع حقًّا! إنه تروبادور، كما تعلمين.. إنه حقًّا تروبادور ([5])!".
لُفظت هذه التعبيرات المادحة كأنها عبارات تُردد دون معنى أو شعور؛ ففضلًا عن رأس المحامي البائس الذي كان يرتجف من البرد، تبلل كله فيما بعد، لدرجة جعلته يود لو يقدم طواعية بعض التضحيات المالية، إذا صار بإمكانه فقط تحويل مكانه الحالي قارس البرودة إلى غرفة دافئة، ويجفف نفسه أمام النيران.
أما كويليب، فبخلاف إشباعه لنزواته الشيطانية، دان لسامبسون ببعض الإمتنان؛ لدوره في مشهد الحداد الذي كان فيه شاهدًا متخفيًا، معقبًا على كل أمارات القلق ببهجة فاقت كل التعبيرات، مستمدًّا منها متعة سرية، لا يمكن أن تضفيها عليه مأدبة غنية غالية.
من الجدير بالذكر أيضًا، التعرض إلى سمة ضئيلة خصَّت شخصية الآنسة سالي براس، فعلى الرغم من تحملها مصاعب حانة البرية بنفس مشمئزة، لدرجة كادت أن تدفعها إلى المغادرة قبل إحضار الشاي، فقد غمرها بغتة رضى شامل؛ حينما تلمست في القريب العاجل المعاناة التي لحقت بشقيقها البائس، وصارت من توها تستمتع بوقتها بطريقتها الخاصة في ارتياح متجهم. حينها كانت المياه ترشح من السطح، وتقطر فوق رؤوسهم، ولم تتذمر الآنسة براس البتة، بل على النقيض تمامًا، أشرفت على إعداد الشاي في هدوء تام ورباطة جأش لا مثيل لها. بينما جلس السيد كويليب في ضيافته الصاخبة على برميل جعة فارغ، يمدح المكان كما لو كان الأكثر راحةً وجمالًا في الممالك الثلاث، يرفع الكوب، يشرب نخب لقائهما التالي في هذا المكان المرح. أما السيد براس، فمع تساقط قطرات المطر في كوب الشاي الخاص به، صارع في محاولات أصابته بالغصة من أجل اقتلاع معنوياته من الحضيض، والظهور في مظهره الطبيعي. في حين أن نوم سكوت ظل منتظرًا عند الباب أسفل مظلة قديمة، جذلًا في معاناته، يزايد بفصل وجنتيه بالضحك.. في غضون تلك الأثناء، جلست الآنسة سالي براس مستقيمة الظهر شهباء وراء صينية الشاي في وداعة وسكينة، لا تنشغل مطلقًا بالرطوبة، وقطرات الماء المتقاطرة على شخصها الأنثوي ومظهرها المقبول؛ تبصر تعاسة شقيقها في راحة بال ورضًى، في تجاهل لطيف لذاتها، تعتزم الجلوس هناك طوال الليل؛ لتشاهد عذابه الذي أجبرته طبيعته الجشعة المتذللة على تحمله ومنعته من إبداء امتعاضه. لكن ما يجب ذكره، كي لا تكون الصورة التوضيحية غير مكتملة، أنها على الرغم من المنظور العملي البحت، شعرت بتعاطف قوي تجاه السيد سامبسون، علاوةً على أنها كادت أن تكون في أقصى درجات السخط، إذا كان قد أحبط موكله بأي طريقة.

في ذروة مرحه الصاخب، تجاهل السيد كويليب هيمنة الروح الشيطانية عليه لبعض الوقت، ترجل عن برميله، ووضع يده على رُدن ثوب المحامي.
قال القزم: "كلمة.. قبل أن نحيد عن موضوعنا الأساسي أكثر من ذلك.. أنصتي يا سالي دقيقة".
اقتربت الآنسة سالي من فورها، كما لو كانت معتادة على إجتماعات العمل التي يستحسن ألّا تعقد أو تعرض على الملأ مع مضيفها.
قال القزم، وهو ينظر إلى الشقيق وشقيقته بالتناوب: "عمل.. عمل في منتهى الخصوصية. أريد منكما أن تركزا جيدًا، وتجمعا أفكاركما معًا".
رد براس من فوره، وقد أخرج دفتره وقلمه: "بالتأكيد يا سيدي.. سأجمع خلاصة أفكاري، وسأبذل جهدًا جهيدًا يا سيدي". رفع المحامي عينيه إلى السقف وأضاف قائلًا: "أدلة جديرة بالملاحظة.. أكثر الأدلة جدارة بالملاحظة. لقد ذكر نقاطه بوضوح شديد.. إنها لمنعة شديدة الإمساك بهم! لكنني لا أعرف أي قانون برلماني يناسبه بالضبط".
قال كويليب: "أنا من سيحرمك من شتى أنواع المتع، إذا لم تنصت إليّ جيدًا.. ضع دفترك، لا نريد أي مستندات هنا.. حسنًا! هناك فتى يُدعى كيت...".
أومأت الآنسة سالي، كتوضيح منها على أنها تعرفه.
قال السيد سامبسون: "كيت! كيت! ها! لقد سمعت هذا الاسم من قبل، لكنه لا يخطر على بالي الآن.. لا أتذكر تحديدًا من هـ...".
قال موكله الخدوم بنفاد صبر: "إنك بطيء كالسلحفاة.. ومتبلد الذهن كما لو أن جلد رأسك أكثر سمكًا من جلد وحيد القرن".
صاح سامبسون المتذلل: "إنه مليح للغاية! اطلاعه على التاريخ الطبيعي أمر يثير الدهشة أيضًا.. إنه بوفوون، إنه حقًّا بوفوون (6)!".
ليس هناك أي شك في أن السيد براس قصد الإطراء، ولم يكن هناك أي دافع لذكره حرف علة زائدًا، على الرغم من أنه كان يجب أن يقول (بوفون). ولذلك لم يمنحه كويليب وقتًا للتصحيح، فقام هو بذلك الواجب بنفسه، وانكب على رأسه، ينقرها بمقبض مظلته.
أمسكت الأنسة براس يده وقالت: "لا تدعْ أي شيء يعرقلنا.. لقد أومأت لك بأنني أعرفه، وهذا يكفي".
قال القزم، وهو يربت على ظهرها، وينظر بازدراء إلى سامبسون: "دائمًا ما تأتين هي في المقام الأول! حسنًا يا سالي! هذا المدعو كيت، أنا لا أحبه".
ردت الآنسة براس: "وأنا كذلك".
قال السيد سامبسون: "وأنا كذلك أيضًا".
صاح كويليب: "هذا جيد! أحسب أننا من هذا المنطلق، نكون قد أنجزنا نصف عملنا بالفعل. هذا المدعو كيت، واحد من الناس الأمناء الصادقين، واحد من الأشخاص العادلين، كلب متطفل يتسلل خلسة، منافق، مراءٍ، رعديد، جاسوس متسلل، خسيس مروض لمن يطعمونه ويلاطفونه، كلب نباح على الآخرين".
صاح براس وهو يعطس: "بليغ بشكل مخيف.. بليغ بشكل رائع ومروع!".
قالت الآنسة براس: "هل تباشر في الموضوع، وتحدد النقطة المعنية، ولا تتكلم كثيرًا!".

أعلن كويليب بقوة، وهو يحدج سامبسون بنظرة ازدراء ثانية، قائلًا: "قولكِ صحيح مرةً أخرى! دائمًا ما تأتين في المقام الأول! أنا أقول يا سالي إنه كلب نباح مسعور على الآخرين، على كل الناس، عليَّ أنا بالتحديد.. باختصار، أنا أحمل له الضغينة".
قال سامبسون: "هذا يكفي يا سيدي".
قال كويليب ساخرًا: "لا! ليس كافيًا أيها السيد.. هل تركز معي من فضلك، وتسمعني جيدًا؟ علاوةً على أنني أحمل له الضغينة، إنه في هذه اللحظة يعيق تقدمي، ويقف حائلًا بيني وبين فرصة ذهبية ستشملنا جميعًا في النهاية. وبصرف النظر عن هذا، أريد أن أكرر أنه يسخر من روح دعابتي، وأنني أكرهه. الآن! أنتما تعرفان الفتى، وأصبح في الإمكان تخمين الباقي , ابتكرا وسائلكما الخاصة لإبعاده عن طريقي، ونفذاها من فوركما. هل سيتم ذلك؟".
قال سامبسون: "يجب أن يتم يا سيدي".
رد كويليب بحسم: "إذنْ لنتصافح على ما اتفقنا.. لا، أقصد سالي، الفتاة، أعطيني يدك. أنا أعتمد عليكِ اعتمادًا كبيرًا، أعتمد عليك أكثر من اعتمادي عليه بمراحل. فلتُعد يا توم سكوت الغلاوين، والمشروبات الروحية، ولتشعل الفانوس، ولنهنأ بليلة مرحة!".
لم تُنطق أي كلمة أخرى في هذا الصدد، ولم تتبادل أي نظرة أخرى حملت تلميحًا ولو طفيفًا، عن السبب الرئيس لمقابلتهم. كان هذا الثلاثي معتادًا للغاية بشكل جيد على العمل معًا، فقد جمعتهم المصالح والمنافع المشتركة، ولا يُحسب أن هناك حاجة لما هو أكثر من ذلك. استعاد كويليب سلوكه الصاخب فجأةً وبيسر تام، كفَّ عنه فجأة وبيسر تام أيضًا قبل بضع ثوان، فصار في لمح البصر في الوحشية الشيطانية الصاخبة المتهورة نفسها. كانت الساعة قد جاوزت العاشرة مساءً قبل أن تسند سالي الودودة شقيقها المحبوب والمحبب للرحيل من حانة البرية؛ كان في ذلك الوقت في أمس الحاجة إلى أقصى دعم يمكن لجسدها الرقيق أن يقدمه له؛ كانت لخطوانه - لأسباب غير معروفة - أي صفة أخرى عدا كونها ثابتة، فكانت قدماه تطآن معًا في أماكن غير متوقعة على نحو مترنح.
بعد أن خارت قواه، على الرغم من نومه لساعة متأخرة، بسبب إرهاق الأيام القليلة الماضية، لم يُهدر القزم أي وقت، وزحف من فوره إلى مسكنه الراقي المنظم، ولم تمر اللحظات، وكان نائمًا في أرجوحته يحلم. نتركه للرؤى، التي ربما لم تخلُ من تجسيد الشخصين الطيبين اللذين تركناهما في رواق الكنيسة القديمة، وربما يحسب أن مهمتنا الآن هي الإنضمام لهما مجددًا بينما كانا جالسين مرتقبين وصول المعلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثاني والخمسون

بعد مضيٍّ فترة طويلة، ظهر المعلم أخيرًا عند بوابة الكنيسة، كان يركض نحوهما، بينما تخشخش في يده طوال ما كان مسرعًا مفاتيح صدئة. حينما وصل إلى الرواق كان منقطع الأنفاس إلى حد كبير من فرط سعادته وسرعته، لم يستطع التحدث في البداية، لكنه أشار فقط تجاه المبنى القديم الذي كانت تفكر فيه الطفلة وتتأمله في جدية.

قال أخيرًا: "هل ترين هذين المنزلين القديمين؟".

ردت نيل من فورها: "نعم، بالتأكيد! لقد كنت أنظر إليهما طوال الوقت الذي كنت فيه بالخارج تقريبًا".

قال صديقها: "كنتِ ستنظرين إليهما بتوق يغمره الفضول، إذا كنتِ قد خمنت ما سأخبركِ به الآن.. إن أحد هذين المنزلين ملك لي".

من دون أن يلفظ المعلم بكلمة أخرى، أو يعطي للطفلة مجالًا من الوقت كي ترد، أمسك يدها، وبوجه باشٍّ تعلوه أمارات الصدق ويشع بالابتهاج، اقتادها إلى المكان الذي تحدثا عنه لتوهما.

وقفا أمام بابه المقنطر. بعد تجربة العديد من المفاتيح عبثًا، وجد المعلم أخيرًا مفتاحًا يتناسب مع القفل الضخم، تقلقل المفتاح داخل القفل، وسمح لهما أخيرًا بالدخول.

كانت القاعة التي دخلوها عبارة عن غرفة مقببة، يتبين أنها بُنيت وزخرفت بطراز راقٍ من قبل مهندسين معماريين بارعين؛ فلا تزال تحتفظ برونقها، غلب على الطراز الرائع لسقفها القباب المتعامدة، كثرت فيها آثار زخرفية حجرية نمَّت عن روعتها القديمة. كأن نقوش أوراق الشجر والنباتات المنحونة في الصخر باقية لتحاكي تفوق يد الطبيعة وسيادتها في أي وقت وحين، فظلت موجودة حتى تلك اللحظة لتخبرنا عن عدد المرات التي نمت فيها الأوراق وتلاشت خارج ذلك المكان، بينما كانت تعيش هناك طوال ذلك الوقت دون تغيير. انتصبت الأعمدة إلى جانب المدفأة الفارغة في مشهد حِدادي، على الرغم من تهشمها، لا تزال فريدة متميزة على ما كانت عليه - حتمًا كانت لتختلف كليًّا دون الغبار الذي سكن على طبقاتها - بدت مثل مخلوقات صمدت ضد الموت ونجت بخلاف باقي نوعها، لتبقى هي متفجعة، تصارع اضمحلالها الرتيب بنفسها دون مساندة.

في وقت من الماضي - حتى التغيرات كانت قديمة في ذلك المكان العتيق - شُيِّد جانب خشبي في أحد أركان الغرفة، ليشكل مقصورة للنوم، كان الضوء يتسلل إليه في ذلك الوقت عبر نافذة بدائية، أو على نحو أدق عبر كوة ثلمت في الجدار المصمت. يتضح أن هذا البرزخ إلى جانب مقعدين أمام المدفأة، في تاريخ طُويَ مع الدهر، أصبح جزءًا لا يتجزأ من الكنيسة أو الدير.. أما خشب جذوع أشجار البلوط، الذي سرعان ما خصص لخدمة أغراض الحاضر، فقد تغير إلى حد ما عن شكله الأولي، فبان لأعين الناظرين كركام جُذاذ بهي من حجيرات رهبانية قديمة. أفضى إلى باب مفتوح إلى حجرة أو صومعة، معتمة، لكن أوراق نبات اللبلاب عكست فيها نورًا خافتًا، أكمل الصورة الداخلية لطللها، لم يكن المكان معدمًا تمامًا من الأثاث. وجد فيه القليل من الكراسي غريبة الشكل؛ بدت قوائمها ومساندها كما لو أنها تقلصت مع تقدم الزمن، ومنضدة، ومناع آخر بدا شبحيًّا، وخزانة ضخمة قديمة بدت كأنها كانت تحتفظ في وقت سابق بسجلات الكنيسة،

ومخزن للحطب في فصل الشتاء، ومقتنيات منزلية أخرى قديمة الطراز، كانت مبعثرة هنا وهناك، مقدمة دلالات جلية على أن الانتفاع بذلك المكان كمسكن للمعيشة لم يكن من وقت بعيد.
نظرت الطفلة حولها، وقد غمرها هذا الشعور الشعائري المهيب، الذي ينتابنا حينما نتأمل أعمال العصور التي أصبحت مجرد قطرات من ماء في محيط الخلود الشاسع. تبعهما الرجل العجوز، لكن ثلاثتهم قبعوا صامتين، يسحبون أنفاسهم في هدوء رخيم، كما لو كانوا يخشون إنهاء الصمت ولو حتى بهمس خافت.
قالت الطفلة في صوت منخفض: "إنه مكان جميل جدًّا".
رد مدير المدرسة قائلًا: "كنت أخشى أن يكون رأيكِ بخلاف ذلك؛ لقد ارتجفتِ فور دخولنا، كما لو كنتِ شعرت بالبرد أو التشاؤم".
قالت نيل، وهي تنظر حولها بارتجاف طفيف: "لا! لم يكن الأمر كذلك.. في الواقع، لا أستطيع أن أخبرك ما كان ذلك بالضبط، لكنه الشعور نفسه الذي راودني حينما رأيته لأول مرة من الخارج من رواق الكنيسة. ربما لأنه قديم جدًّا ومعتم".
قال صديقها: "إنه مكان سلمي للعيش فيه، ألا تعتقدين ذلك؟".
قالت الطفلة، وهي تحكم قبضة يدها في جدية: "أوه! إنه مكان هادئ ومبهج.. إنه مكان للعيش وللتعلم وللموت فيه!". كانت لتسترسل في قولها، لكن علو حماس أفكارها تسبب في خفض صوتها، حتى صار همسات متذبذبة من شفتيها.
قال المعلم: "إنه مكان للعيش، وتعلم العيش، واستجماع قوى العقل والجسد والنفس فيه.. إن هذا المنزل القديم لكما".
صاحت الطفلة: "لنا!".
رد المعلم في مرح: "نعم، لكما. لسنوات سعيدة مديدة قادمة. وسأكون لكما جارًا قريبًا.. - الباب المجاور فقط - لكن ما يهم الآن أن هذا المنزل بأكمله ملك لكما".
بعد أن روّح المعلم على قلبه بمفاجأته العظيمة، جلس، مستدعيًا نيل إلى جانبه، أخبرها كيف علم أن المسكن القديم كان آهلًا لمدة طويلة جدًّا بعجوز، قارب عمرها على مائة عام، وأنها هي من كانت تحتفظ بمفاتيح الكنيسة، تفتحها وتغلقها في أوقات القداس، وتعرضها للغرباء.. أخبرها كيف ماتت من أسابيع ليست بعديدة، وأنه منذ ذلك الحين لم يعثر على شخص ليتولى منصبها.. أخبرها كيف عرف كل هذا أثناء مقابلته مع القندلفت، بينما كان طريح الفراش، بسبب الروماتيزم، وأنه كان جريئًا حينما رشح رفيقيه المرتحلين، وقد لقيَ الترشيح استحسانًا كبيرًا من تلك السلطة العليا، لدرجة أنه تحلى بالبسالة، للعمل بنصيحته، وعرض مشورته على الكاهن. وخلاصة القول أنه نتيجة لمجهوداته سوف تمثل نيل وجدُّها أمام الرجل المذكور أخيرًا في اليوم التالي، وأن موافقته على سلوكهما ومظهرهما مجرد مسألة شكلية، وأن تعيينهما في الوظيفة الشاغرة قد تم بالفعل.
قال المعلم: "سيكون هناك بدلٌ من المال.. ليس بالقدر الكثير، مقدار زهيد.. لكنه لا يزال كافيًا للعيش في هذا المكان المنعزل.. ومن خلال تجميع أموالنا معًا، لا قلق من العيش مطلقًا".
شهقت الطفلة في نحيبها وقالت: "فليباركك الرب وينعم عليك!".
قال صديقها في سعادة: "آمين يا عزيزتي! فليباركنا جميعًا، مثلما فعل ويفعل دائمًا، مثلما بدل أحوالنا، وانتشلنا من الحزن والضيق، وأنعم علينا بهذه الحياة المطمئنة الهادئة. هيا الآن، يجب

أن نرى منزلي.. هيا تعالي!".
ذهبا إلى المسكن الآخر صحبةً، جرب المفاتيح الصدئة مثلما فعل من قبل، حتى وجد المفتاح الصحيح أخيرًا، وفتح به الباب النَّخِر. قاد الباب إلى غرفة ذات سقف مقبب وقديم، شابهت تلك التي أتيا منها، لكنها لم تكن فسيحة مثلها، بها حجرة واحدة صغيرة فقط متصلة بها. لم يكن من الصعب استنباط أن المسكن الآخر كان من المفترض أنه للمعلم، لكنه آثرهما على نفسه، واختار لنفسه الأقل اتساعًا؛ رعاية ومراعاة لهما. تواجد فيه مثل المسكن المجاور قطع أثاث قديمة، لكنها كانت القطع الضرورية التي لا غنى عنها فقط، وكومة من الحطب.
بات أمرهم الشاغل الممتع الآن، هو جعل هذين المنزلين صالحين للسكن وباعثين على الراحة قدر استطاعتهم. وبالفعل مع مرور وقت قصير، كانت النيران المبهجة تلمع وتصدر حسيسها في مدفأة كل منهما، تعكس وهجًا صحيًّا مُعافيًّا على الجدار القديم الباهت. كرست نيل نفسها من أجل حياكة الستائر الممزقة للنوافذ بإبرتها، وجمعت خرقات بقايا السجاد الرث الذي تهرأ بفعل الزمن معًا، وجعلتها كاملة ولائقة. جرف المعلم الأرض أمام الباب، وجز العشب الطويل، وشذب اللبلاب والنباتات المتعرشة التي تدلت رؤوسها في إهمال محزن، أضفى على الجدران الخارجية طبعًا منزليًّا مبهجًا. أما الرجل العجوز، فبمفرده أو مع الطفلة، قدم مساعدته لكليهما، يتحرك هنا وهناك، ينجز بعض الخدمات الهينة، لقد كان سعيدًا. حتى الجيران أيضًا، حينما أتوا من أعمالهم، إما قدموا مساعداتهم بأنفسهم، وإما أرسلوا أبناءهم بهدايا وقروض بسيطة، كان الغرباء في أشد الحاجة إليها. كان يوما حافلًا، ورغم ذلك حينما زحف الليل، وجدهم يتعجبون من أنه لا يزال هناك الكثير للقيام به، وأن الظلام سيحل فيما هو قريب.
تناولوا عشاءهم معًا، في المنزل الذي أصبح يطلق عليه منذ ذاك وصاعدًا منزل الطفلة، حينما أنهوا وجبنهم، إلتفوا حول النيران، وبالكاد تهامسوا في لين - يشبه لين قلوبهم الخافقة - ليناقشوا خططهم المستقبلية. قبل أن يفضوا مجلسهم، تلا المعلم بعض الصلوات والأدعية بصوت عالٍ، وبعد ذلك تفرقوا في امتنان كامل وسعادة عارمة، لساعات الليل.
في تلك الساعة الهادئة في زلف الليل، بينما كان جدها نائمًا في سلام وأمان في سريره المنخفض، والأصوات من حولها ساكنة، مكثت الطفلة أمام الجمرات الخابية، تسترجع ماضيها وتفكر فيه، بدا لها كحلم عاشا فيه، واستيقظت منه من توها. انعكس وهج الشعلات على الألواح البلوطية، فشوهدت ظلال قممها المنحوتة على السقف الغاسق - أما الجدران العتيقة، فماجت عليها ظلال غريبة تظهر وتختفي مع كل ومضة نار - دفعت الحضرة الشعائرية المهيبة لطلل الجوامد التي بدت الأكثر ديمومة في طبيعتها، وللموت الذي حفها من كل إتجاه وجانب في الخارج، الطفلة إلى تفكير عميق ومشاعر مختلطة، لكن الفزع والحذر لم يكونا من بينها. لقد تسلل إلى قلبها تغيير في وقت حزنها ووحدتها. مع خوار القوى وازدياد الوضوح، صار عقلها نقيًّا ومتغيرًا، رحب صدرها بأفكار مباركة وآمال، كانت جزءًا من قليل لكنها كانت الجزء الواهن العليل.
لم يكن هناك من يرى الروح الهالكة الفانية، مثلما كانت تنزاح من أمام النيران وتتكئ على النافذة في حلم وحزن، سوى النجوم، تنظر من علية إلى وجهها، وتقرأ تاريخه. ترددت دقات جرس الكنيسة القديم معلنة الساعة في صوت حدادي، كما لو أن حزنًا انطبع على نغمة رنينها من كثرة مناجاة الموتى وتحذيراته غير المسموعة للأحياء، وحفيف الأوراق المتساقطة، وغنة العشب على القبور، بينما ظل كل شيء آخر في سكينة النوم.

لاح على مبعدة يسيرة بعض أولئك الذين ينامون بلا أحلام يجلسون في ظلال الكنيسة، يتلمسون جدرانها، كما لو كانوا يتشبثون بها راجيين الراحة والحماية، وبعض آخرين اختاروا أن يستلقوا في الظل المتغير للأشجار، وغيرهم ممَّن ناموا على طوار الطريق، بالقرب من وقع خطوات الأقدام، وغيرهم هائمين في نومهم بين قبور الأطفال. ربما رغب البعض في نيل قسط من الراحة على الأرض التي داسوها أثناء سيرهم اليومي، ربما تواجد البعض حيث تمر شمس المغيب على أسرتهم، وآخرون حيث ينساب عليهم نورها حينما تشرق. ربما لم تكن أي من تلك الأرواح السجينة قادرة على انتشال نفسها من بؤرة التفكير في رفقتها القديمة. وإن قدرت أيًّا منها، فلا يزال كامنًا فيها حب يشبه ذلك الذي يعرفونه الأسرى تجاه سجونهم بعد ردح من الوقت، حتى وإن تفرقوا، دائمًا ما سيحومون حولها في مودة.

مر وقت طويل قبل أن تغلق الطفلة النافذة، وتلجأ إلى فراشها. ينتابها الشعور نفسه مرة أخرى كما انتابها من قبل، قشعريرة لا إرادية، شعور مؤقت شبيه بالخوف، لكنه سرعان ما ينحسر عنها، ولا يخلِّف فزعًا بعد انقشاعه. تراودها الأحلام ذاتها عن طالب المدرسة الصغير كما راودتها من قبل، ترى السقف يفتح، وترتفع صفوف من وجوه مضيئة، بعيدًا نحو السماء، في مشهد يطابق ما رأته ذات مرة في صورة إنجيلية قديمة، ترنو إليها وهي نائمة. لقد كانت أحلامًا طيبة وسعيدة. بدا المكان الهادئ في الخارج كما كان، عدا أصوات نغمات، وأصوات رفرفة أجنحة ملائكة ماجت في الأجواء. ومع مرور الوقت جاءت الشقيقتان، يدًا بيد، وقفتا بين القبور، ثم خفت الحلم، وتلاشي.

مع حلول تباشير الصباح وبهجته، وحلول الوقت لاستكمال أعمال الأمس، وتجديد الأفكار السارة، وإنعاش الطاقات، وتعميم السعادة، وتجديد الأمل، عملوا جميعًا بفرح ومرح في ترتيب وتنظيم منزليهما حتى الظهر، وبعدها ذهبوا لزيارة الكاهن.

كان رجلًا في غمار الشيخوخة، سليم الطوية، ذا نفس خجولة، منطويًا، اعتاد العزلة، مطلعًا على قدر قليل من العالم الخارجي؛ فلقد تركه منذ سنوات عديدة، وأتى إلى هذا المكان ولزمه ولم يفارقه منذ ذاك الوقت. توفيت زوجته في المنزل الذي لا يزال فيه يعيش، ومنذ فترة طويلة فقد تمامًا أي اهتمامات أو آمال دنيوية.

استقبلهم بلطف شديد، ومنذ أول وهلة أظهر اهتمامًا بنيل، سأل عن اسمها، وعمرها، ومكان ميلادها، والظروف التي أودت بها إلى هناك، وهلم جرا. أخبره المعلم بقصتها. أخبره أنهما ليس لهما أي معارف أو أصدقاء أو منزل يسكنان فيه، قال لهما: إن مصادفة مقابلتهما أفضل ما يمكن ليتشاركا الحظ السعيد، وإنه أحب الطفلة كما لو كانت طفلته.

قال الكاهن: "حسنًا حسنًا! فليكن الأمر مثلما رغبت. لكنها صغيرة جدًّا".

رد المعلم: "بل كبيرة لتجاربها العثرة والشدائد التي تعرضت لها يا سيدي".

رد الكاهن العجوز: "الرب يرعاها.. دعها تستريح، انس شأنهما؛ فالكنيسة القديمة مكان معتم غاسق لطفلة صغيرة مثلكِ يا طفلتي".

ردت نيل: "أوه! لا يا سيدي.. لا تعتريني هذه التصورات في الواقع".

قال الكاهن العجوز، وهو يضع يده على رأسه ويبتسم في حزن: "إني أفضل أن أراها ترقص في المرج الأخضر في الليل، على أن أراها جالسة في ظلال أقواسنا الحِدادية. يجب أن تتحرى الأمر،

وتتأكد من أن قلبها لن يثقل مع الوقت بين هذه الأطلال الشعائرية.. إن طلبك مقبول يا صديقي".
بعد تداول الكثير من الكلمات الطيبة، انسحبوا متجهين إلى منزل الطفلة، بينما كانوا في خضم حديثهم عن الحظ السعيد، ظهر صديق آخر.
كان رجلًا مسنًا ذا بنية صغيرة، عاش في بيت الكاهن - مثلما علموا فيما بعد - أقام هناك منذ وفاة زوجة الكاهن، قبل خمسة عشر عامًا. كان صديقه في الدراسة، وصديقه المقرب دائمًا وأبدًا، وفي أول لحظات صدمة فاجعة، كان أول من أتى لتعزيته وطمأنة نفسه، ومنذ ذاك الوقت لم ينفصل عن رفيقه قط. يعتبر هذا الرجل المسن روح المكان المفعمة بالنشاط والحيوية، والضابط لشتى الفوارق، والمتعهد بالمرح، والموزع لعطاءات صديقه - التي لا تخص عطاءاته الشخصية - والوسيط بينه وبين العالم، والمعزي، والصديق الصدوق. لم يُبْدِ أي أحد من القرويين البسطاء رغبته في سؤاله عن اسمه، أو متى سيعرفونه لحفظه في ذاكرتهم. ربما بسبب بعض الشائعات الملتبسة عن حصوله على البكالوريا ودرجات الشرف التي تهامسوا بها فور وصوله لأول مرة، أو ربما لأنه رجل غير متزوج أو مرتبط، سُمِّيَ فيما بينهم بالعازب حامل البكالوريا. ربما كان ذلك العازب حامل البكالوريا هو من زود المرتحلين بالوقود في سكنيهم الجديد.
جاء العازب حامل البكالوريا - فلندعوه بتسميته المعتادة - رفع المزلاج، أظهر وجهه الصغير المستدير لوهلة عند الباب، ثم دخل الغرفة كشخص ليس بغريب على المكان.
قال مُقَدِّمًا تحية إلى صديق نيل الطيب: "هل أنت السيد مارتون.. المعلم الجديد؟".
- نعم أنا يا سيدي.
- أنت شخص حسن الصيت موصى بك، إنني سعيد لمقابلتك. كان يجب أن أكون في استقبالك بالأمس، لكني عرجت على الريف؛ أحمل رسالة من أم مريضة إلى ابنتها في الخدمة على بعد أميال، وقد عدت من توي. هل هذه هي حارستنا الصغيرة للكنيسة؟ إنك لست الأقل ترحيبًا هنا يا صديقي، بل من أجلها، أو من أجل هذا العجوز، ولست بمعلم سيئ لأنك على علم أكيد بالإنسانية.
قال المعلم، ردًا على نظرة زائرهم على نيل، حينما قبَّل وجنتها: "لقد كانت مريضة في الآونة الأخيرة يا سيدي".
قال: "نعم نعم. أعرف أنها تعرضت إلى الكثير من المعاناة ووجع القلب".
- بالفعل يا سيدي.
رمق المسن صغير الحجم جدَّها، ثم نظر إلى الطفلة، التي أخذ يدها في لطف، وظل ممسكًا بها.
قال: "ستكونين أسعد هنا.. أو على الأقل سنحاول أن نجعلكِ كذلك. لقد أجريتِ بالفعل العديد من التحسينات هنا، هل هذا من عمل يديكِ؟".
- نعم يا سيدي.
قال العازب حامل البكالوريا: "سنعمل على إحضار أشياء أخرى.. ليست الأفضل من نوعها، بل الأفضل من المتاح.. دعونا نرى الآن ما تحتاجون، هيا دعونا نرى!" ,
اصطحبته نيل إلى الحجيرات الصغيرة الأخرى، في كلا المنزلين، حيث وجد العديد من اللوازم التي يحتاجونها، فعمل من فوره على تزويدهم بأشياء مختلفة، كانت لديه في بيته، كانت جميعها أغراضًا متنوعة وشاملة، لدرجة أنها احتوت على أشياء لا يمكن تخيلها. على كل حال، من دون

إضاعة للوقت، تواردت إليهم اللوازم كافة، فغاب الرجل المسن لخمس أو عشر دقائق، ومن ثم عاد محملًا بأرفف قديمة وسجاد وبطانيات ومعدات منزلية أخرى، وتبعه صبي يحمل حمولة مماثلة. أُلقيت الأغراض على الأرض في كومة فوضوية، أسفرت عن عمل كثير لإنجاز ترتيبها ونصبها ووضعها في أماكنها، من الواضح أن الإشراف على هذه المهام منح الرجل العجوز سعادة فائقة، وأضفى عليه الحيوية والنشاط لبعض الوقت. حينما لم يتبقَّ أي فروض أخرى للقيام بها، أمر الصبي بالركض من فوره؛ لإحضار زملائه؛ كي يتجمعوا ويصطفوا في ترتيب مهيب أمام معلمهم الجديد.
إلتفتَ إلى المعلم فور رحيل الصبي وقال: "إنهم صبية متميزون يا مارتون، وآمل أن يكونوا عند حسن ظنك.. لكني في الواقع لا أصرح لهم برأيي، أحسب أن هذا لا يصح على الإطلاق".
عاد الرسول سريعًا، يتقدم صفًّا طويلًا من الأولاد والغلمان الصغار، الذين اضطربوا وقدموا مختلف إيماءات الطاعة والاحترام في أدب عارم فور ملاقاتهم العازب حامل البكالوريا قبالة باب المنزل، أحكموا قبضة أيديهم في شدة على القبعات والطواقي، يعتصرونها ويطبقونها إلى أصغر الأبعاد الممكنة، مقدمين كافة الانحناءات والوقفات، حينها وقف الرجل المسن يتأملهم في ارتياح مفرط، وأعرب عن رضاه عنهم بالكثير من الإيماءات والابتسامات. في الواقع، لم يكن استحسانه للصبية متواريًا بالدرجة التي أوحى بها إلى المعلم على الإطلاق، علاوة على أنه أفضى إليه بهمسات عديدة كانت صاخبة وتعليقات خصوصية في صوت مسموع تمامًا لجميع المتواجدين.
قال الرجل العازب حامل البكالوريا: "هذا الصبي الأول، إنه جون أوين، صبي جيد يا سيدي، وصادق وأمين، لكنه متهور، لعوب، طائش لأبعد الحدود. هذا الولد يا سيدي، ممكن أن يكسر رقبته في منتهى السرور، ويحرم والديه من نعمة الراحة.. اجعل الأمر سرًّا بيننا، حينما تأتي وتراه في لعبة (الأرنب وكلاب الصيد) يأخذ السور والخندق إلى جانب اللافتات، وينزلق للأسفل نحو المحجر الصغير، لن تنسى هذا المشهد مطلقًا. إنه رائع!".
بعد أن أتم توبيخ جون أوين، واستحوذ على أطراف الحوار لنفسه، اختار العازب حامل البكالوريا صبيًّا آخر.
قال: "انظر الآن إلى ذاك الصبي.. هل تراه؟ اسمه ريتشارد إيفانز يا سيدي، فتى مذهل في التعلم، لديه ذاكرة قوية، نبيه، سريع الفهم، علاوة على أن أذنه جيدة وصوته عذب في غناء الترانيم، فهو الأفضل بيننا، ومع ذلك يا سيدي، سينتهي به الأمر نهاية سيئة، لن يموت أبدًا في سريره، ينام دائمًا في وقت الموعظة.. ولقول الحقيقة يا سيد مارتون، دائمًا ما كنت أفعل الأمر نفسه حينما كنت في مثل سنه، وأشعر أن الأمر طبيعي جدًّا طبقًا لعرفي، وأن لا حيلة لي في تغييره".
حُرر ذلك الطالب المبشر من التوبيخ الرهيب، ومن ثم انتقل العازب حامل البكالوريا إلى آخر.
قال: "إذا كنا نتحدث عن أمثلة لتكون في منأى.. إذا وصل بنا الحديث إلى الصبية الذين يجب أن يكونوا عبرة لزملائهم الآخرين، فنحن بصدد الحديث عن هذا الصبي، آمل ألا تخبره. إنه ذاك الصبي يا سيدي، صاحب العينين الزرقاوين والشَّعر الفاتح. إنه سباح يا سيدي، بل على وجه أدق غطاس.. فليحمنا الرب ويرعانا! هذا الصبي يا سيدي، لديه ولع بالغطس لقرابة الثمان عشرة قدمًا في أعماق الماء، مرتديًا ملابسه، يذكر أنه غطس ذات مرة تلك المسافة وأنقذ كلب رجل أعمى، غرق بسبب وزن سلسلته وطوقه، بينما كان سيده يحرك يديه بقوة في ماء الجدول، وينوح بسبب فقدانه لمرشده وصديقه".

أضاف العازب حامل البكالوريا في همسه الغريب قائلًا: "لقد أرسلت إلى الصبي فور معرفتي (جنيهين إنجليزين) ([7]) دون إخطار بالاسم يا سيدي، أرسلتهما له دون علم أي أحد على الإطلاق، لدرجة أنه ليس لديه أدني فكرة أنهما مني إلى الآن".
بعد الانتهاء من الحديث عن هذا الشقي، انتقل العازب حامل البكالوريا إلى صبي آخر، ومنه إلى آخر، وما إلى ذلك حتى تحدث عنهم جميعًا، من أجل حصر نافع لهم حتى يتصرفوا بشكل سليم، اعتمد في حديثه على نفس التركيز القاطع على نزعاتهم الأعز على قلبه، والعائدة إلى وجهة نظره ومبدئه الشخصي وأمثولته.
في النهاية، كان من الواضح تمامًا، أنه أحبطهم بسبب صرامته، فقدَّم لهم عطية صغيرة، ثم سمح لهم بالانصراف، مشددًا عليهم أن يسيروا إلى البيت في هدوء، دون أي قفزات أو شجارات أو حيد عن الطريق، ثم أخبر المعلم بنفس النبرة المسموعة، أن نصائحه وأموره الاحترازية التي يوصيهم بها، لا يعتقد أنه كان ينفذ أيًّا منها عندما كان صبيًّا.
بعد الإشادة بتلك التدابير البسيطة لتصرف العازب حامل البكالوريا، وبتأكيدات كثيرة على ترحيبه به منذ ذلك الوقت، رحل المعلم عنه بقلب سعيد، وروح مبتهجة، معتبرًا نفسه أنه أحد أسعد الرجال على وجه الأرض. كانت نوافذ كلا المنزلين ضاربة إلى الحمرة، تعكس توهج النيران المبهجة في الداخل، في تلك الليلة وقف العازب حامل البكالوريا وصديقه بعد أن عادا من نزهتهما الليلية يرنوان إليها، ويتحدثان معًا بصوت خافت عن الطفلة الجميلة، وينظران حولهما في ساحة الكنيسة، وهما يتنهدان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثالث والخمسون

في الصباح الباكر، استيقظت نيل في نشاط وحيوية، أنجزت من فورها جميع أعمالها المنزلية، ورتبت كل شيء للمعلم الطيب - على الرغم من أن ما فعلته كان معاكسًا تمامًا لرغبته، فقد أراد لها الراحة وأوصاها بها - أنزلت حمالة صغيرة للمفاتيح من على مسمار بجانب المدفأة، كان العازب حامل البكالوريا قد أعطاها لها بشكل رسمي في اليوم السابق، ثم خرجت بمفردها لزيارة الكنيسة القديمة.

كانت السماء صافية ومشرقة، والهواء نقيًّا، ينفح ريحًا طيبة، عطرًا برائحة الأوراق المتساقطة آنفًا، كان كل شيء يقر بالجمال. زفَّت النسمات المجاورة، وتدفقت في نغم فريد. لمع الندى على التلال الخضراء، كدموع ذرفتها الأرواح الطيبة على الموتى. لعب بعض الأطفال الصغار بين القبور، واختبؤوا من بعضهم، بوجوه متهللة بالابتسامات. كان معهم رضيع، وضعوه نائمًا في فراش صغير من أوراق الشجر على أحد قبور الأطفال. لقد كان قبرًا جديدًا.. ربما كان قبرًا ومكانًا لراحة مخلوق صغير، كان وديعًا صبورًا في مرضه، إعتاد على أن يجلس ويشاهدهم، والآن على هذا الحال، بدا الوضع كأنه بالكاد تغير في أذهانهم.

اقتربت الطفلة من أحدهم وسألته: لمن هذا القبر؟ لم يكن رد الطفل إجابة باسمه؛ بل قال هذا يُدعى روضة.. وهي روضة أخيه. قال: إنه أكثر خضرة من شتى الرياض الأخرى، وإن الطيور تفضل التحليق حوله؛ لأنه إعتاد على إطعامها. حينما أنهى كلامه، نظر إليها بابتسامة، وهو يركع مستكينًا للحظة، يضع خده على العشب، ثم وثب بعيدًا مرة واحدة، يحدوه المرح.

مرت بالكنيسة، وهي تحدق إلى الأعلى نحو برجها القديم، وبعدها مرت بالبوابة الصغيرة، وهكذا دخلت إلى القرية، رأت القندلفت العجوز يتوكأ على عكاز، يستنشق الهواء أمام باب كوخه الريفي، فحياها بصباح الخير.

توقفت الطفلة من توها لتتحدث معه وقالت: "هل أنت بخير؟". رد العجوز: "نعم بالتأكيد.. أنا ممتن جدًّا لاهتمامك، أنا بخير".

- ستكون في أفضل حال قريبًا.

"بمشيئة السماء، والتحلي ببعض الصبر.. ادخلي ادخلي". عرج العجوز إلى الداخل قبلها، حذرها من عتبة الباب المنحدرة، التي اجتازها بنفسه دون أي صعوبة قط، ثم قاد الطريق إلى داخل كوخه الصغير.

- مثلما تلاحظين، توجد غرفة واحدة فقط هنا بالأسفل، ويوجد أخرى في الأعلى، لكن صعود الدرج في السنوات الأخيرة أصبح أكثر مشقة، ولم أعد أصعد على الإطلاق. ومع ذلك، أفكر أن أجرب الصعود مرة أخرى.. ربما في الصيف المقبل.

تساءلت الطفلة في خاطرها متعجبة، كيف يمكن لرجل عم الشيب رأسه، وفي غمار الشيخوخة - فضلا عن مهنته أيضًا - ويتحدث عن الوقت بتلك السهولة. لاحظ أنها تشخص ببصرها إلى أدواته المعلقة على الحائط، فابتسم.

قال: "أجزم الآن، أنك تعتقدين أنني أستخدم تلك الأدوات كافة في حفر القبور".

- في الواقع.. إنني أتعجب من أنك في حاجة إلى الكثير منها هكذا.

- ربما معك حق في هذا الإعتقاد.. لكنني بستاني، أحفر الأرض، وأزرع ما يحيا وينمو على سطح الأرض. ليست أعمالي مقتصرة على ما يتحلل ويتعفن في الأرض. هل ترين هذا المجرف المعلق في المنتصف؟
- أتقصد ذاك القديم جدًّا! نعم أراه. لكنه قد ثلم ونخر.
"إنه مجرف القندلفت الخاص، والأكثر استخدامًا كما تلاحظين. إننا أناس نتمتع بالصحة، ومع ذلك فهو القوى الأساسية لإنجاز العمل.. إذا كان ذلك المجرف يستطيع التحدث، فكان سيخبرك بالعديد من الأعمال غير المتوقعة التي قمنا بها معًا، لكنني نسيتها.. إن ذاكرتي ذاكرة ضعيفة.."، ثم أضاف من فوره: "لطالما كانت كذلك بالطبع، هذا ليس حالًا مستجدًّا".
قالت الطفلة: "لكن هناك الكثير من الزهور والشجيرات هي خير دليل على عملك الآخر".
- أوه! نعم بالطبع، والأشجار الطويلة أيضًا. لكن هذا العمل لا ينفصل البتة عن أعمال ومهام القندلفت، كما تظنين.
- كيف لا ينفصل!
قال العجوز: "لا ينفصل على حسب اعتباري، وعلى حسب ذاكرتي أيضًا.. بل على الأغلب يفيدها ويساعدها. فرضًا، أقول إنني زرعت هذه الشجرة لهذا الشخص. فتذكرني استقامتها في رقعتها، بأنه توفي. وعندما أنظر إلى ظلها الفسيح، أتذكر كيف كان حين وفاته، فتساعدني في معرفة توقيت عملي الآخر، وبذلك أستطيع أن أخبرك متى حفرت قبره تقريبًا".
قالت الطفلة: "لكن هذا قد يذكرك بأحد ما، قد يكون لا يزال على قيد الحياة".
رد العجوز: "من بين عشرين متوفٍّ، يوجد واحد فقط له علاقة بهم على قيد الحياة.. زوجة، زوج، والدين، إخوة، أخوات، أبناء، أصدقاء.. عشرين متوفٍّ، على أقل التقديرات , لذلك ثلم مجرف القندلفت ونخر. أحتاج إلى واحد جديد.. ربما في الصيف المقبل".
إلتفتت الطفلة نحوه من فورها، ظنت أنه يسخر من سنه وعجزه، لكن القندلفت كان هادئًا في جدية.
قال بعد صمت قصير: "آه! إن الناس لا يتعلمون أبدًا.. لا يتعلمون أبدًا. نحن فقط من يحفرون الأرض، حيث لا شيء ينمو، ويصيب العفن كل شيء، من يفكر في مثل هذه الأشياء من هذا المنطلق.. أقصد، من يفكر فيها بشكل صحيح.. لقد كنت في الكنيسة، أليس كذلك؟".
ردت الطفلة: "إني ذاهبة إلى هناك الآن".
قال القندلفت: "توجد بئر ماء قديمة هناك، أسفل الجرس مباشرة، بئر عميقة مظلمة يتردد في أركانها الصدى. قبل أربعين عامًا كان كل ما عليك فعله هو إنزال الدلو، حتى العقدة الأولى من الحبل في الرافعة، ثم تسمعين صوت عبيب الماء البارد المعلم في الدلو، لكن المياه حينًا بعد حين انحسرت، وبعد عشر سنوات، حللنا العقدة الأولى، وربطنا عقدة ثانية، حينها وجب علينا إرخاء الكثير من الحبل، وإلا سيتأرجح الدلو، ويأتي فارغًا في النهاية، في غضون عشر سنوات أخرى، انحسرت المياه بعيدًا مرة ثانية، وعقدنا العقدة الثالثة. وبعد عشر سنوات، جفت البئر تمامًا، والآن، حتى إذا تم إنزال الدلو، وإرخاء الحبل بكامله، إضافة إلى إمتداد ذراعيك على طولهما حتى يصيبهما الوجع، كل ما ستسمعينه هو صوت قعقعة مفاجئة، وأصداء صوت ارتطام الدلو بأرض البئر بعيدًا وعميقًا جدًّا بالأسفل، يكاد لقلب المرء بسببه أن يبلغ الحنجرة، كما لو أنه هو من يسقط في قعر البئر".

صاحت الطفلة، بعد أن كانت متتبعة جميع نظرات وكلمات العجوز، حتى بدت أنها تقف على حافة البئر نفسه: "إنه مكان مفزع بكل تأكيد في الظلام!".
قال القندلفت: "ما هو إلا قبر، فماذا يكون غير ذلك! من من رفقائنا القدامى يعرف كل هذا، يدرك فكرة أن مع حلول كل ربيع، تخور قواهم أكثر، وتسير حياتهم نحو التلاشي؟ لا أحد!".
سألت الطفلة تلقائيًّا: "هل أنت طاعن في السن للغاية؟".
- سأكون في التاسعة والسبعين من عمري.. في الصيف المقبل.
- ألا تزال تباشر عملك حينما تكون في حال جيد؟
- عملي! بالطبع.. كي تكوني متأكدة أيضًا، حريٌّ بكِ أن تري بنفسك بساتيني هنا بالجوار، انظري من هذه النافذة. لقد زرعت هذه الأرض بأكملها وراعيتها بيدي، بحلول مثل هذا الوقت في العام المقبل، ربما سأجد صعوبة في رؤية السماء؛ لأن الأشجار حينها ستكون عالية كثيفة، وأغصانها متشابكة. أتعلمين! لديَّ عمل آخر أباشره في الليالي الشتوية.. إضافة إلى هذا.
بينما كان يتحدث، فتح خزانة كانت قريبة من موضع جلوسه، وعرض بعض الصناديق الصغيرة، بدت منحوتة يدويًّا، ومصممة من خشب قديم.
قال: "يولع بعض الرفقاء الطيبين بعبق الماضي، وما ينتمي إليه، يحبون شراء هذه التذكارات والطلول من كنيستنا، في بعض الأحيان أشكلها من المتبقي من خشب البلوط، الملقى هنا أو هناك، وفي بعض الأحيان أشكلها من جذاذ النعوش المركونة في المدفن منذ أمد طويل. انظري هنا.. إنه صندوق صغير من آخر مجموعة نحتت، ثُبت عند حوافه ببقايا صفيحة نحاسية، نقش عليها كلمات في ذاك الحين، لكنني الآن بالكاد أستطيع أن أقرأ ما كُتب. لم يكن لديَّ الكثير من الوقت هذا العام، لكن كل هذه الأرفف، ستكون ممتلئة.. ربما في الصيف المقبل".
أعربت الطفلة عن إعجابها الشديد بعمله، وأثنت عليه، ثم بعد ذلك بوقت قصير غادرت، تفكر بينما كانت ماضية في طريقها، كم كان هذا غريبًا، كم كان هذا العجوز غريبًا، يستنبط من مساعيه كلها، ومن كل شيء يحده عبرة قاسية ومغزى عابس، لا يفكر في تطبيقه مطلقًا على نفسه، أو أن ينظر من المنظور ذاته على حياته. بينما يتحدث عن فناء الإنسان، وتتمحور أفكاره حول انعدام اليقين في الحياة البشرية، ويتبين من كلامه وفعله أنه يعتبر نفسه خالدًا، لكن تأملاتها لم تتوقف عند هذا الحد؛ لأنها كانت حكيمة بالقدر الكافي، لتفكر من منطلق رحيم طيب، أن في هذا الفعل يكمن سر الطبيعة البشرية، التي تكمن في التأقلم والتكيف، وأن خطط القندلفت الطاعن في السن لم تكن سوى إتباع لنهج البشرية.
مع جيشان تلك التأملات في خواطرِها، وصلت الطفلة إلى الكنيسة. كان من السهل إيجاد مفتاح الباب الخارجي ضمن حمالة المفاتيح؛ فقد وضعت علامة على كل مفتاح بقصاصة ورقية صفراء. مع تحريك المفتاح داخل قفله، شاع صوت قلقلة أجوف في الأجواء، عندما دخلت بخطوات متعثرة، وترددت أصداء حين غلقه، انتفضت في مكانها.
إذا كان سلام القرية البسيطة، قد جيَّش في صدر الطفلة عواطف كثيرة، بسبب العناء الذي لاقته في سفرها، ومشقات الطرق التي تعرضت إليها، وظلمتها وظلامها اللذين شاهدتهما وهي سائرة بقدمين أعجزهما الوهن، فأي انطباع عميق سيغمرها، حينما تجد نفسها بمفردها في هذا المكان الشعائري المهيب، فتتخلل إليه الأضواء من خصاص نوافذ غائرة، تبدو عتيقة، وتزف فيه دفقات نسيم، نقَّى مع مرور الزمان ما فاح في أركانه من عبق الأرض التي بدت مكدودة بالتحلل،

ورطوبتها، وتتهود الرياح في ممراته وبين أعمدته المتعنقدة ومن مداخله، كأنفاس من عصور ولت! هنا! فقد كان الطوار مكسورًا، منذ ردح من الوقت، تطأه أقدام المصليين الورعين، يدوسون عليه ومن ثمَّ يرحلون، ولا يبقى شيء سوى أحجاره المتهدمة، هنا! حيث العوارض المتحللة، والأقواس المنبعجة، والجدران المتصدعة المتشققة، وتجاويف الأرض، والضريح المهيب الذي لم يبق عليه أي مرتبة.. فقط الرخام والحجارة وقطع حديد وأخشاب وغبار.. وجميع المعالم الشائعة للإقفار. هنا! حيث تجتمع أفضل الأعمال وأسوؤها، الأعلى ثراء وجلالًا والأقل مهابة.. يجتمع عمل السماء وعمل الإنسان، كل شيء في المكان نفسه، وكل شيء مشترك في سرد قصة واحدة.

كان جزء من هذا الصرح الجليل عبارة عن كنيسة بارونية، فيها مددت تماثيل محاربين على أسرة حجرية، وأيديهم مطوية على صدورهم، وسوقهم الواحدة موضوعة فوق الأخرى، هؤلاء ممن كانوا يقاتلون في الحروب المقدسة.. كانوا محزمين بسيوفهم، موضوعين في دروعهم مثلما كانوا في حيواتهم. كان لدى البعض من هؤلاء الفرسان، أسلحتهم، وخوذاتهم وسرابيلهم، معلقة على الحائط إلى جانبهم، ومتدلية من سنانير صدئة. رغم أنها كانت مكسورة مهلهلة، احتفظت بشكلها القديم، وبعبق تاريخها. يرحل الرجال عن الأرض وتبقى آثار أعمال العنف من بعدهم، لا ينجو منهم أحد، ولكن أثر الحروب والدماء المسفوكة تبقى، لأمد طويل كله حِداد من بعد فناء من يسببون خرابها، وهم أصل عمارها.

جلست الطفلة في هذا المكان العتيق الرخيم، بين الأجساد المتصلبة على القبور - كأن وجودهم جعل الصمت مخيمًا على المكان أكثر من أي مكان آخر - جالت بعينيها حولها، فشعرت برهبة وإعجاب، لم يغنيا عن سعادة طفيفة انتابتها، حتى سكنت الطفلة وابتهجت لوجودها. أخذت الكتاب المقدس من على الرف، وشرعت تقرأ منه، ثم وضعته ثانية حيثما انتهت، فكرت في الأيام الصيفية وأجواء الربيع البراقة التي ستحل.. في أشعة الشمس التي ستسدل على هؤلاء النائمين.. في حفيف أوراق الشجر عند النافذة، وظلالها المتلألئة على الطوار.. في تغريد العصافير ونمو البراعم والزهور خارج الأبواب.. في الهواء العليل لين الهبوب إلى الداخل، وتحريكه برفق الرايات فوق رأسها. ماذا لو أن ذلك المكان أيقظ أفكار الموت! يموت من يموت، وسيبقى هو على حاله، ستبقى الأصوات والمشاهد واحدة، في سعادة كما كانت. لن يكون هناك ألم من النوم وسطهم.

غادرت الكنيسة البارونية في صمت مهيب، وببطءٍ متوانٍ، تنظر خلفها كلما مشت، ثم تعاود لتلتفت إليها مرة أخرى، حتى وصلت إلى باب منخفض، من الواضح أنه يفضي إلى البرج، فتحت الباب، وتسلقت السلم الملتوي في الظلام، كانت طوال صعودها تتجنب النظر إلى الأسفل من التفاريج الضيقة نحو المكان الذي غادرته، ترنو إلى بريق الأجراس المغبرة. في النهاية، جنت مكسب صعودها، ووقفت على قمة البرج.

يا لمجد الانبثاق الأول نحو الضوء الساطع! الحقول المنعشة والأيكات الخلابة التي تلوح من كل حدب وصوب! رؤية السماء الزرقاء البراقة من هذا القرب! استيام الماشية في المراعي! الأدخنة التي تصعد من بين الأشجار كأنها منبعثة من الرحاب الخضراء! الأطفال المتقافزون المتهللون بالمرح في الأسفل! كم كان كل شيء مترعًا بالحسن، ينضح بالسعادة! كأنها رحلة بعث من الموت إلى الحياة وتقربًا إلى الجنة.

وجدت أن الأطفال قد رحلوا، حينما أغلقت الباب، ودلفت إلى الرواق. حينما مرت ببناية المدرسة، سمعت همهمات أصوات متداخلة. كان صديقها قد بدأ في مباشرة عمله لذلك اليوم. علت الهمهمات، وصارت ضجيجًا صاخبًا، حينها رأت الأولاد يندفعون محتشدين ومتفرقين، يهللون صارخين في مرح. تحدثت الطفلة إلى نفسها وقالت: "إنه فعل جيد.. إنني حقًّا سعيدة لأنني ذهبتُ إلى الكنيسة اليوم". ثم توقفت، تسترق السمع، تريد معرفة كيف سيصدر الصوت داخلها، وكيف ستخفت أصواتهم تدريجيًّا في رفق.

هل عادت مرة أخرى في اليوم نفسه؟ نعم! لقد عادت مجددًا إلى الكنيسة القديمة، جلست في مجلسها السابق، وقرأت من الكتاب نفسه، وانغمست في دروب الأفكار ذاتها. حينما ضرعت الشمس إلى المغيب، وبدأت نذر ظلام المساء تتسلل، جاعلًا إياها أكثر مهابة وجلالة، مكثت الطفلة في مكانها ولم تبرحه، كأن قد نشبت لها جذور، فظلت جالسة في سكون طرف، لا يساورها أي خوف.

تمكنوا من العثور عليها في آخر المطاف، بدت شاحبة، لكنها سعيدة، تفرقوا حينما هبط الليل، لكن المعلم الطيب توقف لوهلة؛ وانحنى ليقبل وجنتها، وحينها أحس بدفء دمعة على وجهه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الرابع والخمسون

فضلًا عن أعمال العازب حامل البكالوريا المتنوعة والمختلفة، فقد وجد الكنيسة القديمة مصدرًا للاهتمام والبهجة الروحانية، واعتزازًا بهذا الفخر الذي غالبًا ما يشعر به الرجال تجاه عجائب عالمهم الصغير، جعل من تاريخها مجالًا لدراسته، حيث يقضي أيامًا صيفية كثيرة داخل جدرانها، ويسهر ليالي شتوية طويلة بجانب نيران بيت الكاهن، يتأملها مليًّا، ويدرسها عن كثب، ولا يزال العازب حامل البكالوريا يجد فيها ما يضيفه لمعرفته من حكايات وأساطير.
لم يكن واحدًا من ذوي الأرواح القاسية، الذين يجردون الحقيقة الواضحة لكل رداء كهنوتي ملتبس أمره خلال ذلك الوقت، يزايدون في الولع المحب لهندمته، بل من البعض ذوي القلوب الرحيمة المباركة، من يخدمون، مثلهم مثل مياه بئرها، يريدون أن يضيفوا بركات جديدة على المحاسن، يخفوا نصفًا، ويفصحوا عن النصف الآخر، لتجديد الشغف والسعي والاهتمام بدلًا من الكسل والتراخي واللامبالاة، على نقيض تلك الطبقة المتعنتة المتشددة.. فقد أحب أن يرى المثل السماوية متوجة بأكاليل الزهور البرية، ذلك التقليد السامي لرداواتها الراقية، مفعمة بالحيوية في تنسيقاتها البسيطة.. لقد وطأ بخطوات سنية، يحمل في يده نبراسًا منيرًا يقشع غبار القرون، غير راغب في هدم أي من الأضرحة الشاهقة التي علت في غضونها؛ لحب خالص في قلب إنسان أو مشاعر طيبة، يمكن أن تكون متوارية هناك في ركن مكنون..
وهكذا يفترض أن التابوت الحجري الصلب العتيق، يحتوي منذ أمد طويل، عبر مختلف الأجيال العديدة، على عظام البارون، الذي عاد بعد الخراب والدمار والنهب الذي ألحقه بالأراضي الأجنبية، بقلب نادم نازف كمدًا؛ يريد أن يموت في وطنه، لكن ما تم توضيحه مؤخرًا من جانب الأثريين كان مناقضًا لذلك؛ لأن البارون المعني - كما زعموا - لقيّ حتفه في معركة دامية، لفظ فيها أنفاسه الأخيرة وهو يكز على أسنانه متألمًا.. لكن العازب حامل البكالوريا أكد في حزم على أن القصة القديمة هي مثال الحقيقة الخالصة، وأن البارون تاب عن أن يعيث في الأرض فسادًا، وقام بأعمال صالحة، ومن ثمَّ توفيّ، وإذا دخل أي بارون الجنة، فسيكون هذا البارون منعمًا في سلام السماوات، ومن المنطلق نفسه، حينما تجادل الأثريون المذكورين بالأعلى، مؤكدين على أن القبو السري لم يكن قبرًا للسيدة العجوز التي تعرضت للسحب والشنق والإرباع ([8])، من الملكة بيث المجيدة؛ لأنها أغاثت قسيسًا بائسًا ([9])، خر صَعِقًا من جوع وظمأ مدقع أمام بابها، أكد العازب حامل البكالوريا رسميًّا، أمام جميع الوافدين على أن الكنيسة قُدِّست برماد السيدة المسكينة المذكورة آنفًا. فقد تم جمع رفاتها في الليل من على أربع بوابات للمدينة، وتم جلبها سرًّا، ثم بقيت هناك منذ ذاك الوقت. في ذلك الحين أخذت العازب حامل البكلوريا الجلالة والشجاعة، ودحض ومقت مجد الملكة بيث، وأَجَلَّ من شأن المجد الأعظم الذي لا يضاهيه مثيلٌ لتلك المرأة البسيطة في مملكتها، التي كان لها قلب رحيم عطوف وعطاء سخي. أما بالنسبة لادعاء أن الحجر المنبسط أمام الباب لم يكن قبر البخيل الذي هجر إبنه الوحيد وترك مبلغًا من المال للكنيسة؛ لشراء مجموعة أجراس، فقد أقر العازب حامل البكالوريا بالمذكور نفسه، وأن هذا المكان لم يكن مطلقًا لهذا الرجل، وأكد في جملة واحدة، على أن كل حجر وكل صفيحة نحاسية هي نصب تذكارية لمآثر من يجب أن تخلد ذكراهم فقط. وأن الآخرين يود لو يواريهم في طي

النسيان. ربما تم دفنهم في أرض مقدسة، لكنه ود لو يدفنهم عميقًا، ولا يسلط عليهم الضوء مرة أخرى أبدًا.
رشدٌ قد تردد من شفاه هذا المعلم، أثر في الطفلة، ففهمت واجبها البسيط. أعجبت بكامل ما قيل، بالمبنى الساكن في هدوء رخيم، بالسلام الجميل الذي يحل في شتى أرجاء المكان، بالعصر المهيب المحاط بالشبيبة الأبدية، حينما سمعت تلك الأقاصيص، بدا لها المكان الذي وقفت فيه مقدسًا بالخير والفضيلة. كان عالمًا آخر، لم تطأه خطيئة قط، ولا ينسلُّ إليه الأسى أبدًا، مكانًا للسكنة والسكينة، مكانًا لا يقترب منه أي شر.
حينما انتهى العازب حامل البكالوريا من توضيح جملة تاريخ كل قبر وكل ما تم نقشه على شواهد القبور تقريبًا، اصطحبها إلى الأسفل؛ ليريها المدفن السردابي العتيق، الذي تحول مع الزمن إلى مجرد قبو معتم. بيَّن لها كيف كانت تتم إضاءته في عهد الرهبان، وكيف كان محاطًا بفوانيس إنارة متدلية من السقف، وبالمباخر المتأرجحة التي كانت تعبق المكان بالطيب الزكي، أخبرها بالأردية المرصعة بالذهب والفضة، والرسوم، والممتلكات النفيسة، والجواهر المتلألئة الوميضة عبر السقوف المنخفضة. ذكر لها أن مرات عدة ترددت أصداء العهود القديمة في أنصاف الليالي في قديم الزمان، حينما ركع المتلفعون برداواتهم يغطون رؤوسهم، متضرعين، يتلون صلواتهم على مسابحهم. اصطحبها إلى ما فوق الأرض مرةً أخرى، أراها عاليًا في الجدران الشرفات التي كانت تُرى فيها الراهبات بغير وضوح في لباسهن الداكن المحتشم - حتى وقت قريب - يقفن كأنهن ظلال مشوشة؛ يستمعن إلى الصلوات. أراها أيضًا، كيف ارتدى المحاربون، الذين رقدت أجسادهم على القبور، دروعهم الخريدة التي كانت معلقة نخرة - أراها كيف كانت تعتمر الخوذة ويرتدى الدرع والقفاز الواقي - بيَّن لها كيف كانوا ماهرين في المحاربة بسيوف (اليدين الاثنتين) ([10]) الضخمة، ومقاتلة الرجال بالصوالج الحديدية. حفظت الطفلة كل ما أثرى عقلها به، عن ظهر قلب، حينما كانت تستيقظ ليلًا من أحلام تراودها عن تلك العهود القديمة، كانت تنهض من فراشها، وترنو إلى الخارج نحو الكنيسة وهي مظلمة، تأمل لو ترى الضوء ينبعث من نوافذها، وتسمع أصداء تردد موجات آلة الأرغن الموسيقية، وأصداء أصواتهم، متنقلة مع دفقات النسيم.
تحسنت صحة القندلفت العجوز منذ آخر مرة، وأصبح في حال أفضل. لكنه رغم ذلك لم يعد قادرًا على العمل، تعلمت منه الطفلة أمورًا أخرى كثيرة، وإن كانت من نوع مختلف. في أحد الأيام، كان من اللازم أن يحفر قبر، فجاء ليشرف على الرجل الذي همَّ بالحفر. في ذاك اليوم كان ذَلِق اللسان يريد أن يتحدث كثيرًا، في البداية كانت الطفلة تقف إلى جواره، وبعد مدة جلست على العشب عند قدميه، ترفع وجهها النام عن عقل يشغله التفكير، وتتحادث معه. أما الرجل الذي قام بواجب القندلفت، فكان رجلًا أكثر عجزًا منه، رغم أنه كان أكثر نشاطًا ومنعمًا بالصحة. كان أصمَّ، حينما تبادل معه القندلفت - الذي ربما مشى على مضض ميلًا بمشقة بالغة في ست ساعات - تعقيبًا على عمله، حينها لم تستطع الطفلة ملاحظة أنه فعل ذلك بأسف جزع بسبب عجزه، كما لو كان أكثر الرجال الأحياء قوة وأفعمهم حيوية.
قالت الطفلة عندما اقتربت منه: "يؤسفني أن أرى ذلك يُفعل.. سمعت أن لا أحد قد توفي هنا".
رد القندلفت: "لقد عاشت في قرية أخرى يا عزيزتي.. على بعد ثلاثة أميال".
- هل كانت شابة؟

قال القندلفت: "ذ. نعم! لم تكن أكبر من أربعة وستين عامًا حسب ما أظن.. هل كانت أكبر من أربعة وستين عامًا يا ديفيد؟".
كان ديفيد منهمكًا في الحفر، ولم يسمع أي حرف من هذا السؤال. ولأن القندلفت لم يستطع الوصول إليه ليخزه بعكازه، وكان عاجزًا عن النهوض دون مساعدة، فلفت انتباهه برمي طين لازب على قلنسونه الحمراء.
نظر ديفيد إلى الأعلى وقال: "ما الأمر الآن؟".
سأل القندلفت: "كم كان عمر بيكي مورغان؟".
كرر ديفيد قائلًا: "بيكي مورغان؟".
أجاب القندلفت: "نعم"، ثم أضاف بنبرة نصفها عطوف ونصفها منفعل؛ لعدم استطاعة العجوز سماعه، وقال: "إنك تصير أصمَّ جدًّا يا ديفي، أصم بالكلية على وجه الدقة!".
توقف العجوز عن مواكبة عمله، نظف مجرافه بقطعة من الأردواز، كان قد حملها معه من أجل هذا الغرض - يفكر مليًّا وهو في خضم كشطه له - فوحدها السماوات تعرف كم عدد المسميات بـ "بيكي مورغان" - أجلس نفسه ليتدبر الأمر ويمعن فيه.
قال: "دعني أفكر وأتذكر.. لقد رأيت الليلة الماضية ما وضعوه في التابوت.. هل قاربت على التاسعة والسبعين من عمرها؟".
قال القندلفت: "لا لا!".
رد العجوز متنهدًا: "آه! بل نعم! حسب ما أتذكره، أعتقد أنها كانت قريبة جدًّا من عمرنا. نعم لقد كانت في التاسعة والسبعين من عمرها".
سأل القندلفت بإيماءات دلت على بعض العواطف: "هل أنت متأكد أنك لم تخطئ في الأرقام يا ديفي؟".
قال العجوز: "ماذا؟ قل ثانية".
صاح القندلفت في انفعال حاد: "إنه أصم جدًّا.. أصم بالكلية.. قلت: هل أنت متأكد أنك على حق بشأن الأرقام؟".
رد العجوز: "أوه! متأكد تمامًا.. فلماذا لا أكون؟".
دمدم القندلفت مخاطبًا نفسه: "إنه أصم للغاية، وشرع في أن يكون أحمق".
تساءلت الطفلة عما دفعه إلى هذا الإعتقاد، إذا كان ما قيل هو الحقيقة، حينها بدا العجوز نشيطًا كما هو، بل ربما بدا قويًّا بلا حدود، وتابع عمله. ولم يقل القندلفت أكثر مما قال ولو بكلمة، مع مرور الوقت، نست الطفلة ما تساءلت عنه، وتحدثت مرة أخرى.
قالت: "لقد كنت تخبرني عن أعمالك البستانية.. هل زرعت أي نبات هنا؟".
رد القندلفت: "أتقصدين في ساحة الكنيسة؟ لا لم أفعل".
قالت الطفلة: "لقد رأيت بالجوار بعض الزهور والشجيرات الصغيرة.. انظر، يوجد البعض منها هناك، أتراها! لقد ظننتُ أنك من زرعها ويعمل على رعايتها، على الرغم من كونها غير نضرة في الواقع".
قال العجوز: "إنها تنمو بمشيئة السماء.. وقد ألزمتها في كرم بألَّا تنضر هنا أبدًا".
- لا أفهمك!
قال القندلفت: "لماذا! إنها تميز قبور أولئك الذينِ لديهم أصدقاءٍ ذوي قلوب عطوفة طاهرة".

صاحت الطفلة بقوة: "أنا متأكدة أنهم كذلك فعلًا.. وسعيدة حقًّا أنها تفعل ذلك!".
قال العجوز: "نعم، معكِ حق، لكن تريثي لوهلة، وانظري إليها. انظري كيف هي ذابلة ودب فيها اليبوس، وقممها مندلية، هل بإمكانك تخمين السبب؟".
أجابت الطفلة: "لا".
- لأن ذكرى الراقدين في الثرى، سرعان ما تزول.. في البداية، يأتون إليهم في الصباح وفي الظهيرة وفي المساء، ثم سرعان ما يقل مجيؤهم تدريجيًّا، من مرة في اليوم، إلى مرة في الأسبوع، ثم مرة في الشهر، ثم مرة غير أكيدة على فترات طويلة متقطعة، ثم.. انقطاع دائم. نادرًا ما تستمر نداوتها لوقت طويل. يمكن للزهور الصيفية قصيرة الأمد أن تعيش أطول منها.
قالت الطفلة: "أنا حزينة لسماعي ذلك".
قال العجوز وهو يهز رأسه: "آه! لذلك قولي للرفقاء الذين ينزلون إلى هنا بالأسفل أن يعتنوا بها.. لكن، دعيني أقول ما هو خلاف ذلك، إنهم يقولون لي في بعض الأحيان: "إن لديك عادة جميلة في هذا الجزء من البلاد؛ وهي زرع القبور، لكنه أمر محزن أن ترى الزرع يفقد نضارته ويذبل ويموت. لكنني ألتمس لهم العذر، وأريد أن أخبرهم أنها - كما أفهم - علامة جيدة على سعادة الأحياء. وأن هذا هو حال الدنيا، إنها الطبيعة".
قالت الطفلة بنبرة جادة: "ربما إعتاد المنفجعون على النظر إلى السماء في النهار، والنجوم في الليل؛ يظنون أن الموتى أحباؤهم موجودون هناك، وأنهم ليسوا في القبور".
رد العجوز في حيرة: "ربما.. ربما الأمر كذلك".
قالت الطفلة داخل قرارة نفسها متدبرة: "حتى إذا كان الأمر مثل ما أعتقد.. سأجعل من هذا المكان حديقتي. لن يكون هناك أي ضرر من العمل هنا يومًا بعد يوم على الأقل، ومن بعدها ستعم الأفكار السعيدة.. أنا متأكدة من ذلك".
لم يلحظ القندلفت وجنتيها النضرتين المتوردتين، وعينيها الدامعتين؛ فقد إلتفتَ إلى ديفيد العجوز، ينادي عليه باسمه. كان من البيِّن أن ما كانت تبلغه بيكي مورغان من العمر لا يزال يقلق تفكيره، ويستحوذ عليه.. وذلك على الأغلب كان أمرًا بالكاد تستوعبه الطفلة.
كانت المرة الثانية أو الثالثة لتكرار اسمه هي ما لفتت انتباهه. حينها توقف عن عمله، واتكأ على مجرفه، ووضع يده خلف أذنه الصماء.
قال: "هل ناديت؟".
رد القندلفت: "لقد كنت أفكر يا ديفي في كونها.. تمهل!". أشار نحو القبر: "هل هي أكبر منك أم أكبر مني!".
أجاب العجوز وهو يهز رأسه: "قلت لك إنها كانت في التاسعة والسبعين.. أقول لك إنني رأيتها".
رد القندلفت: "رأيتها؟ حسنًا يا ديفي، ولكن النساء لا تخبرن الحقيقة عن عمرهن دائمًا".
قال الرجل الآخر، وقد لمع بريق مفاجئ في عينيه: "هذا صحيح فعلًا.. ربما كانت أكبر سنًّا".
- أنا متأكد تمام التأكد أنها كانت كذلك.. أريدك أن تخمن كم كان عمرها، فنحن نبدو صبية بالنسبة إليها.
رد ديفيد: "لقد بدت كبيرة في السن.. نعم معك حق، لقد بدت طاعنة في السن".
قال القندلفت: "استدع إلى عقلك كيف كانت تبدو لسنوات طويلة طويلة جدًّا، وقل لي إذا كانت ستظل في التاسعة والسبعين في النهاية.. هل تناهز عمرنا؟".

صاح الآخر: "قد تكون أكبر سنًّا بخمس سنوات على الأقل".
قال القندلفت مدمدمًا: "خمس سنوات! بل عشر سنوات.. إنها كانت في التاسعة والثمانين من عمرها منذ حين. أستطيع أن أتذكر الوقت الذي توفيت فيه ابنتها. حينها كانت تبلغ من العمر تسعة وثمانين عامًا، والآن تحاول أن تمر علينا، وهي أصغر بعشر سنوات.. أوه! يا لعنجهية البشر!".
لم يكن الرجل العجوز في منأى عن استيعاب المغزى من هذا الموضوع المثمر، انهمكا كلاهما في تقديم مجموعات من الأدلة، التي تشكك في عمرها.. لم تكن حول العمر المقترح للمتوفية، بل إذا ما لم تكن قد ناهزت على حد المائة. حينما توصلا أخيرًا إلى تسوية نالت رضًى مشترك بشأن هذه المسألة، قام القندلفت بمساعدة صديقه؛ كي يرحل.
قال بينما كان يهم بالابتعاد: "إن الجو بارد، يجب أن أكون حريصًا حتى يحل الصيف".
سأل ديفيد العجوز وقال: "ماذا؟".
صاح القندلفت: "يا لرفيقي المسكين! إنه أصم للغاية.. وداعًا!".
قال ديفيد العجوز، بينما كان يتبعه بعينيه: "آه! يا لرفيقي العجوز! إن قواه تخور بسرعة.. إنه يتقدم في السن يومًا بعد يوم".
هكذا تفرقا، وكل منهما مقتنع بأن عمر الآخر أقصر من عمره نفسه، ويغمر كليهما الشعور بالعزاء والرضى بسبب الافتراض المجازي الذي اتفقا عليه، بخصوص بيكي مورغان، التي لم تعد وفاتها سابقة لتطبيق غير مربح عليهما بعد الآن، ولن تشغل تفكيرهما لمدة عشر سنوات تالية على أقل التقديرات.
ظلت الطفلة بضع دقائق في مكانها، تراقب العجوز الأصم، وهو يلقي بالطين اللازب بمجرفته، ويتوقف بين الحين والآخر يسعل ويلتقط أنفاسه، وكان لا يزال يتمتم بالحديث مع نفسه وبضحكة مكتومة، أن القندلفت تخور قواه سريعًا. وظل على هذا الحال، حتى قامت نيل لترحل، مشت في ساحة الكنيسة متفكرة، حتى قابلت بمحض الصدفة المعلم، الذي كان جالسًا على قبر مغطى بالعشب الأخضر أسفل أشعة الشمس يقرأ.
أغلق الكتاب من توه، وقال متهللًا: "نيل.. أنتِ هنا! إنني سعيد حقًّا لرؤيتك هنا في الهواء الطلق ومشمولة بالنور. لقد خشيت أن تكوني عدت مرة ثانية إلى الكنيسة.. أين كنت طوال هذه المدة؟".
جلست الطفلة بجانبه وقالت: "إنني خائفة! هذا ليس مكانًا جيدًا!".
قال المعلم: "نعم نعم.. معك حق، لكن يجب عليك أن تكوني هادئة ومتفائلة و.. لا، لا تومئي برأسك هكذا وتبتسمي بهذا القدر من الأسى".
- ليس أسى! إذا عرفت حقيقة شعور قلبي فعلًا. من فضلك لا تنظر إليَّ كما لو كنت حزينة. لا يوجد على وجه الأرض مخلوق أكثر مني سعادة الآن.
أخذت الطفلة يده في حنان وامتنان، وأمسكت بها بين يديها، وقالت بعد صمت دام لبعض الوقت: "إنها مشيئة الرب".
- ماذا؟
قالت: "كل هذا.. كل ما هو حولنا، إنها مشيئة الرب. لكن من منا حزين الآن؟ إنك تراني ابتسم".

قال المعلم: "وأنا أيضًا. أبتسم حينما أفكر في كم مرة يمكن لنا أن نضحك في مثل هذا المكان.. ألم تتحدثي هناك كثيرًا؟".
- نعم
- وما الذي جعلك مليئة بكل هذا الحزن؟
عمَّ الصمت للحظات طويلة.
قال المعلم في عطف ولطف: "ماذا هناك؟ ما بكِ! هيا قولي لي".
قلقل الحزن دمع الطفلة، وانفجرت بالبكاء، وقالت: "إنني حزينة.. إنني حزينة حقًّا؛ حينما أفكر في أن كل الذين يموتون حولنا سرعان ما يتم نسيانهم".
لاحظ المعلم عينيها التي لاحتا في إلتفاتة شاملتين لما هو حولها وقال: "وهل تعتقدين أن القبر الذي لا يزوره أحد، والشجرة المتيبسة، والزهرة أو الزهرتين الذابلتين رموز للنسيان والإهمال الفاتر؟ هل تعتقدين أن لا وجود لأفعال أخرى، بعيدة عن هنا، لتذكر المتوفين بشكل أفضل؟ نيل نيل! قد يكون بعض الناس في هذه اللحظة في مختلف أرجاء العالم مشغولين في أفكارهم الخيرة ويعملون صالحًا - بغض النظر عن مشهد القبور - إن هذا ما يعوَّل عليه حقًّا".
قاطعته الطفلة على عجل وقالت: "أنا أعلم، لست في حاجة إلى قول المزيد؛ لأني أشعر أني أعرف مثالًا حيًّا على قولك.. كيف لي ألا أكون على دراية بهذا كله، حينما أفكر فيك؟".
صاح صديقها وقال: "ليس هناك أي شيء.. صالح أو بريء يموت أو يطوى مع الزمان.. إما أن نتمسك بهذا الإيمان وإما أن نضل السبيل في الحياة الدنيا. إن الأطفال البريئة والرضع من يموتون في مهدهم، سيعيشون مرة أخرى في أفكار محبيهم، يؤدون أدوارهم من خلالهم، يكمن وجودهم في أعمالهم الخيرة التي تسع العالم، حتى لو كانت أجسادهم رمادًا أو مدفونة في أعماق البحر. لا يوجد ملاك يسكن في رحاب الجنة إلا إذا كانت مآثره الفاضلة على وجه الأرض متمثلة هنا في أعمال من يحبونه. أتقولين يتم نسيانهم! إذا كان بالإمكان تتبع الأعمال الصالحة للمخلوقات البشرية حتى الوصول إلى مصدرها، حتى الموت حينها سيكون جميلًا! ناهيك عن مقدار الحب الخالص والصدقة والمودة والرحمة التي يمكن رؤيتها تنمو في القبور المغبرة!".
قالت الطفلة: "نعم، هذه الحقيقة، أعلم أنها كذلك. مَن مِنَ المفترض أن يشعر بما قلته مثلي، ففي من يحيا تلميذك الصغير مرة أخرى! يا عزيزي، يا صديقي العزيز.. لو تعلم كم الراحة التي بعثتها في نفسي ومنحتني إياها!".
لم يقل المعلم أي كلمة أخرى، مال عليها فقط في صمت رخيم؛ فقد كان قلبه مثقلًا بما يكفي.
ظلا جالسين، لم يبرحا مكانهما، حتى وصل الجد. قبل أن يتحدثا كثيرًا، دق جرس الكنيسة، معلنًا عن موعد المدرسة، فانسحب صديقهما من مجلسهم.
قال الجد وهو يتبعه بنظراته: "إنه رجل صالح، رجل عطوف، رجل لن يؤذينا أبدًا يا نيل. إننا في أمان هنا أخيرا، أليس كذلك؟".
هزت الطفلة رأسها بالإيجاب، وتبسمت له.
قال الرجل العجوز، وهو يلمس وجنتها: "إنها تريد الراحة، شاحبة.. شاحبة جدًّا. إنها ليست كما اعتادت أن تكون".
سألت الطفلة: "متى؟".

قال الرجل العجوز: "ها! متى! كم عدد الأسابيع التي ولت علينا؟ هل يمكنني أن أعدها على أصابعي؟ دعي وجنتيك تستريحان، لقد انتهى كل شيء، من الأفضل لنا أنها ولت وانتهت وأصبح كل شيء على ما يرام".
ردت الطفلة: "بل أفضل بكثير يا عزيزي.. سوف ننساها، وإذا حدث وتذكرناها في أي وقت، فلن يكون هذا سوى حلمٍ مزعجٍ سرعان ما سيرحل.
تلفتَ العجوز حوله، وأشار إليها بإصبعه وقال: "صه! لا مزيد من الحديث عن هذا الحلم، وعن كل البؤس الذي جلبه. لا توجد أحلام مثله هنا. إنه مكان هادئ، لن تراودنا مثل تلك الأحلام هنا. دعينا لا نتحدث عنها بتاتًا، خشية أن تلاحقنا مرة أخرى.. يجب أن ننسى الأعين الذابلة والوجنات الغائرة والأمطار والبرد القارس ويزيد عليها ما كان أسوأ الأهوال والمخاوف.. يجب أن ننسى هذه الأمور، ما دمنا منعمين بالسكينة وأصبحنا مطمئنين هنا".
صاحت الطفلة في سعادة روحية: "الحمد لمن رحمنا! وغير حالنا إلى أسعد حال!".
قال الرجل العجوز: "سأكون صبورًا وشاكرًا ومطيعًا، إذا سمحتِ لي بالبقاء هنا. وأرجو منك ألَّا تختبئي مني، وألا تتسلي لترحلي بعيدًا بمفردكِ.. دعيني أبقى إلى جانبكِ. وسأكون صادقًا ومخلصًا حقًّا يا نيل".
قالت الطفلة في سعادة متكلفة: "أنا أتسلل لأرحل بعيدًا! لماذا؟! رغم أنها ستكون مزحة ممتعة حقًّا. انظر يا جدي العزيز، إننا سنجعل معًا من هذا المكان حديقتنا الخاصة.. لِمَ لا؟ إنه واحد من أفضل الأماكن.. وسنبدأ غدًّا، ونعمل معًا، يدًا بيد، وجنبًا إلى جنب".
صاح جدها: "إنها فكرة جريئة جدًّا! حسنًا يا حبيبتي، سنبدأ غدًّا".
من كان سعيدًا مثل الرجل العجوز، حينما همَّا بعملهما في اليوم التالي! من كان غير واعٍ بجميع الأصول المنتسبة للبقعة التي كانا فيها مثله! اقتلعا الأعشاب الطويلة، ونبات القراص من المقابر، والجذور والنباتات الصغيرة المتيبسة، جعلا طبقة العشب مستوية، ونظفاها من العَضَد والأعشاب الضارة. بينما كانا في حمية العمل، لاحظت الطفلة وهي ترفع رأسها بعد أن كانت منحنية نحو الأرض، أن العازب حامل البكالوريا جالس على المرقاة بالقرب منهما، يشاهدهما في صمت.
قال الأستاذ النبيل، وهو يحيي نيل بينما انحنت له احترامًا: "إنها مساعٍ حميدة وعمل طيب.. هل أنجزتما كل هذه الأعمال هذا الصباح؟".
ردت الطفلة خافضة العينين قائلةً: "إنه قدر قليل يا سيدي ممَّا ننوي فعله".
قال العازب حامل البكالوريا: "إنه عمل جيد، عمل جيد جدًّا! لكن هل عملكما مقتصر فقط على قبور الأطفال والشباب؟".
أجابت الطفلة وهي تحيد برأسها جانبًا، وتتحدث في هدوء: "سنذهب إلى القبور الأخرى في الوقت المناسب يا سيدي".
كان هذا حادثًا طفيفًا، ربما كان إشارة أو بمحض الصدفة، أو ربما تعاطف الطفلة التلقائي مع الصغار هو المحرك الرئيس لهذا الفعل. لكن هذا الحادث لم يمرَّ هونًا على جدها، فلم يلحظ ذلك من قبل. نظر من فوره في حالة متعجلة إلى قبور الأطفال، ثم تبعها بنظرات مضطربة نحو الطفلة، فضمها إلى جانبه، وألح عليها كي تأخذ قسطًا من الراحة. طرأ أمر على عقله قد تلاشى أثره ونسيه منذ فترة بعيدة، لكنه اقتحم تفكيره مرة أخرى واستحوذ عليه مرات ومرات عديدة

أثناء ذلك اليوم، أو على الأغلب كل الأيام التي تلته. ذات مرة، أثناء عملهما معًا، غالبًا كانت تراه الطفلة يلتفت وينظر إليها ويجتاحه الارتياب، كما لو كان يحاول إيجاد حل لشكوك عسيرة تؤلمه، يحاول أن يجمع أفكاره المبعثرة، فتسأله وتصر على أن يقول السبب. لكنه لم ينطق كلمة واحدة.. لم يقل أي شيء.. أي شيء على الإطلاق.. يضم رأسها بين ذراعيه، يلمس وجنتها بيده، يربت عليها، وبقول متمتمًا: إنها ستصير أقوى بمرور الأيام، وستكون بالتأكيد امرأة يافعة فيما هو قريب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الخامس والخمسون

منذ ذلك الحين، وقد تأججت العواطف داخل صدر الرجل العجوز، وأظهر قلقًا مفرطًا تجاه الطفلة، التي لم تَنْم بعيدًا عنه ولم تتركه قط. كأنها أوتار في قلب الإنسان.. أوتار غريبة ومتنوعة، تبقى صامتة لا شاعرة تجاه نوابض جادة انفعالية وعاطفية، ثم بمحض الصدفة تستجيب لأقل لمسة عرضية على حين غرة. في العقول الأكثر طفولية أو الأكثر غفلة، توجد تسلسلات لأفكار، نادرًا ما يمكن أن يقودها الفن أو أن تنميها مهارة، لكنها تكشف عن نفسها، مثلها مثل الحقائق الجليلة، تنبثق عن طريق الصدفة، حينما يقف المكتشف على مرأى من النهاية الأكثر وضوحًا.
منذ ذلك الحين، لم ينسَ العجوز ولو لوهلة وهن الطفلة وتفانيها، منذ وقت الحادث الطفيف، رآها بأعين مختلفة، رآها تكد وتكدح وتثابر إلى جانبه رغم الكثير من الصعوبات والمعاناة، قلما فكر فيها بخلاف كونها شريكة العوز والبؤس والمآسي التي كمَّدته بشدة على نحو شخصي، حزن على حالها، وامتثل لنكران الذات وعدم الالتفات إلى مصلحته الشخصية، مثلما فعلت طوال تلك المدة، لقد استعاد وعيه، ورأى ما يدين لها به، رأى ما فعله بها الشقاء. حاشا وكلا وقطعًا ولو للحظة واحدة، اكترث لحاله، أو فكر في راحته الشخصية، أو راودته أي اعتبارات أو تقديرات أنانية تشتت انتباهه أو تصرف تفكيره عن أكثر ما أحبه لطفًا.
بات يتبعها مجيئًا وذهابًا في كل مكان، وينتظر منتبهًا لها، إذا انتابها التعب، يمد ذراعه من فوره؛ لتتوكأ عليها.. يجلس أمامها في ركن المدفأة المكنون، راضيًا لرؤيتها، ينتظرها حتى ترفع رأسها وتنظر إليه متبسمة مثل قديم الزمان.. يقوم خلسة بالأعمال المنزلية التي تستنفد قواها بشدة.. يستيقظ في الليالي المعتمة الباردة ليستمع إلى أنفاسها وهي نائمة، وأحيانًا يغفو لساعات بجوار سريرها ليلمس يدها فقط. هو وحده مَن يعرف كل شيء، إنه هو وحده من يعرف ما هي آمال ومخاوف وأفكار تعلقه العميق التي كانت تتخبط داخل عقله المضطرب، وما التغيير الجذري الذي وقع على العجوز المسكين. مرت أسابيع وانقضت، أحيانًا عندما كانت تشعر الطفلة بأنها منهكة أو أصابها الإرهاق، كانت تقضي أمسياتها على الأريكة بجوار دفء النيران. في مثل هذه الأوقات، كان يحضر لها المعلمُ الكتبَ، ويقرؤها لها بصوت عالٍ، ونادرًا ما كانت تمر ليلة دون أن يذهب إليها العازب حامل البكالوريا، ويأخذ دوره في القراءة. لازمها العجوز، يجلس ويستمع، على الرغم من استيعابه البسيط للكلمات، كان يجلس، يثبت ناظريه على نيل، يرنو إليها ساكن الطرف.. إذا ابتسمت أو تهلل وجهها مع أحداث القصة، يقول إنها كانت قصة جيدة، ويعبر عن ولعه الشديد بهذا الكتاب. في أحاديثهم المسائية، إذا قص عليها العازب حامل البكالوريا حكايات أسعدتها - دائمًا كانت حكاياته تسعدها بكل تأكيد - يحاول الرجل العجوز أن يحفظها في ذاكرته بجهد جهيد، لكنه.. أحيانًا، حينما يغادر العازب حامل البكالوريا، يتسلل الرجل العجوز مسرعًا وراءه، يتوسل إليه في تواضع كي يخبره ببعض الأجزاء مرة أخرى؛ حتى يتعلم كيف يظفر بابتسامة من نيل.
لكنها ظروف استثنائية، بعدها كانت الطفلة تزداد توقًا بكل سعادة إلى الخروج، والتنزه في حديقتها المهيبة، ازداد عدد المجموعات المتوافدة أكثر فأكثر؛ يتحدثون مع الطفلة، وحينما يرحلون، يتحدثون عنها لمعارفهم، فيتهافتون على القدوم إلى الكنيسة، حتى في هذا الفصل من

فصول السنة، صار للكنيسة زوار بشكل يومي تقريبًا. إعتاد الرجل العجوز على تتبعهم لمسافات قصيرة داخل المبنى؛ يستمع إلى أصواتهم الشجية التي أحبها جدًّا، وحينما يغادر الغرباء، ويتفرقون عن نيل، يختلط بهم ليستمع إلى المترامي من حديثهم، أو برأسه الأشيب غير المغطَّى يقف عند البوابة حين مرورهم، من أجل الغرض نفسه.
دائمًا ما كانوا يشيدون بالطفلة ويثنون على جمالها وعذوبتها، لطالما كان فخورًا حين سماعهم! لكن ما كان يحدث، جعل قلبه في كثير من الأحيان يرتعد ويعتصر حزنًا، جعله ينتحب ويذرف دمعًا وحيدًا، في ركن مظلم! واحسرتاه! حتى الغرباء غير العابئين من ليس لهم شأن بها، ولا يحملون لها أي مشاعر، مجرد معرفة لحظية، ثم يرحلون بعيدًا وسرعان ما ينسون لقاءها مع حلول الأسبوع المقبل، ينسون أنهم رأوها، ينسون حتى إشفاقهم على حالها، يغادرون بعد تقديم تحية له في رأفة، متهامسين حين مرورهم بإشفاقهم عليها.
حتى أهل القرية أنفسهم، لم يكن من بينهم أحد إلا وأظهر إعزازًا ودلالًا لنيل المسكينة، يكنون لها المشاعر نفسها بينهم وبين أنفسهم، يتعاملون معها بكل مودة، يحملون في صدورهم الإشفاق على حالها، وتزداد مشاعرهم يومًا بعد يوم. حتى طلاب المدرسة من يتعاملون بقلوبهم من لا يعرفون خلط التفكير بالعلاقات، اكترثوا لحالها واهتموا بها، وأشفقوا عليها، من كان غليظ القلب من بينهم، يأسف إذا لم يرها في مكانها المعتاد وهو في طريقه إلى المدرسة، فيحيد عنه، ويهرع إلى النافذة؛ ليسأل عنها. إذا كانت تجلس داخل الكنيسة، يختلسون النظر إليها عبر الباب في هدوء، لكنهم لا يبادرون بالحديث إليها، يقفون فقط رانين إليها، حتى ترفع رأسها، وتذهب للتحدث معهم. كان هناك شعور ما رائج فيما بينهم، يزيد من حب الطفلة داخل نفوسهم جميعًا.
عندما كان يحين يوم الأحد. كان أهل القرية الطيبون كلهم يتجمعون في الكنيسة، فمن القلعة التي عاشت فيها العائلة القديمة التي كانت أطلالًا خاوية، وعلى مسافة سبعة أميال لم يكن هناك سوى أناس متواضعين. وهناك وكأي مكان آخر أكنوا لنيل شعورًا رهيفًا. يلتفون حولها في الرواق، قبل وبعد القداس، يتكتل الأطفال عند أطراف تنانيرها، ينحي الرجال أحاديثهم وتؤجل السيدات همساتهن ليقدمن لها أرق التحيات. لم يكن أي منهم، سواءً أكان صغيرًا أم كبيرًا، شابًا أم عجوزًا يمر بنيل من دون إلقاء الكلمات اللطيفة على مسامعها. يقدم إليها الكثيرون ممن جاءوا من مسافة ثلاثة أو أربعة أميال الهدايا الرمزية، فمن أكثرهم طيبة إلى أشدهم فظاظة يتمنون لها الخير.
بحثت بين الأطفال الصغار عن أولئك الذين رأتهم لأول مرة يلعبون في ساحة الكنيسة. صار أحدهم - من تحدث معها عن شقيقه - صديقها الصغير المفضل، غالبًا ما كان يجلس بجانبها في الكنيسة، أو يصعد معها إلى علية البرج. كان من دواعي سروره أن يساعدها، أو أن يتصور له أنه ساعدها فعلًا، وسرعان ما صارا رفيقين مقربين.
حدث ذلك، حينما كانت تقرأ في أحد الأيام في ركن قديم مكنون، ولاح الطفل يركض نحوها وعينه مغرورقة بالدموع، بعد أن أمسكت به، نظر إليها للحظة بتلهف، ثم طوق رقبتها بذراعيه الصغيرتين في أسى.
قالت نيل بينما عكفت على تهدئته: "ماذا بك الآن؟ ما المشكلة؟".

صاح الولد، ولا يزال يحتضنها بشدة: "لن تكوني واحدة منهم.. لا، لا لن تكون الآن أو حتى قريبًا".
نظرت إليه متعجبة، أعادت شعره إلى الوراء، بعيدًا عن جبهته وعينيه، ثم قبلته، وسألته ماذا يقصد.
صرخ الولد: "يجب ألَّا تكوني واحدة منهم يا نيل.. إننا لا نستطيع أن نراهم. إنهم لا يأتون إلينا أبدًا ولا يلعبون معنا، أو يتكلمون معنا. كوني مثلما أنت الآن. أنتِ أفضل الآن يا نيل".
قالت الطفلة: "مهلًا مهلًا! أنا لا أفهمك. قل لي ماذا تقصد؟".
رفع الولد رأسه ونظر إليها في عينيها وقال: "لماذا! لماذا يقولون إنك ستكونين ملاكًا، قبل أن تغرد الطيور مرة أخرى. لن تكوني يا نيل. أليس كذلك؟ لا تبتعدي عنا يا نيل، ولو كانت السماء أكثر راحة لكِ يا نيل، لا ترحلي عنا!".
أخفضت الطفلة رأسها، ووارت وجهها خلف يديها.
صاح الولد، يتبسم رغم دموعه: "إنها لا تستطيع تحمل الفكرة! لن تذهبي، أليس كذلك؟ تعرفين مدى حزننا إذا فعلت يا عزيزتي نيل، قولي لي إنكِ ستظلين معنا، وستبقين بيننا، قولي لي.. قولي لي إنكِ ستفعلين ذلك".
خر الولد راكعًا على ركبتيه، وأطبق يديه متضرعًا.
قال: "انظري إليَّ يا نيل، وأخبريني أنك ستبقين، حتى أعرف أنهم جميعًا مخطئون، وسوف أعدك بأنني لن أبكي بعد الآن. ألن تقولي نعم يا نيل؟".
لا يزال الرأس المخفوض كما هو، ولا يزال الوجه المتواري لا يفصح عن أي أمارات سوى تنهداتها العميقة.
تابع الولد، وهو يحاول إزاحة يديها عن وجهها: "أتعلمين.. بعد فترة ستسعد الملائكة اللطفاء لأنك لست بينهم، وقررتي البقاء لتكوني معنا هنا. لم يكن (ويلي) ليرحل وينضم إليهم، إذا كان يعلم كم سأفتقده ليلًا وأنا نائم على فراشنا الصغير. لم يكن ليرحل عني ويتركني مطلقًا.. أنا متأكد".
لم تجب عليه الطفلة، فقط تتنهد، كما لو أن قلبها ينفطر حزنًا.
"لماذا سترحلين عنا يا عزيزتي نيل؟ أعرف أنكِ لن تكوني سعيدة؛ عندما تسمعين أننا نبكي على فقدانكِ، إنهم يقولون إن (ويلي) الآن في الجنة، حيث يكون الجو صيفًا طوال الوقت، أنا متأكد أنه يحزن حينما أنام على قبره، وهو راقد بالأسفل، ولا يستطيع أن ينهض ليقبلني". احتضنها الولد وقرب وجهه من وجهها وقال: "لكنكِ إذا صممتي على الرحيل عني يا نيل، ابحثي عنه من أجلي، وأخبريه أنني لا أزال أحبه، وإلى أي مدى أحببتكِ، حينها، عندما أفكر أنكما معًا، وأنكما سعيدان، سأحاول أن أتحمل حزني وألمي، ولن أفعل أي شيء خطأ حتى لا أسبب لكِ الألم.. لن أفعل أي شيء خطأ مطلقًا!".
سمحت الطفلة له أن يزيح يديها، ويضعهما حول رقبته. شاع صمت يذرف دمعًا، ولم يمض وقت طويل، حتى نظرت إليه متبسمة، ووعدته في صوت رقيق حالم أنها ستبقى، وستكون صديقته المقربة، طوال الوقت الذي سوف تسمح لها السماوات به. صفق الولد بيديه متهللًا في سرور، وشكرها مرات عدة، حينها أوصته بألا يخبر أحدًا بما دار بينهما، فأبرم وعدًا جادًا أنه لن يفعل أبدًا.

على الرغم من أنه لم يفعل ما أخبرته به الطفلة، كان رفيقها الهادئ في كل مناحيها وتأملاتها، لم يتطرق معها بالحديث إلى ذلك الموضوع مرة أخرى؛ لأنه أحس أنه أضفى عليها ألمًا، لا يدرك سببه، ولا يعرف ماهيته. ظل شعور مؤرق يساوره في نفسه، جعله في كثير من الأحيان يأتي في الليل - وإن كانت الليالي قاحلة - يقف أمام الباب، وينادي عليها بصوت خجول؛ ليعرف ما إذا كانت بخير وآمنة في الداخل، وحينما كانت تجيبه، وتحثه على الدخول، يدخل ويتخذ مجلسه على مقعد صغير عند قدميها، يجلس في سكون وصبر، حتى يبحثوا عنه، لأخذه إلى المنزل. وبالطبع، حينما تحل مشارف الصباح، يكون واقفًا بالقرب من المنزل، ويسأل عما إذا كانت بخير، في الصباح، وفي الظهيرة، وما بعدها، وفي المساء، يذهب أينما تذهب، يرافقها في كل حدب وصوب، متخليًا عن ألعابه ورفاقه؛ ليكون برفقتها.
قال لها القندلفت العجوز ذات مرة: "إنه صديق جيد... حينما توفي شقيقه الأكبر.. كم تبدو غريبة كلمة (الأكبر)؛ فلم يكن سوى طفل يبلغ من العمر سبع سنوات فقط.. أتذكر كم كان متفجعًا ملتاعًا منفطر القلب".
فكرت فيما قاله لها المعلم، وشعرت بأن حقيقته تسكن في كل شيء حولها، وإن تمثلت حتى في هذا الولد الصغير.
قال لها العجوز: "أحسب أنها مع الوقت تصير كالغصص الهادئة في القلب، وعلى الرغم من ذلك فهو مرح في بعض الأحيان بما فيه الكفاية. أراهن أنك وهو تستمعان إلى البئر القديمة".
ردت الطفلة: "في الواقع، لم نفعل قط. إنني خائفة من الإقتراب منها، لدرجة أنني لا أذهب إلى هذا الجزء من الكنيسة، ولا أعرف الطريق".
قال العجوز: "حسنًا! تعالي معي.. إنني أعرف المكان هناك منذ أن كنت صبيًّا.. تعالي!".
مشيا، ونزلا بعض الخطوات، حتى وصلا إلى السرداب، حينها توقفا بين الجدران القائمة في مكان ضبابي معتم.
قال العجوز: "هذا هو المكان.. أعطيني يدكِ، حينما ترفعين الغطاء؛ خشية أن تتعثري وتسقطي. أنا عجوز - أقصد أنه بسبب الروماتيزم - لن أقدر على الانحناء لرفع الغطاء".
قالت الطفلة: "إنه مكان مخيف ومظلم".
قال العجوز، وهو يشير بإصبعه إلى الأسفل: "انظري".
استجابت الطفلة، ونظرت عبر الحفرة.
قال العجوز: "إنها تبدو كالقبر بحد ذاتها.. أليس كذلك؟".
ردت الطفلة: "إنها تبدو كذلك فعلًا".
قال القندلفت: "لطالما كان لديَّ تصور، أنه تم حفرها في البداية، لتجعل المكان أكثر كآبة ووحشة، وتجعل الرهبان أكثر إيمانًا وطاعة. سوف ينهون وجودها، سيغلقونها ويبنون فوقها".
لا تزال الطفلة واقفة في صمت، تقلب نظرها في القبو متدبرة متأملة.
قال القندلفت: "سنرى النتيجة، سنرى ما الذي ستنهي وجوده الأرض الأخرى، حينما يتم ردمها، وينقطع الضوء من هنا. الرب وحده هو من يعلم! إنهم سيغلقونها في الربيع المقبل".
حدَّثت الطفلة نفسها، بينما كانت ترنو من نافذتها إلى الشمس المشرقة: "سوف يهل الربيع! وتغرد الطيور مرةً أخرى.. في الربيع، سنجد راحة وسعادة!".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السادس والخمسون

بعد يوم أو يومين من حفل الشاي الذي أقامه كويليب في حانة البرية، ذهب السيد سويفيلر إلى مكتب السيد سامبسون براس في الساعة المعتادة، حينها كان بمفرده في معبد النزاهة والاستقامة، وضع قبعته على المكتب، أخرج من جيبه لفافة صغيرة من قماش الكريب الأسود، عكف على طيها وفردها، حتى ربطها على قبعته، بعد أن انتهى من تشكيل هذه اللاحقة، عاين عمل يديه برضى ذاتي، ثم اعتمر قبعته مرةً أخرى، وأمالها للغاية على عين واحدة؛ ليزيد من إظهار الانطباع الحزين. منحته تلك الترتيبات شعورًا بالرضى الكامل، حينها وضع يديه في جيبيه، ومشى جيئةً وذهابًا في المكتب بخطوات محسوبة.

قال سويفيلر: "لطالما يحدث لي الأمر نفسه.. الأمر نفسه كل مرة.. منذ الطفولة وأنا أرى أمالي العفوية تتلاشى أمام عيني، لم أحب شجرة أو وردة قط في حياتي، وحينما فعلت لأول مرة ذبلت وتلاشت، لم أرعَ الريم قط لتسعدني حينما تنظر إليَّ بعينيها السوداوين الساحرتين، وحينما فعلت وبدأت تعرفني جيدًا وتحبني، ماذا يحدث! بالتأكيد تتزوج من بستاني".

بعد أن تغلبت هذه الأفكار على السيد سويفيلر وقهرته، وقف عند مقعد الوكلاء، وارتمى بين مسنديه المفتوحين.

قال السيد سويفيلر، برباطة جأش تهكمية مازحة: "هذا أنا وهذا حال الدنيا، أنا متأكد أن هذا هو نمط الحياة التقليدي.. لِمَ لا؟ إنني راضٍ تمامًا". خلع قبعته، وأخذ ينظر إليها في جدية، كما لو أن الاعتبارات المالية هي وحدها ما ردعته عن سحقها بقدمه، وقال: "سأرتدي شعار غدر هذه المرأة، إحياءً لذكرى تلك التي لن أشق طريق المتاهات مرة أخرى لأجلها، تلك التي حين أتجرع النبيذ لن أشرب مرة أخرى نخبها، تلك التي عصفت بالفترة المتبقية من حياتي وقتلت ربيعها.. ها ها ها!".

من المحتم ذكره؛ خشية أن يحدث أي تضارب في فهم ما آل إليه هذا الحديث المنفرد، لم يضحك السيد سويفيلر في الختام الضحكات المرحة المبتهجة، التي كانت ستختلف بالكلية عن تأملاته الحزينة، ولكن، لكونه في مزاج مسرحي، فقد ألقى حديثه في عرض أشبه بالميلودراما ([11])، (اضحك كما يضحك الشرير) دائمًا ما يضحك الأشرار ضحكات متقطعة، دائمًا ما تكون في ثلاثة مقاطع، لا أكثر ولا أقل، ولطالما كانت مميزة لضحكات النبلاء، وبالتأكيد ستكون قيمة ومتناسبة في هذه المناسبة وللذكرى.

تلاشت الأصوات الموحية ظاهريًّا بالشر، ولا يزال السيد سويفيلر جالسًا في حالة كئيبة يُرثى لها على مقعد الوكلاء، سمع الجرس - أو إذا أردنا تكييف الحالة العامة مع حالة الحداد الخاصة به - سمع الرنين. فتح الباب بكل سرعة، ورأى طلة السيد تشوكستر، فحيًّا أحدهما الآخر بالتحية الأخوية.

قال هذا الرجل النبيل، وهو يمركز نفسه على ساق ويهز الأخرى بارتياح: "بحق الجحيم! إنك تتواجد في وقت مبكر جدًّا في هذا المذبح الوخيم القديم".

رد ديك قائلًا: "نوعًا ما".

قال السيد تشوكستر في حسم، ويمظهر تهكمي عابث، اشتمل على شخصيته: "نوعًا ما! نعم بالتأكيد، حريٌّ بي أن أفترض هذا أيضًا.. ها ها! ماذا تقول يا رفيقي الحسن، أتعرف كم الساعة الآن؟ إنها التاسعة والنصف صباحًا!".
قال ديك: "ألن تأتي إلى الداخل؟ إنها ساعة السحر.. ذروني وحدي والكل راحل..".
- ساعة الغبش!
- حينما تتثاءب المدافن.
- وتنفث موتاها ([12]).
بعد أن انتهيا من إلقاء الاقتباس، وتقمصا الشخصية بإتقان وحاكا السلوك، عَدَلَا عنه في الحال، واتجها إلى المكتب، يهذران في شؤونهما. فمثل ذلك اللهيب من الحماسة شاع بين أفراد جماعة أبوللو المجيدة، وفي الواقع كانت تلك هي حلقة الوصل بينهما، التي تنتشلهما من الحياة المزرية، وترفعهم عن أرض كفات باردة.
قال السيد تشوكستر، وهو يتخذ مقعدًا له: "حسنًا! كيف حالك يا رجل؟ لقد اضطررت إلى القدوم إلى المدينة؛ لأتدبر بعض الشؤون الخاصة بي، لكنني لم أتمكن من إنجازها، ولم أستطع المرور بقارعة الطريق، دون أن أعرج إلى هنا، وبالنسبة لي، لم أكن أتصور قط، أنني سأجدك هنا.. إننا في غُدوة النهار".
أعرب السيد سويفيلر عن صدق ما قال، وتصنَّع الحال الجيد في شق حديث آخر، وأخبر السيد تشوكستر أنه يبدو في حالة يحسد عليها، ومن ثمَّ امتثل السيدان كلاهما للعادات الرسمية للأخوية القديمة، حيث ينتميان، وألقيا مقتطفًا ثنائيًا شهيرًا من مسرحية (العبرة بالخواتيم). متصافحين بالأيدي في حماس مفرط في النهاية.
قال رينشارد: "وما الأخبار إذنْ؟".
رد السيد تشوكستر قائلًا: "إن البلدة خامدة كسطح فرن هولندي.. لا أخبار، ولا جديد. بالمناسبة.. إن ذاك النزيل الخاص بكم هو أكثر الأشخاص غرابة، كما تعرف، إنه عصي تمامًا على الفهم.. لا يمكن أن
يكون مجرد رجل عادي!".
قال ديك: "وماذا كان يفعل الآن؟".
قال تشوكستر، وهو يخرج علبة مستطيلة من سعوط التبغ، منقوش على غطائها النحاسي بدقة فائقة رأس ثعلب: "أقسم بجوبيتر يا سيدي.. أن هذا الرجل لا يُسبر غوره. هذا الرجل يا سيدي أقام صداقات مع المحامي المتدرب. أحسب أن لا ضرر منه ولا ضرار، لكنه هادئ ولين على نحو مذهل.. لكن ما نحن بصدده الآن يا صديقي، إذا أراد ذلك الرجل صديقًا، لمَ لا يكون لديه صديق يعرف أمرًا أو أمرين، ويستطيع أن يُقدم له الخدمات ويفعل له الخيرات وبنفس طيبة وراضية؟!". ثم أضاف السيد تشوكستر: "أعرف يا سيدي أن لديَّ عيوبي، لكنن..".
قاطعه السيد سويفيلر: "لا ليس لديك".
قال السيد تشوكستر: "بل لديَّ.. أعرف أن لديَّ عيوبي... لا أحد يعرف عيوبه مثلما أعرف عيوبي يا سيدي، لكنني لست حليمًا، لم يتهمني أسوأ أعدائي - إن كل شخص بالتأكيد لديه أعداء يا سيدي، وأنا لديَّ أعدائي- لم يتهمني أسوأ أعدائي مطلقًا بالحلم أو الوداعة، أقول لك أمرًا يا

سيدي.. إذا لم يكن لدي المزيد من هذه الصفات التي تقرب الأشخاص أكثر مما لدى المحامي المتدرب، سأسرق جبن شيشاير، وأربطه حول رقبتي، وأغرق نفسي. سأموت منحطًّا، كما عشت. وحينها سيكون لي الشرف".
توقف السيد تشوكستر عن الحديث، رفع علبة السعوط، ونقر برأس الثعلب على أنفه بالتحديد، ثم أخذ قليلًا من دقيق التبغ على برجمة السبابة، واستنشقه، ثم نظر بثبات إلى السيد سويفيلر، بإيماءات تكشف عن اعتقاده بأنه سيعطس، لكنه سيجد نفسه مخطئًا.
بعد وهلة، قال السيد تشوكستر: "غير راضٍ يا سيدي.. أنا غير راضٍ عن تكوينه صداقة مع هابيل.. إنه مصقول التربية، منمق الحديث، محيط بالمعرفة من أبيه وأمه. منذ أن عاد إلى الديار بعد مطاردة (الإوزة البرية) ([13]) نعم! كان هناك.. كان هناك فعلًا. وهو يزايد في رعاية الصبي الصغير، ستلاحظ يا سيدي تردده على هذا المكان جيئةً وذهابًا.. وبغض النظر عن مجمل الأشكال الشائعة للطفه، لا أعتقد أنه تبادل معي الحديث، ولو حتى بنصف دسته كلمات". تابع السيد تشوكستر حديثه وهو يهز رأسه في جدية، مثلما إعتاد الرجال أن يفعلوا حينما يجدون أن الأمور قد خرجت عن السيطرة: "يا إلهي! إن المسألة برمتها دون المستوى.. لو لم أكن أشعر بصاحب العمل، وأعلم أنه لن يحرز أي تقدم من دوني، لكنت قطعت الصلات.. يجب ألَّا يكون لديَّ بديل".
في ذلك الوقت، كان السيد سويفيلر قد جلس على كرسي أمام صديقه، يذكي النيران في تعاطف متأجج، لكنه لم يقلْ أي كلمة.
استطرد السيد تشوكستر في حديثه، وبنظرة تنبؤية قال: "أتعلم يا سيدي، ذلك الصبي الصغير، سيأتي اليوم، ويظهر على حقيقته.. إن مهنتنا تعلمنا الفراسة في الطبائع البشرية، وأريد أن تتذكر كلمتي جيدًا.. هذا الغلام ذو الوجهين، الذي عاد للعمل بسبب الشلن، سيظهر لونه الحقيقي في غضون الأيام القليلة القادمة. إنه لص خسيس يا سيدي. لا بد أن يكون...".
كاد السيد تشوكستر أن يسترسل في حديثه أكثر من ذلك، وبصيغة تأكيدية مشددة، ناجمة عن حماسة متقدة داخل صدره وفكره، لولا أن دوي صوت طرقة على الباب، أنبأت بوصول أحد ما إلى العمل، جعلته يغير إيماءات وجهه في لمح البصر، ويظهر في شكل حليم وديع فاق ما اتفق عليه في تصريحه الأخير. أما السيد سويفيلر، فحين سماعه للصوت نفسه، سحب كرسيه من توه على قائمة واحدة حتى وصل إلى مكتبه، لكن الإضطراب المفاجئ أنساه أن يترك مذكي النيران، فطوَّحه بعيدًا وصاح: "ادخل!".
مَن يُفترض أن يأتي في خضم ذاك الموضوع المستثار غير كيت، الذي كان محور حنق السيد تشوكستر في حديثه! لا يُذكر أن رجلًا استطاع أن يبدِّل إيماءات وجهه ويستجمع جرأته ويبدو في مظهر شرس بهذه السرعة، مثلما فعل السيد تشوكستر، حينما رآه أمامه. أما السيد سويفيلر، فحدق إليه للحظة، ثم قام عن كرسيه، والتقط مذكي النيران من مكان إخفائه، وامتشنه وجال به كأنه سيف، مؤدِّيًا جميع الحركات والضربات في نوبة جنون.
قال كيت، رغم اندهاشه من هذا الإستقبال المريب: "هل يوجد السيد النبيل في المنزل؟".
قبل أن يتمكن السيد سويفيلر من تقديم أي رد، أقحم السيد تشوكستر نفسه في الحديث، منتهزًا محور سؤاله ليصب عليه جم غضبه، واعتبره تطاولًا، وجنوحًا متهورًا غير محترم بقدر طارحه؛

فكيف يجرؤ أن يتحدث عن سيد آخر، بينما يقف أمام اثنين من السادة النبلاء آنذاك، أو فضلا عن ذلك - ليس من المستحيل أن من يبحث عنه ربما في مكانة أقل - يجب عليه أن يذكر اسمه، ويدع الأمر لسامعيه، ليحددا مكانته الإجتماعية بما يتناسب مع منظورهما الخاص. أضاف السيد تشوكستر أيضًا، أن لديه سببًا لقول أن هذا العنوان شخصي، وأنه شخص لا يمكن العبث معه كما يفعل الغلمان - لم يخصه بالذكر ولم يوضح وصفه - للحصول على أجرتهم.
إلتفتَ كيت إلى ريتشارد سويفيلر وقال: "لقد قصدت السيد النبيل الذي يسكن في الطابق العلوي.. هل هو في المنزل؟".
رد ديك: "لماذا؟".
- لأني أحمل إليه جوابًا.
قال ديك: "مِن مَن؟".
- من السيد جارلاند.
قال ديك في أدب شديد: "أوه! إذنْ حريٌّ بك أن تسلمني إياه يا سيدي، وإذا أردت أن تنتظر ردًا، حريٌّ بك أن تنتظر في الممر يا سيدي، إنه مكان منعش وجيد التهوية يا سيدي".
رد كيت: "شكرًا.. لكنني سأسلمه إليه يدًا بيد إذا سمحت".
أثارت الجرأة المفرطة في هذا الرد الحاسم حنق السيد تشوكستر، فلم يتوانَ للحظة في التخلي عن جانبه اللطيف من أجل كرامة صديقه، وأعلن أنه إذا لم يكن مقيدًا باعتبارات رسمية تحتم عليه حسن التصرف، لمحق وسحق كيت في التو واللحظة؛ استياءً من تعمده توجيه الإهانة، وحينها، في ظل تلك الظروف الاستثنائية، سيتلقى العقوبة المناسبة، واستحسان هيئة المحلفين الإنجليز، الذين وبلا شك، سيعودون من فورهم لإعلان حكم القتل المبرر، إلى جانب شهادة رفيعة على أخلاق وشخصية المنتقم الحميدة. مكث السيد سويفيلر في مكانه غير بادٍ عليه أي ضيق أو تذمر بسبب ما قيل، وخجلًا من الحماس المفرط غير المبرر لصديقه، غير مشدوه أو متحير من عدم اكتراث كيت ووقوفه ثابتًا بارد الأعصاب، حتى سمع الرجل الأعزب ينادي بحدة من أعلى الدرج.
صاح النزيل: "ألم أرَ شخصًا قادمًا من أجلي؟ تعالَ".
رد ديك: "نعم يا سيدي.. بالتأكيد يا سيدي".
قال الرجل الأعزب مجعجعًا: "وأين هو إذنْ؟".
رد السيد سويفيلر: "إنه هنا يا سيدي.. ألم تسمع أيها الشاب الصغير أنه يجب عليك أن تصعد الدرج؟ هل أنت أصم؟".
لم يَبْدُ على كيت ولو لوهلة، أنه فكر أن الأمر يستحق الدخول في أي مشادة كلامية وإضاعة الوقت، سارع من فوره، تاركًا فردَي جماعة أبوللو المجيدة مشدوهين، ينظر أحدهما إلى الآخر في صمت.
قال السيد تشوكستر: "ألم أقل لك؟ ما رأيك فيما حدث؟".
ولأن السيد سويفيلر بطبعه رفيق حسن النية لا يغضب، ولم يدرك في سلوك كيت أي فظاظة أو خسة بشكل بيِّن، فبالكاد كان يعرف بماذا عليه أن يجيب. لكنه أُعفي من حيرته؛ بدخول السيد سامبسون وشقيقته سالي، وانسحاب السيد تشوكستر على عجل.

من الواضح أن السيد براس ورفيقته المحبوبة، أثناء تناولهما لفطورهما المقتصد، كان يعقدان بعض الاستشارات القانونية حول بعض المسائل ذات الشأن والأهمية القصوى. فبسبب هذه الاستشارات، دائمًا ما كانا يأتيان إلى المكتب بعد نصف ساعة تقريبًا من الوقت المعتاد، طلقي المحيا في حالة باشَّة، كما لو أن تخطيطاتهما الأخيرة ومؤامراتهما تجعل عقليهما نشوانين، وتضيء لهما نورًا في طريقهما المجهد. في حالتهما الحالية، كانا في غمرة السرور بشكل خاص، بدت الآنسة سالي في أكثر الأمزجة عذوبةً وليِنًا، أما السيد براس، فكان متهلل الوجه يفرك يديه إحداهما بالأخرى في حالة مرحة.
قال براس: "حسنًا يا سيد ريتشارد.. كيف الحال هذا الصباح؟ هل يتضح لنا أننا سعيدان مسروران مبتهجان يا سيدي.. هل نحن يا سيد ريتشارد؟".
رد ديك: "بالطبع يا سيدي، وبأفضل حال".
قال براس: "هذا عظيم! ها ها! حريٌّ بنا أن نكون كتغريد عصفور (القُبَّرة) المحلق في الحقول.. أليس كذلك يا سيد ريتشارد؟ فلِمَ لا؟ إنه عالم مبهج لنعيش فيه يا سيدي ونستمتع به.. بالتأكيد يوجد أناس أشرار يا سيد ريتشارد، لكن من دون هؤلاء الأشرار، لن يوجد محامون أخيار. ها ها! هل يوجد أي جوابات في البريد هذا الصباح يا سيد ريتشارد؟".
أجاب السيد سويفيلر بالنفي.
قال براس: "ها! حسنًا لا يهم. إذا لم يكن هناك أي عمل اليوم، فسيتوفر لدينا الكثير في الغد. إنها روح القناعة يا سيد ريتشارد، إنها عذوبة الوجود. هل تواجد أي أحد هنا يا سيدي؟".
رد ديك: "صديقي فقط.. ربما لم أرغب أبدًا...".
قال براس بسرعة وهو يدندن: "ربما لم أرغب أبدًا في أن يكون لدي صديق أو زجاجة لأقدمها إليه مطلقًا.. ها ها! هذه هي تكملة كلمات الأغنية. أليس كذلك؟ إنها أغنية جيدة جدًّا يا سيد ريتشارد، أغنية رائعة. أحب الشعور الذي تضفيه على إحساسي. ها ها! إن صديقك الذي تقصده هو ذلك الشاب من مكتب ويزردن.. حسب ما أعتقد.. أليس كذلك؟ ربما لم أرغب أبدا في أن يكون لديَّ.. أي أحد آخر ونسيت ذكره لي يا سيد ريتشارد!".
رد السيد سويفيلر: "نعم.. يوجد أحد ما عند المستأجر".
صاح براس: "فعلًا! يوجد أحد ما عند المستأجر؟ ها ها! ربما لم أرغب أبدًا في أن يكون لديَّ صديق، أو.. أحد ما عند المستأجر.. أليس كذلك يا سيد ريتشارد؟".
رد السيد ديك، يعتريه الإرتباك من الروح الفكاهية المفرطة التي يتحدث بها صاحب العمل، وقال: "بلى يا سيدي.. إنه معه الآن".
صاح براس: "معه الآن! ها ها! إذنْ دعهما حرين فرحين منسجمين تيراتتين ها ها! أليس كذلك يا ريتشارد؟".
رد ديك: "أوه! طبعًا طبعًا يا سيدي".
قال براس وهو يبحث في أوراقه: "ومَن هو.. مَن زائر المستأجر.. أم زائرة المستأجر! آمل ألا تكون زائرة ها ها! أليس كذلك يا ريتشارد؟ إنها الأخلاق، فإذا حلت السيدات الجميلات، تُرتكب الحماقات ومن بعدها تأتي المشكلات.. ها ها! أليس كذلك يا ريتشارد؟".
رد ريتشارد: "إنه شاب صغير، من مكتب ويزردن أيضًا، أو شبه منتمٍ إليهم يا سيدي.. إنهم يدعونه كيت".

قال براس: "كيت هاه! اسم غريب.. اسم كمان معلمي الرقص ([14])... أليس كذلك يا سيد ريتشارد؟ ها ها! كيت هنا، أليس كذلك؟ أوه! ها ها!".
نظر ديك إلى الآنسة سالي، متعجبًا من كونها غير ملتفتة إلى كل هذه الحيوية الفكاهية المفرطة التي تنتاب السيد سامبسون، ولأنها لم تهم بأي محاولة لإيقاف هذا العبث، بل على العكس تمامًا، ظهرت عليها أمارات الموافقة الضمنية لكل ما بدر منه، استنبط من فوره أنهما كانا يخدعان شخصًا ما، وتلقيا أجر ما عملا.
قال براس، وهو يأخذ خطابًا من مكتبه: "هل تقدم لي معروفًا يا سيد ريتشارد، وتأخذ هذا وتذهب إلى (بيكهام راي)؟ ليس لهذا الخطاب ردًّا، ولكنه شديد الخصوصية يجب أن يسلم يدًا بيد. وعد إلى المكتب ثانيةً على الفور بالحافلة.. فأنت تعلم شعار الكتبة: "لا تبقَ في المكتب، وامكث خارجه قدر الإمكان". هاه! أليس كذلك يا سيد ريتشارد؟ ها ها!".
انتزع ريتشارد سترته في وقار، وارتدى معطفه، ومن ثمَّ أخذ قبعته من على المشجب، ووضع الخطاب في جيبه، ثم غادر. بمجرد أن ذهب، قامت الآنسة سالي براس، وابتسمت في لطف إلى شقيقها - الذي أومأ إليها بالمثل، وسدد لكمة إلى أنفه - وغادرت أيضًا.
بمجرد أن تُرك سامبسون براس وحيدًا في المكتب، فتح الباب على مصراعيه، ومركَز نفسه على مكتبه لكن في الإتجاه المعاكس تمامًا؛ حتى لا يفوت رؤية أي أحد ينزل الدرج، ويخرج إلى الباب الخارجي، بدأ في الكتابة في جد واجتهاد وفي أقصى درجات الابتهاج، يهمهم ويدندن كما كان يفعل، في صوت لا يمكن أن يطلق عليه إلا صوت موسيقي، لكن همهمات لفظية كشفت عن كلمات أشارت إلى إتحاد ما بين الكنيسة والدولة، أو امتزاج ما بين (ترنيمة المساء) و (حفظ الرب الملك).
جلس محامي بيفيس ماركس، يكتب ويهمهم لوقت طويل، باستثناء الأوقات التي كان يتوقف فيها ويسترق السمع ويشخص ببصره بوجه ماكر، ولا يسمع شيئًا، فيعاود الدندنة بصوت عالٍ، والكتابة بوتيرة بطيئة. ظل على هذا الحال، وفي مرة من مرات توقفه، سمع باب المستأجر يفتح ثم يغلق، وصوت وقع أقدام تنزل الدرج. عدل عن الكتابة من فوره، يهمهم ويدندن بصوت أعلى، يمسك القلم في يده، ويهز رأسه من جنب إلى آخر، كرجل روحه منتشية بالموسيقى، وهائم معها، ويبتسم بطريقة سيرافية ([15]).
وهكذا، بالنسبة لهذا المشهد الحركي، تم توجيه كيت إلى الأسفل عن طريق الدرج، واجتذابه بالأصوات العذبة، عند وصوله أمام باب المكتب، توقف السيد براس عن الغناء، لكنه لم يتوقف عن التبسم، وأومأ برأسه في لطف، وفي الوقت نفسه أشار إليه بقلمه.
قال السيد براس بألطف طريقة يمكن أن يتخيلها: "كيت.. كيف حالك؟".
على الرغم من أن كيت كان خجلًا، لكنه رد ردًّا مناسبًا، بينما كانت يده على مزلاج الباب الخارجي، استدعاه السيد براس بوداعة، وطلب منه أن يعود.
قال المحامي بطريقة مبهمة لكنها تشبه طريقة عمله إلى حد كبير: "لا تذهب من فضلك يا كيت.. عليك أن تدخل هنا إذا سمحت.. يا لنفسي العزيزة! يا لنفسي العزيزة!". قام عن مقعده، ووقف أمام النيران، موليًا ظهره لها وقال: "عندما أنظر إليك.. أتذكر أجمل وجه رأته عيني. أتذكر قدومك إلى هنا مرتين أو ثلاث مرات، عندما كنا في خضم العمل. آه يا كيت! يا رفيقي العزيز! إن

السادة في مهنتي، لديهم واجبات إلزامية موجعة، يتوجب عليهم القيام بها في بعض الأحيان، لذا لا يجب عليك أن تحسدنا.. لست في حاجة إلى فعل ذلك!".
قال كيت: "لست بفاعل يا سيدي.. علاوة على أنني لست الشخص الذي يصدر أحكامًا على الإطلاق".
تابع المحامي حديثه وهو ينظر إليه بنظرة مجردة: "إن عزاءنا الوحيد يا كيت بالرغم من عدم استطاعتنا تغيير مسار الرياح، هو أن نهدئ من هبوبها.. إذا جاز لي أن أقول (جز صوف الحملان)".
خاطب كيت نفسه، دون أن يصدر صوتًا: "جز صوف الحملان.. فعلًا! هذا قريب جدًّا".
قال السيد براس: "بخصوص هذا الشأن يا كيت! بخصوص هذا الشأن، الذي أشرت إليه للتو.. خضت مشادة عنيفة مع السيد كويليب - وأنت تعرف أن السيد كويليب رجل صعب للغاية - كي أحصل لهم على التساهل. ربما كلفني هذا عميلًا. لكن المعاناة والفضيلة ألهماني، وانتصرت في النهاية".
قال كيت البريء محدثًا نفسه: "إنه ليس سيئًا للغاية بغض النظر عن كل شيء"، بينما زم المحامي شفتيه، وبدا في مظهر الرجل الذي يجلد ذاته ويعاني مع مشاعره السامية.
قال براس بعاطفة متأججة: "أنا أكن لك احترامًا يا كيت.. لقد رأيت ما يكفي من سلوكك، في ذلك الوقت، لاحترمك، على الرغم من مكانتك المتواضعة وثروتك المعدومة. لكني لا أنظر إلى الصدريات، أنا أنظر إلى القلوب. ليست الشيكات في الصدريات إلا أسلاك أقفاص. لكن القلب هو الطائر.. آه! كم عدد الطيور التي تنتف ريشها بنفسها، وتضع مناقيرها عبر الأسلاك لتنقر على البشرية جمعاء!".
تغلب هذا المجاز الشعري على كيت، مع أنه اعتبره إشارة خاصة إلى صدريته ذات الترابيع، أما صوت وأسلوب السيد براس، فلم يضيفا أي تأثير ولو بالقدر القليل، رغم أنه تحدث بنبرة زاهدة لناسك متعبد، كان ينقصه فقط أن يلف رباطًا حول خصره على معطفه المهلهل، ويضع جمجمة على رف المدفأة، ليتمم هذا النوع من الأعمال.
قال ساميسون، مبتسمًا كرجل طيب يبتسم عندما يتعاطف مع ضعفه أو ضعف رفاقه: "حسنًا حسنًا.. هذا هو المغزى، تعال وخذ هذا من فضلك". بينما كان يتحدث، أشار إلى بضع عملات من فئة النصف كراون موضوعة على المكتب.
نظر كيت إلى العملات، ثم إلى سامبسون، تتملك منه الحيرة.
قال براس: "إنها لك".
- مِن مَـ...
رد المحامي: "لا يهم مِن مَن.. وإذا أردت معرفة مَن بشدة.. يمكنك أن تقول إنها مني، إذا أردت. استمع لي يا كيت! إن لدينا أصدقاء يقدمون الخير ولا يريدون الإفصاح عن أنفسهم، لذا، يجب علينا ألا نطرح أسئلة أو نتحدث كثيرًا.. أتفهمني؟ خذها لك، وهذا كل ما في الأمر، وأُسِرُّ إليك أمرًا، اجعله بيني وبينك فقط، لا أظن أنها ستكون آخر ما ستأخذه من المصدر نفسه. آمل ألا تكون! والآن! وداعًا يا كيت. وداعًا!".
مع إجزال الشكر، والكثير من لوم النفس، بسبب الشكوك التي انتابته في بادئ محادثتهما، التي كشفت مع الاسترسال عن رجل مختلف تمامًا عما تصور. أخذ كيت المال، وانطلق من توه إلى

البيت.
ولا يزال السيد براس يقف أمام النيران، يدفئ نفسه، مستأنفًا همهماته الموسيقية، تعتلي وجهه ابتسامته السيرافية في الآن ذاته.
نظرت الآنسة سالي إلى الداخل في تحسب وقالت: "هل يمكنني الدخول؟".
رد شقيقها: "أوه! بالطبع تعاليْ".
تنحنحت الآنسة براس بطريقة استجوابية: "احم احم!".
رد سامبسون: "حريٌّ بي أن أقول.. تم على أكمل وجه".
∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السابع والخمسون

لم تكن مخاوف السيد تشوكستر الساخطة دون أساس. فصداقة الرجل الأعزب والسيد جارلاند لم يصبها الفتور، بل على النقيض تمامًا، قويت عُرى الصداقة بينهما، وازدهرت بشكل استثنائي. أصبحا يتواصلان بشكل مكثف، ويحافظان على وجود صلة حسنة مستمرة بينهما، في ذلك الحين كان الرجل الأعزب عليلًا، إثر أزمة صحية داهمته - كانت على الأرجح عاقبة لما تعرض له مؤخرًا من حزن ومشاعر انفعالية وخيبة أمل مفجعة - كانت سببًا لتبادل المراسلات فيما بينهما بشكل متكرر. وبناءً عليه، أصبح ذلك الشخص المقيم في فيلا هابيل في فينتشلي يتردد جيئةً وذهابًا كل يوم تقريبًا ما بين ذلك المكان وبيفيس ماركس.

بما أن المهر توقف عن أساليب الخداع، دون أي سلوكيات تدلل أو حياد عن الطريق، وبات يرفض رفضًا قاطعًا أن يحوذه أي أحد باستثناء كيت، وينطبق رفضه بشكل عام على الجميع، حتى إذا أتى السيد جارلاند العجوز نفسه أو السيد هابيل، كان كيت هو الوحيد القادر على حوذه. وبذلك، كانت كافة الرسائل والطلبات تصل من خلال كيت، الذي أصبح حامل الرسائل، وبما أن الرجل الأعزب متوعك، ظل كيت يأتي بانتظام كل صباح إلى بيفيس ماركس، كأنه الموزع العام للبريد.

أما السيد سامبسون براس، الذي كانت له أسبابه الخاصة، ليراقبه ويترقبه، فسرعان ما استطاع تمييز خبب المهر، وقعقعة العربة الصغيرة عند زاوية الشارع. متى يصل الصوت إلى أذنيه، يطرب له، يضع القلم في الحال، ويفرك يديه في ابتهاج عظيم.

لطالما كان يصبح: "ها ها! ها هو المهر مرة أخرى! أكثر الأمهار مهارةً! المهر الطيع سهل الانقياد.. هاه! يا سيد ريتشارد، أليس كذلك يا سيدي؟ هاه؟".

حينها كان يرد ديك ببعض الأجوبة المؤكدة، بينما يقف السيد براس على القضيب السفلي لمقعده؛ حتى يتمكن من رؤية الشارع من فوق حاجب الزجاج، ليحظى على رؤية الزوار له.

كان يصيح عاليًا ويقول: "الرجل العجوز مرةً أخرى! الرجل العجوز المحترم سليم الطوية يا سيد ريتشارد.. ذو الطلعة البهية يا سيدي.. وقسمات الوجه السنية، والملامح الهادئة الشجية يا سيدي، ربما يحاكي فكرتي عن الملك لير ([16])، عندما كانت مملكته في حوزته يا سيد ريتشارد.. إن له الشخصية نفسها، والشَّعر الأبيض والصلع الجزئي، والمسؤولية ذاتها المفروضة عليه. آه! إنه موضوع شيق للتأمل يا سيدي، موضوع شيق فعلًا!".

وبعد أن يترجل السيد جارلاند، ويصعد الدرج، يومئ سامبسون إلى كيت بابتسامة من النافذة، ثم يذهب بنفسه من توه إلى الشارع، لاستقباله، ثم تدور بينهما المحادثات على النحو التالي.

يربت السيد براس على المهر ويقول: "إنه متأنق بشكل رائع.. يُنسب إليك الفضل الكبير.. إنه أنيق ومشرق بشكل مدهش حقًّا. يبدو كما لو أنه تم تلميعه كليًّا حرفيًّا".

يلمس كيت قبعته مبتسمًا، يربت على المهر بنفسه، ثم يعبر عن اقتناعه الراسخ قائلا: "لن تجد مثله أبدًا يا سيد براس".

يصيح السيد براس: "إنه حيوان جميل فعلًا! أحسب أنه حاذق أيضا؟".

يرد كيت: "فليباركك الرب! إنه يعرف معنى ما تقوله له كالإنسان بالضبط".

يصيح براس، الذي سمع الأمر نفسه وترديد الكلمات نفسها في المكان ذاته من الشخص عينه لعشرات المرات، وتصيبه دهشة مباغتة بشلل لحظي في أطرافه في كل مرة على حدة، ويقول: "هل هو كذلك فعلًا! يا لنفسي العزيزة!".
يقول كيت، وهو راضٍ تمامًا عن إهتمام المحامي بمَن يفضله: "لم يخطر على بالي في المرة الأولى التي رأيته فيها، أني سأكون مقربًا له مثلما أنا الآن".
يقول براس، مشمولًا بالمفاهيم الأخلاقية وحب الفضيلة: "آه! إنه انعكاس أمر ساحر يخصك.. أمر ساحر للغاية. إنه أمر محط فخر قويم وتهنئه يا كريستوفر.. إنه الصدق، فالصدق أفضل وسيلة.. دائمًا ما أتحرى الصدق والنزاهة. لقد خسرت هذا الصباح سبعة وأربعين جنيها بسبب كوني صادقًا أمينًا، لكنها ليست خسارة.. إن كل هذا مكسب، إن كل هذا مكسب حقًّا!".
في ذلك الحين، ينغز السيد براس أنفه بقلمه نغزًا خفيفًا، وينظر إلى كيت بعينين يتقلقل فيهما الدمع. يظن كيت أنه إذا وُجد رجل صالح، تتناقض هيئته مع مكنونه، فحتمًا سيكون ذلك الرجل هو سامبسون براس.
يقول سامبسون: "إن الرجل الذي يخسر سبعة وأربعين جنيهًا في صباح واحد بسبب صدقه ونزاهته، ما هو إلا رجل جدير بالغبطة. إذا بلغ مبلغ ما فقده ثمانين جنيهًا، لازداد الشعور إجلالًا، فكل جنيه فقده، سيكسب مقابله مئات قدره من السعادة"، ثم يصيح براس، مبتسمًا، وهو يربت على صدره: "لا يزال الصوت الخافت بداخلي يغني الأغاني المرحة، ويضفي سعادةً وفرحًا".
يقف كيت في غمرة الإعجاب بالحديث، كأنه انتشل من الواقع، ليجد نفسه في أحضان بيته، لدرجة أنه كان يفكر فيما يفترض عليه قوله، عند مجيء السيد جارلاند. يساعد السيد سامبسون براس الرجل العجوز في ركوب العربة بخنوع شديد، وبعد أن يهز المهر رأسه عدة مرات، لا يتحرك لمدة ثلاث أو أربع دقائق عن مكانه، يثبت قوائمه الأربعة على الأرض بقوة، كما لو أنه قد قرر عدم مبارحة مكانه مطلقًا، لكنه يقدم تضحية عظيمة، وينطلق فجأةً دون سابق إنذار أو بارقة إشعار، بمعدل اثني عشر ميلًا في الساعة. حينها يتبادل السيد براس مع شقيقته - التي انضمت إليه عند الباب - إيماءة تكشف عن إبتسامة مريبة - ليست المألوفة التي تحمل تعبيرات لطيفة على الإطلاق - ثم يعودان وينضمان إلى صحبة السيد ريتشارد سويفيلر، الذي يروِّح عن نفسه أثناء غيابهما، بتأدية مقتطفات متنوعة من مسرحيات إيمائية، ليشاهداه جالسًا على مكتبه، يحتقن وجهه بالدم، في حالة جامحة، يكشط اللاشيء بنصف مُدية جيب..
في المرات التي كان كيت يأتي فيها بمفرده، ودون العربة، يحدث دائمًا أن سامبسون براس يبعث السيد سويفيلر لإنجاز بعض المهام، لكن المكان لم يعد بيكهام راي، بل يرسله كل مرة إلى مكان بعيد جدًّا، لا يمكن توقع عودته منه قبل ساعتين أو ثلاث ساعات، أو على الأرجح فترة أطول من ذلك بكثير، على الرغم من أن هذا الرجل - على سبيل المثال - غير معروف بلجوئه إلى إرسال أحدهم في ظل الظروف المماثلة، فما كانت إلا حيلة من أجل إطالة الوقت وإبقائه في الخارج أطول مدة ممكنة. بمجرد أن يبتعد السيد سويفيلر عن الأنظار، تنسحب الآنسة سالي من بعده في التو واللحظة. يفتح السيد براس باب المكتب على مصراعيه، يهمهم ويدندن لحنه القديم في مسرة تنبعث من القلب، ملازمًا على التبسم بالصورة الملائكية السيرافية، كما كان من قبل بالضبط. يبقى على هذا الحال حتى يستدعي كيت فور سماعه ينزل الدرج، يستمتعان ببعض

المحادثات الأخلاقية العذبة، وربما يتوسل إليه ليتدبر أمن المكتب للحظة، بينما يذهب السيد براس إلى الخارج، ومن ثم يعود ومعه عملة أو عملتان من نصف الكراون، على حسب الحالة.
غالبًا ما كان الأمر يتكرر مرات بعد مرات، ولا يشك كيت بتاتًا في أنها ليست مقدمة من الرجل الأعزب، الذي كافأ والدته بالفعل بعطاء سخي، حتى صار إعجابها بمقدار كرمه لا يضاهي، وبالأموال التي كان يأخذها كيت، اشترى الكثير من الهدايا المتواضعة لها، ولجايكوب الصغير وللرضيع، ولباربرا أيضًا، فقد أصبحا يتحدثان معًا كل يوم تقريبًا عن أمور حياتهما.
بينما كانت تلك الأعمال والأفعال مستمرة داخل وخارج مكتب سامبسون براس، ترك ريتشارد سويفيلر بمفرده أغلب الأوقات، فقرر أن يتعامل مع الأمر بطريقته الخاصة. من أجل الحفاظ على ابتهاج أفضل، وليمنع إلتهام الصدأ لتروس عقله، زود نفسه بلوحة لعبة كريبج وحزمة من أوراق اللعب، وداوم على اللعب، برهانات تصل إلى عشرين جنيهًا أو ثلاثين جنيهًا أو حتى خمسين ألف جنيه في بعض الأحيان، من دون حذر أو احتياط، يلعب بمجازفات خطيرة إلى أبعد حد، مع دمية، كان يجلسها أمامه.
نظرًا لأن تلك الألعاب كانت تُجرى في صمت شديد، بصرف النظر عن مقدار المصالح المعنية التي تتضمنها، بدأ يُخيّل للسيد سويفيلر، في تلك الليالي، التي يكون فيها السيد والآنسة براس في الخارج - غالبًا ما كانا بالخارج - أنه يسمع عند الباب أصوات نخير وصرير، بعد عدة تصورات، خطر على باله أن هذه الأصوات من المؤكد صادرة من الخادمة الصغيرة، المصابة بنزلات برد مزمنة، بسبب الرطوبة القارسة التي تعيش فيها، في إحدى الليالي، استطاع لمح عين تبرق وتلمع من ثقب المفتاح، وبلا شك علم أن ظنونه في محلها، تسلل إلى الباب في هدوء، وانقض عليها قبل حتى أن تدرك وصوله.
صاحت الخادمة الصغيرة، في إرتباك عارم، ثم قالت كأنها شخص كبير: "أوه! لم أقصد أي أذى بتاتًا.. صدقني.. إن المكان مظلم جدًّا وأنا وحيدة بالأسفل، من فضلك لا تخبر أحدًا بما فعلت، أرجوك لا تفعل".
قال ديك: "أنا أخبر أحدًا! أنقصدين أن تقولي: إنكِ كنتِ تنظرين من ثقب المفتاح من أجل أن تجدي رفيقًا؟".
ردت الخادمة الصغيرة: "لقد قصدتُ ذلك فعلًا.. أرجوك صدقني".
قال ديك: "ومنذ متى تختلس عيناكِ النظر من هنا؟".
- أوه! منذ أول مرة بدأت تلعب فيها بالأوراق.. أو قبل ذلك بوقت طويل.
على الرغم من أن الذكريات المشوشة للعديد من التدريبات البديعة التي إعتاد أن ينعش بها نفسه بعد إرهاق العمل - التي بلا شك كانت للخادمة الصغيرة بمثابة حفلات ليلية - قد أربكت السيد سويفيلر، لكنه لم يكن شديد الحساسية تجاهها، وسرعان ما تغاضى عنها.
بعد القليل من التفكر، قال: "حسنًا! تعالي.. ادخليْ، واجلسيْ هنا؛ سأعلمكِ طريقة اللعب".
قالت الخادمة الصغيرة: "أوه! لا أجرؤ على القيام بذلك.. ستقتلني الآنسة براس؛ إذا عرفت أنني أتيت إلى هنا بالأعلى".
قال ديك: "هل لديكِ نيران أسفل الدرج؟".
ردت الخادمة الصغيرة: "نعم، لكنها شعلة صغيرة جدًّا".

قال ريتشارد، بينما يضع أوراق اللعب في جيبه: "أحسب أن الآنسة سالي لن تقتلني إذا عرفت أنني كنت بالأسفل، لذا سآتي معكِ.. كم أنت نحيلة! ما المغزى من كونك بتلك النحافة؟".
- هذا ليس خطئي.
قال ديك، وهو يأخذ قبعته: "ألا تأكلين أي عيش أو لحم؟ آه! نعم! لقد تذكرت. قولي لي هل تذوقتِ الجعة من قبل؟".
قالت الخادمة الصغيرة: "لقد تذوقت رشفة صغيرة ذات مرة".
رفع السيد سويفيلر عينيه إلى السقف، وصاح: "هذا ما في الأمر.. إنها لم تتذوق الجعة أبدًا.. لا يمكن تذوقها بتاتًا من رشفة واحدة! كم عمركِ؟".
- لا أعرف.
بدا السيد سويفيلر متفكرًا لوهلة، فاغر العينين، ثم قال للطفلة أن تنتبه إلى الباب؛ حتى يعود ثانيةً، واختفى على الفور. سرعان ما عاد، متبوعًا بصبي من النزل العام، وهو يحمل في يده صحنًا عليه خبز ولحم، وقِدرًا مليئًا بمزيج فوَّاح، تتصاعد منه أطيب الأبخرة، في الواقع كان ذلك مشروب (بيرل)، تم عمله بعد أن نقل السيد سويفيلر للمالك وصفته الخاصة، حينما كان متعمقًا في كتبه، ويتوق إلى تقوية صداقته به. رفع السيد سويفيلر حِمل الصبي عند الباب، وأوصى رفيقته الصغيرة بأن تسرع لتكشف عن المفاجأة، بينما تبعها السيد سويفيلر إلى المطبخ.
وضع ريتشارد الصحن أمامها، وقال: "هيا! في بادئ الأمر أريد منكِ أن تنهي هذا، ثم ستعرفين ما التالي".
لم تكن الخادمة الصغيرة في حاجة إلى دعوة ثانية، فسرعان ما كان الصحن فارغًا.
قال ديك، وهو يقدم إليها مشروب بيرل: "هذا هو التالي.. خذي رشفة من هذا، لكن، تمهلي قليلًا، فكما تعرفين، أنتِ لستِ معتادةً عليه.. حسنًا! هل هو جيد؟".
قالت الخادمة الصغيرة: "أوه! أهو أي شيء آخر غير جيد؟".
بدا السيد سويفيلر ممتنًا إلى أقصى درجة ممكنة، فتناول رشفة كبيرة، وهو ينظر بثبات إلى رفيقته. بعد أن انتهيا من تتابع الرشفات، شرع في تعليمها اللعبة، التي سرعان ما أتقنتها على نحو مبهر، فلقد كانت حادة الذكاء والدهاء.
وضع السيد سويفيلر عملتين من فئة الستة بنسات في الصحن، وشذب الشمعة الباهتة، نظم أوراق اللعب ووزعها، ثم قال: "والآن! هذا هو الرهان. إذا ربحتِ، ستأخذينه كله.. أما إذا ربحتُ فسيكون لي، لجعل الأمر يبدو واقعيًّا ممتعًا، حريٌّ بي أن أناديك الـ (ماركيزة)، هل تسمعين؟".
أومأت الخادمة برأسها بالإيجاب.
قال السيد سويفيلر: "هيا.. فلنبدأ!".
أمسكت الماركيزة أوراقها بيديها الاثنتين، تتدبر أي الأوراق ستلعب، بينما جلس السيد سويفيلر بشكل أنيق، حسن المحيا، كما تنص حفلات السمر، يرتشف من مشروبه، بينما كان منتظرًا تقدمها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثامن والخمسون

لعب السيد سويفيلر مع شريكته عدة جولات، كان الفوز خلالها متفاوتًا، حتى خسر ثلاث عملات من الستة بنسات، وشارف مشروب بيرل على الإنتهاء، ودقت الساعة العاشرة مساءً، واجتمعت كافة الظروف، لينتبه الرجل النبيل إلى أن الوقت قد مرَ كالبرق، وأن اللحظة المناسبة لانسحابه قبل عودة السيد والآنسة براس قد حانت.

قال السيد سويفيلر بنبرة جادة: "أستميحُكِ عذرًا بكل ما في الوجود يا ماركيزة، أن أطلب من معاليكِ السماح بوضع لوح اللعب في جيبي، وأنسحب من رحاب حضرتك عند الإنتهاء من شرب هذا الإبريق، وأريد أن أتقدم بملحوظة يا ماركيزة، على الرغم من أن الحياة مثل النهر تنساب قُدمًا في مجراها، فإنني لا أهتم يا سيدتي بمدى سرعتها ومضيها، ما دام الخرير على الضفة ينسال، وتضيء هاتان العينان الأمواج المتدفقة في دلال. يا ماركيزة، يا سيدتي الجميلة، اعذري اعتماري لقبعتي، لكن القصر قارس البرد حقيقةً، والأرضية الرخامية - إذا سمحتِ لي بالتعبير - قذرة".

كإجراء احترازي ضد هذا الإزعاج الأخير، جلس السيد سويفيلر لبعض الوقت، يضع قدميه على رف صفيح بجانب الموقد، في مشهد يضاهي إعتباراته التبريرية، يرتشف ببطء آخر قطرات من الرُحاق.

قال السيد سويفيلر، وهو يسند على الطاولة بذراعه اليسرى، ويرفع صوته وساقه اليمنى في سلوك يحاكي طريقة اللصوص المسرحية: "إذنْ قولي لي هل البارون (سامبسونو براسو) وشقيقته العادلة في المسرح؟".

أومأت الماركيزة بالإيجاب.

قال السيد سويفيلر في عبوس منذر: "ها! حسنًا يا ماركيزة! لا يهم. يوجد نبيذ هناك. هوو!". ألقى عباراته في جوٍ من الميلودراما مكثفة المشاعر، ثم قدم لنفسه الإبريق في تواضع كبير، وأخذه من نفسه في غطرسة مبالغة، وشرب منه في نهم عطش، وضم شفتيه في عنف.

بدت الخادمة الصغيرة التي لم تكن على دراية جيدة بالتقاليد المسرحية - فلم تكن قد شاهدت أي مسرحية قط، أو سمعت أحدًا يتحدث عنها، إلَّا من خلال خصاص الأبواب أو من الأماكن المحرمة الأخرى - منزعجة على سجيتها إثر تلك المظاهر المسرحية المبهمة بالنسبة لها، وأظهرت سمات الترقب والقلق على وجهها في وضوح، فانتبه السيد سويفيلر من فوره، وشعر أنه من الضروري أن يعدل عن شخصية اللص المسرحي، ويلتزم بشخصية أقرب إلى الواقع الخاص، لذا سأل: "هل يذهبان عادةً حيث ينتظرهما المجد، ويتركانك هنا؟".

ردت الخادمة الصغيرة: "أوه! نعم.. دائمًا ما يفعلان.. إن الآنسة سالي دؤوبة حقًّا".

قال ديك: "إنها ماذا؟".

قالت الماركيزة: "دؤوبة".

بعد لحظة من التفكير، قرر السيد سويفيلر أن يمتنع عن واجبه المسؤول في ردها إلى الصواب؛ من الواضح أنها صارت كأي سكير مرتبك، وأن لسانها تراخى من مشروب البيرل، وأن فرصها في التحدث، لن تكون متواترة، حتى يقدم تدقيقًا لفظيًّا لحظيًّا، نتيجته لن تكون مؤثرة أو سوف تكون طفيفة غير ملحوظة.

قالت الخادمة الصغيرة، بنظرة متبصرة قطنة: "إنهما يذهبان أحيانًا لرؤية السيد كويليب.. إنهما يذهبان إلى أماكن كثيرة.. فليعافيك الرب!" ,
قال ديك: "وهل السيد براس دؤوب على عمله أيضًا؟".
ردت الخادمة الصغيرة، وهي تهز رأسها نافيةً: "ليس دؤوبًا ولو حتى بمقدار نصف دؤوبية الآنسة براس.. فليباركك الرب! لا يمكنه أن يفعل أي شيء من دونها".
قال ديك: "أوه! فعلًا! لا يمكنه فعلًا؟".
قالت الخادمة الصغيرة: "إن الآنسة سالي تتحكم فيه وتسيطر عليه، وهو يطلب نصيحتها دائمًا، ويعمل بها على الفور، فليباركك الرب! لا يمكنك أن تتصور إلى أي مدى يعمل بنصائحها".
قال ديك: "أحسب أنهما يتشاوران معًا، ليصلا إلى حل مناسب، وأحسب أنهما يتحدثان عن عدد كبير من الأشخاص.. أحيانًا يتحدثان عني على سبيل المثال.. أليس كذلك يا ماركيزه؟".
أومأت الماركيزة برأسها على نحو يثير الدهشة والفضول.
قال السيد سويفيلر: "بالمدح؟".
غيرت الماركيزة حركة رأسها، فلم تعد تومئ كما كانت من قبل، بل بدأ رأسها على حين غرة يهتز من جانب إلى آخر، في عنفٍ ينذر بانفصال رقبتها.
قال ديك مدمدمًا: "أووف! هل يوجد أي خرق للثقة يا ماركيزة، إذا قلتِ ما يقولانه للشخصية المتواضعة الماثلة أمامكِ الآن بـ..؟".
ردت صديقته: "تقول الآنسة سالي إنك شخص مضحك".
قال السيد سويفيلر: "حسنًا! ولكن هذا مدح. أن تكون مرحًا يا ماركيزة أمرٌ ليس سيئًا أو مهينًا. كان الملك كول العجوز ([17]) نفسه شخصية مرحة.. إذا كان لدينا إيمان بما في صفحات التاريخ".
قالت رفيقته: "لكنها قالت أيضًا إنه لا يمكن الوثوق فيك".
قال السيد سويفيلر مفكرًا: "فعلًا! لماذا يا ماركيزة! أعلم أن العديد من السيدات والسادة ليسوا متخصصين في رؤية حقيقة الناس.. إذا كان المنظور نفسه يميل إليه التجار يا سيدتي، حينها يختلف الأمر.. فالتجار أنفسهم أبدوا الملاحظة ذاتها، ذاك الشخص الغامض المدبر لأمور النزل الموجود على قارعة الطريق، أيد هذا الرأي بقوة، عندما طلبت منه الليلة تحضير مأدبة، إنه إجحاف شعبي، وتحامل ضدي يا ماركيزة، وحقيقةً أنا لا أعرف لماذا! لقد كنتُ محلًا للثقة في أحد الأوقات إلى حد كبير، ويمكنني القول في إرتياح أنني لم أتخل عن ثقتي أبدًا حتى خانتني وهجرتني.. لم أتخلَّ عنها أبدًا.. وعلى غرار هذا، أحسب أن السيد براس كان له الرأي نفسه؟".
أومأت صديقته مرةً أخرى، ولكن بمظهر أشد مكرًا، أوضح أن السيد براس يميل إلى هذا الرأي أكثر من شقيقته بكثير، ونمَّ عن احتكامه إلى آراء مذمومة أخرى، لكنها سرعان ما ضبطت تعبيراتها، وأضافت قائلة في إلتماس شديد: "لكنك لن تقول لأي أحد ما قلته.. وإلا سيضربانني حتى الموت".
قال السيد سويفيلر وهو يقوم عن مقعده: "اسمعي يا ماركيزة! إن كلمة الرجل النبيل ميثاقه.. بل أفضل في بعض الأحيان، كما هو الحال في هذا الأمر، فيجب أن يثبت ميثاقه نوعًا من الأمن، ولكنه أمن مرهون. إنني صديقك وأود أن نلعب معًا مرات كثيرة أخرى في هذا البهو الفسيح..

لكن يا ماركيزة.."، توقف بينما كان ماضيًا في طريقه إلى الباب والتفتَ بروية إلى الخادمة الصغيرة، التي كانت تتبعه وفي يدها شمعة، وقال: "لكن ما يتوارد إلى ذهني الآن هو أن دس عينك عبر ثقوب المفاتيح عادة مستمرة، حتى تعرفي كل هذا".
ردت الماركيزة مرتعدة: "صدقني.. لقد أردت أن أعرف أين يخبئان مفتاح خزانة الطعام فقط.. هذا كل ما في الأمر.. وصدقني إذا كنت وجدته، لم أكن سأتناول الكثير من الطعام.. كنت سأتناول ما يسد جوعي فقط".
قال ديك: "أفهم من ذلك أنكِ لم تعثري عليه؟ ما هذا! بالتأكيد لم تعثري عليه، وإلَّا كنتِ سمينة.. ليلة سعيدة يا ماركيزة، كوني بخير، كوني بخير لعمر مديد سعيد.. ضعي الجنزير يا ماركيزة، تحسبًا لوقوع أي حادث".
مع توصية الوداع هذه، افترقا، وخرج السيد سويفيلر من المنزل، وهو يشعر أنه قد شرب قدرًا كبيرًا يبشره بحالة من الانتشاء سيطيب لها مزاجه - فلقد كان بيرل خليطًا مسكرًا قويًا - فاحتكم إلى عقله، وقرر أن يقصد منزله، ويأوي إلى الفراش بمجرد وصوله. سرعان ما ذهب إلى شققه التي لم تكن على مسافة بعيدة من مكتبه، حينما وصل، دخل من فوره إلى غرفة نومه، وخلع إحدى فردتي حذائه ونسي الأخرى، وانغمس في تفكيره العميق.
طوى السيد سويفيلر ذراعيه وقال: "ليست الماركيزة شخصية عادية، إنها إستثنائية، محاطة بالغموض، تجهل طعم الجعة، لا تعرف إسمها - وهو ما كان أقل عجبًا بالنسبة له - وما تراه من المجتمع ما هو إلا نظرة محدودة تلقيها عليه من خلال ثقوب المفاتيح.. هل هذه الأمور هي مصيرها المحتوم؟ أم أن شخصًا مجهولًا سيقف في مجابهة القدر، ويعارض أمره؟ إن هذا الأمر أكثر الأمور المتداخلة غموضًا وإبهامًا!".
عندما بلغت تأملاته إلى هذه النقطة المرضية، تنبه إلى فردة حذائه المتبقية، وبِوَقار لم يتدهور، حرر نفسه منها، بهز رأسه طوال الوقت في جدية مهيبة، ويتنهد بعمق.
وضع السيد سويفيلر قلنسوة النوم على رأسه، بنفس أسلوب اعتماره لقبعته، وقال: "لقد ذكرتني جولات اللعب بالحياة العائلية، عندما تجلس زوجة تشيجز الآن وتلعب (كريبج) أو (هاي لو جاك) ([18]) مثلًا. تُحرِز تقدمًا عليهم، ومن شخص إلى آخر حتى يأتي عليها الدور لتلعب، يستعجلونها لتقر بخسارتها، وعندما يلمحون منها إبتسامةً خافتة، يظنون أنها فقدت السيطرة، لكنها لم تفعل، وبحلول هذا الوقت، حري بي أن أقول..". وهنا وقف موجهًا وجنته اليسرى جانبًا، ينظر بإعجاب إلى إنعكاس قصاصة صغيرة من سبلته في المرآة ويقول: "ثم يحدث ما تستحقه، تنصب لها الفخوخ، وتُقيّد بالأغلال!".
ذابت روحه من العبوس وقسوة الفؤاد، وانسالت إلى مزاج مثير للشفقة متلطف، فأمسى السيد سويفيلر يئن قليلًا، يمشي ذهابًا وإيابًا في إجحاف، فضلًا عن تأديته لعرض شد فيه شعره؛ نفَّسَ فيه عن غضبه، على الرغم من أنه لم يشد شعره فعليًا، وقام بتمزيق شرابة قلنسوته بدلًا من ذلك، وقد أحس بحالة أفضل. وأخيرًا، خلع ملابسه في ارتخاء كئيب، وأوى إلى الفراش. عادةً يدفع اجترار الألم بعض الرجال ممن تداهمهم حالته نفسها إلى الشرب، لكن السيد سويفيلر لم يفعل ذلك؛ فقد شرب من قبل، لذا دفعته حالة الحداد الخاصة به إلى فعل أمر آخر، وهو عزف الوتر، على ذكرى تلقيه أخبار فقدان صوفي واكلز فقدانًا أبديًّا.. بعد أن احتكم إلى اعتبارات

ناضجة، رأى أنها فكرة جيدة، فصوته حزين، وسيجتر أفكاره الحزينة، لكن اختياره لم يكن لتناغمه مع حالته الكئيبة فقط، بل لإيقاظ مشاعر المشاركة الوجدانية في صدور جيرانه. عمل بقراره، سحب طاولة صغيرة إلى جانب سريره، هيأ الضوء، وضع نوتة موسيقية مستطيلة أمامه، أخذ الناي من صندوقه، وبدأ العزف في تفجع.

كان اللحن بعيدًا كل البعد عن الحزن.. لم يكن سوى مزيج من نغمات، كانت متقطعة رتيبة تُعزف بأناة بطيئة على السرير، فضلًا عن كون عازفها رجلًا ليس على إطلاع كامل بالآلة مطلقًا، يكرر مقطعًا واحدًا لمرات عديدة قبل أن يتمكن من العثور على المقطع الذي يليه، فلم يكن اللحن سوى مزيج من نغمات ليس لها أي تأثير حيوي. ومع ذلك، لمدة نصف ليلة أو أكثر، أحيانًا يستلقي السيد سويفيلر على ظهره ويصوب ناظريه إلى السقف، وأحيانًا أخرى يلقي بنصف جسده خارج السرير ليصحح أنغامه من النوتة، يعزف ذاك اللحن البائس مرات ومرات، ولا يكف عنه، يتوقف لدقيقة أو لدقيقتين، يلتقط أنفاسه، ويناجي نفسه بحال الماركيزة، ثم يشرع ثانيةً بحيوية متجددة. لم يتوقف حتى استنفذ التفكير في كل تأملاته، ونفخ في الناي أشجان ما رواه عليه مشروب بيريل حتى آخر ذرات بقيت في أنفاسه، وأثار جنون أهل سكنه جميعهم، وأهل الطريق على مدى الصوت تقريبًا.. أغلق النوتة الموسيقية، أطفأ الشمعة، ووجد نفسه يحل في سكينة، هادئ البال، مرتاح الذهن، فاستدار، وراح في نوم عميق.

استيقظ في الصباح الباكر، منتعشًا، عكف على عزف الناي قرابة نصف الساعة، تلقى برحابة صدر إنذار مالكة النزل بالطرد، فقد انتظرته على الدرج منذ فجر يومه من أجل هذا الغرض، ذهب إلى بيفيس ماركس، حيث كانت سالي الجميلة متواجدة في عملها بالفعل، ويعكس مظهرها توهجًا خافتًا مثل ذلك المنبعث من القمر في بداية أطواره. حيا السيد سويفيلر وجودها بإيماءة، استبدل معطفه بالسترة، التي يستغرق ارتداؤها بعض الوقت؛ لضيق كميها، فلا يكتمل دخول ذراعيه دون سلسلة من الصراعات، لكنه قهر المصاعب أخيرًا، واتخذ مقعده عند المكتب.

كسرت الأنسة براس حاجز الصمت فجأةً، وقالت: "أقول لك.. ألم تر قلمًا فضيًا هذا الصباح؟".

رد السيد سويفيلر: "إنني لا أقابل الكثير منها في الشارع.. ربما رأيتُ واحدًا متين البنية ذا مظهر محترم.. لكنه لم يكن بمفرده، كان بصحبة مدية عجوز، ومسواك صغير، كانوا يتداولون حديثًا جادًا.. بصراحة، لقد شعرت بالحرج لأكلمه".

قالت الآنسة براس: "قل لي بجدية هل رأيته فعلًا؟ إنه قلم رصاص".

قال السيد سويفيلر: "أي كلب غبي يمكن أن تكوني كي تسأليني هذا السؤال وتقولي لي بجدية؟ ألم أصل إلى هنا من توي؟".

ردت الآنسة براس: "حسنًا! ولكن كل ما أعرفه هو أنني لا أستطيع إيجاده، وأنه اختفى في يوم ما من هذا الأسبوع، عندما تركته على مكتبي".

حدث ريتشارد نفسه: "أهلًا! آمل ألا تكون الماركيزة قد جاءت هنا".

قالت الآنسة براس: "كان يوجد سكين من ذات النمط نفسه هنا أيضًا. لقد أعطاهما لي والدي منذ سنوات، والآن! كلاهما قد اختفيا. هل أنت متأكد أنك لم ترَ أيًا منهما ولا تتذكر؟".

ربت السيد سويفيلر تلقائيًا بكلتا يديه على سترته؛ كي يتأكد أنه لم يزل يرتدي المعطف، بعد أن شعر بالأمان واستراح لكونه الوحيد القادر على الحركة بكل حرية في بيفيس ماركس، أجاب بالنفي.

أخرجت الآنسة براس علبة السعوط وأنعشت نفسها باستنشاق منه وقالت: "إنه أمر بشع يا ديك، اجعله سرًّا بيني وبينك، بين صديقين كما تعرف؛ لأن سامي إذا عرف، على الرغم من أنني لست متأكدة من رد فعله، لكن الأمر ساعتها لن يُحمد عقباه.. إن بعض أموال المكتب مفقودة أيضًا، كانت هنا، والآن قد اختفت بالطريقة نفسها. على وجه الدقة، فقدت ثلاث عملات من أنصاف الكراون في ثلاثة أوقات مختلفة".
صاح ديك: "حتمًا إنكِ لا تعنينَ ما تقولين؟ كن حذرًا وانتبه لقولك أيتها الكهل، هذا أمر جاد. هل أنت متأكد؟ أليس هناك أي إلتباس؟".
قالت الآنسة براس بتشديد حاسم: "أنا متأكدة.. لا وجود لأي خطأ في قولي".
وضع ريتشارد قلمه، وفكر: "بحق جوبيتر! أخشى أن تكون الماركيزة هي مَن فعلت ذلك".
كلما كان ديك يتحدث إلى نفسه، ويناقش الأمر في ذهنه، كلما زادت لديه احتمالية أن تكون الخادمة الصغيرة هي الجاني. أخذ بعين الإعتبار مقدار الطعام الذي تعيش عليه والمسموح لها بأكله، ومدى الإهمال والتجاهل المنغمسة فيهما، وإلى أي مدى قد تكون طبيعتها الماكرة توحشت بسبب العوز والحرمان والمعيشة المدقعة، أشفق على حالها كثيرًا، وعلى الرغم من أنه شعر بعدم الرغبة في أن يكون لديه مسألة بهذا الثقل تتعارض مع غرابة أفكارهما، فكر، فكر جديًّا أنه بدلًا من حصوله على خمسين جنيهًا، سيثبت أن الماركيزة بريئة، بينما كان غارقًا في فكره العميق الجاد، وكانت الآنسة سالي جالسة تهز رأسها في مظهر يستحوذ عليه الغموض والشك، تردد صوت شقيقها سامبسون في الممر وهو يترنم في مرح، ثم ظهر الرجل نفسه مبتسمًا ابتسامات تنم عن الفضيلة:
"السيد ريتشارد.. سيدي.. صباح الخير! ها نحن مرةً أخرى يا سيدي، ننعم بيوم آخر، أجسادنا منتعشة بالنوم وقوية بتناول الفطور، وأرواحنا طيبة لينة. ها نحن مرةً أخرى يا سيد ريتشارد، نشرق مع الشمس لتسلك دربنا الصغير.. مسار عملنا.. مثلها تمامًا يا سيدي.. نؤدي، أعمالنا اليومية في كامل بهائنا والفضل لأنفسنا ونعم بالمنفعة على البرية. يا له من تناغم ساحر يا سيدي.. ساحر للغاية!".
بينما كان يلقي السيد براس بتلك الكلمات على كاتبه في بعض من التفاخر، كان منخرطًا في فحص ورقة نقدية من فئة الخمسة جنيهات، يمسك بها في يده. لم يتلقَّ السيد ريتشارد ما ألقاه عليه بأي حماسة أو تأثر، رفع صاحب العمل عينيه عن المال، وحدق إلى وجهه، الذي إعتلاه تعبير مضطرب.
قال براس: "لقد نفدت بشاشتك، واندثرت روحك المعنوية يا سيدي.. اسمع يا سيدي.. يا سيد ريتشارد، يجب أن نباشر أعمالنا بمرح، وليس بروح كئيبة وحالة بائسة.. هذا يدفعنا يا سيد ريتشارد.. يا سيدي إل...".
تنهدت سارة العفيفة تنهدًا عاليًا.
قال السيد سامبسون: "يا لنفسي العزيزة! أنت أيضًا! ما حل بكما! ما الأمر يا سيد ريتشارد.. ما الأمر يا سيدي؟!".
رمق ديك الآنسة سالي، ولاحظ أنها كانت تومئ إليه بإشارات تفصح عن رغبتها حول ذكر الموضوع الأخير لشقيقها، بما أن موقفه لم يكن لطيفًا على الإطلاق، لم يكن يعرف ما عليه

فعله، حتى هدأ الوضع بطريقة أو بأخرى، ومن بعدها انكبت الآنسة سالي على علبة السعوط، وأخذت شهقات طويلة متتابعة، عززت من موقفه.
لاح وجه سامبسون في اضطراب، وتغلبت أمارات القلق على ملامحه. لكنه بدلًا من الشعور بالضيق لفقدان أمواله، كما توقعت الآنسة سالي، مشى على أطراف أصابعه حتى الباب، فتحه ونظر إلى الخارج، ثم أغلقه في هدوء، وعاد ثانيةً على أطراف أصابعه، وقال هامسًا:
"هذا الموقف غير عادي ومن أشد الظروف إيلامًا، من أشد الظروف إيلامًا فعلًا. لكن الحقيقة هي أنني نفسي قد فقدت مؤخرًا الكثير من العملات التي وضعتها هنا على المكتب، وامتنعت عن ذكر أي كلمة حيالها، على أمل أن تكشف الجريمة عن مقترفها.. لكن ذلك لم يحدث.. لم يحدث البتة. يا سيد ريتشارد! يا سالي! إن هذه المسألة مؤلمة وشديدة الحساسية بشكل خاص".
حينما كان سامبسون يتحدث، دس العملة الورقية بين بعض الأوراق الموضوعة على المكتب، في خفية، ثم سحب يده ووضعها في جيبه. لكن السيد سويفيلر أشار إليه، وحثه من توه على أن يأخذها ثانيةً.
قال براس في عاطفة متأججة: "لا يا سيد ريتشارد! لا يا سيدي! لن أخذها مرةً أخرى، سأتركها يا سيدي، لأبعد الشكوك عنك، فإن ثقتي فيك ثقة غير محدودة. لذا سنتركها جميعًا هنا، إذا سمحت يا سيدي، ولن نأخذها تحت أي ظرف من الظروف". وهنا ربت السيد براس على كتفه مرتين أو ثلاث مرات، في ودٍ لا مثيل له، واستحثه على التأكد أن لديه ثقة كبيرة في أمانته ونزاهته، كما يثق في أمانة نفسه ونزاهتها بالضبط.
على الرغم من أن السيد سويفيلر في أي وقت آخر، كان سيعتبر كلامه عبارة عن مجاملات تهكمية مشكوك في مقصدها، شعر في ظل تلك الظروف القائمة آنذاك بارتياح كبير، للتأكد من أن أصابع الاتهام غير موجهة نحوه، وأنه لم يكن مشتبهًا به ظُلمًا.
بعد أن قدم ردًّا مناسبًا، مد إليه السيد براس يده، وتصافحا بعدهما، ثم انغمسا في تفكيرهما كلٌّ على حدة، والآنسة سالي بالمثل. مكث ريتشارد شارد الذهن، ممعن التفكير، يخشى أن يسمع إتهام الماركيزة في أي لحظة، يتصور عجزها عن المقاومة أو عدم قدرتها على دحض الإدانة المحتومة بأنها مذنبة.
ظلوا تحت سيطرة هذه الحالة لبضع دقائق، حتى طرقت الآنسة سالي طرقة مدوية على المكتب بقبضتها، وصاحت: "لقد أصبتُها!"، لقد أصابتْها بالفعل، لدرجة أن نشارة من شق خشب المكتب سقطت، وجرحت يدها، لكن هذا لم يكن مقصدها.
صاح براس في اضطراب: "فعلًا! هيا قولي!".
ردت شقيقته متهللة بفرحة إنتصار: "ألم يكن هناك شخص تردد على المكتب طوال الثلاثة أو الأربعة الأسابيع الماضية، ألم يُترك بمفرده في بعض الأحيان! شكرًا لك! ماذا كنت تقصد حينما كنت تقول إن هذا الشخص ليس لصًّا!".
قال براس متلعثمًا: "أي شخص تعنين؟".
- أحسب أنك تدعوه.. كيت.
- الصبي الذي يعمل عند السيد جارلاند؟
- من المؤكد.

صاح براس: "لا يمكن أبدًا! هذا مستحيل! لا أصدق ما أسمعه بتاتًا.. لا تتفوهي بهذا الحديث".
أخذ يهز رأسه مستنكرًا، ويفرك يديه كما لو كان يزيل عشرات الآلاف من خيوط عنكبوت واستأنف اندهاشه: "لا يمكن أن أصدق أنه الفاعل. لا يمكن أبدًا".
أخذت الآنسة براس شهيقًا عميقًا من علبة السعوط، وقالت مكررة:
"أقول لك: إنه هو اللص".
رد سامبسون بعنف: "وأنا أقول لكِ لا يمكن أن يكون هو الفاعل مطلقًا. ماذا تقصدين بقولكِ؟ كيف تجرئين أصلًا؟ هل أصبحنا الآن نلوث السمعة هكذا؟ هل تعرفين أنه الأكثر من بين الأحياء نزاهةً وأمانةً وإخلاصًا، وأن لديه سمعةً لا مساس بها على الإطلاق.. تعال! تعال ادخل!".
لم تكن تلك الكلمات الأخيرة موجهة إلى الأنسة سالي، على الرغم من أنه قالها بالنبرة الحادة نفسها، التي عبر بها عن احتجاجه الساخط لما سبق قوله. وُجهت تلك الكلمات إلى شخص قد طرق على باب المكتب، وبالكاد خرجت تلك الكلمات في صعوبة شديدة من بين شفتي السيد براس، حينما وجد أن الطارق هو كيت نفسه، وأنه كان يقف ناظرًا إلى الداخل.
"إذا سمحت يا سيدي.. هل يوجد السيد النبيل في الطابق العلوي؟".
نظر براس إلى شقيقته، عاقد الحاجبين عابسًا في سخط، وقال: "نعم يا كيت". إلتفتَ إليه ولم يعدل عن النبرة الحانقة نفسها، وقال: "نعم يا كيت.. نعم إنه موجود في الطابق العلوي.. إنني سعيد لرؤيتك، إنني مبتهج لرؤيتك حقًّا. اعرج إلى هنا مرةً أخرى، بعد أن تنزل الدرج يا كيت.. هذا الفتى سارق!". صاح براس بعد أن انسحب: "أهذا الفتى سارق! صاحب هذا الوجه الذي تنبض فيه الصراحة والإخلاص سارق! إنني أثق فيه بمقدار ذهب لا حصر له. يا سيد ريتشارد.. يا سيدي! هل تقدم لي معروفًا وتذهب إلى شركة (رسب) في شارع (برود)، وتستفسر عما إذا كان لديهم تعليمات بالظهور في (كاركيم وبينتر).. هذا الفتى سارق!".
ازمهر وجهه، وزمهرت عيناه وقال ساخرًا: "هل أنا أعمى وأصم وأحمق، حتى لا أعرف شيئًا عن الخصال البشرية، وأتمكن من تمييز شخصية المرء حينما يقف أمامي؟ هذا الفتى سارق! كيت سارق! هراء!".
بعد أن إنهال بكلماته الأخيرة في إحتقار وازدراء فج على مسامع الآنسة سالي، ضرب السيد براس رأسه على مكتبه، يتنفس بعمق، مغمض العينين، كما لو أراد أن يحجب العالم كله عن رؤيته.





الفصل التاسع والخمسون

بعد أن أنهى كيت مهمته التي بُعث من أجلها، نزل من سكن الرجل النبيل بعد مرور ربع ساعة أو ما يقرب من ذلك، كان السيد براس بمفرده في المكتب. لم يكن يترنم ويغني كعادته، ولم يكن جالسًا على مكتبه. فقد ظهر من خلال الباب المفتوح، واقفًا أمام النيران، يوليها ظهره، ويبدو في حالة غريبة جدًّا، لدرجة أن كيت إعتقد أن علة أصابته فجأة.
قال كيت: "ألست على ما يرام يا سيدي؟".
صاح براس: "لماذا! لماذا افترضت هذا؟ لماذا لا أكون؟".
قال كيت: "إنك شاحبٌ جدًّا.. لدرجة أنني بالكاد عرفتك يا سيدي".
صاح براس وهو ينحني لينفض الرماد: "هراء هراء! ما هذا إلا محض خيال.. لم أكن في حال أفضل من هذا طوال حياتي. إنني في أفضل حال ومبتهج أيضًا. ها ها! كيف حال صديقنا الذي يقطن بالأعلى؟ ها!".
قال كيت: "أفضل بكثير".
قال براس: "إنني سعيد لسماعي ذلك.. إنني ممتن حقًّا. إنه رجل مثالي، وجدير، ومنان، وكريم، وحليم، ولا يتسبب في أي مشاكل.. إنه النزيل المحبب. ها ها! وماذا عن السيد جارلاند.. آمل أن يكون بخير يا كيت.. وماذا عن المهر.. المهر صديقي.. صديقي المميز الإستثنائي كما تعرف، ها ها!".
قدم كيت تقريرًا مُرضيًا عن أحوال جميع أفراد الأسرة الصغيرة التي تسكن في فيلا هابيل، حينها مشى السيد براس إلى مقعده، في مظهر غير مكترث بتاتًا بما قال، ونافذ الصبر، جلس ومن ثمَّ إستدعاه ليقترب منه، وتجاذب معه أطراف الحديث.
قال المحامي: "كنت أفكر يا كيت في أن أوفر أجرًا لأمك.. إن لديك أُمًّا على حسب ما أظن! أليس كذلك؟ إذا كنت أتذكر جيدًا، لقد أخبرتني سابقًا أن لدي...".
- أوه! بلى هو كذلك يا سيدي.
- أرملة على ما أعتقد؟ أرملة كادحة؟
- سيدة كادحة وأم فاضلة ليس لها مثيل يا سيدي.
صاح براس: "آه! هذا مؤثر.. مؤثر حقًّا! أرملة مسكينة تكافح من أجل رعاية اليتامى في احتشام وتعزية.. إنها الصورة المثلى لصلاح الإنسان.. ضع قبعتك هنا يا كيت".
- شكرًا لك يا سيدي، لا داعي؛ لا بد لي أن أذهب مباشرة.
أخذها براس منه وقال: "ضعها على أي حال طوال بقائك هنا". ثم أزاح بعض الأوراق، وأحدث بعض الفوضى حتى شغر لها مكان على مكتبه؛ ليضعها، ومن ثم استأنف قائلًا: "كنت أفكر يا كيت، أننا لدينا في الغالب منازل يسكنها الناس، ويسكنها من نحن مهتمون بشأنهم، وما إلى ذلك. الآن أنت تعرف أننا مضطرون لإبقاء أشخاص في هذه المنازل لتدبير شؤونها.. وفي كثير من الأحيان يكونون أشخاصًا غير جديرين لا يستحقون الإعتماد عليهم أو الوثوق بهم. لذا، ما الذي يمنع من أن يكون لدينا شخص يمكننا الإعتماد عليه، ونحظى بفرحة القيام بعمل جيد في الوقت نفسه؟ أنا أقصد، ما الذي يمنعنا من أن نوظف سيدة، أن نوظف والدتك؟ في وظيفة أو أخرى،

وسيتوفر لها السكن.. سيكون سكنًا نظيفًا وجيدًا.. جيدًا جدًّا على مدار السنة، واستئجاره مجاني، إضافة إلى أجرة أسبوعية يا كيت.. من شأن هذا كله أن يوفر لها كافة سبل الراحة التي لا تعرف عنها شيئًا ولا تستمتع بأي منها في الوقت الحاضر. ها! الآن! قل لي ما رأيك في هذا الشأن؟ هل لديك أي اعتراض على أي شيء؟ إن رغبتي الوحيدة الآن هي أن أخدمك يا كيت، لذا فكرت في هذا الفعل، فقل ما تريد في حرية".
حينما كان براس يتحدث، حرك القبعة مرتين أو ثلاث مرات، وأخذ يقلب الأوراق المنثورة على المكتب مرةً أخرى، كما لو كان يبحث عن شيء ما.
رد كيت من كل قلبه: "كيف لي أن أبدي أي اعتراض على هذا العرض الرائع اللطيف يا سيدي؟ لا أعرف حقًّا كيف لي أن أشكرك يا سيدي ".
إلتفتَ براس فجأةً وقال: "لماذا إذنْ؟". ودفع وجهه بالقرب من وجه كيت، تعتليه إبتسامة مقيتة، لدرجة أن ذلك الأخير بعد أن كان في غمرة امتنانه، تراجع من فوره، ولاح مذهولًا، وقال: "لماذا حدث ذلك؟".
نظر كيت إليه، وقد استحوذ عليه الإرتباك.
أضاف سامبسون قائلًا، بينما يفرك يديه، ويعود إلى حالته الودودة المألوفة: "ها ها! هذا ما ستكتشفه يا كيت. هذا ما ستكتشفه.. ولكن...". قال براس: "يا لنفسي العزيزة! يا له من وقت ليرحل فيه ريتشارد! يا له من شخص مستهتر بائس! هل تمانع إذا بقيت في المكتب لدقيقة واحدة، بينما سأصعد الدرج وأعود في الحال؟ دقيقة واحدة فقط. لن أحتجزك ولو للحظة أطول يا كيت، تحت أي ظرف من الظروف".
سرعان ما ذهب السيد براس، وعاد بعد وقت قصير جدًّا. وعاد السيد سويفيلر أيضًا في اللحظة نفسها تقريبًا، حينما غادر كيت الغرفة مسرعًا؛ تعويضًا عن الوقت الضائع، لكن الآنسة براس صادفته عند المدخل.
قالت سالي ساخرةً فور دخولها وهي ترمقه بعينيها: "أووه! لقد غادر حيوانك الأليف يا سامي. ها!".
رد براس: "آه! لقد غادر.. معذرة! حيواني الأليف! إنه رفيق أمين يا سيد ريتشارد.. رفيق مخلص جدير بالثقة فعلًا يا سيدي!".
تنحنحت الآنسة سالي: "احم احم!".
قال سامبسون الغاضب: "سأخبرك أمرًا أيها المتشرد المزعج.. إنني سأرهن حياتي مقابل نزاهته وأمانته. هل من الممكن ألا أسمع هذا ثانية؟ هل كُتب عليَّ أن أكون دائمًا محاطًا بقلقك وشكوكك؟ أليس لديك أي مراعاة للشمائل الصادقة أيها الزميل الخبيث؟ اسمعني جيدًا.. إذا تطرقت إلى هذا الموضوع مرةً أخرى، فسأشتبه بك شخصيًّا وأشكك في نزاهتك وصدقك أكثر منه".
حينما وجه هذا الكلام إلى الآنسة سالي، أخرجت علبة السعوط، واستنشقت استنشاقًا طويلًا ببطء، وهي تحملق إلى شقيقها بثبات طوال الوقت.
قال براس: القد ساقتني إلى الجنون يا سيد ريتشارد.. يا سيدي، إنها تغضبني أكثر من أي شيء، أشعر بالانفعال يا سيدي، وارتفعت درجة حرارتي. أعرف أنني كذلك. وأعرف أن ذلك ليس من

شؤون العمل، ولا علاقة له به من الأساس، ولكنها تثير جنوني وتستفزني يا سيدي، وتُحَمِلني ما لا طاقة لي به".
قال ديك: "لماذا لا تتركه وشأنه؟".
قال براس مدمدمًا: "لأنها لا تستطيع يا سيدي.. لأن غضبي وإثارة جنوني جزء من كينونتها يا سيدي، لا يمكنها أن تتخلى عن ذلك أبدًا، ستفعل الأمر ذاته مرارًا وتكرارًا وستداوم على فعله، لدرجة أنها إذا توقفت عن فعل ذلك، سأعتقد أن بها خطبًا ما". أضاف براس قائلًا: "على كل حال، لا يهم ذلك الآن، فلقد أوضحتُ مقصدي. وبينتُ ثقتي العمياء في الصبي. وسوف يأتي إلى المكتب مرات ومرات. ها ها! سيأتي أيتها الخبيثة الماكرة!".
استنشقت العذراء الجميلة من علبة سعوطها مرةً أخرى، ثم وضعتها في جيبها، ولا تزال محملقة في شقيقها، في هدوء تام. قال براس بنبرة إنتصار: "سيأتي إلى المكتب مرات ومرات.. إنني منحته ثقتي، وسيظل يحظى بها، أنا أعلـ.. إنه.. أين.. أين الـ...".
قال السيد سويفيلر مستفسرًا: "ماذا فقدت؟".
قال براس، بينما يبحث في جيوبه، واحدًا تلو الآخر، ينظر إلى مكتبه، يفتش بين أوراقه: "يا لنفسي العزيزة! الورقة يا سيد ريتشارد الورقة يا سيدي، ورقة الخمسة جنيهات.. أين اختفت؟ لقد وضعتها بيدي هنا.. فليباركني الرب!".
صرخت الآنسة براس: "ماذا!". واثبةً من مكانها، تصفق بيديها، تبعثر الأوراق على الأرض وقالت: "اختفت! من على حق الآن؟ من كان رأيه صائبًا؟ لا يهم فقدان خمسة جنيهات؟ ماذا تعني خمسة جنيهات؟ ناهيك عن صدقه ونزاهته، أنا أعرف أنه أمين، أمين جدًّا بالحد الذي لا يجعلك تشك به مطلقًا. لا لا تذهب خلفه.. لا لا إنه نزيه.. لا تفعل ذلك ولو مقابل العالم أجمع!".
قال ديك، وهو ينظر إلى براس بوجه شاحب مثل وجهه: "هل اختفت فعلًا؟".
رد المحامي وهو يتلمس جيوبه كلها فاغر العينين: "صدقني يا سيد ريتشارد صدقني يا سيدي.. أخشى أن هذا عمل أسود.. لقد اختفت فعلًا يا سيدي.. ما العمل الآن؟".
قالت الآنسة سالي، وهي تستنشق شهقات متتابعة من علبة السعوط: "لا تلاحقه، لا تلاحقه مطلقًا تحت أي ظرف من الظروف. امنحه الوقت ليتخلص منها، فكما تعلم، سيكون من الصعب جدًّا جدًّا العثور عليه بالخارج الآن!".
نظر السيد سويفيلر وسامبسون براس إلى أحدهما الآخر، بعد أن أدارا وجهيهما عن الآنسة سالي، في حالة من الحيرة والذهول، وفي اندفاع واحد، انتشل كل منهما قبعته، وانطلقا إلى الشارع.. يركضان في منتصف الشارع، يتفاديان العوائق، يسرعان كما لو كانا ينفدان بحياتهما من موت محقق مثلًا، في ذلك الحين، كان كيت يركض أيضًا، على الرغم من أن ركضه لم يكن سريعًا، وقد غادر منذ بضع دقائق قليلة فقط، كان على مسافة بعيدة نسبيًّا. وعلى الرغم من كونهما متأكدين من الطريق الذي يتوجب عليه سلوكه، حافظا على عدوهما السريع، حتى وصلا إليه في لحظة كان توقف فيها؛ ليلتقط أنفاسه، ويبدأ الركض من جديد.
صاح سامبسون وهو يضع يده على أحد كتفيه، بينما انقض السيد سويفيلر ممسكًا بالآخر: "قف عندك! ليس بهذه السرعة يا سيدي؟ هل أنت في عجالة من أمرك؟".
قال كيت، وهو ينظر إليهما بالتناوب ومشدوهًا بالكلية: "في الحقيقة نعم".

قال سامبسون لاهثًا: "أنا.. أنا.. لا يمكن أن أصدق ذلك، لكن شيئًا قيّمًا مفقود من المكتب. وأتمنى ألا يكون عندك علم بالموضوع".
صاح كيت، مرتعدًا من رأسه حتى أخمص قدميه: "علم بماذا! بحق السماوات يا سيد براس! أنت لا تظن أنني..".
رد براس من فوره: "لا لا.. أنا لا أظن أي شيء. لا تقل: إنني قصدت أو قلت: إنك فعلت. كل ما أريده الآن، أن تعود معي بكل هدوء، هل ستفعل؟".
رد كيت: "بالطبع سأفعل. لِمَ لا؟".
قال براس: "فعلًا! لم لا؟ كم أود أن تتغير إلى لا، لِمَ لا. إذا علمت يا كيت الموقف الذي واجهته هذا الصباح، وكيف انحازت إلى صفك يا كريستوفر، لكنتَ أسفًا حقًّا".
رد كيت: "وأنا متأكد أنك ستكون آسفًا لأنك اشتبهت بي يا سيدي.. هيا دعونا نعود سريعًا".
صاح السيد براس: "بالتأكيد! كلما عدنا أسرع، كلما كان أفضل. يا سيد ريتشارد.. إعمل معروفًا يا سيدي، وأمسك بهذه الذراع. وأنا سأمسك بهذه. أعلم أنه ليس سهلًا السير بهذه الطريقة، لكن الظروف تحتم علينا فعل ذلك يا سيدي، وليس في وسعنا أي شيء".
تحول لون كيت من الأبيض إلى الأحمر، ثم إلى الأبيض مرةً أخرى، فقد شحب لونه عندما قبضا عليه بهذه الطريقة، وبرقت لوهلة رغبة في نفسه أن يقاوم قبضتيهما، لكنه انتبه في اللحظة ذاتها، أنه إذا قام بأي مقاومة، ربما سوف يجرانه من ياقته طوال الشارع، وكرر فقط في جدية، تترقرق الدموع في عينيه وتأبى النزول، إنهما سوف يأسفان لما يفعلانه.. وتركهما يقتادانه طوال الطريق.
بينما كانوا في طريق العودة، استغل السيد سويفيلر مهمته، التي أزعجته بشدة، ليهمس في أذنه حيثما واتته الفرصة، ويقول له إنه إذا إعترف بذنبه، ولو بمجرد إيماءة، ووعد بأنه لن يقترف هذا الفعل مرةً أخرى، سيتواطأ معه، ويدعه يركل سامبسون براس على قصبة ساقه، ويفر هاربًا، لكن كيت رفض هذا الإقتراح بسخط شديد، ولم يكن للسيد ريتشارد أي حيلة في هذا الأمر، سوى أن أمسكه بإحكام حتى وصلوا إلى بيفيس ماركس، ومن ثمَّ اقتاداه معًا إلى حضرة الفاتنة سارة، التي اتخذت احتياطًا فور وصولهم، وأغلقت الباب.
قال براس: "حسنًا! تعرف يا كريستوفر أنك إذا أردت أن تثبت الحالة القائمة على أنها براءة، كما يفترض أن يتم إسنادها، يجب أن نتحرى الكشف الكامل إرضاءً للجميع، لذلك إذا كنت توافق على الفحص.."، أوضح أي نوع من الفحص قصده، فقد شمر سوار معطفه وأكمل: "فسوف يكون شأنًا مُريحًا ومُرضيًا لجميع الأطراف".
قال كيت بكل عزة نفس، وهو يرفع ذراعيه: "يمكنك أن تفتشني.. لكن ضع في اعتبارك يا سيدي، أنك سوف تشعر بالأسف الشديد لفعلك هذا، وسوف تشعر بالندم إلى آخر يوم في عمرك".
تنهد براس، وهو يدس يده في إحدى جيوب كيت وقال: "هذا موقف موجع حقًّا". ثم أخرج منه مجموعة متنوعة من أشياء صغيرة وقال: "هذا الأمر موجع وشاق.. لا يوجد شيء هنا يا سيد ريتشارد، إن كل الأمور إلى الآن مرضية تمامًا.. ولا هنا يا سيدي، ولا في الصدرية، ولا في ذيل معطفه.. حتى الآن ينبئ كل شيء بالخير، أنا سعيد جدًّا وراضٍ تمامًا".
بينما وقف ريتشارد سويفيلر ممسكًا بقبعة كيت في يده، يشاهد جميع تداعيات الموقف في إهتمام كبير، وتعتلي وجهة أمارة تنم عن إبتسامة طفيفة، كان براس يغلق عينًا ويفتح أخرى،

ينظر في تفحيص إلى أحد كمي الفتى المسكين، كما لو كانت عينه تلسكوبًا.. لكن سامبسون براس إلتفتَ إليه فجأة، واستحثه على تفتيش القبعة.
قال ديك: "وجدت وشاح عنقه".
قال براس، بينما لاحت عيناه في إلتفاتة إلى كمه الآخر، وبنبرة شخص يفكر في مدى هائل من الإحتمالات الواردة: "لا ضرر من هذا يا سيدي، لن يفيدنا في شيء، لا ضرر من الوشاح يا سيدي بأي حال من الأحوال. على الرغم من أن البعض لا يعتقدون أن ارتداءه عادة سليمة، أعتقد يا سيد ريتشارد، أو سمعت ذات مرة، أن وضع الشخص لوشاحه في قبعته، ستحافظ على رأسه دافئًا جدًّا، لذا فوجود وشاح عنقه في قبعته يعتبر أمرًا مريحًا يا سيدي، يعتبر في غايـ..".
ما استوقف السيد براس عن الحديث، كانت أمارات ذهول غيرت من ملامح ريتشارد سويفيلر والآنسة سالي وكيت نفسه. إلتفتَ من فوره، فقد كان ديك واقفًا، ويمسك الورقة النقدية في يده.
صاح براس صارخًا: "في القبعة؟".
قال ديك مشدوهًا مما كشفه: "كانت تحت الوشاح، ومطوية في البطانة.
نظر السيد براس إليه، وإلى شقيقته، وإلى الحوائط، وإلى السقف حتى الأرضية، وإلى كل شيء، ولم يستطع أن يرفع عينيه نحو كيت، نظر إلى كل شيء حوله عدا كيت، الذي تجمدت أوصاله من الذهول، وصار منعقد اللسان، مخدرًا بالكلية.
صرخ سامبسون يقلب كفًا على كف: "هل هذا هو العالم الذي يدور حول محوره، ويحظى بتأثيرات قمرية، وطواف حول الأجرام السماوية، ومختلف التأثيرات الكونية على الشاكلة نفسها! هل هذه هي الطبيعة البشرية؟ هل هذه هي؟ الطبيعة البشرية؟ أي طبيعة! الشخص الذي كنت سأرهن حياتي فداه! وأغمره بكل ما أحتكم عليه من فضل ومحاسن، يكون مجرمًا في النهاية! إنني لا أصدق نفسي! حتى الآن كم أود أن أسمح له بالرحيل! ولكن...". استجمع براس رباطة جأشه وأضاف: "لكنني محامٍ، ويجب أن أمتثل إلى القانون الشريف، وأكون مثالًا زخرًا في تنفيذ قوانين بلدي السعيد. عزيزتي سالي، سامحيني! أرجوكِ تعالي أمسكي به من الجانب الآخر، ومن فضلك يا سيد ريتشارد، من فضلك يا سيدي قدِّم إليَّ معروفًا، وأسرع لإحضار الشرطة. لقد ولى الضعف وانقضى يا سيدي، وحلت القوة الأخلاقية مكانها. أحضر الشرطة يا سيدي، سريعًا من فضلك!".





الفصل الستون

ثبت كيت في مكانه كشخص مسلوب لبه، منقبض وجهه، فاغر العينين، ينظر في شرود إلى الأرض، لا يعي نفسه وما حوله، حتى إحكام قبضة السيد براس على جانب من ياقته، وانقضاض الأنسة سالي وإمساكها بالجانب الآخر في إصرار وقوة، ووقوعه محتجزًا بينهما، لم تمثل له مصادر إزعاج، ولو بشكل طفيف، لكن ضغط المرأة الساحرة المتتابع بأنامل أصابعها على حلقه من وقت إلى آخر، فضلًا عن تثبيت قبضتها في صرامة دون رأفة، كانت السبب - في المقام الأول - وراء جعله لا يستطع انتشال نفسه من الإحساس بالاختناق المميت وذلك على الرغم مما يعانيه من تشوش أفكاره وصراعات مضطربة. بقي على الوضع نفسه بين الأخ وأخته، خائر القوى مسلوب الإرادة، لا يقاوم، إلى أن عاد السيد سويفيلر يتبعه الشرطي في أعقابه.
بالطبع، كان هذا الموظف معتادًا على المواقف المماثلة، والذهاب إلى ساحات وقوع الجرائم؛ فقد مرت عليه جميع حالات السرقة، بداية من حالات النشل السريعة، حتى إقتحام المنازل أو المنشآت على الطرق، كما هو الحال في سير العمل العادي بالنسبة له، أما بالنسبة للجناة في ضوء اختلاساتهم سواءً أكانت كلية أم جزئية، فعادةً ما يمتثلون للقانون الجنائي، حيث يقفون وراء القضبان.. تلقى أقوال السيد براس واستمع إلى الحقائق المدلاة بقدر من الإهتمام والإندهاش، كأنه حانوتي يُحتم عليه الأمر أن يستمع إلى رواية مفصلة عن المرض الأخير للشخص، الذي استُدعي للتعهد بدفنه بطريقة مهنية، أخذ كيت إلى الحجز بلا مبالاة موقرة.
قال تابع وزير العدل: "يستحسن لنا أن نصل إلى المكتب، أثناء وجود قاضي الصلح، أريدك أن تأتي معنا يا سيد براس، والـ...". نظر إلى الآنسة سالي، كما لو أن الشك ساوره حيال ما إذا كانت حيوان الغرفين أم وحشًا خرافيًّا آخر.
قال براس: "السيدة! أتقصد السيدة؟".
رد الشرطي: "آه! نعم أقصد السيدة، وكذلك الشاب الذي وجد المال".
قال براس بنبرة يائسة: "السيد ريتشارد.. إنها الضرورة الحتمية الحزينة وتقديم التضحيات على مذبح بلادنا يا سيدي...".
قاطعه الشرطي، وهو يمسك كيت من ذراعه بغير اكتراث - حيث أطلق آسراه الآخران سراحه - مثبتًا يده أعلى مرفقه بقليل: "أحسب أنك ستطلب عربة أجرة.. يستحسن بك أن ترسل لإحضار واحدة.. هل ستفعل؟".
رفع كيت عينيه، ونظر إليه في إلتماس شديد وصاح: "ولكن.. اسمعني أولًا.. اسمع أقوالي. أنا لست بمذنب أكثر من أي أحد منكم هنا. أقسم بحياتي أنا لست كذلك، أنا لص؟ كيف هذا؟ يا سيد براس، أنت أحسن من يعرفني، أنت تعرف أنني لست كذلك، أنا متأكد من أنك تعرفني جيدًا. هذا ليس أمرًا صحيحًا يصدر منك البتة".
قال براس: "إن أقوالي أيها الشرطي أنـ...". لكن الشرطي قاطع حديثه بترديد مبدأ دستوري ينص على أن: "الكلام لا يعول عليه". وأضاف أن الكلام ما هو إلا طعام مهروس في أفواه الأطفال والرضع، والأيمان ما هي إلا طعام الأقوياء.

قال براس بنفس النبرة البائسة: "معك حق أيها الشرطي.. أحلف يمينًا أيها الشرطي، أنني منذ دقائق قليلة ماضية، حينما عرفنا هذا الإكتشاف المهلك، كانت لدي ثقة كبيرة في هذا الفتى، الذي راهنتُ على نزاهته مقابل حياتي.. العربة يا سيد ريتشارد، إنك بطيء جدًّا يا سيدي".
صاح كيت: "مَن هنا يعرفني؟ من هنا لا يثق فيَّ؟ اسأل أي أحد يعرفني، اسألهم إذا ما كانوا قد شكوا في أمانتي من قبل، اسألهم إذا أخذت منهم شيئًا ولو بقيمة الفارذنغ. لم أكن غير أمين أو لصًّا حينما كنت فقيرًا جائعًا، فهل سأكون الآن! خذوا هذا بعين الإعتبار. ألا تفعلوا! فكروا ولو لوهلة. كيف أقابل ما فعله ألطف الأصدقاء على مستوى الناس أجمعين، بهذه التهمة الرهيبة!".
رد السيد براس قائلًا: إنه كان من الجيد للمحتجز أن يفكر هو ولو لوهلة قبل أن يتمم فعلته، وكان على وشك تقديم بعض الملاحظات التشاؤمية الأخرى، عندما سمعوا صوت الرجل الأعزب، يسأل من أعلى الدرج ما الأمر، وما سبب هذا الصخب والجلبة. انطلق كيت لا إراديًّا مندفعًا صوب الباب مشمولًا باضطرابه، يريد إجابة منه عن سؤاله، لكن الشرطي طوقه في الحال من كل جانب، فوقف كمدًا، وشعر بعذاب فتاك لرؤيته السيد براس ينطلق من فوره إلى الخارج، ليخبره ما حدث من منظوره.
قال سامبسون حينما عاد: "إنه لا يكاد يصدق ما حدث.. ولا يمكن لأي أحد أن يصدق. كم أود لو كان باستطاعتي تكذيب حواسي، ولكن ما تقر به لا يرق إليه الشك أبدًا"، ثم صاح سامبسون وهو يغمز ويفرك عينيه: "لا فائدة من إعادة استجواب عينيَّ، لا يستطيعان أن يبصرا غير الحقيقة الأولى.. والآن يا سارة، أنا أسمع صوت قعقعات العربة تقترب، أحضري قبعتكِ، ولنرحل من هنا. يا لها من مهمة حزينة! جنازة أخلاقية بالضبط!".
قال كيت: "يا سيد براس.. قدم إليَّ معروفًا واحدًا فقط.. خذني إلى السيد ويزردن أولًا".
هز سامبسون رأسه على نحو متردد.
قال كيت: "هل ستفعل؟ إن سيدي هناك. بحق السماوات يا سيدي، خذني إلى هناك".
قال براس متلعثمًا: "حسنًا! ولكنني لا أعرف". ربما كان لديه أسباب خاصة حيال رغبته في الظهور عادلًا بقدر الإمكان في نظر كاتب العدل فقال: "كم من الوقت لدينا أيها الشرطي؟ ها!".
رد الشرطي الذي كان يمضغ قشة طوال ذلك الوقت بفلسفة عظيمة، أعرب أخيرًا عن رأيه، وقال: إنهم إذا رحلوا في الحال، فسيكون لديهم الوقت الكافي، ولكن إذا وقفوا للتلكؤ، سيتوجب عليهم الذهاب مباشرةً إلى قصر العمدة، ثم سأل أين ذلك المكان، وسأل عن كل شيء يخصه.
وصل السيد ريتشارد داخل العربة، كان يجلس في ثبات في الركن الأكثر راحة، موجهًا وجهه إلى الخيول، فاستحث السيد براس الشرطي ليقتاد سجينه، وأعلن أنه على استعداد تام للرحيل. تحرك الشرطي، وهو لا يزال يمسك كيت بالطريقة ذاتها، دفعه أمامه على مسافة قريبة، حوالي ثلاثة أرباع طول ذراعه - النسق الإحترافي - وزج به في العربة، وركب من بعده، تبعته الآنسة سالي بعد ذلك، وبما أن أربعة أفراد كانوا موجودين في الداخل، صعد سامبسون براس على الصندوق، وأمر الحوذي أن ينطلق.
جلس كيت، وهو لا يزال منغمسًا في هول الصدمة والذهول، مشدوهًا بالكلية من التغيير المفاجئ الذي حل عليه، يحدق من نافذة العربة إلى الشوارع؛ على أمل أن يرى أي ظاهرة غريبة، تمنحه إشارة؛ لتصديق أن ما يمر به ما هو إلا أضغاث أحلام. ويا للأسف! كان كل شيء مألوفًا واقعيًّا حقيقيًّا، نفس تعاقب مِنعطفات الطرق، نفس المنازل، نفس تكتلات الناس الذين

يهرولون على طوار الطريق جيئةً وذهابًا، نفس قعقعة العربات والحافلات، نفس ترتيب الأشياء غير المنسية المعروضة في المحلات، نفس إرتفاع الوعي في الساحة، نفس الضجيج والعجلة، التي لم يعكسها أي حلم من قبل. فما تصوره حلمًا كان هو الواقع. نعم! إنه مقيد في مكانه ومتهم بالسرقة، وعُثِر على الورقة النقدية معه، وعلى الرغم من أنه كان بريئًا في الواقع وفي الحلم، قبضوا عليه، واتخذوه سجينًا.
في خضم زخم أفكاره، غارقًا في تأملاته المفجعة، ظل يفكر في والدته وجايكوب الصغير بقلب منفطر، يشعر كما لو أن قناعته ببراءته لن تكون كافية، ولن تغنيه في حضور أصدقائه؛ إذا صدقوا أنه مذنب، لذا كلما كانوا يقتربون من بيت كاتب العدل أكثر فأكثر، كلما كان كيت يتمسك بالأمل وتعتريه الشجاعة، ينظر في جدية إلى خارج النافذة، لكنه غير منتبه إلى أي شيء على الإطلاق.. ولكن.. كما لو أن روحًا خبيثة، تم استحضارها على حين غرة، وإذ به ينتبه إلى وجه كويليب.
وأي نظرة خبيثة تلك التي اعتلت وجهه! لاحت تلك النظرة من نافذة مفتوحة لحانة، كان القزم متمدد بالكلية عليها، يسند مرفقيه كليهما على حافتها، ويريح رأسه على يديه كلتيهما، بناءً على وضعه الجسماني وانتفاخ وجنتيه بالضحك المكتوم، بدا متورمًا منتفخًا، نافخًا شدقيه إلى ضعف اتساعهما المعتاد. عندما لمحه السيد براس، أمر من فوره بإيقاف العربة أمام مكان وجوده بالضبط، خلع القزم قبعته، حيًّا الجميع في أدب بشع مغاير تمامًا.
صاح: "آها!! إلى أين يا سيد براس؟ أين أنت ذاهب الآن؟ ما هذا! سالي معك أيضًا! سالي الحلوة! وديك أيضًا؟ ديك اللطيف! وكيت بالمثل؟ كيت الأمين النزيه!".
قال براس للحوذي: "إنه مبهج للغاية! مبهج للغاية فعلًا! آه! يا سيدي لو تعرف! إنها مهمة حزينة! لو عرفت لن تؤمن أبدًا بصدق أو نزاهة أحدهم بعد يا سيدي".
قال القزم: "لِمَ لا! لِمَ لا يا مختال المحامين! ها! لِمَ لا؟".
قال براس وهو يهز رأسه في حسرة: "فقدنا ورقة نقدية كانت موضوعة في المكتب يا سيدي، ثم وجدناها في قبعته يا سيدي، ولم يكن أحد في المكتب، وتركناه بمفرده هناك.. ليس هناك أي إلتباس على الإطلاق يا سيدي.. إن جميع الأدلة مكتملة، ولا حاجة بنا لأي دليل آخر".
صاح القزم، وقد ارتمى بنصف جسده خارج النافذة: "ماذا! ماذا تقول؟ كيت لص! كيت لص! ها ها ها! إنه لص أكثر قبحًا ممن يمكن رؤيتهم في أي مكان مقابل بنس واحد، أليس كذلك يا كيت؟ ها! أليس كذلك؟ ها ها ها! هل من الممكن أن تأخذ كيت إلى الحجز قبل أن تتوفر له الفرصة أو يتاح له الوقت ويضطر إلى ضربي بعنف! أليس كذلك يا كيت؟ ها! أتتذكر يا كيت؟"، ومع إنتهاء قوله، ارتفعت قهقهات ضحكاته وعلت أصداؤها، لدرجة أنها أثارت ذعر الحوذي بكل وضوح، ثم أشار إلى منشر الصباغ إلى جانبه؛ حيث كانت تتدلى منه ملابس شابهت شخصًا ملفوف على عنقه حبل المشنقة.
صاح القزم وهو يفرك يديه بعنف في تلذذ رهيب: "هل سيصل الأمر إلى هذا الحد يا كيت؟ ها ها ها! يا لحسرة جايكوب الصغير، وأمه السيدة العزيزة! فلتدع قسيس الكنيسة التي تترد عليها أمه يأتي ليواسيه ويعزيه يا براس. ها! يا كيت! ما رأيك؟ سينشرح صدرك بكل تأكيد! هيا! انطلق أيها الحوذي. انطلق. وداعًا يا كيت، فلتصحبك السلامة، أريدك أن تثابر على رفع معنوياتك.. خالص تحياتي إلى أسرة جارلاند. السيد النبيل والسيدة العجوز العزيزة على وجه الخصوص،

بلغهما تحياتي! هل ستفعل؟ فليباركهما الرب، وليباركك أيضًا، وليبارك الناس أجمعين يا كيت. فلتعم البركات على العالم كله!".
مع هذه الأمنيات الطيبة، وتحيات الوداع، انطلقوا لاستكمال طريقهم حتى غابت أصوات قعقعات العربة، تابعهم القزم حتى غيبهم الأفق، ولم يعد يرى العربة، فسحب رأسه إلى الداخل، وغالى في الضحك بنشوة من فرط المتعة، متمرغًا على الأرض.
عندما وصلوا إلى منزل كاتب العدل، ودون أن يستغرقوا وقتًا طويلًا للوصول، وجدوا القزم أمامهم عند قارعة الطريق يقف على مقربة يسيرة من المنزل، ترجل السيد براس، وفتح باب العربة بسيماء تعكس حزنًا، وطلب من شقيقته أن تصطحبه إلى المكتب، من أجل تمهيد ذلك الموقف المفجع الذي هم بصدده لهؤلاء الطيبين. وبعد أن امتثلت الآنسة سالي إلى مطلبه، رغب في أن يرافقهما السيد سويفيلر. ذهبوا إلى المكتب، سار السيد سامبسون وشقيقته متأبطي الأذرع، وتبعهما السيد سويفيلر بمفرده.
كان كاتب العدل في ذلك الوقت واقفًا أمام النيران في المكتب الخارجي، يتحدث مع السيد جارلاند الصغير والسيد جارلاند الكبير، بينما كان السيد تشوكستر جالسًا على المكتب، منهمكًا في الكتابة، يلتقط من كلامهم محوره، ويدونه بطريقته الخاصة. كان هذا المشهد هو ما رمقه السيد براس من الباب الزجاجي بينما كان يدير المقبض، ولاحظ أن كاتب العدل قد انتبه لوجوده، فأومأ إليه برأسه، متنهدًا بعمق، مفرقًا بقدومه ذلك الجمع.
قال سامبسون، وهو يخلع قبعته، ويقبل إصبعين من أصابع قفاز يده اليمنى الصوفي: "إن اسمي براس.. براس، ومن بيفيس ماركس يا سيدي، إن لي خالص الشرف والسرور يا سيدي؛ لأمتثل أمامك بسبب بعض الأمور الوصائية.. كيف حالك يا سيدي؟".
قال كاتب العدل: "سينضم إليك محرري، يمكنك أن تبلغه بالعمل الذي جئت من أجله يا سيد براس"، ثم إلتفتَ عنه.
استوقفه براس قائلًا: "شكرًا لك يا سيدي.. جزيل الشكر بكل تأكيد. ولكن.. اسمح لي يا سيدي أن أقدم لك شقيقتي.. إنها واحدة منا يا سيدي، بغض النظر عن أنها من الجنس الضعيف، إنها عماد عملي يا سيدي. أكاد أن أجزم لك أنها كذلك فعلًا. وأقدم لك السيد ريتشارد يا سيدي.. أستميحك عذرًا يا سيدي! هلا تسمح لي أن نتقدم خطوة إلى الأمام.."، "لا! فعلًا يا سيدي".
خطى براس بين كاتب العدل ومكتبه الخاص - فقد شرع الآخر في الإنسحاب، وقال بنبرة رجل مجروح: "إنني أناشد كرمك ورحابة صدرك يا سيدي، يجب أن أتحدث معك كلمة أو كلمتين فعلًا يا سيدي".
قال الآخر بنبرة حاسمة: "يا سيد براس، أنا منشغل.. وأنت نفسك ترى أنني مشغول مع هؤلاء السادة. إذا بلغت ما جئت لأجله إلى السيد تشوكستر هناك، ستنال كل الإهتمام".
قال براس: "أيها السيدان..". وضع يده اليمنى على صدريته، ونظر إلى الوالد وابنه بابتسامة ناعمة: "أيها السيدان الكريمان، أناشدكما فعلًا أيها السيدان، وأتوسل إليكما، أن تأخذا ما سأقوله بعين الإعتبار.. إنني رجل قانون، إنني رجل منتمٍ إلى القانون، أحتفظ بمكانتي بدفع اثني عشر جنيهًا إسترلينيًّا سنويًّا لأفوَّض بالشهادة. أنا لست من عازفي الموسيقى، أو ممثلي المسرح، أو مؤلفي الكتب، أو حتى من رسامي الصور ممن يتولون مكانة لا تعترف بها قوانين بلادهم. أنا لست واحدًا من المشردين الذين يتجولون في الشوارع، ومن ليس لهم مأوى، إذا أراد أي شخص

الوقوف أمامي، فيجب عليه أن يقول السيد النبيل ومن ثم يذكر اسمي، وإلا سيكون فعله لاغيًا وباطلًا. أناشدكما فعلًا أيها السيدان أن أقتطع من وقتكما الثمين بكامل إحترام إذا سمحتما وأذنتما لي أيها السيدان النبيلان الكريمان...".
قال كاتب العدل: "حسنًا حسنًا! هل تفعل خيرًا وتقول ما الذي جئت من أجله يا سيد براس؟".
قال السيد براس: "سأفعل بالطبع يا سيدي.. آه! السيد ويزردن.. أحسب أنك تعرف.. دعني أحيد لوهلة عن النقطة المقصودة يا سيدي.. أظن أن اسم أحد هذين السيدين هو جارلاند.. أي منهما السيد جارلاند؟".
قال كاتب العدل: "الاثنان".
صاح براس في خنوع مفرط: "فعلًا! كان يجب عليَّ أن أعرف هذا من الشبه غير المألوف.. أنا في غاية السعادة فعلًا، لأتشرف بمعرفة اثنين من السادة النبلاء مثلهما مرةً واحدة، على الرغم من أن الظرف الذي جاء بي إلى هنا أكثر الظروف إيلامًا. هل لأي منكما أيها السيدان خادم يُدعى كيت؟".
قال كاتب العدل: "الاثنان".
قال براس مبتسمًا: "اثنان لهما نفس اسم كيت؟ يا لنفسي العزيزة!".
رد السيد ويزردن نافد الصبر وبنبرة غاضبة: "إنه كيت واحد يا سيدي ويعمل لدى كلا السيدين.. عجِّل أيها السيد؟ ماذا عنه؟".
قال براس خافضًا صوته بشكل مثير للإعجاب: "إن الأمر كله عنه يا سيدي! هذا الشاب الصغير يا سيدي، الذي منحته ثقة لا حدود لها، وتصرفت معه كما لو كان يعادلني مكانةً.. هذا الشاب الصغير صباح اليوم يا سيدي ارتكب جريمة سرقة بشعة في مكتبي.. وفي الواقع تم احتجازه تقريبًا".
صاح كاتب العدل: "حري بهذا أن يكون باطلًا".
قال السيد هابيل: "هذا غير ممكن".
صاح الرجل العجوز: "لا أصدق كلمة واحدة مما تقول".
نظر السيد براس إليهم في رزانة، وقال:
"يا سيد ويزردن يا سيدي! كلامك موجب.. ولكنني إذا كنت رجلًا من فئة بسيطة متواضعة، لا يمكنني أن أقبل بالتشهير، وحريٌّ بي أن أطالب بالتعويض. ومع ذلك يا سيدي، فإنني وبمكانتي وفئتي التي أنا منها يجب أن أرفض هذه التعبيرات. أحترم حقًّا المشاعر النبيلة الصادقة لكلا السيدين، وإنني آسف حقًّا لكوني رسول تلك الأخبار غير السارة. كان يجب عليَّ ألا أضع نفسي في مثل هذا الموقف المأسوي، أجزم لكما أنني لم أكن سأفعل، لولا أن الفتى نفسه أراد أن يتم إحضاره إلى هنا أولًا، وقد امتثلت لمطلبه. يا سيد تشوكستر، يا سيدي! هل من الممكن أن تقدم إليَّ معروفًا، وتنقر على النافذة، لاستدعاء الشرطي المنتظر في العربة؟".
نظر السادة الثلاث إلى بعضهم، بوجوه باهتة خالية من أي تعبير، أثناء التفوه بتلك الكلمات، بينما فعل السيد تشوكستر ما أمل فيه بالضبط، وثب عن مقعده، وانطلق في إثارة نبي ملهم تحققت تنبؤاته وتمثلت على أرض الواقع، فتح الباب من توه، وأبقاه مفتوحًا لدخول المحجوز البائس.

ظل الحال على ما هو عليه، حتى دخل كيت، وانفجر بكلمات متتابعة في فصاحة ألهمته إياها حقيقة موقفه، يتضرع إلى السماء الشاهدة على براءته، ويحلف أيمانًا مسترسلة أنه لا يعرف كيف عُثِر على الورقة النقدية معه! ظلت أمارات الحيرة تعتلي الوجوه، حينما تم ربط جميع إلتباسات الموقف، وكُشفت البراهين.. ظل الصمت الرخيم مخيمًا عليهم جميعًا، بعد أن قبل كل شيء، وتبادل أصدقاؤه الثلاثة
نظرات الشك والاستغراب!
قال السيد ويزردن بعد لحظات صمت طالت بينهما: "أليس من الممكن أن الورقة النقدية وصلت إلى قبعته عن طريق الصدفة.. ربما حينما نُثرت الأوراق على المكتب.. على سبيل المثال!".
ولكن ما قاله بدا ضربًا من المستحيل. على الرغم من أن السيد سويفيلر سرد ما حدث على مضض، فلم يكن شاهدًا اختياريًّا، لم يسعه سوى أن يقدم برهانًا توضيحيًّا على ما شهده فعلًا، ويقول: إن المكان الذي وُجِدت فيه الورقة النقدية، يبرهن على أنه قد تم وضعها عن عمد.
قال براس: "إنه أمر محزن للغاية، أمر مفجع فعلًا.. عندما يمتثل للمحاكمة، سأكون ممتنًّا جدًّا، وأنا أطالب بتخفيف حكمه؛ بناءً على شخصيته الحسنة السابقة. لقد فقدت أموالًا من قبل، لكن هذا لا يعني بالتأكيد أنه هو من أخذها. لكن الافتراضات كلها ضده، وتثبت التهم عليه بشدة.. لكننا بشر رغم كل شيء، أليس كذلك؟".
قال الشرطي، وهو ينظر حوله: "أعتقد أن لا أحد من السادة الحاضرين يمكنه أن يقدم دليلًا أو شهادة تنفي اختلاسه للأموال المعنية، أو سبب توفر المال مؤخرًا معه! هل تعرف يا سيدي؟".
رد السيد جارلاند على من طرح السؤال: "بالتأكيد كان يتوفر معه أموال من وقت إلى آخر، لكن تلك النقود كما أخبرني، كان السيد براس نفسه قد أعطاها له".
قال كيت بحماس: "نعم هذا حدث فعلًا.. يمكنك أن تساندني يا سيدي وتقول: إنك أعطيتهم لي فعلًا.. هل من الممكن يا سيدي؟".
صاح براس، وهو ينظر من وجه إلى آخر في بلاهة منذهلًا: "ماذا؟ أي نقود!".
قال كيت: "النقود التي كنت تعطيها لي يا سيدي، عملات النصف كراون يا سيدي.. من المستأجر".
صاح براس وهو يهز رأسه، مقطب الحاجبين، عابسًا بشكل لا يمكن وصفه: "يا لنفسي العزيزة! ماذا تقول! هذا أمر سيئ، بل أجده في منتهى السوء في الواقع".
سأل السيد جارلاند بقلق شديد: "ما هذا؟ ألم تعطه أي مال نيابة عن أي شخص يا سيدي؟".
رد السيد سامبسون قائلًا: "أعطيه أي مال! بحقك يا سيدي! إنني أجد هذا الأمر معيبًا.. أيها الشرطي! أيها الرفيق الطيب يستحسن لنا أن نذهب من هنا".
صرخ كيت: "ماذا؟ هل هذا يعني أنه ينكر أنه أعطاني النقود؟ اسأله! من فضلكم أتوسل إليك. اسأله حتى يخبرك إذا فعل أم لا!".
سأل كاتب العدل: "هل فعلت أيها السيد؟".
رد السيد براس بطريقة متزنة للغاية: "أريد أن ألفت انتباهكم إلى شيء أيها السادة.. أنه إذا استمر في هذا الفعل بنفس الطريقة، فإنه لن يخدم مسار قضيته، لذا يا سيدي إذا كنت تهتم بأمره،

فمن الأفضل أن تنصحه بأن يكف عن فعله، ويغير سياسته المزعومة. إذن، هل فعلت يا سيدي؟ لا لم أفعل بالطبع".

صرخ كيت الذي وقع عليه رده كالصاعقة: "صدقوني أيها السادة! يا سيدي! يا سيد هابيل، يا سيد ويزردن، يا كل سيد منكم هنا ويسمعني، لقد فعل! لقد أعطاني تلك النقود! ما الذي فعلته ليشعر بهذا الحنق! أنا لا أعرف حقًّا، لكن هذه مكيدة للإيقاع بي. أيها السادة! حكموا العقل، انظروا إلى مجمل الموقف على أنه مؤامرة كيدية، وما الذي سيترتب عليها بعد ذلك، سأقول حتى آخر نفس لي إنه دس لي هذه الورقة النقدية! انظروا كيف يتغير لونه. انظروا من منا يبدو مذنبًا.. أنا أم هو؟".

قال براس مبتسمًا: "هل سمعتموه أيها السادة؟ هل سمعتموه! الآن! هل تبدو لكم هذه الحالة حالة عنصرية ضد ذوي البشرة الداكنة أم لا؟ هل تعتقدون أن القضية برمتها تعتبر خيانة أم مجرد جناية عادية؟ ربما إذا لم يقل هذا في حضوركم أيها السادة، لكنت قدمت تقريري في الحال، هل يبدو ما يقترفه الآن وفي حضوركم أنه مستحيل، وحريٌّ به أن يكون باطلًا، وغير ممكن؟ قولوا لي أيها السادة!".

بمثل هذه الملاحظات المسالمة المازحة التي أدلى بها السيد براس، دحض جميع الأفكار السيئة المأخوذة عن شخصيته، لكن سارة الفاضلة، قد تأججت المشاعر في صدرها، وانتزعت قلبها من سكينته، وربما كانت أكثر غيرة على شرف عائلتها الكريمة، فانطلقت من جانب شقيقها، دون أي سابق إنذار يدل على عزمها، واندفعت نحو المحتجز بأقصى قدر من الضراوة، وبروح نوت الانتقام. ربما كادت النتيجة أن تكون قاسية وظاهرة على وجه كيت، لكن هذا الشرطي المنتبه، أبعدها جانبًا في اللحظة الحاسمة، وبالتالي حمَّل السيد تشوكستر بعض العواقب الوخيمة لهذا الخطر المحيق، صادف أن يكون هذا الرجل النبيل المتلقي التالي لحنق الآنسة براس، واستشاطتها غضبًا، فمثل الحب والحظ كلاهما أعمى، كان نصيبه الانقضاض عليه من قبل تلك المستعبِدة العادلة، اقتلعت ياقته الزائفة من مكانها، وصار شعره أشعث، قبل أن تتمكن جهود منعها من تنبيهها إلى خطئها.

حذر الشرطي من هذا الهجوم اليائس، وأعرب عن أن الموقف ربما سيكون أكثر إرضاءً إذا لجأوا للعدالة، وأخذوا المحتجز ليمثل أمام القاضي، أخذوه وهو كامل فضلًا عن تفتته إلى أجزاء صغيرة، ثم اقتاده إلى العربة دون مزيد من الإهتياج واللغط، كما أصر على أن تكون الآنسة براس خارج مكان الركاب، جراء ما فعلته تلك المخلوقة الفاتنة، وبعد جدال محتد، تنازلت بالقبول، وأخذت مكان شقيقها سامبسون على الصندوق، وأخذ شقيقها مكانها داخل العربة بعد فترة من التردد. تمت هذه الترتيبات، وانطلقوا إلى ساحة العدالة بكل سرعة، يتبعهم كاتب العدل وصديقاه في عربة أخرى. تُرك السيد تشوكستر وحده، حانقًا منغمسًا في سخطه؛ لأنه أراد أن يدلي بشهادة، كان على علم بها طوال الوقت، تلك التي خصت عودة كيت إلى العمل بسبب ذاك الشلن، وبذلك كان بإمكانه أن يثبت حقيقة تفكيره المادية التي تكنها شخصيته المنافقة الماكرة، التي اعتبر قمعها أفضل إلى حد ما من تسوية جنائية.

في ساحة العدالة، وجدوا الرجل الأعزب، الذي انطلق منذ ذاك الحين، واتجه مباشرة إلى هناك، ومكث ينتظرهم بفارغ الصبر. لكن في هذا الموقف العصيب، حتى وإن تدخل خمسون رجلًا نبيلًا، لن يمكنهم أن يساعدوا كيت المسكين، الذي تمت إحالته إلى المحكمة بعد نصف ساعة،

وقد أكد له ضابط حليم كان في طريقه إلى السجن أنه ليس هناك أي داعٍ للريبة، وأن الجلسات ستبدأ قريبًا، وأنه وفقًا لكل الإحتمالات، سيتم التحري في قضيته البسيطةً، وربما يتم تسويتها في أقل من أسبوعين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الحادي والستون

دع الأخلاقيين والفلاسفة يوضحون ما هو محل تساؤل، ويقولون ما في وسعهم، حيال ما إذا كان يمكن لرجل مذنب أن يشعر بنصف كم البؤس الذي ران على كيت في تلك الليلة، ربما لطبيعة العالم التي تعج بجرائم متواصلة وارتكاب للظلم وغياهب الظلمات، أن تكون ملائمة لتعزية النفس، إذا كان ضحية الأكاذيب والافتراءات، سليم الطوية، فلا يمكن أن يدوم احتجازه، وأن الحق بطريقة أو بأخرى سينتصر في النهاية، "في هذه الحالة". قل لمَن أوقعوا به - على الرغم من أننا لا نتوقع ذلك بكل تأكيد - أن لا أحد أكثر سعادةً منا. في حين أن العالم الذي يتفشى في أرجائه الظلم، يتسبب إلى حد بعيد في إلحاق أذى فتاك مهلك مميت لا يمكن لكل من هو كريم ذو أسس سليمة أن يتحمله، فما تبرح أن تتوه الضمائر النقية عن دروبها، وتنفطر القلوب السليمة، لهذا السبب عينه، عندما يزيد وعيهم المدرك لاستحقاقهم من مفاقمة معاناتهم، فترزِّحهم خائري النفس والقوى.

ومع ذلك، لم يكن العالم مخطئًا في حالة كيت، لكن كون كيت بريئًا، وهو على علم بيِّن بذلك، وشعوره بأن أصدقاءه المقربين تشككوا في أمره، واعتبروه مذنبًا، وأن السيد والسيدة جارلاند نظرا إليه على أنه مثال للجحود والنكران، وأن باربرا ستحيل إليه كل ما هو سيئ وإجرامي، وأن المهر سيظن أنه قد تخلى عنه، حتى والدته ربما تستسلم أمام حججهم القوية ضده، وتصدق أنه الخسيس كما بدا في أعين الجميع، أورثه الذل، وبالغ في تعذيبه، كونه يعلم ويشعر بكل هذا، جعله يعاني - في البداية - من صراعات تتخبط داخل عقله، فلا يمكن لكلمات أن تذكرها أو أن تصفها، فهام داخل أفكاره، يمشي جيئةً وذهابًا داخل سجنه الضيق، الذي حُبس فيه مع عذابات نفسه ومرارة الحزن طوال الليل.

حتى عندما خف تأثير ما ماج في صدره من غم وكآبة إلى حد ما، وشرع في أن يكون أكثر هدوءًا، تسللت إلى ذهنه خاطرة جديدة، لكن عذابها كان أقل تبريحًا. ماذا لو أن الطفلة - النجم الساطع في حياة الفتى البسيط، من كانت تترد على باله دائمًا مثل حلم جميل، من استطاعت أن تجعل من الجزء الأشد تعاسةً في حياته الأفضل والأسعد، من كانت معه عطوفة ولطيفة ومراعية له وحليمة - قد سمعت بما حدث، ماذا ستعتقد؟ عندما استحوذت تلك الفكرة على عقله، لاحت له جدران زنزانته كأنها تذوب وتتلاشى، ليكشف ذاك المكان القديم عن نفسه، مثلما إعتاد أن يكون في ليالي الشتاء، لاح الموقد، ومنضدة العشاء الصغيرة، وقبعة الرجل العجوز، وعصاه، والباب نصف المفتوح، المفضي إلى حجرتها الصغيرة، كان كل شيء أمامه وفي موضعه تمامًا. حتى نيل نفسها كانت هناك، وكان معها، يضحكان معًا في مودة وصفاء، مثلما كانا يفعلان في كثير من الأحيان، وحينما سرح بخياله ورنا إلى أكثر من ذلك، لم يكن هناك أكثر من ذلك، فطرح نفسه على السرير الرديء، وغص بالبكاء.

كانت ليلة طويلة، بدت كأن لا نهاية لها، لكنه نام أيضًا، وحلم كما كان يحلم دائمًا بالحرية، يتجول الآن مع شخص، ثم مع آخر، لكن خوفًا مبهمًا دام معه وأحاط به، ينذر باستدعائه في أي وقت إلى السجن، لم يكن ذلك السجن، بل كان سجنًا في حد ذاته عبارة عن فكرة مبهمة، لم

يقصد بها مكانًا، بل همًّا وكمدًا، أمرًا قمعيًّا لطالما كان حاضرًا، ومع ذلك يبقى من المستحيل تعريفه. أخيرًا، بزغ الصباح، وكان السجن نفسه باردًا وحالكًا وكئيبًا وحقيقيًّا فعلًا.
على كل حال، تُرك بمعزل مع نفسه، ووجد شيئًا من راحة في هذا. كانت لديه حرية المشي في ساحة صغيرة مرصوفة في ساعة محددة من يومه، علم من السجان، الذي أتى وفتح زنزانته؛ ليريه أين يمكنه الإغتسال، أن هناك وقتًا ثابتًا للزيارة كل يوم، فإذا أتى أي أحد من أصدقائه لرؤيته، فسوف يؤخذ إلى غرفة بقضبان حديدية. عندما أحاطه علما بهذه المعلومات، وأعطاه فطوره في صحن من صفيح، حجزه ثانيةً، وأغلق عليه زنزانته مرةً أخرى، ومن ثمَّ رحل يقعقع طوال الممر الحجري، يفتح ويغلق العديد من الأبواب الأخرى، فتعالت أصواتٌ لا تحصى، وترددت أصداؤها في المبنى لفترة طويلة، كما لو كانت داخل سجن أيضًا، لا يمكنها الخروج منه.
قد بيَّن له السجان أنه محتجز مثل فئة قليلة داخل السجن، منفصلة عن عموم المساجين؛ لأنه غير مدانٍ تمامًا، ولأنه من المفترض غير فاسد تمامًا أو متعذر صلاح خصاله، إضافة إلى أنه لم يشغل أيّ موضع داخل هذا الصرح من قبل. صار كيت شكورًا لهذا التسامح، وجلس يقرأ تعاليم الكنيسة بانتباه شديد - على الرغم من أنه حفظها عن ظهر قلب من الطفل الصغير - حتى سمع قلقلة المفتاح داخل القفل، ودخل الرجل مرةً أخرى.
قال: "تعال يا كيت الآن! هيا!".
سأل كيت: "إلى أين يا سيدي؟".
قنَع السجان بالرد بإيجاز قائلًا: "زيارة"، ثم أمسك به من ذراعه، وبنفس الطريقة التي ساقه بها الشرطي قاده إلى الخارج، من خلال طرق متعرجة عديدة وبوابات ضخمة ثم إلى ممر، حيث تركه أمام قضبان حديدية ورحل. خلف تلك القضبان، على مسافة أربع أو خمس أقدام، كانت هناك واحدة أخرى مثلها تمامًا. وفيما بينهما، جلس سجان يقرأ جريدة، ووراء القضبان الأبعد، رأى كيت بقلب تضاعف خفقائه، والدته تحمل الرضيع بين ذراعيها، ووالدة باربرا ومظلتها التي لا تتركها أبدًا، وجايكوب الصغير يحدق بكل قوته، كما لو كان يبحث عن طائر أو وحش بري، كما لو كان يظن أن وجود الأشخاص مجرد مصادفة، ولا يمكن للأقفاص أن تُشغل بهم على الإطلاق.
حينما رأى جايكوب الصغير أخاه، مدَّ ذراعيه من فوره من بين القضبان الحديدية؛ يريد أن يحتضن أخاه، لكنه وجد نفسه لا يقترب البتة، ولا يزال يقف بعيدًا عنه، أمسك بيده أحد القضبان، ورأسه مستند على كتفه، انفجر باكيًا بشكل يفطر القلب، حينها لم تستطع والدة كيت ووالدة باربرا كبح دموعهما والاختناق بعبراتهما أكثر من ذلك، فبكتا وانتحبتا من جديد. لم يستطع كيت منع نفسه من الفعل نفسه، ولم يستطع أي منهم التفوه ولو بكلمة واحدة، خلال هذا الصمت الحزين، جلس السجان يقرأ جريدته ولكن بنظرة هزلية - من الواضح أنه كان يقرأ فقرات الطرائف - حتى رفع عينيه عن الجريدة لوهلة، كما لو كان يتأمل طرفة ما من نوع أعمق من البقية، كأنها كانت أول مرة بحدث فيها أن يشاهد شخصًا يبكي.
قال وهو ينظر مستغربًا: "حسنًا! حسنًا! اسمعا أيتها السيدتان.. أنصحكما ألَّا تضيعا الوقت بهذه الطريقة؛ فإن الوقت هنا محدود كما تعلمان. كما يجب ألَّا تدعا هذا الطفل يصدر هذا الضجيج. إن ما تفعلونه كله يخالف جميع القواعد".
انحنت السيدة نابلز في تواضع، وقالت منتحبة: "إنني أمه يا سيدي، وهذا أخوه.. أوه! ارحمنا يا رب!".

رد السجان، وهو يطوي الجريدة على ركبتيه، حتى يحصل على راحة أكبر في قراءة العمود التالي: "حسنًا! ولكن هذا لا يغير شيئًا كما تعرفين. إنه ليس الوحيد الذي يمر بنفس المأزق. لا يجب أن تثيروا أي ضجة هنا!".

مع ختام قوله، عاود القراءة مجددًا. لم يكن الرجل فظًا غليظ القلب أو قاسيًّا. إن عمله يحتم عليه أن ينظر إلى الجناية كنوع من المرض، كحمى قرمزية أو حُمْرة، يصاب بها بعض الناس، ولا يصاب بها البعض الآخر.. كما هو المعتاد.

قالت والدته، بعد أن حملت عنها والدة باربرا الرضيع بكل ود وإحسان: "أوه! يا عزيزي كيت! كيف لي أن أرى ابني الحبيب هنا!".

صاح كيت بصوت مختنق: "أنت لا تصدقين ما يتهمونني به يا أمي! أليس كذلك يا أمي؟".

صاحت المرأة المسكينة: "أنا أصدق؟ أنا لم أعرف عنك أبدًا أنك كذبت، أو قمت بعمل سيئ منذ مهدك.. إنك لم تسبب لي الحزن ولو للحظة، عوضًا عن تلك الأوقات التي أتذكر فيها الوجبات الزهيدة التي كنت تتناولها بروح مرحة قانعًا، التي لم ألحظ كم كانت قليلة، إلا حينما أدركت كم كنت لطيفًا رصينًا، على الرغم من أنك كنت مجرد طفل! أنا أصدق هذا على ابني الذي كان لي دائمًا منبعًا للراحة منذ ساعة ولادته حتى هذا الحين، الذي لم أنم ولو لليلة واحدة وأنا غاضبة منه! أنا أصدق عليك هذا يا كيت! كيف؟".

قال كيت، وهو يمسك بالقضبان ويهزهم في حماس: "يا ربي! إن الحمد والشكر لك! أنا قادر على أي شيء الآن يا أمي! يمكنني أن أتحمل كل ما يمكن أن يحدث لي.. سوف تلازمني دائمًا قطرة من سعادة داخل قلبي، حينما أفكر في أنكِ قلت ذلك فعلًا يا أمي".

حينئذ غسقت عيناها، ووالدة باربرا بالمثل، ومن ثمَّ ذرفتا دموعًا لا آخر لها. أما جايكوب الصغير، مَن كانت أفكاره متداخلة، لا يفهم ما حوله، بحلول ذلك الوقت، كان قد رتب أفكاره وصاغ منها فكرة واضحة، فاستوعب أن كيت لا يستطيع الخروج إلى التنزه إذا أراد، وأن وراء هذه القضبان، لا وجود لطيور أو أسود أو نمور أو أي مخلوق طبيعي مثير للفضول.. أو أي شيء على الإطلاق، سوى أخيه المحتجز، فأضاف دموعه إليهما ولم يصدر صخبًا قدر الإمكان.

كفكفت والدة كيت دموعها - بل بللت هذه النفس المسكينة عينيها أكثر مما كانت تحاول تجفيفهما - حملت سلة صغيرة كانت موضوعة على الأرض، وذهبت بها إلى السجان في طاعة، وهي تقول: هل من الممكن من فضلك أن تستمع إليَّ ولو لدقيقة فقط؟ لكن السجان كان هائمًا بكامل ذهنه مع مزحة، فأشار لها بيده أنه بحق حياتها أن تصمت لبعض الوقت. لم يزح يده عن موضعها السابق، وظل مبقيًا على نفس إيماءاته التحذيرية حتى أنهى الفقرة، وبعد صمت طال لبضع ثوان، كانت تعتلي وجهه إبتسامة، كما لو أراد أن يقول: "إن هذا المحرر فكاهي طائش.. كلب مرح بصحيح"، سألها عما تريده.

قالت المرأة الطيبة: "لقد أحضرت له بعض الطعام ليأكله، لو سمحت يا سيدي، هل من الممكن أن يأخذه؟".

- نعم.. من الممكن أن يأخذه. لا يوجد في هذا ما يخالف القانون. أعطيني إياه، عندما ترحلين، وأنا سأعمل على إيصاله له.

- ولكن يا سيدي.. أرجوك ألا تغضب مني يا سيدي.. أنا أم.. وبالتأكيد لديك أم.. هل من الممكن أن أراه يأكل ولو لقيمات بسيطة، قبل أن أرحل؛ حتى يطمئن قلبي ويشعر بالراحة.

وتنهمر دموع والدة كيت مرةً أخرى، وتتبعها والدة باربرا وجايكوب الصغير. أما الرضيع فقد كان يصيح ويضحك بأقصى ما عنده، كما لو أن المشهد بأكمله مختلق، وافتُعل خصيصًا من أجل رضاه والمزاح معه.
بدا السجان كما لو كان يعتقد أن المطلب مطلب غريب عما هو شائع، لكنه مع ذلك وضع ورقته، والتفتَ حيثما كانت والدة كيت تقف، وأخذ منها السلة، وبعد أن فتش محتوياتها، سلمها إلى كيت، ثم رجع إلى مكانه مرةً أخرى. قد يكون من السهل تصور أن السجين ليست لديه شهية مفتوحة، لكنه جلس على الأرض، وأكل سريعًا في نهم، ومع كل لقمة كان يضعها في فمه، تبكي والدته وتنتحب من جديد، على الرغم من رضًى أحسَّت به لرؤية ابنها، قد لطَّف قليلًا من حزنها.
بينما كان كيت منهمكًا في فعله، طرح بعض التساؤلات عن أصحاب العمل، وما إذا كانوا قد أفصحوا عن أي رأي في شأنه، لكن كل ما استطاع معرفته أن السيد هابيل ظل إلى جانب والدته يعزيها بلطف كريم، حتى وقت متأخر من الليلة الماضية، لكنه لم يعبر عن رأيه حيال ما إذا كان بريئًا أم مذنبًا. بعدها، استجمع كيت شجاعته؛ ليسأل والدة باربرا عن باربرا، لكن السجَّان الذي اقتاده إلى هناك ظهر ثانية، وظهر سجَّان آخر خلف زواره، وصاح السجَّان الثالث وبين يديه جريدته قائلًا: "الزيارة انتهت". وأضاف في نفس النَّفَس وبالنبرة العالية ذاتها: "الزيارة التالية!". ثم انغمس في عمق بين سطور صحيفته مرةً أخرى. شحب كيت في لمح البصر، بينما تتردد على مسامعه أصداء دعوات والدته له، وصرخات جايكوب الصغير. بينما كان يمر بالفناء المجاور، ويحمل بيده سلته الصغيرة، بتوجيه من قائده السابق، نادى عليهما ضابط آخر؛ كي يقفا، ووصل إليهما وهو يحمل في يده قنينة جعة نصف لتر.
قال الرجل: "أنت كريستوفر نابلز! الذي جاء ليلة أمس لارتكابه جناية. أليس كذلك؟".
رد مصطحبه إنه هو الجبان المعنيُّ.
قال الرجل الآخر لكريستوفر: "حسنًا! خذ هذه الجعة إنها لك.. إلامَ تنظر أيها الفتى؟ لم يبصق فيها أحد".
قال كيت: "أستميحك عذرًا يا سيدي.. هل من الممكن أن أعرف من أرسلها لي؟".
رد الرجل: "لِمَ لا! إنه صديقك!".
كرر كيت قوله: "صديقي!".
رد الرجل الآخر: "يبدو أنه مرحب بك. خذ هذا جواب. خذ! أمسك به!".
أخذه كيت، وحينما أغلقت عليه زنزانته مرةً أخرى، قرأ ما يلي:
"اشرب هذا الكأس، وارتوِ بقطراته، ففي كل قطرة تعويذة تنجيك من الموت والمرض ومهلكاته.. تحدث عن الشراب الروحي اللامع بحق هيلين ([19])! كأسها كانت محض خيال، وما في يدك الآن محض حقيقة (باركلي وشركاه).. إذا وصلت هذه القنينة منبعجة، عليك أن تقدم شكوى للحاكم.. صديقك المخلص ر.س.".
قال كيت بعد بعض التفكير: "ر.س! لا بد أنه السيد ريتشارد سويفيلر. إنها لفتة طيبة منه، إنني سعيد جدًّا، أشكره بكل حرارة".
∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني والستون

تلألأ ضوء خافت من نافذة مكتب المحاسبة على رصيف الميناء، كان أحمر وهاجًا يخترق ركام الضباب الليلي، بدا كأنَّ عينًا تلوح من بينه، بخطوات حذرة اقترب السيد سامبسون براس من الكوخ الخشبي، حيث كان المالك الممتاز، وموكله المحترم السيد كويليب، منتظرًا إياه في الداخل، متحليًّا بصبره المعتاد وبمزاج حسن، مهيأ تمامًا لموعد، أحضر من أجله السيد براس إلى مقصورته الخلابة.

قال سامبسون متمتمًا، بينما يتعثر للمرة العشرين بأخشاب مبعثرة على الأرض، ويعرج من شدة الألم: "مكان مليء بالعراقيل ليخطو الواحد ولو خطوة واحدة فيه، في ليلة حالكة.. أكاد أجزم أن ذاك الصبي ينثر ويبعثر أشياء متنوعة على الأرض كل يوم عن قصد؛ بهدف إلحاق الكدمات والجروح بالبشر، إذا لم يكن سيده يفعل ذلك بيده، أكاد أجزم أن هذا هو الواقع وليس مجرد إحتمال.. كم أكره المجيء إلى هذا المكان، من دون سالي. إنها أكثر حرصًا من دستة رجال".

بينما كان يثني على جدارة الفاتنة الغائبة، توقف السيد براس، ينظر متلفتًا في ارتياب، وصوب الضوء.

تساءل المحامي متمتمًا: "تُرى ما هو بصدده في الداخل؟". وقف على أطراف أصابع قدميه، يحاول أن يتبين أي لمحة مما يحدث في الداخل، لكن الأمر كان مستحيلًا من تلك المسافة البعيدة: "أعتقد أنه يشرب.. جاعلًا نفسه أكثر جموحًا متقدًا بالحماسة والجنون، يسعر خبثه، ويفاقم بطشه. دائمًا ما أخشى أن آتي إلى هنا بمفردي، عندما يكون منتشيًّا. أعتقد أنه لن يمانع في خنقي إذا هوى، ثم يرميني بكل هدوء وروية في النهر، وقت المد الأعلى، أكثر من أن يمانع في قتل فأر مثلًا.. في الواقع أنا لا أعرف، ربما سيعتبرها مزحة مرحة لا مثيل لها. صه صه! والآن يغني!".

من المؤكد أن السيد كويليب، كان يسلي نفسه بدندنة غنائية، لكنها كانت نوعًا ما من الترانيم عوضًا عن أن تكون أغنية؛ كونها تكرارًا رتيبًا لجملة واحدة بطريقة سريعة جدًّا، مع تشديد طويل على الكلمة الأخيرة، حتى حولها إلى نشاز وجعلها أقرب إلى عجيج مغمغم. لم يحمل هذا الغناء، أي إشارة لحب أو لحرب أو تغنٍّ على سبيل المثال لنشوة النبيذ أو الولاء أو ما شابه ذلك من المواضيع المتعارف عليها، بل لموضوع آخر، لم ينظم ألحانه وفقًا لأي طريقة غنائية أو لنوع معروف بشكل عام من القصائد القصصية، فقد كانت كلماتها على النحو التالي: ".. القاضي الجديد، بعد ملاحظة أن السجين، وجد صعوبة في إقناع هيئة المحلفين، لتصديق روايته، تعهد له بمعرفة الحكم في الجلسات القادمة، وفرض الإقرارات العرفية، للأخذ بها في الملاحقة القضـــااااائية".

في كل مرة كان يصل فيها إلى هذه الكلمة الختامية، كان يستنفد كل جهده، ويطيل نفسه بقدر ما يتمكن، ثم يتفجر في نوبة من الضحك، ويبدأ من جديد مرةً أخرى.

قال براس متمتمًا، بعد أن سمع تكرار تلك الترنيمة مرتين أو ثلاث مرات: "إنه طائش بشكل مخيف.. متهور بشكل مفزع. كم أتمنى لو كان أصم، كم أتمنى لو كان أبكم، كم أتمنى لو كان أعمى". صرخ براس، حينما بدأ في تكراره مرة أخرى: "كم أتمنى لو كان مشنوقًا، بل ميتًا!".

بعد أن تفوه بتطلعاته الودودة التي يتمنى حدوثها لموكله، بدل السيد سامبسون إيماءات وجهه إلى حالتها اللطيفة الحسنة المعتادة، وانتظر حتى علت الصرخة الأخيرة مرةً أخرى ومن ثم خفتت، وصعد إلى الكوخ الخشبي، وطرق على الباب.
صاح القزم: "ادخل!".
قال سامبسون، وهو يسترق النظر إلى الداخل: "كيف حالك الليلة يا سيدي؟ ها ها ها! كيف حالك يا سيدي؟ يا لنفسي العزيزة! كم أنت مزاجي! كم أنت مزاجي بشكل مثير للاندهاش يا سيدي!".
رد القزم قائلًا: "ادخل أيها الأحمق! ولا تقف هكذا، تهز رأسك وتبين أسنانك. ادخل يا شاهد الزور، يا حانث القسم، يا مرتش.. ادخل يا مدلس الحقيقة!".
صاح براس، وهو يغلق الباب بعد أن دخل: "إنه الأمرح من بين الناس! إنه الأبرع في إلقاء الدعابات! إنه الأروع في المزاح! لكن يا سيدي، أليس طيشًا هذا؟".
قال كويليب بصيغة اعتراضية: "ماذا؟ هل تقول يهوذا؟".
صاح براس: "يهوذا! ها ها! إن لديه روحًا إستثنائية.. إن روحه الفكاهية لا مثيل لها.. يهوذا! أوه! يا لنفسي العزيزة! كم هو مرح للغاية! ها ها ها!".
طوال هذا الوقت، كان سامبسون واقفًا، يفرك يديه الواحدة بالأخرى، يحدق في هول صدمة سخيفة وفزع في تمثال ضخم لمقدمة سفينة قديمة ذات رأس كبير، وعينين جاحظتين، وأنف أفطس، قد انتصب موازيًّا للحائط في ركن قريب من الموقد، بدا مثل عفريت أو صنم قبيح يعبده القزم. كانت هناك مجموعة من الألواح الخشبية على رأسه، شكلت مظهرًا سحيقًا مبهمًا لقبعة ذات قرنين، إضافة إلى شكل نجمة على الجانب الأيسر من صدره، وكتَّافتين على كتفيه، فبدا كأنه صمم لأميرال ما شهير. لكن، دون هذه المساعدات، كان من الوارد أن يتراءى لأي ناظر على أنه صورة حقيقية لخَيْلان البحر أو لوحش بحري ضخم. وبسبب حجمه الهائل الأصلي مقارنة بالمكان الذي وضع فيه لتزيينه، فقد نُشِر من وسطه. حتى في هذه الحالة، كان يصل ما بين الأرض والسقف، مائلًا إلى الأمام، وعيناه فاغرتان في منظر يقظ للغاية، يشبه الدخيل المتأدب، لطالما تميزت به أشكال تماثيل مقدمات السفن، بدا كأنه يقلص كل شيء آخر حوله إلى مجرد أبعاد قزمية.
قال براس: "ماذا؟". ثبَّت رأسه على جانب واحد، ثم أمالها إلى الوراء قليلًا، كما يفعل الخبراء وقال: "الآن! أنظر إليه من منظور مختلف..يبتراءى لي أنني أرى.. نعم.. نعم، بالتأكيد يوجد شبه في الإبتسامة، فأنه يذكرني بـ.. لأنه بعد الفحص والتدقيق أرى أنه مشابه لـ..".
في الواقع، كانت الحقيقة أن سامبسون لم يرَ أي شيء يشبه هذا الشبح المجسد من قبل ولو بدرجة طفيفة، لذا كان في حيرة من أمره، يفكر ما إذا كان السيد كويليب يعتبره مشابهًا لنفسه، وبسبب ذلك اختار أن يشتريه كأثر عائلي، أم إذا كان مسرورًا بالنظر إليه على أنه مشابه لأحد الأعداء. لكن الشكوك لم تساوره لوقت طويل، بينما كان يطيل النظر إليه بتدقيق نظرة المعرفة، التي يعتمدها الناس عندما يتأملون لوحة لأول مرة، ويشعرون أنهم يعرفونها، لكنهم لا يفعلون، رمى القزم الجريدة التي اقتبس منها كلمات ما ترنم، ثم اختطف قضيبًا حديديًّا صدئًا، كان يستخدمه بدلًا من مذكي النيران، وانهال على التمثال بضربة مفاجئة على الأنف، الذي اهتز من قوتها.

صاح القزم، وهو ينهال بوابل من الضربات على وجه الجماد معدم الحس، حتى أحدث به العديد من النقرات الصغيرة: "أليس هذا كيت؟ ألا ترى صورته وهيئته وكل شيء آخر.. ألا ترى كيت نفسه؟ إنه النموذج الدقيق والنظير لهذا الكلب.. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ أليس كذلك؟"، ومع كل تكرار للسؤال، كان ينهال بضربة أكثر قوة، لدرجة أن العرق تصبب من وجهه، وانساب من شدة حماسه وقوة ضرباته.

على الرغم من أنه قد يبدو عرضًا هزليًا، يمكن مشاهدته في صالة عرض مُؤمَّنة، كمصارعة الثيران مثلًا، حيث يعد لمَن هم ليسوا في الساحة عرضًا مريحًا ممتعًا، أو كبيت مشتعل يفضل الناس رؤيته عن مشاهدة مسرحية مثلًا، ما داموا لا يعيشون بالقرب منه، كان هناك خطب ما في جدية أسلوب السيد كويليب، جعل مستشاره القانوني، يشعر أن مكتب المحاسبة ضيق جدًّا، وأنه بمفرده تمامًا وأعزل للتمتع الكامل بهذا الكم من الفكاهة.

لذلك، وقف بعيدًا قدر إمكانه، بينما كان كويليب منهمكًا في فعله، يئن مرتعدًا، لكنه يصفق ويردد كلمات الإطراء بصوت واهن، عندما أنهى كويليب عمله وجلس مرةً أخرى بسبب الإنهاك الشديد، فاه بفضائع لا قِبَل له بها.

صاح براس: "ممتاز يا سيدي! ممتاز حقًّا! هي هي! أوه! إنه أمر جيد جدًّا يا سيدي! كما تعرف".

إلتفتَ سامبسون، ناظرًا كما لو كان يستأنف لحيوان مكدوم: "إنه رجل مميز حقًّا.. طبعًا وبكل تأكيد!".

قال القزم: "اجلس! اشتريتُ هذا الكلب بالأمس، لقد دققت فيه المسامير، وغرست الشوك في عينيه، ونقشت اسمي عليه. وأنوي حرقه في النهاية".

صاح براس: "ها ها! يا لها من أمور مسلية للغاية! بالطبع وبكل تأكيد!".

قال كويليب، وهو يشير إليه للاقتراب منه: "تعال هنا! قل لي ما تراه طيشا.. هيا!".

"لا شيء يا سيدي.. لا شيء، إنه أمر بالكاد يذكر يا سيدي، لقد اعتقدت فقط أن الأغنية.. فكاهية بشكل يثير الإعجاب.. كما تعلم يا سيدي.. لكنها بالأحرى.. ربما أن..".

قال كويليب: "نعم نعم.. بالأحرى ماذا؟".

رد براس، وهو ينظر مرتعدًا، شاخص البصر في خوف إلى نظرات القزم الماكرة، التي حادت إلى النيران، وضوئها الأحمر المنعكس الوهاج، وقال: "بالأحرى تقارب.. أو كما قد يقول المرء إنها مقاربة عن بعد من حدود الطيش.. ربما دون قصد يا سيدي".

سأل كويليب دون أن يرفع عينيه: "لماذا؟".

رد براس في شجاعة منه، يحاول أن يكون أكثر توددًا: ".. في الواقع يا سيدي، ربما يكون حصاد تلك التصرفات معًا يا سيدي.. في نظر الأصدقاء، هي تصرفات في حد ذاتها تستحق الثناء والإطراء، لكن من وجهة نظر القانون إذا تم ربط الأحداث ببعضها سيعتبر تآمرًا.. أتفهمني يا سيدي؟ يجب أن تكون هذه التصرفات بين الأصدقاء وبعضهم.. كما تعرف بالطبع يا سيدي".

نظر كويليب إليه، بوجه خالٍ من أي تعبير وقال: "هاه! ماذا تقصد؟".

صاح براس، مومئًا برأسه: "الحرص.. الحرص والحذر المناسب القويم فقط.. هذا ما أقصده بالضبط يا سيدي".

قال كويليب مدمدمًا: "ما معنى ما تقوله أيها الفزاعة المهلهلة؟ ماذا تقصد بالضبط؟ لماذا تحدثني عن الحصاد، وربط الأحداث ببعضها؟ هل أربط هنا شيئًا ببعضه؟ هل أعرف أي شيء

عن حصادك؟".
رد براس: "لا يا سيدي.. لا بالطبع يا سيدي، ليس بأي حال من الأحوال".
قال القزم، وهو ينظر إليه على أنه الهدف التالي لمذكي النيران: "إذا استمررت في اللف والدوران حول الموضوع، سأفسد ملامح وجهك أيها القرد في التو واللحظة".
قال براس من فوره، متراجعًا عما ذكر كله: "أرجوك يا سيدي لا تعكر صفو مزاجك.. أنت محق تمامًا يا سيدي.. محق تمامًا، ما كان بجب عليَّ أن أذكر الموضوع يا سيدي.. من الأفضل لي ألا أقترف هذا الخطأ الجسيم مرةً أخرى.. دعنا نغير الموضوع، إذا سمحت بالطبع يا سيدي.. كنت تسأل يا سيدي، كما أخبرتني سالي، عن المستأجر.. إنه لم يَعُدْ يا سيدي".
قال كويليب، بينما كان يسخن نبيذ الرم في قدر صغير، ويتابعه حتى لا تصل حرارته إلى الغليان: "لم يعد! لماذا لم يعد؟".
قال براس: "إنه يا سيدي.. إنه يا عزيزي كويليب.. إنه يا سيدي...".
قال القزم، وقد أوقف يديه عن رفع القدر إلى فمه: "انطق! ما الأمر؟".
قال براس: "لقد نسيت الماء يا سيدي.. واعذرني يا سيدي، إنه ساخن جدًّا".
لم يُعِرْ ما يقوله أي انتباه، وجاء الرد متمثلًا في فعل، فقد رفع السيد كويليب القدر الساخن إلى شفتيه، وشرب عمدًا كل ما احتوى - ربما كان مقداره نصف لتر – إلى آخر قطرة في جرعة واحدة، على الرغم من أن لحظات لم تمض على رفعه من على النار، وغليانه وصوت أزيزه وفورانه الشديد. بعد أن ابتلع هذا الشراب اللطيف، ولكم بقبضتيه الأميرال، حث السيد براس على الإكمال.
قال كويليب، بابتسامته المعتادة: "ولكن... اشرب أولًا قطرة لنفسك.. قطرة لطيفة.. جيدة ودافئة، قطرة حارقة".
قال براس: "لا داعيَ يا سيدي! من الممكن أن أشرب مقدار ملء الفم من الماء يا سيدي.. إذا أمكن يا سيدي...".
صاح القزم: "لا! لا يوجد شيء كهذا هنا.. ماء من أجل المحامين! بل تقصد رصاص مذاب ممزوج بكبريت أو مشروب ساخن لطيف من الزفت والقطران.. هذا ما يناسبهم..هاه! أليس كذلك يا براس؟ هاه؟".
قال براس وهو يضحك: "ها ها ها! أوه! يا لحسك الساخر المرح يا سيدي! إنه يشبه الدغدغة يا سيدي.. ويضفي متعة كذلك يا سيدي!".
قال القزم، الذي كان يسخن المزيد منه في ذلك الوقت: "خذ اشرب هذا.. تجرعه مرةً واحدة، لا تترك أي قطرة، اشربه حتى الثمالة، هيا أحرقْ حلقك وكن سعيدًا!".
تناول سامبسون البائس بعض الرشفات الصغيرة من المشروب، الذي استقطر على الفور على هيئة دموع حارقة، انسالت على وجنتيه تملأ القدر مرةً أخرى، وقد شكلت عينيه، وتحول لونه إلى الأحمر، وأصابته نوبة سعال حادة، سُمع في خضمها يقول بثبات شهيد: "إنه جميل بالفعل!"، وبينما كان في أوج معاناته، استكمل القزم حديثهما.
قال كويليب: "المستأجر.. ها! ماذا عنه؟".
قال براس وسط سعال متقطع: "إنه لا يزال يقيم عند عائلة جارلاند يا سيدي. لم يعد إلى المنزل سوى مرة واحدة، منذ يوم استجواب الجاني. أبلغ السيد ريتشارد أنه لا يستطيع تحمل البقاء في

المنزل بعد ما حدث يا سيدي، وأنه يشعر فيه بالبؤس، وأنه بشكل أو بآخر، يعتبر نفسه مسؤولًا أكيدًا عن سبب الحادث.. إنه مستأجر ممتاز يا سيدي.. آمل ألا نخسره".
صاح القزم: "ياله! إنك لا تفكر في أي أحد غير نفسك.. لماذا لا تخفض نفقاتك.. توفر.. تدخر.. تقتصد؟ ها!".
رد براس: "يا سيدي! أعتقد أن سارة جديرة بالإقتصاد بناء على أي حال.. إنني أعتمد عليها يا سيد كويليب".
صاح القزم: "رطب طينك، أدمعْ عينيك، خَضِّل وجنتيك، هيا! اشرب أيها الرجل! لقد قبلت المحرر طاعة لي! أليس كذلك؟".
رد سامبسون: "بكل سرور يا سيدي.. دائمًا ما أكون لك مطيعًا.. نعم يا سيدي، لقد فعلت".
قال القزم: "حسنًا عليك الآن أن تقيله.. وكن ممتنًّا، طريقة فعالة وفورية لتخفيض نفقاتك".
صاح براس: "أقيل السيد ريتشارد؟".
- هل لديك أكثر من محرر أيها الببغاء؛ حتى تسأل هذا السؤال؟
قال براس: "نعم يا سيدي، ولكنني.. لم أضع هذا الأمر في الحسبان، ولست مستعدًا لذلك..".
قال القزم ساخرًا: "كيف لا تكون مستعدًا، في حين أنني كنت؟ كم مرة عليَّ أن أخبرك أنني أتيت به إليك؛ كي أبقي عيني عليه دائمًا، وأعرف مكانه.. وأن لديَّ مخططًا، مؤامرة، جريمة.. نوعًا من المتعة المرهونة، وأن أساسها وجوهرها هو الرجل العجوز وحفيدته - اللذان غطسا تحت الأرض تقريبًا - بينما هو وصديقه المخلص يصدقان أنهما من الأثرياء، في حين أنهما في الواقع فقيران؟".
قال براس: "لقد فهمت يا سيدي".
قال كويليب مدمدمًا: "حسنًا أيها السيد! وهل تفهم الآن أنهما ليسا فقيرين.. لا يفترض أن يكونا أبدًا، إذا كان لديهم أناس مثل مستأجرك هذا يبحثون عنهما، ويجوبون البلاد أولًا عن آخر ومن شرقها إلى غربها لإيجادهما؟".
قال سامبسون: "طبعًا طبعًا يا سيدي".
رد القزم ممتعضًا، وهو يصرخ بشراسة في قوله: "طبعًا طبعًا يا سيدي! حسنًا! إذنْ بالتالي تفهم أنه ليس هناك أي منفعة من هذا الرفيق؟ وتفهم بالطبع أيضًا أنه ليس رفيقًا لي أو لك مهما اختلف الغرض.. أليس كذلك؟".
قال براس: "دائمًا ما كنتُ أقول لسارة: لا منفعة منه في العمل يا سيدي. ولا يمكننا الوثوق فيه على الإطلاق يا سيدي. إذا كنت ستصدقني، لقد وجدت أن هذا الرفيق، في أمور المكتب الشائعة البسيطة، التي أوكلتها إليه، ووثقت به حيالها، كان يفشيها دون تفكير، على الرغم من التحذيرات الصريحة التي وُجِّهت إليه. إن استحكام هذا الشاب يا سيدي فاق كل الحدود، وتخطاها. لذا فإني أدين لك بكل الولاء والطاعة يا سيدي و..".
من الواضح أن سامبسون كان عازمًا على سرد إطراءات لا نهاية لها، ما لم يحدث ما قطع حديثه في الوقت المناسب، فقد ضربه على رأسه بالقدر الصغير، وقال له إنه يدين بالطاعة والولاء من أجل الحفاظ على حياته فقط.
قال براس، وهو يكد رأسه في موضع الضربة مبتسمًا: "بالفعل يا سيدي بالفعل! ولا تزال روحك مرحة.. تضفي المتعة يا سيدي!".

قال كويليب: "أنصت إليَّ جيدًا.. هلّا تفعل! أم أضفي عليك متعة مضاعفة من توي! ليس هناك أي فرصة لعودة رفيقه وصديقه. لقد اضطر النذل إلى الرحيل، من أجل مؤامرة ما، ووجد طريقه إلى الخارج. دعه يتعفن هناك".
صاح براس، ملقيًا نظرة على الأميرال مرة أخرى، كما لو أنه الفرد الثالث في جلستهم: "بالتأكيد يا سيدي. إن ما تقوله كله أمر حتمي وفعال تمامًا يا سيدي!".
قال كويليب وهو يكز على أسنانه: "إنني أكرهه.. لطالما كرهته لأسباب عائلية، فضلًا عن كونه همجيًّا وحشيًّا وخسيسًا صعب المراس، إلا إذا كانت هناك منفعة من ورائه. إن هذا الصاح جبان طائش، دعه يُشنق أو يُغرق أو يموت جوعًا.. دعه يذهب إلى الجحيم".
رد براس: "بكل امتنان يا سيدي.. متى تفضل يا سيدي أن.. ها ها ها! أن يذهب في هذه النزهة؟".
قال كويليب: "حينما تنتهي المحاكمة.. بمجرد أن تنتهي، لا تتأخر لوهلة في إرساله".
رد براس: "سيتم ذلك يا سيدي وبأي حال من الأحوال، على الرغم من أن حدوث هذا سيكون بمثابة ضربة موجعة لسارة يا سيدي، لكن مشاعرها قيد سيطرتها. آه! يا سيد كويليب، كنت أفكر في كثير من الأحيان يا سيدي، لو أن العناية الإلهية جمعت بينك وبين سارة فيما مضى، يا لها من نتائج مباركة كانت لتحل من مثل هذا الإتحاد! أحسب أنك لم ترَ والدنا يا سيدي. أليس كذلك؟ لقد كان سيدًا نبيلًا لطيفًا. إن سارة كانت مصدر فخره وسعادته يا سيدي. كان ليغمض عينيه في سلام مطمئنًا في نعيمه، إذا وجد لها الثعلب العجوز شريكًا مثلك يا سيدي. إنها تروق لك يا سيدي. أليس كذلك؟".
صاح القزم بصوت أجش: "أنا أحبها".
رد براس من فوره: "إنك عظيم جدًّا يا سيدي. أنا متأكد تمامًا. هل تأمرني بأي شيء آخر يا سيدي؟ يمكنني معرفته، إلى جانب ما خص السيد ريتشارد؟".
رد القزم، وقد خطف القِدر: "لا شيء آخر، دعنا نشرب نخب سارة الجميلة".
اقترح براس في تواضع وقال: "إذا كنت لا تمانع يا سيدي أن نفعل ذلك بشراب لا يغلي، ربما سيكون أفضل، أحسب أنه سيكون مستحسنًا أكثر لمشاعر سارة، عندما تسمع مني شرف ما قدمت لها يا سيدي، إذا علمت أن نخبها كان شرابًا أكثر برودة مما سبقه يا سيدي".
لكن تلك الاحتجاجات، ألقى لها كويليب آذانًا صماء، وفي ذلك الوقت، الذي كان فيه سامبسون براس رزينًا متزنًا، وجد نفسه مضطرًا إلى تجرع المزيد من الوعاء نفسه، وبدلًا من أن يساهم المشروب في انتعاشه، وجد نفسه في خضم تأثير جديد، فدارت الدنيا من حوله، ودار مكتب المحاسبة معها دورانا سريعًا لا يقف، تسبب في إنقلاب الأرض والسقف رأسًا على عقب، وتداخلهما بشكل مفزع. بعد ذهول قصير، إستعاد وعيه، وأدرك أن نصفه كان تحت الطاولة، ونصفه الآخر تحت الموقد.
لم يكن هذا الوضع هو أكثر الأوضاع التي اختارها لنفسه راحةً، فقد تمكن من الترنح على قدميه، والإمساك بالأميرال، ينظر حوله؛ يبحث عن مضيفه. كان الانطباع الأول للسيد براس هو أن مضيفه قد رحل وتركه بمفرده.. وربما احتجزه هناك طوال الليلة، لكن رائحة نفاذة من التبغ، جعلت أفكارًا جديدة تخطر على باله، فقد نظر إلى الأعلى، فرأى القزم يُدخن مستلقيًا في أرجوحته.

صاح براس في وهن: "وداعًا يا سيدي! وداعًا يا سيدي!".
رمقه القزم بناظريه وقال: "ألن تبقى هنا طوال الليلة؟ يمكنك أن تبقى!".
رد براس، الذي يكاد أن يموت بسبب الغثيان وضيق الغرفة دون أي منفذ تهوية: "لا أستطيع يا سيدي.. إذا تقدم لي معروفًا، وتضيء لي، حتى أتمكن من المضي في طريقي يا سيدي، فسوف أكون ممنونًا لك..".
نهض كويليب في لمح البصر، ليس بساقيه أولًا، أو حتى برأسه، أو بذراعيه، بل نهض بجسده كله مثل كومة واحدة.
حمل الفانوس الذي ينبعث منه الضوء الوحيد في المكان، وقال: "بكل امتنان! كن حذرًا في طريقة سيرك يا صديقي العزيز.. انتبه أين تطأ بقدميك، وانتبه لخطواتك بين الأخشاب؛ لأن أطراف المسامير الصدئة إلى الأعلى. وكن حذرًا، يوجد كلب في الممر، عض رجلًا ليلة أمس، وعض امرأة أول أمس، أما ليلة الثلاثاء الماضي فقد قتل طفلًا من باب المزاح. لا تقترب كثيرًا منه!".
سال براس مرتعدًا: "يوجد في أي جانب يا سيدي؟".
قال كويليب: "إنه يعيش في الجانب الأيمن، لكنه يختبئ أحيانًا في الجانب الأيسر، ومستعد للانقضاض في أي لحظة، لا يمكن الوثوق به في هذا الصدد. تذكر أن تتخذ حذرك. لن أُسامحك أبدًا إذا لم تفعل. حريٌّ أن يكون هناك ضوء في الخارج.. أو لا يهم.. أنت تعرف الطريق على أي حال.. هيا إلى الأمام!".
وقف كويليب، يظلل على الضوء، يحمله مقابل صدره، يضحك مقهقهًا بينه وبين نفسه، ويهتز من قمة رأسه حتى أخمص قدميه في فرحة عارمة؛ حينما سمع المحامي يتعثر في الساحة، ومن ثمَّ يسقط بشدة. على كل حال، بعد مضي فترة من الوقت، تلاشى صوت تعثره وسقوطه، ورحل عن المكان.
صعد القزم مرةً أخرى، واستلقى ثانيةً في أرجوحته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثالث والستون

تبيَّن أن السيد المهني الذي أحاط كيت علمًا بمعلومات تعزيزية تعلقت بإحالة قضيته إلى محكمة "أولد بيلي"، وأنه سيتم النظر فيها في القريب العاجل، محق تمامًا في كافة توقعاته. ففي غضون ثمانية أيام، بدأت الجلسات. وبعد انقضاء يوم واحد منها، أقرت هيئة المحلفين المكلفة بالتحقيق باعتماد بيان الإتهام على أنه لائحة وجيهة مقدمة ضد كريستوفر نابلز تفيد بثبوت جنايته، وفي غضون يومين من نتائج التحقيقات، تمت دعوة كريستوفر نابلز المذكور آنفًا إلى أن يقر بما إذا كان مذنبًا أم غير مذنب، ووفقًا لما أفادت به لائحة الإتهام، فإنَّ كريستوفر المذكور قد ارتكب جريمته مع سبق الإصرار، وأنه سرق من مكتب ومنزل السيد سامبسون براس، ورقة مالية واحدة بقيمة خمسة جنيهات لا غير، صادرة عن عمدة بنك إنجلترا، في مخالفة متعمدة منه للنظام التشريعي للبلاد، وضد سلام سيادة الملك وتاجه وجلالته.
في مطالعة عريضة الإتهام، دافع المدعي كريستوفر نابلز عن نفسه حيال التهمة المسندة إليه، بصوت منخفض مرتجف، وأقر بأنه غير مذنب.. دع أولئك الذين اعتادوا على إصدار أحكام متسرعة اعتمادًا على المظاهر، معتقدين أنه إذا كان كريستوفر غير مذنب، كان ليقف شامخًا يتحدث بصوت جهوري ويتكلم بقوة، أن يأخذوا بعين الإعتبار أن الحبس والاضطراب يُخضعان حتى أشد القلوب صرامة، وإن كان حبيسًا لفترة قصيرة، وأن الإنتقال من بعد عشرة أيام أو أحد عشر يومًا فقط لا يرى فيها سوى جدران حجرية من كل إتجاه، ووجوه قليلة قاسية خالية من كل تعبير، إلى قاعة كبيرة تعج بالأشخاص وتدب فيها الحياة، أمر مقلق ومفزع، وحريٌّ أن يقال هنا إن العيش تحت غطاء شَعر مستعار لفئة كبيرة من الناس أكثر ترويعًا وإثارةً من العيش بشَعر رأسهم الحقيقي.. وبالإضافة إلى هذه الإعتبارات، يجب أن يراعوا العاطفة المتأججة في صدر كيت عند رؤيته للسيدين جارلاند وكاتب العدل، وهم ينظرون إليه بوجوه شاحبة عليها سيماء الإضطراب والقلق.. حينها ربما يبدو سوء مزاجه، وعدم قدرته على التعامل كما لو كان في بيته أمرًا غير عجيب.
على الرغم من أنه لم يرَ السيدين جارلاند والسيد ويزردن منذ وقت إلقاء القبض عليه، تفهَّم فور رؤيتهم أنهم قد وكلوا له محاميًا للمرافعة عنه. لذلك عندما قام أحد السادة من واضعي الشَّعر المستعار وقال: "أنا حاضر عن المتهم يا سيدي". انحنى له كيت. وعندما قام آخر من واضعي الشَّعر المستعار ذاته وقال: "أنا حاضر ضد المتهم يا سيدي". ارتعد كيت كثيرًا، لكنه قدم انحناءةً أيضًا. ولم يكن يأمل من كل قلبه أن يكون الرجل الحاضر عنه نظير الرجل الآخر، حتى لا يخجل من نفسه في أي وقت!
كان السيد الحاضر ضده مرتفع المعنويات متحمسًا بشكل مخيف - فقد برأ على نحو وثيق في محاكمة قضيته الأخيرة شابًّا من حادث قتله لوالده - وقد أُسند الحديث إليه أولًا، لذا قام، وتحدث، وقال لهيئة المحلفين - بثقة غير مزعومة - أنهم إذا حكموا ببراءة هذا المتهم الماثل أمامهم، عليهم أن يتوقعوا معاناة وآلامًا، لا تقل عن تلك التي قالها لهيئة المحلفين الأخرى، وأخبرهم أنهم سيخضعون لها بكل تأكيد، إذا أدانوا ذلك السجين. وبعد أن طرح عليهم حيثيات القضية، وأنه لم يجد قضية أكثر بشاعة من تلك، توقف لوهلة، كرجل لديه أقوال رهيبة ليدلي

بها، وبعدها قال إنه سيكون متفهمًا تمامًا أن صديقه - وهنا نظر إلى المحامي الحاضر عن كيت بجانب عينيه - سوف يشكك في ذمة الشهود الموقرين، الذين سوف يستدعون للمثول أمام شخصهم الكريم، لكنه يأمل ويثق في أن صديقه سيقدم احترامًا وتوقيرًا أكثر لشخص المدعي العام المبجل، الذي يعرف حق المعرفة، أنه لم يوجد ولن يوجد عضو أكثر رفعة ونزاهة في أكثر المهن شرفًا وسموًّا منه. ثم سأل هل أعضاء هيئة المحلفين يعرفون بيفيس ماركس؟ وأنهم إذا كانوا يعرفونها - كما لو كان واثقًا من أنهم جميعًا يعرفونها - فهل عرفوا الروابط التاريخية الرفيعة المرتبطة بتلك البقعة المميزة؟ هل يصدقون أن رجلًا نبيلًا مثل براس يقيم في مكان مثل بيفيس ماركس ولا يكون شخصية فاضلة شريفة مستقيمة؟ وبعد أن استرسل وقال لهم الكثير فيما يخص تلك النقطة، تذكر أنه قد تكون إهانة لهيئتهم حيال إبداء أي ملاحظات حول رؤيتهم الذاتية، وبالتالي استدعى سامبسون براس من فوره ليمثل في منصة الشهود مباشرة.

وبالتالي حضر السيد براس، كان نشيطًا مفعمًا بالحيوية، انحنى أمام القاضي، كرجل كان من دواعي سروره أن يراه مرةً أخرى، ويأمل أن يكون بحال جيد منذ لقائهما الأخير، طوى ذراعيه، ثم نظر إلى رجله بطريقة تبين أنه يقول له: "ها أنا هنا.. مليء بالأدلة.. افتح لي الباب!". وبالفعل فتح له الباب على مصراعيه في التو واللحظة، لكن بتعقل رزين استخلص منه الأدلة شيئًا فشيئًا، ومهدها بطريقة واضحة سلسة لفهم الحاضرين، وجعلها لامعة مشرقة أمام أعين هيئة المحلفين، بعد ذلك، استلم المحامي الحاضر عن كيت استجوابه، لكنه لم يستطع أن يصل إلى أي معلومة منه، وبعد العديد من الأسئلة الطويلة جدًّا التفصيلية، والأجوبة القصيرة جدًّا المختصرة، نزل السيد سامبسون عن منصة الشهود في مَجدٍ واعتزاز.

جاءت من بعده سارة، التي مثلت في نفس سلوك السيد براس، فقد كانت سلسة لينة مع الحاضر ضد كيت، وصعبة المراس متعنتة مع الحاضر مع كيت. باختصار، لم يستطع محامي كيت أن يستخلص منها أي معلومة، سوى تكرار ما قالته من قبل - بصورة حادة جهورية هذه المرة ضد موكله - وبالتالي سمح لها بالرحيل، فنزلت عن المنصة في بعض الإرتباك. بعد ذلك، استدعى محامي السيد براس ريتشارد سويفيلر، وقد ظهر ريتشارد سويفيلر وفقًا لذلك.

الآن، هُمِس في أذن الحاضر مع السيد براس أن هذا الشاهد يميل إلى صف السجين وودود معه.. وربما يدفعه ذلك إلى قول الحقيقة، حينها انتابته سعادة مباغتة لسماعه ذلك؛ فقد تعتبر قوته كامنة في إلحاحه بإلحاف. لذلك، بدأ استجوابه بسؤال موجه للضابط، إذا كان متأكدًا تمامًا من أن هذا الشاهد قد قبل الكتاب المقدس، ومن ثم شرع فيما يبرع فيه بجهد جهيد.

قال تابع السيد براس لديك، بعد أن سرد قصته بنفور وممانعة بينة، ورغبة في تحقيق أفضل النتائج:

- "حسنًا يا سيد سويفيلر.. أين تناولت العشاء ليلة أمس يا سيدي؟".
- "أين تناولت العشاء؟".
- "نعم يا سيدي، أين تناولت العشاء ليلة أمس.. هل كان بالقرب من هنا يا سيدي؟".
- "أوه! في الواقع! نعم.. على قارعة الطريق".

كرر التابع للسيد براس، رامقًا بناظريه جميع الحضور:

- "في الواقع.. نعم.. على قارعة الطريق.."
- "حسنًا! بمفردك يا سيدي؟".

قال السيد سويفيلر غير مستوعب سؤاله: "معذرةً يا سيدي!".
كرر التابع للسيد براس سؤاله بصوت مدو كالرعد: "هل تناولت العشاء بمفردك؟ هل تعاملت مع أي أحد يا سيدي؟ هيا!".
رد السيد سويفيلر بابتسامة: "أوه! في الواقع! نعم.. لقد فعلت".
قال التابع للسيد براس: "هل تفعل خيرًا وتؤجل إبتساماتك وتنحي الحس الفكاهي جانبًا يا سيدي..".
ثم استأنف قوله وهو يومئ برأسه، قاصدًا التلميح إلى أن قفص الإتهام هو المكان الشرعي لأفعال السيد سويفيلر: ".. لأن المكان الذي نقف فيه لا يتوافق مع أفعالك.. وربما عليك أن تكون ممتنًّا أنك تقف في هذا المكان فقط.. وانتبه لي. لقد كنت تنتظر هنا بالأمس، على افتراض أن هذه الجلسة قيد الإنعقاد. تناولت العشاء في مكان ما على قارعة الطريق. تعاملت مع شخص ما. والآن! قل لي هل كان ذلك الشخص المعني شقيق السجين الماثل وراء القضبان؟".
حاول السيد سويفيلر أن يشرح الموقف. صاح التابع للسيد براس: "نعم أم لا أيها السيد المحترم؟"
- "هل تسمح لي أن أقـ..".
- "نعم أم لا أيها السيد؟".
- "نعم، لكنـ..".
- صاح التابع مقاطعًا الآخر، وأجبره على عدم الإكمال: "نعم.. كم أنت شاهد حسن جدًّا يا سيدي!".
جلس السيد الحاضر مع السيد براس. أما الحاضر عن كيت، فداهمه الخوف، يخشى متابعة الموضوع، وبات لا يعرف حقيقة الأمر، بينما رجع ريتشارد سويفيلر إلى مكانه محرجًا، وقد لاحظ القاضي وهيئة المحلفين وجميع الحضور رفيقه المتكاسل، المتراخي، رث المظهر، أشعث الشَّعر، ذا الست أقدام طولًا، في الواقع، كان هذا جايكوب الصغير، جالسًا وربلة ساقيه مكشوفتان في الهواء الطلق، وباقي جسده مغطى بشال. لا أحد يعرف الحقيقة، والجميع يصدقون الباطل؛ ويُنسب كل ذلك إلى براعة التابع للسيد براس.
حان وقت مثول شهود السلوك أمام الهيئة، وحينئذ تألق المحامي التابع للسيد براس مرةً أخرى. اتضح أن السيد جارلاند ليست لديه أي تحفظات على سلوك كيت، ولا أي توصيات سوى من والدته، مع العلم أن سيده السابق قد فصله فجأةً لأسباب غير معروفة. قال المحامي التابع للسيد براس: "في الواقع يا سيد جارلاند، بالنسبة لشخص يناهز عمرك، فأنت على أقل تقدير غير حكيم بشكل جلي، حسب ما أعتقد".. صدقت هيئة المحلفين على قوله، وشهدوا جميعًا على أن كيت مذنب. نزل السيد عن المنصة، محتجًّا معربًا في تواضع عن براءته. إلتزم الحضور أماكنهم بعد حالة من الهرج في إهتمام متجدد؛ حيث ستمثل العديد من الشاهدات اللواتي سوف يُستجوبن بعد ذلك، وحينها تردد أن المحامي التابع للسيد براس قرر أن يسخر منهن حين استجوابهن.
في ذلك الوقت، كانت والدة كيت، السيدة المسكينة، تنتظر عند الحاجز الحديدي أسفل الدرج، ومعها والدة باربرا - السيدة سليمة القلب، ذات النفس الصادقة، التي لم تفعل شيئًا سوى البكاء وحمل الرضيع - ومن ثمَّ ترتب لقاءً حزينًا. أخبرهم السجان قارئ الجريدة أنه لا يعتقد أن الحكم

سيكون الترحيل القسري ([20])؛ فلا يزال لديهم وقت لإثبات حسن سلوكه، وأنه متأكد أن ذلك سوف يفيده في سير المحاكمة، وتساءل مستنكرًا لماذا ارتكب تلك الجريمة! صاحت والدة كيت وقالت: "لم يفعل ذلك قط!". قال السجان: "حسنًا! أنا لن أعارضكِ، إن الأمر سيان الآن سواء ارتكب جريمته حقًّا أم لم يفعل!".
استطاعت والدة كيت أن تصل إلى يده من وراء القضبان، وتحتضنها بين راحتَي كفيها.. فمن وهبهم الخالق مثل هذا الحنان، هم فقط من يشعرون بهذا العذاب الأليم. طمأنها كيت، وحثها على استجماع رباطة جأشها، وطلب منها رفع الطفلين له لتقبيلهما، ومن ثم همس لوالدة باربرا يرجو منها أن تأخذ أمه إلى المنزل.
صاح كيت: "أنا متأكد يا أمي أن لنا أصدقاء سيقدمون لنا يد العون، وستظهر براءتي يا أمي، وسأخرج من هنا يا أمي، أنا واثق من ذلك. يجب أن تعلمي جايكوب الصغير والرضيع حينما يكبران بما فيه الكفاية كي يستوعبا جيدًا، إذا ظنَّا أنني كنت غير أمين في أي وقت مضى، فإن هذا سوف يفطر قلبي، ولو كنت على بعد آلاف الأميال. - أوه! أمي! ألَّا يوجد سيد نبيل هنا، يرأف لحالها ويساعدها!".
انسلت يداها من بين يديه، وخارت قوى المخلوقة المسكينة، وسقطت على الأرض دون حركة، فاقدة للوعي، أتى ريتشارد سويفيلر مهرولًا، يدفع بمرفقيه المتفرجين بعيدًا عن طريقه، حملها - بعد بعض العراقيل - على كتف واحدة على نهج الخاطف المسرحي، أومأ إلى كيت، ثم أمر والدة باربرا أن تتبعه، فقد أوقف عربة في الخارج بالإنتظار، ورحل من فوره.
حسنًا! أوصلها ريتشارد إلى منزلها، ويا له من هزل مذهل ألقاه طوال الطريق، كان عبارة عن اقتباسات من أغنية وقصيدة شعرية، لم يسمع بهما أي شخص من قبل. على كل حال، أخذها إلى البيت، ومكث معها حتى استعادت وعيها، ولأنه لم تكن لديه أي نقود لدفع أجرة العربة، عاد إلى بيفيس ماركس، ومن ثم استسمح الحوذي - لأنها كانت ليلة السبت - أن ينتظره أمام الباب، بينما يأتي له بفكة.
قال براس بمرح: "السيد ريتشارد.. مساء الخير يا سيدي".
في تلك الليلة، ظهرت الوحشية المجسدة في قصة كيت لأول مرة على مرأى ومسمع منه، داهمه الشك ورأى أن صاحب عمله اللطيف لديه جوانب أخرى قد تأصل بها الشر. على الرغم من إعتقاده أن المعاناة التي شهدها مؤخرًا، هي ما حفزت طبيعته اللا مبالية، لكن الأمر إذا كان كذلك فعلًا، فقد تم التأثير عليه بشكل قوي، فقد أوجز ما أراد قوله كله في أقل عدد ممكن من الكلمات.
صاح براس وهو يخرج حقيبته: "نقود؟ ها ها! بالتأكيد يا سيد ريتشارد بالتأكيد يا سيدي. يجب أن يعيش كل الرجال، ليس لديك فكة خمسة جنيهات يا سيدي؟ أليس كذلك؟".
رد ديك بإيجاز: "لا!".
قال براس: "أوه! تفضل إذنْ المبلغ كاملًا. هذا سيوفر عليك الكثير. إنك على الرحب والسعة يا سيد ريتشارد.. يا سيد ريتشارد..".
إلتفتَ ديك، الذي كان قد وصل إلى الباب في ذلك الوقت.
قال براس: "لا تكلف نفسك مشقة العودة مجددًا يا سيدي".

- ماذا؟

قال براس، وهو يضع يديه في جيبيه، ويهز نفسه إلى الأمام والخلف على مقعده: "اسمعني يا سيد ريتشارد.. الحقيقة يا سيد ريتشارد هي أن رجلًا مثلك، له مثل قدراتك يعتبر مدفونًا بالحياة في مهنتنا القاسية الجافة. إنه كدح رهيب.. أمر صادم. أود أن أقول إن الوقت قد حان.. يجب عليَّ أن أقول إن المسرح أو.. الجيش أو مكانًا مرموقًا له تراخيص قانونية بالطبع.. هي الأماكن التي تستحق عبقرية رجل مثلك. سأكون ممتنًا حقًّا إذا أتيت بين الحين والآخر لزيارتنا. إن سالي ستسعد كثيرًا يا سيدي، أنا متأكد. يؤسفها جدًّا خسارتك يا سيد ريتشارد، لكن إحساسها بواجبها تجاه المجتمع يواسيها.. يا لها من سيدة رائعة يا سيدي! ستجد أجرك مضبوطًا بالتمام والكمال، حسب ما أعتقد. هناك نافذة مكسورة يا سيدي، لكنني لم أخصم أي بنس في المقابل، عندما نفترق عن الأصدقاء، دعونا نفترق بجود وإحسان، يا لها من وجهة نظر سديدة يُحتذى بها يا سيدي!".

لم ينطق السيد سويفيلر بأي كلمة، ردًّا على كل الملاحظات الخرفة تلك، لم يفعل سوى أن اتجه نحو سترته، وطواها على هيئة كرة، وهو شاخص البصر إلى براس طوال الوقت، كما لو كان قد عقد النية على أن يقذفه بها. لكنه على كل حال، تأبطها، وخرج من المكتب ملتزمًا الصمت. حينما أغلق الباب، أعاد فتحه مرةً أخرى؛ وحدق في كل ركن في الداخل لبضع لحظات بنفس الجدية، ثم أومأ برأسه مرةً واحدة، وببطء وبخفة الطيف، اختفى.

دفع للحوذي أجرته، وولى ظهره إلى بيفيس ماركس، عازمًا على مساعدة والدة كيت، وتقديم يد العون إلى كيت نفسه.

لكن حياة السادة التي يكتنفها السرور، كحياة ريتشارد سويفيلر، دائمًا ما تكون هشة متزعزعة. فما تعرض له من انفعالات نفسية على مدار أسبوعين كاملين، أثر في نفس لم تتأثر بمعاقرة الخمر لسنوات ولو بدرجة طفيفة، وعرضه لما لم يستطع تحمله. في تلك الليلة، أُصيب ريتشارد بمرض كان نذيرًا بالخطر، وعلى مدار الأربع وعشرين ساعة كلها كان طريح الفراش مكروبا بحمى راعدة.





الفصل الرابع والستون

يتقلب دون أي لحظة من إرتياح على سريره الساخن غير المريح، يعذبه الظمأ الشديد، ولا يمكن لشيء أن يرويه، لا يجد أي لحظة سلام أو استرخاء مهما غير من أوضاع استلقائه، يرتجف من هذيان أفكاره، ويرتعد من حمى جسده، ولا يجد أي مكان للراحة سواء كان في الواقع أو في مخيلاته، فلا تعلو أصوات ولا تلوح له رؤى تضفي عليه قبسًا من طمأنينة أو سكينة، لا يحيط به سوى سأم أبدي كئيب في مشهد لا يتغير فيه شيء سوى تقلبات عاجزة لجسده الكليل، محتجزًا داخل اضطرابات أفكار مضنية، يساوره شعور دائم وقلق ثابت، يدب في نفسه إحساس بأن هناك أمرًا غير مكتمل، يخص مصاعب مخيفة، يجب التغلب عليها، وتعهدًا برعاية لا يجب طمثه، استحوذ على عقله العاجز بالكلية، يرزحه الآن تحت وطأة إعياء المصاعب، وبعدها يرزحه تحت وطأة هزال التعهد، لكنَّ طيفه ثابت مهما اختلفت مظاهر تجسيده، يهيم ظلامًا على كل الرؤى كطوية شريرة، ويجعل الهجوع مروعًا - ففي غمرة تداعيات مرضه المهلك الرتيبة، رقد ريتشارد البائس واهنًا خائر القوى، حتى قرر أن يصارع ويحارب آلامه، وينهض من فراشه، ويهزم شرور نفسه، حينها رقد في نوم عميق، ولم يحلم بعد.
استيقظ مشمولًا براحة قصوى، كانت أفضل من النوم نفسه، مع الوقت، بدأ يتذكر بعضًا مما عاناه، مدركًا كم كانت ليلة طويلة، وما إذا كان قد تمكن الهذيان منه مرتين أو ثلاث مرات، يحدث أنه في خضم أفكاره وتدبراته، أن يرفع يده، ويندهش من مدى ثقلها، ثم يندهش من مدى نحافتها وخفتها، ومع ذلك شعر بلا مبالاة وسعادة، ولا وجود لأي لمحة من فضول لاستكمال فعله، بقى في نفس ثبات جسده هائمًا في أول لحظات استيقاظه، حتى جذب انتباهه صوت سعال. ساوره الشك من فوره ما إذا كان قد أغلق الباب في ليلته الماضية أم لا، ومن ثمَّ تمكنت منه الدهشة حينما استوعب وجود أحد معه في الغرفة. ومع ذلك، كان مفتقرًا إلى الطاقة لمتابعة سير أفكاره أو تذكره، ودون وعي استسلم لترف استرخاء، تحديقه في شرائط خضراء مسدلة على قائمة السرير، ومربوطة بطريقة غريبة برقع مكسية بعشب نضر، توسطته أرض صفراء، كانت ممشى للسابلة مغطى بالحصى، يمر بين البساتين في منظر خلاب على مرمى البصر.
بينما كان هائمًا في الخيال، شاردًا على حافة الممرات، تائهًا بينها عن ذاته، انتشله سماعه لسعال مرةً أخرى. فتقلصت المروج الخضراء، وصارت الشرائط المسدلة على سريره ثانية، رفع نفسه قليلًا في السرير، وفتح الستار بيد واحدة، ونظر. كانت الغرفة نفسها بكل تأكيد، ولا يزال ضوء الشموع ينيرها، لكن دهشة لا حدود لها انتابته عندما رأى ذلك الكم من القناني والأطباق والملابس الكتانية إلى جانب النيران، وجميع أثاث الغرفة الوخيمة، نظيفًا ومنظمًا، كان كل شيء مختلف تمامًا عما كان حينما أوى إلى الفراش! فضلًا عن الجو، الذي فاحت فيه رائحة أعشاب عطرية وخل، والأرض التي نُديت بالماء حديثًا و.. الـ.. الـ.. ماذا! الماركيـزة؟
نعم هي - تلعب كريبج مع نفسها. تجلس على الطاولة، منكبة على لعبتها، تسعل بين الحين والآخر، وتكتم سعالها؛ نخشى إزعاجه - تخلط أوراق اللعب، تفصلها، توزعها، تضع رهانًا، تلعب، تعد، تنتقل للمرحلة التالية - تتعايش مع أجواء اللعبة، وتمر بجميع أحجيات كريبج، كما لو

كانت تحظى بممارسة كاملة للعبة منذ مهدها! تأمل السيد سويفيلر ما أحاط به لفترة وجيزة، ثم أسدل الستارة مرةً أخرى، ليعود إلى وضعه السابق، ويضع رأسه على الوسادة مرةً أخرى.
خاطب ريتشارد نفسه: "حسنًا حسنًا! أنا أحلم.. إن هذا بيِّن جلي. عندما أويت إلى الفراش، لم تكن يدي مصنوعة من قشر البيض، والآن باستطاعتي أن أرى من خلالها.. إذا لم يكن ذلك حلمًا، فربما استيقظت مثلًا عن طريق الخطأ في ليلة عربية وليست ليلة إنجليزية. أنا وبلا شك ما زلت نائمًا.. أنا واثق تمام الثقة، الثقة كاملة، وليس جزءًا منها".
ها هي الخادمة الصغيرة تسعل مجددًا.
خاطب السيد سويفيلر نفسه: "عظيم عظيم! حلم مميز فعلًا! لم أحلم من قبل بسعال واقعي كهذا. لا أعرف في الواقع، إذا كنتُ قد حلمت بسعال أو بعطس من قبل في سائر أحلامي. ربما يكون هذا مبنيًّا على فلسفة الأحلام، التي لا يفهمها المرء بتاتًا. ها هو سعال آخر.. وآخر! عظيم عظيم! إنني أحلم بسرعة!".
بعد القليل من شرود التفكير، ومن أجل اختبار حالته الحقيقية، قرص السيد سويفيلر ذراعه.
قال: "غريبٌ فأكثر غرابة! لقد جئت إلى هذا السرير لحيمًا أكثر من ذلك، والآن لا يوجد أي شيء يمكنني إمساكه.. حسنًا! سألقي نظرةً أخرى".
جاءت نتيجة الاستطلاع الإضافي حاسمة، لإقناع السيد سويفيلر أن جميع الأشياء المحيطة به واقعية حقيقية، وأنه رآها دون شك بعينين مستيقظتين.
قال ريتشارد: "إنها ليلة عربية.. لا محال ولا جدال.. ربما أنا في دمشق الآن أو في القاهرة الكبرى. والماركيزة جنية، ولديها رهان مع جني آخر على من هو أكثر الشباب وسامة والأكثر جدارة ليكون زوجًا لأميرة الصين، لذا أحضراني إلى هنا، وأحضرا جميع مقتنيات الغرفة، بل أحضرا الغرفة كلها وكل شيء هنا، لنناقش الأمر معًا، ربما الأميرة..". استدار السيد سويفيلر في وهن، لينظر إلى الجانب الآخر من سريره المجاور للحائط، وقال ورأسه مستكين على وسادته: "ربما الأميرة لا تزال هـ.. لا! لقد رحلت".
لم يشعر بالرضى التام عن هذا التفسير، على الرغم من اعتباره التفسير الصحيح لما يمر به، فلا يزال ينطوي عليه بعض الشك والغموض، رفع السيد سويفيلر الستارة مرةً أخرى، عازمًا على اغتنام أول فرصة مواتية لمخاطبة مَن رافقه. وقد هيأت المناسبة نفسها. رفعت الماركيزة الولد في أوراق اللعب وهي توزع، وتجاهلت أن تستغل الميزة المعتادة للورقة، فصاح السيد سويفيلر عاليًا بقدر ما استطاع: "نقطتان لكعبيه!" ([21]).
قفزت الماركيزة بسرعة من مكانها، وصفقت بيديها، فخاطب السيد سويفيلر نفسه على الفور: "لقد أصبتُ.. إنها ليلة عربية؛ إنهم دائمًا يصفقون عوضًا عن دق الجرس. الآن سيحضر ألفان من العبيد، يحملون على رؤوسهم جرارًا من الجواهر!".
من الواضح، أن تصفيق الماركيزة بيديها، كان تعبيرًا عن الفرح. لأنها بعد ذلك غالت في الضحك بقهقهات عالية، ثم انهمرت دموعها، معلنةً دون اختيار اللغة العربية بل باللغة الإنجليزية المألوفة، أنها سعيدة للغاية، لأنها لم تكن تعرف ماذا عليها أن تفعل.
قال السيد سويفيلر مفكرًا: "يا ماركيزة! سيكون من دواعي سروري إذا اقتربتِ.. بادئ ذي بدء.. هل تقدمي لي معروفًا وتفعلي خيرًا وتقولي لي أولًا أين يمكنني إيجاد صوتي - وثانيًا ماذا حدث

بلحم جسدي؟".
هزت الماركيزة رأسها في حزن، وانهمرت دموعها مجددًا، عندئذ شعر السيد سويفيلر - كان ضعيفًا جدًّا - بأن عينيه تأثرتا ببكائها، وصارتا تفعلان بالمثل.
قال ريتشارد بعد لحظة صمت طالت بينهما، وهو يبتسم بشفة مرتجفة: "لقد بدأت أستوعب يا ماركيزة، بناءً على رد فعلك ومن طريقتك وهذه المظاهر.. لقد كنتُ مريضًا".
ردت الخادمة الصغيرة، وهي تكفكف دموعها: "مريضًا! مريضًا فقط! ألم تكن تهذي!".
قال ديك: "أوه! هل فعلت؟ إذنْ كنت مريضًا جدًّا يا ماركيزة؟".
ردت الخادمة الصغيرة: "ميتًا! قل كنت ميتًا.. لم أظن أبدًا أنك ستتحسن، الشكر والحمد للرب أنك كنت!".
لبث السيد سويفيلر في صمته طويلًا، شيئًا فشيئًا بدأ الحديث مرةً أخرى، واستفسر منها عن المدة التي قضاها طريح الفراش. ردت الخادمة: "غدًا ستبلغ المدة ثلاثة أسابيع".
قال ديك: "ماذا! ثلاثة ماذا؟".
ردت الماركيزة بشكل قطعي: "أسابيع.. ثلاثة أسابيع طويلة ومضنية وبطيئة".
تسببت الفكرة المجردة للمكوث طوال ذلك الوقت، في انغماس ريتشارد في صمت مطبق آخر، واستلقائه مسطحًا مرةً أخرى، بطوله الكامل. بعد أن رتبت الماركيزة أغطية السرير بشكل مريح، وجست جبهته ويده ووجدتهما باردتين - وهو الإكتشاف الذي غمرها بالسعادة - بكت ثانيةً، ثم قامت لتحضير الشاي، وتحميص بعض الخبز.
بينما كانت منهمكة في تحضيراتها، نظر إليها السيد سويفيلر بقلب ممتن، مندهشًا ومنبهرًا تمامًا بما فعلته في المنزل، ناسبًا الفضل الأول في إتمام ذلك إلى سالي براس، التي - في رأيه - لن يوفي أو يكفي أي شكر أو امتنان حقها. حينما انتهت الماركيزة من إعداد الشاي والخبز، بسطت قطعة قماش نظيفة على صينية، وأحضرت عليها الخبز المحمص وإناء من الشاي الخفيف. أسندته بالوسائد بمهارة، وفي حنان بالغ، كما لو كانت ممرضة محترفة طوال حياتها، وظلت تنظر إليه نظرات رضًى، بينما كان المريض يتناول وجبته، ويتوقف من وقت لآخر ليصافح يدها، ثم يعود إلى تناول وجبته الزهيدة بشهية وتلذذ، لا يمكن لأطايب الطعام وأحسنه في ظروف أخرى أن تسببها. بعد أن أنهى وانتهى من كل شيء، وعاد الشعور بالراحة يتسلل إلى جسده مرةً أخرى، جلست على الطاولة لتشرب الشاي الخاص بها.
قال السيد سويفيلر: "قولي لي يا ماركيزة - كيف حال سالي؟".
لوت الخادمة قسمات وجهها في أشد التعبيرات تكتمًا ودهاءً، ثم هزت رأسها.
قال ديك: "ماذا! ألم تريها مؤخرًا؟".
صاحت الخادمة الصغيرة: "أراها؟ فلتحفظنا يا رب! لقد هربت!".
استلقى السيد سويفيلر مسطحًا بطوله الكامل مرةً أخرى، لا يحرك طرفًا قرابة الخمس دقائق، وبحركات بطيئة جدًّا استغرقت وقتًا طويلًا استعاد وضعية جلوسه، وقال مستفسرًا:
"وعلى هذا الحال، أين تعيشين يا ماركيزة؟".
صاحت الخادمة الصغيرة: "أعيش! هنا بالطبع!".
وبهذا استلقى مسطحًا بطول جسده مرةً أخرى، فجأة كما لو كان قد أطلق الرصاص عليه. فبقي بلا حراك، خاليًا من أي تعبيرات، صامتًا عن أي كلام، حتى أنهت وجبتها، ووضعت كل شيء في

مكانه، وأزاحت الرماد عن الموقد، فأومأ إليها بإحضار كرسي إلى جانب السرير، وبعد أن أسندته ثانيةً ليجلس، استكملا حديثهما.
قال ديك: "إذنْ - لقد هربت؟".
قالت الماركيزة: "نعم.. لقد لعنوا عني".
قال ديك: "لقد.. أستمحيكِ عذرًا - لقد فعلوا ماذا؟".
ردت الماركيزة: "لقد لعنوا عني.. لعنوا كما تعرف.. لقد لعنوا عني في الصحف".
قال ديك: "آه! نعم نعم! أعلنوا عنك؟".
أومأت الخادمة الصغيرة، وغمزت. كانت عيناها حمراوين للغاية من طول فترات الاستيقاظ والبكاء الكثير، لدرجة أن ديك شَعر أن عروس الشِّعر وإلهة إلهام الشِّعر التراجيدي قد تغمز باتساق وانسجام أكثر من ذلك.
قال: "قولي لي كيف خطر على بالكِ المجيء إلى هنا؟".
ردت الماركيزة: "كما تعرف - عندما رحلت، لم يعد لديَّ أي صديق؛ لأن المستأجر لم يعد إلى هناك أبدًا بعد ما حدث، ولم أعد أعرف أين يمكنني إيجاد أي منكما كما تعرف. لكن ذات صباح، عندما كنت...".
قال ديك مقترحًا، عندما لاحظ أنها تلعثمت قليلًا: "قريبة.. قريبة من ثقب المفتاح؟".
قالت الخادمة الصغيرة بعد أن أومأت برأسها: "بالضبط.. عندما كنت قريبة من ثقب مفتاح باب المكتب - أنت تعرف.. كما رأيتني من قبل - سمعت سيدة ما تقول إنها تعيش هنا، وإنها السيدة التي تؤجر عندها سكنًا، وإنك بحالة يُرثى لها، ولا يأتي أحد ليرعاك. وحينها سمعت السيد براس وهو يقول: "إن هذا ليس من شأني"، والسيدة سالي تقول: "إنه شاب مرح، لكن هذا ليس من شأني"، وبذلك غادرت السيدة، وصفعت الباب وراءها، عندما رحلت، يمكنني أن أخبرك أنني هربت تلك الليلة، وأتيت إلى هنا، وقلت لهم إنك أخي، وصدقوني، ومنذ ذاك الحين وأنا هنا".
صاح ديك: "يا إلهي! إن هذه الماركيزة تعرضت إلى الموت المحتوم، وتعرض نفسها إلى مخاطر الهلاك!".
ردت وقالت: "لا لم أفعل! ولا تهتم لحالي. أنا أحب الجلوس هنا، وكثيرًا ما كنت أنام - فليعظم شأنك الرب - على أحد هذه الكراسي. إذا كنت رأيت نفسك وأنت تقفز خارج الغطاء، وسمعت كيف كنت تغني باستمرار وتلقي الخطب، لم تكن ستصدق نفسك... أنا سعيدة جدًّا لأنك في حال أفضل يا سيد ليفيريرر".
قال ديك بينما يشغل عقله التفكير: "ليفيريرر! أنا ليفيريرر! حسنًا لم تخطئ كثيرًا.. أنا أشك أنه لولاك يا ماركيزة لكنت في عداد الموتى، وأن بقائي على قيد الحياة ما كان إلا بفضلك".
وهنا! أمسك السيد سويفيلر يد الخادمة الصغيرة بيده مرةً أخرى، كما رأينا من قبل، ولكنه كان أكثر ضعفًا، مضطربًا لا يعرف كيف يعبر عن امتنانه وشكره، حتى صارت عيناه حمراوين مثل عينيها، لكنها سرعان ما غيرت الموضوع، وجعلته يستلقي، وحثته على إلتزام الصمت.
وقالت له: "لقد قال الطبيب إنه يجب أن تظل ساكنًا، ومنع إثارة الصخب أو الضوضاء حولك، لذا خذ الآن قسطًا من الراحة، وسوف نتحدث مرةً أخرى فيما بعد. سأجلس هنا بجانبك، كما تعلم، إذا أغلقت عينيك، ربما ستنام. سوف تكون أفضل حالًا، إذا فعلت".

بينما كانت الماركيزة تقول هذه الكلمات، جلبت الطاولة الصغيرة بالقرب من السرير، وسحبت كرسيها إلى الطاولة، وجلست، وشرعت في إعداد بعض المشروبات الباردة، ببراعة مجموعة من الكيميائيين. في الواقع، كان ريتشارد سويفيلر متعبًا، حينما أغلق عينيه، نام من فوره، واستيقظ بعد حوالي نصف ساعة، وسأل عن الوقت.
ردت صديقته الصغيرة، وهي تساعده على الجلوس مرةً أخرى: "إنها السادسة والنصف".
حرك ريتشارد يده على جبهته، ثم إلتفتَ فجأةً كما لو أن ما أراد قوله ومض فجأةً، وقال: "يا ماركيزة! ماذا حدث بشأن كيت؟".
قالت: "لقد حُكم عليه بالترحيل القسري لسنوات عديدة".
سأل ديك: "هل رُحِّل؟ كيف حال أمه؟ ماذا حدث لها؟".
هزت ممرضته رأسها، وأجابت بأنها لا تعرف أي شيء عنهما، وقالت ببطء شديد: "لكنني إذا اعتقدت أنك ستبقى هادئًا، ولا تُعرض نفسك للإصابة بالحمى مرةً أخرى، يمكنني أن أخبرك.. لكنني لن أفعل الآن".
قال ديك: "لا! أخبريني - هذا سوف يريحني".
ردت الخادمة الصغيرة بنظرة مذعورة: "أوه! هل هذا سيحدث! اسمع! أنا أعرف أفضل منك، انتظر حتى تتحسن، وحينها سأخبرك".
نظر ديك إلى صديقته الصغيرة بجدية شديدة، ولكون عينيه واسعتين وجافتين من المرض، فاقمتا من جدية تعبيره، لدرجة أنها خافت تمامًا، وطلبت منه ألا يفكر في هذا الأمر بعد الآن. لكن حديثها لم يثر في نفسه الفضول فحسب، بل أثار في نفسه قلقًا مروعًا، لذلك حثها على إخباره بأسوأ ما في الأمر مرةً واحدة.
قالت الخادمة الصغيرة: "أوه! لا يوجد ما هو أسوأ في الموضوع.. اسمع! ليس في الموضوع ما له علاقة بك".
سأل ديك بأنفاس متقطعة: "هل له أي علاقة بـ.. بما سمعتيه من خلال الشقوق أو ثقب المفتاح - ولم تنوي سماعه؟".
ردت الخادمة الصغيرة: "نعم".
تابع ديك من فوره: "في - في بيفيس ماركس؟ دار حديث بين براس وسالي؟".
صاحت الخادمة الصغيرة مرة أخرى: "نعم".
طوح ريتشارد سويفيلر يده الرخوة إلى خارج السرير، وأمسك رسغها، وجذبها بالقرب منه، وقال لها إما أن تخبره وبكل شيء، وإمَّا لن تُحمد العواقب؛ فلم يعد قادرًا على تحمل إثارة فضوله وزخم التوقعات التي دارت في رأسه. أما هي، فلاحظت انفعاله المحتد، وأن تأثير تأجيل إفشاء ما تتكتم عليه أكثر ضررًا من أي تأثير محتمل، إذا أخبرته، فوعدت بالامتثال، بشرط أن يحافظ المريض على هدوئه، ويمتنع عن التقلب والتطويح.
قالت الخادمة الصغيرة: "لكنك إذا بدأت في فعل ذلك مرةً ثانية، سوف أتركك، ولن أقول لك حرفًا".
قال ديك: "لا لن تتركيني، حتى تخبريني.. هيا يا ماركيزة.. هيا يا عزيزتي. تحدثي يا أختي الحبيبة.. تحدثي يا بريتي بولي ([22]). هيا أخبريني متى حدث وأين حدث.. هيا أخبريني التفاصيل.. هيا أتوسل

إليك يا ماركيزة!".
لم تستطع رفيقته مقاومة المناشدات المتقدة، التي انهال بها ريتشارد سويفيلر عليها في تضرع كما لو كانت طبائعهما هي الأكثر مهابة وجدية، فتحدثت وقالت هذا:
"قبل أن أهرب.. كنتُ معتادة على النوم في المطبخ، في نفس المكان الذي لعبنا فيه الورق معًا، كما تعرف. وقد اعتادت الآنسة سالي أن تضع مفتاح باب المطبخ في جيبها، ولطالما كانت تأتي في الليل؛ كي تأخذ الشمعة وتشعل النيران. عندما تفعل ذلك، تتركني أنام في الفراش في الظلام، ثم ترحل وتغلق الباب من الخارج، وتضع المفتاح في جيبها مرةً ثانية، وتتركني محبوسة حتى تنزل في وقت مبكر من صباح اليوم التالي.. صدقني مبكرًا جدًّا جدًّا، وتطلق سراحي، وتسمح لي بالخروج. لطالما كنت خائفة أن أظل في هذا الحال؛ لأن النيران إذا اشتعلت في المكان كله، سوف ينسيانني، ويهتمان بأمرهما فقط كما تعرف بكل تأكيد، لذلك، كنت كلما أرى مفتاحًا صدئًا قديمًا في أي مكان، ألتقطته في نفس اللحظة، وأجرب ما إذا كان يناسب الباب أم لا، وأخيرًا، وجدت في تراب القبو مفتاحًا يناسبه".
هنا، أحدث السيد سويفيلر حركة عنيفة بساقيه. لكن الخادمة الصغيرة توقفت عن إستكمال حديثها في الحال، فهدأ مرةً أخرى، واعتذر عن نسيانه اللحظي لوعدهما المبروم، وتوسل إليها للمضي قدمًا.
قالت الخادمة الصغيرة: "لقد تركاني أتضور جوعًا.. لا يمكنك أن تتصور كيف تركاني أتعذب من آلام الجوع! لذلك اعتدت أن أتسلل إلى الخارج في الليل، بعد أن يكونا قد ذهبا إلى فراشهما، وأفتش في الظلام عن بسكويت أو باقي شطيرة تركاها في المكتب، أو حتى قشر البرتقال الذي كانا يضعانه في الماء المثلج، ويصدقان أنه نبيذ. هل تذوقت قبل ذلك قشر البرتقال والماء؟".
رد السيد سويفيلر أنه لم يتذوق أبدًا هذا الخمر القوي، وتوسل إلى صديقته مرةً أخرى؛ أن تستأنف سرد أحداث روايتها.
قالت الخادمة الصغيرة: "إذا كنت تدعي، فيمكنني أن أقول لك إنه كان جيدًا، أما إذا لم تكن، فقد بدا بكل تأكيد، كما لو كان يحتاج إلى إضافة بعض التوابل حسنًا! في بعض الأحيان، كنت أخرج بعد أن يذهبا إلى فراشهما، وفي بعض الأحيان الأخرى كنت أخرج قبل ذلك، كما تعلم، وقبل ليلة أو ليلتين، كانت هناك ضجة عالية في المكتب - أقصد قبل ليلة أو ليلتين من أَخذِ الشاب الصغير - صعدت السلم، وحينها كان السيد براس والآنسة سالي جالسين أمام النيران في المكتب، لكن، صدقني.. إنني أقول لك الحقيقة، لقد اقتربت؛ كي أسمع أي شيء عن مفتاح خزانة الطعام".
رفع السيد سويفيلر ركبتيه اللتين شكلتا مخروطًا كبيرًا أسفل غطاء السرير، واعتلى وجهه تعبير ينم عن الترقب البالغ. لكن الخادمة الصغيرة توقفت عن إستكمال ما ترويه، ورفعت إصبعها، فتلاشى الشكل المخروطي بلطف، على الرغم من أن تعبير الترقب لم يختفِ.
قالت الخادمة الصغيرة: "لقد كانا هناك بالقرب من النيران، ويتحدثان بهدوء.. سمعت السيد براس يقول للآنسة سالي: "أكاد أجزم أن هذا الموضوع خطير، وسوف يدفعنا إلى مشاكل لا حصر لها، أنا لا أحبذ القيام به". وتقول له الآنسة سالي - أنت تعرف طريقتها وأسلوبها-: "إنك أكثر الرجال الذين رأيتهم في حياتي جبنًا وضعفًا وعجزًا". وتقول: "حريٌّ بي أن أكون الأخ وأنت الأخت. أليس كويليب؟". هي مَن تقول: "أليس كويليب هو الداعم الرئيس؟ وألسنا معتادين على إزاحة شخص أو آخر عن مسار عملنا؟". والسيد براس يقول: "لطالما كنا نفعل ذلك بكل تأكيد".

فتقول: "إذنْ هل سيعني لنا شيئًا إذا أهلكنا أقصد أزحنا هذا المدعو كيت عندما يرغب كويليب في ذلك؟". فيقول السيد براس: "بالطبع لن يعني لنا أي شيء"، ثم ضحكا في همس لوقت طويل حيال أن ليس هناك أي خطر وشيك، إذا أتما فعلتهما على نحو دقيق، ثم أخرج السيد براس محفظته وهو يقول: "حسنًا! ها هي ورقة كويليب النقدية فئة الخمسة جنيهات، سنعتمد ما خططناه"، ويقول أيضًا: "سيأتي كيت صباح الغد، أنا أعرف. عندما يصعد إلى الطابق العلوي، وأنت ترحلين، وأنا أتخلص من السيد ريتشارد. سأنفرد بكيت، وسأدير معه حوارًا، وبطريقتي سأدس له الورقة النقدية في قبعته، إلى جانب ذلك". يقول: "إلى جانب ذلك.. لسنا نحن من سيجدها، بل سيجدها ريتشارد، ويكون هوا الشاهد. إذا لم يتسبب ذلك في إبعاد كريستوفر عن طريق كويليب، وإرضاء ضغائنه، فحريٌّ به أن يكون شيطانًا"، ضحكت الآنسة سالي، وقالت إن هذه هي الخطة المتفق عليها، ثم بدوا لي أنهما يتحركان عن مكانهما، وكنت خائفة من الوقوف لوقت أطول، فنزلت السلم بسرعة، إلى هناك مرة أخرى!".
كانت الخادمة الصغيرة قد وصلت تدريجيًّا إلى درجة الإثارة والدهشة، التي انتابت السيد سويفيلر، وبالتالي لم تتكبد أي جهد لكبح جماحه، عندما نهض من بعد استلقائه فجأة، وجلس على فراشه، وسأل على عجل، ما إذا كانت قد أخبرت أي أحد بهذه القصة.
أجابت الممرضة: "كيف هذا؟ لقد كنت أرتعد خوفًا من مجرد التفكير، وتمنيت كثيرًا أن يتم الإفراج عن هذا الشاب، لكنني عندما سمعتهم يقولون إن الحكم صدر وإنه مذنب في جريمة لم يفعلها، كنت قد رحلت، وكذلك المستأجر.. على الرغم من أنني كنت خائفة من أن أخبره، حتى ولو كان لا يزال هناك. ومنذ ذلك الوقت، هربت وأتيت إلى هنا، كُنتَ فاقدًا لكل حواسك، ولا تحرك طرفًا.. فما فائدة أن أخبرك بما عرفته في ذلك الوقت؟".
شد سويفيلر قلنسوته الليلية من فوره، وطوَّح بها إلى الجانب الآخر من الغرفة وقال: "إذا كان من الممكن يا ماركيزة أن تقدمي لي معروفًا، أن تذهبي لبضع دقائق؛ وتعرفي أحوال الطقس الليلة؛ لأنني سأخرج".
صاحت الممرضة من فورها: "لا يجب أن تخطر فكرة كهذه في بالك حتى".
قال المريض، وهو ينظر حوله في جميع أركان الغرفة: "في الواقع، يجب عليَّ أن أفعل.. أين ملابسي؟".
ردت الماركيزة: "أوه! أنا سعيدة حقًّا - في الواقع، ليس لديك أي منها".
قال سويفيلر، وقد غمره الاستغراب: "معذرة يا سيدتي!".
"لقد اضطررت إلى بيعها كلها؛ لأحصل لك على الأشياء التي لزم إحضارها لك.. لكن، لا تحزن، عليك أن تتقبل الأمر"، ثم قالت الماركيزة، بينما استلقى ديك مسطحًا بطوله كاملًا: "أرأيت! إنك ضعيف جدًّا على أن تقف".
قال ريتشارد في كآبة شديدة: "أخشى حقًّا أن تكوني على حق. ماذا يجب عليَّ أن أفعل؟ ما الذي يجب عمله؟".
خطر على باله بشكل تلقائي بعد القليل من التفكير، أن الخطوة الأولى التي يجب عليه اتخاذها ستكون التواصل مع أحد السيدين جارلاند على الفور. فمن المرجح أن السيد هابيل لم يغادر المكتب بعد. وفي أقصر وقت ممكن، كان لدى الخادمة الصغيرة ورقة فيها العنوان، وعلى علم بوصف شفهي للأب والإبن؛ حتى تتعرف عليهما دون صعوبة، وملقى عليها تنبيهات خاصة

مفادها أن تحذر من السيد تشوكستر؛ بسبب كراهية هذا الرجل الواضحة لكيت. سارعت بالرحيل، مزودة بتلك القوى الضعيفة، مكلفة بإحضار إما السيد جارلاند العجوز وإما السيد هابيل نفسيهما، تمامًا، شحمًا ولحمًا إلى تلك الشقة.

قال ديك، عندما أغلقت الباب ببطء، وأعادت فتحه مرة أخرى، تسترق النظر، كي تتأكد أنه مستريح: "أتظنين أنه لم يبقَ أي شيء، ولو مثلًا صدرية واحدة! أليس كذلك؟".

- لا، لم يبقَ أي شيء بتاتًا.

قال السيد سويفيلر: "إنه أمر في غاية الإحراج.. ماذا لو نشب حريق! - ولا مظلة حتى! - لا يهم لا يهم! إنكِ فعلتِ الأمر الصائب يا عزيزتي ماركيزة، من دونك، لكنت في عداد الموتى!".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الخامس والستون

لحسن الحظ أن طبيعة الخادمة الصغيرة حادة وسريعة البديهة، وإلّا لم تكن ستُحمد عواقب إرسالها بمفردها، من حي يشكل ظهورها فيه أكبر خطورة عليها، فربما تقع تحت وطأة الاحتجاز المشدد، وتتمكن الآنسة سالي من إستعادة سلطتها الكاملة عليها، في الواقع، لم تكن أفكارها في منأى عن المخاطر التي تحف بها، ومع ذلك، غادرت الماركيزة المنزل من فورها، دون توانٍ، واندفعت وسط الظلام في أول طريق لاح أمامها، دون أي إشارة ما إذا كان يصل بها إلى مقصدها أم لا، وبدأت في وضع أول ميلين من القرميد والملاط بينها وبين بيفيس ماركس.

بعد أن أزاحت الخطر عن مهمتها، واجتازت تلك العقبة، بدأت في إتخاذ مسارها إلى مكتب كاتب العدل، بعد أن استفسرت بمنتهى الذكاء من بائعات التفاح، وبائعي المحار على قوارع الطرقات، بدلًا من اللجوء إلى المتاجر المضاءة أو الأشخاص جيدي الهيئة؛ حتى لا تُلفت الإنتباه إليها، تمكنت بسهولة من معرفة الإتجاه. مثلها مثل الحمام الزاجل، حينما يُطلق سراحه لأول مرة في مكان غريب، يتحرى الحذر، يحلق بشكل عشوائي لفترة قصيرة، قبل أن يتجه نحو المكان المقصود، لذلك رفرفت الماركيزة حول المكان مرةً وأخرى، حتى تأكدت أنها بأمان تام، إلى أن هبطت بسرعة في سلام على المكان المعني، الذي قطعت من أجله تلك المسافة.

لم يكن لديها أي غطاء للرأس - لم يكن لديها سوى قبعة كبيرة، كانت تعتمرها سالي براس أحيانًا منذ زمن ولى، من المعروف عنها أن لها ذوقًا خاصًا في القبعات، كان غريبًا كما رأيناه - ولم يساعدها الحذاء على السير أكثر مما كان يعيقها، يبطئ من سرعتها، فقد كان كبيرًا ورثًا، وأحيانًا ينخلع من قدميها، ويطوح من حين لآخر، ويصعب عليها العثور عليه مرةً أخرى بين حشود السابلة. في الواقع، واجهت تلك المخلوقة الصغيرة المسكينة العديد من الصعوبات والمتاعب، التي عطلتها عن إستكمال دربها، واضطرتها للتوقف أحيانًا، كي تنتشل قبعتها أو حذاءها من الطين ومن وجار الكلاب، فضلًا عن مشقة البحث، وما عانته من مضايقات وضغط ودفع وتقاذف من يد إلى أخرى. حينما وصلت إلى الشارع الذي عاش فيه كاتب العدل، كانت منهكة خائرة القوى مرهقة، لدرجة أنها لم تستطع الإمتناع عن البكاء.

لكن وصولها إلى هناك في النهاية، كان راحة لها؛ خاصةً عندما لمحت من نافذة المكتب أن النيران لا تزال مشتعلة، فبعث إليها الأمل، واطمأنت إلى أنها لم تتأخر كثيرًا. لذا كفكفت الماركيزة دموعها بظهر يديها، وتسللت في هدوء، واسترقت النظر عبر الباب الزجاجي.

كان السيد تشوكستر يقف خلف الغطاء المسدل على مكتبه، منهمكًا في استعدادات الرحيل، وانتهاء العمل في تلك الليلة، يفرد السوار، يرفع ياقة قميصه، يعدل من وضع عنقه بلطف في لِفاعه، يهذب شواربه خفيةً أمام مرآة صغيرة مثلثة الشكل. بينما وقف سيدان آخران أمام رماد النيران، كان من الواضح أن أحدهما هو كاتب العدل، أما الآخر - الذي زرر معطفه وكان على وشك الرحيل في الحال -، فقد كان السيد هابيل جارلاند.

بعد أن أجرت الجاسوسة الصغيرة تلك الاستطلاعات، شاورت نفسها، وقررت الإنتظار في الشارع، حتى يخرج السيد هابيل، فلا تدع مجالًا للخوف من اضطرار التحدث أمام السيد

تشوكستر، ولتواجه صعوبة أقل في الإفصاح عن رسالتها، مع هذا القرار، انسلت إلى الخارج مرةً ثانية، وعبرت الشارع، وجلست على عتبة باب في الجهة المقابلة.
بالكاد اتخذت مكانها، وقد أتى يتراقص في الشارع، يخبُّ بقوائمه في كل مكان، ويطوح رأسه في كل إتجاه، لقد أتى المهر. كان يسحب عربة صغيرة جدًّا، يجلس فيها رجل، لكن لا العربة ولا الرجل بدوا أنهما يعيقا حركته أو يقيداها على أي حال، فقد وقف على قائمتيه الخلفيتين، يمشي على هذا النحو، ثم يقف، ثم يعاود الخبَب، أو يمشي على قائمتيه مجددًا إلى الخلف، ثم يعاود الوقوف على النحو ذاته، أو يخب في إتجاهات جانبية، دون أي إلتفات أو إعتبار لوجودهما، كما لو أن نزوة هامت عليه، كما لو كان هو الحيوان الأكثر حرية في الخلق. عندما وصل أمام باب مكتب كاتب العدل، صاح الرجل في هدوء واحترام: "ووعاااا!". كأنه يغامر بالتعبير عن أمنية يرجوها، ويأمل منه معروفًا، متوسلًا إليه ليتوقف عند هذا المكان. توقف المهر للحظة، لكنه، كما لو خطر على باله أن التوقف حينما يطلب منه، من الممكن أن يكون سابقة خطيرة غير مريحة، فإذ به ينطلق في الحال مرةً أخرى، يقعقع بأقصى سرعة نحو قارعة الطريق، ثم يلتفت، ويعود، ويقف في هدوء تام أمام المكان من تلقاء نفسه.
قال الرجل الذي لم يغامر بالخروج من العربة، مترجلًا على الرصيف، حتى إستعاد لونه الطبيعي: "أوه! كم أنت مخلوق لا تقدر بثمن.. كم أتمنى لو كان لديَّ مكافأة لك - بالطبع".
قال السيد هابيل، بينما يربط كوفية حول عنقه، وهو ينزل الدرج: "ماذا كان يفعل؟".
رد السائس: "إنه يخلع قلوب الرجال من مكانها فقط.. إنه الوغد الأكثر تعجرفًا.. وعا!! أليس كذلك؟".
قال السيد هابيل، بينما يركب العربة ويمسك بلجام المهر: "بالطبع لن يقف إذا داومت على نعته بتلك الألفاظ.. إنه رفيق جيد إذا تعلمت كيف تعامله. إنها المرة الأولى التي يخرج فيها، بعد مضي فترة طويلة، منذ أن فقد سائسه القديم، ولم يرضَ أن يتحرك ولو خطوة مع أي شخص آخر، حتى صباح اليوم. إن الفوانيس بحالة جيدة، أليس كذلك؟ حسنًا! هذا عظيم. كن هنا غدًا لأخذه، إذا سمحت. ليلة سعيدة!".
وبعد اندفاع متهور لمرة أو مرتين بدافع أهوائه الخاصة، إنصاع المهر إزاء رفق السيد هابيل، وركض بلطف.
طوال ذلك الوقت، كان السيد تشوكستر واقفًا عند الباب، فخافت الخادمة الصغيرة من الإقتراب، لم يكن في وسعها أي شيء لتفعله حتى الآن، سوى أنها ركضت بأقصى سرعتها وراء العربة، وهي تنادي على السيد هابيل كي يتوقف. صارت منقطعة الأنفاس، حتى استطاعت التعلق بها، لكنها لم تتمكن من جعله يسمعها، حينها كان التعلق شبه مميت، وفعلًا في غاية التهور؛ فقد أسرع المهر من خطاه. ظلت الماركيزة متعلقة بآخر العربة لبضع لحظات، وشعرت أنها لن تستطيع الإحتمال لأبعد من ذلك، وقد أوشكت على الاستسلام، على الرغم من أنها سخرت كامل جهدها للتشبث والصعود أكثر إلى المقعد الخلفي، وحينها فقدت إحدى فردتي حذائها إلى الأبد.
كان السيد هابيل منشغل العقل، ذهنه مليء بالأفكار، فضلًا عن أن لديه من العمل ما يكفيه، كي يحافظ على إستمرار ركض المهر في طريق مستقيم، دون أن يحيد جانبًا عن الطريق، يتراءى له أنه يلمح شيئًا ما غريبًا يتحرك خلفه، حتى إرتكزت الماركيزة في موضعها، وإلتقطت أنفاسها،

فاقدةً حذاءها، همست إلى جانب أذنه قائلة: "أردت أن أقول يا سيدي...". فزع السيد، واستدار من توه، وقد أوقف المهر وصاح: "إحمنا يا رب.. ما هذا!".
ردت المرسلة التي لا تزال تلهث: "لا تخف يا سيدي.. أوه! يا ربي! لقد ركضت خلفك مسافة طويلة حقًّا!".
قال السيد هابيل: "ماذا تريدين مني؟ وكيف وصلت إلى هنا؟".
ردت الماركيزة: "صعدت من الخلف.. أوه! من فضلك يا سيدي! امض قدمًا.. لا تتوقف.. واذهب مباشرة إلى المدينة.. هلَّا تفعل ذلك الآن! و - آه! عليك أن تُسرع، لأن الأمر مهم جدًّا. يوجد شخص يريد رؤيتك. لقد أرسلني إليك، لأبلغك أن تذهب إليه مباشرةً، وأنه يعرف الكثير بخصوص أمر كيت، وهذا الأمر من الممكن أن ينجيه، ويثبت براءته".
- ماذا تقولين أيتها الطفلة؟
- أقول لك الحقيقة.. صدقني أنا أقول لك الحقيقة، ولي الشرف في ذلك. لكن، من فضلك امضِ قدمًا وأسرع من فضلك! لقد مضى وقت طويل على مغادرتي، سيظن أنني تهت وضللت الطريق.
تلقائيًّا حث السيد هابيل مهره على الإنطلاق. وقد إنصاع المهر، ربما كان مدركًا ومستحثًّا بعض التعاطف السري، أو كانت نزوة جديدة من نزواته، فانطلق بخطى كبيرة من فوره، ولم يتوان، أو يحد عن الطريق، أو يفتعل أي حركة غريبة، ومشى بانضباط غير معتاد على الإطلاق، حتى وصلوا قبالة باب سكن السيد سويفيلر، فوقف من توه بمجرد أن شد السيد هابيل اللجام.
قالت الماركيزة، وهي تشير إلى إحدى الغرف المنيرة بضوء خافت: "انظر! هذه هي غرفته.. هيا بنا!".
يُذكر أن السيد هابيل، كان من أبسط البشر وأكثرهم تواضعا في الوجود، إضافةً إلى طبيعته الخجولة، حينما وصل إلى هناك، ساوره التردد لبعض الوقت؛ عادةً كان يسمع عن خداع الناس واستدراجهم إلى أماكن غريبة، لسرقتهم وقتلهم، في ظروف مشابهة تمامًا لما يمر به في وقته الحالي، ولم يكن أي شيء مناهضًا لما عرفه، خاصةً أن المستدرجين دائمًا ما كانوا يشبهون الماركيزة.
ومع ذلك، تجاوز كافة تلك الإعتبارات والمخاوف؛ من أجل كيت. لذلك، كلف رجلًا بالاعتناء بويشكر، كان واقفًا يتوق إلى ذلك العمل، ثم مد يده إلى رفيقته؛ لتصطحبه، وتقتاده عبر الدرج الضيق الحالك.
لم يكن اندهاشه هينًا؛ عندما وجد نفسه في غرفة وخيمة، ذات إضاءة خافتة، وفيها رجل يفترش سريره نائمًا في هدوء.
قالت مستدرجته، في همس خافت: "أليس من اللطيف رؤيته مستلقيًا في هدوء؟ أوه! كنت لتقول بالمثل، إذا كنت رأيته منذ يومين أو ثلاثة أيام".
لم يقدم السيد هابيل أي رد، وإحقاقًا للواقع، ظل واقفًا بعيدًا عن السرير، قريبًا جدًّا من الباب. تفهمت مستدرجته سبب تردده، فشذبت الشمعة، وأمسكت بها، واقتربت من السرير. عندما فعلت ذلك، استيقظ النائم، ونهض من توه، فأدرك من الوجه الذابل ملامح ريتشارد سويفيلر.
سارع السيد هابيل نحوه، وقال في لطف: "كيف هذا؟ هل كنت مريضًا طوال هذا الوقت؟".
رد ديك: "مريضًا جدًّا.. تقريبًا ميتًا.. ربما كنت لتسمع عن ريتشارد الذي تعرفه في نعشه، لولا فضل هذه الصديقة التي أرسلتُها لتحضرك إلى هنا. صافحيني مرة أخرى يا ماركيزة.. تفضل

بالجلوس يا سيدي".
بدا السيد هابيل مشدوهًا، عندما سمع بما فعلته مستدرجته، وسحب كرسيًّا إلى جانب السرير.
قال ديك: "لقد أرسلت إليك يا سيدي بسبب.. هل أخبرتك عن الشأن الذي أردت محادثتك حياله؟".
رد السيد هابيل: "لقد فعلت.. أنا في حيرة من أمري تمامًا، لا أعرف حقًّا فيما أفكر، وماذا عليَّ أن أقول!".
قال ديك متمتمًا: "ستعرف كل ذلك في الحال.. من فضلك يا ماركيزة، اجلسي على السرير، هلَّا فعلتِ! والآن، من فضلك أخبري هذا السيد النبيل كل ما أخبرتني به، وكوني دقيقة في قولك. حريٌّ بكِ ألَّا تقولي كلمة أخرى، استمع يا سيدي".
كررت القصة، بنفس استرسالها وتفاصيلها، قُصت مثل أول مرة، دون اختزال أو انحراف أو إغفال. وطوال ذلك الوقت، ثبت السيد سويفيلر ناظريه طوال مدة السرد على زائره، وحينما انتهت، سرعان ما تحدث مرةً أخرى:
"لقد سمعت كل شيء، وأعلم أنك لن تنساه. إنني مشوش تمامًا ودائخ، وربما أكون غريب الأطوار، على أن أقترح أمرًا لفعله.. لكن أنت وأصدقاؤك على علم بما يتوجب فعله. بعد هذا التأجيل الطويل، أعتقد أن كل دقيقة تمر الآن ما هي إلا عمر ينقضي. إن لم تعد إلى بيتك في أي ليلة طوال حياتك سريعًا، فعد الليلة على عجل. لا تنتظر ولو للحظة واحدة، لا تنتظر حتى تقول لي كلمة واحدة، إذهب في الحال. ستجدها هنا في أي وقت إذا احتجتها، وأنا بالمثل تمامًا. ستجدي في المنزل، حريٌّ بي ألَّا أنتقل من هنا لأسبوع أو لأسبوعين. لأسباب عدة لا داعي لذكرها.. يا ماركيزة! الضوء بسرعة! إن أضعت وهلة أخرى في النظر إليَّ يا سيدي، لن أسامحك عمري كله!".
لم يكن السيد هابيل في حاجة إلى أن يلفظ بحرف آخر في مدلوله إقناع أو إحتجاج. انطلق في التو واللحظة، تتبعه الماركيزة، لتضيء له الدرج، عادت قائلةً إن المهر دون أي اعتراض أو تعنت رمح من فوره على طول الطريق.
قال ديك: "إنه الإخلاص والود ونقاء المشاعر.. إنني أُكِنُّ له احترامًا من هذه اللحظة.. تناولي الآن العشاء وأحضري لك كوبا من الجعة؛ فأنا متأكد من أنكِ متعبة جدًّا. هل لدينا هنا أي كوب من الجعة. سيكون من المريح لي رؤيتي لكِ وأنتِ تشربينه، كما لو كنت أشربه بنفسي".
لا يضاهي أي أمر مثل هذا التوكيد، الذي غمر الممرضة الصغيرة بالإرتياح، ودللها في ترف ورفاهية. بعد أن أكلت وشربت في رحاب السيد سويفيلر، وأعطته مشروبه، ووضعت كل شيء في ترتيب منظم، تلحفت بغطاء قديم، واستلقت على البساط أمام النيران. بينما كان السيد سويفيلر في ذلك الوقت، يتمتم في نومه: "لنكتسِ بالود المنثور، ولتتم على سرير من أسلية تفوح بالعطور.. وسنبقى هنا حتى يتورد أول بصيص من نور. تصبحين على خير يا ماركيزة!".
∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السادس والستون

عند الاستيقاظ في الصباح، وبأعين ناعسة، أفاق السيد سويفيلر تدريجيًّا على أصوات همس في غرفته. نظر من بين الستائر المسدلة على سريره، وإذ به يلمح السيد جارلاند والسيد هابيل وكاتب العدل والرجل الأعزب مجتمعين كلهم حول الماركيزة، يتحدثون في جدية بالغة، بصوت خافت جدًّا؛ خشية أن يزعجوه، بلا شك. فلم يتوان للحظة عن إخبارهم أن هذه الاحتياطات غير ضرورية، عندما رأوه وقد استيقظ، اقترب السادة الأربعة نحوه من فورهم. وكان أولهم السيد جارلاند العجوز، الذي مد له يده في الحال، وسأله عما يشعر.
كان ديك على وشك أن يجيبه بأنه يشعر بتحسن كبير، على الرغم من وهنه وضعفه البادي عليه، لكن الممرضة الصغيرة دفعت الزوار جانبًا، وأسندته إلى وسادته، كما لو كان فعلها بدافع الغيرة من تدخلهم، ثم وضعت فطوره أمامه، وأصرت على أن يتناوله قبل أن يرهقه تحدثه معهم أو تحدثهم إليه. على الرغم من أن أحلامًا متناغمة مختلفة بتميزها بقطع لحم ضأن، سمكها تضاعف عن الطبيعي، لكن مذاقها الشهي متماثل، قد راودته طوال الليل، شعر السيد سويفيلر الذي إلتهم وجبته بنهم شديد، أن الشاي الخفيف والخبز المحمص مشتهيات لا يمكن أن تقاوم، وقد وافق على أن يأكل ويشرب مقابل شرط واحد.
قال ديك، وهو يعيد مصافحته للسيد جارلاند، ويضغط على يده: "هو أن تجيب عن هذا السؤال بكل صدق، قبل أن أتناول لقمة، أو أرتشف رشفة واحدة.. هل تأخرنا جدًّا وقد فات الأوان؟".
رد السيد العجوز: "فات الأوان على إستكمال فضل ما بدأته أنت الليلة الماضية؟ لا! أرح عقلك، وهدِّئ من روعك.. لسنا متأخرين، أؤكد لك أن الأوان لم يفت".
إطمأن المريض تمامًا بعد سماع تلك المعلومات، وشرع يأكل طعامه في تلذذ شديد وشهية قوية، على الرغم من ذلك، لم تكن تعبيراته تضاهي التعبيرات الحماسية المفعمة بالحيوية التي بدت على الممرضة؛ حينما رأته يأكل. إليكم الطريقة التي أكل بها وجبته: كان السيد سويفيلر يمسك في يده اليسرى إما قطعة من الخبز المحمص أو كوب الشاي، إما يأكل أو يشرب - وفقًا لما كان ممسكًا به - بصورة تتابعية مستمرة، لأن يده اليمنى كانت ممسكة بيد الماركيزة، فقد أحكم قبضته عليها في حنوٍّ، إما يصافح وإما يقبِّل تلك اليد المحتجزة، كان يتوقف عن فعليه بين الحين والآخر ليبتلع، في عزم جاد، وبطريقة حذرة وبمنتهى الوقار. حينما كان يضع أي شيء في فمه، سواء أكان يأكل أم يشرب، يتهلل وجه الماركيزة وتتألق قسماته بالسرور وتفوق سعادة ملامحها كل كلمات الوصف، أما في تلك الأوقات التي كان يعبر فيها بفعل أو بآخر عن إعترافه لها بالعرفان، يكسَف وجهها، وتجهش بالبكاء. والآن! بين لحظة وأخرى، بين سعادتها الضاحكة واغروراق عينيها بالدموع، لم تستطع الماركيزة منع نفسها من النظر إلى الزوار بنظرة عطوفة، كأنها تقول: "هل ترون هذا الرفيق.. ما العمل معه؟ هل يمكنني أن أقاوم ذلك؟". ومع هذه النظرات، ينضمون إلى المشهد الذي كانوا جزءًا منه، فيأتي ردهم بنظرة على نحو نظامي مفادها: "لا، لا يمكنك بتاتًا"، - ظل هذا المشهد الصامت طوال تناول المريض لفطوره الزهيد، مشابهًا لوجبته نفسها، شاحبًا وضعيفًا، يؤدي دورًا غير صغير في المشهد نفسه - ربما يكون ما حدث

برمته موضع تساؤل عما إذا كان قد حدث خلال أي وجبة أخرى، حيث لا يذكر فيها أي كلمة، سواء كانت حسنة أو سيئة، منذ بدايتها حتى آخر لحظة فيها، ويتم التعبير عن مكنونات صدورهم بإيماءات، كانت في حد ذاتها طفيفة دون أهمية!
بعد وقت طويل - لقول الحقيقة قبل وقت طويل - أنهى السيد سويفيلر الكثير من الخبز والشاي، ربما كان من الحكمة السماح له بذلك النهم؛ خاصةً في تلك المرحلة من تعافيه، لكن رعاية الماركيزة له لم تنته عند هذه المرحلة؛ فقد اختفت وعادت في لحظة، تحمل طستًا مملوءًا بالماء الفاتر؛ غسلت وجهه ويديه، ثم مشطت شَعره، وفي وقت قصير جدًا جعلته مصففًا وأنيقًا، مثلما يتسنى لأي رجل يمر بنفس العواقب، وانقضى كل ذلك في حيوية وانتعاش، وبسلوك كما لو كان طفلًا صغيرًا مدللًا، وهي ممرضته الراشدة. طوال تلك الملاطفات والإهتمامات المختلفة، كان السيد سويفيلر في درب من دهشة ممتنة خارج نطاق التعبيرات اللغوية. حينما أتمت فعلها ووصلا إلى النهاية، انسحبت الماركيزة إلى ركن بعيد؛ لتتناول وجبة إفطارها الزهيدة - وقد أمست باردة بما فيه الكفاية في ذلك الوقت - ولم يسعه سوى الإلتفات محدقًا إليها لبضع لحظات، يومئ في الهواء بالمصافحة في مودة.
بعد الثبات لتلك اللحظات، أنعش السيد سويفيلر نفسه من نشوة الإمتنان، والتفتَ مرةً أخرى وقال: "أرجو المعذرة منكم جميعًا؛ فعندما يتدهور الحال بالرجال، الذين هم على نفس شاكلتي، سرعان ما يهانون. أنا الآن منتعش مرةً أخرى. وبإمكاني التحدث، أخشى أن يكون لديَّ نقص في عدد الكراسي هنا من بين باقي الأغراض الأخرى، لذا قدموا لي فضلًا، واجلسوا جميعًا على السرير..".
قال السيد جارلاند في عطف: "ما الذي يمكننا فعله من أجلك؟".
رد ديك: "إذا استطعت أن تجعل الماركيزة التي تجلس هناك، ماركيزة فعلًا.. ماركيزة في الواقع بكامل الهيئة والرصانة، سأكون شاكرًا لك، ولن يكون لشكري حدود، ولكن.. إذا لم تستطع، ولم يكن السؤال حول ما الذي ستفعله من أجلي، بل ما الذي ستفعله من أجل شخص آخر، لديه إستحقاق أكبر.. فأرجو منك يا سيدي أن توافيني بأمر ما تنوي فعله".
قال الرجل الأعزب: "في الغالب، لقد أتينا إلى هنا من أجل هذا المنحى، وأحسب أن زائرًا آخر سيأتي إليك فيما هو قريب. كنا نخشى أن تكون قلقًا حيال عدم معرفتك بالخطوات التي نعتزم إتخاذها، لذا أتينا إليك، قبل أن تشرع في التنفيذ".
قال ديك: "أيها السادة! إن لكم مني كل الشكر! إذا رآني أي شخص غيركم وأنا في هذه الحالة العاجزة، كاد أن يتمكن منه الشك والقلق.. لذا يا سيدي لا تدعني أعيق تحركاتكم".
قال الرجل الأعزب: "حسنًا! كما ترى يا صديقي المخلص . في حين أن الشك لا يساورنا على الإطلاق حيال مصداقية ما تم كشفه، يجب أن تظهر للنور في حذر وتعقل..".
قال ديك، مُشيرًا إلى الماركيزة: "هل تقصدها بحديثك؟".
- بالطبع أقصدها. في حين أن الشك لا يساورنا بخصوص هذا الشأن، وأنها الحقيقة المثلى ليتم العفو عن الفتى المسكين ويلوذ بالتحرر الفوري، إلا أن الشك قد ملأ صدورنا في صدد آخر، وأصبحنا لا نعرف، ما إذا كان هذا الأمر وحده سيمكننا من النيل من كويليب، الوكيل الرئيس في هذه القرية أم لا! حريٌّ بي أن أخبرك أن هذا الشك، تم تأكيده وبات أقرب إلى اليقين، من خلال ما استخلصناه من شتى الآراء، التي تبادلناها خلال الوقت القصير الذي تناقشنا فيه. أحسب أنك

توافقنا الرأي، وتعتبر أن السماح له ولو بأبعد من أبعد فرصة ممكنة، تتيح له الفرار، ما هو إلا أمر شنيع. لذا فتمنَّ معنا، إذا كان من اللازم أن يلوذ أحدهم بالقرار، أن يكون أي شخص غيره.
رد ديك: "نعم بالطبع، لكن هذا في حالة إذا وجب وبات شرطًا إلزاميًا - فأنا لا أرغب بتاتًا في أن يفر منهم أحد. فمنذ أن سُن القانون لكافة الأصعدة، فلا جرم أن يكبح الآثام في الآخرين كما كبحت بداخلي.. ويجب أن يسير الأمر وفقًا لهذا النهج كما تعرفون - أليس هذا واضحًا لكم وضوح الوَضَح؟".
تبسَّم الرجل الأعزب، كما لو أن السؤال الذي طرحه لم يكن واضحًا وضوح أي شيء في العالم، لكنه على كل حال، إستكمل حديثه بشرح أنهم في المقام الأول سيمضون في تنفيذ ما اتفقوا عليه، وأن مسعاهم يهدف إلى إنتزاع الإعتراف من المبجلة سارة.
قال: "عندما تكتشف إلى أي مدى عرفنا وكيف عرفنا، ستشعر أن الخطر يحدق بها لا محالة، ومن خلالها - أرجو أن تحيط بنا الآمال سنتمكن من الزج بالآخرين لنيل عقاب ما فعلوا بشكل فعال. إذا تمكنا من إتمام ذلك، ستكون هي سالمة ولن يقع عليها أي عقوبة، فأنا حقًّا مهتم لأمرها".
استقبل ديك حديثه بسلوك لطيف، وبأقصى ما تمكن من إظهار الحماسة، أوضح لهم أنه على ذكر الوعل العجوز - يقصد سارة - فمن العصي الإيقاع به أكثر من كويليب نفسه، وأنها غير واعدة بأي قبس من أمل، وأنها الأكثر تعنتًا وصلابة على صعيد المداهنة والتملق والتلاعب والترهيب، وأن لها نصيبًا من معنى لقب عائلتها، لكنها نوع مختلف من النحاس، فلا يُذاب ولا يصهر - باختصار، وضَّح لهم أن سبل سعيهم لن تتوافق مع طبائعها، وربما ستهزم بشكل ملحوظ. لكن حثهم على إعتماد مسار آخر بدلًا من هذا غير المجدي. بين الرجل الأعزب وشرح نواياهم المشتركة، التي إستلزم الأمر أن يكتبوها؛ لتحدثهم في نفس الوقت، لدرجة أنه إذا صمت أحدهم للحظة ليلتقط أنفاسه، كاد أن يقف لاهثًا متلهفًا؛ للحصول على فرصة أخرى؛ يتمكن عبرها من مقاطعة الحديث، والإفادة بما يريد قوله - أما الأمر فقد وصل بهم إلى مرحلة يتفاقم فيها الإضطراب ونفاد الصبر، فلا يقتنع الرجال أو يأخذوا بالأسباب، لذا فإن أشد الرباح عتيًّا لن تحيدهم عن نواياهم، ولن يمتثلوا لإعادة النظر في عزمهم أبدًا - لذلك بعد إخبار السيد سويفيلر كيف أن أمر والدة كيت والأطفال لم يغب عن حساباتهم مطلقًا، وأنهم لم يتغافلوا عن أمر كيت نفسه ولو لوهلة واحدة، وأنهم بذلوا مجهودات حثيثة لتخفيف عقوبته، وكيف شُتت إنتباههم تمامًا بين البراهين القوية التي أثبتت إدانته، وبين تلاشي آمالهم في براءته، وكيف يجب عليه - ريتشارد سويفيلر - إعفاء عقله من كثرة التفكير، وطمأنة نفسه أن كل شيء سوف يعدَّل على نحو سليم إنطلاقًا من وقتهم حتى هبوط الليل - بعد إخباره بكل هذا، بالإضافة إلى الكثير من التعبيرات اللطيفة الودية لشخصه، من غير الضروري ذكرها - إعتزم السيد جارلاند وكاتب العدل والرجل الأعزب الرحيل في وقت حرج للغاية، وإلا كادت نوبة حمى شديدة أخرى أن تصيب ريتشارد سويفيلر، وقد لا يبرأ من سقمها.
وقف السيد هابيل في ركن مكنون، كثيرًا ما ينظر إلى ساعته ثم إلى باب الغرفة، حتى إستفاق السيد سويفيلر من غفوة قصيرة، على هزة أرضية، بسبب إنزال حمل ثقيل من على كتفي عتَّال على الأرضية خارج غرفته، وقد بدت أنها هزت البيت كله، حتى قوارير التمريض الموضوعة على رف الموقد رنت عاليًا مرة أخرى. وسرعان ما إمتد الصوت إلى أذنه، فقام السيد هابيل، وعرج إلى

الباب من توه، وفتحه، ومكث ممسكًا به! حينها لاح رجل ضخم البنيان يقف، وأمامه سلة كبيرة، سُحبت إلى داخل الغرفة، وأفرغت محتوياتها كافة، وقد نضحت بكنوز مكنزة من الشاي والقهوة والنبيذ والبسكويت والبرتقال والعنب ودجاج جاهز للسلق، وحلوى الجيلاتين ونبات الطاعة ([23]) ودقيق النخل والعديد من الأغذية الشهية، قبالة طرف إحدى فردتَّي حذاء الخادمة الصغيرة، التي تسمرت مكانها، منعقدة اللسان، فاقدة قدرتها على الحديث، يسيل لعابها وتسيل معه دموعها؛ فلم تكن تتخيل أن ترى مثل تلك الأشياء، عدا في المتاجر. أما السيد هابيل والرجل ضخم البيان فلم يتوقفا لوهلة، فقد أفرغا محتويات السلة - التي ظلت كبيرة كما هي - في طرفة عين، ولم تتوقف أيضًا سيدة عجوز، كانت قد ظهرت فجأةً - ربما خرجت من السلة أيضًا، فقد كانت كبيرة بالحد الذي يتسع لها - وأخذت تتنقل على أطراف أصابع قدميها، دون إحداث أي صخب، تجدها مرة واحدة هنا ومرة أخرى هناك، ثم تجدها مرة واحدة في كل الأرجاء، تضع حلوى الجيلاتين في أكواب الشاي، تعد مرق الدجاج في القدور، تقشر للرجل المريض البرتقال وتفصله وتجعله فصوصًا صغيرة، وطوال ما كانت تذرع الطريق جيئةً وذهابًا، تقدم للخادمة الصغيرة كوبًا من النبيذ لتدفئتها، وتمطر عليها بأصناف مختارة من كل شيء، إلى أن تنتهي من إعداد الوجبة الرئيسة وينضج اللحم فتأكل حتى تشبع. كانت تلك المظاهر محيرة للغاية وغير متوقعة بالمرة، لدرجة أن السيد سويفيلر عندما أكل برتقالتين وقليلًا من الحلوى الجيلاتينية، ورأى الرجل ضخم البنيان يرحل حاملًا السلة فارغة، وبات من الواضح أنه ترك كل هذه الوفرة من أجله وفي متناول يديه ولملكيته الخاصة، كان سعيدًا مؤنسًا ليضطجع وينام مرة أخرى، هائمًا في رفاهية ومنع تلك العجائب داخل ذهنه.

في هذه الأثناء، تواجد الرجل الأعزب وكاتب العدل والسيد جارلاند في مقهى، حيث كتبوا رسالة وجيزة وأرسلوها إلى الأنسة سالي، يطلبون منها، في غموض، أن تقدم معروفًا لصديق مجهول يريد إستشارتها، والتشاور معها في أسرع وقت ممكن. وأرفقوا العنوان. وقد لاقى مسعاهم مكسبه، ففي غضون عشر دقائق من عودة المرسل وإفادته تسليم الرسالة، ظهرت الأنسة براس نفسها.

قال الرجل الأعزب، الذي وجدته بمفرده في الغرفة: "إتخذي لكِ مقعدًا من فضلك يا سيدتي ".

جلست الآنسة براس، باردة الأطراف متجمدة الأوصال، وقد بدت - أو في الواقع كانت - في غمار الدهشة؛ لتجد أن النزيل ومراسلها الغامض كانا نفس الشخص.

قال الرجل الأعزب: "لم تتوقعي رؤيتي! أليس كذلك؟".

ردت الجميلة وقالت: "لم أفكر كثيرًا في ذلك؛ ظننت أن الأمر يخص العمل بشكل أو بآخر. لذا إذا كان إحضاري بسبب الشقة، فبالطبع يجب أن تقدم لأخي إشعارًا منتظمًا، كما تعرف، أو أن تدفع المال. إن هذا أمر سهل التسوية. إضافةً إلى أنك طرف مسؤول، لن تخل بأي شروط، ففي هذه الحالة سيكون المال القانوني والإشعارات القانونية بالمثل إلى حد كبير".

تمتم الرجل الأعزب قائلًا: "أنا ممنون بما قلت، وملتزم برأيك السديد، وأوافق عليه تمامًا.. لكن هذا ليس الموضوع الذي أود أن أتحدث معكِ بشأنه".

قالت سالي: "أوه! حسنًا! إذنْ صرح بالتفاصيل! هلا فعلت؟ لأنني ظننت أنه عمل إحترافي؟".

- لم نحد عن الإحترافية في العمل.. إنه أمر يتعلق بالقانون بكل تأكيد.

قالت سالي: "عظيم! أنا وأخي سيان. يمكن أن أحاط علمًا بأي تعليمات أو إرشادات وأقدم النصائح والمشورات للطرف المعني".
قام الرجل الأعزب عن مجلسه؛ وفتح بابًا لغرفة داخلية وقال: "بما أنكِ ذكرتِ الطرف المعني، فأحسب أن هناك أطرافًا معنية أخرى إلى جانبي، لذا من الأفضل أن نجتمع معًا.. أليس كذلك؟ أيها السادة.. إن الأنسة براس هنا".
دخل السيد جارلاند وكاتب العدل، وسحبا كرسيين، ووضعاهما على جانبي الرجل الأعزب، مشكلين نوعًا من السياج حول سارة اللطيفة، يطوقونها من كل جانب، ويحتجزونها في ركن. لو كان شقيقها سامبسون وقع تحت وطأة نفس الظروف، لران عليه الإرتباك والإضطراب، أما هي - في غمار رباطة الجأش - أخرجت علبتها الصغيرة، واستنشقت السَّعُوط في هدوء ورزانة.
تولى كاتب العدل استهلال الحديث في هذا الموقف العسر وقال: "يا آنسة براس، إننا أناس مهنيون، معروفون بالإحترافية، ونتفهم بعضنا، وعندما نرغب في الحديث، نقول ما يلزم قوله بإيجاز مفيد، وكلمات قليلة. إنكِ أعلنتِ عن خادمة هاربة ذاك اليوم.. أليس كذلك؟".
أجابت الآنسة سالي، باحمرار مفاجئ غطى ملامحها وقالت: "بلى.. وماذا عن ذلك؟".
قال كاتب العدل، بينما يسحب منديل جيبه في تأنق متباهٍ: "تم العثور عليها يا سيدتي.. لقد وُجدت".
سألت سارة على عجل: "من وجدها؟".
- نحن وجدناها يا سيدتي، نحن الثلاثة وجدناها ليلة أمس، وإلَّا كنتِ سمعتِ منا إشعارًا من قبل.
قالت الأنسة براس بعد أن طوت ذراعيها، كما لو كانت تخفي أمرًا حد الموت: "حسنًا! والآن أنا أسمع منكم.. ماذا تريدون قوله؟ ما الأمر الذي يخصها وقد استقطب عقولكم بالطبع - هيا! قولوا لي! هل هذا كل شيء؟ أو بدلًا من قوله - أثبتوا - ا صحته. تقول لي إنكم عثرتم عليها، وأنا أقول لكم إنكم عثرتم على شيطانة صغيرة رعناء أكثر دهاءً ومكرًا وكذبًا من أي مخلوق قد وُلِد.."، ثم أضافت وهي تحدق في كل الأرجاء في حدة: "هل جئت بها إلى هنا؟".
رد كاتب العدل: "لا، إنها ليست هنا في الوقت الحالي.. لكنها على أي حال في أمان تام".
انتزعت سالي شهقة عميقة من علبة السعوط، بغضب متقد، كما لو كانت تنتزع أنف الخادمة الصغيرة، وصاحت: "ها!!! أؤكد لك أنها انطلاقًا من هذه اللحظة يجب أن تكون آمنة بما فيه الكفاية".
رد كاتب العدل: "آمل أن تكون كذلك.. ألم يخطر على بالكِ في الوهلة الأولى، عندما اكتشفت أنها هربت، أن هناك مفتاحين لباب مطبخكِ؟".
استنشقت الآنسة سالي مرة أخرى من السعوط، ثم أمالت رأسها إلى جانب واحد، تنظر مليًّا إلى سائلها، وقد اعتلى فمها نوع غريب من التشنجات، لكن تعبيرها في الآن ذاته لم يَخْلُ من مظهر ماكر.
كرر كاتب العدل قائلًا: "مفتاحان - واحد منهما كان يمنحها فرص التسلل في الليل في كافة أرجاء المنزل، عندما كنتِ تفترضين أن احتجازها محكم، ومكنها من سماع العديد من الإستشارات السرية.. فضلًا عن أمور أخرى، لكن ما نحن بصدده الآن، هو إجتماع بعينه، ستتم الإفادة به اليوم أمام هيئة العدالة، فسوف تتوفر لكِ فرصة سماعها، إنه الإجتماع الذي انعقد بينكِ وبين السيد براس، في الليلة التي سبقت إتهام الفتى المسكين البريء بالسرقة، ودبرتما فيه حيلة رهيبة،

لا توصف إلا بفواحش ما رميت به تلك الشاهدة الصغيرة التعيسة، ويزيد عليه القبيح المستبشع من الكلام".
استنشقت سالي من السعوط مرةً أخرى. على الرغم من أن ملامح وجهها كانت هادئة، بان عليها الذهول تمامًا؛ فقد كان من الغرابة المستكرهة، أن تُتهم بأمر له صلة بالخادمة الصغيرة.
قال كاتب العدل: "عجبًا عجبًا يا آنسة براس.. إن لديكِ تحكمًا مذهلًا في قسمات وجهكِ، تتمكنين من مواراة أي تعبير، لكنني أعلم ماهية شعوركِ، حين يكتشف أمركِ بمحض صدفة لم تطرأ على مخيلتك قط، فضلًا عن عزمي إحضار كل مخططديها أمام العدالة. أحسب أنكِ الآن على بينة من الآلام والعقوبات التي قد تكونين عرضة لها، ومن ناحيتي لستُ في حاجة إلى الإسهاب في ذكرها وطرح تفاصيلها، لكنني لدي إقتراح لأقدمه لك، إن لك شرف أن تكوني شقيقة واحد من أعظم الأوغاد، والذي من المفترض أن يطبق عليه حكم الشنق، وإذا جسرتُ على المجازفة بقول هذا لسيدة، فأنتِ تستحقين الشنق أكثر منه. لكن الأمر لا يقتصر عليكما أنتما الاثنين؛ فهناك وغد ثالث على صلة بكما، يدعى كويليب، المحرك الرئيس للمؤامرة الشيطانية برمتها، وقد أحسبه طاعنًا في السوء أكثر منكما. لذا، من أجل الإيقاع به يا آنسة براس، قدمي إلينا معروفًا واكشفي التاريخ الكامل لهذا القضية. ولكن - دعيني أولًا أذكركِ بأن قيامكِ بذلك، بناءً على طلبنا، سيجعلك في موقف آمن ومريح - فما أنتِ بصدده الآن في الواقع هو آخر ما ترغبين فيه - وربما حينها لن يُنزل بشقيقكِ ضررًا، فما نحتكم عليه من دلائل وبراهين ضدكِ وضد أخيكِ - كما سمعتِ بالفعلة - كافٍ لإثبات الإدانة الكاملة. لن أقول لكِ إننا نقترح سلوك هذا المسار رحمةً بكِ، فدعيني أقول لك الحقيقة، إننا لا نكرمكِ بأي إعتبار، لكنها ضرورة لما اختزلناه وبَيَّناه لكِ، وأنا أوصيكِ به كأفضل سياسة.. الوقت". قال السيد ويزردن وهو يخرج ساعته: "إن الوقت في عملٍ كهذا ثمين للغاية، بلغينا بقراركِ بأسرع ما يمكن يا سيدتي".
إرتجت بالضحك، وبابتسامة إعتلت وجهها، إستنشقت الآنسة براس مرتين أو ثلاث مرات متتابعة من علبة السعوط، ولم تُبْقِ سوى القليل جدًّا من التبغ، فدارت بسبابتها وإبهامها مرةً وأخرى وأخرى في العلبة، حتى كشطت آخر ما تبقى. بعد أن سوت أمره كمثله، ووضعت في جيبها العلبة في منتهى التمهل والحرص، قالت:
- يفترض أن أقبل أو أرفض في الحال.. أليس كذلك؟
قال السيد ويزردن: "بلى!".
كادت المخلوقة الفاتنة أن تفتح فاها، لتكشف عن إجابتها، لكن الباب فُتح أيضًا على عجل، وأُقحم رأس سامبسون براس داخل الغرفة. قال الرجل الأعزب من فوره: "المعذرة! انتظر قليلًا!".
لكن بعدم إكتراث بيِّن بالدهشة التي سببها وجوده، تسلل إلى الداخل، وأغلق الباب، ثم قبل قفازه الناعم في خنوع كما لو كان يقبل التراب، وقدم إنحناءةً بنفس القدر من التذلل.
قال براس: "يا سارة! أمسكي عليكِ لسانكِ إذا سمحت، ودعيني أتكلم.. أيها السادة النبلاء، إذا تمكنت من التعبير عن السرور التي منحتموني إياه، عن السرور الذي اشتملني؛ فور رؤية ثلاثة رجال مثلكم مجتمعين في وئام سعيد ووحدة مشاعر متجانسة، أحسب أنكم بالكاد ستصدقونني، على الرغم من أنني بائس وتعيس، لا! أيها السادة النبلاء، على الرغم من أنني مجرم، إذا كنتم تسمحون في هذا الجمع الكريم بذكر ألفاظ جارحة، فلا يزال في قرارة نفسي مشاعر مثل باقي

الرجال. لقد سمعت عن شاعر، قد أبدى رأيًا، وقال إن المشاعر هي الرمز المشترك بين الناس أجمعين. أتعلمون أيها السادة النبلاء أن ذلك القول المتأجج بالعاطفة إذا تلفظ به شخص بغيض، لكاد أن يكون مخلدًا..".

قالت سارة ممتعضة في حدة: "إذا لم تكن أحمق.. فأمسك أنت عليك لسانك، ولا تتفوه بكلمة أخرى".

رد شقيقها: "يا سارة يا عزيزتي - شكرًا لكِ. لكنني أعلم ما أنا بصدده يا حبيبتي، ووفقًا لذلك لي كامل الحرية أن أعبر عن نفسي. يا سيد ويزردن، يا سيدي.. إن منديلك يتدلى من جيبك - اسمح لي يا سيدي أن -..".

بينما تقدم السيد براس لتعديل ما نوه عنه، انتفض كاتب العدل وابتعد عنه باشمئزاز بيِّن. إضافةً إلى سجايا السيد براس الظريفة المعتادة، بات لديه وجه مخدوش، وهالة خضراء ظللت عينًا واحدة، وقبعة ممزقة شديدة الإهتراء، ووقف للحظة، ينظر حوله بابتسامة يُرثى لها.

قال ساميسون: "إنه يتجنبني، كأن جمر نار تجمع على رأسه ([24]).

حسنًا! ها!! كما لو كنت منزلًا ينهار وتهرب منه الجرذان ([25])! - إذاً، سمحتم لي بالتعبير في إشارة إلى رجل أحترمه وأحبه أكثر من أي شيء -. أيها السادة النبلاء، إذا كنا الآن بصدد حديثكم، فقد صادف أني رأيت أختي، وهي في طريقها إلى هنا، وتساءلت إلى أين يمكن أن تذهب، ولذلك - إذا كنت أجسر على القول! - لقد انتابني الشك بطبيعة الحال، فتبعتها.. ومنذ ذاك الوقت، وأنا أقف هنا مستمعًا لحديثكم".

قالت سالي: "إن لم تكن مجنونًا، فتوقف عن الحديث من توك، ولا تقل كلمة أخرى".

قال براس بأدب لا حدود له: "يا سارة يا عزيزتي.. إنني ممتن لكِ، وأشكركِ بمنتهى اللطف، لكنني سأستأنف حديثي، يا سيد ويزردن! يا سيدي، كما يشرفنا أن نكون أعضاء مهنة واحدة - أنا لا أملك قولًا مغايرًا للسيد الآخر، فقد كان نزيلي ودخل بيتي، وكما يقول المرء.. إنه حسن الضيافة - أظن أنك ارتأيت رفضي لهذا العرض منذ الوهلة الأولى. في الواقع.. لقد رفضت عرضك.. والآن! يا سيدي العزيز -". صاح براس، عندما لاح له أن كاتب العادل كاد أن يقاطعه: "أرجوك.. اسمح لي باستكمال الحديث".

صمت السيد ويزردن، واستطرد براس في حديثه.

قال وهو يرفع عن عينه الهالة الخضراء، ليكشف عن عين غائرة بشعة وسمت بكدمات: "إذا كان من الممكن أن تقدم لي معروفًا يا سيدي، وتنظر إلى هذا، تلقائيًّا ستتساءل - ويتبادر إلى ذهنك في الوهلة الأولى- كيف حدث هذا! وتنظر إلى هذا، إلى وجهي، ستتساءل لا محالة عمَّن يمكن أن يكون سبب كل هذه الخدوش! وإذا إنتقلتَ بعينيك من هذا وذاك، لتنظر إلى قبعتي، ستتساءل كيف وصلت إلى هذا المنظر الذي تراه.. أيها السادة -". لَكَم براس بقبضة يده قبعته بعنف مفرط وقال: "أيها السادة، إن إجابة كافة هذه التساؤلات - كويليب!".

تبادل الرجال الثلاثة النظرات، لكنهم لم ينبسوا بكلمة واحدة.

تابع براس وعيناه شاخصتان إلى شقيقته، كما لو كان يتحدث لإحاطتها علمًا وحدها، ويتكلم بزمجرة نجمت عن عداوة وحقد، في تناقض عنيف مع سلاسته المعتادة، وقال: "إنني أقول لكم إن إجابة كافة هذه الأسئلة هي كويليب - كويليب، الذي استدرجني إلى وكره الجهنمي، وانتشى

مستمتعًا بالنظر والضحك بينما أهرول فزعًا وأحرق وأتسبب بكدمات وأجرح وأشوه نفسي - إنه كويليب، كويليب الذي لم يعاملني مرةً واحدة، لا! لم يعاملني ولو لمرة واحدة في جميع تعاملاتنا معًا بخلاف أنني كلب، إنه كويليب، كويليب الذي طالما كرهته من كل قلبي، لكنني لم أكرهه في أي وقت أكثر من كرهي له في الآونة الأخيرة. إنه لم يرأف بحالي طوال عذابي كما لو أنه ليس له علاقة البتة، على الرغم من أنه السبب الرئيس. لا يمكنني الوثوق فيه. دائمًا ما يتراءى لي أنه في مرة ما بينما يكون منتشيًا، تسيطر عليه روح الدعابة المتقدة الجامحة العاوية، ويطلق لنفسه جماحها، ربما يفكر في قتلي، ويقف مستكينًا لا يفكر مطلقًا أن فعله من الممكن أن يرعبني. الآن!"، إلتقط براس قبعته مرةً أخرى، وأعاد الظل على عينه، وانحنى في سلوك قد جاوز الخنوع الذليل وقال: "الآن! ما الذي قادني إليه كل هذا؟ - أجيبوني أيها السادة.. إلى أين يجب أن تقولوا إن هذا كله قادني؟ - هيا! هل يمكنكم التخمين مع هذه الدلالات؟".
لم يتحدث أحد، فوقف براس لبعض الوقت بابتسامة متكلفة؛ كما لو كان قد طرح بعض الألغاز المنتقاة، ثم قال:
"كي لا أطيل عليكم، لقد قادني كل ذلك إلى هنا. إذا كانت الحقيقة قد ظهرت، وصارت من المسلمات الواضحة التي لا يمكن مناهضتها - فالحقيقة أيها السادة سامية عظيمة، مثلها مثل الظواهر العظيمة السامية السماوية كالعواصف الرعدية، فضلًا عن أننا لا نسعد دائمًا لرؤيتها. لكنني أود حقًّا أن أنقلب على هذا الرجل، أفضل من أن ينقلب هذا الرجل عليَّ. لقد اكتفيت! وعلى ثقة بينة من أنني قد انتهيت من هذا الأمر. لذلك إذا كان أي شخص سينشق، من الأفضل أن أكون أنا هذا الشخص، وألوذ بالمنفعة. يا سارة! يا عزيزتي.. من الناحية النسبية أحسب أنكِ بأمان الآن. وأنا من سيتحمل كافة العواقب. بل إن العواقب ستتحول لمنفعتي الخاصة".
بالإنتهاء من هذا، سارع السيد براس في سرد الأحداث، وإزاحة الستار المسدل عن القصة كاملة، يتحامل على موكله الودود، وينأى بنفسه، جاعلًا منها أشبه بنفس ملائكية مقدسة، على الرغم من تسليمه بصحة ضعف الإنسان أمام النزغات الشيطانية. وختم قائلًا:
"أيها السادة النبلاء، إنني لست الشخص الذي إذا سموا له عملًا، استهتر به، بل يفعله على أكمل وجه، أنا مستعد تمامًا، فكما يقولون من بدأ أمرًا عليه أن ينهيه.. يمكنكم الآن أن تفعلوا بي ما تودون، وتأخذونني أينما ترغبون. إذا أردتم الإعتراف مكتوبًا، فليكن كذلك، أدونه في مخطوطة كتابية في التو واللحظة. أعلم أنكم سترأفون بحالي، أنا متأكد من ذلك. إنني واثق أنكم سترأفون بحالي، وتتعاطفون معي، إنكم سادة نبلاء، لديكم قلوب نقية تشعر بالغير. لقد استسلمت لكويليب بسبب الضرورة، على الرغم من أن الضرورة ليس لها قانون، لديها محاموها، والآن أنا أستسلم لكم بسبب الضرورة أيضًا، إلى جانب الحكمة، والمشاعر التي كمنت في قرارة نفسي طويلًا. أيها السادة النبلاء، عاقبوا كويليب وبكل حزم، اسحقوه وبكل قسوة، عذبوه وبكل شدة، ادعسوه تحت الأقدام. لقد فعل بي الكثير.. الكثير والكثير هذا اليوم".
بعد أن وصل إلى ختام حديثه، كبح السيد سامبسون جماح غضبه، وقَبَّلَ قفازه مرة أخرى، وابتسم كالرعاديد الجبناء.
اشرأبت الآنسة سالي بعنقها، فكانت لا تزال حتى هذه اللحظة تجلس وتسند رأسها على يدها، وحدجت شقيقها بنظرة أحاطت به من أعلى رأسه إلى أخمص قدمه باستهزاء مرير، وقالت: "إنه

أخي يا حضرات! أليس كذلك؟ إنه أخي الذي كنت أكد وأعمل من أجله وأهتم به.. وظننت أنه بلغ منازل الرجال!".
رد سامبسون، وهو يفرك يديه إحداهما بالأخرى في وهن، وقال: "يا سارة يا عزيزتي! إنكِ تزعجين أصدقاءنا.. إضافة إلى شعوركِ بخيبة الأمل والاستياء يا سارة؛ لأن الأمر قد فُضح على الملأ، وصرتِ لا تعرفين ماذا تقولين".
دمدمت الأنسة المحبوبة: "نعم أيها الوغد المثير للشفقة.. أنا أفهمك تمامًا. أعلم أنك خشيت أن أتحدث قبلك. هل تعتقد أنني كنت سأنبس ببنت شفة؟ وأُستدرج لأتحدث! لم أكن لأتحدث، وإن حاولوا بكافة السبل على مدار عشرين عامًا".
إرتجَّ براس بالضحك، وقد بدا في عمق أحزانه، كأنه غير جنسه بالفعل مع أخته، وأعطاها آخر ذرة من رجولة قد كان يمتلكها وقال: "هي هي! هل تعتقدين ذلك يا سارة؟ ربما تعتقدين ذلك فعلًا، لكن.. لكن تصرفاتك حريٌّ بها أن تكون مختلفة تمامًا يا رفيقي العزيز، أحسب أنكِ لا تنسين مبدأ (الثعلب العجوز). - والدنا الموقر أيها السادة اشتَبه دائمًا في الجميع.. هذا هو المبدأ الذي يمكن للمرء إتباعه في الحياة! إن لم تكوني بالفعل على وشك شراء سلامتكِ، حين دخولي، فأظن أنكِ كدت أن تفعلي بحلول هذا الوقت. لذا أتممت الأمر بنفسي، وجنبتكِ المتاعب وأبعدتها عنكِ، كما أبعدت الخزي والعار..". سمح براس لنفسه بأن يظهر مسيطرًا على الأمر إلى حد ما، وأضاف قائلًا: "الخزي والعار أيها السادة النبلاء.. إذا مس بنا شيء منه، اجعلوه من نصيبي. فالأفضل أن تنجو الأنثى من الموبقات".
مع مراعاة الرأي الأفضل من منظور السيد براس، وبالأخص حكمة سلفه، يظل هناك أمرٌ موضعَ شك، ما إذا كان هذا المبدأ الرفيع الذي صاغه السيد الأخير، وعمل به سليله، مبدأً حصيفًا، أم نزل على مشيئة النتائج المرجوة. يظل الأمر موضع شك، بلا ريب؛ لطالما لبثت العديد من الشخصيات المبجلة، ممَّن يُدعون برجال العالم، ذوي العملاء المخضرمين، موقّري الخلال، من لهم أتباع، ورفاق فطناء، من لهم رؤوس أموال، وما شابه من تلك الأمثال، يعملون بذلك المبدأ يوميًّا، حتى يعتمدونه من المسلَّمات والبديهيات، فيكون لهم بوصلة أو نجمٌ قطبي. من أجل التوضيح، يمكن ملاحظة أن السيد براس لم يرتق فوق الشبهات؛ لأنه من دون الفضول والتنصت، كان ليترك شقيقته لإدارة المداولة نيابة عنهما، وبالفضول والتنصت، لم يكن في عجلة من أمره لينضم إليها - ولم يكن ليفعل لولا غيرته وانعدام ثقته - وربما استبصر أنه بذلك سوف يجد نفسه أفضل حالًا في النهاية، وهكذا، يحدث دائمًا أن مثل هؤلاء الرجال على مستوى العالم، يدلفون إلى تلك الأمور بالدروع، يدافعون عن أنفسهم، في براعة الشر؛ كي ينأوا عن الحديث ولو بكلمة عن سخافة وإزعاج الحراسة المفرطة طوال الوقت، فهم يرتدون معاطف مُدرَّعة في أكثر المناسبات سلمًا وبراءةً.
تحدث الثلاثة رجال منعزلين لبضع لحظات. وفي نهاية تشاورهم، الذي كان موجزًا للغاية، أشار كاتب العدل إلى أدوات الكتابة على المنضدة، وأبلغ السيد براس بأنه إذا كان راغبًا في الإدلاء بأي بيان مكتوب، فقد واتته الفرصة للقيام بذلك. وفي الوقت نفسه، شعر بأنه ملزم بإخباره، أنهم سيستدعونه، طالبين حضوره في الوقت الحالي، للمثول أمام قاضي الصلح، للإدلاء بأن ما فعله أو قاله، هو بمحض إرادته، وأن نفسه هي مَن ساقته بالكلية.

خلع براس قفازه، وتقدم بهيئة الزاحف على الأرض ذليلًا وقال: "أيها السادة النبلاء! إثباتًا لأهلية كرمكم والعطف الذي أعرف أنني سأعامل به، لأني من دون عطفكم، وبعد انكشاف الأمر، أشغل الآن أسوأ المنازل بينكم أنتم الثلاثة، أود أن تستبصروا فيَّ حسنًا، وتعتمدوا على أنني سأنظف قلبي، يا سيد ويزردن يا سيدي - إن إعياءً أصاب روحي - فإذا كان من الممكن أن تقدم إليَّ معروفًا، وتدق الجرس، وتأمر بإحضار كوب دافئ وحار، وتغض الطرف عما سلف، سأشرب نخب صحنك، في سعادة آسفة - لكنت أتمنى.."، لاح براس في إلتفاتة بابتسامة حزينة وقال: "كنت أتمنى رؤية ثلاثتكم أيها السادة النبلاء في يوم أو في آخر، تطأون بأقدامكم أسفل شجرة الماهوجني في ردهتي المتواضعة في ماركس. لكن الآمال عابرة. يا لنفسي العزيزة!".
وصولًا إلى هذه المرحلة، وجد براس نفسه في غمار التأثر، لدرجة أنه لم يعد يستطيع أن يقول كلمة أو يفعل شيئًا آخر، حتى وصول بعض المرطبات. بعد أن تناولها بتمتع متحرر بالنسبة لشخص يفترض أن يكون في حالة مضطربة بسبب موقفه، جلس ليكتب.
أما سارة المحبوبة، فأخذت تطوي ذراعيها حينًا، وتشبك يديها خلف ظهرها حينًا، وتخطو بخطوات ذكورية، بينما كان شقيقها منهمكًا في عمله، تتوقف حينًا آخر، تنتزع علبة السعوط، وتعض الغطاء. واصلت المشي في أركان الغرفة جيئةً وذهابًا، حتى أُنهكت قواها، وخرت نائمة على كرسي بالقرب من الباب.
منذ ذلك الحين، أحتسب نومها لسبب ما مكرًا وخديعةً، فقد تمكنت من أن تفلت خلسة من دون أن يلاحظها أي أحد، عندما مالت الشمس إلى المغيب. فقد ظل محل خلاف بينهم، إذا ما كان رحيلها عن عمد بعد استيقاظ، أو مشيًا أثناء النوم بعد نعاس، لكن جميع الأطراف اتفقوا على نقطة واحدة - وهي النقطة الرئيسة - وهي بغض النظر عن الحالة التي غادرت فيها، فقد ذهبت بلا عودة.
مع ذكر الرحيل الذي تبع ميل الشمس إلى المغيب، نستنتج أن مهمة السيد براس تطلبت الكثير من الوقت لإنجازها، لم تنتهِ حتى هبط المساء. وبعد أن تمت كاملة، استقل الشخص الجدير والأصدقاء الثلاثة عربة للوصول في الحال إلى المكتب الخاص للقاضي، الذي استقبل السيد براس بترحيب حار، واحتجزه في مكان آمن، حتى يضمن لنفسه متعة رؤيته في الغد، وسمح للآخرين بالرحيل بعد تأكيد مبهج على أن المذكرة لا يمكن أن تفشل أبدًا في إلقاء القبض على السيد كويليب في اليوم التالي، وأن توضيح الأمور والإفادة بجميع الظروف لوزير الدولة - الذي كان لحسن الحظ في المدينة - سيؤول إلى تحرير كيت على الفور وإطلاق سراحه دون أي إرجاء أو تأخير.
والآن، قد ضل عمل كويليب، وخاب مسعاه الخبيث، وقارب على النهاية، يتعقبه جزاء عمله، وعقاب ما فعل غالبًا يلوح ببطء؛ خاصةً عندما يكون وخيمًا، يتبع خطاه بخطى ثابتة مؤكدة، حتى يقع عليه بسرعة لا محالة. يخطو بمداسٍ خفي لا يُدرك، ويسير ضحيته في دربه بانتصار محله الخيال. ولا يزال يتعقبه في أثره، وإن تقدم خطوة، فلن يحيد عنه أبدًا!
انتهى عملهم، وسارع السادة الثلاثة إلى سكن السيد سويفيلر، الذي تلمسوا تحسنًا ملحوظاً في حالته، ومال إلى الشفاء؛ فقد نهض وجلس وتحدث معهم في مرح ولمدة نصف ساعة كاملة. كانت السيدة جارلاند قد عادت إلى المنزل منذ وقت طويل، لكن السيد هابيل كان لا يزال جالسًا

معه. بعد أن أخبروه بكل ما فعلوا، غادر الرجل الأعزب والسيدان جارلاند، كما لو كان هناك اتفاق مسبق، تاركين المعتل بمفرده مع كاتب العدل والخادمة الصغيرة.
قال السيد ويزردن، بعد أن اقترب ليجلس بجوار السرير: "بما أنك في حال أفضل، أجسر على أن أبلغك بأخبار وصلتني بشكل مهني".
ربما بدت فكرة الإفصاح بأي معلومات مهنية من سيد نبيل ذي صلة بالأحوال القانونية، ليس لها أي توقع بمردود سار على ريتشارد. ربما ربط قوله بأمر أو بأمرين من الحسابات المعلقة في ذهنه، في إشارةً منه إلى أنه تلقى رسائل تهديد متنوعة.
فخجل محياه ورد قائلًا: "بالتأكيد يا سيدي.. آمل ألا يكون بصدد أمر مزعج.. هل هو كذلك؟".
قال كاتب العدل: "بالتأكيد لا! إن كان كذلك، لكنت انتقيت وقتًا آخر أفضل من هذا الوقت لإحاطتك علمًا به - دعني أخبرك أولًا أن أصدقائي الذين حلوا هنا اليوم، لا يعرفون شيئًا عما سأخبرك به، وأن لطفهم معك كان عفويًا تمامًا، ولا ينتظرون مردودًا. ربما يسعد رجل طائش متهور حين معرفة ذلك".
شكره ديك، وقال إنه آمل في ذلك.
قال السيد ويزردن: "كنت أجري بعض التحريات عنك، بعد أن إلتقيتُ بك في مثل تلك الظروف التي جمعتنا معًا. وعلمت أنك ابن شقيق ريبيكا سويفيلر العانس، المتوفية، القاطنة في تشيزلبورن في دورستاشير".
صاح ديك: "متوفية!".
- نعم، متوفية. إذا كان لديها أي أولاد أخ آخرين، لكانوا ورثوا معك - لكن الوصية هكذا تنص، ولا أرى أي مجال للشك - خمسة وعشرون ألف جنيه. ستحصل على مرتب سنوي قدره مائة وخمسون جنيها.. وأحسب أنه ينبغي أن أهنئك حتى على ذلك".
قال ديك وهو ينتحب ويضحك في نفس واحد: "يا سيدي.. هنئني يا سيدي - حبًا في الرب - هل سنجعل من الماركيزة طالبة! وتمشي في لباس حريري، وتكتنز الفضة؟ إما كذلك وإما لن أنهض مرة أخرى من هذا السرير!".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السابع والستون

ظل السيد كوبليب منغلقًا على نفسه في صومعته، دون أن يزعجه أي شك، هائمًا في غمار رضاه عن نتيجة مكائده، غير واعٍ البتة بالإجراءات المُحرَّرة التي سُردت بإخلاص في الفصل الأخير، منتشيًا في حلم خيالي بالمنجَم الذي انشق تحت قدميه - منذ البدء وإلى النهاية، لم يجد القلق حيال عمله أي ثغرة ليساوره، فقد كان إلتزام السرية الكاملة أمرًا ملحوظًا طوال الوقت - ولأنه منشغل ببعض التعديلات - ربما كان مكوثه في صمت وانعزال مأواه مواتيًا للغاية - لم يخرج من وكره لمدة يومين كاملين. وفي اليوم الثالث من إخلاصه لهذا المسعى، وكده الذي كان يعمل به، لم تكن لديه رغبة قوية في النزوح إلى الخارج.

إنه اليوم الذي أعقب إدلاء السيد براس باعترافه، وبناءً عليه، نُذر لفرض القيود على حرية كوبليب، وفيه تشكلت حلقة الوصل المفاجئة بينه وبين الحقائق غير السارة وغير المرحب بها على الإطلاق بالنسبة له. حينها كان القزم في حالة مرحه المألوف، لا يدري أي سحابة مظلمة ستخيم على منزله، يجد نفسه مستغرقًا في عمله، فلا ينسى معنوياته وصحته، فيغير من روتينه الرتيب بإضفاء قليل من الصراخ وقليل من العواء، أو باسترخاءات أخرى غير مؤذية ولكن بنفس الشميلة.

كان في صحبته كالعادة توم سكوت، الذي جلس القرفصاء مشابهًا للضفدع في بؤس، ومن وقت لآخر، عندما يوليه سيده ظهره، يقلِّد كشراته بدقة لا تخلو من الخوف. لم يختفِ التمثال بعد، وظل في مكانه القديم. لكن وجهه أُحرق بشكل مروع، بسبب نخزات ووخزات مذكي النيران المحموم المستمرة، وصار مزخرفًا بإقحام مسامير بعشرة بنسات في طرف أنفه، ومع ذلك، كان متبسمًا في أجزائه الأخرى الأقل تهشمًا، فبدا كفدائي قوي، يستفز معذبه كي يرتكب اعتداءات وإهانات جديدة.

في ذلك اليوم، كان الجو في أرقى أحياء المدينة وأبهاها، رطبًا ومظلمًا وباردا وقاتمًا، وفي تلك البقعة المنخفضة المستنقعية، كانت السماء ملأى بركام الضباب، فلم يخل أي ركن أو خلوة من الغيم الكثيف، باتت كل الأشياء على بعد ياردة أو ياردتين مغبرة مبهمة، تغلب السحاب المخيم على الأضواء التحذيرية والنيران المشتعلة، فصارت خافتة لا تلوح بقبس من نور تحت هذا الحجاب القاتم، المحتجز لبرودة قارسة نافذة تغزو الهواء، فتعلو صرخات مدوية لملَّاحين تملكهم الإرتباك بإفراط، بينما خروا على مجاديفهم منهكين، يحاولون في عبث تحديد أماكنهم، وربما كان النهر نفسه على بُعد أميال.

على الرغم من ركود السحب الضبابية وبطء حركتها، إلَّا أنها كانت من النوع المخترِق الثاقب. فلم يستطع أي دثار أو فرْو إبقاءها خارجًا. بدت كأنها نافذة تتخلل عظام السابلة المنكمشين، وتغمرهم بالبرد والآلام. صار كل شيء عند لمسه باردًا دبقًا، عدا الشعلات الدافئة، تتحداها وحدها، فأنارت في تلألؤ، يتطاير شررها في مرح. لقد كان يومًا ليمكث فيه الناس في المنزل، ولا يبرحونه، يحدقون بالنيران من كل إتجاه، يقصون حكايات المسافرين الذين ضلوا سبيلهم بسبب ذلك الطقس، شاردين في المراعي والمروج، لقد كان يومًا لتبجيل المدفأة المُدفِّئة أكثر من أي وقت مضى.

كما نعلم، كانت روح القزم الفكاهية بمثابة مدفأته المدفئة لنفسه، في ذلك الحين كان يُهيئ نفسه لتكون مرحة؛ مقررًا أن يمتع نفسه بنفسه. غير واعٍ بأي حال بما يحدث في الخارج، وبراحة التواجد خلف الأبواب، أمر توم سكوت بتزويد المدفأة الصغيرة بالفحم، وقد انصرف عن عمله لهذا اليوم؛ منتويًا أن يكون مرحًا فقط.
مع الإنتهاء من تحضيراته، أشعل شموعًا، وأضاف وقودًا إلى النيران وسعرها، ثم تناول عشاء من لحم البقر، كان قد طهاه بنفسه، بنهم ووحشية آكلي لحوم البشر، دهق وعاءً كبيرًا من نبيذ البنش الساخن، أشعل غليونه، وجلس ليستمتع بأمسيته.
لكن بحلول ذلك الوقت لفتت إنتباهه طرقات خافتة على باب مقصورته، عندما تكررت مرتين أو ثلاث مرات، فتح النافذة الدانية بكل هدوء، ودلف إلى الخارج برأسه، وسأل مَن هناك.
أجاب صوت امرأة: "أنا يا كويليب".
صاح القزم، وقد مد عنقه ليرى بوضوح زائرئه: "أنا يا كويليب! وما الذي جاء بكِ إلى هنا يا رديئة السمعة؟ كيف تجرأتِ على الإقتراب من عرين الغول أيتها المرأة المغناج؟ ها!".
قالت زوجته: "أرجوك لا تغضب مني، لقد جئت أحمل أخبارًا لك..".
قال القزم: "هل هي أخبار جيدة، أخبار سارة، تجعل المرء يتقافز متهللًا، ويطقطق أصابعه؟ هل ماتت الشمطاء العزيزة؟".
ردت زوجته: "لا أعرف حقًّا ماهية تلك الأخبار، لا أعرف إذا كانت جيدة أم سيئة".
قال كويليب: "إذنْ لا تزال على قيد الحياة، ولا علة بها.. عودي إلى المنزل مرةً أخرى يا عصفورة الشر.. عودي إلى المنزل!".
صاحت المرأة الوديعة: "إن معي خطابًا لـ..".
قاطعها كويليب وقال: "ارميه من النافذة هنا، وامضي في طريقك بعد ذلك، وإلا خرجت وخدشت كامل جسدكِ".
استحثته زوجته الذليلة بالبكاء وقالت: "لا! أرجوك يا كويليب.. هل من الممكن أن تسمعني! أعطني فرصة لأتحدث معك.. هل من الممكن يا كويليب!".
دمدم القزم بابتسامة خبيثة: "حسنًا! تحدثي- كوني سريعة ومختصرة.. هيا! هل ستتحدثين؟".
قالت السيدة كويليب مرتجفة: "لقد تُرك هذا الخطاب بعد ظهر اليوم في منزلنا، تركه صبي قال إنه لا يعرف من بعثه به، لكنه وكِّل بتوصيله، وقيل له أن يقول إنه يجب إحضاره إليك مباشرةً؛ لما ينطوي عليه من أخبار في غاية الأهمية.. لكن..". مد زوجها يده لالتقاطه منها، فأضافت: "من فضلك، اسمح لي بالدخول، إنك لا تعرف كم أنا مبتلة وأشعر بالبرد القارس هنا في الخارج، وكم مرة ضللت طريق الوصول إلى هنا في هذا الضباب الكثيف. من فضلك! اسمح لي بالدخول لأجفف نفسي لخمس دقائق فقط لا غير. وأعدك بأني سأذهب في الحال حينما تأمرني بذلك. أرجوك يا كويليب، أعدك بأني سأفعل".
تردد زوجها الحنون لبضع لحظات، لكنه فكر في إحتمالية إحتياجه لإجابات عن أسئلة تخص الخطاب، وربما هي من تعرفها، فأغلق النافذة، وفتح الباب، وأمرها بالدخول. إنصاعت السيدة كويليب لأمره من توها وعن طيب خاطر، وسارعت بالركوع قبالة النيران لتدفئة يديها، ومن ثم سلمته رزمة صغيرة.

إنتزعها كويليب من يديها، وحدق إليها محول العينين وقال: "إنني سعيد لأنكِ مبتلة، وسعيد لأنكِ تشعرين بالبرد، وسعيد لأنكِ ضللتِ الطريق، وسعيد لأن عينيكِ حمراوان من النحيب، إن كل هذا ينعش قلبي، كما يبتهج لرؤية أنفكِ الصغير مكسوًا بالصقيع ومقروضًا بالبرد".
قالت زوجته مختنقة بدموعها: "أوه! كم أنت فظ غليظ القلب يا كويليب!".
قال كويليب، بينما يلوي قسمات وجهه بأكثر الكشرات تجهمًا: "هل كانت تظن أنني ميت؟ هل كانت تظن أنها سترث كل أموالي، ومن بعدها تكون زوجًا لشخص تحبه؟ ها ها ها! هل ظننت كذلك فعلًا؟".
لم تثر تلك التهكمات أي رد من الشابة المسكينة، التي جثت على ركبتيها، تدفئ يديها، متفجعة باكية من شماتة كويليب وفرحته المفرطة. وبينما كان يتأملها مقهقهًا مغاليًا في الضحك، حدث أنه لاحظ أن توم سكوت سعيد متبسم أيضًا، ولأنه ليس من المفترض أن يشاركه طربه، أخذ بخناقه، وجرجره إلى الباب، وبعد القليل من العراك، ركله خارجًا إلى الساحة. وبالعودة إلى تلك الطريقة الإستفزازية لاستدراج الإنتباه، مشى توم من فوره على يديه تجاه النافذة، - وإذا كان من الجائز التعبير بهذا القول نظر إلى الداخل بحذائه، إضافةً إلى أنه قعقع مقلوبًا بساقيه على الزجاج، كما لو كان الجنية بانشي النائحة ([26]). وبالطبع لم يتمهل السيد كويليب لوهلة، وانقض مباشرةً على مذكي النيران الذي لا يخطئ هدفه، وبعد بعض المراوغات، والتربص والترصد، إنهال بإطراءات لا لبس فيها على صديقه الصغير، الذي إختفى متعجلًا، وتركه في هدوء حيازته للساحة كاملة.
قال القزم مثلج الأعصاب: "حسنا! تخلصت من تلك المهمة الصغيرة، والآن حان الوقت لأقرأ خطابي". قال متمتمًا وهو ينظر إلى ما بين يديه: "همف! حريٌّ بي أن أعرف الراسل من طريقة الكتابة.. إنها سالي الجميلة!".
فتحه، وقرأ ما كُتب بطريقة معتدلة قانونية، وقد تضمن ما يلي:
"لقد وشى بنا سامي، وخان الثقة، وانكشف كل شيء على الملأ. يجب عليك ألا تظهر في أي مكان؛ لأن الغرباء سيبلغون عنك، لا مفر. لقد أتموا كافة الإجراءات في هدوء تام؛ معتزمين عنصر المفاجأة. لا تضيع وقتًا.. أنا لم أفعل. لن يجدوني في أي مكان. لو كنت مكانك، كنت سأفعل المثل "س.ب" "ب.م".
يذكر أن وصف التعبيرات التي حاقت بوجه كويليب، بينما كان يقرأ هذا الخطاب لنصف دستة من المرات المتتابعة، سيتطلب الإستعانة ببعض اللغات الجديدة؛ فلا يذكر أن قوة تعبيرات وجهه قُرأت أو كُتبت أو سُمعت أو تحدث عنها أحد من قبل.
لفترة طويلة، لم ينطق بكلمة واحدة، وبعد إنقضاء مدة غير هينة، أصيبت خلالها السيدة كويليب بشلل ونظرات ذعر تسبب فيها مظهره، لفظ لاهثًا:
- لو كنت أَحتكم عليه هنا.. لو كنت أحتكم عليه هنا -".
قالت زوجته: "أوه! ما الأمر يا كويليب؟ ممن أنت غاضب إلى هذا الحد؟".
قال القزم، دون أن يلتفت إليها: "لكنتُ أغرقته، وسلمته إلى الموت، بسرعة ودون أن أستغرق أي وقت - لكن النهر قريب. أوه لو كنت أحتكم عليه هنا! لكنت أخذته إلى حافة الهاوية بتودد ولطف - أمسكه من عروة معطفه - كأني أمزح معه - ثم بدفعة واحدة مفاجئة، أطيح به ويتهشم

بالأسفل! يقولون إن الغارقين يطفون على سطح الماء ثلاث مرات. آه! أن أراه بعد موته ثلاث مرات، وأمثل بوجهه المتماوج في الماء مع لكماتي.. أوه! يا لها من متعة مترفة!".
قالت زوجته متلجلجة، وقد جسرت على لمس كتفه: "قل لي ما الخطب يا كويليب؟
بدت مرتاعة مرعوبة من رد فعل كويليب كما تبيَّن استمتاعها بالسرور الذي صوره لنفسه؛ لقد إستطاعت بالكاد أن تجعل نفسها مفهومة.
فرك كويليب يديه في بطء شديد، ثم ضغط عليهما معًا بشدة وقال: "يا له من خسيس عديم الدم! ظننت أن جبنه وخنوعه هما أفضل ضمان لالتزامه بالصمت. آه يا براس! آه يا حبيبي! يا صديقي الحسن الحنون المخلص المجامل الساحر - لو كنت أحتكم عليك هنا!".
جسرت زوجته على الإقتراب منه مرةً أخرى، بعد أن تراجعت خشية أن يبدو عليها استمتاعها بتلك الغمغمات الكمدة، كانت على وشك التحدث معه ثانيةً، لكنه انطلق نحو الباب، ونادى على توم سكوت، الذي تذكر فظائع ما قيل له والتحذيرات الودية التي انهالت على مسامعه، ورأى أن من الحكمة الظهور في الحال والمثول أمامه.
اجتذبه القزم إلى الداخل وقال: "تعال! خذها إلى المنزل ولا تأتِ إلى هنا غدًا، سوف يُغلق هذا المكان. أقول لك: لا تعد إلى هنا على الإطلاق، حتى سماع إشعار آخر مني أو تراني أبلغك. هل تفهم ما
أقول؟".
أوما توم في عبوس، واستدعى السيدة كويليب، ليرشدها على السبيل الذي ستسلك.
قال كويليب يخاطبها بنفسه: "أما بالنسبة لكِ، فلا تسألي عني بتاتًا، ولا تبحثي عني مطلقًا، ولا تتفوهي ببنت كلمة تخصني. إذا كان هذا سيريحكِ أيتها المغناج رديئة السمعة، لن أكون ميتًا أيضًا.
- لكن يا كويليب؟ ما الخطب؟ أين ستذهب؟ ألن تقول شيئًا آخر؟
شدها كويليب من ذراعها وأحكم إغلاق قبضته وقال: "بلى من الممكن أن أقول وأفعل أشياء أخرى.. لكن عدم القول في صالحكِ، إذا مشيتِ من أمامي في الحال".
صاحت زوجته: "هل حدث أمر يستدعي كل هذا؟ أريد أن أعرف فقط ماذا حدث.. هل ستخبرني؟".
زمجر القزم وقال: "نعم.. حدث! ولا.. لن أخبركِ - بماذا تهم معرفتكِ؟ لقد أخبرتكِ بما يتوجب عليكِ فعله، لأنكِ إذا لم تفعلي، أو عصيتِ أمري ولو بقدر سُمك شعرةٍ، فيا ويلكِ ويا سواد أيامكِ وليلكِ! ها! هل ستذهبين الآن؟".
قالت زوجته متلعثمة: "نعم سأذهب يا كويليب.. سأذهب مباشرةً وفي الحال.. لكن.. أجبني على سؤال واحد فقط. هل مضمون هذا الخطاب له أي علاقة بعزيزتي الصغيرة نيل؟ يحتم عليَّ الأمر أن أسألك.. يلزمني الحال بالإستفسار منك يا كويليب. إنك لا تتخيل الأيام والليالي التي قضيتها منتحبة في حزن لخداعي للطفلة تلك المرة. إنني لا أعرف أي ضرر قد ألحقته بها. مهما قل شأنه أو عظم سيبقى ضررًا، وقد فعلتُ ما فعلتُ من أجلك يا كويليب. إن ضميري يزداد في تأنيبي. لقد ضللتني نفسي حينما ارتكبتُ ذلك الفعل. لذا، هل من الممكن أن تجيبني على سؤالي إذا سمحت!".

لم يَرُدَّ القزم الغاضب المتجهم بأي رد، سوى أنه إلتفتَ منتزعًا سلاحه المعتاد بعنف غليل، فانتفض توم من فوره ساحبًا ما كلف بإبعاده سابقًا، بمنتهى القوة وبأسرع ما يمكنه. كان ما فعله حميدًا؛ فقد تبعهما كويليب بشر متقد وبأعين تقدح جنونًا حتى الزقاق المجاور، وكاد أن يطيل المطاردة لما هو أبعد من ذلك، لولا أن الضباب الكثيف غيبهما، وحجبهما عن الرؤية، وبدا أنه يتكاثف أكثر فأكثر مع مرور كل لحظة.

قال بينما يعود أدراجه في تروٍّ، مستردًا أنفاسه من بعد الجري: "ستكون ليلة جيدة للسفر خفية، دون إكتشاف أي أحد للهوية وسط هذا الركام الضبابي. مهلًا! ربما البقاء هنا أفضل. ستكون الإقامة حسنة الوفادة ومجانية تمامًا".

استجمع قوته، وبمجهود كبير، أغلق البوابتين القديمتين، اللتين كانتا مغروستين في الوحل، وأحكم غلقهما بعوارض ثقيلة. ثم حرك رأسه وهز شَعره المتعقد أمام عينيه، ثم أعاده بقوة وبسرعة.

قال القزم بعد أن اتخذ هذه الإحتياطات: "من السهل تسلق السور بين هذا الرصيف والرصيف التالي، علاوة على وجود ممر خلفي أيضًا يفضي إلى هنا. حريٌّ بي أن يكون هذا طريق رحيلي من هنا. يجب أن يكون الرجل على دراية كاملة بالطريق الذي سيسلكه، ليتمكن من أن يمضي الليلة في هذا المكان الجميل. حسب ما أظن، لست في حاجة إلى إخافة أي من الزائرين غير المرغوبين، ما دام هذا الأمر قائمًا". ألحت الضرورة بتلمس طريق عودته بيديه؛ فقد هبط الظلام، وتكاثف ركام الضباب، عاد إلى وكره، وبعد التحديق في النيران لبعض الوقت، إنكب على إتخاذ التحضيرات اللازمة لرحيل سريع. طوال ما كان يجمع حاجياته، ويدس أغراضه في جيوبه، لم يتوقف لوهلة عن التمتمة إلى نفسه بصوت خافت، أو الكز على أسنانه، التي كاد أن يجرشها ببعضها عندما أنهى قراءة خطاب الأنسة براس.

قال مدمدمًا: "آه يا سامبسون! كم أنت مخلوق فاضل وجيه جيد! - لو كان باستطاعتي فقط أن أطوقك، وأضمك إليَّ، وأعتصر ضلوعك بين ذراعيَّ، لو كنت أحتكم عليك ولو لمرة واحدة - يا له من لقاء سيجمعنا! - إذا صادف واجتمعنا معًا مرةً أخرى يا سامبسون، صدقني! سأرحب بك ترحيبًا حارًا، لا يمكن لك أن تنساه طوال حياتك، في ذلك الوقت وتلك اللحظة يا سامبسون، حينما مضى كل شيء على ما يرام، ورأيتك المختار اللطيف! كم كنت فطنًا صبورًا بارعًا! أوه! لو نتقابل وجهًا لوجه مرةً أخرى في هذه الغرفة، يا رعديد القانون، يا أجبن المحامين، كم سنكون في غمار الرضى!".

بالوصول إلى هنا، توقف، ورفع وعاء نبيذ البنش إلى شفتيه، وشربه جرعة طويلة واحدة، كما لو كان ماءً فاترًا يروي فمه الجاف. وضعه فجأةً، ومن ثم شرع في استكمال تحضيراته، وواصل حديثه المنفرد.

قال، وعيناه تقدحان شررًا: "وها هي سالي! المرأة ذات الروح والعزيمة، المثابرة على أهدافها - هل كانت نائمة أم متحجرة في مكانها؟ كان بإمكانها طعنه.. تسميمه.. إرقاده في سلام. ربما تراءى لها كل ذلك، وكانت على علم به. لماذا تبعث إلي خطابًا الآن وتنبهني وقد فات الأوان؟ عندما كان جالسًا هنا – أو هناك أو في أي مكان كان.. بوجهه الشاحب وشَعره الأحمر، وابتسامته السمجة، لماذا لم يتراء لي أن أخترق قلبه، وأعرف ما يُكِنُّه؟ لماذا لم أتوقف عن الضرب تلك الليلة، إذا كنت عرفت سره، ألم يكن هناك أي عقار يخمده لينام، أو نار تحرقه!".

إلتقط الوعاء مرة ثانية، وتجرع جرعة أخرى، ثم جثم أمام النيران بهيئة ضارية تضمر شرًا، وتمتم إلى نفسه مرةً أخرى:
"إنها مشكلة مثل كل المشاكل التي تقع على عاتقي في الآونة الأخيرة، بسبب العجوز الخرف وطفلته المحبوبة - هذان المتجولان المشردان الضعيفان! حسنًا! سأكون لهما الروح الشيطانية التي تحوم حولهما. وأنت يا كيت! كيت العزيز، كيت الأمين الخلوق، كيت البريء.. انظر إلى حالك. كم أكرهك! كم أود أن أعضك! كم أكرهك فعلًا ولسبب وجيه يا رفيقي المحبوب، إنني فخور بمقدارك الليلة.. وقد حان دوري أيه.. ما هذا؟".
كانت طرقات على البوابة التي أغلقها، طرقات مدوية وعنيفة. لكنَّ صمتًا تبعها، كما لو أن طارقيها قد توقفوا؛ ليستمعوا. ثم دوى الصخب مرةً أخرى، لكنه أكثر إلحاحًا وضجة من ذي قبل.
قال القزم: "يا لهم من متعجلين متلهفين! أخشى أن أخيب آمالكم. أنا على أهبة الإستعداد للرحيل.. شكرًا جزيلًا لكِ يا سالي!".
بينما كان يتحدث، أطفأ الشمعة. وبمحاولات متهورة ليخفت وهج النيران، جلس على المدفأة، التي تمايلت على الفور إلى الأمام، فهبط من توه مصطدمًا بالجمر المحترق الذي نُثر حين سقوطها، وترك الغرفة في ظلام حالك. بينما لا تزال الطرقات الصاخبة مدوية على البوابة، تلمَّس طريقه إلى الباب، وخطى نحو الخارج.
في تلك اللحظة، توقفت الطرقات. على الرغم من أن الساعة كانت حوالي الثامنة مساءً كان الظلام شديدًا، كانت أكثر الليالي حلكة مقارنةً بتلك الليلة تكاد تكون ظهيرة يوم مشمس؛ بسبب السحابة الضبابية الكثيفة التي استقرت فوق الأرض، وحجبت كل شيء عن الرؤية. إندفع إلى الأمام بضع خطوات، ثم بدا كما لو كان قد ابتُلِع داخل فوهة مغارة قاتمة، حينها ظن أنه ضل طريقه، فغير إتجاه خطواته، ثم توقف في مكانه، لا يعرف أي إتجاه يجب عليه أن يسلك.
قال كويليب، محاولًا النظر - عبر السحب الداكنة التي حامت حوله من كل إتجاه: "لو يتسنى لهم أن يطرقوا مرة أخرى.. سيوجهني الصوت إلى طريقي لا محالة.. هيا! اطرقوا بعنف على البوابة مرةً أخرى!".
ظل ثابتًا في مكانه وكله آذان صاغية، لكن الصخب لم ينبعث مطلقًا. لم يكن هناك أي صوت مسموع في تلك البقعة المهجورة، سوى أصداء نباح كلاب، تعلو على فترات. كانت تلك الأصداء بعيدة، تصدر مرة من ذلك الزقاق، ثم يتم الرد عليها من زقاق آخر، لكن لا صوت منها يمكن له أن يرشده إلى إتجاهه؛ غالبًا ما كانت تصدر من على متن السفن، كما تبين.
قال القزم، بينما يمد يديه على إمتداد ذراعه، ويسير بتروٍّ ، متلمسًا طريقه: "لو كان بإمكاني العثور على أي جدار أو سور، سأعرف من توي أي إتجاه يجب عليَّ أن أسلك. ليلة سوداء شيطانية رائعة، كم أود لو كان صديقي العزيز هنا! وإن كانت هذه هي أمنيتي الوحيدة طوال حياتي، ومقابل أي شيء عزيز، لم يكن ليرى ضوء النهار مرةً ثانية".
عندما خرجت تلك الكلمة من بين شفتيه ترنح وسقط، وفي اللحظة التالية كان يصارع الماء الداكن المثلج.
على الرغم من خرير الماء وبقبقة الفقاعات في أذنيه، إستطاع أن يسمع أصوات الطرقات على البوابة بكل وضوح، وسمع صياحًا تلاها، واستطاع تمييز الأصوات. على الرغم من تلاطماته

وصراعاته في الماء، تمكن من إستيعاب أنهم ضلوا طريقهم، وقد عادوا مجددًا إلى النقطة التي إنطلقوا منها، وأنهم طوال ذلك الوقت كانوا ينظرون تجاهه، بينما يغرق، وعلى الرغم من قربهم منه، لا يمكنهم بذل أي جهد لتقديم يد العون له لإنقاذه، ربما هو من أبعدهم وأغلق عليهم، واحتجزهم خارجًا بالعوارض الثقيلة. أجاب على الصياح بصرخة، يكاد بسببها أن تتراقص مئات من شعلات النيران، كأن عاصفة قد هبت عليها على حين غرة. لكن مسعاه خاب، وكانت صرخته دون جدوى؛ فقد ملأ المد الجارف حنجرته، وحمله مع تياراته السريعة.

عانى صِراعًا مميتًا آخر، حتى طفا ثانيةً على سطح الماء، يلاطم بيديه الأمواج، ينظر بعينين متوحشتين متقدتين، وقد كشفت له عن جسم أسود، كان ينجرف بالقرب منه. إنه هيكل سفينة. تمكن من لمس سطحها الأملس الزلق بيديه. ومع انتوائه الصياح بصرخة عالية ثانية، باتت بلا جدوى، فقد غمرته المياه، دون إعطائه أي فرصة للصراخ، وطوته إلى داخلها، وسحبته أسفل السفينة، وحملته كجثة هامدة.

لعبت بذلك الحِمل المروِّع، تتقاذفه بين أمواجها، تطوح به مرة على مواسير لزجة، وتغطيه مرةً أخرى بالوحل وتطوقه بالعشب الطويل، تسحبه إلى أحجار خشنة بعنف مرة، وتصفعه بالحصى مرةً أخرى، تتظاهر بأن لا تأثير لها عليه، تتركه حر نفسه، وفي اللحظة ذاتها، تلقيه بعيدًا، حتى سلمت أخيرًا من دميتها القذرة، فلفظته في مستنقع راكد - مكان موحش حيث يتأرجح فيه القراصنة على سلاسل خلال ليالٍ شتوية كثيرة، وتركته هناك شاحبًا.

رقد هناك وحيدًا جثةً هامدة. وقد توهجت السماء بشعلة حمراء، ولمعت تموجات المياه التي حملته إلى هناك بضوء كئيب على مرمى البصر. وصار المكان الذي رحل منه، وهو رجل حي منذ قليل، خرابًا مشتعلًا. لاح بانعكاس من وهج على وجهه.. يتحرك شعره بنسمات فاحمة كئيبة، تعبث به ساخرة من الموت - كان عبثًا كاد أن يسعد به الرجل الميت إذا كان على قيد الحياة -، يهتز رأسه، ويرفرف لباسه في فتور في الرياح الليلية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثامن والستون

غرف مضاءة، ونيران وهاجة، ووجوه متألقة بالبهجة والسرور، وأنغام أصوات متهللة بالسعادة، وكلمات حب وترحيب، وقلوب دافئة، ودموع الفرحة - يا له من تغيير! يا لها من فرحة يتلهف عليها كيت! جالسون في إنتظاره، ويخشى هو أن توافيه المنية من فرط السعادة، قبل أن يصل إليهم.

طوال اليوم سعوا لتهيئته نفسيًّا. أخبروه في البداية أنه لن يتم ترحيله مع البقية في الغد. وتدريجيًّا أحاطوه علمًا بالشكوك التي أثيرت، وتطلبت إجراء التحقيقات، ثم أخبروه بعد كل هذا، أنه ربما يتم العفو عنه. وأخيرًا، في مساء ذلك اليوم، أحضروه إلى غرفة إجتمع فيها بعض السادة، كان أهم من بينهم هو سيده العجوز الطيب، الذي اصطحبه يدًا بيد. حينما سمع أن براءته قد ثبتت، وتم الإعفاء عنه. لم يستطع رؤية المتحدث، لكنه إلتفتَ إلى الصوت، وفي محاولة منه للإجابة على النطق بالحكم النافذ، خر مغشيًا عليه.

أعادوه إلى وعيه مرةً ثانية، وأخبروه أنه يجب أن يكون متماسكًا، ويتعامل مع الموقف كالرجال. قال أحدهم: إنه ربما يفكر في والدته المسكينة؛ لطالما كان يفكر فيها كثيرًا، وأن الأخبار السعيدة تغلبت عليه بإفراط. تجمهروا حوله؛ وأخبروه أن الحقيقة غزت الأجواء في الخارج، وأن أهل المدينة والريف يناصرونه ويتعاطفون مع محنه. لكنه هائم، لم يكن مستمعًا لما قيل؛ حتى الآن، لم تسع أفكاره حيزًا أكبر من نطاق منزله. هل تعرف؟ ماذا قالت؟ من أخبرها؟ ولم يكن ليتلفظ بأي كلمات أخرى.

أعطوه قليلًا من النبيذ، ولبعض الوقت، تحدثوا معه بحنو وعطف، حتى إستعاد رباط جأشه، واستطاع سماعهم، فلبث يشكرهم. أصبح الآن حرًّا للعودة إلى الديار، قال السيد جارلاند: إنه إذا كان يشعر بتحسن، فقد حان وقت الرحيل. تجمع السادة حوله، وصافحوه مهنئين. أعرب عن جزيل إمتنانه لإهتمامهم به، وشكرهم على الوعود الكريمة التي قطعوها، لكن قوته على الحديث تلاشت مرةً أخرى، وبالكاد إستطاع أن يقف على قدميه متعثرًا مترنحًا محدثًا صخبًا عارمًا، على الرغم من إتكائه على ذراع سيده.

بينما كانوا يمرون عبر الممرات الكئيبة، هنأه بعض ضباط السجن على إطلاق سراحه بطريقتهم الحادة القاسية ذاتها. كان من بينهم ناقل الأخبار، لكن طريقته غمرها الجفاء، فقد شاب الغموض مجاملاته. نظر إلى كيت على أنه متسلل، مثل مَن نال القبول في ذلك المكان بناءً على حجج واهية مغلوطة، وتمتع بامتياز من دون أن يكون كامل الأهلية. إعتقد أنه ربما يكون شابًا صغيرًا جيدًا، لكن لا مكان له هناك، وكلما كان رحيله مبكرًا، كلما كان أفضل.

أُغلق الباب الأخير خلفهم. إجتازوا الجدار الخارجي، أمسوا واقفين في الهواء الطلق. وقد تمثلت أحلامه كلها في ذلك المشهد؛ لطالما تصور نفسه هكذا، عندما كان محاطًا بالأحجار المغمة الموحشة. بدا له الشارع شاسعًا، أكثر إتساعًا، مثيرًا للفضول مما كان عليه من قبل. على الرغم من أن الليلة كانت سيئة ضبابية، بدت في عينيه مرحة مثالية! وعند رحيله، دس أحد السادة في يده بعض النقود. لم يعدها، وعندما تقدم بضع خطوات من بعد قفص سجناء مساكين، شخص إليه من فوره؛ وألقاها فيه دون هوادة.

كان في إنتظار السيد جارلاند عربة في الشارع المجاور، إصطحب معه كيت إلى داخلها، ودعا الحوذي للإنطلاق، في بداية مضيهم في الطريق، فُرض عليهم السير بنوانٍ، وتوجيه المشاعل أمامهم، بسبب الركام الضبابي الكثيف. لكنهم عندما إبتعدوا عن النهر، مخلفين أطراف المدينة، إستطاعوا الإستغناء عن إحتياطاتهم، ومضوا قدمًا بمعدل أسرع. في هذه الحالة، حتى الركض السريع بالنسبة إلى كيت سيكون بطيئًا جدًّا، عندما إقتربوا من وجهتهم، وقاربت المسافة على الإنتهاء، توسل إلى سيده؛ ليتمهلوا أكثر، ويسيروا ببطء، وعندما لاح المنزل في الأفق، توقفوا لمدة دقيقة أو دقيقتين لمنحه بعض الوقت كي يضبط أنفاسه.

"لا مجال لتوقف آخر"، يحادثه السيد العجوز بقوة، أسرعت الخيول في ركضها، وفي دقيقة كانوا أمام بوابة الحديقة، وفي الدقيقة الأخرى، أمام الباب. تعالت أصوات الألسنة، إرتفعت أصوات وقع الأقدام بالداخل، فُتح الباب. إندفع كيت، ووجد والدته بين ذراعيه تحتضنه.

وجد والدة باربرا المخلصة النقية أيضًا، لا تزال تحمل الرضيع، كأنها لم تنزله أبدًا عن ذراعها، منذ ذلك اليوم الحزين، الذي لم يتمنوا فيه أي شيء أكثر من السعادة التي يعيشونها الآن، كانت - فلتباركها السماء - عيناها تفيضان بالدموع، تبكي كما لم تبكِ أي امرأة من قبل. وجد باربرا الصغيرة - باربرا الصغيرة المسكينة - أكثر نحافةً وشحوبًا، ومع ذلك بدت جميلةً جدًّا، كانت ترتجف كورقة شجر، تسند نفسها إلى الحائط. وجد السيدة جارلاند، أكثر جمالًا وأناقة من أي وقت مضى، مغشيًّا عليها لا تحرك طرفًا، دون مساعدة من أحد. وجد السيد هابيل، يتنفس بعمق، ويعلو صفير زفيره، باديًا عليه حماسه، يريد أن يحتضن الجميع. وجد الرجل الأعزب، يتنقل كما لو كان حول الجميع محلقًا، لا يثبت في مكانه للحظة. رأى جايكوب الصغير العزيز الوقور عميق التفكير، يجلس على المقعد الصغير بمفرده، يضع يديه على ركبتيه كرجل كبير، يصرخ في خوف دون أن يسبب لأي أحد إزعاجًا على الإطلاق، تشملهم جميعًا السعادة، يغالون في الفكاهة، يرتكبون جماعة وكل واحد على حدة جميع أنواع الحماقات.

عندما إستعاد الجميع رصانة إنضباط النفس مرةً أخرى، وصار بإمكانهم الحديث في إعتدال وتبادل الإبتسامات الهادئة، فجأةً! حادت عن سلوكهم باربرا - باربرا الصغيرة رقيقة القلب اللطيفة الحمقاء - ووجدوها مغشيًا عليها في آخر الردهة، ومن الإغماء رزحت في نوبة هستيرية، ومن النوبة الهستيرية خرت مغشيًّا عليها مرةً أخرى، لكنه كان إغماء أشد وطأة، وبعد استنفاد كميات هائلة من الخل والماء البارد، بالكاد إستعادت وعيها، وأمست في النهاية أفضل قليلًا مقارنةً بما كانت عليه في أول الليل. ومن ثم دخلت والدة كيت، وهي تقول هل سيأتي كيت ويتحدث إليها، وأجاب كيت من توه: "نعم بالطبع". وذهب، قال بصوت حنون: "باربرا!". وقالت لها والدة باربرا: "إنه كيت"، ومن ثم قالت باربرا نفسها - وعيناها طوال الوقت مغلقتان -: "أوه! هل هو كيت فعلًا؟". وقالت والدة باربرا: "نعم يا عزيزتي وبكل تأكيد، لا داعي لأي قلق الآن". علاوة على ذلك ومن أجل تأكيد إضافي يضمن لها أنه آمن وسليم، تحدث إليها كيت مرةً أخرى، وإذ بباربرا تنتابها نوبة هستيرية ثانية، تبالغ في الضحك، ثم تنخرط في البكاء، وتتبادل والدة باربرا مع والدة كيت الإيماءات، ثم تتظاهر بأنها توبخها - لكن فعلها كان من أجل إعادتها أسرع لرصانة النفس - باركك الرب! - ولأنهما مربيتان ذواتا خبرات، تدركان جيدًا أول أعراض الإفاقة، طمأننا كيت وأكدتا له بـ: "إنها الآن على وشك الإفاقة"، ومن ثم أبعدتاه عن المكان، وأعادتاه من حيث أتى.

حسنًا! في ذلك المكان - الذي كان الغرفة المجاورة - تم تحضير إناء نبيذ، وجميع أنواع اللوازم الإحتفالية الأخرى، بفخامة جليلة، كما لو كان كيت وأصحابه شراكة من الدرجة الأولى، وإذا كنت ستصدق، كان جايكوب الصغير يمشي - كما توضح العبارة حرفيًا - يمشي في كعكة برقوق بيتية، بأكثر الخطوات إثارةً للدهشة، ويراقب بعينيه التين والبرتقال ينتظر إتباعهما له، مستثمرًا وقته أسعد إستثمار. وبمجرد أن دخل كيت، دهق السيد الأعزب الكؤوس - لم يكن السيد منشغلًا في تلهف إلى هذا الحد من قبل - شرب نخبه، وأخبره أنه بالأحرى لم يعرف صديقًا أبدًا طوال حياته، وفعل السيد جارلاند بالمثل، ثم السيدة جارلاند، والسيد هابيل أيضًا. لكن كل هذا الشرف والإحترام الذي ناله لم يكن كل شيء؛ فقد أخرج السيد النبيل من جيبه ساعة فضية ضخمة، بسرعة وفي أقل من نصف الثانية، تبين أنه محفور على ظهر هذه الساعة اسم كيت، مزخرفًا في كل مكان، باختصار كانت ساعة من أجل كيت، وقدمها إليه في لمح البصر. وبالتزامن مع هذا، يمكنك أن تطمئن حيال مستقبله، فلم يتوان السيد والسيدة جارلاند عن ذكر تلميحات خاصة بعمله في القريب العاجل، إضافةً للسيد هابيل الذي لم يتمهل للحظة وأخبره إجمالًا أنه يحتاجه، بدا كيت كأسعد السعداء.

ظل هناك صديقًا، لم يره بعد، ولأنه لا يمكن إدخاله بشكل ملائم في حلقة الأسرة؛ بسبب حدواته الحديدية الأربع، لذا إنطلق كيت من توه، حينما أُتيحت له أول فرصة، وأسرع إلى الحظيرة. في اللحظة الأولى التي وضع فيها يده على المزلاج، صهل المهر صهيلًا فرحًا، قبل أن يخطو على العتبة، خبَّ المهر في قفصه متمتعًا بالحرية دون قيد - لأنه لا يحتمل إهانة الرسن - في جنون متلهفًا يرحب به، وحينما اقترب منه كيت، وربت عليه ولاطفه، حك المهر أنفه على معطفه، وداعبه بمودة أكثر من أي مهر داعب صاحبه من قبل. إنها الحالة المتوجة لإستقباله المؤنس الخالص، لف كيت ذراعيه حول رقبة ويشكر، واحتضنه.

ولكن كيف أتت باربرا إلى هناك؟ وكيف بدت نشطة مفعمة بالحيوية مرةً أخرى بتلك السرعة؟ فقد كانت ترتشف كأسها منذ أن إستعادت وعيها. كيف أتت باربرا إلى الحظيرة فضلًا عن الجميع؟ لماذا لم يتناول المهر طعامه من أي أحد غيرها منذ أن رحل كيت بعيدًا؟ - فكما ترى، لقد أتت باربرا من تلقاء نفسها، لم تحلم أبدًا بوجود كريستوفر هناك؛ مجرد أنها أتت لتطمئن أن كل شيء على ما يرام، دون أي علم أنه هناك.. كم احمرت باربرا خجلًا!

ربما لاطف كيت المهر بما فيه الكفاية، ربما كان هناك من يستحق الملاطفة أكثر من المهور، على كل حال، ترك المهر لباربرا، وتمنى أن تكون في حال أفضل. نعم! لقد تحسنت حالة باربرا كثيرًا. قالت: إنها تخشى أن يحسب أنها حمقاء بسب تصرفاتها - وها هي باربرا تنظر إلى الأسفل وتحمرُ خجلًا أكثر فأكثر -، ويقول كيت: "لا! لم أحسبك كذلك على الإطلاق". تفرح باربرا بما قاله، وتتنحنح: "احم!". بتنحنح رقيق قدر الإمكان، ليس أكثر من ذلك. كم يكون المهر نبيهًا متعقلًا عندما يشاء! يقف هادئًا ثابتًا كما لو كان تمثالًا من رخام. وتكون لديه نظرة أليفة للغاية. يقول كيت: "لم يتسنَّ لنا الوقت للمصافحة يا باربرا". تتقدم باربرا، وتمد إليه يدها.. حسنًا! إنها ترتجف الآن! باربرا المرتجفة الحمقاء!

هل كانا واقفين على إمتداد الذراعين؟ حتى إمتداد الذراعين لم يكن مسافة طويلة. لم يكن ذراع باربرا طويلًا على الإطلاق، إضافةً إلى أنها لم تمد ذراعها بشكل مستقيم كليًا، بل ثنتها قليلًا. كان كيت قريبًا منها جدًّا، عندما تصافحا بالأيدي، واستطاع أن يلمح دمعة صغيرة تترقرق في عينيها،

وتتمايل على رمشها، كان من الطبيعي أن يحدق إليها بناظريه. ومن التلقائي أن ترفع باربرا عينيها دون وعي، لترى أنه يحدق إلى عينيها. هل من الطبيعي عندما حانت تلك اللحظة، ومن دون نية مسبقة، أو تحضير سالف، أن يقبّل كيت باربرا؟ على العموم، لقد فعل، سواءً كان أم لم يكن. قالت باربرا: "أوه! يا للهول!". لكنها على أي حال سمحت له بأن يقبلها - مرتين. كاد أن يجعلها ثلاث مرات، لولا أن المهر رفس بكعبه هازًّا الرأس، كما لو أن فرحة هستيرية غمرته فجأةً، ولأن باربرا خافت، جرت بعيدًا من فورها، لم تتجه مباشرةً حيثما كانت والدتها ووالدة كيت جالستين؛ خشية أن تلاحظا مدى إحمرار وجنتيها، فتسألانها عن السبب بكل تأكيد.. باربرا الماكرة!
عندما هدأت الحماسة المفرطة الأولى للمجتمعين كلهم، تناول كيت ووالدته وباربرا ووالدتها وجايكوب الصغير والرضيع - الذي يركل كل شيء - العشاء معًا - لا مزيد من الجري أو الفرار - بدوا كما لو كانوا سيلبثون هناك طوال الليل - دعا السيد جارلاند كيت، واصطحبه إلى غرفة، تسنح لهما أن يكونا على انفراد، وأخبره أن هناك أمرًا يريد إخباره به، وربما سيفاجئه كثيرًا. بدا كيت شاحبًا مضطربًا فاغر العينين عند سماعه ذلك، فلم يتوان السيد العجوز عن إضافة أن عليه أن يُهدِّئ من إنفعالاته، وسأله إذا كان مستعدًا للإنطلاق في رحلة في صباح اليوم التالي.
صاح كيت: "هل تقول رحلة يا سيدي؟ أي رحلة؟".
- نعم، رحلة! وستكون بصحبتي وصحبة صديقي الجالس في الغرفة المجاورة. هل من الممكن أن تخمن غرض الرحلة؟
بهت كيت أكثر، وهز رأسه بالنفي.
قال سيده: "بلى.. أظن أن الإجابة تدور في رأسك الآن.. هيا! حاول".
تمتم كيت بكلمات غير مفهومة وبصوت مذبذب، تمكن في النهاية من لفظها بوضوح قائلًا: "الآنسة نيل". لثلاث أو أربع مرات، يهز رأسه بينما يكرر قوله، كما لو كان يُكذب نفسه، ويُقنعها بأن لا وجود لأي أمل في هذا. لكن السيد جارلاند بدلًا من أن يقول: "لا! حاول مرة أخرى". أخبره بجدية تامة، أن تخمينه قد أصاب. قال: "لقد عثرنا على مكان إقامتها أخيرًا.. وإيجادها هو نهاية رحلتنا"، لفظ كيت وابلًا من الأسئلة المتتابعة متلعثمًا منها: أين كانت؟ كيف عثرتم عليها؟ منذ متى؟ هل هي على ما يرام؟ هل هي سعيدة؟ قال السيد جارلاند: "إنها سعيدة بلا شك.. وأعتقد أن... أنها ستكون أفضل حالًا في القريب العاجل. لقد كانت عليلة واهنة، كما عرفت، لكنها الآن أفضل حالًا كما بلغني هذا الصباح، والجميع مفعم بالأمل. إجلس، وسوف تسمع البقية".
بالكاد إلتقط كيت أنفاسه، وفعل كما قيل له. ثم أوضح له السيد جارلاند أن له أخًا - ربما سمعه يتحدث عنه من قبل، وأن له صورة معلقة في الغرفة المميزة، قد إلتقطت له عندما كان صغيرًا - عاش في الريف بعيدًا، مع كاهن، كان له صديق منذ وقت طويل. أوضح له كيف يحب أحدهما الآخر كإخوة يجمع بينهما رباط قوي، لكنهما لم يتقابلا منذ سنين عديدة، وعلى الرغم من ذلك لم ينقطعا عن الإتصال ببعضهما، إعتادا على إرسال خطابات من وقت لآخر، يأملان أن يحين الوقت الذي يتصافحان فيه مرةً أخرى، ولا يزالان يسمحان للوقت أن يسرقهما، وأنها عادة الرجال في الدنيا، يكابدون المستقبل ليذوبوا في الماضي. أوضح له كيف أن أخاه رجل سليم الطوية هادئ الطبع وخجول - مثله مثل السيد هابيل - وكم هو محبوب بين الناس البسطاء الذين يعيش ويتعامل معهم، وأنهم دائمًا ما يوقرون العازب حامل البكالوريا - كما يدعونه - وأن كل واحد منهم نال من محامد إحسانه وأعماله الخيرية. أوضح له أن تلك الأحوال البسيطة عرف

بها ببطء وعلى مر السنوات؛ فالعازب حامل البكالوريا واحد من الأشخاص الذين يبعدون إحسانهم عن النور، ممن يسعدون حين إكتشاف وتمجيد أعمال خير الآخرين أكثر من إعلانهم عن أعمالهم، مِمَّن ينكرون ذاتهم، ويرفضون الثناء. لذلك نادرًا ما كان يذكر له أصدقاء القرية، ولكنه على حين غرة، صار مولعًا على وجه الخصوص باثنين منهم - طفلة ورجل عجوز، وكم كان لطيفًا جدًّا معهما، وأن الخطاب الأخير الذي أرسله إليه قبل بضعة أيام، منذ استهلاله حتى نهايته يتحدث عنهما، أخبره عن حكاية تجوالهما، وحبهما الشديد لبعضهما، أوضح له أن فئة قليلة يمكن لها أن تقرأ حديثه عنهما دون أن تغرورق أعينهم بالدموع. أوضح له كيف برق إلى عقله، من توه، إعتقاد أنهما ربما يكونان هما من يقصدونهما، من بحثا عنهما كثيرًا، من قادتهما عناية السماء لرعاية أخيه. أوضح له كيف أن ما كتبه من معلومات تلقاها هذا الصباح، ثبتت جميع شكوكه، وجعلت إعتقاده الأولي يقينًا مؤكدًا، وأنها السبب المباشر لهذه الرحلة الطارئة، التي حسم موعد إنطلاقها على أن يكون في الغد الباكر.

قام السيد العجوز، ووضع يده على كتف كيت وقال: "إلى أن يحين الموعد، عليك أن تنال أكبر قسطًا من الراحة؛ فرحلة الغد مرهقة لأقوى رجل.. ليلة سعيدة.. ولتشملنا السماء برحماتها وتغدق علينا بنيل مقصدنا في نهاية رحلتنا!".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل التاسع والستون

في صباح اليوم التالي، لم يعرف الكسل طريقًا إلى كيت، فمنذ أن نهض عن سريره، عكف على القيام بكافة التحضيرات اللازمة؛ استعدادًا لرحلته المرحب بها. ما برحت الوتيرة السريعة التي مرت بها أحداث الأمس، إضافةً للأخبار غير المتوقعة التي سمعها في الليل، مقلقةً لمنامه طوال ساعات الليل الحالكة، تزحم رأسه المستند على وسادته بأحلام ترتقب شرًّا، فصار نهوضه له أفضل.

ماذا لو كانت بداية لكد، له نفس النهاية المصورة له! ماذا لو كانت إبتداء لرحلة طويلة في ذلك الفصل العاصف من السنة، تُستكمل على قدم وساق في ظل بؤس مدقع وصعوبات شاقة، ولا تنجز إلا بمعايشة ضيق ووهن ومعاناة! ماذا لو كانت بزوغًا لمغامرة مؤلمة، تستنزف الطاقات، تختبر أقصى قدراته على التحمل وقوة عزيمته، تحتاج إلى أقصى درجات ثباته حتى النهاية.. لو أن نجاح كيت في إجتياز كل ذلك، يُكلَّل فقط بإدخال السرور والفرحة على نيل، لكانت بهجته مرتفعة للغاية وكذلك حماسه.

لم يكن وحده متحمسًا متلهفًا. قبل أن ينهض؛ بربع ساعة، كان البيت كله، يعج بالفوضى والإنشغال. يسارع الجميع بإنجاز ما يسهل التحضيرات. حتى الرجل الأعزب - الذي لا يستطيع أن يفعل أي شيء بنفسه - يتابع الجميع، مفرط الحركة أكثر من أي شخص. استمرت تعبئة الأغراض متكاتفين على إتمام الإعدادات بوتيرة سريعة، وبحلول فجر اليوم، تم الإنتهاء من جميع التحضيرات اللازمة للرحلة المنشودة. بعدها تمنى كيت لو لم يكونوا سريعي الحركة؛ لأن العربة التي استُئجرت لهذه الرحلة، لن تصل إلا بحلول الساعة التاسعة صباحًا، ولم يبقَ أي أمر لفعله سوى تناول الإفطار؛ لملء فراغ الساعة والنصف الباقية لاستكمال ما شرعوا فيه. نعم كان هناك كل هذا الوقت. وكان هناك باربرا أيضًا. من المؤكد أنها كانت منشغلة تمامًا، لكن انشغالها كان أفضل كثيرًا؛ حيث تسنى لكيت أن يساعدها، وهكذا سيمر الوقت أفضل من أي طريقة أخرى يمكن اختلاقها. لم يكن لدى باربرا أي اعتراض على ما رتب، فتابع كيت تأمل الفكرة التي خطرت على باله فجأةً، وظل يفكر فيها طوال ليله، فبدأ يظن أن باربرا مغرمة به بكل تأكيد، وأنه كان مغرمًا بباربرا أيضًا لا جدال.

ولأن الحقيقة يجب أن تُصاغ بالكامل - مثلما يحتم الأمر الآن - بدت باربرا أقل حماسًا من بين جميع أفراد الأسرة في صخب هذه المناسبة، وعندما فَتح كيت لها قلبه، وأخبرها بمكنونات صدره، وعن مدى سعادته وتحمسه، وكيف ستغمره الرحلة بالمتعة، لبثت باربرا أكثر حزنًا، وبدت أقل حماسًا أضعافًا مضاعفة من ذي قبل!

قالت باربرا: "لم تكن في المنزل منذ فترة طويلة يا كريستوفر..". - من المستحيل وصف كم كانت غير مكترثة البتة وهي تتحدث -: "لم تكن في المنزل منذ فترة طويلة، لتكون سعيدًا هكذا، لأنك سترحل مرةً ثانية.. حسب ما أعتقد".

رد كيت: "ليست السعادة في الرحلة، بل لغرض الرحلة.. لإعادة الآنسة نيل! لرؤيتها مرةً ثانية! يغمرني مجرد التفكير في هذا الشأن بسعادة عارمة! وأحسب أنني سعيد أيضًا لأنكِ ستقابلينها أخيرًا يا باربرا.

لم تعبر باربرا على الإطلاق عن أنها تشعر بالرضى عن هذه النقطة، لكنها عبرت عن مكنون مشاعرها بكل وضوح مومئة برأسها الصغير، جاعلة كيت متعجبًا، محبطًا متسائلًا بمنتهى البساطة عن سبب تكلفها لهذا البرود حيال هذا الشأن تحديدًا.
قال كيت، بينما يفرك يديه: "عندما تقابلينها، ستقولين إن لها وجهًا آية في الجمال والنقاء، وإنه أكثر الوجوه التي رأيتها طوال حياتك إشراقًا.. أنا متأكد تمامًا أنكِ ستقولين كذلك".
أومأت باربرا برأسها مرةً أخرى.
قال كيت: "ما خطبك يا باربرا؟".
صاحت باربرا: "لا شيء!". ثم تجهمت، لم يكن تجهمها فظًّا، لم يكن عبوسًا، لم تكن مقطبة الحاجبين، بل كان تجهمًا كافيًا لجعل شفتيها تشبهان الكرز أكثر من أي وقت مضى.
لا توجد مدرسة يلتحق بها الطالب وتسير بهذا النهج السريع، لكنها المدرسة التي أصبح فيها كيت تلميذًا، منذ أن قبَّل باربرا.
فهم الآن المغزى مما تقصده باربرا، وتعلم درسه كله مرة واحدة، وحفظه عن ظهر قلب، فما هي إلا كتاب، مفتوح أمامه، واضحة مثل طباعته.
قال كيت: "لستِ غاضبةً مني يا باربرا، أليس كذلك؟".
- أوه! كلّا أبدًا يا عزيزي، لماذا يفترض أن تكون باربرا غاضبة؟ بأي حق تكون غاضبة؟ وما المهم سواء أكانت غاضبة أم لا؟ من يهتم لأمرها ويفكر فيها!
قال كيت: "من! أنا أهتم يا باربرا.. وأفكر فيكِ بكل تأكيد".
لم تدرك باربرا لأي سبب قال بكل تأكيد، من أين له تلك الثقة!
ظن كيت أنه يجب عليها أن تدرك السبب، فهل ستسمح لنفسها بالتفكير ثانيةً؟
هل ستفكر ثانيةً؟ بالتأكيد لا؛ لقد أصرت على عدم إدراكها لأي سبب بالطبع، وأنها لا تفهم ما قصده كريستوفر على الإطلاق. إضافةً إلى أنها أكدت على أنهم يحتاجونها أعلى الدرج في ذلك الحين، وأنه لزام عليها أن تصعد لهم، وأن..
أعاق كيت طريقها، واحتجزها برفق وقال: "لا يا باربرا.. دعينا نفترق ونحن على الأقل أصدقاء. لطالما كنت أفكر فيك، في أوقات ضعفي ومِحَني.. فلولاك لكنت أكثر بؤسًا وكمدًا مما كنت عليه. التفكير فيك هو ما جعل ما مررت به هينًا".
يا إلهي! كم تكون باربرا جميلة حينما تحمر وجنتاها، وترتجف مثل عصفورة صغيرة خائفة.
قال كيت: "إنني أقول لك الحقيقة يا باربرا.. أؤكد لك أنها الحقيقة كاملة، لكنها ليست بنصف القوة التي أردت توضيحها لكِ.. عندما قلت لكِ: إنني سأكون سعيدًا لرؤية الآنسة نيل، لأنني أحب أن أراكِ سعيدة بما يسعدني.. هذا ما في الأمر - أما بالنسبة إليها يا باربرا، يمكن لي أن أموت في سبيل خدمتها، وأكاد أجزم أنكِ إذا كنتِ تعرفينها مثلما أعرفها، ستفكرين مثلما أفكر.. أنا متأكد يا باربرا".
تأثرت باربرا بما قال، وشعرت بالأسف على تعاملها الجاف غير المكترث.
قال كيت: "كما تلاحظين، لقد اعتدت التفكير فيها والحديث عنها على أساس كونها ملاكًا. عندما أتطلع إلى رؤيتها مجددًا، أفكر في سرورها وتبسمها مثلما إعتادت حين رؤيتي، أتذكر كيف كانت تمد يدها وتقول: ها هو صديقي المخلص كيت، أو أيًّا من تلك الكلمات التي اعتادت أن تثني بها عليَّ. أفكر في رؤيتها سعيدة مع أصدقائها، وأنها تعيش كما ينبغي لها أن تعيش، وتنال ما

تستحق فعلًا. عندما أفكر في نفسي، لا أرى نفسي سوى خادمها المخلص القديم، شخص يعزها بود حقيقي وإخلاص لكونها سيدته العطوفة النقية الطيبة، شخص كان ولا يزال - نعم كان ولا يزال - على إستعداد تام ليُعرِّض نفسه لأي مخاطر لخدمتها. أحيانًا، يساورني الخوف ويتملكني، ماذا لو عادت ولديها أصدقاؤها، وقد نستني، أو تتذكرني ولكنها تخجل من معرفة صبي بسيط مثلي، أو ربما تحدثني ببرود، حينها سينفطر قلبي ويسحق مرات مضاعفة عما يمكنني التعبير عنه يا باربرا. لكنني حينما أفكر مرةً ثانية، أشعر بيقين أنني إرتكبتُ خطأً فادحًا في حكمي عليها على هذا النحو.. ولا يسعني سوى أن أتعمق في التفكير مرات ومرات، فتنتابي المخاوف ذاتها مثل أول مرة.. لا أتمنى الآن إلَّا أن أراها مجددًا، كما كانت، دون أي تغيير. عندما أتمنى ذلك، وأتذكر كيف كانت، أشعر كما لو أنني سأحاول أبد الدهر إسعادها، وأكون لها دائمًا ما يفترض عليَّ أن أكون كما لو كنت لا أزال خادمها. إذا كنت الأفضل لخدمتها - أظن أنني لست بالأسوأ - سأكون ممتنًا حقًّا وسأحبها وسأكرمها أكثر.. هذه هي الحقيقة الصادقة الواقعية يا حبيبتي باربرا.. أقسم لكِ أنها كذلك!".

لم تكن باربرا متقلبة المزاج أو غريبة التصرفات هكذا من قبل، لكنها شعرت بأن نفسها ملأى بالندم، وقد توارت وراء دموعها. إلى أي حال أدت بقية المحادثة، لن يتسع لنا الوقت للتوقف والإستفسار؛ فقد تعالت أصداء قعقعات عجلات العربة في تلك اللحظة، وتبعتها رنة جرس مدوية عند بوابة الحديقة، تسببت في وجود حالة من الهرج والمرج في أركان البيت كافة، التي سادها الهدوء لوقت قصير، لتعج بالصخب مرةً أخرى وتنبض بها الحياة والحيوية بعشرة أضعاف.

بالتزامن مع حزم وتعبئة لوازم السفر، وصل السيد تشوكستر في عربة أجرة، ومعه أوراق وأموال خاصة بالرجل الأعزب، سلمها إليه يدًا بيد. وبعد أن أدَّى واجبه، تأقلم مع الطبع الأسري السائد، تسلى بتناول فطور منتقى، يشاهد ويتابع نقل الأشياء إلى العربة بلا مبالاة أنيقة.

قال للسيد هابيل جارلاند: "ما لي أرى الصبي موجودًا معكم هذه المرة يا سيدي! لقد ظننت أنه لم يكن في الرحلة الأخيرة، لأن وجوده من المتوقع ألَّا يكون مقبولًا بالنسبة للجاموس العجوز".

تساءل السيد هابيل: "بالنسبة لمن يا سيدي؟".

خجل السيد تشوكستر من نفسه إلى حد ما، ورد قائلا: "أقصد الرجل العجوز".

قال السيد هابيل متبسمًا: "لقد قرر موكلنا أن يصطحبه معه الآن.. لم تعد بحاجة إلى إتخاذ هذه الإحتياطات بعد الآن؛ لأن والدي على صلة حميدة بسيد نبيل يحوز على الثقة الكاملة لمن نبحث عنهما، وسيكون ذلك ضمانًا كافيًا على صدق النوايا وطبيعة المهمة الودية".

خاطب السيد تشوكستر نفسه، بينما ينظر من نافذة العربة: "آه! دائمًا ما يكون أي شخص غيري.. حتى الصبي، صار من الطبيعي أن يحتل مكانة أرقى مني. حسنًا.. على الرغم من إثبات عدم أخذه للورقة النقدية فئة الخمسة جنيهات، ليس لديَّ أدنى شك في أنه لا يزال يطمح لأمر من هذا القبيل. لطالما قلت لنفسي هذا، من قبل أن - أن تخرج بوقت طويل.. يا لها من فتاة جميلة ذات طلعة بهية! أقسم بروحي أنها فتاة رائعة بكل ما تحمله الكلمة من معنى!".

إنها باربرا من كانت مصدر إطراءات السيد تشوكستر.. بينما كانت واقفة بالقرب من العربة - وقد صار كل شيء مجهزًا ومستعدين جميعًا للرحيل - تحمس السيد فجأةً لمتابعة إجراءات النقل والتعبئة، وشمله إكتراث قوي، دفعه إلى الترجل المباشر من العربة، وقد مشى في الحديقة

متبخترًا، ثم وقف على مسافة مناسبة؛ يرمقها بنظرات غرامية. إعتمادًا على خبراته العظيمة في معرفة الجنس الآخر، وإلمامه بكل الحيل الصغيرة التي تجد له الطريق الأسرع لإجتذاب قلوبهن، وقف السيد تشوكستر، يضع يدًا على خصره، ويتلمس بالأخرى شعره المسترسل.. من الجدير بالذكر أن هذا الفعل - غالبًا ما يصحبه صفير عذب هو السلوك المفضل في الأوساط المهذبة لمعرفة منجزه الهائل.
على كل حال، هذا هو الفارق بين القرية والمدينة، حيث لا ينتبه أي شخص لأي ملاحظة ولو طفيفة إلى تلك التلميحات الدسيسة. في ذلك الوقت، كان البؤساء كلهم مشغولين في توديع المسافرين، وتقبيلهم، يلوحون لهم بالمناديل، وبكافة الإيماءات وسلوكيات الوداع المألوفة. الآن! كان الرجل الأعزب والسيد جارلاند في العربة والحوذي على سرج الفرس، وكيت مندثرًا ملتحفًا في المقعد الخلفي، بينما كانت السيدة جارلاند والسيد هابيل ووالدة كيت وجايكوب الصغير ووالدة باربرا - تقف بعيدًا لكن مرئية، ترعى الرضيع المتيقظ دائمًا - يلوحون جميعًا وينحنون ويصيحون بإيماءات صادقة: "وداعًا!"، "إلى اللقاء!". يظهرون قدر ما تمكنوا عواطف جاشت في صدروهم بكل حرارة. وبحلول الدقيقة الأخرى، غابت العربة بعيدًا عن مجال رؤيتهم، وظل السيد تشوكستر باقيًا وحده في المكان، الذي رأى منه كيت يقف عند المقعد الخلفي متأجج الحماس، يلوح بيده إلى باربرا، يا من تنظر إليه السيدات الراقيات باستحسان من عرباتهن في الحدائق أيام الأحاد تلوح لكيت بيدها!
كم كان السيد تشوكستر مشدوهًا لِما رأى، متأثرًا بهذه الحقيقة الرهيبة، يقف راسخًا في مكانه لا يحرك طرفًا، كما لو أن جذورًا نبتت له في الأرض، يحتج ويجادل نفسه عما إذا كان كيت أمير الجناة الأشرار أم إمبراطورًا مغوليًّا مغرورًا، يتابع بصحو كيف آل ذلك الظرف المقزز إلى عودته إلى القرية من أجل الشلن، وذلك ما كان أمرًا غريبًا، يحيد هذا عن غرضنا، لندعه يتابع هو ما أراد، ونتابع نحن تلك العجلات الدوارة، التي تشق الطريق، وتحمل المسافرين في رحلتهم المكفهرة الباردة.
لقد كان يومًا عصيبًا مريرًا. تهب الرياح عاصفة، تندفع تجاههم عاتية، تجرف الأرض، وترجف الصقيع الأبيض على الأشجار والأجمات، وتدبره في الهواء كالغبار.. وبالرغم من ذلك، كم كان كيت غير عابئ بحال الطقس! تمثلت الحرية والإنطلاق والإنتعاش في هذه الرياح، دع الرياح تعصف كما تشاء، ولا تقلل سرعة هبوبها، فلقد كان مُرحِّبًا بها. بينما تجتاح سحب الصقيع الأفق، تزعزع الأغصان الجافة وفروع الأشجار والأوراق الذابلة، ومن ثمَّ ترمي بها بعيدًا بسرعة شديدة، بدت كأنها تظهر بعض التعاطف معهم؛ جعلت كل ما يلوح في الأفق حولهم سريعًا وفي عجالة، مثلهم. كلما اشتدت العواصف، كلما حققوا تقدمًا أفضل. قد كان صراعهم ومقاتلتهم للمضي قُدُمًا، وقهر تلك الأشياء المترامية الواحد تلو الآخر واستباقهم، محفزًا جيدًا، فأن تراهم يشقون طريقهم، يستجمعون القوة والغضب وهم يتقدمون، تنحني للحظة بينما يتقدمون في صفير الرياح، لترفع رأسك ثانية وتنظر إليهم، فتراهم مسرعين، تخفت المسافة ضجيجهم الأجش، وتنكمش الأشجار السامقة أمامهم.
طوال اليوم، عصفت الرياح دون هدنة. وعندما هبط الليل، كان نديًّا صافيًا نجومه ساطعة، لكن الرياح لا تزال تهب، والبرد نافذ للأجساد. أحيانا - مع قرب نهاية الرحلة الطويلة - لم يستطع كيت منع نفسه من تمنِّي الدفء، لكنهم حينما توقفوا لتغيير الأحصنة، تمتع بالدفء، لدرجة أنه

شعر بضخ الدم يغزو أطراف أصابعه وينبض فيها؛ فقد حظى بركض طويل، يدفع الأحصنة القديمة في حماس، ويشد الأحصنة الجديدة بقوة مهتاجة، يركض مرةً أخرى ذهابًا وإيابًا، حتى ربط الخيول - ورغم ذلك، شعر أن البرد لو إنخفض درجة واحدة، ولم يعد يشعر به قارسًا، سيفقد نصف بهجة الرحلة ومجدها، صعد إلى مكانه واثبًا، يغني في مرح لأصوات العجلات وهي تتحرك بهم بعيدًا، تاركين وراءهم أناس المدينة نائمين في أسرتهم الدافئة، يتابعون مضيِّهم على طول طريقهم الوحيد.
في هذه الأثناء، كان السيدان بالداخل يشعران بالنعاس، ولا يريدان أن يغلبهما، فقررا تمضية الوقت في تجاذب أطراف حوار. ولأنهما كانا مضطربين مترقبين، انصب موضوع حديثهما بطبيعة الحال على رحلتهما، كيف تم التحضير لها سريعًا، وعلى مسعاهما الذي يتوقان إليه، وعلى الآمال المرجوة، والمخاوف المخشية. كان لديهما من السالف الكثير، ومن الأنف القليل - وربما لم ينتابهما أكثر من ذلك القلق غير المحدد، الذي لم ينفصل أبدًا عن بصائص الأمل المنبثق فجأةً، وعن التوقع المرنو إليه.
خلال إحدى وقفات حديثهما، بعد أن جثم الليل، إلتفتَ الرجل الأعزب، الذي كان يعهد إلى الصمت والتفكر أكثر فأكثر تدريجيًّا، وقال فجأةً لرفيقه:
"هل أنت مستمع جيد؟".
رد السيد جارلاند مبتسمًا: "أظن أنني مثل معظم الرجال الآخرين.. أكون مستمعًا جيدًا، إذا كنت مهتمًّا، وإذا لم أكن، فيجب عليَّ أن أتظاهر بكوني كذلك.. لِمَ تسأل؟".
قال صديقه: "أريد أن أحكي لك حكاية صغيرة على طرف لساني.. وسوف أجرب ما قلته في هذا الشأن.. إنها موجزة للغاية".
ساد صمت دون رد، فوضع يده على ردن السيد العجوز وتابع قائلًا ما يلي:
"كان يوجد شقيقان، بينهما ساد الود، وما كنَّاه من الحب في قلبيهما كان وفيرًا، على الرغم من تفاوت العمر بينهما - حوالي اثنتي عشرة سنة -، لم يكونا مكترثين البتة بهذا الأمر.. أو لست متأكدًا تمامًا، ربما من أجل هذا السبب، أحبا بعضهما أكثر. على الرغم من تباعد السن بينهما، وجد التنافس بينهما مجالًا، وصارا منافسين لبعضهما في وقت قريب. فقد استقر الحب الأقوى والأعمق لقلبيهما على امرأة واحدة.
"كان الشقيق الأصغر هو أول من إكتشف الأمر الواقع - تواجدت عدة أسباب لحساسيته ويقظته - لن أخبرك عن البؤس الذي روعه، وأي عذاب روح عرفه، وكيف تداعت صحته، واضطرب عقله، لقد كان طفلًا مريضًا.. ومكث شقيقه إلى جانبه صابرًا ومراعيًا له في عز صحته وقوته، ينكر ذاته، لا يكترث بحاله مرات ومرات، يتوقف عن ممارسة الرياضة التي أحبها؛ ليجلس بجوار أريكته، يحكي له حكايات قديمة، حتى ينساب النور في شحوب وجهه، ويضيء بتوهج نادر، ويحمله بين ذراعيه إلى المروج الخضراء؛ حيث يرعى الولد المسكين وهو يتأمل إشراقة اليوم الصيفي، ويرى كل ما كان نضرًا صحيًّا - عدا نفسه - كان له - في كل الأحوال - كالممرضة الحنونة المخلصة.. لن أسهب في الحديث عما فعله معه، وعما قدمه له، ليجعل هذا المخلوق الضعيف المسكين يحبه، وإلا لن أنتهي من حكايتي اليوم. عندما حانت اللحظة الفارقة لتنافسهما، كان قلب الشقيق الأصغر، غاصًا بعواطف ذكريات تلك الأيام.. عززته السماء بواحدة من الأفكار

الرجولية ليعوض شقيقه عن تضحيات الشباب المتهورة. فرحل.. رحل ليتيح لأخيه السعادة. ولم تتخطَّ الحقيقة شفاهه مطلقًا، غادر البلاد دون أي نية للعودة، آملًا أن يموت في الخارج.
"تزوجها الشقيق الأكبر. إنها ناعمة في الجنة قبل وقت طويل، تركته مع إبنة رضيعة".
"إذا كنت رأيت من قبل معرض صور لأحد العائلات، ستتذكر كيف تظهر ملامح نفس الوجه والشكل عبر الأجيال - غالبًا ما تظهر عليهم جميعًا باعتدال وكيف يمكنك تتبع نفس الفتاة الجميلة من خلال سلسلة طويلة من الصور الشخصية - لم تكبر أبدًا ولم تتغير قط - ملاك السلالة الحسن - نقف إلى جانبهم في كل الإنتكاسات - وتعفو عن ذنوبهم".
"عاشت الأم مرةً أخرى في هذه الفتاة، ومن صورتها التي تتنفس، يمكنك أن تحكم بأي إخلاص وتفانٍ رعى ذلك الشخص - الذي خسر والدتها بالكاد حين نصرته - تلك الفتاة ولم يتخلَّ عنها. نمت ونبضت بها الأنوثة، وأعطت قلبها لمن لم يعرف قيمتها، حسنًا! لم يستطع والدها رؤية حزنها ومعاناتها، وظن أنه ربما يكون شخصًا جيدًا أكثر مما أعتقد. أو بالتأكيد سيصبح كذلك يومًا ما، مع زوجة مثلها.. فوضع يده في يديهما، ووافق على زواجهما".
"بسبب البؤس الجم الذي لحق بها بعد هذا الشمل، بسبب الإهمال البارد والتوبيخ غير المستحق الذي غمرها به، بسبب كل الفقر المدقع الذي أحاطها به، بسبب صعوبات وعراقيل ونضالات حياتهم اليومية، التي قد يكون ذكرها فظًّا موجعًا للقلب، وكتمانه مروعًا.. عاشت تفني روحها، تكد وتكدح، بروح سمحة، وحدهن السيدات القادرات على ذلك الفعل. ضاعت أموالها وممتلكاتها، كاد والدها أن يركع أمام يد زوجها متوسلًا إليه - كانوا يعيشون تحت سقف واحد - يشاهد وهنها وحزنها وسوء معاملتها في كل لحظة، لكنها لم تندب مصيرها لأي أحد سواه. مريضة محاطة بمودته ورعايته، توفيت بعد أن صارت أرملة بثلاثة أسابيع تقريبًا، تاركةً في كنف والدها طفلين يتيمين. أكبرهما كان صبيًّا عمره ما بين عشرة أعوام أو اثني عشر عامًا، والأخرى طفلة رضيعة ثانية، بنفس الضعف، وفي نفس العمر، ولها نفس الشكل والحجم.. كما لو كانت هي نفسها عندما ماتت والدتها الشابة".
"مع مرور الزمن وهن الشقيق الأكبر، جد هذين الطفلين، وطعن في السن، لم يكن شقاؤه من ثقل السنين أكثر مما كان من وطأة الأحزان. ومع طلل ما تبقى من ممتلكاته، بدأ في التجارة - الصور أولًا، ثم التحف القديمة النادرة، لقد كان مولعًا بمثل تلك الأمور منذ أن كان صبيًّا، حينما طعن في السن وفرت له ثقافته وأذواقه موردًا للرزق، على الرغم من أنه غير ثابت ومقلق للبال".
"قد شابه الصبي أباه في الشخصية والتفكير، وشابهت الفتاة والدتها، عندما كان يجثم الرجل العجوز على ركبتيه، ويرى عينيها الصافيتين الزرقاوين، يشعر كما لو أنه إستيقظ من حلمٍ بائس، وأن إبنته تقف أمامه وهي طفلة صغيرة مرةً أخرى. ولم يمر وقت طويل وأبى الصبي الضال العيش معه، تحت سقف واحد، وبحث عن أصدقاء أكثر ملاءمةً لذوقه. ومن بعدها عاش الرجل العجوز والطفلة وحدهما معًا".
"حينها نبض حبه لمَن توفيتا - من كانتا الأعز والأقرب إلى قلبه - لتلك المخلوقة الرقيقة، يرى وجهها أمامه باستمرار، ساعة من بعد أخرى، خلال كل التغييرات التي مر بها في ذلك الوقت، خلال كل المعاناة التي شهدها وعرفها، وكل ما تكبدته الطفلة، من معاناة عندما كان يستنزفه الشاب الجشع غليظ القلب ويأخذ كل أمواله، مثلما كان يفعل والده بالضبط مع والدتها، لدرجة أنه في بعض الأحيان كان يأخذ جميع ما يحتكما عليه من مال ويتركهما في عوز وضيق وحرمان،

ومن بعدها تخبطت الأفكار في عقله، هاجمته، وجثمت في ذهنه، وصار لديه خوف موحش من الفقر والعوز. لم يكن يفكر في نفسه. بل كان خوفه كله على الطفلة، كان كشبح مفزع يطارده في بيته ليلًا ونهارًا".
"في ذلك الوقت، كان الشقيق الصغير قد سافر إلى عدة بلدان، مرتحلًا طوال حياته. نقم على نفيه الطوعي، لكنه تحمل - لم يَخْلُ تحمله قط من الآلام - توبيخ وإهانة نفسه على فعله، وقد أرهق قلبه وأثقله، وألقي بظلال حزينة على دربه. كان التواصل بينه وبين أخيه الأكبر صعبًا غير مؤكد، عادةً ما كان يفشل، ومع ذلك لم يكن منقطعا تمامًا - وبصرف النظر عن الفجوات والفترات الزمنية بين كل فاصل من المعلومات - استطاع أن يعرف كل ما أخبرتك به الآن".
"تزوره أحلام حياتهما السعيدة - كانت سعيدة بالنسبة له على الرغم من أنها كانت ملأى بالألم ومسؤولية الرعاية - حينما كان يضع رأسه على وسادته كل ليلة، يرى نفسه صبيًّا مرةً أخرى، منعمًا إلى جوار أخيه. لذا، بأقصى سرعة لديه حسم شؤونه، حول كل ما امتلكه من بضائع إلى أموال، وبثروة جليلة تكفي لكليهما، وبقلب مفتوح، وبيد ممدودة، وبأطراف مرتجفة مثلما كانت عند حمله له، وبعاطفة متأججة تحملها وعاشها كالرجال، وصل ذات ليلة عند باب أخيه!".
إهتز صوت الراوي ورجف وتوقف عن إستكمال سرد حكايته.
قال السيد جارلاند، ضاغطا على يده بعد لحظة صمت: "لا ترهق نفسك؛ فالبقية أنا أعلمها".
قال صديقه: "نعم! دعنا نُنَجِّ أنفسنا من وطأة التكملة.. أنت عالم بكل النتائج المحزنة لبحثي، على الرغم من أننا كرسنا كافة الجهود اللازمة، وتحرينا الحكمة واليقظة، لكن دون طائل.. يبلغنا ذات مرة أنه تمت رؤيتهما مع اثنين مرتحلين من مؤدبي العروض المساكين.. وبعدها اكتشف الرجلان نفسهما مكانهما، وعندما نذهب إلى مكانهما فعلًا، نكتشف أننا تأخرنا، وأنهما رحلا.. أرجوك إدعِ معي ألَّا نكون متأخرين هذه المرة أيضًا!".
قال السيد جارلاند: "لا يمكن أن نكون متأخرين.. سننجح هذه المرة بكل تأكيد".
رد الآخر: "إنني أدعو وأتمنى من كل قلبي.. لكني.. لكني كلما حاولت تصديق حدوث ما أتمنى، كلما وجدت ثقلًا يقبع على صدري يكتم أنفاسي، ويثبط عزيمتي.. إن الحزن الذي يتملكني يا صديقي العزيز لا يوضح سببًا ولا يثمر أملًا...".
قال السيد جارلاند: "إن ما تقوله لا يفاجئني.. أحسب أنها نتيجة طبيعية للأحداث التي تذكرتها وذكرتها من تَوِك، وللمكان الموحش وللوقت الكئيب، وقبل كل شيء أجواء هذه الليلة البرية المكفهرة.. يا لها من ليلة كئيبة بالفعل! إسمع! يا لها من ريح صرصر عاتية!".





الفصل السبعون

انتهى اليوم، ولا يزالون يمضون في طريقهم، منذ أن تركوا البيت، وهم يتوقفون للضرورة القصوى فقط وعلى مسافات متباعدة؛ من أجل الراحة وتناول أي وجبة خفيفة، كانوا يتأخرون بشكل متكرر، خاصةً في الليل، حينما كانوا ينتظرون الخيول الجديدة. لكنهم لأي سبب آخر لم يتوقفوا البتة، كان الطقس لا يزال عاصفًا، وما برح الطريق أكثر وعورة وانحدارًا. وقد هبط الليل مرةً أخرى قبل أن يصلوا إلى وجهتهم.
جلس كيت متلحفًا بحرارة تصوراته عن النهاية السعيدة لهذه الرحلة، مستمتعًا بأجواء المغامرة، فقد وجد طريقته التي يحافظ من خلالها على دورته الدموية، فمرت كل العواصف القاسية والبرد القارس بأمان؛ كانت تشمله الإثارة تجاه كل شيء، فلم يكن لديه وقت كافٍ للإلتفات إلى المشقات. سرعان ما تلاشى ضوء النهار القصير للشتاء، وأسدل الليل ظلامه مرةً أخرى، ولا يزال أمامهم أميال عديدة للسفر.
غسق الليل، وهبت الرياح عاصفةً، وقد أمسى صوت عويلها وأنينها البعيد خافتًا ولكن أكثر كآبة، وبينما كانت تهب في الطريق، وتدفق وسط العلائق الجافة خفية على كلا الجانبين، بدت كأنها أشباح عاتية، يحدث وشاحها حفيفًا بينما تحوم في الأفق. لكنها تدريجيًا بدأت تهدأ حتى رحلت بعيدًا، وندفت السماء بالثلج من بعدها.
سرعان ما تساقط الثلج سميكًا، وسرعان ما غطى الأرض، وامتد عمقه لعدة بوصات، إنسل السكون الكئيب متوغلًا في شتى الآفاق. صارت العجلات المقعقعة غير صاخبة، وأمسى إهْتِزام حدوات الأحصنة العالي الرنان مكتومًا وكئيبًا. كأن الحياة النابضة لتقدمهم قد خمدت وزالت، وانتزع الموت الزؤام سرها.
يظلل على عينيه بيده من الثلوج المتساقطة، تجمدت رموشه، وحجبت عنه الرؤية.. يحاول كيت أن يلمح أي قبس من أضواء متلألئة، يستبشر منه على إقترابهم من أي مدينة غير بعيدة. حينها إستطاع أن يلمح أشياء كافية لوقته، لكنَّ أيًا منها لم يكن صحيح ا. الآن! لاح له على مرمى بصره برج كنيسة، وحينما يقترب يتبين له أنه كان شجرة، أو حظيرة، أو ظلًّا على الأرض، أو إنعكاسات ضوئية لمصابيحهم الخاصة. والآن! كان هناك حوذيون، وسابلة، وعربات، يتحركون أمامهم، يلتقون بهم في الطرق الضيقة، وعندما يقتربون منهم، يتحولون إلى ظلال أيضًا. ثم يتضح جدارًا عاليًا، ثم طلل، ثم قمة سطح جملوني شاهقة عبر الطريق، وعندما يجتازون الطريق على إمتداده، يتضح أنها ما كانت إلا الطريق نفسه. تظهر إنعطافات غريبة وجسور وصفحات مياه تموج هنا وهناك، تربكهم، تجعل الطريق غير مؤكد مقلقًا لهم، لكنهم لا يزالون على الطريق المقفر نفسه؛ فعندما مروا بها، كان مثلها كمثل الأشياء الأخرى، تحولت إلى أوهام مبهمة قائمة.
حين وصولهم إلى مبنى لتبديل الخيول كان معزولًا - كانت أطرافه خدرة تمامًا - ترجل ببطء من مقعده؛ ليستفسر عن طول المسافة التي يجب عليهم قطعها للوصول إلى نهاية رحلتهم، في مثل تلك الأماكن النائية، يعتبر وقت وصولهم، ساعة متأخرة من الليل، وعادةً ما يكون الناس نائمين، لكنَّ صوتًا أجابه من نافذة علوية قائلًا: عشرة أميال. لبثت العشرة دقائق التي انتظروها غرار

الساعة، وظهر أخيرًا شخص، يقود الخيول التي طلبوها مرتجفًا، وبعد مماطلة قصيرة، انطلقوا مرةً أخرى في طريقهم.
كان طريقهم يمتد عبر الحقول، عجَّ بعد قطعهم أول ثلاثة أو أربعة أميال منه بحطام عربات، وغصَّ بحفر ونتوءات، غطاها الثلج كلها، أمست كأشراك عديدة للخيول مذبذبة الخطى، فأجبرتها على السير ببطء. بات من المستحيل للرجال الذين انزعجوا كثيرًا، أن يظلوا جالسين في العربة ويتحركوا بمثل هذا البطء، فترجل الثلاثة رجال، ومشوا خلف العربة في تهادٍ. لاحت المسافة لا نهائية، وصار السير لهم أكثر مشقة. وبينما كان كل منهم يفكر ويسر داخل قرارة نفسه شكًّا بأن الحوذي قد ضل طرقه، دق جرس كنيسة، على مقربة يسيرة، معلنًا منتصف الليل، وتوقفت العربة. على الرغم من أنهم كانوا يتحركون في هوادة، عندما توقفت العربة عن سحق الثلج أسفل عجلاتها، عمَّ الصمت مذهلًا، كما لو أن الضجيج الصاخب استبدل على حين غرة بسكون مثالي.
ترجل عن حصانه، وقال وهو يطرق على باب نزل صغير: "هذا هو المكان أيها السادة.. إن الساعة الثانية عشرة والنصف صباحًا، هنا تُعتبر جوف الليل".
كانت الطرقات مدوية، واستغرقت وقتًا طويلًا، لكنها عجزت عن إيقاظ النزلاء النائمين. حل الصمت المهيب كما كان من قبل. رجعوا خطوات قليلة إلى الوراء، ونظروا إلى النوافذ، التي كانت مجرد بقع سوداء في واجهة المنزل البيضاء. لم يَلُحْ أي ضوء، ربما كان النزل مهجورًا، أو قد مات النائمون؛ فلا يظهر أي ملمح حياة فيه أو حوله.
تهامسوا معًا في تضارب غريب، غير راغبين في مقاطعة أصوات الأصداء الكئيبة التي تتردد في كل مكان مرة ثانية.
قال الأخ الأصغر: "دعونا نمضي قدمًا، ونترك هذا الرفيق الجيد لإيقاظهم، إذا استطاع. فلن يهدأ لي بال، إلَّا حينما أتأكد أن الأوان لم يفت، وأننا لم نتأخر هذه المرة، هيا! باسم الرب! دعونا نذهب".
فعلوا ما سأل، تاركين الحوذي، يستعلم عن خدمات المبيت التي يقدمها النزل، ويجدد طرقاته. رافقهما كيت يحمل قفصًا، كان يعلقه في العربة منذ أن غادروا المنزل، فمنذ أن تركته، لم ينس كيت رعايته أبدًا، فكان مثلما تركته بالضبط. وظن أنها ستسر من فورها إذا رأت عصفورها.
إنحدر الطريق بسلاسة إلى الأسفل، مضوا في طريقهم قدمًا، وغابت الكنيسة التي تلتف القرية الصغيرة من حولها عن مجال رؤيتهم، والتي سمعوا جرسها معلنًا الساعة. لكن صوت الطرقات الذي دوَّى مجددًا في الأفق، ولا يزالون يسمعونه بوضوح رغم إبتعادهم، أصابهم بالإضطراب. تمنوا لو تذرع الرجل بالصبر وأمسك عن طرقه، أو لو كانوا أخبروه ألَّا يكسر الصمت حتى يعودوا. لاح برج الكنيسة القديمة أمامهم مرة أخرى، مكسوًّا بوشاح شبحي باللون الأبيض البارد النقي، وبعد لحظات قليلة، وصلوا بالقرب منه. كان مبناها جليلًا - رماديًّا قديمًا - حتى وسط المرج الطبيعي المكسو بندف الثلج البيضاء. توارت مزولة شمسية قديمة أعلى برج الحرس، وبالكاد كانت معروفة للعيان. بدا الليل لوقته حالكًا كئيبًا، كما لو أن نهارا لن يشرق ثانية بعد هذه الليلة المغمة.
كانت البوابة على إمتداد أيديهم، لكنها أفضت إلى العديد من الممرات عبر ساحة الكنيسة، وبالتأكيد لجأوا إلى الوقوف للتشاور مرةً أخرى، حيال أي الممرات سوف يسلكون.

كان شارع القرية -إذا أمكن تسميته شارعًا؛ عبارة عن تعنقد أكواخ فقيرة مختلفة الأشكال والأعمار بغير نظام، يظهر بعضها بالواجهة الأمامية وبعضها الآخر عكاسًا، وبعضها له قمم جلمونية تميل نحو الطريق، ذات علامات إرشادية تشير هنا وهناك، أو أكواخ تعترض منتصف الطريق - على مقربة يسيرة. لاح من نافذة غرفة ليست ببعيدة ضوء خافت، فركض كيت من توه إلى ذلك المنزل، ليسأل عن طريقهم.
جاءه الرد بعد أول صيحة من رجل عجوز، ظهر لوقته ناظرًا من نافذة الباب، يلف حول حنجرته دثارًا كحماية من البرد، وسأل: من بالخارج في تلك الساعة المتأخرة من الليل ويريده؟
قال متذمرًا: "إنه طقس قارس وليلة غير مناسبة بالمرة لمناداتي.. ليست تجارتي من النوع الذي يتطلب نهوضي من السرير. إن الأعمال التي تريدها مني الناس قارسة البرودة، وخاصة في هذا الموسم.. قل لي ماذا تريد؟".
قال كيت: "لم أكن لأجعلك تنهض من السرير، إذا كنت أعرف أنك عجوز ومريض".
كرر الآخر مستنكرًا بفظاظة: "عجوز! كيف لك أن تعرف أنني عجوز؟ ربما لست عجوزًا كما تعتقد يا صديقي، وبالنسبة إلى نعتك إيَّاي بالمريض، فيمكنك أن تجد شبابًا كثيرين حالتهم أسوأ مني. فالشفقة وكل الشفقة.. ليست حينما أكون قويًّا ومخلصًا لسنواتي، بل أقصد أن الشفقة كلها على من يجب عليهم أن يكونوا لطفاء وضعفاء.."، ثم قال العجوز المريض بعد وهلة: "أرجو منك المعذرة، إذا تحدثت معك بحدة في بادئ الأمر. إن عينيَّ لا تريان بوضوح في الليل - ليس بسبب عمري أو مرضي، هما لم تكونا على الإطلاق - لذا لم ألحظ أنك غريب".
قال كيت: "أرجو منك المعذرة؛ لأني جعلتك تنهض من السرير، لكن هذين السيدين الواقفين عند بوابة الكنيسة، غريبان أيضًا، وقد وصلا من توهما من طريق سفر طويل ورحلة شاقة، ونريد أن نصل إلى بيت القسيس، فهل من الممكن أن تدلنا؟".
أجاب العجوز الواهن في صوت مرتجف: "ربما أكون قادرًا على أن أقتادك بنفسي إلى هناك لو كنا في الصيف المقبل، لقد كنت القندلفت على مدار خمسين عامًا. على كل حال، إتبع الطريق جهة اليمين يا صديقي. هذا هو طريق الوصول إليه - آمل أنك لا تحمل أخبارًا سيئة لسيدنا العزيز!".
شكره كيت، وأجابه إجابةً سريعة بالنفي، وحينما انطلق عائدًا، جذب إنتباهه صوت طفل، فنظر إلى الأعلى من توه، ورأى مخلوقًا صغيرًا في النافذة المجاورة.
صاح الطفل بجدية: "ما هذا؟ ما الأمر؟ هل تحقق حلمي؟ أرجوك قل لي.. أيٌّ منكما يقول لي.. أي أحد مستيقظ يخبرني!".
قال القندلفت، قبل أن ينطق كيت: "يا لك من ولد مسكين! ما الأمر يا عزيزي؟".
صاح الطفل مرةً أخرى بصوت منفعل يرتعد له قلب أي مستمع: "هل تحقق حلمي؟ لا! مستحيل.. لا يمكن أن يحدث هذا.. هل من الممكن أن يحدث.. هل من الممكن!".
قال القندلفت: "أظن أنني عرفت قصده.. لم يحدث شيء، عد الآن إلى سريرك مرةً أخرى أيها الولد المسكين!".
تنهد الطفل في يأس وقال: "عرفت أن هذا لا يمكن أن يحدث أبدًا.. كنت متأكدًا من قبل أن أسأل! لكن الليلة والليلة الماضية متشابهتان.. لا أستطيع أن أنام؛ أرى حلمًا بشعًا متكررًا".
قال العجوز في لين ورفق: "حاول أن تنام.. كلٌّ له أوان فيه يرحل".

قال الطفل: "لا لا! لا تقل رحيل.. أفضل أن يكون حلمًا بشعًا كما هو، ما دام مقتصرًا على الأحلام فقط، ولا يجد طريقه للواقع.. أنا لا أخشى رؤيته في نومي. لكنني حزين.. حزين جدًّا جدًّا". باركه العجوز، ورد عليه الطفل، والدموع تترقرق في عينيه: "ليلة طيبة". وأمسى كيت بمفرده مرةً ثانية.
سارع بالعودة، متأثرًا مهرولًا لِما سمعه، ولو أن سلوك الطفل أوضح من أي قول، بيَّن المعنى المحجوب. سلكوا المسار الذي أشار إليه القندلفت، وقريبًا وصلوا أمام سور بيت القسيس.
إلتفتوا حولهم، ناظرين أمامهم على مبعدة يسيرة، رأوا إنبعاث ضوء واحد وحيد من بين أطلال بعض البنايات. كان ينير عبر ما بدا لهم كأنها مشربية، لاح لهم محاطًا بظلال الجدران كنجم لامع.. كان متلألئًا مشرقًا كالنجوم التي تتوسط السماء أعلى رؤوسهم، وحيدًا دون حراك مثلها، بدا كأنه ضوء ينتمي إلى مصابيح السماء، وينير الأفق معها.
قال الأخ الأصغر: "ما هذا الضوء؟".
قال السيد جارلاند: "أحسب أنه الطلل الذي فيه يعيشان، فلا أرى أي طلل آخر في هذه الناحية".
رد الأخ على عجل قائلًا: "لا يمكن أن يكونا مستيقظين حتى هذه الساعة المتأخرة...".
تدخل كيت من توه، متوسلًا إليهما؛ كي يسمحا له بأن يشق طريقه إلى ذلك الضوء الساطع، ويتأكد ما إذا كان هناك أي شخص، بينما ينتظرانه عند البوابة. بعد أن حصل على الإذن الذي يتوق إليه، ركض منقطع الأنفاس بحماس من فوره، ولا يزال يحمل قفص العصفور في يده، متجهًا مباشرةً صوب مقصده.
لم يكن من السهل حمل القفص والعَدْو بتلك السرعة وسط القبور، لزم عليه من وقت إلى آخر أن يسير ببطء أو أن يحيد عن مساره قليلًا. غير مكترث بأي عقبة أو عرقلة، كان يندفع بقوة حماسية إلى الأمام دون تهادٍ، حتى وصل على مسافة بضع ياردات من النافذة، إقترب من الجدار بهوادة قدر إستطاعته، ثم أزاح بملابسه في رفق اللبلاب الذي إكتسى بالثلج الأبيض؛ واسترق السمع، لم يكن هناك أي صوت بالداخل، حتى الكنيسة نفسها لم تكن أكثر هدوءًا، لا! والأدهى أن الصمت قد ساد في كل أركان المكان، لدرجة أنه تأكد من أنه لا يسمع حتى صوت أنفاس أي نائم، إذا كان هناك أي أحد من الأساس.
أن يجدوا ضوءًا منيرًا في ذلك المكان، في تلك الساعة من الليل، ولا يوجد أي أحد بالقرب منه، كان الأمر غريبًا.
لم يستطع رؤية أي شيء عبر النافذة؛ كانت الستارة مسدلة على الجزء السفلي منها، ولم يلح من خلالها أي ظلال. أن يضع قدمًا من بعد قدم على الجدار؛ كي يحاول النظر من الجزء العلوي، أمر فيه القليل من الخطر والكثير من الإزعاج، وربما إحتمال لترويع الطفلة، إذا كان مسكنها بالفعل. يستمع مرةً وأخرى، يستمع مرارًا وتكرارًا، ولا يزال الصمت الكئيب مهيمنًا.
برح مكانه ببطءٍ وبخطوات حذرة، يطوف حول الطلل بخطوات محسوبة، ثم جاء أخيرًا أمام الباب. طرقه. لم يكن هناك أي إجابة. لكن ضوضاء غريبة صدرت من الداخل. كان من الصعب تحديد ماهيتها. شابهت أنينًا لشخص متألم، لكنها لم تكن كذلك؛ لكونها منتظمة جدًّا وذات وقع ثابت. والآن! بدا له كأنه لحن أغنية مجهول، ثم بدا له نحيبًا. لكنه ذو الصوت نفسه، لا يتغير ولا يكبح. لم يكن مشابهًا لأي صوت سمعه على الإطلاق، شاب رنينه شأن ينتزع من الصدر الطمأنينة، شأن مرعب مخيف غير مألوف.

بهت مما سمع، وتجمد الدم في عروقه، أكثر من أي وقت مضى حينما كان وسط الصقيع والثلوج، لكنه طرق الباب مرةً أخرى. لم يردّ عليه أحد بأي إجابة، ولا يزال الصوت يتردد دون إنقطاع، بسط يده على المزلاج بهدوء، وأسند ركبته على الباب. على الرغم من أنه كان موصدًا من الداخل، ببعض الضغط، دار حول مفصلاته، رأى وميض النيران على الجدران القديمة، ومن ثمَّ جسر على الدخول..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الحادي والسبعون

كان توهجًا كئيبًا لحطب مشتعل - لم يكن ضوء فانوس أو شمعة مشتعلة داخل الغرفة - كشف له عن شخص، يجلس أمام المدفأة، بدير ظهره إليه، منحنٍ فوق الضوء المرتعش، بدا في جلسته، كشخص يتقفى الحرارة. لقد كان فعلًا، لكن الغرض من موضعه لم يكن كذلك البتة. لم يكن جسده المنحني أو ظهره المقوس مقشعرًا يرتجف من البرد القارس في الخارج، لم تكن يداه ممدوتين باحثتين عن الدفء. كان يهتز في مقعده للأمام وللخلف، محدثًا ذلك الصوت الكئيب الذي سمعه، مع إنكماش أطرافه على بعضها، وتنكيس الرأس، وطي الذراعين على الصدر، وإحكام قبضة يديه.

أُغلق الباب وراءه بعد دخوله مباشرةً، باصطدام قوي، جعله ينخلع من مكانه. لكن الجالس لم يحرك ساكنًا، لم يتكلم، ولم يلتفت أبدًا لينظر، ولم يعبر بأضعف الإيماءات عن سماعه للضوضاء أو لصفعة الباب. كانت هيئة الجالس هيئة رجل عجوز، شابهت رأسه الأشيب في لونها رماد الجمر المتفتت الذي كان يحدق فيه. هو نفسه والضوء الخافت والنيران الخامدة والغرفة الرخيمة والعزلة والحياة الفانية والكآبة سيان.. رماد وتراب وطلل وخراب!

حاول كيت التحدث، وفعلًا لفظ ببعض الكلمات، بالكاد كان يعرفها. لا يزال أنين البكاء يتردد، لا يزال الجالس على كرسيه مهتزًا، لا يزال متخذًا نفس الشكل المنكوب، دون تغيير،، غافلًا عن حضوره. كانت يده على المزلاج ثانيةً، عندما تبدى له وجه الشخص، حينما انكسرت خشبة، وسقطت، وحينما سقطت استعر اللهب، وانعكس على وجهه الضوء. عاد حيثما كان واقفًا من قبل، يتقدم خطوة بطيئة، ثم يتبعها بأخرى. ثم أخرى، حتى رأى وجه الشخص واضحًا. نعم! متجعدًا كما كان، عرفه جيدًا من توه.

جثم على ركبتيه من فوره، وأمسك بيده صائحًا: "سيدي! تحدث إليَّ يا سيدي العزيز!".

إلتفتَ الرجل العجوز نحوه ببطء، وتمتم بصوت واهن: "وها هي أخرى! كم عدد الأرواح التي تحوم حولي في هذه الليلة!".

- لا وجود لأي أرواح هنا يا سيدي. لست سوى خادمك المخلص. أنا متأكد أنك تعرفني، أليس كذلك؟ الآنسة نيل - أين هي؟ أين الآنسة نيل؟

صاح الرجل العجوز: "تقول كل الأرواح نفس الكلام.. تسأل كل الأرواح نفس السؤال. كل الأرواح!".

أصر كيت على سؤاله: "أين هي يا سيدي؟ من فضلك أخبرني يا سيدي.. إنها ليسـ.. قل لي أين هي يا سيدي العزيز!".

- إنها نائمة بعمق - نائمة بعمق هناك.

- الحمد والشكر للرب.

رد الرجل العجوز: "نعم الحمد والشكر له! لقد صليت الكثير والكثير والكثير من المرات طوال هذه الليلة، عندما وجدتها نائمة.. وهو أعلم بذلك وبحالي - أنصت! هل تنادي؟".

- لم أسمع أي صوت.

- بل سمعت، وتسمعها الآن.. أتريد أن تقول لي إنك لا تسمع ذلك؟

وقف يتحرى السمع مرةً أخرى.
صاح بابتسامة إنتصار: "ولا تسمع ذلك أيضًا؟ هل يمكن لأي شخص أن يعرف ذلك الصوت مثلي؟ صه! صه!". أومأ إليه ليصمت، وهود إلى غرفة أخرى. بعد غياب قصير - سمعه خلاله يتهامس بلهجة ناعمة مهدئة - عاد، يحمل مصباحًا في يده.
قال هامسًا: "إنها لا تزال نائمة.. كنت محقًّا. إنها لم تنادِ - إلا إذا فعلت ذلك في سباتها. لقد نادتني وهي نائمة قبل الآن يا سيدي، بينما كنت جالسًا إلى جوارها، أرنو إليها، رأيت شفتيها تتحركان، وعرفت على الرغم من عدم صدور أي صوت منهما، أنها كانت تتحدث عني.. خشيت أن يزعج الضوء عينيها، ويقلق منامها، فأحضرته إلى هنا".
كان حديثه أقرب إلى التمتمة إلى النفس، من التحدث إلى الزائر، لكنه عندما وضع المصباح على الطاولة، رفعه مرةً أخرى، كما لو كان مُسيَّرًا من قبل بعض الذكريات أو مدفوعًا بالفضول، وقربه من وجهه.
لكن اللحظة لم تكتمل، كما لو أنه نسي ما إنتوى فعله، فاستدار، ووضعه مرةً ثانية.
قال: "إنها نائمة في سلام.. ولا عجب! نثرت لها الملائكة الثلج، كست به كل الأرض، لدرجة أن أثقل الخطى صارت أخفت وقعًا، حتى الطيور ساكنة هادئة، لا تريد أن تقلق منامها. لقد إعتادت إطعامها يا سيدي. إن لم تكن تشعر بالبرد القارس أو الجوع، تهرب تلك العصافير الخجولة منا دومًا، لكنها لم تهرب منها قط!".
توقف ليتحرى السمع مرةً أخرى، كان بالكاد يتنفس من بعد أن كتم أنفاسه، ينصت لفترة طويلة، طويلة جدًّا. بعد أن مضى وهمه، فتح صندوقًا قديمًا، وأخرج منه بعض الملابس في حنو ولطف، كما لو كانت كائنات حية، وبدأ يتلمسها ويملس عليها بيده.
قال متمتمًا: "لماذا أنتِ راقدة في سريركِ يا عزيزتي نيل، بينما ينتظرك توت أحمر خارج بابكِ لتقطفيه؟ لماذا أنت راقدة هناك في هذا الخمول الجم والسكينة، بينما يأتي أصدقاؤك الصغار متسللين، يقفون عند الباب ويصيحون: أين نيل - أين نيل الجميلة؟ ومن بعدها ينوحون وينتحبون؛ لأنهم لا يرونكِ! لطالما كانت مع الأطفال حنونة لطيفة. كان أكثرهم شقاوةً يهدأ ويطيع حديثها - لدبها روح لينة وطريقة ناعمة تتعامل بها معهم!".
لم يقوَ كيت على الحديث. وقد فاضت عيناه بالدمع.
صاح الرجل العجوز: "هذا فستانها الصغير، المفضل لديها!".
ضمه إلى صدره، يربت عليه بيديه المجعدتين: "كم ستفتقده حينما تستيقظ! لقد أخفوه هنا أثناء اللهو، لكنها ستستيقظ وتأخذه - حتمًا ستستيقظ وتأخذه. أبدًا لن أزعج وأرهق عزيزتي، ولو من أجل ثروات العالم الواسع أجمع. انظر! انظر إلى زوجي الحذاء! انظر كيف هما مهترئتان! لقد احتفظت بهما ليذكراها برحلتنا الطويلة الأخيرة، انظر كيف كانت تطأ الأرض بقدميها الصغيرتين العاريتين. لقد أخبروني فيما بعد أن الحجارة كدمتهما وجرحتهما وأنزفتهما، لكنها لم تخبرني بذلك قط. أبدًا لم تفعل! فليبارك الرب روحها! أتذكر حينها، كانت تمشي خلفي يا سيدي؛ كي لا أرى كيف كانت تعرج وتتألم، ومع ذلك تأخذ بيدي؛ لأتوكأ عليها، تحنو عليَّ بيديها، وتقتادني عبر الطريق".
قبَّلهما بشفتيه، وأعادهما بحذر مرة أخرى، وهو لا يزال يتمتم إلى نفسه، و من وقت لآخر ينظر بحزن إلى الغرفة التي زارها مؤخرًا:

"لم تكن تريد الإستلقاء في سريرها، كانت في حالةٍ جيدةٍ. يجب أن نتحلى بالصبر. عندما تصبح في حالة جيدة مرةً أخرى، ستنهض باكرًا، كما إعتادت، وتتجول هنا وهناك في الصباح المشرق. غالبًا كنت أحاول تقفي أثرها، لكن قدميها الصغيرتين لم تكونا تتركان أثرًا على الأرض الندية، لترشداني. من هذا؟ أغلق الباب من فورك. أسرع! - أليس لدينا ما يكفي للتعامل معه، حتى نتكبد معاناة إخراج الجرف الثلجي، ونحافظ على إبقائها دافئة!".
قد فتح الباب بالفعل؛ لدخول السيد جارلاند وصديقه، وفي صحبتهما شخصان آخران. كانا المعلم والعازب حامل البكالوريا. وتقدم أولهما يحمل مصباحًا في يده، بدا أنه كان هنا، لكنه ذهب إلى كوخه لتجديد مصباحه الخافت، في اللحظة التي أتى كيت فيها ووجد الرجل العجوز يجلس بمفرده. هدأ مرةً أخرى؛ فور رؤية هذين الصديقين، ونحّى غضبه تمامًا - إذا جاز إستعمال هذا التعبير، فلم يكن سوى وهن وحزن - الذي تحدث به حين فتح الباب، وعاد إلى موضع جلسته الأول، منحسرًا منكس الرأس، ملتاعًا، ينكمش في نفسه شيئًا فشيئًا، يتمتم بصوته الكئيب الشارد. لم يحرك طرفًا، أو أعار إنتباهًا لوجود الغريبين. لقد رآهما، لكنه كان خاويًّا من أي تعبير أو دهشة. ظل الأخ الأصغر واقفًا على مبعدة، بينما سحب العازب حامل البكالوريا كرسيًّا إلى جوار الرجل العجوز، وجلس بجانبه. وبعد صمت طويل، جسر على الحديث.
قال بلطف: "تمضي ليلة أخرى، ولست نائمًا في سريرك! أرجو أن تأخذ بعين الإعتبار الوعد الذي أبرمته معي. لماذا لا ترتاح قليلًا؟".
رد الرجل العجوز: "رحل عني النوم.. رحل كل شيء معها!".
قال العازب حامل البكالوريا: "حينما تنهض، سيؤلمها إذا عرفت أنك كنت مستيقظًا طوال ذلك الوقت. هل تريد أن تسبب لها آلامًا؟".
- لست متأكدًا، لو أن هذا سيتسبب في نهوضها. لقد نامت لفترة طويلة. ومع ذلك أجسر على قول أنه نوم هانئ سالم.. أليس كذلك؟
رد العازب حامل البكالوريا: "بالطبع هو كذلك.. إنه كذلك فعلًا!".
قال الرجل العجوز متلعثمًا: "هذا جيد! والإستيقاظ..".
- سالم مُسعِد أيضًا.. أكثر بهجة من أن يصفه لسان، أو يخطر على قلب بشر.
راقبوه وهو يقوم متسللًا على أطراف أصابع قدميه إلى الغرفة الأخرى، التي أخذ منها المصباح من قبل. سمعوه يتحدث مرةً أخرى عبر الحوائط المصمتة. نظروا في وجوه بعضهم، لم تكن وجنتا أيٍّ منهم خالية من هطول الدمع. عاد مرةً أخرى، يهمس بأنها لا تزال نائمة، لكنه ظن أنها تحركت. قال: إن يدها هي التي تحركت، قليلًا.. بل قليلًا جدًّا جدًّا، لكنه متأكد تمام التأكد أنها تحركت لتلمس يده، كان يعرف أنها كانت تفعل ذلك قبل الآن، حتى وإن كانت حينها في أعمق نومها. وعندما قال ذلك، إرتمى على كرسيه مرةً أخرى، لطم براحة كفيه على رأسه، ورفع صوته بعويل لا يمكن أن ينسى أبد الدهر.
أومأ المعلم المسكين إلى العازب حامل البكالوريا بأنه سيأتي من الجانب الآخر؛ ليتحدث إليه , فتحا تشابك أصابعه معًا بلين، من بعد أن لوى بينهما شعره الرمادي، وأمسكا بها بين يديهما بكل رفق.
قال المعلم: "سيستمع إليَّ.. أنا متأكد. إذا طلبنا منه سواءً أنا أو أنت، فسوف يستمع إلينا. كانت تفعل هي في كل الأوقات".

صاح الرجل العجوز: "سأستمع إلى أي صوت كانت تحبه.. أنا أحب كل ما أحبته!".
رد المعلم: "أعلم أنك ستفعل.. أنا متأكد.. أريدك أن تفكر فيها، فكر في كل الصعوبات التي تخطيتماها معًا، فكر في كل المعاناة التي مررتما بها سالمين، فكر في كل الأحزان والآلام التي شاركتماها معًا، فكر في كل المحن والمصائب، ومن بعدها تدبر كل السرور المنعم بالسلام الذي عرفتماه معًا".
- إني فاعل.. إني فاعل.. لا أفكر في أي أمر آخر.
لا أريدك أن تفكر في أي شيء آخر هذه الليلة.. لا تفكر في أي شيء سوى الأشياء التي تجبر قلبك المحزون يا صديقي العزيز، أريدك أن تشرح قلبك بالعواطف القديمة وأوقاتكما معًا، لو كان بإمكانها أن تتحدث معك، لقالت لك نفس الكلام. وباسمها أنا أتحدث الآن.
قال الرجل العجوز: "مشكور لتحدثك بهدوء، على أي حال لن توقظها.. كم سيسعدني أن أرى عينيها مرةً أخرى، وأرى إبتسامتها! يرتسم الآن على محياها إبتسامة حانية، لكنها ثابتة لا تتغير. كم أود أن أراها تمشي أمامي جيئةً وذهابًا. حريٌّ أن يكون ذلك في رحاب جنات نعيم. على أي حال لن نوقظها".
قال المعلم: "دعنا لا نتحدث عنها في نومها، دعنا نتحدث عنها كما إعتادت أن تكون في أوقات سفركما معًا - أو أبعد من ذلك - كما إعتادت أن تكون في البيت، في البيت القديم الذي رحلتما عنه معًا، عندما كانت متهللة الوجه بالسعادة، دعنا نتحدث عنها في أوقات فرحها وسرورها".
صاح الرجل العجوز، ينظر إليه بعينين شاخصتين: "لطالما كانت مبتهجة الوجه، متبسمة الأسارير.. لكن شيئًا شاب إبتهاجها منذ البداية، بإمكاني أن أتذكر، على الرغم من طبيعتها الباشة".
إستأنف المعلم كلامه: "لقد سمعنا أنها ورثت ذلك وورثت ببساطة فضائلها الجمة من والدتها. هل يمكنك التفكير فيها وتذكرها؟".
حدق فيه بعينيه الشاخصتين مليًّا، ولم يومئ بأي إجابة.
قال العازب حامل البكالوريا: "أو أن تتذكر ما كان قبلها.. لسنوات عديدة، أثقلها الحزن وأعنتها ردحًا طويلًا، ومع ذلك لم تنس ذكراها، لم تنس ما ساهم في جعل هذه الطفلة عزيزة على قلبك قريبة منك من بعد موتها، قبل حتى أن تعرف سجاياها أو تطلع على قلبها! قل! إن بإمكانك أن تعيد ذكرياتك إلى الأيام الخوالي، إلى سن الحداثة، على عكس هذه الزهرة الجميلة، حيث لم تمضِ مطالع الصبا وحدك. قل! إن بإمكانك أن تتذكر طفلًا أحببته حبًّا جمًا في قديم الزمان، وكنت نفسك طفلًا أيضًا. قل! إن لديك أخًا، قد يكون الزمن قد وارى ذكراه، لم تره لسنين طويلة، هجرك قبل ردح طويل، والآن عاد أخيرًا، وهو في أمس الحاجة ليكون إلى جانبك، يود أن يريحك ويعزيك...".
خر الأخ الأصغر جاثمًا على ركبتيه أمامه وصاح: "ويكون لك كيفما كنت له فيما مضى.. أن يكون يدك اليمني، من أجل أن يوفيك حقك، حق ما قدمته له قديمًا يا أخي العزيز، أن يحتويك بكل ود وعطف وحب، لم ينقطع أبدًا، على الرغم من المحيطات التي ماجت بينكما.. ويشهدك على حقيقته وعواطفه التي لم تتغير على مر تلك الأيام، وخلال سنوات عزلته وأساه. قل لي كلمة واحدة يا أخي، تبين أنك تعرفني، لا لا يا أخي! قل لي هل يوجد أسعد من أيام طفولتنا، عندما كنا

مجرد طفلين ساذجين، وظننا أننا سنمضي حياتنا معًا، كنا عزيزين مخلصين لبعضنا، مثلما سوف نكون من الآن فصاعدًا!".
نظر الرجل العجوز من وجه إلى آخر، يحرك شفتيه، لكن الصوت لا يخرج من بينهما.
استأنف الأخ الأصغر قائلًا: "يا له من وثاق متين سيربط بيننا! إذا جمع شملنا مرةً أخرى. بدأ حبنا وصداقتنا في الطفولة، عندما كانت الحياة كلها أمامنا، وسوف نستكملها معًا ما دمنا برهنا على ذلك.. وما نحن إلا أطفالًا صغارًا في النهاية. كم من أرواح هائمة عديدة، من بعد اقتناص الثروة والشهرة والسعادة عبر التجوال في العالم، يبحثون عن ملاذ للراحة، يأوون حيث لفظوا أنفاسهم الأولى، يسعون عبثًا لإحياء ذكريات طفولتهم، ليكونوا أطفالًا مرةً أخرى قبل موتهم، وعلى الرغم من أننا كنا أقل منهم حظًّا في السنوات الأولى لحياتنا، سنكون أكثر سعادة في مشاهدها الختامية، سوف نريح عقلينا مشمولين بأفكارنا الصبيانية، نعود إلى بيتنا بلا رجاء استحوذ على سنين عمرنا، لا نعيد ذكريات موجعة قد تناسيناها، نعيد فقط إشتياقنا وودنا القديم الذي نكنه إلى أحدنا الآخر.. لا نحتفظ بشيء من أطلال الحياة، غير ما أحببناه فعلًا في البداية، حينما كنا أطفالًا.. وحتى.."، أضاف بنبرة مختلفة: "حتى لو كان ما أخشى ذكره يا أخي العزيز - حدث أو مترقب حدوثه (حاشا وكلا.. فلتحمنا السماء وتعافنا!) لن ننفصل أبدًا أحدنا عن الآخر، وليجيرنا هذا في مصيبتنا المفجعة".
بينما كانت تُلفظ تلك الكلمات، وتتردد على مسامعه، هوَّد الرجل العجوز مترنحًا، يخطو للأمام في وهن خطوة بخطوة نحو الغرفة الداخلية. يشير هناك وهو يرد بشفتين مرتجفتين:
"إنها مؤامرة بينكما لفطر قلبي.. فإنك لست بفاعل لما تقول أبدًا.. إنك لن تفعل ما دمت حيًّا. لم يكن لديَّ أقارب أو أصدقاء سواها - لم يكن لديَّ، ولن يكون لديَّ. كانت لي كل حياتي، كانت لي كل أُناسي.. باكرًا على الرحيل يا فتاتي".
لوَّح لهم بيده، وهوَّد إلى داخل الغرفة مناديًا عليها بلطف، تجمع من تركهم معًا، وبعد أن تهامسوا بقليل من كلمات لم تنطق بسهولة، غير مسترسلة منقطعة جاشت خلالها العواطف والأحزان، تبعوه، تحركوا بلطف، لم يكن لوقع أقدامهم أي صوت، بل إرتفعت أصوات نحيب من بين جمعهم كله، واعتلاها أصوات جداد متكبدة لمرارة الفاجعة، حزينة.
لقد ماتت، ماتت مفترشة سريرها الصغير، راقدة في سلام.. فما برح السكون المهيب عجيبًا الآن..
لقد ماتت، وكم تبدت سجاياها الحسان أشد حسنًا ورواء، منزهة عن كل ألم ومعاناة، أرعى للأنظار، تُسكِّن الناظرين. بدت مخلوقة حديثة الخلق من يد الخالق، منتظرة ليُنفخ فيها الروح، لم تَبْدُ كمن عاشت وتكبدت آلامًا، وفاضت روحها.
زُينت أريكتها بكساء من أوراق الأشجار الخضراء منثورة عليها توت شتوي، جُمعت في ركنها المفضل: "عندما أموت، ضعوا بقربي شيئًا أحبَّ النور، ودائمًا أستظل بالسماء الحانية". كانت تلك كلماتها قبل موتها.
لقد ماتت، ماتت العزيزة الصبورة اللطيفة الكريمة، ماتت نيل. يرتجف عصفورها المسكين في قفصه - عصفور ضعيف صغير، كان يمكن أن تسحقه ضغطة واحدة من إصبع - وصامتًا كان قلب خليلته الطفلة، لن يرجف ولن يرتجف ثانيةً إلى الأبد. أين آثار ما شهدته من الهموم باكرًا؟ أين توارت معاناتها؟ أين إختفى إعياؤها! كلٌ قد رحل.. مات الحزن معها، وولد السلام والهدوء والسعادة، وصور في هدوء وجمال وسكينة استرخاءها العميق.

فلا عجب! تكمن هي في كل مكان دون تغيير، نعم. دائمًا ما يتبسم مثل هذا الوجه النقي الجميل عند المدفأة القديمة، مر مثل حلم، عبر بؤس ومآس وهموم، دائمًا ما يتبسم عند باب المعلم في الليالي الصيفية، وقبل إشعال نيران المدفأة في ليالي البرد الشتوية، دائمًا ما يتبسم إلى جانب سرير الصبي المحتضر، دائمًا ما يتبدى نفس المظهر السمح اللطيف.. هكذا تتبدى لنا الملائكة في جلالها، بعد الموت.
أمسك الرجل العجوز ذراعها المتراخية، وضم يدها الصغيرة بشدة إلى صدره، يرجو الدفء. كانت تلك هي يدها التي مدتها إليه بابتسامتها الأخيرة.. اليد التي توكأ عليها واقتادته طوال ترحالهم. بين الفينة والفينة، يضغط بها على شفتيه، ثم يعاود ضمها إلى صدره، ويغمغم بأنها صارت أكثر دفئًا الآن، وبينما كان يقول ذلك، ينظر بحسرة مهلكة إلى أولئك الذين وقفوا حوله، كأنه يتوسلهم لمساعدتها متضرعًا.
لقد ماتت، ولن تنفع مساعدة، ولا حاجة لها إليها. فلن تشهدها بعد الآن الغرف القديمة التي دبت فيها دبيب الحياة، وإن كانت غرفتها الخاصة تداعت أسرع - والحديقة التي رعتها - والأعين التي سُرت لرؤياها - وساعات التفكير الطويلة الصامتة - والمسارات التي سلكتها آخر مرة بالأمس القريب.
إنحنى المعلم ليقبلها على خدها، وانفضت دموعه وانهمرت، قائلًا: "لا تقنط من عدالة السماء. لقد وسعت رحماتها كل شيء. فكِّر أي مكان في الأرض قد يضاهي ولو جزءًا من العالم الذي رفرفت تجاهه روحها الفتية في رحلتها المبكرة، وقل لي! إذا كانت هناك أي أمنية، يمكن التعبير عنها بعبارات شعائرية مهيبة فوق هذا السرير، يمكن أن تعيدها إلى الحياة، من منَّا يمكن له أن ينطق بها!".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثاني والسبعون

حينما طلع الصباح، وأصبح بإمكانهم التحدث بهدوء عما فطر قلوبهم، ورزحهم في أسى مفرط، سمعوا كيف أودت بها المنية.
لقد ماتت منذ يومين. كانوا مجتمعين جميعًا حولها، يعلمون أن النهاية كانت تقترب، توفيت بعد فترة وجيزة من الفجر، في وقت مبكر من تلك الليلة، كانوا جالسين حولها يقرؤون لها ويتحدثون معها، ومع مرور الساعات، غلبها النعاس، ونامت. سمعوا ما كانت تُتمتم به بصوت ضعيف في أحلامها، كانت مع الرجل العجوز في إحدى رحلاتهما، لم تظهر في الحلم أي مشاهد مؤلمة، بل على النقيض تمامًا، كانت محاطة بجميع من ساعدوها وعاملوها بلطف؛ لبثت تلفظ بحرارة: "فليباركك الرب!". استيقظت.. وقالت لهم إنها لم تحلم بتجوالها أبدًا سوى هذه المرة، وإن ألحانًا عذبة كانت تُعزف طواله في شتى نواحي السماء. يعلم الله. ربما كان الأمر كذلك فعلًا.
فتحت عينيها أخيرًا، من نوم هادئ جدًّا، وتوسلت إليهم ليقبلوها مرة أخرى. بعد أن لبوا رغبتها، إلتفتت إلى الرجل العجوز، تعتلي وجهها إبتسامة حنونة، قالوا عنها إنهم لم يروها من قبل ولا يستطيعون نسيانها، وبعدها طوقت بذراعيها عنقه في حنوٍّ. ولم يدركوا في بادئ الأمر أنها ماتت.
كثيرًا ما تحدثت عن الأختين، قالت عنهما إنهما كانتا لها صديقتين مقربتين جدًّا. تمنت لو كان بالإمكان إخبارهما كم كانت تفكر فيهما! وكيف كانت ترنو إليهما حينما كانتا تمشيان معًا، بجانب النهر ليلًا. ودت أن ترى كيت العزيز، لطالما أعربت عن هذه الرغبة مرات عديدة مؤخرًا. تمنت لو أن هناك أحدًا بإمكانه أن يخبر كيت بمدى حبها له. ومن بعدها لم تعبر عنه بخاطرة أو بكلمة، إلَّا وتضحك بروح ضحكاته القديمة المرحة الصافية.
أما بالنسبة إلى البقية، فإنها أبدًا لم تتذمر أو تشتكي، تتحدث بتعقل رزين وبسلوك هادئ لا يتغير - يذكر أنها يومًا من بعد يوم صارت تجاههم أكثر ودًّا وامتنانا - تلاشى كل شيء كضوء في الأمسيات الصيفية.
مع أول خيوط النهار، أتى الطفل - صديقها الصغير - يحمل أزهارًا مجففة، متوسلًا إياهم أن يضعوها على صدرها. إنه ذاك الطفل الذي دلف إلى نافذته، ولم يحول نظره عنها طوال الليل، وتحدث إلى القندلفت، تبينوا آثار قدميه الصغيرتين في الثلج، حيث إعتاد أن يتسلل ليلًا بالقرب من الغرفة التي كانت فيها ترقد؛ ليطمئن عليها قبل أن يأوي إلى فراشه. ربما كان لديه وهم، ولم يستطع تحمل فكرته، حيال أنهم تركوها هناك بمفردها.
أخبرهم بحلمه مرةً أخرى، وأخبرهم عن استعادتهم إياها، تمامًا كما كانت من قبل. رجاهم متوسلًا إليهم بشدة؛ ليراها، أبرم وعودًا، قائلًا إنه سيلتزم الصمت تمامًا، وإنه لا داعيَ للخوف من أن ينتابه الفزع؛ فقد جلس بجوار أخيه الصغير يومًا كاملًا وهو ميت، وأنه شعر بالفرح؛ لأنه كان قريبًا منه في تلك اللحظات الأخيرة، دعوه يفعل ما تمنى، وقد كان صادقًا فيما وعد، وبطريقته الطفولية كان لهم جميعًا مثالًا يُحتذى به.
حتى ذلك الوقت، لم يتحدث العجوز مع أي أحد سواها - ولم يبرح مكانه، ماكثًا بجانب السرير. لكنه عندما رأى عزيزها الصغير، تحرك كما لم يروه يتحرك هكذا من قبل، وأوحت حركة جسده، كما لو كان يستدعيه ليقترب. وبعدها، مشيرًا إلى السرير، خر باكيًا، وفاضت عيناه بالدمع لأول

مرة، حينما تبصر الواقفون، أن رؤية هذا الطفل، كان فيه برء لحالته، تركاهما بمفردهما معًا. هدأه الطفل بحديث عنها كان طفوليًا تشتمله البراءة، وأقنعه بأخذ قسط من الراحة، وبالمشي ولو قليلًا في الخارج، وأن يفعل ما يُطلب منه. وعندما حل اليوم، الذي سينقلونها فيه تحت الثرى، بعيدًا عن أعين الورى، أخذه بعيدًا؛ حتى لا يشهد الوقت الذي سيأخذونها من أحضانه إلى الأبد.

أحاطوا سريرها بأوراق الشجر وبتوت طازج. وافق يومهم يوم الأحد - كان يومًا مشرقًا صافيًا، باردًا بعد ظهيرته - بينما كانوا يمشون في شوارع القرية، أفسح لهما السائرون مجالًا، يحيونهم بتحيات معزية. وصافح بعضهم الرجل العجوز بعطف، ووقف بعضهم خالعين قبعاتهم، بينما كان يمر أمامهم، وصاح الكثيرون بعد أن مضى في طريقه طويلًا داعين: "أعانه الله!".

توقف الرجل العجوز عند الكوخ الذي سكنته والدة مرشد طريقه، وسألها: "أيتها الجارة.. قولي لي لماذا يرتدي أغلب الناس اليوم ثيابًا سوداء؟ لقد رأيت عصابة أو شريط حداد على كل واحد تقريبًا".

قالت المرأة: إنها لا تعرف شيئًا.

قال: "كيف! فأنتِ نفسكِ ترتدين نفس اللون أيضًا! أرى أن كل النوافذ مغلقة، ولم تكن كذلك مطلقًا عدا اليوم.. ماذا يعني هذا؟".

قالت المرأة: إنها لا تعرف سببًا.

قال الرجل العجوز على عجل: "يجب أن نعود.. يجب أن نعرف ما هذا!".

صاح الطفل من فوره، محتجزًا إياه: "لا لا! ألا تتذكر وعدك لي! إن طريقنا نحو الممر الأخضر القديم، حيث وجدتني أنا وهي أكثر من مرة، تصنع تلك الأكاليل لحديقتها , فلا، لن نعود!".

قال الرجل العجوز: "حسنًا! لكن أين هي الآن؟ قل لي".

رد الطفل: "ألا تعرف؟ ألم نتركها من تونا؟".

- صحيح صحيح. إنها حيث تركناها.. أليس كذلك؟

وضع يده على جبينه، ينظر حوله بإبهام، ثم بدا كأن فكرة قد خطرت على باله فجأةً، فإذ به يعبر الشارع، ودخل إلى بيت القندلفت. كان هو وصديقه الأصم جالسين أمام النيران، وقد نهضا معًا ليتبينا من أتى. أشار الطفل لهما بيده على عجل. كانت إشارة لحظية، لم يكشفا ماهيتها، لكن منظر العجوز ونظراته، كانت كافية لتفسير كل شيء.

قال بحماس مضطرب: "هل - هل ستدفن أحدًا اليوم؟".

رد القندلفت: "لا لا! من يجب أن ندفنه يا سيدي؟".

- اممم.. مَن! أنا لا أعرف من! أنا في الواقع أسألك مَن.

رد القندلفت باعتدال: "إنها عطلة أيها السيد الطيب.. ليس لدينا أي عمل نقوم به اليوم".

إلتفتَ الرجل العجوز إلى الطفل وقال: "حسنا سأذهب معك أينما أنت ذاهب.. لكنك متأكد مما أخبرتني به.. أليس كذلك؟ إنك لا تخدعني! لقد تغيرت، تغيرت منذ آخر مرة رأيتني فيها".

صاح القندلفت: "امضِ في طريقك معه يا سيدي، ولترعاكما السماء!..

قال الرجل العجوز في خنوع: "حسنًا! أنا مستعد الآن لأذهب معك يا ولدي.. هيا بنا! هيا..".

وهكذا سلم بأخذه بعيدًا طوعًا!

دق الجرس - الجرس الذي سمعته ليلًا وصباحًا، واستأنست به، وغمر روحها بسعاة شعائرية، كما لو كان صوتًا تنبض به الحياة - قرع الناقوس بنغمة جنائزية لا ترحم، من أجلها، من أجل جمالها وحسنها وطيبتها. أتى الطاعنون في السن، والكهول، واليُفعان، والقُصَّر، والأطفال، والرضع من لا حول لهم - أتوا بمختلف الهيئات، متكئين على عكاكيزهم، ناعمين بالصحة والقوة، مضطربين خجلًا، أو في فجر سنواتهم الأولى - مجتمعين، ملتفين حول قبرها. كان من بينهم الأجداد من ضعفت قدرات حواسهم وخفت نور أعينهم، والجدات ربما تكون المنية قد وافتهن منذ عشر سنوات لكنهن ما زلن مسنات، والأصم، والأعمى، والأعرج، والمشلول، وغيرهم من الأموات الأحياء بمختلف الأشكال والهيئات؛ لرؤية إغلاق قبر باكر عن أوانه. يحجز الموت أرواحًا داخل القبور، وما زال يحوم ويزحف فوقها.
حملوا جثمانها على طول الطريق المكدس بالناس، نقيًّا كندف الثلج الذي غطاه، سريع الزوال، فلا يبقى على الأرض سوى لحظات عابرة، وعند الرواق، حيثما جلست، عندما أرشدتها رحمات السماء إلى أرضها السلام، مرت مرةً أخرى أخيرة، واستقبلتها الكنيسة القديمة بظلها الهادئ.
حملوا جثمانها إلى ركن رخيم، كانت تجلس فيه مرات ومرات عديدة تتأمل ما حولها، ثم وضعوا ما حملوا على الرصيف بهدوء. إنساب الضوء عليه من نافذة ملونة، وقد كانت الأشجار خارجها تصدر حفيفًا لم يسمع في أي وقت مضى في الصيف، وكانت الطيور ترفرف مغردةً بأعذب الألحان طوال النهار. ومع كل دفقة نسيم، تتحرك معها أفرع الأشجار، التي تنساب من بينها أشعة الشمس، متلألئة على قبرها.
من أرض إلى أرض، من رماد إلى رماد، من طين إلى طين! ألقت الأيادي الشابة أكاليلها، وسُمعت أصوات النواح والتنهدات المختنقة بالعبرات. خر بعضهم جاثمين - لم يكونوا بالعدد القليل أبدًا - وبكوا جميعهم في حزنهم صادقين.
إنتهى القداس، تفرق المعزون، واقترب القرويون، يرنون إلى قبرها قبل إعادة وضع الحجر. قال أحدهم متذكرًا كيف كانت تجلس في نفس المكان، وكتابها موضوع على حجرها، بينما كانت رانية إلى السماء بملامح وجه متأملة. وقال الآخر كم من مرة كان يتعجب، متسائلًا كيف أن طفلة رقيقة حساسة مثلها، جريئة جدًّا؛ فكيف لم تَخفْ أبدًا من الدخول إلى الكنيسة بمفردها ليلًا، وأحبت رغم سكون كل شيء حولها البقاء هنا بمفردها، فضلًا عن تسلقها لدرج البرج، دون أي ضوء سوى ضوء القمر الذي كان ينير لها من ثلمات الحائط القديم السميك. ثم إرتفعت همسات من بين كبار السن، تفيد بأنها كانت ترى الملائكة وتتحدث معهم.. فعلت الهمهمات من بينهم جميعًا، بعد أن تذكروا كيف كان شكلها، كيف كانت تتحدث وتتعامل، وتدبروا موتها المبكر، فصدقوا على ما قيل. وهكذا، تتابعوا بشرائط معقودة؛ ينظرون إلى قبرها، ثم يفسحون المجال لآخرين، وينفضون، حتى بقت ثلاث أو أربع مجموعات تتهامس فيما بينهم، إلى أن خلت الكنيسة من الجميع مع مرور الوقت، عدا القندلفت والأصدقاء المحزونين.
شهدوا المدفن مغطًّى، والحجر محكمًا غلقه. رأوا غروب الشمس وإطباق الليل، دون أن يداهم أي صوت حرمة سكون المكان، شهدوا ضوء قمر ليلتهم المنير على الضريح والنصب التذكاري، وعلى العمود والجدار والقوس، تراءى لهم أن ضوءه كان متمركزًا على قبرها بالأخص - شهدوا في ذلك الوقت الهادئ تناغم الأشياء الخارجية وأفكارهم الداخلية مع تأكيدات الخلود، شهدوا

الآمال والمخاوف الدنيوية وقد واراها التراب أمامهم.. بقلوب قانتة هادئة، رحلوا تاركين الطفلة مع خالقها.
كم هي قاسية تلك العظة التي نعتبر بها من هذه الميتات! دع أولي الألباب يعتبرون.. فما هو إلا درس على الجميع تعلمه لا إهماله؛ فهو الحقيقة الكونية. حينما يذوق الأبرياء و الصغار الموت، مقابل كل نمط هش لكل روح مرثية يُطلق سراحها، تُبعث مئات الفضائل، على شكل رحمة وإحسان ومحبة تسع العالم وتباركه، مع كل دمعة يذرفها البشر المحزنون على مثل هذه القبور الخضراء، يُروى الخير ويُزهر، وتترع الطبيعة الحانية. ينبثق نور يضيء عتمة مسعى أحدهم، فيتحول طريقه الحالك ضياء يرشده إلى الجنة.
عندما عاد الرجل العجوز إلى البيت، كان الوقت متأخرًا؛ ففي طرق عودتهما، عرج الطفل معه إلى بيته، وببعض التظاهر، وبسبب حاجته للراحة لمشقات لياليه الأخيرة، والنعاس الذي غلبه، نام مستغرقًا بجانب المدفأة. كان منهكًا تمامًا، وحرصوا جميعًا على عدم إيقاظه، ظل نائمًا لفترة طويلة، وعندما استيقظ أخيرًا، كان القمر منيرًا في السماء.
مكث الأخ الصغير غير مرتاح لغيابه الطويل، شاخص العينين تجاه الباب، مرتقبًا مجيأه، حتى ظهر أخيرًا في الممر مع مرشده الصغير. سارع بالتقدم إليهما من فوره، مستسمحًا شقيقه بحنان، ليتوكأ على ذراعه، وهوَّد معه إلى البيت بخطوات بطيئة مرتجفة. وفور ما دخل، عرج إلى غرفتها مباشرةً دون هدنة. لم يجد ما تركه فيها، عاد بمظهر مشتت و نظرات مضطربة إلى الغرفة التي كانوا فيها مجتمعين. إندفع من فوره إلى كوخ المعلم، ينادي عليها، فاتبعوه عن كثب، وبعد أن بحث عبثًا، أعادوه إلى بيته.
وبكلمات حنونة مشفقة أقنعوه بأن ينزل على مشيئتهم، وبينهم يجلس، ليسمع ما يجب أن يخبروه، لجأوا إلى كل حيلة ممكنة ليمهدوا عقله من أجل إستيعاب ما سوف يُقال، وعهدوا إلى العديد من الكلمات الحماسية؛ موضحين نعيم ما فيه تسكن، ثم.. أخبروه أخيرًا بالحقيقة، وفي نفس الدقيقة التي خرج فيها الخبر من بين شفاههم، طُرح على الأرض لا حراك فيه مثل مَن خر صريعًا. ولعدة ساعات، تداهمهم فيها خيبات أمل كبيرة في بقائه، كان الحزن يلازمهم طوالها، إستعاد وعيه أخيرًا.
إذا كان هناك أحد لم يعرف أبدًا معنى الشرود الذي يتبع الموت - الشرود المهلك - فيهيمن الخراب ولو على أكثر العقول رشدًا، يستحوذ الأسى على الروح، ويداهم النفس الشعور بالفقد لشيء محبب مألوف مع كل خطوة تطؤها الأقدام، وشعور بنقصان لن يكتمل إلى الأبد، معنى العلاقة الواصلة بين كل شيء مادي وإن كان صغيرًا بالذاكرة، فتصبح كل روح كانت تحرس البيت المأهول نُصبًا تذكارية، وتصبح كل الغرف قبورًا.. إذا كان هناك أحد لم يختبر هذا الشعور في حياته الخاصة، لن يمكنه أبدًا فهم ولو بصورة طفيفة، كيف كان الرجل العجوز هزيلًا شاحبًا، شاردًا في تأملات مبهمة لعدة أيام طال بقاؤها، يفتش هنا وهناك يبحث عن شيء لن يعثر عليه أبدًا، لا يهنأ بوهلة من راحة.
مهما كانت قوة الفكرة أو الذكرى التي إستبقاها، كانت كلها مرتبطة بها. لم يفهم أبدًا، وغير بادٍ أنه مكترث البتة بشقيقه. كان يقابل كل كلمة عزاء، كل تربيتة حب، كل اهتمام، بفتور غير مسبوق. إذا حدثوه عن هذا الشأن أو أي شأن آخر - باستثناء شأن واحد -، يسمعهم بصبر لبعض الوقت، ثم يندفع باحثًا كما كان من قبل ودون هوادة.

أما حيال هذا الشأن الواحد، الذي استحوذ بالكلية على ذهنه، وعلى أذهانهم جميعًا، فكان من المستحيل الخوض في ذكره. ماتت! كيف تنطق هذه الكلمة، التي لن يتحمل قلبه سماعها! كيف وأبسط تلميح عنها سيطرحه مغشيًا عليه، لا يحرك أي طرف، مثل أول مرة قيلت فيها تلك الكلمة أمامه، لا يمكن لأحد على وجه الأرض، أن يقول أي أمل كان يتشبث به، أو يعيش عليه، لكن أمله في العثور عليها مرةً أخرى، كان للجميع واضحًا - كان أملًا مبهمًا خافتًا لازمه، تثقل وطأته من يوم لآخر، ويرزحه تحت وطأة الإعياء والهزال يومًا بعد يوم، وتتعقد له غصص قلبه ألمًا وحزنًا.

استحثوهم على الإبتعاد عن مشهد الحزن الأخير، نصحوهم بأن يغيروا المكان؛ فربما سيعافيه هذا الفعل ويهدئ من روعه. إستمع شقيقه إلى رشد أولئك الذين إعتبرهم حاذقين في مثل تلك الأمور لإعتيادهم عليها، وقد أتوا ورأوه. وبعد أن تقدم بعض منهم على الفور، وتحدثوا إليه، حينما وافق على التحدث، وشاهدوه وهو يهوِّد جيئةً وذهابًا صامتًا بمفرده وحيدًا. قالوا إن الإنتقال به أينما يشاؤون، لن يجدي نفعًا؛ فسوف يحاول جاهدًا الوصول إلى هذا المكان مرات ومرات , سيفر عقله إلى هذا المكان، حتى إن أبقوه تحت ناظريهم عن كثب، وطوقوه بالحراسة المشددة، أو إحتجزوه سجينًا، إذا واتته أي فرصة للهروب، سوف يهرب ويعود أدراجه حتمًا إلى ذلك المكان، أو يموت على الطريق.

لم يعد للولد الذي حاز معه على تقدم في البداية، أي تأثير عليه. أحيانًا كان يسمح للطفل بأن يسير بجانبه في الطريق، فلما كان يلاحظ وجوده سوى تلك المرات التي مد فيها إليه يده، أو توقف ليقبِّل وجنته، أو يربت على رأسه، وأحيانًا أخرى كان يحثه على الرحيل - ليس بقسوة - ويرفض أن يبقى قريبًا منه. لكنه سواءً أكان بمفرده أم برفقة هذا الصديق اللين المطواع، أو مع أولئك الذين يودون إحاطته بالتعزية وراحة البال مقابل أي تضحيات يقدمونها، أو كانت الأفكار قد هاودتهم وتمكنوا من إبتكار أي وسائل لطمأنته، كان في جميع الأوقات متشابهًا - زاهدًا كاسف البال لم يعد لديه أي رغبة أو حب للحياة الدنيا - رجلًا منفطر القلب.

في يوم ما بعد مدة طويلة، وجدوا أنه إستيقظ باكرًا، ورحل حاملًا حقيبته على ظهره، يتوكأ على عصاه بيده، وأن قبعتها التي إعتادت إعتمارها، وسلة صغير إعتادت على حملها مليئة بحاجياتها، قد إختفت. وحينما إستفاقوا على غيابه، وتأهبوا لملاحقته، أتاهم طالب مرتعبًا قال إنه رآه، ولكن في لحظة سابقة، جالسًا في الكنيسة، تحديدًا على قبرها.

سارعوا إلى هناك، ثم عرجوا ببطء إلى الباب، رأوه على مبعدة يجلس كشخص منتظرًا حدوث أمر بفارغ الصبر. حينها لم يزعجوه، بل مكثوا يراقبونه طوال ذلك اليوم. حينما هبط المساء، قام عن مجلسه، وعاد إلى البيت، ثم أوى إلى فراشه متمتمًا إلى نفسه: "ستأتي غدًا!". وحينما حل غده المنتظر، لبث هناك مرة أخرى منذ أول خيوط الفجر، حتى تسلل المساء، وعند عودته، مال إلى الراحة متمتمًا: "ستأتي غدًا!".

ومن ذاك اليوم فصاعدًا، كل يوم، وطوال اليوم، ينتظرها عند قبرها. كم عدد الرحلات الجديدة التي تجوب أنحاء الريف الخلابة، في أماكنه باعثة الراحة، وتحت سمائه الفسيحة، ويكثر فيها التجوال بين حقوله وأيكاته، ومساراته غير الموطوءة بكل خف وحافر! - كم عدد ألحان هذا الصوت القابع في الذاكرة! كم عدد اللمحات الوامضة للشكل والفساتين المرفرفة والشَّعر الذي يتموج بانسيابية مبهجة، مع دفقات النسيم! - كم عدد الرؤى التي حدث وتذكرها، وتمنى أن

تحدث ولمحها في باله! كم مرة تصور كل تلك الأمور أمامه في الكنيسة القديمة الرخيمة الباهتة! لم يخبر أبدًا أي أحد بأفكاره أو أين ذهب. يجلس معهم في المساء، شارد الذهن، غارقًا في تأمله الذي يضفي عليه رضًى سرِّيًا، كان لهم مرئيًّا، يرى نفسه معها هائمًا يفكران أي رحلة سيقومان بها قبل أن يهبط الليل مرةً أخرى، ولا يزالون يسمعونه يتهامس في صلواته: "يا رب! دعها تأتي غدًا!".

حانت المرة الأخيرة في يوم لطيف في الربيع. لم يعد في ساعته المعتادة، فهرعوا جميعًا للبحث عنه. وجدوه مستلقيًّا ساكنًا وافته المنية على حجرها. وضعوه في سلام إلى جانبها، في أكثر الأماكن التي أحبها، وفي الكنيسة التي صلَّى فيها كثيرًا، وعاش فيها سرور خيالاته.. يدًا بيد، الطفلة والرجل العجوز، راقدان معًا في سلام وإلى الأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثالث والسبعون

بَكَرَّةٍ سحريةٍ، دارت ودارت معها الأحداث، قادت المؤرخ إلى ذاك المكان البعيد، وآلت إلى أن تتراجع في وتيرتها وتتوقف. تسكن دون حراك قبل المغزى، فتَعَقُّب ما كان هو النهاية.
لم يبقَ سوى من كانوا محور الحشد الصغير، من نقلونا معهم طوال ذاك الطريق، وبسيرتهم تنتهي الرحلة.
كان من أهمهم براس وسالي، كتفًا بكتف، لفتا إنتباهنا المهذب.
السيد سامبسون.. كما علمنا بالفعل فقد تم إحتجازه، بعد أن إستدعاه القاضي، وإزاء طول مدة إقامته، التي لا يمكن أن يكون له حول أو قوة في رفضها أو عدم الإنصياع لها، كان في وضع ميؤوس منه، وبقي تحت الحراسة المشددة لردح من الوقت، وبسبب إهتمام مضيفه الكريم به، راقبه عن كثب، حتى صار منعزلًا إلى حد كبير عن المجتمع، لدرجة أنه لم يخرج من أجل التدريبات في الساحة المرصوفة. حسنًا! في الواقع، كانت سلوكياته الودودة الخجولة، وانكماشه في نفسه مفهومة من قِبَلِ أولئك الذين كان عليه التعامل معهم، وشعروا بالغيرة الحانقة من غيابه، طلبوا نوعًا ما من السندات الودية، ليعهدوا إليه باثنين من مديرات المنزل المحترفات مقابل خمسمائة جنيه، قبل أن يسمحوا له بترك رحابهم وحسن وفادتهم - على ما يبدو أنهم شكوا في أن يعود مرةً أخرى، إذا حدث وأطلق سراحه تحت أي ظرف من الظروف. صُدم السيد براس من مزحتهم الساخرة، وحاول بقدر ما إستطاع الإفلات من تهكماتهم، فبحث جاهدًا بين دائرة علاقاته الكبيرة، ووصل إلى زوج من أصدقائه، كانت ثروتهما مجمعة لا تقل عن النصف بنس ولن تزيد عن الخمسة عشر بنسًا، وعرضها عليهم على أنها كفالة - وهذه هي الكلمة المرحة التهكمية التي إتفق عليها الطرفان في النهاية.. وبعد أربع وعشرين ساعة من الهزل والفكاهة رفض هؤلاء السادة ما عرضه، وأفاد السيد براس بموافقته على البقاء، حتى إستدعته مجموعة من الأرواح المختارة تُدعى بهيئة المحلفين الكبرى - مَن كانوا في المزحة - إلى المحاكمة للمثول أمام اثني عشر آخرين بسبب تهم الحنث باليمين والإحتيال المنسوبة إليه، وأعلنوا بنشوة فرح متألقة أنه مذنب - ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل طالت نشوة الفرح جحافل الجماهير العريضة، وقتما حانت إحالته إلى مبنى المهرجين ممن هم على شاكلته، متجهًا لنقله بالعربة، ودعوه بتحيات متنوعة، قذفه البعض بالبيض الفاسد، والبعض الآخر بأشلاء الميتة، راغبين جميعهم في تمزيقه إربًا إربًا، مما زاد من هزلية الوضع إلى حد كبير، ما جعله يطلق سراح روحه المهذارة في أشد إستمتاع، بلا أدنى شك.
من أجل إنتشاء أطول مع هذا المزاج المرح، طالب مستشار السيد براس القانوني، بتخفيف الحكم، مستنجدًا برأفة القانون التي تطبق على المعترفين بجرائمهم، فما برح أن جرَّم نفسه منخدعًا بضمانات السلامة ووعود العفو، بعد المفاوضات الرسمية حيال تلك النقطة مع آخرين - كانت لهم طبيعة حاسمة، لا تسعهم المزايدة في روح الفكاهة - أُحيل إلى القضاة لإتخاذ قرار في شأنه، وفي هذا الوقت، نُقِل سامبسون إلى مقره السابق. وأخيرًا، تم تحصيل بعض النقاط لصالح سامبسون، والبعض الآخر ضده؛ فكانت الخاتمة أنه بدلًا من ترحيله قسرًا لبعض الوقت إلى بقاع أجنبية، سُمح له بالتنعم في بلده الأم تحت شروط معينة غير ذات أهمية.

يحق له أن ينعم بتلك الشروط لمدة سنوات، حيث ينتقل إلى قصر فسيح، يقيم ويسكن فيه سادة آخرون عالةً على المجتمع، مِمَّن يرتدون زيًّا رماديًّا مثاليًّا، وبعد فترة يتحول إلى الأصفر، وتحلق رؤوسهم، ويعيشون بشكل كامل على العصيدة والحساء الخفيف. كان مطلوبًا منه أيضًا أن يشاركهم في تدريباتهم، يصعد دون توقف درجات سلم لا نهائية، وخشية أن تكون ساقاه غير معتادتين على هذا الجهد، حريٌّ به أن يربط على كاحله تميمة أو حُلية حديدية. بعد أن تم الترتيب لهذه الشروط، نُقِل ذات مساء إلى مسكنه الجديد، مستمتعًا مع تسعة من السادة الآخرين، وسيدتين، بامتياز نقلهم إلى مكان تقاعده في إحدى العربات المَلَكية الخاصة.
وعلاوة على هذه العقوبات التافهة، تم دحض وجوده وشُطب إسمه من لائحة المحامين، دائمًا ما يكون هذا المحو في الأوقات الأخيرة تبكيتًا وإهانةً عارمة، وضمانًا لسلطة ممنوحة لبعض البسطاء العظماء - يبدو أن هذا هو الحال، بينما تبقى العديد من الأسماء عديمة الجدوى في أفضل سجلاتها دون تدخل.
الآنسة سالي براس.. تضاربت الشائعات حيال فِرارها إلى الخارج. قال البعض بثقة: إنها نزلت إلى أرصفة السفن متنكرة في ملابس رجال، وصارت بحارًا، وتهامس البعض الآخر بإبهام أنها تجندت سرًّا في الكتيبة الثانية في سلاح المشاة، فقد رأوها ذات مساء، تؤدي خدمتها بالزي الرسمي، منحنية على بندقيتها تنظر من كشك حراسة في حديقة سانت جيمس. راج الكثير من تلك الهمسات بشأن تلك التداولات، لكن الحقيقة الواقعية ظهرت وبينت أنه بعد مرور خمس سنوات، لم يكن هناك أي دليل مباشر يفيد رؤيتها على الإطلاق طوال تلك المدة، شوهد شخصان بائسان أكثر من مرة يتسللان عند الغسق من أوغل خبايا (سانت جايلز)، يمشيان على طول الشارع، بخطوات متعثرة وأرجل مرتجفة وهيئة مرتعبة، ينظران طوال الوقت في كل الطرق والممرات وفي وجار الكلاب، يبحثان عن فضلات الطعام، أو أي بقايا منثورة. لم يُلمح هذان الشخصان سوى في تلك الليالي الشتوية الباردة الحالكة، عندما تتجرأ الأرواح المجسدة للمرض والعلل والقحط، والأطياف المفزعة، التي ترقد طوال الأوقات الأخرى في المخابئ الوخيمة القذرة للندن، وعلى القناطر، وفي الأقبية والسراديب المظلمة، على التسلل إلى الشوارع. فقد همس من عرفوا أن هذين كانا سامبسون وأخته سالي، ويقال إنهما حتى وقتنا الحالي، أحيانًا ينسلان في الليالي الغاسقة، ولهما المظهر البغيض نفسه، بالقرب من سواعد السابلة المرتعدين.
بعد بحث لم تثمر نتائجه إلا بعد مرور بضعة أيام، عُثِر على جثة كويليب على الشاطئ بالقرب من المكان الذي جُرفت نحوه. كان الإفتراض العام أنه انتحر - يتراءى أن يكون ذلك طبقًا للطريقة التي مات بها أمرًا مستحسنًا - وأُعلن قرار المحكمة بناء على ما تمت الإفادة به. تُرك ليُدفن بوتد مغروس في قلبه في منتصف مفترق أربعة طرق مهجورة.
وتردد بعد ذلك، أنه تم الإستغناء عن هذه المراسم الرهيبة الهمجية، وأن الجثة سلمت سرًّا إلى توم سكوت، لكن الأقاويل في هذا الصدد انقسمت أيضًا، وقيل: إن توم عند منتصف الليل حفر وأخرجها، ونقلها إلى مكان أشارت إليه الأرملة. من المحتمل أن كلتا القصتين كان أصله في حقيقة بسيطة وهي أن توم ذرف دموعًا طوال البحث، وفعلًا كان ذلك ما فعل، وهو ما بدا أمرًا غير عادي. علاوةً على ذلك، أظهر رغبة قوية في الإعتداء على هيئة المحلفين، فتم قمعه وإبعاده عن المحكمة، التي أظلم نافذتها الوحيدة، واقفًا على رأسه على حافتها، إلى أن مال بقدميه بمهارة مبتعدًا بفضلٍ شمَّاس كنيسة متحفظ.

وبسبب أنه ألقيَّ في رحاب العالم الفسيح بعد موت سيده، قرر أن يشق عالمه على يديه ورأسه، وبناءً عليه بدأ يتشقلب بحثًا عن قوت يومه. وجد أن جنسيته الإنجليزية ستكون عقبة لا تُقهر تحول بينه وبين مسعاه - على الرغم من أن فنه كان مفضلًا ذا شهرة عالية - إعتمد لنفسه اسم فتى إيطالي، تعرف عليه، وبعد ذلك اشتُمل بنجاح إستثنائي باهر، يتشقلب وسط جحافل الجماهير.
لم تغفر السيدة كويليب الشابة لنفسها أبدًا الخداع الوحيد الذي إقترفته، وقد أثقل كاهلها، وأحزن ضميرها، ولم تتكلم عنه أو تفكر فيه دون أن تذوق مرارة الدموع. لم يكن زوجها من ذوي القربى، فصارت غنية. لولا أنه كان بلا حول ولا قوة، ربما كادت أن تكون من المدقعين. وبعد أن تزوجت للمرة الأولى بإيعاز من والدتها، وشهدت ما آل إليه حالها، قررت ألا تسمع لأي أحد على الإطلاق سوى نفسها في خيارها الثاني. وقد وقع على شاب أنيق ذكي بالحد الكافي؛ وضع شرطًا تمهيديًا وهو أن السيدة جينيوين من وقته فصاعدًا سنكون خارج حياتهما، فعاشا معًا بعد زواجهما حياة هنيئة لم يزد الشجار فيها عن المعدل الطبيعي، ناعمين في حياة مرحة بأموال القزم الميت.
إستأنف السيد والسيدة جارلاند والسيد هابيل حيواتهما بنفس المنوال الذي عرفناه - باستثناء أنَّ تغييرًا قد حدث بالنسبة إلى سكان البيت ستعرفه فيما بعد - وعندما حان الوقت المناسب، صار الأخير شريكًا لكاتب العدل، وبسبب هذه المناسبة، أقاموا حفلًا راقصًا، وعشاءً، وأسرفوا في الملذات.. وحدث أن أكثر الشابات توردًا بالحياء شُوهدت على الإطلاق دُعيت إلى ذلك الحفل الراقص، وحدث أن السيد هابيل قد وقع في غرامها. كيف حدث هذا؟ كيف تلاقيا؟ كيف اكتشفا حبهما؟ أو أي منهما لفت نظر الآخر حيال إكتشافه لأول مرة! لم يعلم أحد. لكن ما كان مؤكدًا، أنهما تزوجا في الوقت المناسب، وما كان مؤكدًا أيضًا أنهما كانا أسعد السعداء، وما لم يقل يقينا عن كل ذلك، أنهما استحقا ذلك فعلًا. ومن المبهج أن أكتب أنهما كونا أسرة؛ لأن أي تكاثر للخير والإحسان، لن يكون بالإضافة الهينة للمجتمع الأرستقراطي، ولن يكون موضوعًا عابرًا لإبتهاج البشرية جمعاء.
بكل وقار حافظ المهر على إستقلالية شخصيته ومبدئه المعهود حتى آخر لحظة في حياته، وقد كانت طويلة بشكل غير معتاد، صار كأنه بار ([27]). المهور، ركض جيئةً وذهابًا بعربته الصغيرة بين السيد والسيدة جارلاند وابنهما، وعندما كان الكبار والصغار يجتمعون معًا في كثير من الأحيان، صارت لديه حظيرة خاصة في البيت الجديد، مشى فيها خببًا كيفما حلا له بجلاله المدهش. تنازل ولعب مع الأطفال، الذين كبروا بالقدر الكافي ليحوزوا على صداقته، فصار معهم يركض هنا وهناك في المرعى الصغير مثل الكلب، على الرغم من أنه كان مسترخيًا معهم لدرجة كبيرة، وسمح لهم بحرية في التعامل كالملاطفة والتربيت، أو حتى النظر إلى حدوثه أو التعلق في ذيله، لم يسمح لأحد منهم قط أن يمتطيه أو أن يستحثه على السير، مبينًا أنه حتى المعرفة والألفة يجب أن يكون لها حدودها، وأن هناك نقاطًا بينهما شديدة الجدية لا يمكن العبث بها.
حينما إنتقل العازب الطيب حامل البكالوريا ليعيش مع السيد جارلاند عند وفاة الكاهن، لم يكن غير قابل لإنشاء صداقات ودية في حياته اللاحقة، فقد كوَّن معه صداقة حميمة، لدرجة أنه خضع بشكل ودي إلى أن يسوقه بيديه دون أقل مقاومة. توقف عن العمل لمدة سنتين أو ثلاث

سنوات قبل وفاته، لكنه عاش في ترف، وكان آخر فعله - كسيد نبيل عجوز غضوب - هو ركل طبيبه.
تعافى السيد سويفيلر من مرضه ببطء شديد، ومع أول إستلام لمعاشه، إشترى للماركيزة من فوره مخزونًا من الملابس الأنيقة، وألحقها بالمدرسة من توه، وفاءً للنذر الذي أوجبه على نفسه حينما كان على سريره محمومًا. وبعد أن أسهب في التفكير لبعض الوقت عن إسم قيم يليق بها، قرر باستحسان أن يسميها: "صوفرونيا سفينكس". لكونه حسن الوقع على الأذن، ولطيف، علاوة على أنه يضفي إيحاء دلاليًا بالغموض. وبهذا الإسم، أُعدت الماركيزة بالدموع للإلتحاق بالمدرسة التي إختارها، فلم تلبث سوى القليل، وقد هزمت كل منافسيها، وانتقلت قبل إنقضاء فترة طويلة إلى درجة أعلى. لن يكون إلا عدلًا ذكر أنه على الرغم من أن نفقات تعليمها أبقت السيد سويفيلر في ظروف صعبة لمدة ست سنوات متتالية، إلا أنه لم يتباطأ عن دفعها قط، ولم تقل حماسته بشأنها مطلقًا، بل دفع مكافآت بالقدر الكافي؛ يتوق دائمًا إلى سماع أخبار تقدمها بشغف واهتمام كبير، أثناء زيارته الشهرية للمربية، التي لطالما كانت تنظر إليه على أنه رجل أدب ذو عادات غير نمطية، صاحب موهبة مذهلة غير مسبوقة في الإقتباس.
باختصار، يمكننا القول بأنَّ السيد سويفيلر أبقى الماركيزة في تلك المؤسسة إلى أن بلغت من العمر تسعة عشر عامًا كاملة - حسب أفضل التقديرات - وأصبحت حسنة المظهر وذكية ذات خلق حسن، وحينها بدأ يفكر بجدية فيما يجب عليه فعله بعد ذلك. في إحدى زياراته الدورية، بينما كان يدور هذا السؤال في ذهنه، أتته الماركيزة بمفردها، بدت مفعمة بالحياة، مبتهجة الأسارير أكثر من أي وقت مضى. خطر على باله - ليس للمرة الأولى - ماذا لو يتزوجها، كم سيعيشان مع بعضهما سعداء مرتاحين! لذا، سألها ريتشارد، وبناءً على ردها، الذي لم يكن أبدًا بالرفض، تزوجا ذات يوم في أسبوع، أمد السيد سويفيلر بداعٍ مستمر للتدبر في فترات عديدة لاحقة، أنه لطالما كانت هناك شابة جميلة مدخرة له طوال ذلك الوقت وبعد كل شيء.
بعد أن إنتهى شهر العسل، تملَّك فيلا صغيرة في هامبستيد، وجد في حديقتها غرفة تدخين، سمح لغابط العالم المتحضر بأن يسكنها. أوى السيد تشوكستر إلى هذا الملجأ بانتظام كل أيام الأحاد؛ ليقضي يومه هناك - عادةً يبدأ بوجبة الإفطار - حينها كان المتعهد الأكبر بنقل أخبار العامة والمعلومات العصرية.
كمنت في قرارة نفسه لبضع سنوات عداوة بغضاء نحو كيت؛ معلنًا أن رأيه فيه وقتما كان من المفترض أنه سرق الخمسة جنيهات كان ولا يزال سديدًا، بل أصرَّ عليه أكثر حين إعلان براءته الكاملة من إرتكاب الجريمة؛ بقدر ما كان إثبات إدانته سيدل على الجرأة والتجاسر، صارت براءته دليلًا آخر على تصرفاته الماكرة الغادرة. لكنه رويدًا رويدًا تصالح، في النهاية، بل حدث ما هو أكثر من ذلك، فقد أجلَّه في محاباة؛ كشخص تائب أصلح من نفسه، وبالتالي يجب أن يغفر له. لكنه أبدًا لم ينس ما حدث في أمر الشلن ولم يعذره، مع العلم أنه إذا كان قد أتى ليتحصل على شلن آخر، لكان فعله في نظره عملًا جيدًا بما فيه الكفاية، لكن عودته للعمل من منطلق عطيته السابقة كانت في نظره وصمة على شخصيته الأخلاقية التي لا يمكن أن تمحوها توبة أو ندم.
كثيرًا ما تجلَّى السيد سويفيلر - ذو النظرة الفلسفية والفكر التأملي - في غرفة التدخين، وشغل عقله في كثير من تلك الفترات بمناقشة نفسه في السؤال الغامض المتردد على عقله بخصوص والدي صوفرينا. على الرغم من أن صوفرينا افترضت أنها يتيمة، حاول السيد سويفيلر تدبر شتى

الأحداث وإن كانت طفيفة وربطها ببعضها، لدرجة أنه فكر في أن الآنسة براس غالبًا ما كانت تعرف أين تكمن الحقيقة، وخاصةً أنه كثيرًا ما سمع من زوجته عن مقابلاتها الغريبة مع المدعو كويليب، وقد خامرته الشكوك المختلفة، لكنه رأى أن ذاك الشخص وإن كان لا يزال على قيد الحياة، لن يتمكن أيضًا من حل اللغز، عمومًا، لم تكن تلك التكهنات مصدر إزعاج؛ فقد كانت له صوفرينا زوجة مبهجة عطوفة حنونة، وكان لها ديك - باستثناء الخصومات العرضية التي كانت تندلع بينه وبين السيد تشوكستر، وفضلت أن تشجعها بدلًا من معارضتها - زوجًا محبًّا أنيسًا. لعبا معًا الكريبج مئات الآلاف من المرات. ودعونا نضيف على شرف ذكر ديك، أنه على الرغم من أننا دعوناها باسم صوفرينا، لم يكن يدعوها منذ البداية وإلى النهاية سوى بالماركيزة، ومع كل ذكرى سنوية لليوم الذي إستيقظ فيه مبروءًا من علته ووجدها في غرفته، كان يعد عشاءً كبيرًا تمجيدًا لفضلها، ويدعو إليه السيد تشوكستر.
بالنسبة لمَن لم ترتق ذكراهم إلى النسيان، أولئك المقامرين، إسحاق ليست وجول والمتضامن معهما جيمس جروفز، فقد إستكملوا حياتهم بنفس النهج، وبنجاحات متفاوتة، حتى فرقهم إفلاس تدابيرهم الحماسية، وشتتهم في مختلف الإتجاهات، وتسبب في تعرض مسيرتهم المهنية لبطش يد القانون التي طالتهم جميعًا. لكن أساس هذه الهزيمة الشنعاء، كان شريكًا جديدًا صعب المراس إنضم إليهم - الشاب فريدريك ترينت - الذي أصبح الأداة اللا واعية التي أدت إلى عقوبتهم وعقوبته على حد سواء.
أما بالنسبة إلى الشاب نفسه، فقد قام بأعمال شغب كثيرة في الفترة القصيرة التي قضاها بالخارج، خلالها عاش معتمدًا على ذكائه - بقصد أنه اعتمد على الفارق الوحيد الذي ميزه عن الحيوانات الضارية، لكنه أساء إستخدامه، فرزح في مكانة أسفل منها بكثير. لم يمضِ وقتٌ طويل، حتى تعرف على جثته غريب، صادف أنه كان في زيارة لتلك المستشفى في باريس، التي يعهد إليها بالغرقى، على الرغم من الكدمات والتشوهات التي قيل أن مشاجرات مسبقة سببتها. لكن الغريب تحفظ في أقواله، وعاد إلى البيت، ولم يذع أو يكترث البتة.
الأخ الأصغر، أو وفقًا لما هو مألوف لنا أكثر، الرجل الأعزب. حاول الرجل الأعزب جاهدًا أن يصطحب معه المعلم المسكين وينتشله من حياة الفقر ومعيشته بمفرده، ويجعله خليله ورفيقه. لكن المعلم القروي المتواضع كان خجولًا منطويًا، لا يحبذ صخب العالم، ولا يجسر على خوض تلك المغامرة، علاوةً على أنه صار منتميًا إلى مسكنه في ساحة الكنيسة القديمة. سعيدًا بهدوء مدرسته، وسكون مكانه، بجانب ضريح الصغيرة، واصل نهج حياته في سلام، مشمولًا بفضل إمتنان صديقه الصالح له - إذا كان هذا القول الموجز كافيًا لم يعد المعلم المسكين بعد.
أما عن صديقه - الرجل الأعزب - أو الأخ الأصغر، فعانى من غصص محزنة في قلبه، لكنها لم تضعفه ولم تُلقِ به في ظلمات الكآبة، أو تلحقه بحياة الرهبنة. بل جاب العالم على ذكراهما. لفترة طالت مدتها، صاحبته السعادة، سعى في دروب الرجل العجوز والطفلة، طاف في تلك الأماكن التي خطوا عليها - بقدر ما إستطاع تتبع تلك الأماكن من روايتها الأخيرة - يقف في المكان الذي وقفا فيه، مشمولًا بعواطف متأججة، يتعاطف مع ذكرى المآسي التي عانياها، يبتهج مع ذكرى أسعدتهما. لم ينسَ أبدًا في رحلة بحثه عن أولئك الذين أوجدوا للفرح طريقًا لقلبيهما. إلتقى بالأختين من المدرسة - مَن ذكرت أنهما كانتا صديقتيها العزيزتين - وقد كانتا بلا أصدقاء -

السيدة جارلي من معرض أعمال الشمع - كودلين والقصير، لقد وجدهم جميعًا.. وثِق فيَّ؛ لم يكن الرجل الذي أطعم نيران الفرن طي النسيان أبدًا.
راجت قصة كيت عبر البلاد وإلى الخارج، وصار له جمهور يدعمونه، وتعويضًا عما حدث له، توافدت عليه عروض لتأمين حياته المستقبلية. حينها لم يأخذ بعين الإعتبار كافة تلك العروض، ولم يخطر على باله قط أن يترك خدمة السيد جارلاند، لكنه بعد جدال وإقناع طويل كان بنفس الجدية من السيد نفسه، بدأ يفكر في إمكانية حدوث مثل هذا التغيير في الوقت المناسب. تم تأمين وظيفة له، مال إليها عقله، وخُطفت بسببها أنفاسه، قد وفرها له بعض السادة النبلاء، ممن ظنوا في بادئ الأمر أنه مذنب مدان بالجريمة التي نُسبت إليه، وتصرفوا بناءً على هذا الإعتقاد. ومن خلال الوكالة نفسها، تم تأمين حياة والدته من العوز، وأنعموا عليها بحياة سعدت فيها. وهكذا، كما قال كيت فإنَّ كربته الكبرى كانت مصدر نعيمه اللاحق.
لكن السؤال هنا، هل ظل كيت شابًا عازبًا طوال هذا الوقت، أم تزوج؟ بالطبع تزوج، ومن يجب أن تصير له زوجًا غير باربرا؟ لكن أفضل ما كان في الأمر، أنهما تزوجا سريعًا، وسرعان ما أصبح جايكوب الصغير عمًّا، قبل أن تُغطى ربلة ساقيه - التي ذكرت في تاريخ روايتنا - ببنطلون من الجوخ. لكن هذا لم يكن الأفضل؛ لأن من كان رضيعًا صار عمًّا أيضًا، تجاوزت سعادة والدة كيت ووالدة باربرا بفضل تلك المناسبات العظيمة حدود الوصف، وقويت علاقتهما أكثر فأكثر من بعد هذا الموضوع، أو من قبله بمراحل، ومن ذلك الوقت فصاعدًا، عاشتا معًا متناغمتين في إنسجام وأمان الصداقة. ألم يذهبوا جميعًا للإستمتاع بعروض مسرح أستلي.. ألم تستمر والدة كيت في قول: "إن ذلك سيقودهم إلى الذنوب والمهلكات"، بينما كانوا في طريقهم، وأن حيلة كيت الأخيرة قد لاقت نفعًا في هذا الصدد، فيتساءل بما سوف يشعر المدير إذا علم ذلك عندما يمرون بمنزله!
عندما بلغ ابنا كيت سن السادسة والسابعة، شابها باربرا إلى حد كبير، ويا لجمال باربرا وحسن حظهما! لأنهما كانا في غنى عن أن يكونا صورة طبق الأصل من عمهما جايكوب الصغير أو أن يشبهاه في تلك الأوقات البعيدة، عندما علَّموه ماذا يعني المحار. بالطبع كان أحدهما إسمه هابيل - الإبن بالمعمودية للسيد جارلاند - والآخر ديك تيمنًا بالسيد سويفيلر صاحب الفضل الكريم. غالبًا ما كانا يحدقان فيه؛ يرجوان منه أن يقص عليهما حكاية الأنسة نيل الجميلة التي ماتت. فيفعل، وحينما ينتهي يصرخان؛ متمنين أن يقص عليهما المزيد، ويستأنف حكايتها، ويقص عليهما كيف ذهبت إلى الجنة، مثل باقي الأخيار الصالحين، وماذا لو حاذيا حذوها، سيتمكنان من رؤيتها، يتمنيان لو كانا معها ذات يوم، وتعرفا عليها كما فعل عندما كان صغيرًا. فيخبرهما كيف اكتنفته وقت حاجته، وكيف علمته عندما كان فقيرًا ليتعلم، وكيف إعتاد الرجل العجوز أن يقول: "عادةً ما تضحك لكيت"، فيكفكفان دموعهما، ويبتسمان متخيلين ضحكتها، وتتهلل وجوههم جميعًا ببغتةً بفرحة شاملة.
أحيانًا كان يصطحبهما إلى الشارع الذي عاشت فيه، لكن التعديلات الجديدة غيرت من معالمه كثيرًا، فلم يبرح كما كان. منذ فترة طويلة، هُدِم البيت القديم، ورُصِف مكانه طريقٌ واسع عريض. في البداية كان يخط لهما بعصا المكان الذي كان منتصبًا فيه. لكنه مع مرور الوقت، صار غير متأكد من مكانه، ولم يعد بإمكانه سوى أن يقول إنه كان بالجوار في مكان قريب من هنا، محدثًا نفسه بأن تلك التعديلات مربكة إلى حد بعيد.

فمثل تلك التغيرات التي طرأت، والأشياء التي سُوِّيت، كمثل القصة التي سُردت!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت الرواية بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞




متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس الجزء الثاني

Notes

[←1]

(1) رمز لعيد القديسين.

[←2]

(2) صيحة الصيد أو القنص عند الإنجليز. 3)

[←3]

(3) رواية للكاتب دانيال ديفو، عبارة عن سيرة ذاتية تخيلية، تحكي عن شاب انعزل في جزيرة وحيدًا دون أن يرى أحدًا من البشر.

[←4]

(4) قصيدة (أليس جراي) لويليام مي.

[←5]

(5) الشِّعر التروبادوري الأوكسيتاني يتغنى فيه الشاعر الجوَّال بالمرأة ويمجدها.

[←6]

(6) جورج دي بوفون: مؤرخ طبيعي ورياضيتي وعالم كون فرنسي.

[←7]

(7) أواخر إصدارات الجنيه كانت في أوائل القرن التاسع عشر، حينها كان الجنيه يساوي 21 شلنًا، والجنيه الإسترليني يساوي 20 شلنًا.

[←8]

(8) كان يتم ربط المدانين بالخيانة العظمى للسلطة الملكية بلوح من الخشب ويتم سحبهم بحصان إلى مكان شنقهم، ثم تقطع أطرافهم الأربعة.

[←9]

(9) خلال العصر الإليزابيتي كان القساوسة الكاثوليك الإنجليز من بين المدانين.

[←10]
(10) سيف الزوايهاندر، وسبب تسميته لأنه يحتاج فعلًا إلى اليدين لحمله بسبب حجمه الضخم يبلغ وزنه قرابة 2-3 كجم أما طوله فيصل إلى 180 سم.

[←11] (11) نوع من أنواع المسرحيات: يميل إلى تكثيف المشاعر وتأديتها بشكل عاطفي مأسوي.

[←12]

(12) مسرحية هاملت.. الفصل الثالث المشهد الثاني.

[←13]

(13) لحديث موركشيو سباق مطاردة الإوزة البرية.. اقتباس من مسرحية (روميو وجوليت) لشكسبير في الفصل الثاني المشهد الرابع، ولا يقصد به صيد الإوز.. إنه سباق خيل، تتبع فيه الخيول حصانًا رئيسًا على مسافة محددة.. في محاكاة لسرب الإوز البري.

[←14]

(14) كيت: كمان البوتشيني.. كمان صغير الحجم يمكن وضعه في الجيب، شاع في القرن التاسع عشر في البلاط الملكي وأماكن النبلاء، واستخدم أيضًا من قبل راقصي الشوارع.

[←15]

(15) السيرافيم - كما ذُكر في سفر إشعياء-: ملائكة سامون يخدمون الرب ويحيطون بعرشه يترنمون ويرددون (قدوس قدوس..)، "فَطَارَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنَ السَّرَافِيمِ وَبِيَدِهِ جَمْرَةٌ قَدْ أَخَذَهَا بِمِلْقَطٍ مِنْ عَلَى الْمَذْبَحِ، وَمَسَّ بِهَا فَمِي وَقَالَ: "إِنَّ هذِهِ قَدْ مَسَّتْ شَفَتَيْكَ، فَانْتُزِعَ إِثْمُكَ، وَكُفِّرَ عَنْ خَطِيَّتِكَ"" (إشعياء 6: 6.7)، وغالبًا ما يُقال للأشخاص ذوي الوجوه اللطيفة البريئة سيرافيون أو لوصف أي نوع من الموسيقى أو الفن الحالم.

[←16]

(16) مسرحية تراجيدية لويليام شكسبير.

[←17]

(17) أغنية بريطانية لأطفال الروضة.. على الرغم من التكهنات العديدة حول هوية الملك وربطها بشخصية تاريخية أبرزها الملك كويل هين، غير أن اسمه كان له وضع خاص في المسرح الإليزابيثي.

[←18]

(18) لعبة بطاقات جاك: الولد في ورق الكوتشينة.

[←19]

(19) إبنة زيوس وليدا في قصائد هوميروس.

[←20]

(20) عقوبة بديلة للشنق خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في بريطانيا، ينقل المجرمون المدانون إلى مستعمرات لقضاء عقوباتهم في السجن، وبعد انقضاء مدة عقوبتهم - إن لم تكن للأبد - يسمح لهم بالعودة إلى البلاد، ولكن على نفقتهم الخاصة.

[←21]
(21) في لعبة الكريبج يقطع لاعب غير الموزع مجموعة الأوراق لتحديد الورقة العليا ثم يقلبها الموزع إذا كانت ورقة القطع ولد يحصل الموزع على نقطتين فورًا.

[←22]

(22) أغنية شعبية إنجليزية.

[←23]

(23) مرنطة قصبية أو أروروت: حظيت بشعبية كبيرة في العصر الفيكتوري توجد في مكونات البسكويت وحلوى البودنغ والجيلي، وكانت تُغلى كغذاء سهل الهضم.

[←24]

(24) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 12:20 “فإن جاع عدوك فأطعمه، وإن عطش فأسقه؛ لأنك إن فعلت، تجمع جمر نار على رأسه”.

[←25]

(25) إدوارد ويليام كلاي 1831 مقطوعة هجائية "قضية بيتيكوت. قضية إيتون".

[←26]

(26) جنبة من الأساطير الإيرلندية تنذر بوفاة أحد أفراد الأسرة عن طريق الصراخ المتواصل أو النواح، وقد يعلو صوت نحيبها لدرجة أنه يحطم الزجاج.

[←27]

(27) توماس بار: رجل إنجليزي عاش 152 عامًا.